المنهج التربوي للسيرة النبوية

٥

التربية القيادية

السابقون الأولون من الأنصار

د. منير الغضبان

الجزء الثاني

دار الوفاء

التربية القيادية

السابقون الأولون من الأنصار

الطبعة الرابعة

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ ج.م.ع ـ المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠

ت :٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

المنهج التربوي للسيرة النبوية

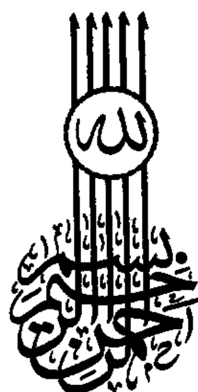
٥

التربية القيادية

السابقون الأولون من الأنصار

الجزء الثاني

منير الغضبان


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى جيل الصحوة الإسلامية المعاصرة

الذى يبحث عن قيادات

أهدى هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فهذا هو الجزء الثانى من « التربية القيادية » فى المنهج التربوى للسيرة النبوية . والذى يعتبر الجزء الخامس فى السلسلة .

وقد تناول الجزء الأول : بناء وصياغة السابقين من المهاجرين .

ويتناول هذا الجزء : بناء وصياغة السابقين الأولين من الأنصار . والذين انتظم بهم مع السابقين الأولين من المهاجرين سلك « البدريين » ومن وازاهم . والذين يمثلون خيرة هذه الأمة . بعد الأربعة الراشدين ، والعشرة المبشرين .

وسيكون الحديث على عمليات البناء هذه من خلال السيرة النبوية ، ويتناول الفريقين معاً ـ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ـ فى العهد المدنى ؛ لأن عملية التربية القرآنية والتربية النبوية لم تنقطع بل مثلت التربية المستمرة ، حتى التحق رسول الله ﷺ بجوار ربه الأعلى ، وخيِّر فاختار : بل الرفيق الأعلى فى الجنة .

لكن بقى البدريون هم بدور هذه الأمة وأعلامها .

فهم خيرة الأمة بلا منازع .

ففى صحيح البخارى : إن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ: ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » . قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة (١) .

وفى الصحيحين ـ أيضاً ـ أن النبى ﷺ قال :« لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »(٢).

وهم أهل الحل والعقد فى الأمة ، أى هم قادتها الكبار الذين ترجع إليهم إدارة شؤونها واختيار خليفتها .

(يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حين هم عمر رضي الله عنه أن يخطب فى الناس فى

---

(١) البخارى ٥/١٠٣ باب شهود الملائكة بدراً .

(٢) البخارى ٥/٩٩ ، ومسلم ٤/١٩٤١ .

موسم الحج حول ظروف اختيار الخليفة الأول. يقول لعمر :

يا أمير المؤمنين ، إن الموسم يجمع رعاع الناس ، وإنى أرى أن تمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة ، وتخلص لأهل الفقه وأشراف الناس وذوى رأيهم . قال عمر : لأقومن فى أول مقام أقومه بالمدينة) (١).

فالسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم أشراف الناس وذوو رأيهم .

وعند أمير المؤمنين على رضي الله عنه :

(فرجعوا إلى على فقال على : إنما الناس مع المهاجرين والأنصار - فهم شهود الناس على ولايتهم وأمر دينهم ورضوا وبايعونى . ولست أستحل مثل معاوية أن يحكم على الأمة ويشق عصاها . فرجعوا إلى معاوية فقال : ما بال من ها هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا فى هذا الأمر ؟ فرجعوا فقال على : إنما هذا للبدريين دون غيرهم، وليس على وجه الأرض بدرى إلا وهو معى وقد بايعنى وقد رضى) (٢) . وينصب الحديث هنا على السابقين الأولين من الأنصار ، لنقف بعدها على أعتاب بدر فى الجزء الثالث إن شاء اللّه . ونشهد صياغة هذا الجيل الرائد القائد خطوة فخطوة .

واللّه الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

(١) البخارى ٤/ ٢٦٥ باب مقدم النبى ﷺ وأصحابه المدينة .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٢٧٠ سنة سبع وثلاثين .

الفصل الأول

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

شهدنا فى نهاية الجزء السابق رحلة الطائف مع رسول الله ﷺ . وكيف كانت المواجهة العنيفة من ثقيف وقيادتها للدعوة ولسيِّد الدعاة . وبقيت على الخط الذى سارت عليه قريش . فلم يكن أمام النبى ﷺ ـ بعد أن وصل إلى الطريق المسدود فى مكة والطائف ـ إلا أن يبحث عن أرض جديدة للدعوة ، تفتح الجدر السميكة ، وتشرع النوافذ المغلقة أمام الدعوة وانتشارها فى الأرض العربية .

ولم يكن عليه الصلاة والسلام ـ بناءً على الخطة الجديدة ـ ليدع أى مناسبة من استغلالها لتحقيق هذا الهدف . فالصلة بالوفود التى تأتى مكة ، معتمرة أو حاجة فى المواسم العامة وغيرها ، بل السير إلى الأسواق العربية المشهودة للبحث عن أرض جديدة للدعوة .

ولنشهد هذه التحركات جميعاً من خلال أحداث السيرة .

١ ـ قال جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ : كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه بالموقف فيقول : « ألا رجل يحملنى إلى قومه . فإن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى »[(١)].

٢ ـ وقال ابن إسحاق : (ثم قدم رسول الله ﷺ مكة ـ أى من الطائف ـ وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به . وكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه فى المواسم ـ إذا كانت ـ على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدِّقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله عز وجل ما بعثه به[(٢)].

٣ ـ وروى ابن إسحاق والبيهقى والإمام أحمد وابنه عبد الله والطبرانى برجال ثقات عن ربيعة بن عبَّاد قال : إنى لغلام شاب مع أبى بمنىً ، ورسول الله ﷺ يقف

---

(١) سنن أبى داود ، ك السنة ، ب ٢٠ ،والترمذى ، ك ثواب القرآن ، ب ٢٤ ، وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٧٣ .

على القبائل من العرب فيقول : « يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً . وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد . وأن تؤمنوا بى وتُصَدِّقونى وتمنعونى حتى أبيّن عن الله عز وجل ما بعثنى به » . والناس متعصفون عليه ، ما رأيت أحداً يقول شيئاً وهو لا يسكت . قال : وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان ، عليه حلة عدنية . فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل : يا بنى فلان إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءهم من الجن وبنى مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة . فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه . فقلت لأبى : يا أبتِ ، من هذا الرجل الذى يَردُّ عليه ما يقول ، يتبعه حيث ذهب ورسول الله ﷺ يفر منه ؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب) (١) .

وروى الطبرانى عن طارق بن عبد الله قال : إنى بسوق ذى المجاز إذ مرّ رجل بى عليه حلّة من برّ أحمر وهو يقول : « يا أيها الناس،قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . ورجل خلفه قد أدمى عرقوبيه وساقيه يقول : يا أيها الناس إنه كذاب فلا تطيعوه . فقلت : من هذا ؟ قالوا : غلام بنى هاشم الذى يزعم أنه رسول الله ، وهذا عمه عبد العزى .

وروى البخارى فى تاريخه والطبرانى فى الكبير ـ واللفظ له ـ عن مدرك بن منيب العامرى عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ فى الجاهلية وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ، فمنهم من تفل فى وجهه ، ومنهم من حثا عليه التراب ، ومنهم من سبَّه . حتى انتصف النهار فأقبلت جارية بعُسّ من ماء فغسل وجهه ويديه وقال : « يا بنية ، لا تخشى على أبيك غلبة ولا ذلة » . فقلت : من هذه؟ قالوا : زينب بنت رسول الله ﷺ وهى جارية وضيئة) (٢).

(وذكر ابن إسحاق عَرْضَه ﷺ نفسه الكريمة على كِنْدَة ، وكلب ، وبنى عامر بن صعصعة ، وبنى حنيفة ، قال : ولم يكن أحد من العربِ أقبح ردا عليه منهم) (٣) .

زاد الواقدى : وعلى بنى عبس وغسّان ، وبنى محارب ، وبنى فَزَارة ، وبنى مُرَّة وبنى سُلَيم ، وبنى مُضَر بن هوازن ، وبنى ثعلبة بن عكاية ، وبنى الحارث بن كعب وبنى عُذرة ، وقيس بن الخطيم ، وساق أخبارهم .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٧٤ ، والمسند ٣/ ٤٩٢ . والحديث صحيح بطرقه كما تم تخريجه فى السيرة.
(٢) التاريخ الكبير للبخارى ج٤ من القسم الثانى ج٢ . مدرك بن منيب روى عنه ابنه منيب .
(٣) السيرة النبوية ٢/ ٧٥ .

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن عامر بن سلمة الحنفى وكان قد أسلم فى آخر عمر النبى ﷺ أنه قال: نسأل اللّه ألا يحرمنا الجنة . لقد رأيت رسول اللّه ﷺ جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ومجنّة وبذى المجاز يدعونا إلى اللّه عز وجل ، وأن نمنع له ظهره حتى يبلّغ رسالات ربه ويشرط لنا الجنة ، فما استجبنا له ولا رددنا عليه رداً جميلاً . فخشّنا عليه وحلُم عنا . قال عامر : فرجعت إلى هجر فى أول عام ، فقال لى هودة ابن على : هل كان فى موسمكم هذا خبر ؟ قلت : رجل من قريش يطوف على القبائل يدعوهم إلى اللّه تعالى وحده . وأن يمنعوا ظهره حتى يبلّغ رسالة ربه ولهم الجنة فقال هودة : من أى قريش هو؟ قلت : هو من أوسطهم نسباً من بنى عبد المطلب. قال هودة : أهو محمد بن عبد المطلب؟ قلت : هو هو . قال : أما إن أمره سيظهر على ما هاهنا . فقلت : هنا فقط من بين البلدان ؟ قال : وغير ما ها هنا. ثم وافيت السنة الثانية هجر . فقال : ما فعل الرجل ؟ فقلت : واللّه رأيته على حاله فى العام الماضى، قال : ثم وافيت فى السنة الثالثة . وهى آخر ما رأيته . فإذا بأمره قد أَمِرَ وإذا ذكره كثر فى الناس . الحديث .

وروى الحاكم والبيهقى وأبو نعيم وقاسم بن ثابت عن على رضي الله عنه قال:

لما أمر اللّه عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه. فذكر الحديث إلى أن قال : ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار . فتقدم أبو بكر فسلّم فقال : من القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول اللّه ﷺ وقال : بأبى وأمى هؤلاء غرر الناس ، وفيهم مفروق بن عمرو ، وهانئ بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق قد غلبهم لساناً وجمالاً ، وكان له غديرتان تسقطان على تريبته (١) ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر . فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال مفروق : إنا لا نزيد على الألف . ولن تُغلب ألف من قلة . فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟ فقال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب . وإنا لنُؤثر الجياد على الأولاد . والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند اللّه يديلنا مرة ويديل علينا أخرى ، لعلك أخا قريش ؟ فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول اللّه ﷺ فها هو هذا . فقال مفروق : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأنى عبد اللّه ورسوله ، وإلى أن تؤوونى وتنصرونى ، فإن قريشاً قد تظاهرت على اللّه ، وكذّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن

(١) التريبة : عظم الصدر .

الحق ، والله هو الغنى الحميد » .

فقال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا . فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾(١).

فقال مفروق : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا عليك .

ثم ردّ الأمر إلى هانئ بن قبيصة ، فقال : وهذا هانئ شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش . وإنى أرى تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أول له ولا آخر لزلل فى الرأى ، وقلة نظر فى العاقبة . إن الزلّة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر .

ثم كأنه أحب أن يشرك المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى ـ وأسلم بعد ذلك ـ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا ومتابعتنا دينك . وإنا إنما نزلنا بين صربين أحدهما اليمامة ، والآخر السماوة .

فقال له رسول الله ﷺ : أنهار كسرى ومياه العرب . فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ماكان مما يلى مياه العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً . وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه يا أخا العرب مما تكرهه الملوك . فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : « ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه . أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم . أتسبحون الله تعالى وتقدسونه ؟ » ، فقال النعمان : اللهم فلك ذلك.

فتلا عليهم رسول الله ﷺ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ (٢)) (٣) .

---

(١) الأنعام / ١٥١ .
(٢) الأحزاب / ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٩ .

وروى سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى فى مغازيه عن أبيه ، وأبو نعيم عن عبد الرحمن العامرى عن أشياخ من قومه قالوا : أتانا رسول اللّه ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال : « من القوم » ؟ قلنا : من بنى عامر بن صعصعة بنو كعب بن ربيعة . فقال: « إنى رسول اللّه إليكم وأتيتكم لتمنعونى حتى أبلِّغ رسالة ربّى ولا أكره أحداً منكم على شىء » .

قالوا : لا نؤمن بك وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك .

فأتاهم بيحرة بن فراس القشيرى فقال : من هذا الرجل الذى أراه عندكم أنكره ؟ قالوا : هذا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب . قال : فما لكم وله ؟ قالوا : زعم أنه رسول اللّه فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلِّغ رسالة ربه . قال : ما رددتم عليه ؟ قالوا : بالرحب والسعة نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا . فقال بيحرة : ما أعلم أحداً من أهل السوق يرجع بشىء أشر من شىء ترجعون به . أتعمدون إلى رهيق قوم طردوه وكذَّبوه . فتؤووه وتنصروه وتنابذوا العرب عن قوس واحدة . قومه أعلم به فبئس الرأى رأيكم . ثم أقبل على رسول اللّه ﷺ فقال : قم فالحق بقومك . لولا أنك عند قومى لضربت عنقك .

فقام رسول اللّه ﷺ إلى ناقته ليركبها فغمز الخبيث ـ بيحرةُ ـ شاكلتها فقمصت برسول اللّه ﷺ فألقته . وعند بنى عامر ضباعة بنت عامر بن حوط كانت من النسوة اللاتى أسلمن بمكة جاءت زائرة إلى بنى عمها فقالت : يالعامر ولا عامر لى . أيصنع هذا برسول اللّه ﷺ بين أظهركم ولا يمنعه أحد منكم .

فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بيحرة واثنين أعاناه . فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض .ثم جلس على صدره ثم علوا وجوههم لطما. فقال رسول اللّه ﷺ : « اللهم بارك على هؤلاء،والعن هؤلاء » . فأسلم الثلاثة الذين نصروه وقتلوا شهداء . وهم غطيف وغطفان ابنا سهل ، وعروة أو عزرة بن عبد اللّه ، وهلك الآخرون .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم موسمهم . فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون فى ذلك الموسم . فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش ثم أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا . فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال : يابنى عامر هل لها من تلاف ، هل لذناباها من مطلب . والذى نفسى بيده ما تقوّلها إسماعيلى قط كاذباً وإنه لحق . فأين كان رأيكم عنكم.

وروى أبو نعيم عن خالد بن سعيد عن أبيه عن جدّه أن بكر بن وائل قدمت مكة فى الحج فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « إيتهم واعرض عليهم » . فأتاهم

فعرض عليهم . فقالوا : حتى يجيء شيخنا حارثة . فلما جاء ، قال : إن بيننا وبين الفرس حرباً فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول . فلما التقوا بذى قار والفرس ، قال لهم شيخهم : ما اسم الرجل الذى دعاكم إلى ما دعاكم إليه ؟ قالوا : محمد . قال : فهو شعاركم . فنُصروا على الفرس . فقال رسول الله ﷺ : « بى نصروا » .

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن جهم بن أبى جهم أن رسول الله ﷺ وقف على بنى عامر يدعوهم إلى الله تعالى . فقام رجل منهم فقال له : عجباً لك و الله ، لقد أعياك قومك وأعياك أحياء العرب كلها حتى تأتينا وتتردد علينا مرة بعد مرة ! و الله لأجعلنك حديثاً لأهل الموسم . ونهض رسول الله ﷺ ، وكان جالساً . فكسر الله ساق الخبيث ، فجعل يصيح من رجله وانصرف رسول الله ﷺ .

وروى أبو نعيم عن عبد الله بن وابصة العبسى عن أبيه عن جده قال :

جاءنا رسول الله ﷺ بمنى فدعانا فاستجبنا له ، وكان معه ميسرة بن مسروق العبسى فقال لنا : أحلف بالله لو صدَّقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحلَّ به وسط رحالنا لكان لنا الرأى .فأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل مبلغ . فأبى القوم وانصرفوا . فقال لهم ميسرة : ميلوا بنا إلى فدك ، فإن بها يهوداً نسألهم عن هذا الرجل . فمالوا إلى يهود فأخرجوا سفرهم فوضعوه ، ثم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبى الأمى العربى الذى يركب الحمار ، ويجتزئ بالكسرة، وليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالجعد ولا بالسبط ، فى عينيه حمرة ، مشرب اللون . قالوا : فإن كان هو الذى دعاكم فأجيبوه . وادخلوا فى دينه . فإنا نحسده ولا نتبعه ولنا منه فى مواطن بلاء عظيم ، ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه أو قتله . فقال ميسرة : يا قوم إن هذا الأمر بيّن . فأسلم ميسرة) (١) .

وروى أبو نعيم عن ابن رومان وعبد الله بن أبى بكر وغيرهما قالوا : (جاء النبى ﷺ كندة فى منازلهم فعرض عليهم نفسه فأبوا . فقال أصغر القوم : ياقوم اسبقوا إلى هذا الرجل قبل أن تُسبقوا إليه . فوالله ، إن أهل الكتاب ليحدِّثونا أن نبياً يخرج من الحرم قد أظلّ زمانه فأبوا) (٢) .

كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف . فيقول : « هل رجل

(١) سيرة ابن كثير ١/ ١٧٠ عن الواقدى .

(٢) ساق هذه الروايات جميعاً الحافظ الإمام الصالحى فى كتابه سبل الهدى والرشاد ٢/ ٥٩٣ ـ ٦٠١ .

يحملنى إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى عز وجل » . فأتاه رجل من همذان فقال : « ممن أنت ؟ » . قال الرجل: من همذان. فقال: «هل عند قومك من منعة ؟» قال: نعم. ثم قال: إن الرجل خشى أن يخفره قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم أخبرهم. ثم آتيك من قابل قال: « نعم ».

وجاء وفد الأنصار فى رجب (١) .

قال موسى بن عقبة عن الزهرى :

(فكان رسول الله ﷺ فى تلك السنين ، يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ، ويكلم كل شريف قوم . لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول : «لا أكره أحداً منكم على شىء ، من رضى منكم بالذى أدعوه إليه فذلك ، ومن كره لم أُكرهه . إنما أريد أن تحوزونى فيما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء » . فلم يقبله أحد منهم ، وما يأتى أحداً من تلك القبائل إلا قال : قوم الرجل أعلم به. أترون رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه ؟! وكان ذلك مما ذخره الله للأنصار وأكرمهم به) (٢) .

وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : وفى رواية : (وذلك لما اذخر الله عز وجل للأنصار من البركة) (٣) .

(لما أفسد الله عز وجل صحيفة مكرهم خرج النبى ﷺ وأصحابه فعاشوا وخالطوا الناس . ورسول الله ﷺ فى تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم، ويكلّم كل شريف، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه . . . وذلك لما اذخر الله عز وجل للأنصار من البركة) (٤) .

١ ـ إن الذى اتصل بالسماء ، وقابل ربه من دون الخلق كافة ، فى المعراج، ورأى حفاوة أهل السماوات فيه من الملائكة والنبيين . وأن الأعصر والدهور كلها تنتظر بعثته. لم يعد ليثنيه شىء فى هذا الوجود عن تبليغ رسالة ربه . وليست قريش وثقيف إلا هباءة من هباءات هذا الوجود . وعرف ﷺ أن هؤلاء المستضعفين معه هم خلاصة هذه البشرية . وبهم سوف يتم تحريرها ، فانطلق أمامهم حادياً يتابع بهم التربية والبناء . ليواجه العرب كافة فى مكة . فمكة عاصمة العرب ، ومكة أم القرى يؤمها الحجاج من أقصى الأرض العربية. منذ أن نادى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام : ﴿ **وَأَذِّن فِي**

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٣٤ . قال الهيثمى : « رواه أحمد ورجاله ثقات ، ورواه رجال السنن الأربعة . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح » .

(٢ ـ ٤) مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير / ١١٧ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٥٤ .

النَّاس بِالْحَجّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (١).

وحين يشهدون المنافع لهم فى المواسم وفى الأسواق مثل عكاظ وذى المجاز .

انطلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد نقض الصحيفة وتجربة ثقيف والدورة السماوية فى المعراج ، ودخول الإسلام عالم الجن ، وقيام الأنصار منهم. انطلق بعد هذا كله . ليمضى بهذه الرسالة فى كل فج ، وينقلها إلى كل قبيلة. فلابد له أن يبلغ رسالة ربه .

والمؤمنون الصادقون حوله ، ينظرون كيف يتحرك بهذه المرحلة ، وقلوبهم تتفطر لما سيعانيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الصد والتكذيب ، ويودون لو أن إشارة منه تنطلق ، فينقضون على كل عدو ومعاند ومستكبر ، فيقطعونه إرباً . فقد تعلموا أن يفدوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأرواحهم وحياتهم ودمائهم وآبائهم وأمهاتهم وأفلاذ أكبادهم .

٢ ـ وكانت قريش من الوعى والحذر بحيث تود أن تحطم كل تحرك نبوى تجاه العرب . فاختارت الشخصية المناسبة لضرب كل التحركات النبوية . وهى شخصية أبى لهب عم محمد ﷺ . الذى تفرَّغ كذلك للمواجهة. فكان يرصد كل تحرك للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليكون على أعقابه فى محاولة لهدم كل بناء ممكن . وكان السفه والحقد يصل به إلى درجة الأذى الجسدى ، فكان يرجمه أحياناً أمام الملأ ، وكان يُدمى عرقوبيه ورجليه أحياناً أخرى ، وكان يكتفى أحياناً بإهانته المعنوية وتصغير شأنه . حتى ليقول لمن يدعوهم : لا ترفعوا لكلامه رأساً ، فإنه مجنون يهذى بأم رأسه .

ويتسارع القوم فى التصديق فهو يعدهم بالنصر على فارس ، وافتراش نسائهم ، واستباحة ملكهم ، وغنيمة ثرواتهم .

لقد كان حمزة عم رسول الله ﷺ وأسد قريش . وحين كانت المعارك تقع فيما بعد. ما كان يجرؤ على الاقتراب منه أحد من أبطال قريش ، ولن يعجزه أبداً أن يكون مرافقاً له ليواجه أخاه أبا لهب . وكان عمر بن الخطاب قرين أبى جهل فى عداء الإسلام . ويمكن أن يكون رفيق النبى ﷺ لمواجهة أبى لهب أو أبى جهل كما فى بعض الروايات الأخرى ، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يريد أن يتفردَّ بالمواجهة وحده . ويريد أن لا تراق الدماء من أجله وأجل دعوته .

فالحروب تعجُّ حوله وتستعر فى كل القبائل . ولا يرى أن يكرر الصورة القبلية من

(١) الحج : ٢٧ ، ٢٨ .

إدخال المقتلة إلى كل بيت ، وتضيع الدعوة فى قلب هذه الدماء .

٣ ـ وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستعرض مضارب القبائل الكبرى فى جزيرة العرب ذات التاريخ الحافل بالقوة والمنعة . والتى تستطيع أن تتحمل مسؤولية الإجارة والنصرة وتقدر أن تواجه كل التحديات حولها. هذه القبائل المنتشرة فى كل أنحاء الجزيرة . فكندة ، وعامر بن صعصعة فى قلب الجزيرة العربية . وكندة ملوك العرب ، وعامر أشرفها وأعزها شكيمة ، وحذيفة فى شرق الجزيرة ، وبكر بن وائل كذلك التحمت مع الفرس ، وتوترت علاقاتها معها ، وشيبان ذات القوة والعدو والمنعة فى الشمال الشرقى من الجزيرة ، وعبس وكلب ومحارب وسليم . لقد كان يبحث عن موطن آمن وأرض مستقرة تحميه لتبليغ رسالة ربه ، دون ذلك الجو الرهيب من العداء والمواجهة والحرب كما هو الحال فى قريش وثقيف ، وهو ـ عليه السلام ـ يعرض الإسلام على القبيلة ، ولكنه لا يشترطه ، ولا يكره أحداً عليه ، فهو فى مرحلة التبليغ، وعندما يوجد بين هؤلاء المبلِّغين الفئة المؤمنة الصادقة فهو قادر أن يواجه بها العدو ، ويقيم فى صفوفها دولته ، ويعلِّم الصف المؤمن أن أرض مكة ليست مؤهلة لذلك ، بعد أن بقى الملأ كله يواجه هذه الدعوة . ويوظِّف طاقاته فى محاربتها . إنه يريد جواً مثل جو أبى طالب . قادراً على أن يواجه كل العقبات والصعاب ، ويقاتل من دونه لآخر قطرة من دمه . وكان أبو لهب هو المرشح لهذه الوراثة . ولكن حقده كان أكبر من شهامته . فرضى أن يكون ذيل الطرف الآخر ، يقدمونه ليهين ابن أخيه ، ويسفّه رأيه ، ويرجمه ويضربه أمام العدو . ليلقى مصرعه بعد ذلك منبوذاً كالجيفة المنتنة . وقد تحاماه ولده وعشيرته .

٤ ـ وتعود التربية من جديد فيرى حزب الله قائده وسيده الذى كان قبل فترة فى رحلة إلى السماوات العلى ، يرونه وقد بدأ يلقى الصد والتكذيب والإهانة . فيتجرأ الأوغاد بعضهم يضربه وبعضهم يتفل عليه. وبعضهم يحثو عليه التراب ، وهم ينظرون إليه يمتثلون أمره فى الكف عن المواجهة . وتحترق أعصابهم حسرة وغما لما ألم به . وتنتهى حدود النصرة من هذا الصف المؤمن ـ كما صدرت إليه الأوامر ـ بأن تأتى ابنته زينب ـ رضى الله عنها ـ ودموعها الغزار تغسل وجنتيها ، وتكتفى بغسل وجهه ويديه بعس ماء معها . وتود لو تتمزق ألف قطعة ولا يمس أباها شوكة تؤذيه . وينظر ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى هذا القلب المكلوم بين يديه إلى زينب . ويخشى أن يراودها لحظة من لحظات الضعف فيقول لها : « يا بنية لا تخشى على أبيك غلبة ولا ذلة » .

إن هؤلاء العشرات حوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لن يضحى بظفر واحد منهم .

فهو يعدهم ليقودوا العالم ، لايريد أن يسقطوا صرعى الآن بين يديه . إنهم عنده قرة عينه ، ومدد روحه ، ولن يقبل أن يتعرض أحد منهم لسوء الآن . فهم قادة المستقبل ، العبد فيهم والأمة ، الغلام فيهم والرجل والمرأة . ويختار رفيقه فى المواجهة ، وزيره الأول ، ونائبه وصفيه أبا بكر ، وأحياناً يأخذ معه عمه العباس ، وابن عمه على خشية احتمالات الغدر والغيلة . ليكونوا الفداء له فى اللحظات الحرجة .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (١).

٥ ـ **﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾** ، ففى اللحظات الحرجة ينصر الله تعالى رسوله ، ويذل عدوه بنصر وتمكين من عنده . فهذه حنيفة وهذه عامر ، اللتان قدمتا أقبح الرد على رسول الله ﷺ ، قد تكفل الله تعالى بالصغار لهما .

هذا بيحرة بن فراس الذى اشتد به لؤمه أن أخرج رسول الله ﷺ من رحال عامر . مخالفاً بذلك كل أعراف المروءة والشهامة العربية . بل يهدد رسول الله ﷺ بضرب عنقه . ويغمز شاكلة ناقته فيقع عليه الصلاة والسلام عنها . وتحرك الإرادة الإلهية هذه المرأة العامرية فى اللحظة المناسبة وتصرخ : « ياللعامر ولا عامر لى ، أيُصنع هذا برسول الله ﷺ بين أظهركم ولا يمنعه أحد منكم ؟! » وتثور الشهامة فى رؤوس ثلاثة من فتيان بنى عامر ، فينقضون على بيحرة وملئه ، فيبطحونهم أرضاً ، ويشبعونهم لكما وضرباً . وإذا ببيحرة المتغطرس المنتفش يغدو الذليل المهان المداس الذى يضرب ، وممّن ؟ من بنى عشيرته هو ومن ناصره ووازره .

وصورة ذلك العامرى المتغطرس الآخر ، الذى قام لرسول الله ﷺ وقال له بكل صفاقة وسفاهة : عجباً و الله قد أعياك قومك ، ثم أعياك أحياء العرب كلهم حتى تأتينا وتتردد علينا مرة بعد مرة ، و الله لأجعلنَّك حديثاً لأهل الموسم . فقام .فكسر الله ساق الخبيث ، فجعل يصيح من رجله وانصرف رسول الله ﷺ ، وغدا هذا السفيه حديث الموسم .

ويمر الزمن قرابة عشر سنوات ، وبنو عامر بن صعصعة على عتوهم وغطرستهم ، ويفد زعيمهم عامر بن الطفيل المدينة . ولنشهد ذلك اللقاء العاصف معه هناك :

(... فلما قدموا على رسول الله ﷺ . قال عامر بن الطفيل : يا محمد ، خالّنى ! قال : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » قال : يا محمد ،

---

(١) الفرقان / ٣١ .

خالّنى ! وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به ـ من اغتيال محمد ﷺ . فلما رأى عامر أربَد ما يصنع شيئاً . قال : يا محمد ، خالّنى ! قال : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له ». (وفى حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فقال عامر : ما تجعل لى يا محمد إن أسلمت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم» قال عامر : أتجعل لى الأمر بعدك إن أسلمت ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ليس لك ذلك ولا لقومك ولكن لك أعنّةُ الخيل » ،قال : أنا الآن فى أعنَّة خيل نجد، أتجعل لى الوبر ولك المدر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا » . فلما قاما عنه قال عامر : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالا. فقال رسول الله ﷺ:« يمنعك الله عز وجل » .

وفى حديث مُولَّه بن كثيف بن حمل : والله يا محمد لأملأنها عليك خيلاً جُرداً ورجالاً مُرْداً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً . قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفنى عامر بن الطفيل » ـ زاد مُولّه : « واهد قومه » .

وروى البيهقى عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة رحمه الله قال : مكث رسول الله ﷺ يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحاً : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل بما شئت ، وابعث عليه داءً يقتله ». حتى إذا كان بالرقم بعث الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه ، فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول ، فجعل يمسّ قرحته فى حلقه ويقول : يا بنى عامر ، أغُدّة كغدة البكر ، وموت فى بيت سلولية؟ زاد ابن عباس : يرغب أن يموت فى بيتها ، ثم ركب فرسه فأحضرها ، وأخذ رمحه ، وأقبل يجول ، فلم تزل تلك حاله حتى سقط فرسه ميتاً. . . .) (١) .

ولسنا بصدد استعراض جوانب هذا اللقاء . إنما الذى يعنينا أن رسول الله ﷺ وهو على رأس دولته ، وفى مرحلة من مراحلها ، كان غير قادر على مواجهة بنى عامر . وعلى رأسهم زعيمهم عامر بن الطفيل . فدعا ربه أن يكفيه عامر . فكفاه الله تعالى ذلك دون حرب .

وإن كنا نرجح أن هذه الوفادة كانت قبل الفتح . حيث لا تزال الدولة فتية لم تتمكن بعد . أما لو كانت فى عام الوفود . فماذا يفعل ابن الطفيل . وقد حرّك رسول الله ﷺ جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل إلى تبوك . وعامر يهدد بالألف والألفين من الخيل (قال ابن كثير فى البداية : والظاهر أن قصة عامر بن الطفيل متقدمة على الفتح . وإن كان ابن إسحاق والبيهقى قد ذكراها بعد الفتح) (٢) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٦ / ٥٥١ ، ٥٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ٦ / ٥٥٤ .

(وفى البخارى أنه قال للنبى ﷺ : أخيّرك بين ثلاث خصال : يكون لك أهل السهل ولى أهل الوبر ، أو أكون خليفتك من بعدك . أو أغزوك من غطفان بألف أشقر وألف شقراء) (١) .

وتحدث رسول الله ﷺ عن بنى عامر وعددهم ومنعتهم فقال : « والذى نفسى بيده ، لو أسلم وأسلمت بنو عامر لزاحمت قريش على منابرها » (٢) .

ومن فقه البخارى رضي الله عنه أنه أورد قصة عامر بن الطفيل بعد غزوة أحد وهذا متناسب مع دعاء رسول الله ﷺ أن يكفيه عامر بن الطفيل .

٦ ـ وكانت هذه الدعوة النبوية الكريمة للقبائل . فرصة لسبر أغوار ونفسيات هذه القبائل العربية . فلئن رأينا مثل مواقف ثقيف . وحنيفة وكندة وعامر بن صعصعة . فلقد رأينا مواقف شيبان وبكر .حيث كانت مواقف تتسم بالأريحية والخلق والرجولة . وتنم عن تعظيم هذا النبى ، وعن وضوح فى العرض ، وتحديد لمدى قدرة الحماية التى يملكونها .

(وإنى أرى أن هذا الأمر الذى تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكرهه الملوك . فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا) . فقال عليه الصلاة والسلام : «ما أسأتم الرد ؛ إذ أفصحتم الصدق . وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه » .

وقدّر الله لشيبان بعد عشر سنين أو تزيد أن تحمل هى ابتداءً عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام . وكان المثنى بن حارثة الشيبانى صاحب حربهم . وبطلهم المغوار هو الذى قاد الفتوح فى أرض العراق . بعد أن استأذن الصديق ، وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم . وكان الله قوياً عزيزاً ! .

وموقف بكر بن وائل الذين كانوا فى صراع مع الفرس . والذين تُوِّج صراعهم بالنصر فى ذى قار . أحسنوا الرد . ورجوا التأجيل للعام القادم فهم على تعبئة للمواجهة مع الفرس .

غير أن عظمة التأثير النبوى عليهم أنهم فى الساعة الحاسمة ، وفى لحظة المواجهة والانفجار ، جعلوا شعارهم فى الحرب : محمد ﷺ . وكتب الله لهم النصر بهذا الارتباط المعنوى الذى تحدث عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يبشّر أصحابه :

---

(١) البخارى : م ٢ ج ٥ / ١٣٥ باب غزوة الرجيع .

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم / ٢٤٣ ، رواه عن خالد بن سعيد عن أبيه عن جده .

« احمدوا الله كثيراً ، فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس ، قتلوا ملوكهم ، واستباحوا عسكرهم ، وبى نُصِروا ») [1] .

٧ ـ ولا شك أنها نقلة ضخمة بالدعوة خلال هذه السنوات الثلاث . من حدود مكة وحدود قريش إلى استشراف القبائل العربية ، والأرض العربية من رسول الله ﷺ بهذا الدين الجديد . ومحاولة فتح الأبواب الموصدة ، والنوافذ المغلقة ، ومعالجة الأقفال المحكمة على القلوب . فتتجاوب الأرض العربية بخبر هذا الدين الجديد بحيث لم تبق قبيلة أو أرض لم تصل إليها أخبار هذه الدعوة ، رغم كل محاولات التعتيم ، والحرب الإعلامية التى قادتها قريش ، وكل محاولات الحرب المادية والأذى الجسدى ضد قائد الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام .

إنها انطلاقة كبرى بالدعوة ، وبالمؤمنين الصابرين من مرحلة التربية الخاصة والانكفاء على الذات إلى مرحلة التحرك بهذا الدين على جميع المستويات ، وفى كل الاتجاهات . وهى مرحلة سياسية أكثر منها مرحلة عقائدية ، بمعنى أن رسول الله ﷺ لم يكن همه فقط أن يضيف عناصر جديدة ولبنات جديدة إلى دعوته . بمقدار ما كان همه البحث عن أرض صلبة يقف عليها ويتحرك من خلالها فى جميع الاتجاهات لتبليغ الدعوة . حتى لو كانت الأرض الصلبة لا يحمل رجالها عقيدة الإسلام لكنهم يحملون المسؤولية الضخمة فى حماية رسول الإسلام ونبيه .

٨ ـ وحرص ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذه المرحلة . أن يكون بشخصه هو الذى يقوم بهذه الاتصالات جميعاً . وأما صحابته ، فيعتبرون العنصر الرديف له بهذه المباحثات ، وهذه الحوارات . فطبيعة المجتمع العربى آنذاك لا تتعامل إلا مع الرجل الأول فى اتخاذ الموقف المناسب . وكنا نجد القبيلة لا تجرؤ على اتخاذ الموقف إذا كان زعيمها غير موجود معها . وحين يكون فى القبيلة أكثر من زعامة فلابد أن يشارك الجميع فى اتخاذ الموقف والاضطلاع بالمسؤولية .

وكانت هذه تجربة حية يشهدها الصف المؤمن من قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودروس غنية حية ، يتعلمها فى فن التعامل مع البيئات المختلفة ، وعبقرية الحوار مع المشارب المتعددة ، وقدرة التخاطب مع الزعامات المتنوعة ، والقيادات المتربصة .

وأعظم ما فى هذه الدروس من غنى ، أن سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يقف أمامه أعظم العقبات وأشد الصعوبات ، وأسوأ الاحتمالات من المبادرة للوصول إلى الهدف .

---

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم / ٢٤٣ ، ورواه خالد بن سعيد عن أبيه عن جده .

وسواءً أكانت النتائج أن تُدمى عقباه ورجلاه الشريفتان ، أو يهدد بالقتل ، أو يُرمى عن الناقة ، أو يحثى عليه التراب ، أو يتفل في وجهه وهو الذى أشرقت الكائنات بنوره ـ عليه الصلاة والسلام . أم تم تقبله بالبشارة والترحاب ، فهذه نتائج جانبية أمام الهدف الأعظم الذى لابد من المبادرة إليه . وهو الانتقال بالدعوة إلى مرحلة لاحقة تكون أقوى تمكناً، وأعظم صلابة ، وأشد عمقاً فى الرسوخ والبناء .

ولابد أن نشير إلى المراكز التى كانت للدعوة قبل هذه المرحلة ، والحبشة أهم هذه المراكز بأنها لا تحقق الهدف . فأرض الحبشة ليست بيئة خصبة للدعوة إنها تصلح أرضاً للإقامة لا أرضاً للتحرك والمواجهة . فالأرض العربية التى تموج بالمواجهة والاستجابة هى مواقع القيادات العربية الكبرى ، وهى المؤهلة لحمل الرسالة أو لحمايتها ، وما كان من الطفيل بن عمرو فى دوس ، وأبى ذر فى غفار ، وعمرو بن سلمة فى أسلم ، هى جيوب صغيرة فى الأرض العربية . لم تكن قادرة على أن تمتد إلى القبيلة كلها . فضلاً عن أن تملك قدرة المواجهة والمقاومة للجحافل العربية الضخمة.

إن الصف المؤمن ليرى قائده خواض غمرات ، ويتحمل كل الأعاصير التى تواجهه بثبات كالجبال الراسيات ، ليتعلم منه ألا يبخل بشىء حين تُلقى عليه المسؤوليات ، وتناط به التكاليف لمواجهة الأرض كلها بهذا الدين ، وكل لحظة ، وكل تصرف ، وكل موقف،يعنى بناءً جديداً فى هذه النفوس المؤمنة، ويعنى نوراً جديداً يُقذف فى القلب . فيتماوج بهذا الدين ويعجن فيه ، ويصهر به ، للانتقال بعد هذه المرحلة إلى مرحلة إقامة الدولة .

إن هذه السنوات الثلاث التى كانت المخاض الذى وُلدَت به الدولة المسلمة كان لابد منه ، حتى لا تكون القضية طفرة أو فورة تنتهى من خلال الحماس الطاغى أو الضربة المفاجئة .

إن الحركات الإسلامية اليوم مدعوة إلى فقه كل خطوة فى بناء هذه الدعوة ، وبناء هذه الدولة . والوقوف عندها مليا تتعلم منها كيف يتم البناء المتماسك من جهة ، والمتكامل من جهة أخرى ، وكيف تكون الخطوات متتابعة بحيث لا تحمل النكوص أو الانتكاس أو التراجع ، حين تشتد الضربات ، وتزداد المحن .

إن عبقرية بناء القيادات ، وعبقرية بناء الأمة بهذه القيادات ، عالم رحب غنى فسيح . نشهد من معين نماذجه ما نشهد من خلال ما حفظته ذاكرة التاريخ من هذه السيرة النبوية المضمخة بالنور والهدى والكتاب المبين .

والله تعالى يرعى ويكلأ هذه النبتات حتى يقوى عودها ، وتستقيم قناتها ، وتصبح قادرة على الصمود فى وجه الأعاصير والرياح الهوج العاتية .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . فقد كانت هذه المقدمات جميعاً إرهاصات ومقدمات للأنصار أن يحملوا هذا الشرف العظيم من دون العرب جميعاً . وهم لا يدرون ما أعد الله لهم من فضل . فقد كانوا منهمكين فى التعبئة لا ليواجهوا الفرس ولا ليواجهوا اليهود . إنما كانوا يعدون للتعبئة فى مواجهة أنفسهم ، وذبح بعضهم ، والبحث عن الأحلاف فى قريش وغيرها لتجديد المواجهة ومتابعة الحرب الضروس التى تفنيهم وتأتى على آخرهم .ماذا كانوا يُعدون ، وماذا يُعِدّ الله لهم ؟ وماذا ساق الله تعالى لهم من الكرامة ؟؟ وشاءت إرادة الله ـ عز وجل ـ بعد هذا المخاض العسير ، وبعد هذه الحوارات المتنوعة المكثفة ، وبعد التجهم الكبير الذى واجهته الدعوة وقائدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبعد هذه الخبرات الفنية فى لقاء القيادات العربية . شاءت إرادة الله بعد ذلك أن تكون يثرب هى محضن الدعوة . وعاصمة الدولة ، وأن يكون الأنصار هم قادة الجيل الثانى الذى انضم إلى الرعيل الأول من المهاجرين . وتتحقق نبوءة أهل الكتاب من قبل . والتى توارثوها عن أنبيائهم ورهبانهم .

كما قال سيف بن ذى يزن ، ملك اليمن لعبد المطلب :

(. . . وجاعل له منا أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويُذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض . . .) (١) .

وكما قال الحبران لتبَّع ينهياه عن قتال أهل المدينة :

(أيها الملك لا تفعل ، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ، ولم نأمن على عاجل العقوبة .

فقال لهما : ولم ذلك ؟ . فقالا : هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان تكون داره وقراره . فتناهى عن ذلك) (٢) .

---

(١) السيرة الحلبية لابن برهان الدين ١ / ١٨٧ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٦ .

الفصل الثانى

الخيريــة الثانيــة

كانت الخيرية الأولى الاصطفاء الربانى فى قريش . ونتحدث هنا عن خيرية الأنصار، وهم الذين يمثلون الرافد الثانى للدعوة .

١ ـ لقد كان الأنصار بمجموعهم أحب الناس إلى رسول الله ﷺ : فعن هشام بن زيد قال : سمعت أنس بن مالك يقول : جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبى لها ، فكلمها رسول الله ﷺ فقال : «والذى نفسى بيده ، إنكم لأحب الناس إلىّ » (١) مرتين .

٢ ـ ويؤكد عليه الصلاة والسلام أنه لو لم يكن مهاجراً قرشياً واختار أن يكون من غيرها لاختار أن يكون أنصارياً . فهم أفضل الناس إذن بعد قريش . فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » (٢) .

والرواية الثانية تؤكد أنه يختار الأنصار على الناس جميعاً :

فعن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً أو شعباً لكنت مع الأنصار » (٣) .

وفى الرواية الثالثة : يضع الدنيا فى كفة للناس جميعاً . ويضع نفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع الأنصار .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال : « أفيكم أحد من غيركم » قالوا: لا ، إلا ابن أخت لنا . فقال رسول الله ﷺ : « ابن أخت القوم منهم ـ أو من أنفسهم » . فقال :

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٨٠٨ ،وقال المحقق فيه: إسناده صحيح . والحديث فى المسند (٣/ ١٢٥) ، والبخارى (٩/ ٣٣٣) ، والرواية للبخارى .

(٢) المصدر نفسه / ٧٩٤ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٣/ ١٩١) ، وفى البخارى (٧/ ١١٢ ، ٢٢٦) .

(٣) المصدر نفسه ، وقال المحقق فيه : إسناده حسن وهو فى المسند (٥/ ١٣٧ ، ١٣٨) ، وعند الترمذى والحاكم .

« إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة . وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم . أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا ، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم . لو سلك الناس وادياً ، وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » (١) .

وقد آثر رسول الله ﷺ العودة إلى الأنصار ، والإقامة معهم بعد الفتح على الإقامة مع قومه ، وفى بلده التى أحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إليه .

٣ ـ ولم تكن هذه الصلة الوثيقة مع الأنصار صلة مؤقتة . بل اعتبرها ـ عليه الصلاة والسلام ـ صلة أبدية فى حياته ، وفى مماته . حيث حدّدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى التخيير بين قومه والأنصار : فعن أبى هريرة ، قال : فذكر فتح مكة ، قال : فنظر فرآنى فقال : « يا أبا هريرة » فقلت : لبيك يا رسول الله . فقال : « اهتف بالأنصار ، ولا يأتينى إلا أنصارى » . فهتفت بهم فجاؤوا فأطافوا برسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : «ترون إلى أوباش (٢) قريش وأتباعهم » ، ثم قلب بيديه إحداهما على الأخرى ، «احصدوهم حصداً حتى توافونى بالصفا » ، قال : فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء . وما أحد يوجه إلينا منهم شيئاً . فقال أبو سفيان : يارسول الله ، أبيحت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » قال: فغلّق الناس أبوابهم . قال : فأقبل رسول الله ﷺ إلى الحجر فاستلمه ـ فذكر الحديث . قال ثم أتى الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت،فرفع يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ، ويدعوه . والأنصار تحته . قال : يقول بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة فى عشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحى ، وكان إذا جاء لم يخف علينا ، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضى . قال : فقال رسول الله ﷺ :

« يا معاشر الأنصار ، أقلتم : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة فى عشيرته؟» ، قالوا : قلنا : يارسول الله . قال : « فما اسمى إذن ؟ ! كلا . إنى عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

قال : فأقبلوا عليه يبكون وقالوا : (ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله وبرسوله . . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم ») (٣).

---

(١) المصدر نفسه ٧٩٨ ،وقال المحقق فيه : إسناده صحيح . وهو فى المسند (٣/ ٢٧٥) . والبخارى(٦/ ٥٥٢) .

(٢) أوباش : أخلاط متفرقون .

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٧٩٦ ، ح١٤٢٥ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وأخرجه فى المسند (٢/ ٥٣٨) ، ومسلم (٣/ ١٤٠٥) ، وغيرهما .

٤ ـ واعتبرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أدوا واجبهم تماماً فى نصرته : فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم وهو معصوب الرأس، فتلقاه الأنصار ونساؤهم وأبناؤهم ، فإذا هو بوجوه الأنصار . فقال : « والذى نفسى بيده ، إنى لأحبكم » . وقال : « إن الأنصار قد قضوا ما عليهم وبقى ما عليكم فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » (١) .

وفى الرواية الثانية : يعتبرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أخص خواصه :فعن كعب بن مالك الأنصارى رضي الله عنه أنه أخبره بعض أصحاب النبى ﷺ ، أن النبى خرج يوماً عاصباً رأسه . فقال فى خطبته : « يا معشر المهاجرين ، فإنكم أصبحتم تزيدون ، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم ، وإن الأنصار عيبتى (٢) التى أويت إليها . فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » (٣) .

وهم تركته وضيعته : فعن النعمان بن مرة أو غيره ، عن النبى ﷺ قال : « إن لكل نبى تركة وضيعة،وإن تركتى أو ضيعتى الأنصار ،ألا وإن الناس يكثرون ويقلون ، ألا فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » (٤) .

والناس دثار (٥) والأنصار شعار (٦) : فعن عبد الله بن جبير أن النبى ﷺ قال للأنصار : « ألا ترضون أن كل الناس دثار وأنتم شعار ؟ ألا ترضونه أن الناس لو سلكوا وادياً وسلكتم آخر اتبعت واديكم وتركت الناس ، ولولا أن الله عز وجل سمانى من المهاجرين لأحببت أن أكون من الأنصار ؟ » قالوا : بلى رضينا) (٧) .

وهم أكثر من الشعار . فهم خاصة خاصته هم كرشه (٨) المعنوى ﷺ :فعن أسيد ابن حضير قال : قال رسول الله ﷺ :

« الأنصار كرشى وعيبتى ، وإن الناس سيكثرون وهم يقلون فاقبلوا من محسنهم

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢/ ٧٩٩ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٣/ ٢٠٥) .
(٢) العيبة من الرجل : موضع سره .
(٣) المصدر نفسه ٢/ ٧٩٠ ، وقال المحقق فيه . إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٣ / ٥٠٠) .
(٤) المصدر السابق ٢ / ٧٩١ ، وقال المحقق فيه : إسناده مرسل صحيح وهو فى مجمع الزوائد مرفوعاً (١٠/ ٣٢) .
(٥) الدثار : ما فوق الشعار من الثياب .
(٦) الأنصار شعار :ما تحت الدثار من اللباس وهو يلى شعر الجسد .
(٧) مجمع الزوائد للهيثمى ١٠ / ٣١ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى وعبد الله بن جبير ، قيل : إنه تابعى وهو ثقة ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .
(٨) الكرشى : عيال الرجل وصغار ولده .

وتجاوزوا عن مسيئهم » (١) .

فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يؤكد فى هذه الأحاديث جميعاً أنهم خاصته ، وأنهم أهله ، وأنهم تركته وأنهم ضيعته ، وأنهم أحب الناس إليه ،وأنه لو خيِّر لاختار أن يكون من الأنصار ، وأنهم حزبه ، فلو افترق الناس جميعاً فى اتجاه ، والأنصار فى اتجاه فهو مع الأنصار .

وفى تقويم شامل للقبائل العربية يتحدث ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنها وعن موقع الأنصار فيها فيقول :

« الإيمان يمان ، الإيمان فى قحطان ، والقسوة فى ولد عدنان . حمير رأس العرب ونابها ، ومذحج هامتها وعصمتها ، والأزد كاهلها وجمجمتها ، وهمدان غاربها وذروتها . اللهم أعز الأنصار الذين أقام الله بهم الدين ، الذين آوونى ونصرونى وحمونى ، وهم أصحابى فى الدنيا ، وشيعتى فى الآخرة ، وأول من يدخل الجنة من أمتى» (٢).

٥ ـ وهؤلاء الأنصار ـ أحباب الله تعالى ورسوله ـ متفاوتون فى الخيرية والفضل ، وإن كانوا جميعاً يمثلون الخيرية الثانية ، وهذا التفاوت حدثنا عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث ـ قال حجاج بن الخزرج ـ :ثم بنو ساعدة،وفى كل دور الأنصار خير»فقال سعد ابن عبادة:ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد فضَّل علينا ، فقيل:قد فضلكم على كثير (٣).

وفى رواية : أن رسول الله ﷺ قدَّم بنى الأشهل على بنى النجار : فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« ألا أخبركم بخير دور الأنصار » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « بنو عبد الأشهل » (وهم رهط سعد بن معاذ) . قالوا : ثم من يا نبى الله ؟ قال : « ثم بنو النجار » قالوا : ثم من يا رسول الله ؟ قال : « ثم بنو الحارث بن الخزرج » قالوا: ثم من يا رسول الله ؟ قال : « ثم بنو ساعدة » قالوا : ثم من يا رسول الله ؟ قال : « ثم فى كل دور الأنصار خير » . فقال سعد بن عبادة : ذكرنا رسول الله ﷺ آخر أربع آدر

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير للألبانى م١ ج٢ ص٤١٥ ح ٢٧٨٩ .
(٢) مجمع الزوائد ١٠ / ٤١ ، وقال الهيثمى فيه : « رواه البزار وإسناده حسن » .
(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢ / ٨٠٥ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٣ / ٤٩٦)، وفى البخارى (٧ / ١١٥) .

سماهم ، لأكلمن رسول الله ﷺ فى ذلك . فلقيه رجل فذكر ذلك له . فقال له الرجل : أو ما ترضى أن يذكركم آخر أربع آدر ؟ فوالله لمن ترك رسول الله ﷺ من الأنصار لم يذكر أكثر مما ذكر . قال : فرجع سعد (١) .

قال معمر : أخبرنى ثابت وقتادة أنهما سمعا أنس بن مالك يذكر هذا الحديث إلا أنه قال : بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم ذكر مثل حديث الزهرى (٢) .

٦ ـ ويتحدث عليه الصلاة والسلام عن فضلهم، وفضل الله تعالى ورسوله عليهم : فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « يا معشر الأنصار ، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بى ؟ أو لم آتكم متفرقين فجمعكم الله بى ؟ أو لم آتكم أعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا: بلى يا رسول الله. قال :

« أفلا تقول : جئتنا خائفا فآمناك، وطريدا فآويناك ، ومخذولا فنصرناك». قالوا : بل لله المنُّ علينا ولرسوله (٣) .

٧ ـ ولحبه لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولما قدموا بين يديه من فداء وتضحيات، دعا لهم بالمغفرة والرحمة . ولكل من يلوذ بهم من قريب أو حبيب . فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

أتت الأنصار النبى ﷺ فقالوا : وذكر قصة : ادع الله لنا أن يغفر لنا ، فقال : «اللهم اغفر للأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

قالوا : يا رسول الله وأولادنا من غيرنا ؟ قال : « وأولاد الأنصار » .

قالوا : يا رسول الله وموالينا ؟ قال : « وموالى الأنصار » .

قال : وحدثتنى أمى ، عن أم الحكم ابنة النعمان بن صهيبان ، أنها سمعت عن النبى ﷺ مثل هذا ، غير أنه زاد فيه : « وكنائن الأنصار » .

لقد بلغت الدعوة بالمغفرة والرحمة إلى الجيل الثانى والثالث من الأنصار ، وإلى كل من يمت بقرابة أو صلة أو مصاهرة أو ولاء للأنصار .

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٠ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٢ / ٢٦٧) ، وفى مسلم (٤ / ١٩٥١). وغيرهم ، ثم يقول : وعند الجميع تقديم بنى النجار على بنى عبد الأشهل، وذكر ابن حجر فى الفتح (٧ / ١١٦) الاختلاف ورجح تقديم بنى النجار على بنى عبد الأشهل بناءً على أن أنسا من بنى النجار فله مزيد عناية بحفظ فضائلهم .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٨٠١ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، ورواه البخارى (٩ / ٤٣٩) .

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد : ٢ / ٨٠٠ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٣ / ١٠٤) ، وفى البخارى (٨ / ٤٨) .

أى حب يعدل هذا الحب ؟ ! . وأى وفاء يعدل هذا الوفاء ؟ ! .

٨ ـ وتبقى هذه الأمور التى سبق وذكرناها من فضائل الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ ذات تأثير تاريخى ، لكن الأهم من هذا كله أنها امتدت لتدخل فى صلب إيمان كل مؤمن فى الأرض .

وليس اعتقاد فضلهم فقط. إنما حبهم كذلك. وكما جعل ـ عليه الصلاة والسلام ـ الموحى إليه من ربه حب الله تعالى ورسوله أساساً وركناً فى العقيدة ، لا يتم إيمان المؤمن إلا به . فها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصلنا بهم عبر العصور والدهور ، وتتصل الحلقة إلى قيام الساعة . فالذى يحب رسول الله يحب أنصاره، والذى يبغض رسول الله ﷺ يبغض أنصاره :

أ ـ فلا يمكن أن يبغض الإنسان رجلا يؤمن بالله ورسوله : فعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ: « لا يبغض الأنصار رجلاً يؤمن بالله ورسوله » (١) .

فلا يجتمع فى جوف عبد مؤمن إيمان بالله ورسوله وبغض للأنصار . هذا وإن كان الحب والبغض مقترنين أصلاً بالصلة والتعامل . فليس صعباً أن يكون المؤمنون فى الأرض جميعاً لا يبغضون الأنصار . ودواعى البغض من التعامل والتجاور والاحتكاك معدومة فى الأجيال اللاحقة .

ب ـ لكن القضية ترتفع أكثر وأكثر ، فلابد من حبهم كذلك لاكتمال الإيمان ، ووجود البغض لهم نفاق فى القلب: فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« حب الأنصار إيمان ، وبغضهم نفاق » (٢) .

جـ ـ ثم ترتفع القضية أكثر وأكثر ليكون حبهم سمة من سمات الإيمان ، وبغضهم سمة من سمات النفاق : فعن عدى بن ثابت ، قال : سمعت البراء بن عازب ، أنه سمع النبى ﷺ ، أو قال : عن النبى ﷺ أنه قال فى الأنصار :

« لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلامنافق ، من أحبهم فأحبه الله ، ومن أبغضهم فأبغضه الله » قال : قلت له : أنـت سمعت هذا من البراء ؟ قال : إياى يحدث (٣) .

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢ / ٧٩١ ح ١٤١٤ .وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٣ / ٣٤) .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٧٩٢ ح ١٤١٧ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٧ ح ١٤٥٥ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٤ / ٢٩٢) .

د ـ وأصبح حب الله تعالى مقترناً بمن يحب الأنصار ، وبغض الله تعالى لمن يبغض الأنصار . فيأتى الدعاء هذا ليكون حب الله له قريناً له حتى يلقاه ، وبغض الله لمن يبغض الأنصار قريناً حتى يلقاه . فعن الحارث بن زياد ـ صاحب رسول الله ، قال : قال رسول ﷺ :

« من أحب الأنصار أحبه الله حتى يلقاه ، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله حتى يلقاه » (١) ولم تعد القضية فى حب الأنصار قضية تاريخية ، إنما غدت قضية عقائدية تدخل فى صلب إيمان كل مؤمن حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ولم لا ؟ ! . فهم الجيل الذين أعز الله بهم دينه ، وهم الذين نصروا الله ورسوله ،وهم الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا جنده وحزبه .

فحق على كل مسلم فى الأرض أن يحبهم ويقر بفضلهم .

٩ ـ ومع هذا كله ، فلن تستطيع الأجيال المسلمة أن توفيهم حقهم من الحب ، أو الإكرام المتناسب مع هذا الحب . فكانت وصية رسول الله ﷺ . لأحبابه وأنصاره ، أن يصبروا حين لا يوفون حقوقهم بعد أن أدوا الذى عليهم من واجب :فعن أسيد بن حضير رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار خلا برسول الله ﷺ فقال : ألاتستعملنى كما استعملت فلانا ؟ فقال :

« إنكم ستلقون بعدى أثرة . فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » (٢) .

١٠ ـ ولئن دلَّ هذا الأمر على شيء فإنما يدلُّ على أنهم جيل العطاء والبذل . والدعوات الكبرى لا تقوم إلا على أمثال هذه الأجيال التى تعرف الفداء والتضحية بدون ثمن ، إلا مرضاة الله ورسوله .

وقد تحدث رسول الله ﷺ عن جانب يبدع الأنصار فيه إلى جانب العطاء والبذل والتضحية وهو جانب الحكم والقضاء . فإذا كانت الخلافة فى قريش ، فالقضاء فى الأنصار : فعن أبى مريم أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ :

« الملك فى قريش ، والقضاء فى الأنصار ، والأذان فى الحبشة ، والسرعة فى اليمن » (٣) .

١١ ـ لقد أكرمهم الله تعالى بهذا الاسم وصار علماً عليهم :(فعن غيلان بن

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢ / ٨٠٥ ح ٤٥٤ ، وقال المحقق فيه : إسناده حسن .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٥ ح ١٤٤٩ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند (٤ / ٣٥١) ، وفى البخارى (٧ / ١٧) .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٧٩٥ ح ١٤٢٣ ، وقال المحقق فيه : إسناده حسن ، وهو فى المسند (٢ / ٣٦٤) .

جرير، قال : قلت لأنس : أرأيت اسم الأنصار كنتم تسمّوْن به أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله عز وجل [1] .

أما اسمهم الأصلى الذى كان لفرعيهم العظيمين فهو الأوس والخزرج .

وقد أثنى رسول الله ﷺ على هذين الفرعين العظيمين باسميهما . (فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يرفعه :

« إن الله أمدّنى بأشد الناس ألسنا وأذرعا . بابنى قَيْلة [2] : الأوس والخزرج » . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن أبى واقد الليثى قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ ، فأتاه آت فالتقم أُذنه، فتغيَّر وجهه وسار الدم فى أساريره ثم قال :

« هذا رسول عامر بن الطفيل يتهددُنى . فكفانيه الله بالبيتين من ولد إسماعيل ، بابنى قيلة » ، يعنى الأنصار .رواه الطبرانى بالكبير والأوسط [3] .

١٢ ـ وتحدث عنهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنهم حماة الأعراض ، فقد جعلهم بمثابة المحارم للمرأة وأهلها : فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ترفعه : « ما يضير امرأة نزلت بين بيتين من الأنصار ، أو نزلت بين أبويها » . رواه الإمام أحمد والبزار .

وهو ثناء على العفة المتناهية عندهم : فعن أبى طلحة رضي الله عنه يرفعه : «أقرئ قومك منى السلام ، فإنهم ما علمت أعفة صبر » [4] .

١٣ ـ ثم سما بهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى مصاف الملائكة : فعن أبى هريرة رضي الله عنه يرفعه: « أسلمت الملائكة طوعا ، وأسلمت الأنصار طوعا ، وأسلمت عبد القيس طوعا » [5] .

فطوبى لمن قرنهم رسول ﷺ بطهارتهم ونظافتهم وصفاء معدنهم بالملائكة .

ولكن السمة الأولى التى امتازوا بها . سمة الفداء والعطاء ، هى التى اختارهم الله تعالى لها فأثنى عليهم فى محكم كتابه فقال :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي

---

(١) البخارى ، باب مناقب الأنصار م٢ ج٥ ص ٣٨ .

(٢) قَيْلة : هى أم الأوس والخزرج ، ويعرفون بذلك .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٢٥٤ .

(٤) حديث حسن صحيح ، رواه الترمذى والبزار .

(٥) حديث حسن، رواه الطبرانى فى الأوسط .

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

فأى ثناء بعد هذا يفوق هذا الثناء ؟ ! وأى شهادة فى هذا الوجود تعدل هذه الشهادة ؟ ! .

وكما قال النعمان بن بشير لمروان بن الحكم وهو يثنى على الأنصار : (... وأما ما أطنبت فيه من ذكر شرفنا وقديم سلفنا ففى مدح الله تعالى لنا وذكره إيانا فى كتابه المنزل ، وقرآنه المفصل على نبيه ﷺ ما أغنانا عن مدح أحدٍ من الناس ....) .

(١) الحشر / ٩ .

يوم بعاث
يوم صنعه الله لرسوله

الإرهاصات :

وكان هذا فى وفدين صغيرين ، لم تثمر معهما اللقاءات .

اللقاء الأول : مع سويد بن الصامت :

قال ابن إسحاق : (فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره . كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام . ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، ثم الظفرى عن أشياخ من قومه قالوا : قدم سويد بن الصامت ـ أخو بنى عمرو بن عوف ـ مكة حاجاً أو معتمراً . وكان سويد إنما يسميه قومه الكامل ؛ لجلده وشعره وشرفه ونسبه . . . فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل معك مثل الذى معى ؛ فقال له رسول الله ﷺ: « وما الذى معك ؟ »، قال : مجلة لقمان ـ يعنى: حكمة لقمان ، فقال له رسول الله ﷺ : « اعرضها علىّ»، فعرضها عليه فقال له : « هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى علىّ وهو هدى ونور » فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه ، وقال : إنَّ هذا القول حسن . ثم انصرف عنه . فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم ، وكان قتله يوم بعاث) (١).

اللقاء الثانى : مع أبى الحيسر أنس بن رافع :

قال ابن إسحاق : وحدثنى الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، عن محمود بن لبيد قال :

(لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل . فيهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٧٧ ـ ٧٩ دار الجيل .

إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . سمع بهم رسول الله ﷺ ، فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم : « هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ » ، فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : « أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علىّ الكتاب » قال : ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاما حدثا : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له . قال : فيأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء . فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال : دعنا عنك . فلعمرى لقد جئنا لغير هذا . قال : فصمت إياس بن معاذ ، وقام رسول الله ﷺ عنهم . وانصرفوا إلى المدينة . وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

قال : ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك . قال محمود بن لبيد : فأخبرنى من حضره من قومه عند موته : أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلما . لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس . حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع) (١) .

اللقاء الثالث :

روى أبو زرعة الرازى فى دلائل النبوة له بسند حسن والحاكم وصححه ، عن معاذ ابن رفاعة بن رافع عن أبيه عن جده ، أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة . فلما هبطا من الثنية ، رأى رجلاً تحت شجرة ـ قال : وهذا قبل خروج الستة من الأنصار ـ فلما رأيناه قلنا : نأتى هذا الرجل لنستودعه راحلتنا حتى نطوف بالبيت ، فجئنا فسلمنا عليه تسليم أهل الجاهلية فردّ علينا تسليم أهل الإسلام ، وقد سمعتُ بالنبى فأنكرنا ، فقلنا : من أنت ؟ قال : « انزلوا » ، فنزلنا فقلنا : أين هذا الرجل الذى يدَّعى ما يدَّعى ويقول ما يقول ؟ قال : « أنا هو » قلنا : اعرض علينا الإسلام . فعرض ، وقال : « من خلق السموات والأرض والجبال ؟ » قلنا : خلقهن الله عز وجل ، قال : « فمن خلقكم ؟ » قلنا : الله عز وجل . قال : « فمن عمل هذه الأصنام التى تعبدون ؟ » قلنا : نحن . قال : « الخالق أحق بالعبادة أو المخلوق؟» قلنا : الخالق . قال : « فأنتم أحق أن تعبدوا ربكم وأنتم عملتموهن ، والله أحق أن تعبدوه من شىء عملتموه . وأنا أدعوكم إلى عبادة الله عز وجل وشهادة أن لا إله الله وأنى رسول الله ، وصلة الرحم ، وترك العدوان . وإن غضب الناس » . فقالا : لو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٠ ، ٨١،ـ دار الجيل ـ وقال المحقق فيه: صرح ابن إسحاق بالسماع، وسنده صحيح . ورواها أحمد والطبرانى من طريق ابن إسحاق ورجاله ثقات . انظر : مجمع الزوائد ٦/ ٣٦ .

كان هذا الذى تدعو إليه باطلاً لما كان من معالى الأمور ومحاسن الأخلاق . فأمسك راحلتنا حتى نأتى البيت . فجلس عنده معاذ بن عفراء .

قال رافع :فجئت البيت ، فطفت وأخرجت سبعة أقداح وجعلت له بينها قدْحا . فاستقبلت البيت وقلت : اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأخرج قِدْحه سبع مرات ، فضربت بها سبع مرات .فصحت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .فاجتمع الناس علىّ وقالوا : مجنون رجل صبأ . فقلت : بل رجل مؤمن . ثم جئت إلى رسول الله ﷺ بأعلى مكة . فلما رآنى معاذ بن عفراء قال : لقد جئت بوجه ما ذهبت به يا رافع . لقد جئت وآمنت . وعلّمنا رسول الله ﷺ سورة « يوسف » وسورة « العلق » : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق . خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [1] ثم خرجنا راجعين إلى المدينة .

نحن فى هذه النماذج الثلاثة التى تم لقاؤها مع رسول الله ﷺ نتناول قيادات كانت صاحبة القرار فى المدينة .

فسويد بن الصامت الذى سماه قومه (الكامل) لم يكن نكرة فى المدينة ، بل كان لثقافته وشجاعته لا ينازع فى الرئاسة . فقد انتهت القيادة إليه وإلى أبى قيس بن الأسلت فى مرحلة من المراحل ففى عام ٦٠٤ من الميلاد كانت يوم الربيع بين الأوس والخزرج . فاقتتلوا قتالاً شديداً كان أشد قتال بينهم ، وانتهت هذه الحرب بافتداء القتلى والصلح بين الحيين . وقال فيها أحد شعراء الخزرج :

ألا أبلغا عنى سويد بن صامت ... ورهط سويد بلغا وابن الأسلت
بأنا قتلنا بالربيع سراتكم ... وأفلت مجروحاً به كل مفلت

إلى أبيات أخرى .

فأجابه سويد بن الصامت :

ألا أبلغا عنى صخيراً رسالة ... فقد ذقت حرب الأوس فيها ابن الأسلت
قتلنا سراياكم بقتل سراتنا ... وليس الذي ينجو إليكم بمفلت[2]

لقد كان سويد علماً فى قومه الأوس . وله الشعر المشهور :

---

(١) سورة العلق .

(٢) المدينة فى العصر الجاهلى لمحمد عيد الخطراوى / ١٦٥ ـ ١٦٨ .

ألا رُبَّ من تدعو صديقاً ولو ترى مقالته بالغيب ساءك ما يُفرى
مقالته كالشهد ما دام شاهدا وبالغيب مأثور [1] على ثغرة النحر

ثم كانت الحروب الضروس ؛ حرب بعاث بين الأوس والخزرج والتى أفنت قيادات الطرفين ، وكان ممن قتل سويد بن الصامت ، حيث قتله المجذَّر بن زياد البلوى .

(وإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قتل وهو مسلم) .

أما الوفد الثانى فكان على رأسه أنس بن رافع أحد سادات الأوس . والذى جاء مع إياس بن معاذ الأشهلى ،ولعله أخو سعد بن معاذ رضي الله عنه . وعرض رسول الله ﷺ عليهم الإسلام . وأنس بن رافع هو من أعمام سعد بن معاذ فهو : أنس بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل . وسعد هو : سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل .

وكأن سعدا لم يكن قد بلغ بعد موقع الزعامة أمام عمه أنس . وكان أخوه إياس غلاماً حدثا جاء مع عمه أنس لذلك .

وسبب الحلف هو الهزائم المنكرة التى حلَّت بالأوس قبل حرب بعاث . حيث جاء هذا الوفد الأوسى الأشهلى يطلب الحلف من قريش على الخزرج . وفشل فى مهمته . فبعد توالى الهزائم الشنيعة على الأوس قرَّر كثير منهم ممن لم يدخلوا فى الصلح مع الخزرج أن ينتقلوا من يثرب إلى أى مكان آخر يجدون فى أرجائه الاستقرار والطمأنينة ويحفظ عليهم كرامتهم . وكان أول مكان توجهوا إليه هو مكة . فأظهروا أنهم يريدون العمرة وهم إنما خرجوا لطلب الحلف من قريش على الخزرج . وكانت عادتهم أنه إذا أراد أحدهم العمرة أو الحج لم يعترض خصمه طريقه ، ولم ينله بشر. كما لا ينال من ماله الذى تركه وراءه شيئا . ويعلق المعتمر على بيته كرانيف النخل ، فتُعلم وجهته ، فلا يتعرض له ولا لبيته أحد حتى يعود . ففعل الأوس ذلك وساروا إلى مكة ، وأخذوا يعارضون قريشا فى الحلف ، وقبل القرشيون محالفتهم ، وفرح الأوس بذلك فرحا كبيرا ، وراحوا يحلمون بالنصر على الخزرج والظفر بهم ، وكان أبو جهل غائبا عن الحلف ، فلما قدم أنكره وقال لقريش : أما سمعتم قول القائل : ويل للآهل من النازل . إنهم لأهل عدد وجلد ، ولقلما نزل قوم على قوم إلا أخرجوهم من بلادهم وغلبوهم عليها ، قالوا : فما المخرج من حلفهم ؟ قال : أنا أكفيكموهم . ثم خرج وأبطل الحلف بحيلة تتصل بموقف القرشيين من النساء بطريقة لا يرتضيها اليثربيون . . . وهكذا انتهت حروب يوم حاطب بهزيمة الأوس أمام الخزرج هزيمة نكراء . لم

(١) المأثور : السيف الموشى .

يستنقذهم منها بعد ذلك غير يوم بعاث [1] .

لقد كان خطة الحلف أن يقيم الأوسيون فى مكة . ومن هناك يحاولون التجمع والثأر من إخوانهم من الخزرج . وخشىَ أبو جهل قوتهم وصولتهم وأن يغلبوا على مكة ويسيطروا عليها فأبطل الحلف . غير أن سيد الخلق كان يبحث عن إيصال النور إلى هذه القلوب المتأججة بإحن الجاهلية .

فقال لهم : « هل لكم فى خير مما جئتم له » ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : «أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله عز وجل ولا يشركوا به شيئا وأنزل علىّ الكتاب » ، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

أما إياس بن معاذ الأشهلى، الغلام الحدث الذى لا يزال قلبه غضا طريًا بعيدا عن إحن الجاهلية . تسلل النور إلى قلبه وقال: أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له.

وأما السيد الكبير أنس بن رافع عم إياس . فقد كانت الثارات الجاهلية تذبح صدره ويريد أن يأخذ بثأره من الخزرج مع أى حليف كان. فلم يجد النور إلى قلبه سبيلاً قط . وأخذ حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال :

دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس . وقام رسول الله ﷺ عنهم . وانصرفوا إلى المدينة . وكانت وقعة بعاث .

أما إياس الغلام الحدث . فقد نوّر الإسلام قلبه (فلم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات . فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما) .

وهكذا نرى أن الإسلام الذى عُرض على قيادات الأوس . قد بقى فرديا وفى أعماق سويد وفى أعماق إياس . وانتهى الرجلان وقلوبهما عامرة بالإيمان.

وتختلف الصورة عنها عند الخزرج .

فرافع بن مالك بن العجلان ، ومعاذ بن عفراء ، هما من الخزرج المتنصرين وعندهم استعداد نفسى لسماع قصة هذا الرجل الذى يقول إنه نبى ورسول الله ﷺ ، يجوب مكة والمشاعر والمواسم . لينتقل هذا الدين إلى كل قلب . وحين فاته الإسلام المباشر من سويد بن الصامت ، ومن أنس بن رافع فلا يضيره أن يعرض هذا الأمر على الخزرجيِّين وهما من أقاربه وأخواله .

ويصف لنا رافع بن مالك بن العجلان . هذا اللقاء المبكر . وصفا أخاذا . حيث

(١) المدينة فى العصر الجاهلى للغمراوى / ١٧٧ ، ١٧٨ .

استطاع ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن ينفذ إلى أعماق الرجلين فى ذلك العرض المؤثر للعقيدة الإسلامية بحيث يحكم الطوق من كل جانب على الكفر. فيدفنه . وينتهى بهم إلى قوله : « الخالق أحق بالعبادة أو المخلوق ؟ » قلنا : الخالق . قال : « فأنتم أحق أن تعبدوا ربكم . والله أحق أن تعبدوه من شيء عملتموه ، وأنا أدعوكم إلى عبادة الله عز وجل وشهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » .

وعاد إلى يثرب ابنان من أبنائها . يحملان الإسلام فى قلبهما لتكون هى البذرة الأولى التى ألقيت فى الأرض العطشى إلى الغيث . وجاءت الرياح الهوج العاتية ، ورياح بعاث لتبقى تلك البذرة مدفونة إلى أجل . وبقيت هذه الإرهاصات . خيط نور تسلل فى لجج الظلمات .

حرب بعاث : ٦١٧ م :

قالت عائشة ـ رضى الله عنها : كان يوم بعاث يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ . فقدم رسول الله ﷺ ، وقد افترق ملؤهم ، وقتلت سرواتهم وجرحوا . فقدمه الله لرسوله ﷺ فى دخولهم فى الإسلام (١) .

ولنشهد هذه الحرب الضروس كما وردت فى أيام العرب . وذلك بعد فشل الأوس فى حلفهم مع قريش :

(رجع الأوس من عمرتهم خائبين ؛ لأنهم لم يفلحوا فى إقناع قريش بمحالفتهم ومناصرتهم على الخزرج ، وكادوا يسلمون بالأمر الواقع ويعطون السيادة للخزرج . ولكن اليهود لم يَحلُ لهم انتهاء الصراع على هذه الصورة فعملوا خلال الثلاث عشرة أو الأربع عشرة سنة من الهدنة على إشعال نار الحرب بين الجيشين مرة أخرى . وعرضت قريظة والنضير الحلف على الأوس لكى تقوّيا عزمهما على محاربة الخزرج . وصادف ذلك العرض هوىً فى نفوس الأوس . فقبلوا به وعقدوا عليه الآمال فى استرجاع هيبتهم ومكانتهم بيثرب .

يوم الفجار الثانى : كان تصفية لحساب يوم حاطب ، وإرهاصاً أو قنبلة لإشعال حرب بعاث .فلما سمع الخزرج بتحالف اليهود مع الأوس ضدهم أرسلوا إلى اليهود)(٢) .

(إن الأوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ، ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب ، فإن ظفرنا بكم فذاك ما تكرهون . وإن ظفرتم لم ننم عن

(١) البخارى م٢ ج٥ ص٣٨ باب مناقب الأنصار . (٢) المدينة فى العصر الجاهلى للغمراوى / ١٨٠ .

الطلب أبداً فتصيروا إلى ما تكرهون . ويشغلكم من شأننا ما أنتم الآن منه خالون . وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا ، فلما سمعوا ذلك علموا أنه الحق . فأرسلوا إلى الخزرج : أنه قد كان الذى بلغكم والتمست الأوس نصرنا وما كنا لننصرهم عليكم أبدا . فقالت لهم الخزرج : فإن كان ذلك كذلك فابعثوا إلينا برهائن تكون فى أيدينا . فبعثوا إليهم بأربعين غلاما منهم ، ففرَّقهم الخزرج فى دورهم ومكثوا بذلك مدة) [1] .

(ثم إن أحد الخزرج سكر يوما ثم جلس يتغنى بشعر ذكر فيه ذلة الأوس واليهود منه :

هـلمَّ إلى الأحلاف إذ رقَّ عظمهم وإذ أصـلحوا مـالاً بجذمان ضائعا
إذا مـا امـرؤ منـهم أسـاء عـمـارة بعـثنا علـيهم من ذوى العير جادعا

فبلغ غناؤه اليهود فغضبوا. وقال كعب بن أسد القرظى:نحن كما قال إن لم نغزُ . وحمل كعب قومه على محالفة الأوس . فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير ، ونشبت الحرب بين الأحلاف والخزرج واشتد القتال بينهم . وسميت تلك الحرب بالفجار الثانى وذلك لقتل الغلمان من اليهود) [2] .

مواصلة الحرب فى بعاث :

ثم إن عمرو بن النعمان البياضى[3] قال لقومه بياضة : إن أباكم أنزلكم منزل سوء بين سبخة[4] ومفازة[5] إنه والله لا يمس رأسى غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل ثم راسلهم : إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها ، وإما أن تقتل رهنكم[6] ؛ فهموّا أن يخرجوا من ديارهم . فقال لهم كعب بن أسد القرظى : يا قوم ، امنعوا دياركم وخلُّوه يقتل الرهُن . والله ما هى إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن . فاجتمع رأيهم على ذلك . فأرسلوا إلى عمرو بألاَّ نسلِّم لكم دورنا ، وانظروا الذى عاهدتم عليه فى رهُنِنا ،

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية : لمحمد أحمد جاد المولى بك وزملائه ط . ثالثة ٧٣ .
(٢) المدينة فى أيام الجاهلية للغمرواى / ١٨٠ . (٣) بياضة : قبيلة من الخزرج .
(٤) السبخة : أرض ذات نزٍ وملح . (٥) المفازة : الفلاة لا ماء بها .
(٦) وهو الرأى الثانى الذى سبب قتل الرهائن .

فقوموا لنا به ، فعدا عمرو بن النعمان البياضى على رُهُنهم هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوهم . وأبى عبد الله بن أبى وكان ـ سيداً حليماً ـ وقال : هذا عقوق ومأثم وبغى فلست معيناً عليه ولا أحد من قومى أطاعنى وخلّى عمن عنده من الرهُن .

فناوشت الأوس الخزرج يوم قتل الرهن شيئا من قتال غير كبير . واجتمعت قريظة والنضير إلى كعب بن أسد القرظى ، ثم تآمروا أن يعينوا الأوس على الخزرج . فبعثت إلى الأوس بذلك ثم أجمعوا عليه . على أن ينزل كل أهل بيت من النبيت على بيت من بنى قريظة . فنزلوا معهم فى دورهم ثم أرسلوا إلى سائر الأوس فى الحرب والقيام معهم على الخزرج فأجابوهم إلى ذلك .

فاجتمع الملأ منهم واستحكم أمرهم وجدُّوا فى حربهم ؛ فلما سمعت الخزرج اجتمعوا حتى جاؤوا عبد الله بن أبى وقالوا له : قد كان الذى بلغك من أمر الأوس وأمر قريظة والنضير ،واجتماعهم على حربنا وإنا نرى أن نقاتلهم. فإن هزمناهم لم يحرز أحد منهم معقلهُ ولا ملجأه حتى لايبقى منهم أحد . فلما فرغوا من مقالتهم قال لهم عبد الله : إن هذا بغى منكم على قومكم وعقوق . والله ما أحب أن رجلا من جراد [1] ألفيناهم. وقد بلغنى أنهم يقولون : هؤلاء قومنا منعونا الحياة أفيمنعوننا الموت ؟ والله إنى أرى قوما لا ينتهون أو يهلكوا عامتهم ، وإنى لأخاف إن قاتلوكم أن ينصروا عليكم لبغيكم عليهم . فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم . فإن ولوا فخلوا عنهم . فإن هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلّوا عنكم . فقال له عمرو بن النعمان البياضى :

انتفخ والله سحرك [2] يا أبا الحارث حين بلغك حلف الأوس وقريظة والنضير. فقال عبد الله : والله لا حضرتكم أبدا ، ولا أحد أطاعنى أبدا . ولكأنى أنظر إليك قتيلاً تحملك أربعة فى عباء . وتابع عبد الله رجال من الخزرج . واجتمع كلام الخزرج على أن رأسوا عليهم عمرو بن النعمان البياضى وولوه أمر حربهم ، ولبث الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ، ويجمع بعضهم لبعض ويرسلون إلى حلفائهم من قبائل العرب . فأرسلت الخزرج إلى جهينة وأشجع ، وأرسلت الأوس إلى مزينة وذهب حضير[3] الكتائب الأشهلى إلى أبى قيس بن الأسلت . فأمره أن يجمع له أوس الله . فجمعهم له أبو قيس . فقام حضير فاعتمد على قوسه وعليه نمرة[4] تشف عن

---

(١) رجلاً من جراد : جماعة الجراد .

(٢) انتفخ والله سحرك : أصل السحر ما التصق بالحلقوم والمرىء ويقال للجبان : انتفخ سحرهُ أى ملأ الخوف قلبه.

(٣) حضير : والد الصحابى الجليل أسيد بن حضير ، واسمه حضير بن سماك .

(٤) نمرة : بردة من صوف تلبسها الأعراب .

عورته . فحرضهم وأمرهم بالجد فى حربهم ، وذكر ما صنعت بهم الخزرج من إخراج النبيت ، وإذلال من تخلف من سائر الأوس فى كلام كثير ، وجعل كلما صنعت بهم الخزرج يستشيط ويحمى فأجابته أوس الله بالذى يحب من النصرة والمؤازرة والجد فى الحرب .

ثم اجتمعت الأوس مرة أخرى فأجالوا الرأى . فقالوا : إن ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحدا ولم نقاتلهم كما كنا نقاتلهم . فقال حضير : يا معشر الأوس ما سميتم الأوس إلا لأنكم تؤسون[1] الأمور الواسعة

يا قوم قد أصبحتم دُوَّارا لمشعر قد قتلوا الخيارا

يوشك أن يستأصلوا الديارا

ثم طرحوا بين أيديهم تمرا . وجعلوا يأكلون ، وحُضير الكتائب جالس وعليه بردة له اشتمل بها الصمّاء [2] وما يأكل معهم ولا يدنو إلى التمر غضبا وحُنقا . فقال : ياقوم، اعقدوا لأبى قيس بن الأسلت . فقال لهم أبوقيس : لا أقبل ذلك فإنى لم أرأس على قوم حرب قط إلا هُزموا وتشاءموا برياستى .

ثم جاءتهم أوس مناة وقدمت مزينة . فانطلق حضير وأبو عامر الراهب إلى أبى قيس . فقالوا : قد جاءتنا مزينة واجتمع إلينا من أهل يثرب ما لا قبل للخزرج به . فما الرأى إن نحن ظهرنا عليهم الإنجاز أم البقية ؟ فقال أبو قيس: اقتلوهم حتى يقولوا بزابز[3] . ثم اختلفوا فى ذلك فأقسم حضير الا يشرب الخمر، أو يظهر ويهدم مزاحما أطم عبد الله بن أبى ، ثم لبثوا شهرين يعدون ويستعدون وكان اللقاء ببعاث ، وحشد الحيَّان . فلم يتخلف عنهم إلا من لا ذِكر له ، ولم يكونوا حشدوا قبل ذلك فى يوم التقوا فيه . فلما رأت الأوس الخزرج أعظموهم وقالوا لحضير :

يا أبا أسيد ، لو حاجزت القوم . وبعثت إلى من تخلّف من حلفائك من مزينة؟

فطرح قوساً كانت فى يده ثم قال : أنتظر مزينة . وقد نظر إلىّ القوم ونظرت إليهم؛الموت قبل ذلك ، واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت الأوس حين وجدوا مس السلاح فولوا مصعدين فى حرة قورى[4] .فنزل حضير وصاحت بهم الخزرج : أين الفرار ؟

(١) تؤسون : تعالجون الأمور الواسعة .

(٢) اشتمل الصماء : أن يرد الكساء من قبل يمينه على يسراه ، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى فيغطيهما جميعا .

(٣) بزابز :كلمة كانوا يقولونها إذا غُلبوا .

(٤) حرة قورى : موضع فى نواحى المدينة .

فلما سمع حضير طعن بسنان رمحه فخذه ونزل وصاح : واعقراه [١] والله لا أريم[٢] حتى أقتل . فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلمونى فافعلوا . فتقطفت عليه الأوس . وقام وعلى رأسه غلامان من بنى عبد الأشهل وهما يومئذ مُعْرِسان [٣] ذوا بطش فجعلا يرتجزان ويقولان :

أى غــلامــى مــلك ترانا   فى الحرب إذ دارت بنا رحانا

وعــدَّد النــاس لــنا مكــانا

فقاتلا حتى قُتلا ، وأقبل سهم حتى أصاب عمرو بن النعمان البياضى رأس الخزرج فقتله ، لا يدرى من رمى به ثم انهزمت الخزرج ، ووضعت الأوس فيهم السلاح ، وصاح صائح : يا معشر الأوس اسجحوا [٤] ولاتهلكوا إخوتكم . فتناهت الأوس وكفَّت عن سلبهم بعد إثخان فيهم ، وسلبتهم قريظة والنضير وحملت الأوس حضيراً من الجراح التى به وهم يرتجزون حوله ويقولون :

كـتيـبة زينــها مــولاها   لا كـهـلها هُدَّ ولا فـتاها

وجعلت الأوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها . ثم خرج سعد بن معاذ الأشهلى حتى وقف على باب بنى سلمة وأجارهم وأموالهم جزاءً لهم بيوم الرعل [٥] . وأقسم كعب بن أسد القرظى ليُذِلَّن عبد الله بن أبى . وليحلقن رأسه تحت حصْنه مزاحِم . فناداه كعب : انزل يا عدو الله . فقال عبد الله: أنشدك الله! أما خذَّلتُ عنكم. فسأل عمّا قال ، فوجده حقاً . فرجع عنه .

وخرج حضير الكتائب وأبو عامر الراهب حتى أتيا أبا قيس بن الأسلت بعد الهزيمة فقال له حضير : يا أبا قيس ! إن رأيت أن نأتى الخزرج قصرا قصرا . ودارا دارا نقتل ونهدم حتى لا يبقى أحد ، فقال أبو قيس : والله لا نفعل ذلك. فغضب حُضير وقال : ما سميتم الأوس إلا لأنكم تؤسون الأمر أوساً ، ولو ظفرت الخزرج بمثلها ما أقالونا . ثم انصرف إلى الأوس فأمرهم بالرجوع إلى ديارهم.

وثَقُل على حُضير الجرح . فذهب به كليب بن عبد الأشهل إلى منزله . فلبث

---

(١) العقر : قطع قوائم البعير بالسيف لينحر .   (٢) لا أريم : لا أغادر .
(٣) معُرسان : متزوجان حديثا .   (٤) اسجحوا : أحسنوا العفو .
(٥) أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى بك وزملائه / ٧٣ ـ ٧٩ .

عنده أياماً ثم مات . فقال خُفاف بن نُدْبة يرثيه :

أتــانــى حــديثٌ فـكـذّبتُـه وقيــل خــليلك فى المرقس
فيــا عــين بكى حُضَير النّدى حُضير الكـتائب والمجـلس
ويــوم شــديد أوار الحــديد مابــين سـلع إلــى الأعـرس

وفى ذلك اليوم قال قيس بن الخطيم الأوسى قصيدته المشهورة :

أتعرف رسـمـا كأطـراد المـذاهب لعمرة وحـشا غير موقف راكب (١)

حرب إبادة :

لقد تميزت هذه الحرب عن سابقتها بأنها حرب إبادة . شملت كل فروع الأوس والخزرج . ولم تكتف بذلك . فأشركت حلفاءها من اليهود داخل المدينة . ومن قبائل العرب خارجها . مثل مزينة حلفاء الأوس . وأشجع وجهينة . ولم تكن حربا وليدة ساعة . أو نفثة غضب ثم تسكن . لقد استمر الإعداد لها أربعين صباحا . وفى بعض الروايات تشير إلى أن استمرار التعبئة والاستعداد قد بلغ شهرين . إنها حرب طاحنة ضروس . وظاهر فى أسبابها طغيان الخزرج على الأوس واستعلاؤهم عليهم . حتى ليبلغ الأمر بالأوس أن يفكروا بالإقامة بمكة يتحالفوا مع قريش . ويعدوا العدة لمواجهة الخزرج .

وقد حدد أبعادها عبد الله بن أبى وهو يتحدث عن الوضع النفسى الرهيب الذى وصل إليه الأوس :

هؤلاء قومنا منعونا الحياة ، أفيمنعوننا الموت . والله إنى أرى قوما لا ينتهون أو يهلكوا عامتهم .

ولقد كان قرار الفريقين ألا تكون حربا تقليدية كسابقتها . بل تكون حربا فاصلة مدمرة .

فهذا ابن أبى وهو ـ ممن لا يرى الحرب ـ يشير على قومه الخزرج أن تكون حربا تقليدية :

(فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم ، فإن ولوا فخلوا عنهم . فإن هزموكم

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى بك وزملائه / ٧٣ ـ ٧٩ .

فدخلتم أدنى البيوت خلُّوا عنكم) . فيرفض رأيه ويتهم بالجبن . ويقف القائد الدموى الحاقد يعيِّره لهذا الموقف الضعيف :

(انتفخ والله سَحْرُك يا أبا الحارث حين بلغك حِلف الأوس وقريظة والنضير) ، ويفوز رأى عمرو بن النعمان البياضى الداعى إلى المواجهة الشاملة الفاصلة ، وتنتهى قيادة الخزرج إليه .

وكذلك بالنسبة للأوس . حيث أجالوا الرأى فقالوا : (إن ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحداً . ولم نقاتلهم كما كنا نقاتلهم . فقال حُضير : يا معشر الأوس ، ما سُميتم الأوس إلا لأنكم تؤسون الأمور الواسعة) . وحضير صاحب الرأى المتطرف هذا من بين قيادات الأوس . انتهت إليه القيادة العامة للأوس وحلفائهم . فى قرار حازم لإنهاء الوجود الخزرجى من المدينة .

لقد استعرت الحرب بين الطرفين . بكل العنف والقسوة والمجالدة والصبر والحيلة التى يمكن أن تقع بين حيين من العرب ، وبذلك اكتسب الفريقان خبرة قتالية هائلة . وتكوَّن جيل محارب صلب من الطرفين كان هو الأداة التى أعدَّها الله ذخرا للإسلام فى مواجهة الكفر كله فيما بعد ، وكانوا كما وصفوا أنفسهم فيما بعد . بين يدى رسول الله ﷺ :

« إنا لصبُرٌ فى الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، فسر بنا على بركة الله ، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك » .

وكانوا كما وصفهم عمير بن وهب الجمحى فى أول لقاء بينهم وبين قريش : (البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ،ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعى ، زرق العيون ، كأنهم الحصا تحت الجحف . قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم) (١) .

لقد كانت بعاث هى المدرسة الحربية التى تخرجوا منها، إضافة إلى حروب سابقة . لكنها لم تكن على مستوى بعاث . وقد دخلوا جميعاً هذه المدرسة الحربية ليكونوا القادة بعدها فى حرب المشركين ، وكما روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قوله : « إن الله أمدنى بأشد الناس ألسنا وأذرعا . بابنى قبلة ، الأوس والخزرج » .

---

(١) السيرة الحلبية ٢/٣٩٦ .

مقتل القيادات :

ولابد من الحديث عن دور القيادات فى حرب بعاث :

فقد كان عمرو بن النعمان البياضى ، والذى آلت إليه قيادة الحرب هو الذى يمثل الجانب المتطرف . ويريد أن يجلى الأوس عن المدينة :

(وإنا نرى أن نقاتلهم . فإن هزمناهم لم يُحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد) . وهو الذى صمّم ابتداءً على احتلال أرض اليهود عنوة واقتداراً ، فقال يخاطب قومه :

(إن أباكم أنزلكم منزل سوء بين سبَخة ومفازة ، وإنه والله لا يمس رأسى غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل) . ثم راسلهم فقال :

(إما أن تخلُّوا بيننا وبين دياركم نسكنها ، وإما أن نقتل رُهُنكم) .

فهموا أن يخرجوا من ديارهم .

وكان موقف ابن أُبَىّ ـ أحد قادتهم الكبار ـ صريحا من هذا الرأى : (إن هذا بغىٌ منكم على قومكم وعقوق) . وذلك حين قرروا إجلاء الأوس عن أراضيهم حين يتحقق النصر .

أما موقف قائد الأوس حُضير بن سماك . فكان موقف الدفاع عن الأرض والعرض حتى الموت . وموقف إنهاء تسلط الخزرج على الأوس ولو بقتلهم جميعاً .

وقد قدّر الله تعالى أن تنتهى المعركة بمقتل القائدين . ولا شك أن بطولة حضير ، وعبقريته القيادية ، وشجاعته واستبساله هو الذى قلب موازين المعركة . وتفانى الأوس من حوله ، وذودهم عن قائدهم غيَّر الهزيمة إلى نصر .

فالفدائيان الأوليان اللذان سقطا بين يديه . كانا يرتجزان :

أى غلامى ملك ترانا   فى الحرب إذا دارت بنا رحانا
وعدّد الناس لنا مكانا

ثم تفانى الأوس بعدها بين يديه . وهو مثخن بالجراح وهم يرتجزون حوله ويقولون :

كتيبة زينها مولاها   لا كهلها هُدَّ ولا فتاها

ونقول : لم يسقط القائدان فقط فى المعركة قتلى . إنما سقطت معظم القيادات

صرعى فيها . فسويد بن الصامت وغيره . قتلوا فيها .

وحين نسمع وصف المعركة لقيس بن الخُطيم يقول فيها :

رجالٌ متى يدْعوا إلى الموت يرقلوا[1] إليه كإرقال الجمال المصاعب
إذا ما فررنا كان أسوا [2] فرارنا صدود الخدود وازورار المناكب
صدود الخدود والقنا متشاجر ولا تبرح الأقدام عند التضارب
إذا قصّرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا بالتقارب

فكم قُتل من القيادات ، والرجال الأشداء من أجل تحقيق الوصف السابق، وكما فعل حُضير حين بدأ الأوس يفرون .

واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت الأوس حين وجدوا مس السلاح ، فولوا مصعدين . فنزل حضير وطعن بسنان رمحه فخذه ونزل وصاح : واعقراه ، والله لا أريم حتى أقتل . فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلمونى فافعلوا .

ومثل هذا الموقف بعد الفرار ، والعودة للمواجهة ، يعنى أن أعدادا ضخمة من القتلى خرت صريعة وهى تدافع عن قائدها المغوار ، وتصد الهجوم العنيف .

ثم الانتقال من الهزيمة إلى النصر ، حيث نشهد الصورة الثانية كما يقدمها قيس بن الخطيم :

أطاعت بنو عوف [3] أميرا نهاهم عن السلم حتى كان أول واجب [4]
رضيت، لعوف أن تقول نساؤهم ويهزأن منهم ، ليتنا لم نحارب
صبحناكم بيضاء يبرُق بيْضها تبين خلاخيل النساء الهوارب
أصاب صريح القوم غرب سيوفنا [5] وغودر أولاد الإماء الحواطب [6]

صحيح أن النصر انتهى للأوس ، ولكن الصحيح كذلك كما قالت عائشة ـ رضى الله عنها : (فقدِم رسول الله ﷺ ، وقد افترق ملؤهم وقُتِلت سرواتهم وجرحوا . .) .

---

(١) يرقلوا : يسرعوا .
(٢) أسوا : مدرجة عن أسوأ .
(٣) بنو عوف : كناية عن الخزرج .
(٤) أول واجب : أوَّل ميّت .
(٥) غرب السيوف : حدها .
(٦) أولاد الإماء الحواطب : أى نجا من الموت أبناء حمالات الحطب من النساء .

وما الذى يعنينا من هذه القضية ونحن بصدد الحديث عن التربية القيادية فى السيرة النبوية ؟

أود أن أقارن بين صورتين تجليان الهدف المقصود .

لقد بعث رسول الله ﷺ فى مكة . وقياداتها من كل بطن من بطونها تملأ الساحة، وحين تُعقد دار الندوة . يجتمع الملأ كله من كل بطن ، ويتخذ القرار المناسب .

وكان الملأ من قريش هو صاحب القرار والقيادة فى مكة. وهو الذى واجه الدعوة والداعية بكل عناصر المواجهة الفكرية والسياسية . وأعلن حرباً على الرسول ﷺ وصحبه .

ولم يتمكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يصل إلى الجماهير فى مكة ؛ لأن الملأ الذى يقودها ، يحول بينها وبينه. وكان مشيخة قريش هم الذين يقودون هذه المواجهة .

فكان الانضمام فرديا ذاتيا . حيث تكون الساحة مواتية للتربية الفردية ، على روية ومهل ، واستمر الأمر على ذلك ثلاثة عشر عاما . ولما يتجاوز المسلمون فى مكة المائتين.

ولم تشأ إرادة الله عز وجل ، أن ينضم الملأ إلى الإسلام ، وتنضم مكة كلها بعد ذلك إليه .

ولم تتحطم هذه القيادات . ذات السطوة والسلطة من جيل الكبار إلا فى غزوة بدر، أى بعد خمسة عشر عاما من البعثة . حيث سقط أربعة وعشرون قائدا فيها . وانتقل الأمر إلى جيل الشباب ليقود المواجهة . والذى لم يصمد أكثر من ست سنوات، إلا وأصبح كله ضمن الخط الإسلامى .

لقد كانت هذه المرحلة تحتاج إلى بناء قيادات بعيدة عن أن تنهكها الأحداث وتقتلها المواجهة فتسرع الخطا فيها ، وكان الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى هم حزب الله الذى يُرعى على عينه ، فى مواجهة الملأ الذين استكبروا والذين أُترفوا . أما نحن الآن فأمام مرحلة جديدة ، تختلف سماتها عن المرحلة السابقة .

إن مقتل القيادات الكبرى ، والتى كانت صخرة كؤودا دون الانتشار الجماهيرى للدعوة . والتى تحمل كل عتوٍّ الجاهلية . وأمراض الجاهلية ، وعنجهية الجاهلية . لم يتم إلا بعد خمسة عشر عاماً من البعثة .

هذا فى مكة . وكان هذا فى غزوة بدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .

أما فى المدينة . فقد كانت بعاث هى التى هيأت جوّ المدينة . كما هيأت بدر جوَّ

مكة ، وتم هذا الأمر قبل دخول الإسلام إلى المدينة . حيث تحل القيادات الشابة مكان القيادات الجاهلية العاتية الأولى . لتتحرك هى بالإسلام . وتفتح الطريق أمام الجماهير فى المدينة . لتنضم تحت لواء الإسلام دون أن تكون إحن الجاهلية ، وعصبية الجاهلية، تطغى على الحق الصراح ، وتغطى العيون عن النور .

لقد اختصرت بعاث خمسة عشر عاماً من عمر الدعوة ، وفعلت فى المدينة، ما فعلته بدر فى مكة .

وخلال أربع سنوات فقط ، أو خمسة من الإعداد والتربية . أصبحت المدينة هى معقل الإسلام الأول وعاصمته ، وقيادته .

لقد قُتِل الذين كان من الممكن أن يواجهوا الدعوة . أعواماً طويلة حفاظاً على مصالحهم ومواقعهم ومراكزهم ، وكانوا قادرين على حرب الإسلام عمراً مديداً قبل وصوله إلى الجماهير فى يثرب .

وللتأكيد على هذه الفكرة . والتى ذكرتها عائشة رضى الله عنها . نستعرض الصورة الثالثة:

بقايا القيادات القديمة :

لقد انتهت بعاث ، وأبقت ثلاث شخصيات كبرى فى المدينة ، لم ينلها القتل ، وهذه القيادات التى مرّ ذكرها معنا هى فى الأوس :

ـ أبو قيس بن الأسلت : والذى عرضت عليه القيادة فرفضها وسلّمها لحضير الكتائب .

ـ وأبو عامر الراهب : الذى كان أحد الثلاثة الكبار (حضير ، وأبو قيس ، وأبو عامر) والذين قرروا مصير الخزرج فى المراحل الأخيرة من الحرب .

ـ وفى الخزرج بقيت الشخصية القيادية الوحيدة الكبرى والمعارضة لعمرو بن النعمان البياضى ، والتى رفضت الحرب أصلاً هى شخصية عبد الله بن أبى .

ولنستعرض هذه الشخصيات الثلاثة ، ودورها بعد دخول الإسلام إلى المدينة:

أبو قيس بن الأسلت :

لقد كان من أوائل المطالبين لقريش بالكف عن رسول الله ﷺ عندما كان فى مكة . والمذكرين لقريش بتجنب المواجهة والحرب مع المسلمين .

قال ابن إسحاق : (فقال أبو قيس بن الأسلت ـ وكان يحب قريشاً ، وكان لهم صهراً ، كانت عنده أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته ـ قصيدة يعظم فيها الحرمة ، وينهى قريشاً عن الحرب ، ويأمرهم بالكفِّ بعضهم عن بعض ، ويذكر فضلهم وأحلامهم ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ ويذكِّرهم بلاء الله عندهم ، ودفعه الفيل وكيده عنهم :

وقل لهم والله يحكم حكمه ... ذروا الحرب تذهب عنكم فى المحارب
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... هى الغول للأقصيين أو للأقارب
تقطِّع أرحاما وتهلك أمة ... وتبرى[1] السديف[2] من سنام وغارب
ألم تعلموا ماكان في حرب داحس[3] ... فتعتبروا أو كان فى حرب حاطب[4]
أقيموا لنا دينا حنيفاً فأنتم ... لنا غاية قد يُهتدى بالذوائب
وأنتم لهذا الناس نور وعصمة ... تؤمون والأحلام غير عوازب[5]
وأنتم إذا ما حُصِّل الناس جوهر ... لكم سُرَّة البطحاء شُمُّ الأرانب[6]
ترى طالب الحاجات حول بيوتكم ... عصائب هلكى تهتدى بعصائب)[7]

أبو قيس هذا الذى ينطق بالحكمة ويدعو إلى الصلح ونبذ الحرب والذى كان موقفه فى غاية الحكمة عندما رفض إبادة الخزرج قائلاً : والله لا نفعل ذلك هو الذى وقف فى وجه الإسلام مع قومه حرصاً على زعامته .

يقول ابن إسحاق ـ عقب إسلام سعد بن معاذ ـ عن راوييه : (فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة . ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد ، وخطمة ووائل وواقف . وتلك أوس الله وهم من الأوس بن حارثة . وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت ، وهو صيفى . وكان شاعراً لهم وقائداً يستمعون منه ويطيعونه . فوقف بهم عن الإسلام ، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق . وقال فيما رأى من الإسلام ، وما اختلف الناس فى أمره:

---

(١) تبرى : تقطع .
(٢) السديف : لحم السنام . والغارب : أعلى الظهر .
(٣) حرب داحس والغبراء : بين عبس وذبيان .
(٤) حرب حاطب : بين الأوس والخزرج .
(٥) الأحلام غير عوازب : العقول غير غائبة .
(٦) شم الأرانب : شم الأنوف كناية عن العزة .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٥٤ ـ ٢٥٦ دار الجيل .

أربُّ النـــاس أشـــياءَ ألَّـــت ... يُلـــف الصـــعب منها بالذلول(١)
أربٌّ النـــاس أمَّـــا إذ ضــللنا ... فيسِّـــرنا لمـــعـروف الســـبيل
فـــلولا ربُّـــنا كـــنا يهـــوداً ... ومـــا ديـــن اليهود بذى شكول(٢)
ولـــولا ربُّـــنا كـــنَّا نصـارى ... مـع الرهبـان فـى جـبل الجليل
ولكـــنَّا خُلِقـــنا إذ خُلِـــقنا ... حنيـــفا ديننـا عــن كـل جيل)(٣)

وفى الإصابة ـ عند ابن حجر ـ يقول عنه :

(وذكر ابن سعد عن الواقدى بأسانيد عديدة قالوا : لم يكن أحد من الأوس والخزرج أوصف لدين الحنيفية ، ولا أكثر مسألة عنها من أبى قيس بن الأسلت . . . ثم خرج إلى مكة معتمراً فبلغ زيد بن عمرو بن نفيل فكلّمه فكان يقول : ليس على دين إبراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو . وكان يذكر صفة النبى ﷺ ، وأنه يهاجر إلى يثرب . وشهد وقعة بعاث . وكانت قبل الهجرة بخمس سنين. فلما قدم النبى ﷺ المدينة جاء إليه فقال : إلام تدعو ؟ فذكر له شرائع الإسلام. فقال : ما أحسن هذا وأجمله ! فلقيه عبد الله بن أبى بن سلول فقال : لقد لذت من حزبنا كل ملاذ ، تارة تحالف قريشا ، وتارة تتبع محمدا . فقال : لا جرم لا تبعته إلى آخر الناس . فزعموا أنه لمّا حضره الموت أرسل النبى ﷺ يقول له :

« قل لا إله إلا الله أشفع لك بها . فسُمِع يقول ذلك . وفى لفظ كانوا يقولون : فقد سُمِعَ يُوَحِّد عند الموت . وحكى أبو عمر هذه القصة الأخيرة فقال: إنه لما سمع كلام النبى ﷺ قال : ما أحسن هذا ! أنظر فى أمرى وأعود إليك . فلقيه عبد الله بن أبى فقال له : أهو الذى كانت أحبار اليهود تخبرنا عنه ؟ فقال له عبد الله : كرهت حزب الخزرج . فقال : والله لا أسلم إلى سنة . فمات قبل أن يحول الحول على رأس عشرة أشهر من الهجرة » (٤) .

وبغض النظر عنه أنه أسلم أم لا . لكن الثابت أن قومه امتنعوا عن الإسلام . وبقوا جزيرة من الشرك فى وسط بحر الإسلام الزاخر حتى توفى . وأعاد لنا صورة عتبة بن ربيعة يوم بهره القرآن ثم أصر على شركه ، وصورة الوليد بن المغيرة يوم بهره القرآن فاستفزّه أبو جهل . فأصر على كفره . وصورة أبى طالب ، وهو يدعو إلى

---

(١) الذلول : السهل اللين .
(٢) بذى شكول : بذى موافقة .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩١ .
(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر م٤ ج٧ ١٥٨ .

الإسلام ، ولا يقول كلمة التوحيد حتى لا يلحق العار ببنى عبد المطّلب أنه قالها خوفا من الموت . فإذن مثّل لنا نموذجاً من نماذج الملأ الذين حالت نفوسهم وزعامتهم دون الإسلام ، وحجزوا قومهم عنه . ونموذج أحبار اليهود الذين لما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين .

أبو عامر الراهب وابن أبي :

وندع الحديث لابن إسحاق عنهما ، قال :

(وقدم رسول الله ﷺ المدينة ـ كما حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ـ وسيد أهلها عبد الله بن أبى بن سلول العوفى ثم أحد بنى الحُبلى ـ لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره ، ومعه من الأوس عبد عمرو بن صيفى بن النعمان أحد بنى ضبيعة ابن زيد وهو أبو حنظلة الغسيل ـ يوم أحد ـ وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح، وكان يقال له الراهب فشقيا بشرفهما وضرّهما .

فأما عبد الله بن أبى ،فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ،ثم يملّكوه عليهم . فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك . فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضَغِن[1] ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام ، دخل فيه كارهاً مصراً على نفاقٍ وضغن . وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ ـ كما حدّثنى ابن أبى أمامة عن بعض آل حنظلة بن أبى عامر : « لا تقولوا الراهب ، ولكن قولوا الفاسق »)[2] .

قال ابن إسحاق : (وحدثنى جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم . وكان قد أدرك وسمع ، وكان راوية :

إن أبا عامر أتى رسول الله ﷺ حين قدم إلى المدينة قبل أن يخرج إلى مكة . فقال له : ما هذا الدين الذى جئت به ؟ فقال: « جئت بالحنيفية دين إبراهيم» . قال : فأنا عليها . فقال له رسول الله ﷺ : « إنك لست عليها » . قال : بلى ، قال : إنك يا محمد أدخلت فى الحنيفية ما ليس منها . قال : «مافعلت ولكنى جئت بها بيضاء نقية». قال الكاذب ـ أماته الله طريداً غريبا وحيدا ـ يعرِّض برسول الله ﷺ ـ : أى أنك جئت

(١) ضغن : اعتقد العداوة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦٧ .

بها كذلك ؟ قال رسول الله ﷺ : « أجل ، فمن كذب ، فعل الله تعالى ذلك به » . فكان ذلك عدو الله . خرج إلى مكة ، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف . فلما أسلم أهل الطائف التحق بالشام . فمات بها طريدا غريبا وحيدا .

وأما عبد الله بن أبى، فأقام على شرفه فى قومه مترددا حتى غلبه الإسلام ، فدخل فيه كارها .

قال ابن إسحاق : (فحدّثنى محمد بن مسلم الزهرى ، عن عروة بن الزبير ، عن أسامة بن زيد بن حارثة ـ حِبّ رسول الله ﷺ ـ قال : ركب رسول الله ﷺ إلى سعد ابن عبادة يعوده من شكوٍ أصابه على حمار عليه إكاف (١) . فوقه قطيفة فدكية مختطمة بحبل من ليف ، وأردفنى رسول الله ﷺ خلفه . قال : فمرّ بعبد الله بن أبى وهو فى ظل مزاحِم أُطُمه (٢) ، وحوله رجال من قومه . فلما رآه رسول الله ﷺ تذمَّم من أن يجاوزه حتى ينزل . فنزل فسلم ، ثم جلس قليلاً ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله عز وجل ، وذكّر بالله وحذّر وبشّر وأنذر . فقال وهو زام (٣) لا يتكلم حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته ، قال : يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدّثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تفُتَّه به (٤) ، ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه . فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى ، فاغشنا به وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ، ومما أكرمنا الله به ، وهدانا له . فقال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تَذِلَّ ويصرعك الذى تصارع
وهل ينهض البازى جناحه وإن جُذَّ يوما ريشه فهو واقع

وقام رسول الله ﷺ ، فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عبد الله بن أبى . فقال : والله يارسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً . لكأنما سمعت شيئاً تكرهه. قال : « أجل » ، ثم أخبره بما قال ابن أبى . فقال سعد : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لننظم له الخرز لنتوّجه ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً) (٥) .

ولابد من الإشارة إلى نهاية الخط الذى سار به الزعيمان فى حرب الإسلام. كما

---

(١) إكاف : البرذعة .
(٢) الأُطُم : الحصْن ، ومزاحم اسمه .
(٣) زام : ساكت .
(٤) لاتفته به : لا تكثره عليه .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٦٨ ـ ٢٧٠ .

شهدنا نهاية أبى قيس بن الأسلت . وقد مثّل ثلاثتهم تلك القيادات القديمة التى تعبد نفسها وتدور حول ذاتها .

فهذا هو عبد الله بن أبى بعد وفاته :

قال ابن إسحاق : (وحدّثنى الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : (لما توفى عبد الله بن أبى دُعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه . فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحوّلت حتى قمت فى صدره . فقلت : يا رسول الله ، أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى بن سلول ؟ القائل كذا يوم كذا ؟ والقائل كذا يوم كذا ؟ أعدّد أيامه . ورسول الله ﷺ يبتسم حتى إذا أكثرت ، قال : « أخِّر عنى ، إنى قد خيِّرت فاخترت . قد قيل لى **﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾** (١) ، فلو أعلم أنى إن زدت عن السبعين غُفِر له لزدت » . قال ثم صلى عليه رسول الله ﷺ . ومشى معه حتى قام على قبره . حتى فُرِغَ منه . قال : فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله ﷺ . والله ورسوله أعلم . فوالله ماكان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: **﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾** (٢)، فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق حتى قبضه الله تعالى .) (٣) .

وبقى ابن أبى إذن زعيم النفاق ، بعد أن كان زعيم الخزرج حتى آخر لحظة من حياته .

وأما أبو عامر الراهب ، فرأينا الرواية السابقة التى انتهت به غريباً وحيداً طريداً فى الشام . لكننا نذكر هنا محاولته اليائسة يوم أحد :

قال ابن إسحاق : (حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، أن أبا عامر عبد عمرو بن صيفى بن مالك بن النعمان أحد بنى ضبيعة . وقد كان خرج حين خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله ﷺ معه خمسون غلاماً من الأوس . وبعض الناس كان يقول : كانوا خمسة عشر رجلا. وكان يَعِدُ قريشاً أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان . فلما التقى الناس كان أوَّل مَن لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعُبدان أهل مكة. فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ؛ قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يافاسق ـ كان أبو عامر يسمى فى الجاهلية الراهب،فسماه رسول الله ﷺ الفاسق ـ فلما سمع ردّهم عليه قال :

---

(١) التوبة / ٨٠ .　　(٢) التوبة / ٨٤ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ١٤٥ ، ١٤٦ دار الجيل .

لقد أصاب قومى بعدى شر .ثم قاتلهم قتالاً شديداً ،وراضخهم بالحجارة) [1] .(وهو الذى حفر الحفر المغطاة التى وقع بها رسول الله ﷺ) [2] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٩٧ ، ٩٨ .

(٢) كما فى السيرة ٣ / ١٥ (ووقع رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون).

قيادات شابة

مر معنا فى الفصل السابق أن أول رجلين دخل الإسلام إلى قلبهما هما معاذ بن الحارث ، ورافع بن مالك بن العجلان .

أما معاذ بن الحارث : فيحدثنا عنه عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه يوم بدر فيقول :

(بينا أنا واقف فى الصف يوم بدر نظرت عن يمينى وشمالى . فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما ـ تمنيت لو كنت بين أضلع منهما (١) ـ فغمزنى أحدهما فقال: يا عم ، هل تعرف أبا جهل ؟ . قال : قلت : نعم . وما حاجتك إليه يابن أخى ؟ قال : أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ . والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده (٢) حتى يموت الأعجل منا (٣) . قال : فتعجبت لذلك . فغمزنى الآخر فقال مثلها . فلم أنشب (٤) أن نظرتُ إلى أبى جهل يزول فى الناس ، فقلت : ألا تريان : هذا صاحبكما الذى تسألان عنه. قال: فابتدراه فضرباه بسيفيهما ـ حتى قتلاه ـ ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه. فقال : « أيكما قتله ؟ » فقال كل واحد منهما : أنا قتلت . فقال : « هل مسحتما سيفيكما ؟ » قالا : لا . فنظر فى السيفين فقال : « كلاكما قتله » . وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح) (٥) .

والرجلان : معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن عفراء .

فمعاذ بن الحارث : هو نفسه معاذ بن الحارث ، أول الأنصار إسلاما ، غلام حديث السن .

ورافع بن مالك بن عجلان ، ليس بين يدينا ما يشير إلى سنه ، لكن الذى يشير إلى زعامته جانبان :

الأول : (كان رافع بن مالك من الكملة . وكان الكامل فى الجاهلية الذى يكتب ويحسن العوم والرمى ، وكان رافع كذلك . وكانت الكتابة فى الناس قليلاً) (٦) .

---

(١) أضلع منهما : أقوى منهما . (٢) سوادى سواده : شخصى شخصه .
(٣) يموت الأعجل منا : يموت الأقرب أجلاً . (٤) لم أنشب : لم ألبث .
(٥) مسلم : ج٣ ، ك الجهاد والسير ح ١٧٥٢ ص ١٣٧٢ .
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٦٢٢ .

الثاني : (روى الزبير بن بكار فى أخبار المدينة ، عن عمرو بن حنظلة أن مسجد بنى زريق أول مسجد قرئ فيه القرآن ، وأن رافع بن مالك لما لقى رسول الله ﷺ بالعقبة أعطاه ما أنزل عليه فى العشر سنين التى خلت . فقدم به رافع المدينة ثم جمع قومه فقرأ عليهم فى موضعه . فقال : وعجب النبى ﷺ من اعتدال قلبه) (١) .

وزعامة رافع بن مالك ليست مستحدثة بل هى موروثة كابراً عن كابر . وما قامت حربُ سُمير بين الأوس والخزرج إلا لإثبات زعامة أبيه مالك بن العجلان .كما تذكر الرواية التالية :

(ظلّ الحيان على اتفاق ووئام ، حتى وفد على المدينة وافد من ذبيان اسمه كعب الثعلبى ، ونزل على مالك بن العجلان الخزرجى ، وحالفه وأقام معه ، ثم خرج كعب يوماً إلى سوق بنى قينقاع . فرأى رجلاً من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب . فقال رجل : فلان . وقال رجل آخر : أحيحة بن الجلاح الأوسى . وقال غيرهما : فلان ابن فلان اليهودى أفضل أهلها، وقال كعب الثعلبى : مالك بن عجلان أعز أهل يثرب . وكثر الكلام ، ثم قبل الرسول قول كعب الثعلبى ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان الخزرجى . فقال كعب: ألم أقل لكم إن حليفى مالكاً هو أفضلكم. فغضب من ذلك رجل من الأوس من بنى عمرو بن عوف يقال له : سُمير بن يزيد وشتمه وافترقا . وبقى كعب ما شاء الله، ثم قصد سوقاً لهم بقباء ، فقصده سمير ولازمه حتى قتله) (٢) .

فنحن أمام نموذجين فذين ، أحدهما شاب حديث السن يتقطر حيوية وجرأة. وثانيهما قائد يملك مقومات الزعامة والقيادة . فهو من الكملة فى مجتمعه . ومن أجل هذا خاض النبى ﷺ حواراً محكماً طويلاً . أنهى كل شبهات الجاهلية من نفسه واستقبل الإسلام بكل كيانه وذاته ، ووجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهلاً لذلك فأعطاه كل ما عنده خلال السنوات العشر . فتلقاها بقلب مفتوح ولب ذكى . وعجب رسول الله ﷺ لاعتدال قلبه . وقدرته على الاستيعاب والحفظ والفهم . ومن أجل هذا كان أحد القادة الاثنى عشر ، الذين قام عليهم عمود الإسلام فى المدينة . واختاره ﷺ يوم العقبة الثالثة نقيبا عن بنى زريق .

ولعله حسب الروايات المتعاضدة أول من نقل الإسلام إلى المدينة ، وتحرك فيه. وأول من أقام مسجداً قرئ فيه القرآن فى بنى زريق .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة م١ ج٢ / ١٩٠ .

(٢) أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى وزملائه / ٦٢ .

السنة الثانية : العقبة الأولى ، الستة :

وكانت فى رجب ، وقال الزهرى ، وابن عقبة ، وابن إسحاق :

فلما أراد الله سبحانه وتعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقى فيه الأنصار . فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقال لهم: « من أنتم ؟ » قالوا : نفر من الخزرج . قال : « أمن موالى يهود ؟ » قالوا : نعم . قال : « أفلا تجلسون أكلمكم ؟ » قالوا : بلى ، من أنت ؟ فانتسب إليهم وأخبرهم خبره. فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله لهم به من الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا قد غزوهم فى بلادهم . وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان . فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم :

إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه ، فنقتلكم قتل عاد وإرم .

فلما كلَّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، أيقنوا به واطمأنت نفوسهم إلى ماسمعوا منه ، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته . فقال بعضهم لبعض: يا قوم ، تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنَّكم إليه . (فأجابوه إلى ما دعاهم إليه) ، بأن صدّقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ثم قالوا :

قد علمت الذى بيننا من الاختلاف وسفك الدماء . ونحن حِراص على ما أرسلك الله به . مجتهدون لك بالنصيحة . وإنا لنشير عليك برأينا . فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا . فنذكر لهم شأنك ، وندعوهم إلى الله ورسوله . فلعل الله يصلح ذات بينهم ، ويجمع لهم أمرهم . فإنا اليوم متباغضون متباعدون . ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل .

فرضى بذلك رسول الله ﷺ . وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا. وهم ـ فيما ذكر ابن إسحاق فى روايته ـ ستة نفر من الخزرج :

١ ـ من بنى النجار : أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عُبيد بن ثعلبة بن غنم ابن مالك بن النجار .

٢ ـ عوف بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك ابن النجار .

٣ ـ ومن بنى زريق : رافع بن مالك بن العجلان بن عامر بن زريق بن عبد حارثة ابن مالك بن غَضْب بن جشم بن الخزرج . قال ابن الكلبى : وهو أول من أسلم من الأنصار .

٤ ـ ومن بنى سلمة : ابن سعد بن على بن أسد : قُطبةُ بن عامر بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج .

٥ ـ ومن بنى حرام : عُقبة بن عامر بن نابى بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة .

٦ ـ ومن بنى عبيد : ابن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة : جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد .

لعلَّ هذا الوفد قد تحرك بجهد دؤوب من رافع بن مالك رضي الله عنه ومعاذ ابن الحارث اللذين أشرق قلبهما بالإسلام . ودفع معاذ أخاه عوفاً ليتجه مع الوفد . وعاد رافع نفسه معهم ليشهد قلوباً جديدة تنفتح للخير والهدى والنور .

وطبيعة الخزرج السمحة نطَّلع عليها من هذه الاستجابة العفوية الصادقة :

من أنتم ؟ نفر من الخزرج . أمن موالى يهود ؟ نعم ، أفلا تجلسون أكلمكم؟ . بلى . من أنت ؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله ـ عز وجل .

ومحمد ﷺ ليس نكرة عندهم . فهو ابن عبد المطلب وهم أخواله . وخاصة بنى النجار . وهذا كان له الأثر الطيب فى تقبل مبادئ هذا الدين الجديد والسماع لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، غير أن الأثر الأكبر لقبول هذا الهدى والاستجابة له هو وجود يهود فى المدينة .

والخزرج اليوم فى حرب رهيبة من اليهود ، وفى جراح عميقة منهم . فهم حلفاء أعدائهم الأوس . وهم الذين مضوا فى حربهم بعد النصر . وذلك كما تقول الرواية عن حرب بعاث . فصاح صائح : يا معشر الأوس ، اسجحوا ولا تهلكوا إخوانكم . فتناهت الأوس وكفت عن سلبهم بعد إثخان فيهم . وسلبتهم قريظة والنضير .

فالأمر بين الخزرج واليهود بالذات . قد تجاوز مرحلة المعايشة إلى مرحلة الحقد والأخذ بالثأر . ومما كان يؤجج نار الحقد اشتعالاً التهديد المستمر من اليهود للخزرج والأوس ، أنهم سيبيدونهم جميعاً عن بكرة أبيهم بعد قدوم النبى المنتظر الذى أظل زمانه .

والعرب أميون لا يفقهون شيئاً من النصرانية واليهودية ، واليهود يزعمون أن كتبهم تنصُ على ذلك . فقدر الله واقع لا محالة على أهل يثرب من غير اليهود ، وهذه بعاث طلائعه .

فجاءت دعوات الهدى من الرسول الكريم ﷺ كوابل المطر على الأرض الظمأى للغيث . فهذا هو النبى الذى توعَّدهم به يهود . فلم لا يسبقون اليهود إليه ؟ .

إنها للفرصة التى لاتُفَوَّت فى العمر ، ورأوا فى وجه المصطفى ـ صلوات الله عليه، ذلك الإشراق الربانى الخالد الذى يجعل الصدق يقطر منه .

لقد كانت اندفاعة للإسلام بكل ما يحمل القلب من تصميم وإصرار على حيازة هذا النور الإلهى . ومن أجل ذلك لم يقف الأمر فقط عند إسلامهم وانتهى الأمر . إنه عرض جديد يبحث عنه المصطفى ﷺ منذ سنوات :

« من يؤوينى حتى أبلِّغ رسالة ربى » .

وهؤلاء الصيد من الخزرج يعرضون التريث لبحث أمر الدعوة كلها ، لا أمر الدخول فى الإسلام فقط :

(قد علمت الذى بيننا من الاختلاف وسفك الدماء . ونحن حِراصٌ على ما أرسلك الله به . مجتهدون لك بالنصيحة . وإنا لنشير عليك برأينا فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله ورسوله . فلعل الله يصلح ذات بينهم ويجمع لهم أمرهم . فإنا اليوم متباغضون متباعدون) .

إنها أمة تبحث عن قائد . وقد وجدته . وهذا القائد هو رسول الله تعالى رب العالمين ، المنصور المظفر من الله عز وجل . صحيح أن عبد الله بن أبى هو الملك الذى تم الاتفاق عليه ، ويوشك أن يعقد له التاج فى المدينة . وهو من الخزرج أنفسهم . ولكن معطيات جديدة الآن غيرت الموقف كله . فهم اليوم يلتقون بالنبى الموحى إليه من السماء . والمرسل من الله رب السموات والأرض . فلا يقارن هذا أبداً مع شخص عادى من قياداتهم . وهم لاينسون أبداً أن ابن أبى فرضته ظروف الحرب . فالأوس وافقت عليه على مضض ؛ لأنه لم يشارك فى الحرب . والخزرج وافقت عليه على مضض ؛ لأن الأوس قبلوه . ولم تنس الخزرج أنه خذلهم ، ولم يشترك معهم ضد الأوس فى الحرب .

إن هذا العنصر الجيد الذى دخل فى الساحة . غيَّر تركيب القضية برمتها. فليست دعوة لسيادة قائد على قائد ، أو عشيرة على عشيرة . إنها دعوة لأن يصبحوا هم أنصار

هذا النبى . فيقتلون به أعداء الله من اليهود وغيرهم ، وينشرون دعوة الله فى الأرض تحت رايته .

وظفر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الطليعة العظيمة ؛ لتكون نواة بناء جديد لدولة منتظرة ، أو موقع جديد لدعوة مظفرة .

(ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل . فرضى بذلك رسول الله ﷺ وانصرفوا راجعين إلى بلادهم .وقد آمنوا وصدقوا) .

لقد وضعت البذور الصالحة العظيمة . فى الأرض المعطاء . وحتى عام قادم يوشك أن تورق الأرض . وتعشوشب الأرض . فحيهلا بالقادم الجديد .

ونقف مع هذه الطليعة الستة التى كانت منار الهدى فى الأرض ، حيث قد استعرضنا قَبْلُ عوفاً مع أخيه معاذ ، وهما الغلامان حدثا السن . والتقينا مع القائد العظيم رافع بن مالك بن العجلان الذى كان سيداً من سادات قومه .

أما خال رسول الله ﷺ : فهو أسعد بن زرارة سيد بنى النجار . هذا الفتى المتألق حيوية وقوة ورجولة وبطولة ويشع ذكاءً وقاداً ، وقلباً منيراً ، وعقلاً نيراً لماحاً . وهو أصغر الجميع فلعله فى سن عوف بن الحارث .

لقد كان يدرك عظم المهمة التى تصدى لها ، واستعد لمواجهتها . فهو يريد أن يقود انقلاباً فى قومه ، ويدرك أبعاد هذا الانقلاب كاملاً . فهو الذى قال لقومه يوم بيعة العقبة الثانية .

(فقمنا نبايعه ، فأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا (١) ، فقال : رويداً يا أهل يثرب . فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله . وإنّ إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف . فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم . وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة . فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة . فذروه فهو أعذر لكم عند الله) (٢) .

فنحن أمام شاب يدرك أنه يقود انقلاباً بقومه يواجه به العرب كافة . ومضى فى دربه ليحقق ذلك الهدف . وترك له عليه الصلاة والسلام مع الفتية الخمسة الآخرين

---

(١) الراوى هو جابر بن عبد الله رضي الله عنه وكان عمره أحد عشرعاماً حين شهد بيعة العقبة الثانية مع أبيه عبد الله ابن عمرو بن حرام .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ٤٦ ، وقال فيه : «رواه أحمد والبزار . ورجال أحمد رجال الصحيح » .

العمل لتهيئة الجو لهذا الانقلاب . وبين يدينا رواية تشير إلى أنه سبق إلى رسول الله ﷺ قبل عام من هذا اللقاء .

(فعن خبيب بن عبد الرحمن قال : خرج أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس إلى مكة إلى عتبة بن ربيعة ، فسمعا برسول الله ﷺ فأتياه ، فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن ، فأسلما فكانا أول من قدم المدينة بالإسلام) (١) .

وإن كان الواقدى نفسه راوى الحديث يرجح أن هذا اللقاء مع الستة هو اللقاء الأول فيقول :

(وأمر الستة أثبت الأقاويل عندنا أنهم أول من لقى النبى ﷺ من الأنصار ، فأسلموا ولم يسلم قبلهم أحد) (٢) .

وأما رابعهم فقطبة بن عامر بن حديدة . تقول عنه كتب التراجم :

(شهد العقبة الأولى والثانية ، لم يختلفوا فى ذلك . وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وكانت معه راية بنى سلمة يوم الفتح ، وجرح يوم أحد تسع جراحات ، ورمى يوم بدرٍ حجراً بين الصفين وقال : لا أفر حتى يفر هذا الحجر) (٣) .

فهو جندى عظيم من أرفع الجنود بطولة وتضحية.

وأما خامسهم ، فهو جندى فدائى كذلك :

(شهد العقبة الأولى وبدراً وأحداً . وأعلم بعصابة خضراء فى مغفرة ،وشهد الخندق والمشاهد واستشهد باليمامة) (٤) .

وأما سادسهم ، فهو جابر بن عبد الله بن رئاب وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث . وتوفى وليس له عقب) (٥) .

وهو غير جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام المشهور .

لقد كان فى هؤلاء النفر الستة قائدان فقط : هما أسعد بن زرارة من سادة بنى

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٠٢ وقال المحقق فيه : رواه ابن سعد ٣ / ٢ / ١٣٩ ،وفى سنده الواقدى .

(٢) الطبقات الكبرى ٣ / ٦٠١ .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ٤٠٦ .

(٤) الإصابة م٢ ج٤ / ٢٥١ .

(٥) الطبقات الكبرى ٣ / ٥٧٤ .

النجار ، ورافع بن مالك بن العجلان سيد بنى زريق من الخزرج . وهما اللذان حملا عبء التهيئة فى صف يثرب للموعد الجديد فى الموسم القادم . وهما اللذان أدركا أبعاد إسلامهما ، وتحركا به لتحقيق عملية التغيير فى الأرض كلها وعلى مستوى الأرض العربية آنذاك .

السنة الثالثة : العقبة الثانية ، الاثنا عشر :

قال ابن إسحاق : فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء . وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب . وهم أسعد بن زُرارة ، وذكوان بن عبد قيس الزّرقى ، وعبادة بن الصامت ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعُقبة بن عامر بن نابى ، وعوف بن الحارث بن رفاعة ، وعويم بن ساعدة ، ومالك بن التيهان ، ومعوذ بن الحارث أخو عوف السابق ، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن البلوى حليف لهم . فبايع هؤلاء على بيعة النساء رسول الله ﷺ .

وروى الشيخان والبيهقى واللفظ له عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:

بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . قال: « فمن وفى ذلك منكم فأجره على الله » وفى لفظ « فله الجنة » ، « ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو فى الدنيا كفارة له وطهور. ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فأمره إلى الله إن شاء عذّب وإن شاء غفر » . فبايعناه على ذلك .

قال ابن إسحاق : فلما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وذكر ابن إسحاق فى رواية أن رسول الله ﷺ بعث مصعباً حين كتبوا إليه ببعثه إليهم وهو الذى ذكره موسى بن عقبة إلا أنه جعل المرة الثانية هى الأولى قال البيهقى وسياق ابن إسحاق أتم . وأمره رسول الله ﷺ أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين . فكان يسمى فى المدينة المقرئ والقارئ وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس أبى أمامة .

مضى عام كامل . وكانت ثمرة جهد هذا العام أن تضاعف العدد من الستة إلى اثنى عشرمسلماً لكنه عام انتقاء واصطفاء. وكان وراء ذلك أسعد بن زرارة ورافع بن مالك ـ رضى الله عنهما. فقد كان الستة الجدد هم ذكوان بن عبد قيس ،عبادة بن الصامت ، يزيد بن ثعلبة ، العباس بن عبادة بن نضلة ،أبو الهيثم بن التيهان ، عويم بن ساعدة .

لقد مثل بنى النجار فى هذه البيعة ثلاثة هم : أسعد بن زرارة ، وعوف ، ومعاذ ابنا الحارث وهما ابنا عفراء . فكان بنو النجار أخوال رسول الله ﷺ ربع الوفد .

ومن بنى زريق سبق أن تحدثنا عن رافع بن مالك بن العجلان . وشارك منهم من جديد .

٧ ـ ذكوان بن عبد قيس : وذكوان سيد من سادات بنى زريق . وسبق أن عرضنا الرواية التى تشير إلى أنه ثانى من أسلم من الأنصار حين خرج مع أسعد بن زرارة إلى مكة يتنافران عند عتبة بن ربيعة . فلقيا رسول الله ﷺ وأسلما على يديه ورجعا إلى المدينة .

والجديد الذى يذكر فى سيرة هذا السيد العظيم أنه لم يمض بعد هذه البيعة إلى المدينة . بل بقى فى مكة أو ذهب وعاد .

(شهد ذكوان العقبتين جميعاً فى روايتهم جميعاً . وكان قد لحق برسول الله ﷺ بمكة فأقام معه حتى هاجر معه إلى المدينة فكان مهاجرياً أنصارياً وشهد بدراً وأحداً . وقتل يوم أحد شهيداً قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق. .) (١) .

ولكنه قبل أن يستشهد . أخذ شهادة عليا تؤهله دخول الجنة . (فقد روى ابن المبارك فى الجهاد ، عن عاصم بن عمر ، عن سهيل بن أبى صالح لما خرج النبى ﷺ إلى أحد قال : « من ينتدب ؟ » فقام رجل من بنى زريق يقال له ذكوان بن عبد قيس أبو السبع فقال له النبى ﷺ :

« من أحب أن ينظر إلى رجل يطأ بقدمه غداً خضرة الجنة فلينظر إلى هذا » وذكر الحديث بطوله) (٢) .

٨ ـ **عبادة بن الصامت** : وهذا قائد آخر من القادة الكبار الذين تم اصطفاؤهم ليشاركوا فى هذا الوفد الجديد . ولا أدلَّ على قيادته من أن رسول الله ﷺ اصطفاه ليكون أحد النقباء الاثنى عشر الذين حملوا عبء المسؤولية والقيادة فى المدينة ـ كان رجلاً طوالاً جسيماً جميلاً ويقال طوله ثمانية أشبار ـ فهو الإمام القدوة أبو الوليد الأنصارى ، أحد النقباء ليلة العقبة ، ومن أعيان البدريين . سكن بيت المقدس . . . وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ (٣) .

قال محمد بن كعب القرظى: جمع القرآن فى زمن النبى ﷺ خمسة من الأنصار :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٩٣ . (٢) الإصابة فى تمييز الصحابة / م١ / ٢ / ١٧٢ .
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٥ .

معاذ ، وعبادة ، وأبى ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب . فلما كان عمر كتب يزيد بن أبى سفيان إليه إن أهل الشام كثير وقد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم . فقال أعينونى بثلاثة . فقالوا : هذا شيخ - كبير لأبى أيوب ، وهذا سقيم - لأبىّ . فخرج الثلاثة إلى الشام . فقال : ابدؤوا بحمص فإذا رضيتم منهم . فليخرج واحد إلى دمشق وآخر إلى فلسطين (١) .

لقد كان مُعلّم الأمة فى الشام . وهو فى المعارك القائد الذى لا يشق له غبار . قال ابن يونس : شهد مصر ، وكان أمير ربع المدد .

ويعنى بقوله : (أمير ربع المدد) أنه كان أميراً على ألف من أربعة آلاف بعثهم عمر رضي الله عنه مدداً لعمرو بن العاص لفتح مصر . لكن الأهم أنه كان أحد الأربعة الذين كان يحسب كل واحد منهم بألف فارس . وليس هذا الحساب من باب التهويل والمبالغة عند الجيل الرائد ، بل من باب الواقع الحسى . ولنستمع إلى هذا الواقع كما ورد فى كتاب (فتوح مصر) لابن عبد الحكم .

(... لما أبطأ الفتح عليه - أى عمرو بن العاص - كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك : فأمده عمر بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم رجل، وكتب إليه عمر بن الخطاب : إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف ؛ الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد وقال آخرون : بل خارجة بن حذافة ولا يعدون مسلمة منهم - وقال عمر بن الخطاب: اعلم أن معك اثنى عشر ألفاً ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة) (٢) .

فقد كان جيش عمرو رضي الله عنه من حيث العدد الفعلى ثمانية آلاف وأربعة. لكنه بحساب عمر رضي الله عنه وبالحساب الإسلامى الدقيق هم اثنا عشر ألفاً. حيث يحسب القادة الكبار الأربعة كل واحد منهم بألف . وهذا الفهم منطلق من القرآن نفسه حين حسب الواحد بعشرة والواحد بمائة ويرتفع الخلص ليكون الواحد بألف أو أكثر .

وعبادة بن الصامت رضي الله عنه ودوره فى حرب مصر ينوف عن الألوف .

أما عمر عبادة رضي الله عنه عندما أسلم مع الوفد كان فى عرامة الشباب ، كان فى الخامسة والثلاثين من عمره .

بقى أن نعرف أن بنى العوف ابن الخزرج كان يقال لهم القواقل .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٦ .

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم / ٦١ .

قال ابن هشام : (وإنما قيل لهم القواقل ، لأنهم كانوا إذا استجار بهم الرجل دفعوا له سهماً وقالوا له : قوقل به بيثرب حيث شئت) (١) .

٩ ـ يزيد بن ثعلبة : وهوحليف لبنى عوف بن الخزرج ، وهو من بنى غضينة من بلى. شارك مع عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنهما ـ فى تمثيل بنى عوف .

١٠ـ العباس بن عبادة بن نضلة : وهو من بنى سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج .

وله الموقف المشهود فى العقبة الثانية :

قال ابن إسحاق : (وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أن القوم لما اجتمعوا لبيعة النبى ﷺ ، قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى أخو بنى سالم بن عوف : يامشعر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا: نعم . قال :

إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه . فمن الآن . فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال،وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فالعباس بن عبادة رضي الله عنه تناول مع أسعد بن زرارة أبعاد هذه البيعة وخطورتها . ليضع القوم عند مسؤولياتهم بعدها . ويحث القوم على التمسك بها ، كما قال عاصم ابن عمر بن قتادة :

والله ما قال ذلك العباس إلا ليشدَّ العقد لرسول الله ﷺ فى أعناقهم وله الكلمة المشهودة الثانية التى استعد بها لتنفيذ العقد من لحظة توقيعه ، ومواجهة أهل الموسم من العرب جميعاً . وذلك عندما صرخ شيطان العقبة يحرض قريشاً عليهم :

والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك) (٢) .

ومواقفه هذه تنم عن شخصيته الفذَّة الرائدة .

١١ ـ أبو الهيثم بن التيهان :وبرز عمق التخطيط عند ابن زرارة رضي الله عنه فى عرض أمر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٤ ، والقوقلة : ضرب من المشى .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٠٢ .

الإسلام على قيادات الأوس العدو ، اللدود ؛ لأن أمر الإسلام ليس أمر الخزرج ، إنه أمر الله تعالى إلى خلقه ، فلابد من مد جسور إلى الأوس ، تجعل الفريقين على أرض صلبة واحدة . إنه تحرر من العصبية القبلية المقيتة ، واستضاءة بنور الإسلام العظيم . فكان أن شارك فى الوفد شخصيتان مهمتان من الأوس أولاهما : مالك بن التيهان من بنى عبد الأشهل وهو حليف فيهم . وعلى رأى أنه من بلى من قضاعة ، أو أصيل فيهم من بنى جشم ابن الحارث بن مالك بن الأوس . لكنه على الرأيين يتبوأ موقع السيادة فى قومه . وقد اصطفاه عليه الصلاة والسلام واحداً من النقباء الاثنى عشر .

وبين أسعد وأبى الهيثم خطوط عقيدية منذ الجاهلية كما قال الواقدى :

(وكان يكره الأصنام فى الجاهلية ويؤفِّف بها ، ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة) (١) .

وبرز دوره فى العقبة الثانية فى موقفين :

الموقف الأول : عندما قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ـ يعنى اليهود ـ وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » . قال ابن هشام : (ويقال : الهدم الهدم يعنى الحرمة : أى ذمتى وذمتكم وحرمتى حرمتكم) (٢) .

وأبو الهيثم يعلم دور الحلف الأخير بين الأوس وبين قريظة والنضير ، والذى أدى إلى تحقيق النصر الحاسم فى بعاث . وهو يريد أن يتعرف على طبيعة هذا الحلف الجديد. هل هو حلف عابر أم بيعة مصيرية ؟ وكان الجواب العظيم من سيد الخلق عليه الصلاة والسلام أن جعل نفسه جزءاً من الأنصار والأنصار جزءاً منه : أنا منكم ، وأنتم منى . دمى دمكم . وحرمتى حرمتكم ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

الموقف الثانى : هو أنه كان أول من ضرب على يدى رسول الله ﷺ ، قال ابن إسحاق : (فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة ـ أسعد بن زرارة ـ كان أول من ضرب على يده ، وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان) (٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى ٣ / ٤٤٨ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٩٦ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٠١ .

١٢ ـ **عويم بن ساعدة** : أما ثانى سادات الأوس فهو عويم بن ساعدة .

ويكفينا به شهادة رسول الله ﷺ فيما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

« نعم العبد ، من عباد الله ، والرجل من أهل الجنة : عويم بن ساعدة » (١) .

وقال موسى بن عقبة وهو يسوق لنا شهادة ثانية من السيد المصطفى ـ صلوات الله عليه وسلم ـ فيه :

(وبلغنى أنه لما نزلت فيه : ﴿ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾(٢). قال رسول الله ﷺ : منهم عويم بن ساعدة ») (٣) .

قال موسى: وكان عويم بن ساعدة أول من غسل مقعدته بالماء فيما بلغنا. والله أعلم.

وتأتى شهادة الفاروق رضي الله عنه وهو واقف على قبر عويم بعد شهادة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

(لايستطيع أحد من أهل الأرض أن يقول : إنه خير من صاحب هذا القبر. ما نصب رسول الله ﷺ راية إلاوعويم تحت ظلها) (٤) .

لقد استطاع أسعد بن زرارة رضي الله عنه خلال عام كامل أن يجمع نخبة من خيرة أهل يثرب ويهديهم إلى الإسلام ، ويقنعهم بقيادة جديدة يكون لها السلطة والسيادة فى يثرب غير عبد الله بن أبى. وبايع هؤلاء الاثنا عشر كما يقول عبادة رضي الله عنه :

(بايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض الحرب : على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولانسرق ، ولانزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولانأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولانعصيه فى معروف . فإن وفيتم فلكم الجنة . وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر) (٥) .

لقد كان القائد الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد لقاء الستة ، يريد لبنات إيمانية بعيدة عن الجانب السياسى فى هذه المرحلة . وكان الاتجاه كله ينصب على صهر هذه اللبنات ابتداءً من الأوس والخزرج ، وتربيتها لتكون قادرة على الخروج من إسار قمقم الجاهلية ، وقياداتها . فكانت هذه البيعة استمراراً لهذا المنهج . إنه قبل أن يشغلهم

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٥٩ ، ٤٦٠ . (٢) التوبة / ١٠٨ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٥٩ ، ٤٦٠ . (٤) الإصابة لابن حجر م٣ ج٥ ٤٥ .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٨٦ .

بالبناء السياسى والانقلاب العسكرى يود أن يصيغهم بعيداً عن ذاتهم ويعيد بناءهم من جديد فى ارتباط كامل بالله سبحانه وتعالى وبرسوله . فهو يريدهم ابتداءً ليس جنوداً فقط . بل يريدهم جنوداً مؤمنين،وعليهم أن يتربوا على الجندية الخالصة ، والطاعة لله ولرسوله من دون أى قيادة ثانية : (وألا نعصيه فى معروف) .

ومن خلال هذه التجربة يمكن أن تكون الانطلاقة الثانية .

إنه يمكننا أن نقول : إن تحولاً جديداً تم فى الخطة النبوية . فبعد أن كان يرتاد القبائل واحدة تلو الأخرى ، ويطلب منها الحماية والنصرة .وبعد أن التقى بهذه النخبة الجديدة المنتقاة فى بيعة العقبة الأولى . يريدها أن تسلم أولاً وتحقق بعدها انقلاباً إسلامياً خالصاً ، وليس وضعاً يحمى الدعوة . بقيادة جاهلية . كما كان الأمر مع أبى طالب .

لقد كان لقاء الستة عفوياً . وعناصره فيها شخصيتان قياديتان ، وتمثل نصف مجتمع يثرب وهم الخزرج . فكان لابد من تجربة جديدة تحمل نخبة منتقاه على مستوى يثرب كلها من الأوس والخزرج ودون ارتباط بعملية التغيير العامة فى المدينة . دون أن يكون هناك جانبان يتباحثان . لكل جانب شروطه . بل يريد الإسلام أولاً . والتحرك بهذا الإسلام ثانياً فى مرحلة لاحقة .

وهكذا نجد متابعة هذه الخطة وذلك فى تكوين قاعدة صلبة داخل يثرب ومن خلال فرز قائد جديد يمضى إلى الساحة مباشرة ، ويمثل رسول الله ﷺ شخصياً .

هذا القائد هو قائد دعوى ، وليس قائداً عسكرياً فقط .

إنه مصعب بن عمير الذى مضى على إعداده وتربيته وتكوينه ما ينوف عن عشرة أعوام ، ومرّ بأعنف التجارب ، حتى خلص من كل حظوظ نفسه . ويكفى أن نستعيد صورته الآن :

أما صورته الأولى قبل الإسلام فكانت :

(كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً وسبيباً . وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه . وكان أعطر أهل مكة . يلبس الحضرمى من النعال . فكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول : « ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير») (١) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ١١٦ .

أما صورته الثانية بعد الإسلام :

فبلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام فى دار أرقم بن أبى الأرقم . فدخل عليه فأسلم وصدّق به . وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه . فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً ، فبصر به عثمان بن طلحة يصلى ، فأخبر أمه وقومه ، فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى (١) .

لقد كان السجن هو المدرسة الأولى للتدريب لمصعب ، وكانت الهجرة هى المدرسة الثانية .

(. . . ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا . فرجع متغير الحال قد حرج - يعنى غَلُظَ - فكفت أمه عن العذل) (٢) . وكانت الهجرة الثانية للحبشة هى المدرسة الثالثة .

فعن عروة بن الزبير قال : بينا أنا جالس يوماً مع عمر بن عبد العزيز - وهو يبنى المسجد - فقال :

أقبل مصعب بن عمير ذات يوم - والنبى ﷺ جالس فى أصحابه - عليه قطعة نمرة قد وصلها بإهاب قد ردّنه ثم وصله إليها . فلما رآه أصحاب النبى ﷺ نكسوا رؤوسهم رحمة له ، ليس عندهم ما يغيِّرون عنه ، فسلَّم . فرد عليه النبى ﷺ . وأحسن عليه الثناء وقال : « الحمد لله ليقلب الدنيا بأهلها . لقد رأيت هذا - يعنى مصعباً - وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة فى الخير فى حب الله ورسوله » (٣) .

فمصعب رضي الله عنه قد خاض كل الامتحانات العسيرة فى مدرسة النبوة الأولى ، ونجح فيها جميعاً - حُبس وعُذب وهاجر وفُتن . فما ازداد إلا صلابة فى دينه وتمسكاً فى عقيدته . وتخلى عن دنياه كلها ونعيمها فى سبيل الله .

ونعود بعدها إلى صفاته الشخصية التى تؤهله لهذه المسؤولية العظيمة :

فهو فى صفاته الجسدية شبيه رسول الله ﷺ ، الذى كان أحسن الناس خلقاً . قال ابن إسحاق : (وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل ، وكان الذى قتله ابن قمئة الليثى وهو يظنه رسول الله ﷺ . فرجع إلى قريش وقال : قتلت محمداً) (٤) .

وهو فتى قريش جمالاً وشباباً .

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ١١٦ (٣) المصدر نفسه ٣ / ١٢٣ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٣ دار الجيل .

أما صفاته الخُلقية : فيحدثنا عنه صديقه وصفيه عامر بن ربيعة رضي الله عنه يقول:

كان مصعب بن عمير لى خدناً وصاحباً منذ يوم أسلم إلى أن قتل ـ رحمه الله ـ بأحد، خرج معنا إلى الهجرتين جميعاً بأرض الحبشة . وكان رفيقى من بين القوم . فلم أر رجلاً قط . كان أحسن خلقاً ، ولا أقل خلافاً منه) [١] .

إن أعظم صفات الداعية أن يتمتع بهذا الخلق السمح الهنى (ولا أقل خلافاً منه).

وهو أخيراً من بنى عبد الدار . الذين يحملون أعظم مأثرتين فى مكة ، الحجابة واللواء . فهو مؤهل سياسياً وعسكرياً . بالإضافة إلى تأهيله الدعوى والتربوى .

وهذه ثانى مهمة يحملها صحابى مسؤولية كاملة . فقد كان جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه هو أمير المسلمين فى الحبشة . وهذا مصعب رضي الله عنه يحمل مسؤولية قيادة الدعوة فى المدينة .

وعلى اختلاف الروايات أن يكون عليه الصلاة والسلام قد بعث مصعباً مباشرة مع النخبة الاثنى عشرية . أو أنه مضى بناءً على طلبهم . كما روى الواقدى عن شيوخه :

(لما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر ، وفشا الإسلام فى دور الأنصار . أرسلت الأنصار رجلاً إلى رسول الله ﷺ . وكتبت إليه كتاباً :

ابعث إلينا رجلاً يفقهنا فى الدين ، ويقرئنا القرآن) .

فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير .

الإسلام يغزو يثرب :

روى محمد بن عمر عن شيوخه قال : (لما انصرف أهل العقبة الاثنا عشر ، وفشا الإسلام فى دور الأنصار ، أرسلت الأنصار رجلاً إلى رسول الله ﷺ . وكتبت إليه كتاباً : ابعث لنا رجلاً يفقهنا فى الدين ويُقْرِئنا القرآن .

فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ، فقدم فنزل على أسعد بن زرارة . وكان يأتى الأنصار فى دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن فيسلم الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام وفشا فى دور الأنصار كلها والعوالى ، إلا دوراً من أوس الله وهى : خطمة ووائل وواقف [٢] . وكان مصعب يقرئهم القرآن ويعلّمهم . فكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم ، فأذن له وكتب إليه :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ١١٤ .

(٢) وهى التى تحدثنا عنها من قبل ؛ لتوقف زعيمهم أبى قيس بن الأسلت عن الإسلام .

«انظر من اليوم الذى يجهر فيه اليهود لسبتهم . فإذا زالت الشمس فازدلف إلى الله فيه بركعتين ، واخطب فيهم » . فجمع بهم مصعب بن عمير فى دار سعد بن خيثمة ، وهم اثنا عشر رجلاً . وما ذبح لهم يومئذ إلا شاة . فهو أول من جمع فى الإسلام جمعة .

وقد روى قوم من الأنصار أن أول من جمع بهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، ثم خرج مصعب بن عمير من المدينة مع السبعين الذين وافوا رسول الله ﷺ فى العقبة الثانية من حاجِّ الأوس والخزرج ، ورافق أسعد بن زرارة فى سفره ذلك . فقدم مكة ، فجاء منزل رسول الله ﷺ أولاً ولم يقرب منزله . فجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام - واستبطأهم رسول الله ﷺ - فسر رسول الله ﷺ بكل ما أخبره . وبلغ أمَّه أنه قد قدم فأرسلت إليه : يا عاقّ ، أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بى ؟ فقال : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ . فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت له : إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ؟ قال : أنا على دين رسول الله ﷺ ، وهو الإسلام الذى رضى الله لنفسه ولرسوله . قالت : ما شكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ، ومرة بيثرب . فقال : أفر بدينى أن تفتنونى . فأرادت حبسه فقال : لئن أنت حبستنى لأحرصنّ على قتل من يتعرض لى . قالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكى . فقال مصعب : يا أمه ، إنى لك ناصح ، عليك شفيق ، فاشهدى أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . قالت : والثواقب لا أدخل فى دينك فيُزرى برأيى ويضعَّف عقلى . ولكنى أدعك وما أنت عليه . وأقيم على دينى) (١) .

أول جمعة أقيمت بالمدينة :

قال ابن إسحاق :(وحدثنى محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ، عن أبيه أبى أمامة ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال :

كنت قائد أبى - كعب بن مالك - حين ذهب بصره . فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان ، صلى على أبى أمامة أسعد بن زرارة . قال : فمكث حيناً على ذلك لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له . قال: فقلت فى نفسى : والله إن هذا بى لعجز ، ألا أسأله ماله إذا سمع الأذان يوم الجمعة صلى على أبى أمامة أسعد بن زرارة ؟ قال : فخرجت به فى يوم جمعة كما كنت أخرج . فلما سمع الأذان

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/١١٨ ، ١١٩ .

للجمعة صلّى عليه واستغفر له . قال : فقلت : يا أبت ، مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبى أمامة؟ فقال : أى بنى كان أول من جمع بنا بالمدينة فى هزم النبيت [١] من حرة بنى بياضة يقال له: نقيع الخضيمات قال : قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً) [٢].

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير :

قال ابن إسحاق : (حدثنى عبد الله بن المغيرة بن معيقيب ، وعبد الله بن أبى بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم :

أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل ، ودار بنى ظَفَر . وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة . فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر على بئر يقال لها : بئر مرق . فجلسا فى الحائط ، واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم. وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل . وكلاهما مشرك على دين قومه . فلما سمعا به ، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : لا أبالك : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا. فازجرهما وانههُما عن أن يأتيا دارينا . فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كلفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدماً . قال : فأخذ أسيد بن حضير حربته . ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه . قال مصعب : إن يجلس أكلّمهُ . قال : فوقف عليهما متشتماً . فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ؛ فقال له مصعب : أوتجلس فتسمع . فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره ؟ قال : أنصفت . ثم ركّز حربته وجلس إليهما . فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقال فيما يذكر عنهما : والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتسهله ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله : كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهّر وتُطهّر ثوبيك . ثم تشهد شهادة الحق . ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما : إن ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه. وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد

---

(١) هزم النبيت : الهزم المنخفض من الأرض . والنبيت : موضع .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٧٨ ـ ٨٧ ، وقال المحقق عنه : صرح ابن إسحاق وسنده متصل فيكون الحديث صحيحاً .

ابن معاذ مقبلاً قال :

أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين فو الله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حُدِّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد ابن زرارة ليقتلوه . وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك . قال : فقام سعد مغضباً مبادراً ، تخوفاً للذى ذكر له من بنى حارثة. فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت عنا شيئاً . ثم خرج إليهما . فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليه متشتماً ثم قال لأسعد بن زرارة :

يا أبا أمامة ، أما والله لولاما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى . أتغشانا فى دارنا بما نكره ، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير : أى مصعب جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن تبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. قال : فقال له مصعب : أوتقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً أو رغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس . فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قالا فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهلّه ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين ؟ قالا : تغتسل فتطهر وتطهّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين ، قال : فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير .

قال : فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله .

قالا : فو الله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة . ورجع مصعب وأسعد بن زرارة . فأقام عنده يدعو إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف وتلك أوس الله . وهم من الأوس بن حارثة وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت وهو صيفى ، وكان شاعراً لهم وقائداً يستمعون له ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام . . .) (١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٨٨ ـ ٩١ .

وفى رواية عند الطبرانى عن عروة قال :

(لما حضر الموسم نفر من الأنصار من بنى مازن بن النجار منهم معاذ بن عفراء ، وأسعد بن زرارة ، ومن بنى زريق رافع بن مالك ، وذكوان بن عبد القيس . ومن بنى عبد الأشهل أبو الهيثم بن التيهان . ومن بنى عمرو بن عوف عويم بن ساعدة . وأتاهم رسول الله ﷺ وأخبرهم خبره الذى اصطفاه الله به من نبوته وكرامته ، وقرأ عليهم القرآن . فلما سمعوا قوله أنصتوا واطمأنت أنفسهم إلى دعوته ، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته وما يدعوهم إليه ، فصدّقوه وآمنوا به ، وكانوا من أسباب الخير ثم قالوا له : قد علمت الذى بين الأوس والخزرج من الدماء . ونحن نحب ما أرشد الله به أمرك . ونحن لله ولك مجتهدون ، وإنا نشير عليك بما ترى . فامكث على اسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنخبرهم بشأنك ، وندعوهم إلى الله ورسوله فلعل الله يصلح بيننا ويجمع أمرنا . فإنا اليوم متباعدون متباغضون فإن تقدم علينا اليوم ولم نصطلح لم يكن لنا جماعة عليك ، ونحن نواعدك الموسم من العام القابل ، فرضى رسول الله ﷺ الذى قالوا : فرجعوا إلى قومهم يدعوهم سراً ، وأخبروهم برسول الله ﷺ والذى بعثه الله به ، ودعا عليه بالقرآن . حتى قلّ دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة ، ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك يدعوا الناس بكتاب الله فإنه أدنى أن يتبع . فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير أخا بنى عبد الدار فنزل فى بنى غنم على أسعد بن زرارة . فجعل يدعو الناس ، ويفشو الإسلام ، ويكثر أهله وهم فى ذلك مستخفون بدعائهم . ثم إن أسعد بن زرارة أقبل هو ومصعب بن عمير حتى أتيا بئر مرى أو قريباً منها فجلسوا هنالك ، وبعثوا إلى رهط من أهل الأرض فأتوهم مستخفين، فبينما مصعب بن عمير يحدثهم ويقصٍّ عليهم القرآن أُخبر بهم سعد بن معاذ فأتاهم ومعه الرمح حتى وقف عليه فقال :

علام يأتينا فى دورنا بهذا الوحيد الفريد الطريح الغريب يسفّه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم . لا أراكما بعد هذا بشىء من جوارنا . فرجعوا ، ثم إنهم عادوا الثانية ببئر مرى أو قريباً منها فأُخبر بهم سعد بن معاذ الثانية فواعدهم بوعيد دون الوعيد الأول . فلما رأى أسعد منه ليناً قال : يا بن خالة ، اسمع من قوله . فإن سمعت منه منكراً فاردده يا هذا منه ، وإن سمعت خيراً فأجب الله . فقال : ماذا يقول : فقرأ عليهم مصعب بن عمير: ﴿ **حمٓ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾(١) ، فقال سعد ما أسمع إلا ما أعرف، فرجع وقد هداه الله تعالى، ولم يظهر أمر الإسلام

(١) فصلت / ١ ــ ٣ .

حتى رجع. فرجع إلى قومه فدعا بنى عبد الأشهل إلى الإسلام وأظهر إسلامه وقال فيه : من شك من صغير أو كبير أو ذكر أو أنثى فليأتنا بأهدى منه نأخذ به . فوالله لقد جاء أمر لتُحَزَّنَّ فيه الرقاب . فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد وبدعائه إلا من لا يذكر . فكانت أول دور من دور الأنصار أسلمت بأسرها. ثم إن بنى النجار أخرجوا مصعب بن عمير ، واشتدوا على أسعد بن زرارة فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ ، فلم يزل يدعو ويهدى على يديه حتى قلّ دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة ، وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح ، وكسرت أصنامهم فكان المسلمون أعزَّ أهلها . وصلح أمرهم . ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ) (١) .

١ ـ لقد مضى مصعب رضي الله عنه إلى المدينة ليجد أسعد رضي الله عنه قد وطّأ له الأكنات ، وذلل له الصعاب ، وهيأ له المقام . فنزل عنده . وبدأت الدعوة تنتشر انتشاراً واسعاً . بعد قدوم مصعب ، ومصعب رضي الله عنه يستطيع أن يقتحم كل بيوتات يثرب . فليس أحد الفريقين المتحاربين ، بل هو مبعوث رسول رب العالمين . وكان أسعد بن زرارة رضي الله عنه يهدف إلى ذلك فيما يهدف حين طلب معلماً ومقرئاً وداعية . تجنباً للحساسيات التى يمكن أن تقع حين يقود الدعوة أحد الخزرج أو أحد الأوس . فيمتنع الفريق المحارب الآخر عن الاستجابة .

وحسب رواية الطبرانى ، فقد كانت الدعوة فى منتهى السرية . وكان مصعب يهيئ هذه اللبنات ، لكن دون أن يتمكن من صهرها مع بعضها البعض وإقامة البناء المتماسك منها . فالصلة فردية . بشخص الأمير الداعية . أو من ينيبه عنه فى التعرف على إخوانه . لقد كانت الأرض بكراً معطاءه « مثل ما بعثنى الله به كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء ، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير » .

فقد ملَّ الأوس والخزرج هذه الدماء الراعفة، وهذه الحروب الطاحنة ، التى خلفت اليتامى والثكالى والأرامل . وأكلت الشباب والأشراف دون ثمن . إلا الصراع على السلطة ، والاستجابة لنزوة طارئة ، أو حمق متهور تدفع القبيلتان ثمنهما دماءً ورجالاً .

٢ ـ واستمرت هذه الدعوة السرية تنتشر فى كل بيت ، وأصبحت حديث القوم فى المجالس ، وأقدم أسعد بن زرارة رضي الله عنه على خطوة جريئة .ومغامرة فريدة. وهى أن يمضى بمصعب إلى ديار ابن خالته سعد بن معاذ سيد الأوس .ويجتمع سراً ويبث الدعوة

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى / م٣ / ٦ / ٤١ . وقال المحقق فيه : رواه الطبرانى مرسلاً ،وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف ، وهو حسن الحديث . وبقية رجاله ثقات .

إلى الله فى صفوف بنى عبد الأشهل . ولا شك أن لأسعد حساباته . . فى الإخفاق والنجاح غير أن القائد الفذ لابد أن يملك المبادرة . ويكون نهازاً للفرص فى استغلال الأجواء المناسبة . فهو أدرى الناس بابن خالته سعد ، ويعرف رجاحة عقله ، وحصافة رأيه . ويعرف كذلك بطولته وشجاعته ، وسيادته وجدَّته . وانطلاقاً من هذه المعرفة مضى مع مصعب إلى تلك الديار ، وفى حسبانه احتمالات المواجهة والإيذاء . ولكن المرجّح عنده إمكان النفاذ إلى قلب سعد وأسيد سيدى بنى عبد الأشهل . والوصول إلى قلبيهما يعنى الوصول إلى قلعة حصينة من قلاع الإسلام .

ويؤكد سرية الدعوة فى هذه المرحلة ، ما ورد فى رواية الطبرانى :

(فجعل يدعو الناس . ويفشو الإسلام ويكثر أهله . وهم فى ذلك مستخفون بدعائهم . ثم إن أسعد بن زرارة أقبل هو ومصعب بن عمير حتى أتيا بئر مرى أو قريباً منها فجلسوا هنالك ، وبعثوا إلى رهط من أهل الأرض فأتوهم مستخفين . فبينما مصعب بن عمير يحدثهم ويقص عليهم القرآن أُخبر بهم سعد بن معاذ فأتاهم ومعه الرمح . .) .

ولا شك أن الاثنى عشر المصطفين كانوا ينبثون فى قبائلهم يدعونهم إلى الإسلام . ورأينا أن أبا الهيثم بن التيهان . وعويم بن ساعدة . وهم سادة فى الأوس قد أسلموا ومضوا يدعون إلى الله تعالى فى صفوف الأوس . ولا شك أن الرهط المذكورين فى الرواية على رأسهم أبو الهيثم وعويم ومن استجاب لدعوتهما . جاؤوا سراً ليلتقوا مع مصعب بن عمير رضي الله عنه . ويتزودوا من كتاب الله عز وجل الذى ينزل على القلوب سحراً حلالاً ونوراً خالصاً . تنفتح فيه القلوب من العمى . ومالك ـ أبو الهيثم ـ هو من بنى عبد الأشهل . فلا عجب أن تتم هذه اللقاءات السرية بين الذين التقوا على الله وفى الله . يستمعون إلى مصعب رضي الله عنه يعلِّمهم ويفقههم فى دينهم ولابد من اللقاء المستمر معه .للتفقه،والتنظيم المناسب لحركة الدعوة كذلك .

٣ ـ ولابد من الوقوف مع هذين الزعيمين سعد بن معاذ وأسيد بن حضير . قبل الحديث عن إسلامهما . أما أسيد بن حضير ، فقد ورث الزعامة عن أبيه حضير بن سماك . بطل حرب بعاث ، وسيد الأوس بلا منازع ، والذى حقق لهم النصر المؤزر ، لكنه مات متأثراً بجراحه . فورث السيادة والزعامة أسيد رضي الله عنه وهو فى عنفوان الشباب. فلم يذكر له دور ذو بال فى بعاث إلا أن يكون بجوار أبيه . وقد انعقدت له الزعامة بعد مقتل أبيه من غير منازع .

(وكان أسيد بن الحضير بعد أبيه شريفاً فى قومه فى الجاهلية ، وفى الإسلام يعد

من عقلائهم وذوى رأيهم . وكان يكتب بالعربية فى الجاهلية ، وكانت الكتابة فى العرب قليلاً . وكان يحسن العوم والرمى . وكان يسمى من كانت فيه هذه الخصال فى الجاهلية ـ الكامل ـ وكانت قد اجتمعت فى أسيد . وكان أبوه حضير الكتائب يُعرف بذلك أيضاً ويسمى به) (١) .

وهو من جهة ثانية يدخل فى الخيرية الثانية التى قال فيها ـ عليه الصلاة والسلام : « خير دور الأنصار : بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل . . » . فهو أشهلى أوسى .

وقد خصَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالذكر مع سادة المهاجرين وشيخيهما . فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« نعم الرجل أبو بكر ، نعم الرجل عمر ، نعم الرجل أسيد بن حضير » أخرجه الترمذى وإسناده جيد (٢) .

وتقول عائشة عنه وعن أخويه سعد وعبّاد :

(ثلاثة من الأنصار من بنى عبد الأشهل ، لم يكن أحد يعتدُّ عليهم فضلا بعد رسول الله ﷺ : سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وعبّاد بن بشر) (٣) .

غير أن أُسيداً رضي الله عنه لم تكن عنده عقد الجاهلية ولا عبادة الزعامة ، فقد تفتح قلبه للإسلام منذ اللحظة الأولى التى خالط فيها الإسلام بشاشة قلبه .

لقد جاء الإسلام إلى هذه الفطرة الصادقة . ومنذ أن لمسها انتفضت حية به، معتنقة له . وكما يقول راوى الحديث :

(والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ـ فى إشراقه وتسهله) .

لقد جاء مقاتلاً مهدداً متوعداً (ما جاء بكما إلينا ، تسفهان ضعفاءنا ! هيا فاعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة) .

وكما دخل عمر رضي الله عنه يريد قتل صهره وأخته . جاء أسيد يهدد مصعباً وأسعد بالقتل . لكن حكمة الداعية العظيم مصعب استطاعت أن تفك أقفال قلبه بأنسب مفتاح لها . إنه لم يقابل بالتحدى ، ولم يقابل بالاعتذار بل قوبل بالدعوة الكريمة من كريم إلى كريم ومن سيد يكلم سيداً ويقر بزعامته :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد / ٣ / ٦٠٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٤١ ، وقال المحقق فيه عن رواية الترمذى (٣٧٩٧) فى المناقب : باب مناقب معاذ وزيد ، وسنده حسن ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(٣) المصدر السابق / ٣٤٢ ، وقال المحقق فيه : أخرجه الحاكم ٣ / ٢٢٩ وصححه ووافقه الذهبى .

(أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره) .

إنها دعوة سيد كريم لسيد كريم . ولم يملك أسيد إلا أن يجيبها . فقد لبى نداءه من جهة بالاعتزال إن أصرّ عليه ودعاه لأن يسمع مبادئ هذا الدين الجديد قبل أن يثور عليه.

وكان أن فتح القفل على التو ، وفى اللحظة حين قال له : أنصفت .

وتدفَّق القرآن إلى قلبه يغمره بالنور . فقال بعد إشراقة وجهه :

ما أحسن هذا الكلام وأجمله ، ولم يقف هنا حيث وقف عتبة بن ربيعة وحيث وقف الوليد بن المغيرة . بل كان جاداً فى ترجمة هذا الكلام إلى واقع دون أن يخشى أحداً . فهو السيد المطاع الذى لا يعود إلى أحد فى اختيار المبدأ الجديد . فأتبع كلامه : كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك . فتطهر ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين .

إنه نموذج القيادات الشابة التى تملك ناصية الأمر ، وتفقه الحق ، وتتبعه دون خوف أو وجل على زعامة أو قيادة . ألم يقف أبوه بين الصفين وقد جرح فخذه برمحه، وقرر الموت وهو يرى هزيمة قومه قائلاً : واعقراه ، والله لا أريم حتى أقتل ، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلمونى فافعلوا ، ثم قاد قومه إلى النصر ، فلم لا يفعل أسيد ذلك حين رأى النور وأشرق به قلبه ، ولم لا يقود قومه إلى الهدى بعد ضلاله ؟ إنه ابن ابيه ولا شك .

ومن اللحظة التى انضم فيها إلى هذا الدين ، وغمر قلبه هذا النور . طبع به ، فأحب أن يشاركه سعد بن معاذ فى هذا الفضل وهو يعلم أن سعداً فى قومه السيد المطاع ، والقائد المفدَّى . ولم تكن قضية التنافس على الزعامة لتحرق طيب أرومته وأصالة معدنه . بل كان رحب القلب . وسعد فى كفاءته أهل لهذه القيادة . وكفء لهذه الزعامة . فعاد إلى سعد يخفى إسلامه رجاء أن يأتى سعد فيغمره هذا النور كما غمره . ومن فقهه لشخصية سعد. كان جوابه فى حكمة. يحيث لا يثير حفيظته . فقال له :

كلّمت الرجلين ، فما وجدت بهما بأساً . وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . لكنه حرق حفيظته من جانب آخر فقال :

وقد حدثت : أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك .

ومثل سعد لايضام جانبه ، ولا يؤذى جاره ، ولا يمس حليفه ، ودون ذلك طعن القنا ، وعض السيوف . ولكنه الحكيم كذلك الذى لا يريد حرباً جديدة تستعر . فلابد من تلافى الأمر قبل وقوعه . وهو وإن كان أسعد جاء بغير إذنه ودخل دياره على كره منه لكنه هو الذى يحاسبه ، أما أن يأتى الآخرون لذلك فلا ، ومضى مسرعاً . كما مضى حمزة بن عبد المطلب من قبل . بدافع الحفيظة والثأر . وكما مضى عمر من قبل بدافع الحفيظة والثأر .

ولكن الله تعالى أراد لهذه الشخصيات أن تحمل على كتفها تغيير مقود التاريخ من الكفر للإسلام . فراح يستبق الخطا ، ويدفع المواجهة .

ونقف قليلاً عند شخصية سعد بن معاذ رضي الله عنه وجذورها التاريخية فى زعامة الأوس. لقد كان أبوه معاذ بن النعمان بن امرئ القيس سيداً من سادات الأوس. وقاد حرباً ضروساً ثأراً لجاره الذى قتله بنى النجار (ولما سمع بذلك معاذ استشاط غضباً وأرسل إلى بنى النجار : أن ادفعوا إلى دية جارى أو أرسلوا إلى بقاتله اقتص منه . فرفضوا أن يدفعوا له الدية ، وفى الوقت نفسه لم يمكنوه من القاتل . فقال رجل من بنى عبد الأشهل قوم معاذ : والله إن لم تفعلوا لانقتل به إلا عمرو بن الأطنابة ـ وعمرو بن الأطنابة من أشراف الخزرج، وممن تملك على الحيين وساد فيهما ، وحمل لقب ملك الحجاز ـ فلما رأى معاذ بن النعمان تصميم بنى النجار على موقفهم تهيأ لحربهم وتجهز بقومه لقتالهم ، والتحم الحيان عند فارع . ولم تنته الحرب إلا بعد أن تدخل عمرو بن الأطنابة نفسه ، وحقن الدماء بحكمته ، فتحمل دية القتيل وأصلح بين الحيين) (١) .

هذا والد سعد . وهذه الحرب بين خيرى أحياء يثرب ، بين بنى النجار وبنى عبد الأشهل . وقد انتهت بأن تراجعت بنو النجار عن غيها ودفعت الدية . ولم يكن معاذ والد سعد بالذى يضام جانبه .

وبرز سعد نفسه بعد أبيه سيداً فى قومه . ففى حرب حاطب قبل بعاث . قاتل قتال الأبطال ذوداً عن مكارم قومه . وكان بجوار حضير بن سماك يقودان هذه الحرب ، وذلك وحين انهزمت الأوس حتى دخلت البيوت والآطام . وكانت هزيمة منكرة لم

---

(١) المدينة فى العصر الجاهلى لـ د . محمد العيد الخطراوى / ١٦٨ .

ينهزموا مثلها . فلجأ بعضهم إلى المصالحة والموادعة وهم بنو عمرو بن عوف وبنو أوس مناة . وامتنع آخرون كبنى عبد الأشهل وبنى ظفر. وغيرهم من الأوس . وقالوا : لانصالح حتى ندرك ثأرنا من الخزرج . وكان على الأوس حضير بن سماك وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى . فركز الخزرج غاراتهم عليهم . وخصوهم بالهجومات العنيفة . وأغارت بنو سلمة على مال لبنى عبد الأشهل يقال له : الرَّعل ، وجرى بينهم قتال شديد جرح فيه سعد بن معاذ الأشهلى جراحات عميقة ، فاحتمله بنو سلمة إلى عمرو بن الجموح ـ سيدهم ـ فأجاره وأجار الرّعل من الحريق وقطع الأشجار. وقد رعى سعد بن معاذ هذا الموقف لابن الجموح يوم بعاث) (١) .

أما كيف رعى ذلك سعد ؟ فكان يوم بعاث وقد تخللت صفوف الخزرج وانهزمت دون نظام ووضعت الأوس فيها السلاح . وصاح صائح : يامعشر الأوس ، اسجحوا ولاتهلكوا إخوانكم . فإنهم والله أفضل لكم من مجاورة الثعالب ـ يعنى اليهود ـ فأصغى الأوس إلى الصوت وكفوا . ولكن قريظة والنضير انطلقوا بدافع حقدهم اليهودى فى الخزرج سلباً ونهباً . وحملت الأوس حُضيراً من الجراح التى به وهم يرتجزون :

كتـــيبة زينّـــهـــا مـــولاها   لا كهـــلها هُـدَّ ولا فتـاهـــا

وأجار سعد بن معاذ الأشهلى بنى سلمة وحمى أموالهم من الإحراق جزاء موقف سيد بنى سلمة عمرو بن الجموح منه يوم الرعل (٢) .

فسعد إذن فى الصدارة والزعامة من قومه ، ورثها كابراً عن كابر . وذاد عنها. حتى غدا صاحب الكلمة الأولى فيهم. وهذا ما قاله أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير ـ رضى الله عنهما :

أى مصعب ، جاءك والله سيد من ورائه قومه . إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان . وكانت الشخصيتان سعد وأسيد على الأفق العالى الوضىء من نبل المنبت وسلامة الفطرة . والبعد عن العبودية للذات . فقال مصعب رضي الله عنه له كما قال لأسيد :

أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره . ولم يتلكأ سعد ولم يتردد . فما الذى يحول بينه وبين السماع لهذا الدين الجديد، وجانب من يخاف ؟ حتى يتلعثم أو يتوقف. فهو السيد المطاع. قال له: أنصفت .

---

(١) المدينة فى العصر الجاهلى للغمراوى / ١٧٧ .   (٢) المصدر نفسه / ١٨٣ .

وفى رواية الطبرانى أن أسعدا وجد ليناً فى لهجة سعد ابن خالته . فدعاه لذلك .

وقرأ عليهم مصعب بن عمير : ﴿ حمٓ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) . إنها السورة نفسها التى تلاها رسول الله ﷺ على عتبة بن ربيعة . فبهرته لكنها لم تحوّله ، وقال : ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولابالسحر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم .

وصدق عتبة . فقد كان لقوله نبأ عظيم . وهذا سيد الأوس فى يثرب يشرق وجهه ويضىء قلبه بالإسلام ، ويتجاوز عتبة الذى دعا إلى الهدنة مع رسول الله ﷺ ولم يدع إلى اتباعه . وقال فيه عليه الصلاة والسلام :« إن يكن عند القوم خير . ففى هذا » .

ومضى عتبة عدواً لله ورسوله . وقد أثار حفيظته أبو جهل حتى أرداه قتيلاً فى بدر .

واستطاع مصعب رضي الله عنه أن يستلّ حفيظة سعد ، ثم يبدله به إيماناً وجد حلاوته فى قلبه .

ولكن سعد ليس نكرة فيخفى إسلامه أو يتحدى به فقط ، إن سعداً سيد قومه. وما كان لقومه أن يخالفوه قط ، وصدق أسعد : (إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان) .

(فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، وأوصلنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله) .

(فو الله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة).

إنها المرة الأولى فى تاريخ الدعوة . وفى ليلة واحدة تنضم قبيلة كاملة للإسلام بعد أن أسلم سيدها سعد بن معاذ ، وسيدها أسيد بن حضير . ونحن إذن أمام مرحلة جديدة من مراحل الدعوة . شاءت فيها الإرادة الربانية أن تنضم القيادات للإسلام . فتسير خلفها جماهيرها ، لقد دخل الإسلام جماهير يثرب، وأصبح له فى كل مكان أتباع وأنصار .

وفى عام واحد اختصر الزمن ودخل الإسلام ما دخله فى ثلاثة عشر عاماً أو أكثر.

---

(١) الزخرف / ١ ـ ٣ .

ولكنها قيادات شابة فتية . بعيدة عن عقد الجاهلية وترسباتها . تتجاوب بفطرتها مع الإسلام دون أن توقفها زعاماتها .الإ ما رأينا من الثلاثة العتاة الأول. الذين انضموا إلى زمرة زعامات مكة . الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأبى جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، وسعيد بن العاص . فانضم إليهم أبو قيس بن الأسلت ؛ وأبو عامر الراهب ، وعبد الله بن أبى . ولكن بأسلوب جديد عذابه زعيم النفاق فى المدينة.

ويدرك سعد رضي الله عنه أبعاد إسلامه وإسلام قبيلته ، ويرتفع همس هنا وهمس هناك يريد أن ينال من موقف السيد العظيم فيجيب بوضوح وقوة واستعلاء بالإيمان الذى صار من جنده ومن حزبه .

(من شك من صغير أو كبير أو ذكر أو أنثى فليأتنا بأهدى منه نأخذ به) .

وفى نظرته إلى المستقبل البعيد الذى يشهد من خلاله صراع الإسلام والكفر ، بعد أن ولى صراع العصبيات والزعامات . فيقول :

والله لقد جاء أمر لتحزنًّ فيه الرقاب .

فليس الأمر سهلاً دون تكاليف ، أو رخيصاً دون ثمن . وثمنه رقاب ودماء وأشلاء .

وحين ارتج أمر بنى النجار ووجدوا أنفسهم سوف يحاربون العرب كافة . وضغطوا على أسعد بن زرارة سيدهم أن يخفف من اندفاعه نحو الإسلام والدعوة إليه.

انتقلت قيادة الدعوة ، ومركز الدعوة إلى بنى عبد الأشهل .

(ثم إن بنى النجار أخرجوا مصعب بن عمير واشتدوا على أسعد بن زرارة . فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ) .

لقد وجُدت القاعدة الصلبة من القيادات فى العهد المكى . وتربت خلال ثلاثة عشر عاماً على يد سيد الخلق . وجاء دور القيادات الرفيدة . والجنود الفدائيين ؛ فتكونت القاعدة الصلبة من الشباب الفدائى العظيم ، وعلى رأسهم نماذج قيادية عالية متمرسة بالحرب والحكم والسياسية . فاحتاجت إلى زمن أقصر فى البناء والتربية ، وأصبح المسلمون أعز من فى يثرب . وآن الأوان بعد تكوين هذه القاعدة العريضة فى يثرب . للتطلع إلى إقامة الدولة الجديدة دولة الإسلام . لقد أصبحت مقومات الدولة جاهزة . فهذه يثرب عاصمتها ، والأرض التى تقوم عليها ، وهذا العنصر البشرى قيادة وجنوداً . يملأ أرجاء يثرب ، ويملك مواقع القوة ، ومفاصل السيادة ، والقدرة على

التحكم في يثرب كلها . وتوجهت الأنظار إلى القائد الأول ، إلى رسول الله ﷺ فيصل إلى يثرب وتسلس له قيادها ، وينحّى عبد الله بن أبى الذى خلعته القواعد المؤمنة فى يثرب . وأعطت ولاءها لرسول رب العالمين محمد عليه الصلاة والسلام .

ولننظر إلى الدور العظيم الذى قامت به هذه القيادات الشابة فى توطئة الأمر لدولة الإسلام . ونشير فى نهاية هذا الفصل إلى مقام سعد بن معاذ فى يثرب . كما تهتف به هواتف الجنّ .

(نقل ابن الكلبى ، عن عبد الحميد بن أبى عيسى بن جبير ، عن أبيه أن قريشا سمعت هاتفاً على أبى قيس يقول :

فإن يسلم السعدان يصبح محمد ... بمكة لايخشى خلاف المخالف

فقال أبو سفيان : من السعدان ؟ سعد بكر ؟ سعد تميم ؟ فسمعوا فى الليل الهاتف يقول :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصراً ... ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا ... على الله فى الفردوس منية عارف
فإن ثواب الله للطالب الهدى ... جنان من الفردوس ذات رفارف

فقال أبو سفيان: هو والله سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة) (١).

وقريش إذن التى ستحمل لواء الحرب فيما بعد . تعرف أن قيادة يثرب آلت إلى السعدين . سعد الأوس : سعد بن معاذ ، وسعد الخزرج ، سعد بن عبادة .

وقد انضم السعدان إلى الإسلام ، وآن أوان الحرب العوان بين الكفر والإيمان .

٤ ـ بقى علينا أن نتحدث عن فضائل سعد الكبرى فى الإسلام والتى حدثنا عنها سيد الخلق عليه الصلاة والسلام :

أ ـ ها هو سعد فى لحظات الوداع الأخيرة من حياته (لما انفجر جرح سعد، عجّل إليه رسول الله ﷺ ، فأسنده إلى صدره والدماء تسيل عليه . فجاء أبوبكر فقال : وانكسار ظهراه على سعد ! فقال رسول الله ﷺ : « مهلاً أبا بكر» فجاء عمر . فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون) (٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٢٧٩ ، وقال المحقق فيه : ذكره البخارى فى التاريخ الصغير وعند مسلم وعدد الأبيات اثنان .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٨٥ ، وقال المحقق فيه : رجاله ثقات لكنه مرسل .

ب ـ لقد تفجّر جرحه رضي الله عنه بعد أن منحه سيد الخلق ثلاثة أوسمة قبل وفاته :

الوسام الأول : سيادته فى المسلمين حتى ليدعوهم إلى القيام له عندما رآه قادماً وهو راكب على حماره :(قال أبو سعيد الخدرى :لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد ـ هو ابن معاذ ـ بعث رسول الله ﷺ ـ وكان قريباً منه ـ فجاء على حمار . فلما دنا . قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى سيدكم) (١) .

الوسام الثانى : أن حكمه جاء موافقاً لحكم الله تعالى من فوق سبع سماوات . وهذا نجده فى تتمة الحديث السابق . فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال له : « إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك » . قال : فإنى أحكم أن تقتل المقاتلة ، وأن تُسبى الذرية . قال: « لقد حكمت فيهم بحكم الملك » (٢) .

وفى رواية : « لقد حكمت فيهم بحكم الله الذى حكم به من فوق سبع سماوات» (٣) .

الوسام الثالث : (شعبة : عن سماك ، سمع عبد الله بن شداد يقول : دخل رسول الله ﷺ على سعد وهو يكيد نفسه فقال : « جزاك الله خيراً من سيد قوم . فقد أنجزت ما وعدته ولينجزنك الله ما وعدك ») .

جـ ـ نبأ وفاته فى الأرض والسماء :

أما فى الأرض : فتقول عائشة ـ رضى الله عنها : (ما كان أحد أشد فقداً على المسلمين بعد رسول الله ﷺ وصاحبيه أو أحدهما من سعد) (٤) .

وفى رواية أخرى عنها قالت : (حضر رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر سعد بن معاذ وهو يموت فى القبة التى ضربها عليه رسول الله ﷺ فى المسجد . قالت : والذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وإنى لفى حجرتى فكانا كما قال الله : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٥) . قال علقمة : فقلت : أى أمه ، كيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كان لاتدمع عينه على أحد . ولكنه كان إذا وجد ، فإنما هو

(١، ٢) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٦ / ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٣) أخرجه ابن سعد ٣ / ٢ / ٦ من حديث خالد بن مخلد عن محمد بن صالح النمار وهذا سند حسن.
(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٨٨ ، وقال المحقق فيه : رجاله ثقات .
(٥) الفتح / ٢٩ .

آخذ بلحيته) (١) .

أما فى السماء : فعن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، أن رسول الله ﷺ نام حين أمسى ، فلما استيقظ جاءه جبريل ـ أو قال ملك ـ فقال : من رجل من أمتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا أعلمه إلا أن سعد بن معاذ أمسى دنفاً » . ما فعل سعد ؟ قالوا : يا رسول الله قد قبض ـ وجاء قومه فاحتملوه إلى دارهم . قال : فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الصبح ثم خرج وخرج الناس مشياً حتى أن شسوع نعالهم تقطع من أرجلهم ، وأن أرديتهم تسقط من عواتقهم . فقال قائل : يا رسول الله ، قد بتت الناس مشياً ، قال : «إنى أخشى أن تسبقنا إليه الملائكة كما سبقتنا إلى حنظلة) (٢) .

د ـ وشهدت الملائكة جنازته : عن محمود بن لبيد قال :

لما أصيب أكحل سعد فثقل حولوه عند امرأة يقال لها رُفيدة تداوى الجرحى . فكان النبى ﷺ إذا مر به يقول : « كيف أمسيت ؟ وكيف أصبحت ؟ » فيخبره ،حتى كانت الليلة التى نقله قومه فيها وثقل . فاحتملوه إلى بنى عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله فقيل : انطلقوا به . فخرج وخرجنا معه وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا ، وسقطت أرديتنا . فشكا ذلك إليه أصحابه فقال : « إنى أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة » . فانتهى إلى البيت وهو يغسل وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعدا حزامةً وجدا

فقال : « كل باكية تكذب إلا أم سعد » ، ثم خرج به . قال : يقول له القوم : ما حملنا يا رسول الله ميتا أخف منه قال :

« ما يمنعه أن يخِفَّ وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه منكم ») (٣) .

هـ ـ واهتز لموته عرش الرحمن : عن ابن عمر ـ ومنهم من أرسله ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش ، وفتحت أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك. لقد ضُمَّ ضمة ثم أُفرج عنه » (٤) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٨٦ وقال المحقق فيه : إسناده حسن .

(٢) فضائل الصحابة ٢ / ٨١٩ ح ١٤٨٩ ، وقال المحقق فيه : مرسل ، رجاله ثقات .

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٨٧ ، وقال المحقق فيه : أخرجه ابن سعد٣ / ٢ / ٨٠٧ عن طريق الفضل بن ركين وإسناه حسن .

(٤) المصدر نفسه ١ / ٢٩٤ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .

وفى رواية عن أنس، قال: وجنازة سعد موضوعه : « اهتز لها عرش الرحمن» [1].

(وقد تواتر قول النبى ﷺ : « إن العرش اهتز لموت سعد فرحاً به » . وثبت أن النبى ﷺ قال فى حُلَّةٍ تعجبوا منها : « لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير من هذه»)[2].

وقال النضر بن شميل : حدثنا عوف ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » ، ثم قال النضر وهو إمام أهل اللغة : اهتز: فرح) [3] .

بقى علينا أن نعلم بعد هذه الفضائل العظيمة لسعد أنه كان قائداً شاباً عمره حين توفى سبع وثلاثون سنة . أى أنه كان يقود قومه ولما يناهز الثلاثين من العمر . فالخندق فى السنة السادسة من الهجرة ،وقد أسلم رضي الله عنه قبل الهجرة بسنة فكان عمره ثلاثين عاماً يوم قاد قومه جميعاً إلى الإسلام .

لقد أكرمه الله تعالى بهذا الفضل فكان فى الأنصار مثل أبى بكر فى المهاجرين .

وتمت على يديه وفى صحيفته أكبر الآثار الضخمة لدولة الإسلام فى المدينة، ومثل الخيرية الثانية التى كان على رأسها . حين كان بنو عبد الأشهل خير دور الأنصار بعد بنى النجار، وكان هو سيد بنى عبد الأشهل . هذا وإن كان سعد وقومه والمسلمون هناك جميعاً فى صحيفة المقرئ الشهيد مصعب بن عمير رضي الله عنه .

٥ ـ ونشير هنا إلى الانتقال من الدعوة السرية إلى الدعوة العلنية بإذن رسول الله ﷺ ، وهى ضرورة اقتضتها الدعوة بعد هذه الأعداد الوفيرة من المؤمنين . وكما تقول الرواية : (وكان مصعب يقرئهم القرآن ويعلمهم . فكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم . فأذن له وكتب إليه : « انظر من اليوم الذى يجهر فيه اليهود لسبتهم ، فإذا زالت الشمس فازدلف إلى الله فيه بركعتين واخطب فيهم » . فجمع بهم مصعب ابن عمير فى دار سعد بن خيثمة وهم يومئذ اثنا عشر رجلا. وما ذبح لهم يومئذ إلا شاة فهو أول من جمع فى الإسلام جمعة).

نعم ، إنه أول إعلان رسمى للشعائر فى الأرض دون خوف . ولعل الجمعة الأخرى التى حدثنا عنها كعب بن مالك رضي الله عنه كانت أشمل وأوسع كما روى عنه ابنه عبد الرحمن بن كعب قال :

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٢٩٤ ، وقال المحقق : أخرجه أحمد ومسلم (٢٤٦٦) فى الفضائل .

(٢) أخرجه أحمد ٣ / ٢٣٤ ، والبخارى ٣٢٤٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء / للحافظ الذهبى ١ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

أى بنى ، كان أول من جمع بنا بالمدينة فى هزم النبيت من حرّة بنى بياضة يقال له: نقيع الخضمات . قال : قلت : وكم كنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً .

إنه أعظم تجمع إسلامى حتى ذلك الوقت . تمارس فيه الشعائر الإسلامية علانية . وكان أكبر نصر حققه المسلمون فى مكة أن يصلوا فرادى فى الكعبة. بعد إسلام عمر رضي الله عنه .

وقد بلغ هذا التجمع العظيم حركة حيوية مستمرة . إذ كان أسعد بن زرارة رضي الله عنه . (قبل مقدم النبى ﷺ يصلى بالناس الصلوات الخمس يجمع بهم فى مسجد بناه ، فانظر إلى رسول الله ﷺ لما قدم صلى فى ذلك المسجد وبناه . فهو مسجده اليوم) (١) .

ولكن بنى النجار عادوا فضغطوا على أسعد بن زرارة مما اضطر قيادة الدعوة أن تنتقل إلى مضارب بنى عبد الأشهل ، وبحماية سيدهم سعد بن معاذ رضوان الله عليه.

٦ ـ لقد انتهت مرحلة الاصطفاء الفردى والبناء الفردى للأشخاص مع نهاية المرحلة المكية ، وابتدأت مرحلة البناء الجماعى . وإن كان للقيادات فيها تربية خاصة . ولكن الإسلام اليوم بحاجة إلى أعداد وفيرة من الجنود . وذات نوعيات عالية . ولكنها مؤهلة لتقديم التضحيات والاستشهاد فى سبيل الله ، وحمل عام واحد من الدعوة أضعاف ما حمله ثلاثة عشرعاماً منها من المنضمين للدين الجديد . وآن أوان تفريغ الطاقات الجهادية فى المجتمع الإسلامى الجديد .

ولم يكن مصعب رضي الله عنه إلا ثمرة أينعت من ثمار التربية النبوية العظيمة . حيث عاد إلى مكة ،ومعه سبعون من أعلى النوعيات الجندية والقيادية فى يثرب .

ولنشهد : ميلاد الدولة الجديدة .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٢ / ١٣٩ .

تخطيط الانقلاب الإسلامى

بيعة العقبة الثانية :

قال ابن إسحاق : (ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة . فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته . والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله) (١) .

قال ابن إسحاق : حدثنى معبد بن كعب ، أن أخاه عبد الله بن كعب وكان من أعلم الأنصار حدّثه أن أباه كعب بن مالك حدّثه ، وكان كعب ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها ، قال : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا فلما وجهنا لسفرنا ، وخرجنا من المدينة ، قال البراء لنا : يا هؤلاء ، إنى رأيت رأياً فوالله ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا ؟ قال : قلنا: وماذاك ؟ قال : قد رأيت أن لا أدع هذه البنية لى بظهر – يعنى الكعبة ـ وأن أصلى إليها . قال : فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلى إلا إلى الشام ،وما نريد أن نخالفه .فقال : إنى لمصل إليها . قال : فقلنا له : لكنا لانفعل . قال : فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلّى إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة قال ؛ وقد كنا عبنا عليه ما صنع ، وأبى إلا الإقامة على ذلك . فلما قدمنا مكة قال لى: يا بن أخى، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله قد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه . قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنّا لانعرفه ـ ولم نره قبل ذلك . فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا : نعم. قال : وقد كنا نعرفه . كان لا يزال يقدم علينا تاجراً . قال : فإذا دخلتما المسجد ، فهو الرجل الجالس مع العباس . قال : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه . فسلمنا ثم جلسنا إليه . فقال رسول الله ﷺ للعباس : «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل » ؟ قال : نعم . هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك . قال :فو الله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : « الشاعر؟»

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ٩٢ .

قال : نعم، قال : فقال له البراء بن معرور : يانبى الله إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله للإسلام . فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر فصليت إليها ، وقد خالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقع فى نفسى من ذلك شيء . فماذا ترى يا رسول الله؟ قال : « قد كنت على قبلة لو صبرت عليها » . فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ ، وصلَّى معنا إلى الشام ، قال : وأهله يزعمون أنه صلَّى إلى الكعبة حتى مات وليس ذلك كما قالوا ، نحن أعلم به منهم .

ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق قال: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا أخذناه معنا. وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له. يا أبا جابر ، إنك سيِّد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ؛ ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة . قال فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا .

قال : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا . نسيبةُ بنت كعب ، إحدى نساء بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى إحدى نساء بنى سلمة وهى أم منيع .

قال : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب . فقال : يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها : إن محمداً منا حيث قد علمتم .وقد منعناه من قومه .ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة من بلده . وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم . واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه . ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده . قال . فقلنا له :

قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

قال : فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم

قال: « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » قال . فأخذ البراء بن معرور بيده وقال : نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر .

قال : فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم بن التيهان ، فقال: يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم الدم . والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » (١) .

قال ابن إسحاق : (وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة :

إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى أخو بنى سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالهم مصيبة وأشرافكم قتلاً ، أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة) . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ،وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟

قال : « الجنة » : قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه .

وأما عاصم بن عمر بن قتادة . فقال : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله ﷺ فى أعناقهم .

وأما عبد الله بن أبى بكر فقال : ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبى بن سلول ـ فيكون أقوى لأمر القوم . فالله أعلم أى ذلك كان .

قال ابن إسحاق : (فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده ، وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان) (٢).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٩٢ ـ ٩٧ . وقال عنه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ / ٤٥ : رواه أحمد والطبرانى بنحوه ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع .
(٢) السيرة النبوية ٢ / ١٠٠ ، ١٠١ .

قال ابن إسحاق : (وأما معبد بن مالك فحدثنى فى حديثه عن أخيه عبد الله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك قال : كان أول من ضرب على يد رسول ﷺ البراء بن معرور ، ثم بايع بعد القوم . فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : ياأهل الجباجب ـ والجباجب : المنازل ـ هل لكم فى مذمم والصباة معه ، قد اجتمعوا على حربكم قال : فقال رسول الله ﷺ : « هذا أَزَبُّ العقبة ، هذا ابن أُزَيْب : أتسمع عدو الله أما والله لأفرغن لك » .

قال : ثم قال رسول الله ﷺ : « ارفضوا إلى رحالكم » . فقال العباس بن عبادة ابن نضلة : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

قال : فرجعنا إلى مضاجعنا . فنمنا حتى أصبحنا .

قال : فلما أصبحنا غدت علينا جِلَّةُ قريش حتى جاؤونا فى منازلنا . فقالوا :

يا معشر الخزرج ،إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، تبايعونه على حربنا . وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

قال : فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علمناه . قال : وقد صدقوا ، لم يعلموه . قال : وبعضنا ينظر إلى بعض . قال : ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى،وعليه نعلان له جديدان . قال : فقلت له كلمة ـ كأنى أريد أن أُشرِكَ القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر ، أما تستطيع أن تتخذ ـ وأنت سيد من ساداتنا ، مثل نعلىّ هذا الفتى من قريش ؟ قال : فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلىّ، وقال : والله لتنتعلنّهما . قال : يقول أبو جابر : مه ، أحفظت والله الفتى ، فاردد عليه نعليه . قال : قلت : والله لا أردهما . فأل والله صالح ، لئن صدق الفأل لأسلبنه) (١) .

قال ابن إسحاق : (وحدثنى عبد الله بن أبى بكر : أنهم أتوا عبد الله بن أبىّ بن سلول . فقالوا له مثل ما ذكر كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا لأمر جسيم ما كان قومى ليتفوتوا علىّ بمثل هذا ، وما علمته . قال : فانصرفوا عنه) (٢).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٠١ ـ ١٠٣ ، وقال الهيثمى عنه كما قال عن سابقه فهو تتمته .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٠٣ .

(ونفر الناس من مِنى فتنطّس [1] القوم الخبر ، فوجدوه قد كان ، وخرجوا فى طلب القوم . فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر ، والمنذر بن عمرو ، وكلاهما كان نقيبا . فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه بجمّته ، وكان ذا جمّة وشعر كثير . قال سعد : فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع علىّ نفر من قريش فيهم رجل وضىء أبيض شعشاع حلو من الرجال . قال : قلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا . فلما دنا منى رفع يده فلطمنى لطمة شديدة ـ قال ابن هشام : هو سهيل بن عمرو ـ قلت وأسلم بعد ذلك. فقلت فى نفسى : لا والله ما عندهم بعد هذا خير . فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلىّ رجل ممن كان معهم ـ قال ابن هشام : هو البخترى بن هشام ـ قلت : ومات كافراً . فقال : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قال : قلت : بلى والله كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث بن حرب بن أمية . قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما . قال : ففعلت . وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة . فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما ويذكر أنه بيننا وبينكم جواراً . قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة ، قالا : صدق والله ، إن كان ليجير لنا تجارنا ، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده ، قال: فجاءا فخلّصا سعداً من أيديهم . فانطلق .

قال ابن إسحاق : وكان أول شعر فى الهجرة بيتين . قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر فقال :

تداركت سعداً عنوة فأخذته   وكان شفاء لو تداركت منذرا
ولو نلته طلّت هناك جراحه   وكان حريا أن يهان ويهدرا

فأجابه حسان بن ثابت فيهما فقال :

ولست إلى سعد ولا المرء منذر   إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمّرا[2]
فلولا أبو وهب لمرت قصائد   على شرف[3] البرقاء[4] يهوين حسَّرا[5]
أتفخر بالكتان لما لبسته   وقد تلبس الأنباط[6] ريطا[7] مقصرا

(١) تنطس القوم الخبر : بالغوا بالبحث وتأكدوا منه .
(٢) ضمّراً : هزيلة خفيفية اللحم .
(٣) الشرف : المرتفع .
(٤) البرقاء : غلظ فيه حجارة ورمل وطين .
(٥) حسراً : معيبة .
(٦) الأنباط : قوم من العجم .
(٧) الريط : الملاحف البيض ، واحدتها : ريطة .

فـلا تـك كالـوسنان [1] يحلم أنه بـقرية كسرى أو بـقرية قيـصرا
ولا تـك كالثـكلى وكـانت بمعزل عـن الثكـل لـو كان الفؤاد تفكرا
ولا تـك كالشاة التـى كـان حتفها بحـفر ذراعـيها فـلم ترض مـحضرا
ولا تـك كـالغاوى أقـبل نحـره ولـم يـخشه سهـماً من النبل مضمرا
فإنا ومـن يـهدى القـصائد نحونا كمستبضع [2] تمراً إلى أرض خيبرا)

وذكر سليمان بن طرخان التيمى فى كتاب السير له أن إبليس ـ لعنه الله ـ لما أسلم من أسلم من الأنصار صاح ببنيه بين الحجاج : إن كان لكم بمحمد حاجة . فأتوه بمكان كذا وكذا ، فقد حالفه الذين يسكنون يثرب . قال : ونزل جبريل فلم يبصره من القوم أحد ، واجتمع الملأ من قريش عند صرخة إبليس فعظم الأمر بين المشركين والأنصار حتى كاد أن يكون بينهم قتال . ثم إن أبا جهل كره القتال فى تلك الأيام . فقال : يا معشر الأوس والخزرج ، أنتم إخواننا وقد أتيتم أمراً عظيماً تريدون أن تغلبونا على صاحبنا . فقال له : حارثة بن النعمان : نعم وأنفك راغم . والله لو نعلم أن من أمر رسول الله ﷺ أن نخرجك لأخرجناك . فقال أبو جهل : نعرض عليكم أن نُلحق بكم من أصحاب محمد من شاء بعد ثلاثة أشهر ، ونعطيكم ميثاقاً ترضون به أنتم ومحمد ، لا نحبسه بعد ذلك . فقالت الأنصار : نعم إذا رضى رسول الله ﷺ . فذكر ذلك الحديث [4] .

وعن جابر بن عبد الله قال :(مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم بعكاظ ومجنة وفى المواسم بمنى يقول : « من يؤوينى ، ومن ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة » ، حتى أن الرجل ليخرج من اليمن أو من مصر ، كذا قال: فيأتيه قومه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك . وهو يمشى بين رحالهم يشيرون إليه بالأصابع . حتى بعثنا الله من يثرب فآويناه وصدّقناه . فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام . ثم ائتمروا جميعاً فقلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد فى جبال مكة ويخاف . فرحل إليه سبعون رجلاً منا

(١) الوسنان : النائم . (٢) المستبضع : الشارى للتمر .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٣ ـ ١٠٦ .
(٤) مجمع الزوائد للهيثمى م٣ / ١٠ / ٤٦ ، وقال فيه : « روى أصحاب السنن منه طرفاً . رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح » .

حتى قدموا عليه فى الموسم ، فواعدنا شعب العقبة . فاجتمعوا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا . فقلنا : يارسول الله ﷺ علام نبايعك ؟ قال :

« تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا لله لا تخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » .

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغرهم فقال : رويداً يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف . أما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وما أنتم تخافون من أنفسكم خبيئة ، فتبينوا فهو أعذر لكم عند الله . قالوا : أمط عنا يا أسعد ، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نُسلبها أبداً . فبايعناه . فأخذ علينا وشرط ، ويعطينا على ذلك الجنة) [1] .

وعن أبى مسعود قال : (وعدنا رسول الله ﷺ فى أصل العقبة يوم الأضحى ونحن سبعون رجلاً . قال عقبة: إنى أصغرهم سناً فأتانا رسول الله ﷺ فقال: « أوجزوا فى الخطبة فإنى أخاف عليكم كفار قريش » . فقلنا: يارسول الله ، سلنا لربك وسلنا لنفسك وسلنا لأصحابك وأخبرنا ما لنا من الثواب على الله تبارك وتعالى . قال :

« أما الذى أسأل لربى : أن تؤمنوا به ولا تشركوا به شيئاً ، وأما الذى أسأل لنفسى : أسألكم أن تطيعونى أهدكم سبل الرشاد . وأسألكم لى ولأصاحبى أن تواسونا فى ذات أيديكم ، وأن تمنعونا مما منعتم منه أنفسكم، فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة وعلىَّ » ، قال : فمددنا أيدينا فبايعناه) [2] .

وعن جابر بن عبد الله قال : (حملنى خالى جد بن قيس فى السبعين راكباً الذين وفدوا على رسول الله ﷺ من قبل الأنصار ليلة العقبة ، فخرج علينا رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب فقال : « يا عم خذ على أخوالك » . فقال له السبعون : يا محمد ، سل لربك ، وسل لنفسك ما شئت . فقال : « أما الذى أسألكم لربى : فتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأما الذى أسألكم لنفسى فتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ». قالوا : فما لنا إن نحن فعلنا ذلك ؟ قال : «الجنة») [3] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى / ٢٨٥ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى م٣ / ٦ / ٤٨ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى ، وفيه مجالد بن سعيد ، وحديثه حسن وفيه ضعف ، ورواه أحمد مرسلاً عن الشعبى ورجاله رجال الصحيح » .

(٣) المصدر نفسه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الثلاثة ورجاله ثقات » .

وعن جابر بن عبد الله قال : (كنا مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة وأخرجني خالاى وأنا لا أستطيع أن أرمى بحجر) (١) .

١ - إنه وفد من أضخم الوفود العربية الذى تحرك برئاسة عبد الله بن أبى بن سلول، والذى كان تظاهرة دعائية ضخمة من الأوس والخزرج ، وإعلاناً للعرب كافة أن الأوس والخزرج قد اتحدت كلمتهم ، وأصبحوا أمة مرهوبة الجانب بعد حرب بعاث ، وكان الوفد من ثلاثمائة شخص، وفيه من قيادات الأوس والخزرج العدد الوفير . وحين نقارن هذا الوفد بالوضع البائس للوفد اليثربى قبل هذا العام ، نجد الفرق شاسعاً. إذ لم يكن أعضاء هذا الوفد يتجاوز العشرة ، بينما قد يكون أحياناً فرداً واحداً أو اثنين ، ومعظم الأحيان قد يكون من الخزرج وحدهم أو الأوس وحدهم . لما بينهم من ثارات ودماء.

هذا ظاهر الأمر .

لكن الحقيقة الكامنة وراء هذا الوفد والتى شكلت الولادة الجديدة للأمة هى هؤلاء السبعون المسلمون ضمن إطار هذا الوفد . والتى كانت مهيأة لدور فد لم يأن الأوان بعد لإعلانه . فهو لا يزال فى طور الإعداد السرى . لذلك كان منبثا ضمن الوفد المشرك ، وضمن القيادة المشركة الوثنية التى يمثلها ابن أبى السيد الخزرجى الذى رفض مشاركة قومه الخزرج فى البغى على إخوانهم من الأوس ، فحاز ثقة الطرفين بعد حرب بعاث ، ورشح ليكون الملك المتوج للمدينة . وكانت لهذا الوفد نشاطات سياسية ، كذلك ليتم تعرف ابن أبى على القيادات العربية، ورجالات القبائل الكبرى التى وفدت مع قبائلها . ولم يكن يدور بخلد ابن أبى أن حزباً جديداً قد تكوّن داخل المدينة . وتحرك ضمن الوفد المشرك ، وأنه هو الذى سيرث الحزب الأم بعقيدة ومبادئ جديدة . وأن كثيراً من القيادات فى المدينة قد انضمت إلى هذا الحزب، فكما يقول كعب رضي الله عنه : (خرجنا مع حجاج قومنا من المشركين) . ويصف هؤلاء الرجال العظام الذين كانوا مع حجاج المشركين اليثربيين بأنهم قد صلوا وفقهوا فى دين الله على يد الداعية العظيم مصعب بن عمير ، وهو الذى اختاره رسول الله ﷺ على عينه ، وقد فتح الله على يديه مغاليق يثرب ، وتجاوبت رباها معه برجالاتها وشبابها وشيبها . فليس كل المسلمين قد قدم مع هذا الوفد ، وإنما يمثلون لهم ، لقد كانت المدينة تموج بالأحداث الجسام بحيث طغى عدد المسلمين فيها خلال عام واحد على عدد المسلمين فى مكة خلال ثلاثة عشر عاما من الدعوة .

(١) المصدر نفسه ، وقال : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

والحدث الأعظم الذى جاء الوفد من أجله هو اللقاء مع سيد الخلق ، ورسول رب العالمين ، محمد صلوات الله عليه . وحيث نتحدث عن التربية القيادية فى المنهج التربوى للسيرة ، فلابد أن نشهد كل لحظة من لحظات اللقاء بين القائد العظيم وجنده . ومحدثنا الناطق الإعلامى بلسان الوفد كعب بن مالك . قد اختار سيد بنى سلمة البراء ابن معرور ليشاركه فى أول لقاء خطير مع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أقدم البراء رضي الله عنه على الصلاة باتجاه الكعبة مخالفا إخوانه الذين يصلون باتجاه بيت المقدس تعظيماً للبيت الحرام ، غير أن إخوانه لم يوافقوه على هذا الموقف . فهم مسلمون ، تعلموا الصلاة باتجاه بيت المقدس من إمامهم العظيم مصعب الخير ، وليسوا بمقام الاجتهاد فى الدين مما جعلهم ينكرون البراء على موقفه ، وجعل البراء فى حيرة وبلبلة من أمره .

إن الذى يعنينا هو ذلك اللقاء الأول بين رسولى الأنصار وبين رسول رب العالمين ، إنهما يبحثان عنه . لقد سألا عنه إذ لم يرياه من قبل ، وكان أن استدلا عليه بعمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه .

٢ ـ وقد نزل العباس رضي الله عنه منزل أخيه أبى طالب . لكن قريشا لم ترع حرمته كما كانت ترعى حرمة أبى طالب شيخ بنى هاشم . حتى ليقول عليه الصلاة والسلام كما روى الحافظ أبو نعيم عن العباس قال : قال لى رسول الله ﷺ : « لا أرى لى عندك ولا عند أخيك منعة ، فهل أنت مخرجى إلى السوق غدا حتى نقر فى قبائل الناس؟»(١).

وشهرة العباس شهرة عظيمة ؛ لكونه من التجار المرموقين فى مكة ؛ ولهذا يقول كعب رضي الله عنه : وقال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب؟ فقلنا : نعم . وقد كنا نعرفه؛ كان يختلف إلينا بالتجارة . قال : فإذا دخلتما المسجد فانظر العباس فهو الرجل الذى معه .

فقد أوقف العباس رضي الله عنه حياته على إجارة ابن أخيه الحبيب محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكن مغادرته مكة إلى الآفاق فى التجارة . تجعله بعيدا عن كل اللحظات الصعبة التى يلقاها الحبيب المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ ونلاحظ أن العباس فى بيعة العقبة كان الشخص الأول الذى يمثل رسول الله ﷺ . وهو فى ظاهر الأمر على دين قومه . وبلغت ثقة النبى ﷺ بعمه مبلغا عاليا جدا إذ يحضره أخطر بيعة فى تاريخ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٥٤ .

الدعوة. ويشركه فى كل جزئيات مخططات الانقلاب العظيم . ليس بصفته مُطَّلِعا فقط، بل بصفته مفاوضا وشريكا كذلك .

ـ فهو ابتداء أراد أن يتعرف على النوعيات المؤمنة والتى سارّه بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقد أعطى كل أسرار الانقلاب وأسماء القائمين فيه .

ففى رواية عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : فقال له عمه العباس: يابن أخى ، لا أدرى ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك . إنى ذو معرفة بأهل يثرب . فاجتمعنا عنده من رجل أو رجلين . فلما نظر العباس فى وجوهنا قال :هؤلاء قوم (لا أعرفهم هؤلاء أحداث) (١) .

ـ وهو ثانية افتتح الجلسة بصفته الطرف النبوى فقال :

يا معشر الخزرج ، إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وهو فى منعة من قومه وبلده قد منعناه ممّن هو على مثل رأينا فيه. وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم ، وإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلانا فاتركوه فى قومه فإنه فى منعة من عشيرته وقومه .

ـ وهو الذى نظم اللقاء السرى كذلك (٢) :

(وجاءهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس ، وهو على دين قومه ، وأبو بكر وعلى ـ رضى الله عنهما ـ فأوقف العباس عليا على فم الشعب عينا له ، وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عيناً له) (٣). فقد كان نائب الأمير أبو بكر رضي الله عنه على فم الطريق ، وكان قائد الحرس وسيد الفدائيين على فم الشعب ، بينما كان العباس رضي الله عنه هو الذى يقود المباحثات بين يدى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو على دين قومه. ترى هل كان العباس أسلم سرا بأمر النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكتم إسلامه ليتمكن من متابعة جواره للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ؟ لاندرى . ولكننا لا نبعد ذلك ؛ لأن أهل بيت العباس جميعا قد دخلهم الإسلام كما حدَّث أبو رافع فى بدر رضي الله عنه .

(كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه، ويكره خلافهم ،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤٤٤ . (٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٤٦ .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ٣٥ ط٢ ، على نفقة الشؤون الدينية بدولة قطر .

وكان يكتم إسلامه) [١] .

ولن تقبل إجارة العباس لمحمد ﷺ حين يدخل فى دين الله عز وجل ،بل يصبح هو كذلك عرضة للأذى والاضطهاد .

ـ ولم يكتف العباس رضي الله عنه بذلك فقط . بل كان فى إبرام الاتفاق وإقراره :

(فلما اطمأنت بذلك أنفسهم من الشرط ، أخذ عليهم العباس بن عبد المطلب المواثيق لرسول ﷺ بالوفاء . وعظَّم العباس الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ، وذكر أن أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو بن زيد بن عدى بن النجار) [٢] .

لقد برزت شخصية العباس القيادية الفذة فى هذه البيعة العظيمة ، والعباس فى عبقريته أبو الخلائف فى الأرض فيما بعد . نال الاصطفاء كله فهو من قريش ومن بنى هاشم ،وهو أقرب الناس إلى المصطفى ﷺ ، فهو يمنح من معينه ،ويستنير من هديه ، ويتربى على خصائصه . وتجلت كفاءته وعبقريته فى هذه المرحلة الخطيرة حيث أحكم التنظيم ، وأحكم التخطيط ، وأحكم التنفيذ بتوجيه سيد الخلق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا غرو ، فليس بينه وبين رسول الله ﷺ ثلاثة أعوام فارقا فى السن . كما كان يقول رضي الله عنه : (هو أكبر منى وأنا أسن منه).

ـ وهو يذكر اللحظات الأولى لولادة النبى ﷺ :

(قال الزبير بن بكار : سئل العباس : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال :

هو أكبر منى ، وأنا أسن منه . مولده بعد عقلى ، أُوتِىَ إلى أمى فقيل لها : ولدت آمنة غلاما ، فخرجت بى حين أصبحت آخذة بيدى حتى دخلنا عليها ، فكأنى أنظر إليه يمصع برجليه فى عرصته ، وجعل النساء يجبذننى عليه ويقلن : قبِّل أخاك)[٣].

وصحبة خمسين عاما مع رسول الله ﷺ ، يعنى تربية خمسين عاما كذلك .

ـ والعباس رضي الله عنه هو الذى حدّد مكان اللقاء وزمانه : فعن عبد الرحمن بن عويم ابن ساعدة ، عن أبية قال : أتينا النبى ﷺ فقيل : هو فى منزل العباس . فدخلنا عليه. فسلمنا وقلنا : متى نلتقى ؟ فقال العباس :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢١٠ دار الجيل . (٢) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤٥٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٩٨ .

إن معكم من قومكم من هو مخالف لكم فأخفوا أمركم (حتى يتصدع هذا الحاجُّ ونلتقى نحن وأنتم فنوضح لكم الأمر . فتدخلون على أمر بيّن) فوعدهم النبى ﷺ ليلة النفر الأخير بأسفل العقبة ، وأمرهم أن لاينبهوا نائما ولاينتظروا غائبا .

وعن معاذ بن رفاعة قال : (فخرجوا بعد هدأة يتسللون ، وقد سبقهم إلى ذلك المكان معه عمه العباس وحده ، قال : فأول من تكلم هو . فقال : يا معشر الخزرج ، قد دعوتم محمدا إلى ما دعوتموه ، وهو من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن . وقد أبى محمدا الناس كلهم غيركم . فإن كنتم أولو قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة . فإنها سترميكم عن قوس واحدة فارتؤوا رأيكم وائتمروا أمركم فإن أحسن الحديث أصدقه . فأسكنوا) (١) .

- وهو الذى حدَّد كذلك مدة اللقاء ، فهو مهندس هذا اللقاء برمته رضي الله عنه (فعن الشعبى قال : انطلق النبى ﷺ بالعباس وكان العباس ذا رأى . فقال العباس للسبعين: ليتكلم متكلم ولايطل الخطبة فإن عليكم عينا) (٢) .

٣ - أما أهم القضايا فى هذا اللقاء. فكانت بعد أن تحدث العباس رضي الله عنه هى تحديد هوية هذه الدولة . فقد كان الحديث ابتداءً عن الإسلام . هذا الدين الذى بعث الله تعالى به عبده محمدا ﷺ إلى الناس كافة . (فتكلم رسول الله ﷺ ، ودعا إلى الله عز وجل ، وتلا القرآن ، ورغب فى الإسلام فأجبناه بالإيمان به ، والتصديق له) (٣) .

إن الصيغة المطروحة الآن . غير الصيغة السابقة : « ومن يحمينى حتى أبلغ رسالة ربى عز وجل ؟» .

إنه ابتداء التزامٍ وإيمان بهذا الدين ، وتصديق بعقيدته ومبادئه وقيمه . وليست حلفا سياسيا بين ندّين متساويين ومختلفين فى العقيدة والمنهج . فقد أكرم الله تعالى نبيه أن دخل الأنصار فى دين الله أفواجا . ونجد صورتين متقابلتين للإسلام فى غير يثرب وفى يثرب .كما فى رواية جابر رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحجاج فى منازلهم فى المواسم : مجنَّة ، وعكاظ ، ومنازلهم بمنى : من يؤوينى ، من ينصرنى حتى أبلغ رسالات ربى وله الجنة ؟ فلا يجد أحدا يؤويه ولا ينصره ، حتى أن الرجل يرحل صاحبه من مصر أو اليمن فيأتيه قومه أو ذوو رحمه فيقولون : احذر فتى

---

(١) المصدر نفسه / ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) المصدر نفسه / ٨٦ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٤٤٦ .

قريش، لايفتنك، يمشى بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل ، يشيرون إليه بأصابعهم) .

هذه هى الصورة الأولى أن يوجد فرد أو بضعة أفراد فى قبيلة : والجميع يحذرون الإسلام ورسول الإسلام . أما الصورة المقابلة :

(. . حتى بعثنا الله عز وجل له من يثرب . فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ، ويقرئه القرآن .فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام) (١) .

فقد وجد المجتمع الإسلامى الذى يرحب بالدولة الجديدة ويسعى إلى قيامها،وغدت أكثرية يثرب تؤمن بهذا الدين وتدين به ، وتتوق إلى قيام دولته ، وتتلهف إلى انتشار مبادئه . ومن هذا المنطلق نرى كيف سعى الأنصار أنفسهم لإنهاء وضع الاضطهاد القائم على قيادة الدعوة . وكما تقول رواية جابر :

(ثم بعثنا الله عز وجل وائتمرنا ، واجتمعنا سبعين رجلاً منا فقلنا : حتى متى نذر رسول الله ﷺ يطوف فى جبال مكة ويخاف ؟ . فرحلنا حتى قدمنا عليه الموسم) .

إنها عزمة اجتمعت عليها القيادات الكبرى فى يثرب ، وقررت أن الوقت قد حان لظهور دولة الإسلام . بعد أن أصبح المجتمع اليثربى مجتمعاً يدين بالإسلام .

ولهذا كان أول ما فى اللقاء هو الدعوة إلى الله وقراءة القرآن والتصديق بالإسلام؛ لأنها الأسس التى يقوم عليها التحالف ابتداءً . ولابد من تحديد أسس أى تحالف يقوم فى المراحل الأولى منه .

ثم تلا ذلك الخطوات العملية بعد تحديد الأسس الفكرية بأنه حلف قائم بين رسول الله ﷺ ،والمؤمنين المسلمين به من أهل يثرب .

ثم كان الطرح اللاحق لتحديد الهوية هو الخطوات التنفيذية المطلوبة من المتحالفين حتى تقوم الدولة الجديدة . فكان سؤال الأنصار بعد أن آمنوا بالله ورسوله وصدقوا برسالاته : قلنا له : يا رسول الله ، خذ لنفسك وربك .

وفى رواية : أن أسعد بن زرارة رضي الله عنه قال :

(سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا) (٢) . وفى رواية عقبة بن عامر :

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٤٤٢ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٤٥٠ .

(فأتانا رسول الله ﷺ . فقال : « أوجزوا فى الخطبة فإنى أخاف عليكم كفار قريش » . فقلنا : يا رسول الله ، سلنا لربك . وسلنا لأصحابك ، وأخبرنا ما لنا من الثواب على الله تبارك وتعالى) .

٤ ـ ومن القضايا الكبرى فى هذه البيعة : شروطها المحددة الواضحة :

فرواية كعب تذكر : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

وفى رواية أبى مسعود عقبة بن عامر : « أما الذى أسأل لربى ! أن تؤمنوا به ، ولا تشركوا به شيئاً . وأما الذى أسأل لنفسى : أسألكم أن تطيعونى أهدكم سبل الرشاد . وأسألكم لى ولأصحابى : أن تواسونا فى ذات يدكم وأن تمنعونا مما منعتم منه أنفسكم. فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة وعلى » (١) .

ورواية الإمام أحمد عن جابر تذكر : فقلنا : يا رسول الله ، علام نبايعك ؟ قال :

« تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله لا تخافون فى الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»(٢).

فقد تضافرت الروايات الثلاث على طلب المنعة . مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم ، كما تضافرت على أن الجزاء الجنة فقط .

ويقف المسلم ملياً أمام هذا الأجر العظيم الذى يبايع عليه المؤمنون ويمنعون به رسول الله ﷺ كما يمنعون أزرهم (نساءهم) ، وأنفسهم .

فلم يكن الأجر . أن لهم الأمر من بعده ، ولم يكن الأجر . أن لهم الحضر وله المدر أو عكس ذلك ، ولم يكن الأجر حتى النصر المؤكد للإسلام . لقد كان الأجر هو الجنة فقط .

وإنها لتربية خالدة فى هذا الوجود لهذه القيادات الكبرى فى التاريخ ، والتى تستعد لأن تبذل أرواحها ودماءها فى سبيل الله ورسوله . ألا يكون لها الجزاء فى هذه الأرض كسباً ولا منصباً ولاقيادة ولازعامة . وهم الذين أفنوا مائة عام من أعمارهم يتصارعون على الزعامة والقيادة . ولم نجد نصاً واحداً بين كل الروايات التى وردت تحدثت عن

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ٤٧ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى وفيه مجالد وحديثه حسن وفيه ضعيف ».

(٢) المصدر نفسه ٦ / ٤٦ ، وقال فيه : « رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح » ، وهو عند أحمد ٣/ ٣٢٢ .

أجر غير هذا الأجر .

إنه بناء جديد لهذه النفوس العظيمة ، بحيث تطرح كل طموحاتها وزعاماتها بعيداً بعيداً عنها ، وتقاتل ، وتجاهد فى سبيل الله ، والإضافة الجديدة فى الرواية الثانية . تم توزيعها على ما يشترطه عليه الصلاة والسلام لربه ولنفسه ولصحبه .

أما ما هو لله : « أن تؤمنوا بالله ولا تشركوا به شيئا » .

فليس لله تعالى حاجة لأحد من خلقه أن يمنعه : « إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » . كما فى الحديث القدسى .

أما ما هو لرسوله ﷺ : « إن تطيعونى أهدكم سبل الرشاد » .

فهى تبعية تامة كاملة لرسول الله ﷺ . وليست شراكة بين فريقين متساويين فى الحقوق والواجبات . إنها جزء من دين المسلم . أن يطيع الله ورسوله طاعة تامة كاملة. وإن كانت غير واضحة فى ذهن هذا الجيل الجديد القائد . فقد نُص عليها نصاً أو أكد عليها فى هذه البيعة الفريدة فى التاريخ .

وفى رواية الإمام أحمد ، عن جابر رضي الله عنه : كانت التكاليف أكثر . فقد انصبت على عناصر خمسة تم التركيز عليها ، والبيعة عليها من بين أمور الإسلام عامة . هذه الأمور هى :

١ ـ السمع والطاعة فى النشاط والكسل .

٢ ـ النفقة فى العسر واليسر .

٣ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٤ ـ القول فى الله لاتأخذكم فيه لومة لائم .

٥ ـ النصر إذا قدمت عليكم يثرب ، تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم .

إننا أمام بناء خط جديد للحياة ، وانعطافة كاملة فى التاريخ ، تضع كل هذه القيادات طاقاتها وأموالها وأبنائها تحت تصرف القائد الأعظم ﷺ ، وتحول جديد فى كل المناهج والنوازع والآمال والأهداف والتوجهات . كل هذا يتم مقابل ثمن واحد فقط هو الجنة .

ومع ذلك بقى هذا الجيل الرائد على عهده ووعده .

فيحدثنا أحد هؤلاء القادة ، بعد مرور عقود من الزمن ، وقد انتقل الأمر الى قريش ، وأصبحت الأنصار خارج حلبة القيادة العليا يحدثنا ابن إسحاق عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، عن أبيه ، عن جده عباده بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وإثرة علينا ، يقول : وإن استؤثر عليكم وقومى يلوموننى على هذا الحرف ، فقلت : والله لأحدثنك ما سمعت أبى يحدثنى، ولا تُنازعن الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم .

إن هذا الحديث بين ابن إسحاق ، وعبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت. قد يكون بعد قرن من الزمان على الأقل بعد هذه البيعة . لقد كانت الجيل يورثها للجيل الذى يليه . والأب يورثها لأبنائه . فعبادة يوصى ابنه الوليد ، والوليد يوصى ابنه عبادة بهذه البيعة الخالدة وألا ننازع الأمر أهله ولو استؤثر علينا فيه . وحفظت الأنصار هذه البنود من البيعة خلال التاريخ . ومثلت أعظم صور الإيثار والخلود فى هذا الوجود . وهى تُقتلُ وتذبح وتجاهد ، وتبذل وتقدم الأولاد والأرواح والمهج ، وغيرها يشاركها فى هذا البذل . لكنه يملك مقود الحكم . وعليها أن تصبر ولو استؤثر عليها ، وألا تنازع الأمر أهله . فالثمن الذى أعطيه الأنصار هو الجنة ، والجنة فقط . وقد خط لهم رسول الله ﷺ هذا الخط على مدار التاريخ ، وليس لجيل أو قبيل منهم ، وخط لهم هذا الخط حتى قيام الساعة :

« إنكم تلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » (١) .

٥ ـ وحتى لا يدور فى خلد أحد أن الأنصار لم تدرك أبعاد هذه البيعة وخطورتها . فنستعرض هنا كل الكلمات التى قيلت فى أهميتها وخطورتها وقبولهم بهذا الثمن على بيّنة .

أ ـ ففى رواية كعب بن مالك رضي الله عنه يقول العباس بن عبادة بن نضلة :

(يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه . فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل

(١) فضائل الصحابة ٢ / ٨٠٥ ح ١٤٤٩ وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند ٤ / ٥١ وفى البخارى ٧ / ١٧ .

الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة) .

ب ـ وفى رواية جابر رضي الله عنه قال :

(فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين فقال :

رويداً يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة . وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف . أما أنتم تصبرون على ذلك وأجركم على الله . وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة . فتبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله) .

جـ ـ وفى رواية عروة رضي الله عنه أن أبا الهيثم بن النبهان أقبل على قومه فقال :

(يا قوم ، هذا رسول الله ﷺ ، أشهد أنه لصادق ، وإنه اليوم فى حرم الله وأمنه وبين ظهرى قومه وعشيرته . فاعلموا أنكم إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحدة فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال فى سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم فإنه رسول الله ﷺ حقاً ، وإن خفتم خذلاناً فمن الآن) [١] .

د ـ وعن عبادة بن الصامت أن أسعد بن زرارة قال :

(يا أيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمداً ﷺ ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجنّ والإنس) [٢] .

لقد أدرك الأنصار إذن أبعاد هذه البيعة الفريدة فى الوجود ، وقام قادتهم وأشرافهم بشرح أبعادها وآثارها وخطورتها ومع ذلك فماذا كان موقفهم؟ .

قام البراء بن معرور ـ كما فى رواية كعب ـ فقال : (نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابراً عن كابر).

وفى الرواية نفسها أن الأنصار قالت بعد مقالة العباس بن عبادة بن نضلة:

(بل نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه) [٣] .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ٤٧ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى هكذا مرسلاً ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف » .

(٢) المصدر نفسه ٦/٤٩ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه على بن زيد ، وهو ضعيف وقد وثق » .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٠ .

هـ ـ وأما جوابهم على قول أسعد بن زرارة فى مواجهة العرب كافة فكان:

(فقلنا : أمط يدك يا أسعد بن زرارة ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها . فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً ، يأخذ علينا شرطه ، ويعطينا على ذلك الجنة) (١) .

وفى رواية عروة : أنهم أجابوا بعد اعتراض أبى الهيثم رضي الله عنه :

(قبلنا عن الله وعن رسوله ما أعطيانا ، وقد أعطينا من أنفسنا الذى سألتنا يا رسول الله ، فخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله ﷺ فلنبايعه، فقال أبو الهيثم : أنا أول من بايع) (٢) .

و ـ وكان جوابهم لأسعد بن زرارة رضي الله عنه يوم أعلمهم أن بيعتهم هى على حرب العرب والعجم ، والإنس والجن (فقالوا : نحن حرب لمن حارب ، وسلم لمن سالم).

٦ ـ وكل ما اشترطه الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ وقبله ـ عليه الصلاة والسلام ـ منهم هو أن يكون معهم ، مرتهنا مصيره بمصيرهم .

(فاعترض القول ، والبراء يكلّم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن النبهان فقال:

يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً (٣) ، وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم (٤) . أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ») .

وإنها لعظمة النبوة أن يرضى سيد الخلق كافة وسيد ولد آدم أن يشترط عليه جندى من جنوده .

والأصل على جنوده السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والنشاط والكسل، ومع ذلك يستجيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأعماق هؤلاء السبعين العظام الذين قرروا أن يحاربوا الكفر كل الكفر فى العرب كافة ، فى الإنس والجن ، ولكنهم يتمنون أن يبقى رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم . فقال كلمته الخالدة التى شرحت صدورهم بالإسلام والإيمان . وعمّقت الإيمان فى قلوبهم لتكون كالرواسى الجبال . وماذا يريدون بعد أن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٤٤٣ ، وهو عند أحمد ٣/ ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ٤٧ .

(٣) الحبال : العهود والمواثيق .

(٤) الدم الدم والهدم الهدم . قال ابن قتيبة : كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار دمى دمك وهدمى هدمك . أى ماهدمت من الدماء هدمته أنا .

فازوا برسول رب العالمين ـ صلوات الله عليه ـ لقد كانوا يخشون بأس اليهود أن ينقضوا عليهم ، لو تخلى عنهم رسول الله ﷺ . إذا قطعوا عهود اليهود ومواثيقهم ، ويمر الزمن ، ويمر عقد من السنين ، ويفتح نبى الله تعالى مكة ، ويلامس قدمه الشريف ثراها الطاهر الشريف،ويصل إلى أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليه . وتدين مكة كلها بالتوحيد . وتتحرك هواتف فى قلوب الأنصار أو بعضهم :

لقى رسول الله ﷺ قومه ونسينا .

وندع الحادثة التى تحدثنا عن عظمة الوفاء بهذا الشرط تنطق دون تعليق :

(عن الزهرى قال : أخبرنى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله ﷺ ما أفاء من أموال هوازن . فطفق النبى ﷺ يعطى رجالاً المائة من الإبل فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم . قال أنس : فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أَدَم ، ولم يَدْعُ معهم غيرهم . فلما اجتمعوا قام النبى ﷺ فقال :

« ما حديث بلغنى عنكم ؟ » . فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يارسول الله فلم يقولوا شيئا ، وأمّا ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطى قريشاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟ فقال النبى ﷺ :

« فإنى أعطى رجالاً حديثى عهد بكفر أتألفهم . أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ، فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به»، قالوا : يارسول الله ، قد رضينا . فقال لهم النبى ﷺ : «ستجدون أثْرَة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ») (١).

٧ ـ ومما يلفت النظر فى هذه البيعة . وجود القيادات الكبرى فيها . ووجود الشباب والشابات فيها . فنحن مع جيل يمثل نخبة المجتمع اليثربى من جميع فصائله ، وقبائله ومراحله . فكما تذكر الرواية عن عروة عن ابن عتاب قال : (ثم حجّ العام المقبل من الأنصار سبعون رجلاً منهم أربعون رجلاً من ذوى أسنانهم ، وثلاثون من شبابهم . أصغرهم عقبة بن عمرو بن ثعلبة ، وهو أبو مسعود وجابر بن عبد الله)(٢).

وعن ابن إسحاق قال : (فجميع من شهد العقبة من الأوس والخزرج وأفناء القبائل سبعون رجلاً وامرأتان من بنى الخزرج إحداهما أم عمارة وزوجها وابناها .

---

(١) البخارى ٥/ ٢٠٠ باب غزوة الطائف .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٤٥٤ .

فجميع أصحاب العقبة مع المرأتين خمسة وسبعون نفسا) (١) .

ولكن هؤلاء القوم هم أبناء حرب وطعان صغيرهم وكبيرهم . كما وصفهم البراء ابن معرور رضي الله عنه : (فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلْقة ورثناها كابرا عن كابر) (٢) .

ولا غرو . فالحروب فيهم عمرها زهاء مائة سنة لم تنقطع ، وهم لا يزالون فى أجواء الحرب والقتال ، فلم تندمل جراحهم بعد .

٨ ـ وأهم القضايا التى برزت فى بيعة العقبة . هى قضية الكتمان والسرية. وهذه التجربة العظيمة بحاجة إلى الوقوف عندها . والتربية عليها تعنى نجاحا فائقاً فى كل تحرك سياسى وعسكرى لمواجهة الباطل وطواغيته.

أ ـ لقد خرج الركب ابتداءً ضمن الحجاج المشركين ، حيث ترفعهم بعض الروايات إلى خمسمائة حاج ،ولم تذكر الروايات أقل من ثلاثمائة. ووجود سبعين مسلماً فيهم . لهم شعائرهم التى يؤدونها من الصعب جداً أن يبقى أمرهم مكتوماً غير مكشوف ، خاصة وأن الإسلام اشتهر بالمدينة ودخل كل بيت ، ومن الطبيعى جداً أن يدخل المشركون فى حسبانهم احتمالات لقاءات المسلمين مع قياداتهم فى مكة ، ومع إخوانهم فيها ، ومع ذلك لم تشر أى رواية إلى وقوع الشك أصلاً فى أية خطة أو مخطط إسلامى .

(خرجنا مع حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا) .

ب ـ وكثيرا ما يعانى الدعاة والعاملون للإسلام تناقضا كبيرا بين الحركية والسرية ، فالنشاط الحيوى والعمل الدؤوب قد يكشف جوانب من العمل السرى ، والمحافظة على السرية قد تعيق الدعوة والحركة . ومن النماذج الواضحة لذلك دعوة عبدالله بن عمرو ابن حرام إلى الإسلام فى اللحظات الأخيرة وقبيل موعد اللقاء مع رسول الله ﷺ . فهى مغامرة جريئة ولا شك لو فشلت . فقد تكشف كل المخططات السرية المعدة للقاء.

يقول كعب رضي الله عنه: (فلما فرغنا من الحج . وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ،فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله

(١) المصدر نفسه / ٤٥٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٤ .

ﷺ إيانا العقبة . قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا) (١) .

لقد ساهم فى إسلام عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه شخصيتان كبيرتان هما كعب ابن مالك (الشاعر) ، والبراء بن معرور (سيد قومه) . وكعب رضي الله عنه هو الذى يروى لنا قصة إسلامه . والثلاثة الكبار هؤلاء من بنى سلَمة . فهم ينتمون إلى أرومة واحدة. وكعب والبراء من خلال خبرتهما بعبد الله ، ومعرفتهم بأصالة محتده وطيب معدنه ، أقدما على عرض الإسلام عليه أولاً ، ثم مشاركته بيعة العقبة ثانياً . وهما أخبر الناس بتركيب عبد الله ، ومقومات شخصيته ، ومن أجل ذلك حرصاً على أن يكون شريكاً لهم فى البيعة لزعامته فى قومه ، ولثقتهم بأصالة عنصره ، وكانت معرفتهم بالرجال عميقة الغور . فانضم إلى الإسلام قبيل فترة وجيزة من البيعة، وكان أحد النقباء الاثنى عشر .

وتقابل هذا الأمر . مشاركة العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وذلك قبل إسلامه فى البيعة حتى ليكاد يكون هو المخطط لكثير من تفاصيلها . لقد غاب الوزير الأول عنها أبو بكر ، حيث كان هو وقائد الفدائيين على ، فى حراسة الشعب ، وقام العباس بعرض الأمر وإدارة المفاوضات ، وهو على شركه . وسيد الخلق محمد ﷺ هو الأدرى والأعلم بالرجال . وكان لمشاركة العباس وهو على دين قومه (فى الظاهر على الأقل)، ولمشاركة عبد الله بن عمرو بن حرام ، أهمية كبرى فى تثبيت أركان الدولة الجديدة.

والذى نخلص إليه من عرض هاتين الحادثتين إلى مبدأ رئيسى ، هو أن القيادة الواعية ، والرجالات القيادية العظيمة قادرة على أن تسبر الرجال ، وتوجّه الطاقات فى الوقت المناسب لخدمة الدعوة . حتى ولو كانت غيرمؤمنة بحيث ينتهى الأمر بها إلى تحقيق الهدف العظيم للدعوة والحركة، بحيث لا تتعرض السرية والأسرار للخطر . فقد ساهم العباس رضي الله عنه فى هذا المجال مساهمة فعالة بين يدى قائده الحبيب عليه الصلاة والسلام للمحافظة على الكتمان والسرية التامتين .

١ ـ (فأوقف العباس علياً على فم الشعب عيناً له ، وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عيناً له) (٢) .

٢ ـ وهو الذى حدّد المكان والزمان ، وأشار إلى خطورة البيعة وضرورة الاختصار فى العرض فقال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٤ .

(٢) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ٣٥ .

(ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ؛ فإن عليكم من المشركين عيناً) (١) .

ونفذ الأمر حسب التخطيط المذكور وقصرت الخطبة . ولكنها كانت واضحة جلية بينة حددت معالم المرحلة السابقة ، وكانت كما قال الشعبى رحمه الله : (فما سمع الشيب ولا الشبان خطبة أقصر ولا أبلغ منها) (٢) . ورواية الخطبة كما وردت هى :

(عن عامر قال : انطلق النبى ﷺ معه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة . قال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم . فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ماشئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ماشئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب عند الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . قال : « أسألكم لربى أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم » . قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « لكم الجنة » . قالوا : فلك ذلك) (٣) .

وفى رواية أخرى لعامر : (انطلق رسول الله ﷺ ومعه العباس ـ وكان ذا رأى ـ إلى السبعين من الأنصار ليلاً إلى العقبة تحت الشجرة . فذكر الحديث بنحوه وزاد : قال: فسمعت الشعبى يقول : فما سمع الشيب ولا الشبان خطبة أقصر ولا أبلغ منها)(٤) .

٣ ـ « وأمرهم أن لا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً » (٥) .

فهذه توجيهات صادرة من القيادة النبوية ، وذلك بعد تحديد الزمان والمكان . أن الذى لا يكون يقظاً فلا يوقظ ، والذى يتخلف لا ينتظره أحد ، وذلك حرصاً على تمام الكتمان والسرية عن أعين المشركين .

٤ ـ أما المكان فكان العقبة ، وأما الزمان فى ليلة اليوم الذى هو يوم النفر الأول .

قال كعب : (ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة) أى : إلى أن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤٥٠ . (٢) المصدر نفسه ٢ / ٤٥١ .
(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/٤٨ ، وقال فيه : رواه أحمد مرسلاً ، ورجاله رجال الصحيح .
(٤) السيرة الحلبية ٢/١٧٣ .
(٥) قدَّر الله لى صبيحة هذا اليوم ، ومضيت لأرى آثار مسجد البيعة عند العقبة . والتى لا تزال باقية إلى الآن. وواضح فيه سعة ذلك الشعب من جهة ، وبعده عن الأنظار ، وضرورة الحراسة له من المكانين اللذين يمكن الدخول إليهما . والتى قام بها سيدا هذه الأمة أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وقرب المكان ووضوحه يساعد على الوصول والاهتداء إليه ، ويبقى رمزاً على مر التاريخ لتلك الليلة الفريدة التى تمت فيها هذه البيعة ، فغيّرت وجه التاريخ كله ليكون بيد أئمة الهدى فى الأرض .

يوافوه فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة ، حيث المسجد اليوم أى الذى يقال له مسجد البيعة كما تقدم (١) ، وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً ، وذلك فى ليلة اليوم الذى هو يوم النفر الأول .

(قال : فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا فيها رسول الله ﷺ لها وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا) (٢) .

٥ ـ وحتى عند المفاوضات . كانت تعليمات العباس رضي الله عنه فى إخفات الصوت :

(فقال العباس : اخفوا جرسكم (أى : صوتكم) فإن عليكم عيوناً) (٣) .

٦ ـ وتم تنفيذ التعليمات فقد تحرك السبعون من بين الثلاثمائة من المشركين بسرية تامة :

(فمكثنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ـ أى بعد هدأة ـ يتسلل الرجل والرجلان تسلل القطا (٤) مستخفين . حتى إذا اجتمعنا فى الشِّعب عند العقبة . ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا ، نُسيبة بنت كعب أم عمارة إ حدى نساء بنى مازن ابن النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى إحدى نساء بنى سلمة . وهى أم منيع) (٥) .

٧ ـ وشاءت إرادة الله ـ عز وجل ـ رغم كل هذه الاحتياطات العنيفة من السرية . أن يتحرك الشيطان ليكشف الأمر . أما شياطين الإنس فقد عجزوا عن كشفه أو كانوا جاهلين أصلاً لوجوده .

(فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان فى رأس العقبة ، وبأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب (والجباجب : المنازل) ، هل لكم فى مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟ فقال رسول الله ﷺ : «هذا إزب (٦) العقبة ، هذا ابن أزيب . أتسمع أى عدو الله ، أما والله لأفرغن لك » . ثم قال رسول الله ﷺ « ارفضوا إلى رحالكم » . فقال له العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : « لم نؤمر بذلك .

(١، ٢) السيرة الحلبية ٢/ ١٧٣ .
(٣) السيرة الحلبية ٢/ ١٧٦ .
(٤) القطا : طائر مشهور بتخفيه وسرعة حركته .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٥ .
(٦) إزب : شيطان .

ولكن ارجعوا إلى رحالكم » . قال : فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا)(1) .

لقد تم تنفيذ التعليمات بدقة متناهية فى الحضور إلى موعد البيعة،وفى الانصراف . حيث عادوا إلى مضاجعهم فناموا فيها دون أن يحس بهم أحد، ولم تسجل مخالفة واحدة داخل اللقاء أو فى الطريق إليه أو العودة منه. وكان القوم على أعلى مستويات المسؤولية والإدراك لما يقدمون عليه ، وحتى حينما صرخ الشيطان فى الليل ، فلم يفقد أحد منهم أعصابه ، أو ينفلت من عقاله ، أو يغادر مكانه خوفاً وهلعاً ، أو يناقش فى أى تعهد أو التزام التزم به . لقد كان الكلام نظرياً ، وها هم يتعرضون لأعنف امتحان من الناحية العملية . ولما تنته بيعتهم بعد ، وهم جزيرة محصورة فى بحر مائج هائج من الشرك . فهم سبعون فى قومهم من الخزرج والأوس . فكيف يكون عددهم للحجاج العرب من كل صقع ، بل بدت عظمتهم ، حين عبّر عن مشاعرهم وأحاسيسهم العباس بن عبادة بن نضلة رضي الله عنه : والله لئن شئت لنميلنّ غداً على أهل منى بأسيافنا .

ورفض ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك . فالشيطان ليس هو الذى يحدد المعركة، ولا يملكون عدتها وأهبتها هنا ، إنما الذى يحددها هو سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأمر من ربه : « لم أومر بهذا ، ولكن ارفضوا إلى رحالكم » . فلن تتغير الخطة لأية استثارة أو أية تحديات . إن المعركة ستكون فى أرض الدولة الجديدة ، وبعد قيامها واستكمال عناصر قوتها ، ولن تكون فى هذه البيداء ، وفى أرض العدو ، بحيث قد تنتهى بإبادة الصفوة من الأمة لحماسٍ عابر ، واندفاع طارئ . ولم يتغير فى طبيعة الخطة شيء رغم النداء الرهيب الذى أذاعه الشيطان فى جوف الليل ، وعاد القوم إلى فرشهم، وكأن شيئاً لم يكن ، وعلى الجميع أن يحافظوا على هذه السرية دون أية استثارة .

٨ ـ ونجحوا أخيراً فى المحافظة على هذه السرية حين جاء وفد قريش :

(فلما أصبحنا غدت علينا جلّة قريش حتى جاؤونا فى منازلنا فقالوا : يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . قال : فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ماكان من

(1) السيرة النبوية ٢/ ١٠١ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٤٥ : رواه أحمد والطبرانى بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع .

هذا من شيء ، وما علمناه . قال : وقد صدقوا ، لم يعلموه . قال : وبعضنا ينظر إلى بعض . قال : ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى ، وعليه نعلان له جديدان. قال : فقلت له كلمة ـ كأنى أريد أن أُشرِك القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر ، أما تستطيع أن تتخذ ـ وأنت سيد من ساداتنا ـ مثل نعليّ هذا الفتى من قريش؟ قال : فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلىّ، وقال : والله لتنتعلنّهما . قال : يقول أبو جابر : مه ، أحفظت والله الفتى ، فاردد عليه نعليه . قال: قلت : والله لا أردهما . فأل والله صالح ، لئن صدق الفأل لأسلبنه .

قال ابن إسحاق : (وحدثنى عبد الله بن أبى بكر : أنهم أتوا عبد الله بن أبىّ بن سلول . فقالوا له مثل ما قال كعب من القول . فقال لهم : إن هذا لأمر جسيم ماكان قومى ليتفوتوا علىّ بمثل هذا ، وما علمته كان . قال : فانصرفوا عنه) (١) .

ولاندرى بالضبط مدى دقة معلومات قريش : (قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا) . فإن كانت استنتاجاً فلا غرابة فى ذلك . إذ أن انتشار الإسلام فى يثرب لم يعد سراً يذاع . وقدوم هذا الوفد الضخم من المدينة يوحى بذلك ، أن يقع الشك أول ما يقع بأهل يثرب، وإن كان فى بعض الروايات أن الشيطان قد صرخ:

(فصرخ الشيطان من رأس الجبل : يا معشر قريش ، هذه الخزرج والأوس تتابع محمداً على قتالكم . ففزعوا عند ذلك وراعهم . فقال رسول الله ﷺ : « لا يرعكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس ليس يسمعه أحد ممن تخافون »، وقام رسول الله ﷺ وصرخ بالشيطان : « يابن أزب هذا عملك فسأفرغ لك ») (٢) .

وبناءً على هذه الرواية فإن قريشاً قد سمعت الشيطان ، وحمى الله تعالى مشركى الأوس والخزرج من سماع هذا الصوت وهم بجواره ، بينما سمِعَتْه قريش ، وهى فى دورها فى مكة ، وجاؤوا فقابلوا قيادة الوفد . فنفت أن يكون قد تم من ذلك شىء .

وكان من الممكن لمثل هذا الصوت أن ينقض يزلزل أركان الجميع ، ويضع الشك فى الصف الداخلى . فى أن من المبايعين جواسيس لقريش والعدو . ولو وصل الصوت لقيادة الخزرج . للاحظوا تفرق أعدادٍ منهم ليسوا فى فرشهم ومضاجعهم ، ولفرضت المعركة ابتداءً بين المشركين والمسلمين من الخزرج . ولكن لطف الله تعالى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٢ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ٤٧ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى مرسلاً عن عروة وفيه ابن لهيعة ، وحديثه حسن فيه ضعف » .

أبطل كيد الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ، وحرك جنوده للثأر من محمد وصحبه . فأفشل الله كيده ورده إلى نحره .

لكننا لا ننسى أبداً دور هذه النوعيات العظيمة التى حافظت على هدوئها وعلى سريتها وكتمانها . وهدوء أعصابها ، أثناء الحوار بين قريش ومشركى الخزرج . بل لم يكتف كعب بذلك . فأثار زوبعة مصطنعة تصرف النظر عن الموضوع الأساسى . وهى الحديث عن نعلى الحارث بن هشام . لتصبح قضية تثير الحفيظة أكثر من قضية البيعة . ونجح رضي الله عنه فى ذلك أيما نجاح ، بحيث يشارك المسلمون فى الحديث كما يشارك المشركون . فتدخل كعب وعبد الله بن عمرو بن حرام الذى لم يمر سويعات على إسلامه ليصطنعا الشد والجذب فى النعلين الجديدين .

إنه جيل لم يمر على تربيته أكثر من عام أو عامين على الأقل .ولم يمر على اقتباسه من جعبة المصطفى ﷺ إلا لحظات ، فنورت هذه اللحظات بصيرته ، وضبطت أعصابه، وحفظت طاقاته ، وبنت موضوع الولاء والسمع والطاعة التى تمت البيعة عليها عملياً ، بعد أن أعطت كلاماً وعهداً . نحن أمام قيادة واعية بصيرة ، حددت الهدف ، وخططت له ، وتجاوزت كل المفاجآت على الطريق التى يمكن أن تقع ، دون أن تصرف عن الهدف الرئيسى ، وهو انتقال القوة الإسلامية إلى المدينة ، وإعلان الدولة الإسلامية هناك ، ثم إعلان المواجهة بعد ذلك .

إن هذا الموقف العظيم فى تجنب المواجهة مع الطاغوت قبل استكمال العدة اللازمة، وأن يبقى تحديد زمان ومكان المعركة بيد القيادة المسلمة ليذكرنا باستعجال الخطا من بعض الحركات الإسلامية فى العصر الحديث حيث لم تتجنب أو لم تتمكن أن تتجنب المواجهة فى غير وقتها المناسب ، إذ كانت قد أعدت خطة لذلك فى وقت لاحق. فخاضت المعركة مع الطاغوت قبل سنوات من الزمن المقرر للمواجهة ، وخسرت المعركة بعشرات الألوف من المشردين والمسجونين وعشرات الألوف من الشهداء والمفقودين ، فى جملة أسباب أخرى حالت دون النصر والتمكين لا مجال لذكرها (١) الآن ، إنما نحن بصدد هذا المأزق الحرج الذى تجاوزته العصبة المؤمنة الأولى فى الأرض، لقد كانت أول تجربة وامتحان عامٍ بعد البيعة فكانوا على مستواها الرفيع .

٩ ـ ومع كل هذه الاحتياطات . فقد كُشِف الأمر ، ووقعت إحدى قيادات الأنصار بيد العدو .

---

(١) سبق أن تعرضنا إليها بكلمة موجزة فى الجزء الثانى من «المنهج التربوى للسيرة النبوية ـ التربية الجهادية » .

و تنطّس [1] القوم الخبر ، فوجدوه قد كان ، وخرجوا فى طلب القوم . فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر ، والمنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيباً . فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع [2] رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه بجمّته ، وكان ذا جمّة وكان ذا شعر كثير .

قال سعد : فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع على نفر من قريش فيهم رجل وضيئ أبيض شعشاع [3] حلو من الرجال . فقلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا . فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكمة شديدة . فقلت فى نفسى : لا والله ما عندهم بعد هذا خير .

قال : فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى لى رجل ممّن كان معهم فقال : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قال : قلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث بن حرب بن أمية . قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين. واذكر ما بينك وبينهما . قال : ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ، ويهتف باسمكما ، ويذكر أن بينه وبينكم جواراً . قالا : ومن هو؟ قال : سعد بن عبادة ، قال : صدق والله ، إن كان ليجير لنا تجارنا ، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده ، قال : فجاءا فخلّصا سعداً من أيديهم .

وكان الذى لكم سعداً سهيل بن عمرو أخو بنى عامر بن لؤى ، وكان الرجل الذى أوى إليه أبا البخترى بن هشام . وكان أول شعر فى الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر . فقال :

تداركت سعداً عنوة فأخذته ... وكان شفاء لو تداركت منذراً

ولو نلته طلّت هناك جراحه ... وكان حرياً أن يهان ويهدرا

لقد أُخذ سعد أسيراً بين يدى قريش ، ولم يراعوا حرمة البيت ، فراحوا يضربونه ويجذبونه من شعره ويلكمونه تعبيراً عن حقدهم الشديد عليه وعلى هذه البيعة الخطيرة. لكننا نلاحظ أن رسول الله ﷺ والمسلمين لم يهبوا لنجدته وإنقاذه . فهم لم يعلنوا المواجهة بعد . ولم يخوضوا حرباً لحمايته . إنما تحرك الحليف الدائم للمسلمين

---

(١) تنطس القوم الخبر : بالغوا فى البحث وتأكدوا منه . (٢) نسع رحله : الشراك الذى يشد به الرحل .
(٣) الشعشاع : الطويل .

من المشركين أبو البختري بن هشام الذى لم يكن يخفى هواه مع بنى هاشم . وذكّر سعد بن عبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إن كان له أصدقاء أو حلفاء فى صفّ قريش . فذكر الحارث بن حرب بن أمية وجبير بن مطعم ، وكلاهما من بنى عبد مناف ، وتمكن هذان الرجلان أن يتحركا بحرية . وينقذا سعداً من محنته . ويجيراه من بين يدى القوم. كما كان يجير تجارتهما فى بلده . لقد أنقذته الأعراف الجاهلية ، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد فى نفسه غضاضة من ذلك ، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون فى مكة ، وعاجزون عن حماية أنفسهم ، بله حماية غيرهم . وكان رسول الله ﷺ يعيش كل لحظة مع أنصاره الجدد فى يثرب وفى مكة ، ويتتبع أحوالهم وأوضاعهم . كما يقول بعضهم : (وكان لا يخفى على رسول الله ﷺ بمكة أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأخبر به) .

ونضع هذا الدرس لكل قائد . يعطينا صورة عن مدى اهتمام القائد بهموم أصحابه:

فعن ابن إسحاق قال : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة . قال : (كانت حواء بنت زيد بن السكن عند قيس بن عبيد الخطيب ـ كذا قال ، وإنما هو ابن الخطيم بالمدينة ـ وكانت أمها عقرب بنت معاذ أخت سعد بن معاذ ، فأسلمت حواء فحسن إسلامها وكان زوجها قيس على كفره . فكان يدخل عليها وهى تصلى ، فيؤذيها ، وكان لا يخفى على رسول الله ﷺ بمكة أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأخبر به . قال قيس : فقدمت مكة فى رهط من مشركى قومى حجاجاً . فبينا نحن إذ جاء رجل يسأل عنى فدُل علىّ ، فأتانى فقال : « أنت قيس ؟ » قلت : نعم . قال : « زوج حواء » . قلت : نعم . قال : « فمالك تعبث بامرأتك وتؤذيها على دينها ». فقلت : إنى لا أفعل . قال : «فلا تفعل ذلك بها ، دعها لى ». قلت : نعم . فلما قدم قيس المدينة ذكر ذلك لامرأته وقال : فشأنك بدينك . فوالله مارأيته إلا حسن الوجه حسن الهيئة) (١) .

لقد تم هذا الأمر فى هذا الحج نفسه ، وتمت التوصية بامرأة عزلاء تؤذى فى المدينة من زوجها . حيث راح ـ عليه الصلاة والسلام ـ يسأل عن زوجها قيس ، ويبذل جاهه لإجارتها من إيذائه . . فقد كان يؤلمه ما تعانى هناك فى المدينة . ولو كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قادراً على حماية سعد بن عبادة لحماه فى مكة كما حمى حواء بنت السكن . وبمثل هذه التربية الخالدة . استأثر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقلوب أصحابه ، وبذلوا حياتهم ومهجهم بين يديه .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ، وقد رواه بسنده عن ابن إسحاق ٢/ ٤٥٥ .

القاعدة الصلبة للدولة الجديدة

روى البيهقى بسنده عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم : (أن رسول الله ﷺ قال لهم : « ابعثوا لى منكم اثنى عشر نقيباً كفلاء على قومهم فيما كان منهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ـ عليه السلام » . فقال أسعد بن زرارة أحد بنى النجار : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « وأنت نقيب على قومك » . فبايعوا رسول الله ﷺ ، وأخذ منهم اثنى عشر نقيباً ثم سماهم) (١) .

وفى رواية له عن مالك رضي الله عنه :

قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنا مالك ، قال : (كان أسيد بن حضير أحد النقباء ، وكانت الأنصار منهم اثنا عشر نقيبا . وكانوا سبعين رجلاً) (٢) .

قال مالك : حدثنى شيخ من الأنصار : « أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يشير له إلى من يجعله نقيبا . قال مالك : كنت أعجب كيف جاء من كل قبيلة رجلان ، ومن قبيلة رجل حتى حدثنى هذا الشيخ أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يشير إليهم يوم البيعة ـ يوم العقبة ـ قال لى مالك : عدة النقباء اثنا عشر رجلاً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس) (٣) .

وقال الطبرانى فى حديثه :

(فقال رسول الله ﷺ اخرجوا منكم اثنى عشر نقيباً ، فأخرجهم . فكان نقيب بنى النجار أسعد بن زرارة ، وكان نقيب بنى سلمة البراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وكان نقيب بنى ساعدة ، سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، وكان نقيب بنى زريق رافع بن مالك بن العجلان ، وكان نقيب بنى الحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة ، وسعد بن الربيع ، وكان نقيب بنى عوف بن الخزرج عبادة بن الصامت، ونقيب بنى عبد الأشهل أسيد بن حضير وأبو الهيثم بن التيهان ، وكان نقيب بنى عمرو بن عوف سعد بن خيثمة) (٤) .

(١ ــ ٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ٤٦ ، وقال فيه : « رواه أحمد والطبرانى بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع وقاله الطبرانى فى حديثه ».

النقباء الاثنا عشر :

فنحن إذن أمام مجموعة مختارة من قومها أو اختارها الله ـ عز وجل ، وأوحى إلى رسول الله ﷺ بذلك . وهذا هو الذى يفسر وجود نقيبين فى قبيلة . ونقيب فى أخرى، ولم تكن متناسبة مع العدد . فقد كان عدد الأوس الذين حضروا البيعة ثمانية وكان منهم ثلاثة نقباء وكان عدد الخزرج الذين حضروا البيعة اثنين وستين وامرأتين . وكان نقباؤهم تسعة .

وفى الرواية الأخرى : (أن رسول الله ﷺ قال لهم : ابعثوا لى منكم اثنى عشر نقيباً كفلاء على قومهم فيما كان منهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ـ عليه السلام. فقال أسعد بن زرارة أحد بنى النجار : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : «وأنت نقيب على قومك » .

فبايعوا رسول الله ﷺ ، وأخذ منهم اثنى عشر نقيبا . ثم سماهم) (١) .

لقد تجددت الآن رسالات السماء برجالات السماء :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٢) .

هؤلاء رجالات موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذين كانوا على قومهم ، وكان الذين اختارهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبعين رجلاً : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ﴾ (٣) .

لكن أولئك السبعين المختارة سقطوا فى الامتحان ، وقالوا : أرنا الله جهرة .

أما السبعون هنا فقالوا فى أول امتحان لهم : لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا . ثم كانت التجربة الثانية مع النقباء عند المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤٥٢ ، ٤٥٣ . (٢) المائدة / ١٢ .
(٣) الأعراف / ١٥٥ .

عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (١) .

لقد كان الحواريون اثنى عشر نقيباً كذلك . ولكن بعضهم سقط فى الامتحان كذلك . وكأنما كان هؤلاء الحواريون الجدد ، والسبعون المبايعون هم البديل عن الأنصار السابقين عند موسى وعيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ،وإن القرآن الكريم قد تحدث صراحة عن سقوط السبعين المختارين من قوم موسى ـ عليه الصلاة والسلام . لأنه لم يجد فى اللحظة الحاسمة ، وعندما طلب النصرة إلا رجلان أنعم الله عليهما . وأخاه هارون .

قال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

فقد حدثنا ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن سقوط الأمة المسلمة بعد عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسقوط بعض حوارييه . وبقيت الهزيمة للمؤمنين حتى جاء نصر الله ببعثة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما يذكر الإمام ابن كثير فى تفسيره للآية :

(يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم . وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ ﴾ أى : من معينى فى الدعوة إلى الله ـ عز وجل؟ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ أى : نحن أنصارك على ما أُرسلت به وموازروك على ذلك ؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس فى بلاد الشام فى الإسرائيليين واليونانيين . وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج : «من رجل يؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى . فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى » . حتى قيَّض الله ـ عز وجل ـ له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه ووازروه ، وشارطوه أن يمنعوه من الأحمر والأسود إن هو هاجر إليهم ؛ ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار . وصار ذلك علماً عليهم ـ رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ أى : لما بلغ عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة . فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله

---

(١) الصف / ١٤ .

(٢) المائدة / ٢٥ ، ٢٦ .

المتابعة إلى يوم القيامة ، وضلت طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقاً وشيعاً . فمن قائل منهم إنه ابن الله ، وقائل إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن والروح القدس ، ومن قائل إنه الله ،وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء.

وقوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أى : نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [1] أى : عليهم وذلك ببعثة محمد ﷺ كما قال الإمام ابن جرير رحمه الله : حدثنى أبو السائب حدثنى أبو معاوية ، عن الأعمش، عن المنهال يعنى ابن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

لما أراد الله - عز وجل - أن يرفع عيسى ابن مريم إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم فى بيت اثنا عشر رجلاً من عين فى البيت ورأسه يقطر ماءً فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى . ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سناً فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا . فقال له: اجلس . ثم أعاد إليهم فقام الشاب فقال: أنا . فقال: نعم أنت ذاك .

قال : فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى — عليه السلام — من روزنة فى البيت إلى السماء . وجاء الطلب من اليهود فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه . وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمنوا به . فتفرقوا فيه ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء : وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه . وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ، ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ يعنى : الطائفة التى كفرت من بنى إسرائيل فى زمن عيسى ، والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ ، بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار . هذا لفظه من كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة ، وهكذا رواه النسائى عند تفسير هذه الآية فى سننه عن أبى كريب ، عن محمد بن العلاء ، عن أبى معاوية مثله .

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم كذلك،

---

(١) الصف / ١٤ .

وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ كما وردت فى ذلك الأحاديث الصحاح والله أعلم) (١) .

لقد تشكلت الحكومة الإسلامية الجديدة . بحيث أصبح النقباء الاثنا عشر . يحملون مسؤولية الحكم فى المدينة تحت إمرة أسعد بن زرارة أحدث القوم سناً ورسول الله ﷺ هو المسؤول عن المهاجرين . ومن حكمة الله تعالى أن أسعد رضي الله عنه نقيب النقباء أو رئيس الوزراء توفى رضي الله عنه فى السنة الأولى من الهجرة (فجاءت بنو النجار فقالت : مات نقيبنا أسعد . فنقب علينا يا رسول الله ؟ قال : أنا نقيبكم) (٢) .

وفى رواية : (اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وكان أبو أمامة نقيبهم فقالوا : يا رسول الله ، إن هذا قد كان منا حيث قد علمت فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم فى أمرنا ما كان يقيم . فقال : « أنتم أخوالى ، وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم » . وكره رسول الله ﷺ أن يخص بها بعضهم دون بعض . فكان من فضل بنى النجار الذى يعدون على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم) (٣) . وبذلك صهر رسول الله ﷺ المجتمع الإسلامى الجديد . فهو نقيب بنى النجار وهو كفيل على قومه من المهاجرين ، وهو نقيب النقباء ـ عليه الصلاة والسلام.

ولم يكن أحد ينازع أسعد رضي الله عنه القيادة قبل وفاته . فهو الذى قاد الحركة الإسلامية فى المدينة من المهد إلى مرحلة قدوم النبى ﷺ إلى المدينة .

فهو أول من جمع بالمسلمين الجمعة كما يقول عبد الرحمن بن كعب بن مالك .

(كنت قائد أبى حين عمى فإذا خرج إلى الجمعة . فسمع الأذان صلى على أبى أمامة . واستغفر له فقلت : يا أبت ، أرأيت استغفارك لأبى أمامة كلما سمعت أذان الجمعة ما هو ؟ قال : أى بنى كان أول من جمع بنا بالمدينة فى هزم النبيت من حرة بنى بياضة يقال له : نقيع الخضمات . قلت : فكم كنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً . فكان أسعد مقدم النقباء الاثنى عشر) (٤) .

وعن أم خارجة أنه كان يصلى بالناس الصلوات الخمس .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ / ٦٥٠ ، ٦٥١ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٠٣ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٧٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٠٠ ، وقال المحقق فيه : أخرجه أبو داود (١٠٦٩) فى الصلاة ، باب الجمعة وسنده حسن .

تقول أم خارجة :(أخبرتنى النوار أم زيد بن ثابت أنها رأت أسعد بن زرارة قبل مقدم النبى ﷺ يصلى بالناس الصلوات الخمس ، يجمع بهم فى مسجد بناه . قالت : فأنظر إلى رسول الله ﷺ لما قدم صلى فى ذلك المسجد وبناه ، فهو مسجده اليوم)(١) .

وعن عمر ، عن عائشة قالت : (نقب النبى ﷺ أسعد على النقباء) .

وللواقدى : حدثنى معمر ، عن الزهرى عن أبى أمامة بن سهل قال: هم اثنا عشر نقيباً رأسهم أسعد بن زرارة وسنتطلق فى الحديث عن النقباء الاثنى عشر والسبعين الذين معهم حسب الخيرية التى حدثنا عنها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الحديث الصحيح .

« خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم عبد الأشهل ،ثم بنو الحارث (ابن الخزرج) ثم بنو ساعدة وفى كل دور الأنصار خير » (٢) .

بنو النجار:

هم أخوال رسول الله ﷺ فمنهم سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب جد النبى ﷺ . وقد تعرض العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه لهذه الخؤولة أثناء المباحثات ، وأمضى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ردحاً من طفولته زائراً عندهم مع أمه آمنة . وكان لتلك الزيارة أثر عظيم فى نفسه .تحدث عنها فيما بعد فقال : «كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم ، وكنت مع الغلمان من أخوالى نطيِّر طائراً كان يقع عليه » . ونظر إلى الدار فقال : « هاهنا نزلت أمى، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله ، وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار» (٣) .

يقول ابن إسحاق : وشهدها من الخزرج ابن حارثة . . ثم من بنى النجار وهو تيم الله بن ثعلبة .

١ ـ **أبو أيوب الأنصارى** : وهو خالد بن زيد . . ابن مالك بن النجار شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها ، مات بأرض الروم غازياً فى زمن معاوية بن أبى سفيان.

٢ ـ **ومعاذ بن الحارث** بن رفاعة بن مالك بن النجار شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها وهو ابن عفراء وأخوه :

٣ ـ **عوف بن الحارث** : شهد بدراً ، وقتل به شهيداً وهو لعفراء وأخوه .

---

(١) المصدر السابق ١ / ٣٠٢ . (٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ١١٥ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢ / ٦٤ .

٤ ـ **ومعوّذ بن الحارث** : شهد بدراً ، وقتل به شهيداً وهو لعفراء وهو الذى قتل أبا جهل بن هشام ويقال .

٥ ـ **ورفاعة بن الحارث** .

٦ ـ **وعمارة بن حزم** : ابن مالك بن النجار شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها ، قتل يوم اليمامة شهيداً فى خلافة أبى بكر الصديق رضي الله عنه .

٧ ـ **وأسعد بن زرارة** .

ومن بنى عمرو بن مبذول ـ ومبذول : عامر بن مالك بن النجار .

٨ ـ **سهل بن عتيك** .

٩ ـ **ومن بنى عمرو بن مالك بن النجار** . . بن جشم ، ومن الخزرج أوس بن ثابت . . شهد بدراً .

١٠ ـ **وأبو طلحة وهو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام** : شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها .

ومن بنى مازن بن النجار :

١١ ـ **قيس بن أبى صعصعة** ، شهد بدراً وجعله رسول الله ﷺ على الساقة .

١٢ ـ **وعمرو بن غزية** . . فجميع من شهد بدراً من بنى النجار أحد عشر رجلاً .

ومن بنى مازن بن النجار : نسيبة بنت كعب ، وهى أم عمارة وزوجها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله ابنا زيد (١) .

لقد استطاع بنو النجار أن يكونوا اللبنات الأولى فى الدعوة . والجهاد فى سبيل الله .

والذين برزوا فى الفداء رجالاً ونساءً ضربوا أروع الأمثلة فى ذلك .وكانت الغزوات اللاحقة فى بدر وأحد والخندق . أشد رجالها بطولة وتضحية وبذلاً . فالحب الذى ملأ كيانهم بالإسلام ، وبرسول الله ﷺ وهو ابن أختهم وهو نقيبهم يفاخرون به أمم الأرض . والذى دفعوه دماً ومهجاً وأفئدة .

لقد نشأ صغارهم على الحب للحبيب المصطفى ﷺ . حين خرج جواريهن الصغار يضربن بالدف ويقلن :

نحن جوارٍ من بنى النجار ... يا حبذا محمد من جار

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١١١ ـ ١٢٠ .

فقال رسول الله ﷺ : « أتحببنني ؟ » قلن : نعم يا رسول الله . قال : « وأنا والله أحبكن » ، قالها ثلاثاً . وتلك نسيبة بنت كعب ـ رضى الله عنها ـ التى تقاصر دون فدائها وجهادها نسوة الأرض ، وتلك المرأة الدينارية البخارية التى أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين . قالت : أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت :

(كل مصيبة بعدك جلل !) تريد صغيرة (١) .

ويكفى أن نعلم أن هؤلاء المبايعين الأحد عشر . قد مضى شهيداً منهم أكثر من ربعهم فى حياة رسول الله ﷺ .

بنو عبد الأشهل :

إنها الخيرية الثانية بعد بنى النجار ، وفى بعض الروايات هى الأولى . وإن كنا لانجد الكثير منهم فى بيعة العقبة . فقد كانوا فيما بعد الجنود الأوفياء لبيعتهم . وقد تحدثنا عن أسيد بن حضير رضي الله عنه وأبى الهيثم بن التيهان وكلاهما نقيبان من بنى عبد الأشهل . فنذكر منهم :

١٥ ـ **سلمة بن سلامة بن وقش** : وقد شهد بدراً . ومن بنى حارثة بن الحارث ابن . . . الأوسى .

١٦ ـ **وظهير بن رافع** .

١٧ ـ **وأبو بردة بن نيار** ، حليف لهم ، شهد بدراً .

١٨ ـ **ونهير بن الهيثم** .

أما من بنى عمرو بن عوف : مالك بن الأوس فكان .

١٩ ـ **وسعد بن خيثمة** : النقيب الثالث للأوس . والذى صدق ما عاهد الله عليه فى بدر .

(قالوا جميعاً : وكان سعد بن خيثمة أحد النقباء الاثنى عشر من الأنصار. ولما ندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج إلى عير قريش فأسرعوا. قال خيثمة لابنه سعد : إنه لابد لأحدنا أن يقيم فآثرنى بالخروج وأقم مع نسائك . فأبى سعد وقال : لو كان غير الجنّة آثرتك بها . إنى أرجو الشهادة فى وجهى هذا . فاستهما فخرج سهم سعد ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٣ .

فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر فقتل يومئذ) (١) .

٢٠ ـ **ورفاعة بن عبد المنذر** : نقيب على بعض الروايات ، شهد بدراً وأحداً وقتل يوم أحد شهيداً .

٢١ ـ **وعبد الله بن جبير** : أمير الرماة يوم أحد ، والشهيد العظيم الذى وفىّ بما عاهد الله عليه . فهو قائد فذ (استعمله رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد وهم خمسون رجلاً . فلما انهزم المشركون قال الرماة لبعض : ما تقيمون هاهنا على غير شىء . فقد هزم الله العدو ، فاغتنموا مع إخوانكم . فخطبهم أميرهم عبد الله . وكان يومئذ معلّماً بثياب بيض ـ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله . وأن لا يخالف لرسول الله أمر ، فعصوا وانطلقوا. فلم يبق من الرماة مع عبد الله إلا نفير ما يبلغون العشرة ، ورمى عبد الله حتى فنيت نبله ، وطاعن بالرمح حتى انكسر ، ثم كسر جفن سيفه فقاتلهم حتى قتل . فلما وقع جردوه ومثّلوا به أقبح المثل، وكانت الرماح قد شرعت فى بطنه حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عانته ، فكانت حشوته قد خرجت منها . قال خوات بن جبير ـ أخوه ـ فلما جال المسلمون تلك الجولة ،مررت به على تلك الحال . فلقد ضحكت فى موضع ما ضحك فيه أحد . ونعست فى موضع ما نعس فيه أحد ، وبخلت فى موضع ما بخل فيه أحد. . حملته فأخذت بضبعيه وأخذ أبو حنّة برجليه . وقد سددت جرجه بعمامتى . فبينا نحن نحمله ، والمشركون ناحية . إلى أن سقطت عمامتى عن جرحه ، فخرجت حشوته، ففزع صاحبى . وجعل يتلفت وراءه يظن أنه العدو فضحكت . ولقد شرع لى رجل برمح يستقبل به ثغرة نحرى فغلبنى النوم وزال الرمح ، ولقد رأيتنى حين انتهيت إلى الحفر له ومعى قوسى ، وغلظ علينا الجبل . فهبطنا به إلى الوادى فحفرت بسبة القوس وفيها الوتر فقلت : لا أفسد الوتر فحللته ثم حفرت بسبته حتى أنعمنا ، ثم غيبناه وانصرفنا) (٢) .

٢٢ ـ **ومعن بن عدى** : شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، وكان يكتب بالعربية قبل الإسلام . وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن الخطاب ،وقتلا جميعاً يوم اليمامة شهيدين . . . وشهد معن بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. . . وهو أحد الرجلين اللذين لقيا أبا بكر وعمر وهما يريدان سقيفة بنى ساعدة فقالا : لا عليكم ألا تقربوهم واقضوا أمركم . قال ابن شهاب : فأخبرنى عروة بن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٨١ . (٢) المصدر نفسه ٣/٤٧٦ .

الزبير قال : بلغنا أن الناس بكوا على رسول الله ﷺ حين توفاه الله وقالوا : والله لوددنا أنا متنا قبله ، نخشى أن نفتن بعده . فقال معن: إنى والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتاً كما صدقته حياً [1] .

فجميع من شهد العقبة من الأوس أحد عشر رجلاً .

بنو الحارث بن الخزرج :

وهم الذين يتمثلون الخيرية الثالثة كما رتبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان على رأسهم نقيبهم السيد العظيم .

٢٣ ـ سعد بن الربيع : ولم يطل المقام به حتى يوفى عهده . فقد دفع الثمن صادقاً براً بأحد . (لما كان يوم أحد قال رسول الله ﷺ : « من يأتينى بخبر سعد بن الربيع ؟ » ، فقال رجل : أنا يا رسول الله . فذهب الرجل يطوف بين القتلى ، فقال له سعد بن الربيع : ما شأنك ؟

فقال : بعثنى رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك .فقال : فاذهب إليه فأقرئه منى السلام، وأخبره أنى طعنت اثنتى عشرة طعنة ، وأنه قد أُنفذت مقاتلى .

وأخبر قومك أنه لا عذر لهم عند الله إن قتل رسول الله ﷺ وأحد منهم حى) [2] .

ومات سعد بن الربيع من جراحاته تلك .

٢٤ ـ وعبد الله بن رواحة : وهو النقيب الثانى لبنى الحارث بن الخزرج . وكان قد حصل على مقومات السيادة والقيادة فى الجاهلية . فكان يكتب ، وكانت الكتابة فى العرب قليلة . وكان شاعراً . فأراد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يوظف شعره فى المعركة مع المشركين .

(وقال عبد الله بن رواحة : مررت فى مسجد الرسول ﷺ ورسول الله جالس وعنده أناس من أصحابه فى ناحية منه . فلما رأونى أضبؤوا إلى : يا عبد الله بن رواحة ، يا عبد الله بن رواحة . فعلمت أن رسول الله دعانى ، فانطلقت نحوه ، فقال: اجلس هاهنا . فجلست بين يديه ، فقال : « كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول ؟ ! » كأنه يتعجب لذلك . قال : أنظر فى ذاك ثم أقول . قال : «فعليك بالمشركين » . ولم أكن هيأت شيئاً . فنظرت فى ذلك ، ثم أنشدته فيما أنشدته :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٥٢٣ .

خبرونى أثمان العباء متى كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

قال : فرأيت وجه رسول الله ﷺ كره بعض ما قلت أنى جعلت قومه أثمان العباء فقلت :

ياهاشم الخير إن الله فضلكم على البرية فضلاً ما له غير
إنى تفرّست فيك الخير نافلة فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم فى جلّ أمرك ما آدوا ولا نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا

قال : فأقبل بوجهه مبتسماً وقال : « وإياك فثبت الله ») (١) .

هكذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يربى هذه القيادات . فقد وجه الشاعرالفذ إلى أن يضع شعره فى نحر العدو . ثم عرض هذا الشاعر نموذجاً رفضه ـ عليه الصلاة والسلام ، وعرف شاعرنا العظيم رفضه من الكراهية التى بدت فى وجهه ـ عليه الصلاة والسلام . فسارع إلى منحى جديد عرض فيه الحفاظ على شرف نسب قريش، وخطل موقفها من الدعوة . فأقر ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الاتجاه .

فأقبل بوجهه مبتسماً وقال : « وإياك فثبَّت الله » .

بكلمات خمس . وبتقاطيع وجهه ـ عليه الصلاة والسلام ، تم بناء المنهج الشعرى لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه . وبقى يصدق القول العمل، فيقود السرايا حرباً ، ويخوض الحرب شعراً . حتى لقى وجه ربه أميراً شهيداً فى مؤته . وسنتحدث عن جوانب العظمة عنه فى حينه . وعظمة التربية النبوية فيه .

ومن قيادات بنى الحارث كذلك .

٢٥ ـ **وخارجة بن زيد** : الذى آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبى بكر الصدّيق رضي الله عنه وزيره الأول،وتزوّج الصديق ابنته حبيبة . وقدَّم الثمن غالياً فى أحد . (فأخذته الرماح.فجرح بضعة عشر جرحاً .فمرَّ به صفوان بن أمية فعرفه فأجهز عليه ، ومثَّل به، وقال : هذا ممن أغرى بأبى على ــ أمية ــ يوم بدر) . ودفن هو وسعد بن الربيع فى قبر واحد .

٢٦ ـ **وبشير بن سعد** : كان أحد أمراء رسول الله ﷺ . فقد قاد سرية بثلاثين راكباً إلى بنى مرة ، وبثلاثمائة راكب إلى يمن وجبار بين فدك ووادى القرى ، حفظ له

(١) المصدر نفسه ٣ / ٥٢٨ .

التاريخ الشرف العظيم ، والمجد التالد أن كان أول من بايع الصديق من الأنصار ، وقضى على فتنة لو استشرت لا يعلم إلا الله مداها . وقدّم ثمن الوفاء العظيم لبيعة العقبة . حين استشهد مع خالد رضي الله عنه فى عين التمر سنة اثنتى عشرة بعد اليمامة .

٢٧ ـ **وعبد الله بن زيد** : شهد بدراً وهو الذى أرى الأذان للصلاة .

٢٨ ـ **وخلاد بن سويد** : الذى شهد بدراً وأحداً والخندق ، وقتل يوم بنى قريظة شهيداً حيث طرحت عليه رحى من أطم من آطام يهود .

٢٩ ـ **وعقبة بن عمرو** : وهو أصغر السبعين المبايعين فى العقبة ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان مع على رضي الله عنه فى حروبه . وهو يذكر لنا أثر هذه البيعة التى بايعها لرسول الله ﷺ بعد ثلاثين عاماً أو أربعين، وذلك حين بايعوا (على السمع والطاعة فى المنشط والمكره، وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله) . يقول رضي الله عنه : (كنت رجلاً عزيز النفس، حمى الأنف لا يستقل منى أحد شيئاً ، سلطان ولاغيره . فأصبح أمرائى يخيروننى بين أن أقيم على ما أرغم أنفى وقبح وجهى ، وبين أن آخذ بسيفى ، فأضرب فأدخل النار) . ولا يكتفى بموقفه هذا لشخصه بل يوصى من حوله : (عليكم بالجماعة ، فإن الله لا يجمع الأمة على ضلالة حتى يستريح برٌ أو يستراح من فاجر) (١) .

وجميع من شهد العقبة من بنى الحارث بن الخزرج سبعة نفر.

بنو ساعدة :

ويمثلون الخيرية الرابعه . والغريب أن الذى حضر منهم فى البيعة رجلان فقط هما: سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، وكانا نقيبين . أما

٣٠ ـ **سعد بن عبادة** : فهو سيد الخزرج المتوج ، وذلك بيّن فى الهاتف الذى رددته جنبات مكة :

(فإن يسلم السعدان يصبح محمد   بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان ـ وفى لفظ قريش ـ من السعدان ؟ : أسعد بن بكر أم سعد بن هذيم ؟

فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلاً يقول :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٩٥ ، وقال المحقق فيه : رجاله ثقات .

فياسعد سعد الأوس كن أنت ناصراً   ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا   على الله في الفردوس زلفة عارف
فإن ثواب الله للطالب الهدى   جنان من الفردوس ذات زخارف

فقالت قريش : هذا سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة) (١) .

فهو سليل السادة الأمجاد فى الخزرج (فكان له عدة آباء قبله فى الجاهلية ينادى على أطمهم : من أحب الشحم واللحم فليأت أطم وليم بن حارثة .) وبقى فى الجود على سنة آبائه ، كما يقول عروة بن الزبير رضي الله عنه : (أدركت سعد بن عبادة وهو ينادى على أطمه : من أحب شحماً أو لحماً فليأت سعد بن عبادة) ، وأورث ابنه قيساً رضي الله عنه هذا المجد كما يقول عروة : (ثم أدركت ابنه مثل ذلك يدعو به). وسعد هو الماجد ابن الأمجاد الذى كان يدعو : اللهم هب لى حمداً وهب لى مجداً ، ولا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم لا يصلحنى القليل ولا أصلح له .

(وكان سعد لما قدم رسول الله ﷺ يبعث إليه فى كل يوم جفنة فيها ثريد بلحم أو ثريد بلبن أو ثريد بخل وزيت أو بسمن ، وأكثر ذلك اللحم . فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله ﷺ فى بيوت أزواجه) (٢) .

ودعا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله : « اللهم اجعل رحمتك وصلواتك على آل سعد بن عبادة » . وعن ابن سيرين : كان سعد بن عبادة يرجع بثمانين من أهل الصفة يعشيهم . وهو الذى أوقف مع سعد بن معاذ ـ رضى الله عنهما ـ المصالحة مع غطفان على ثلث ثمار المدينة قائلين :

والله يا رسول الله ، لقد كنا نحن وإياهم فى الجاهلية لا نعبد الله ولا نعرفه ، لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً . فبعد أن أنقذنا الله بالإسلام وأكرمنا بك نعطيهم أموالنا ؟ لا والله لا نعطيهم إلا السيف) .

وهو القائل يوم بدر : (لو أمرتنا يا رسول الله أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا) (٣) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣ / ٢٧٢ ، حيث أورد الرواية عن ابن أبى الدنيا ، والبيهقى ، وابن عساكر. وهو فى الروض الأنف للسهيلى ١ / ٢ / ١٩٩ .
(٢) مقتطفات من الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٦١٣ .
(٣) مسند الإمام أحمد ٣ / ٢٢٠، ومسلم (١٧٧٩) فى الجهاد ، باب غزوة بدر .

هذا هو النقيب الأول فى بنى ساعدة .وكان النقيب الثانى هو :

٣١ ـ المنذر بن عمرو رضي الله عنه : وهو الذى قلّده رسول الله ﷺ إمرة سرية بئر معونة والذين كانوا أربعين وفى رواية سبعين قد مضوا يعلمون الناس القرآن وعندما غدر بهم (أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم) (١) .

وهو الذى مضى لقبه علماً عليه (المعنق ليموت) أى : المسرع وإنما لقب بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة .وهو الذى شهدناه بعد بيعة العقبة قد أعجز القوم أن يقبضوا عليه . وبه وبسببه افتتحت معركة الشعر بين الفريقين . إذ قال ضرار بن الخطاب الفهرى بتحسر على أن فلت المنذر من يديه :

تدارك سعداً عنوة فأخذته   وكان شفاء لو تداركت منذرا
ولو نلته طلّت هناك جراحة   وكان حرياً أن يهان ويهدرا

وكان أول رد رسمى لشاعر الإسلام العظيم على ضرار :

فلست إلى سعد ولا المرء منذر   إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا
فلولا أبو وهب لمرت قصائد   على شرف البرقاء يهوين حُسّرا (٢)

لقد وفى المنذر رضي الله عنه بما عاهد الله عليه . وقدم دمه سريعاً مغتبطاً بالشهادة ، وفاءً لما عاهد . لقد كان أثر التربية عجيباً فى هذه النخبة القيادية . فقد كانوا أصدق الناس وفاءً وعهداً وحباً مع قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ،وعندما يكون الفداء . فهم أول الشهداء ؛ لأنهم قبلوا الجنة ثمناً وحيداً لفدائهم . ولا أرب لهم فى دنياهم هذه التى تحول بينهم وبين جنة عرضها السموات والأرض .

بنو جشم بن الخزرج :

وحضرها من فروعهم الثلاثة .

بنو بياضة بن عامر . . . ابن جشم بن الخزرج . وأشهر من حضرها منهم من القيادات .

٣٢ ـ زياد بن لبيد : شهد بدراً (وكان زياد لما أسلم يكسر أصنام بنى بياضة هو وفروة بن عمرو . وشهد زياد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٦١ .   (٢) المصدر نفسه ٢ / ١٠٥ .

وعن عيسى بن عمران بن مناع قال : توفى رسول الله ﷺ وعامله على حضرموت زياد بن لبيد ، وولى قتال أهل الردة فقتل منهم من قتل ، وأسر من أسر وبعث بالأشعث بن قيس إلى أبى بكر فى وثائق) (١) . فقد كان مجاهداً . وكان أميراً لرسول الله ﷺ ولأبى بكر الصديق على حضرموت . فهو من قيادات الأنصار المشهورة.

٣٣ ـ **وفروة بن عمرو** . . . شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

٣٤ ـ **وخالد بن قيس** : شهد بدراً وأحداً . شهدها منهم ثلاثة نفر .

وبنو زريق بن عامر . . . ابن جشم بن الخزرج . وكان نقيبهم .

٣٥ ـ **رافع بن مالك بن العجلان** : سبق أن تحدثنا عنه وهو سيد بنى زريق ، ورث السيادة عن أبيه كابراً عن كابر .

٣٦ ـ **وعبّاد بن قيس**: شهد بدراً ، ومضى شهيداً فى أحد .

٣٧ ـ **وذكوان بن عبد قيس**: المهاجرى الأنصارى .

٣٨ ـ **والحارث بن قيس** . شهدها منهم أربعة نفر .

أما الفرع الثالث : فهم بنو سلمة بن سعد بن . . . . جشم بن الخزرج . فقد كانوا أكثر من ثلث المبايعين فى العقبة . برز منهم قيادات فذة ذكرنا بعضهم وهم النقباء.

٣٩ ـ **البراء بن معرور** : وهو الذى تزعم بنو سلمة أنه أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ وشرط له واشترط عليه . وتوفى قبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة. وقد مر معنا كيف عرفه العباس رضي الله عنه لرسول الله ﷺ : (هذا البراء بن معرور سيد قومه)، وابنه .

٤٠ ـ **وبشر بن البراء بن معرور** : الذى شهد له رسول الله ﷺ بالسيادة ، وذلك حين سأل بنى سلمة « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » . فقالوا : الجد بن قيس على بخله. فقال رسول الله ﷺ : « وأى داء أدوأ من البخل ! سيد بنى سلمة الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور » (٢). شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وكان من الرماة المذكورين . وأكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة بعد خيبر ، وتوفى على أثرها متأثراً بذلك (٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٩٨ .

(٢ ، ٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١١٥ .

٤١ ـ وسنان بن صنعى : شهد بدراً ، وقتل يوم الخندق شهيداً .

٤٢ ـ والطفيل بن النعمان : شهد بدراً ، وقتل يوم الخندق شهيداً .

٤٣ ـ ومعقل بن المنذر : شهد بدراً .

٤٤ ـ وأخوه يزيد بن المنذر : شهد بدراً .

٤٥ ـ ومسعود بن يزيد .

٤٦ ـ والضحاك بن حارثة : شهد بدراً .

٤٧ ـ ويزيد بن حرام .

٤٨ ـ وجبار بن صخر : شهد بدراً .

٤٩ ـ والطفيل بن مالك ابن الخنساء : شهد بدراً . وهم أحد عشر رجلاً ومن بنى سواد من غنم بن كعب بن سلمة الشاعر العظيم والسيد البطل .

٥٠ ـ وكعب بن مالك : الذى بلغ صيته الآفاق ، فما أن سمع رسول الله ﷺ باسمه من عمه العباس بن عبد المطلب حين قال له : (وهذا كعب بن مالك) . قال كعب : فو الله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : « الشاعر ؟ » قال: نعم، وكان واحداً من ثلاثة هم شعراء النبى ﷺ كما قال ابن سيرين : (كان شعراء أصحاب رسول الله ﷺ حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ؛ وكعب بن مالك». أما كعب فكان يذكر الحرب ، يقول فعلنا ونفعل ويتهددهم ، وأما حسان فكان يذكر عيوبهم وأيامهم ، وأما ابن رواحة فكان يعيرهم بالكفر) (١) .

ورأينا كيف وجّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ شاعره عبد الله بن رواحة . وكيف بنى شخصه بملامح وجهه صلوات الله وسلامه عليه ، وخمس كلمات فعلن فعل السحر فى نفسه . وهذا كعب بن مالك . يرتاع لما أنزل الله فى الشعراء ، فيقول لحبيبه المصطفى ﷺ كما روى عبد الرحمن بن كعب ، عن أبيه قال :

(يا رسول الله قد أنزل الله فى الشعراء ما أنزل ؟ قال :

« إن المجاهد مجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل) (٢) . لقد بلغ من شدة شعره أن دوساً أسلمت فرقاً من بيت قاله كعب :

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجمعنا السيوفا
نخيرها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوساً أو ثقيفا (٣)

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٥٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، وقال المحقق فيه : أخرجه عبد الرزاق فى المصنف ، وأحمد . وسنده صحيح .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٥٢٥ .

وارتفع كعب وسما حتى وصل إلى الذروة .كما روى ابن المنذر ، عن جابر :أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن مالك : « ما نسى ربك لك ، وما كان ربك نسياً بيتاً قلته » . قال : ما هو ؟ قال : « أنشده يا أبا بكر ! » . فقال :

زعمت سخينة[1] أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب [2]

هذا عن جهاده بلسانه الذى كان كرضخ النبل على العدو . أمّا جهاده بسيفه وروحه ودمه فكان فى عرس الدم فى أحد . فماذا حفظ له التاريخ فى ذلك اليوم الأغر.

(وتفرق المسلمون فى كل وجه . وأصعدوا فى الجبل لما نادى الشيطان : قُتل محمد ! فكان أول من بشرهم برسول الله ﷺ سالماً كعب بن مالك . وقال : عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر . فناديت بأعلى صوتى :

يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إلىّ أن انصت) [3] .

ودعا بلأمة كعب .وكانت صفراء أو بعضها . فلبسها ونزع لأمته فلبسها كعب . وقاتل كعب حتى جرح سبعة عشر جرحاً لشدة قتاله [4] .

وفى رواية عن كعب : (لما انكشفنا يوم أحد ،كنت أول من عرف رسول الله ﷺ، وبشرت به المؤمنين حياً سوياً . وأنا فى الشعب فدعا رسول الله ﷺ كعباً بلأمته، وكانت صفراء . . فلبسها كعب ، وقاتل يومئذ قتالاً شديداً ، حتى جرح سبعة عشر جرحاً) [5] .

لقد قال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأحد حوارييه: أيكم يلقى عليه شبهى . فيقتل مكانى ، ويكون معى فى درجتى . فقام شاب من أحدثهم سناً فقال : أنا . .) إلى آخر النص . وكعب هو الذى اختاره ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليلبس لأمة حربه . فيضربه الناس على أنه رسول الله ، ولبس عليه الصلاة والسلام لأمة كعب . لقد تحقق الخير فى إعادة الثقة بنفوس المسلمين وعودة حياتهم لهم بما سمعوا من أن قائدهم الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ حى . ولكنّ هذا بالمقابل دفع أعنف الهجوم من المشركين لقتل محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث تحدد مكانه ، فكان الفدائى الأول كعب هو الثمن لحماية حياة حبيبه ـ عليه الصلاة والسلام ، وحين سقط كعب بجراحاته

---

(١) السخينة : طعام كانت تأكله قريش وتعير فيه .. (٢) المصدر السابق ٢ / ٥٢٦ .
(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٥١٧ . (٤) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ١٢٩ .
(٥) سير أعلام النبلاء ٢ / ٥٢٤ .

كان أخوه الزبير هو الذى يحمله كما يقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ارتُثَّ (١) كعب يوم أحد فجاء به الزبير يقوده ، ولو مات يومئذ لورثه الزبير . فأنزل الله : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ (٢) .) (٣).

وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك . فأنزل الله فيهم ما أنزل . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين نزلت توبته : « أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك» .

وصدق كعب ما عاهد الله عليه . وكان ممن ينتظر ، ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (٤) .

ومن بنى غنْم بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة :

٥١ ـ سليم بن عمرو : شهد بدراً .

٥٢ـ وقطبة بن عامر : شهد بدراً .

٥٣ ـ وأخوه يزيد بن عامر : شهد بدراً .

٥٤ ـ وأبو اليسر ـ كعب بن عمرو : وكان قصيراً دحداحاً ذا بطن ، شهد بيعة العقبة الثانية ، وبايع مع السبعين على الإسلام والجهاد ، وكان عمره عشرين سنة ، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها . وكان له غناء عظيم فى بدر ، فهو الذى انتزع راية المشركين يوم بدر ، وكانت بيد أبى عزيز بن عمير . وهو الذى أسر العباس ابن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وكان أبو اليسر ذميماً (أى صغير الجثة) والعباس جسيماً طويلاً . فقيل للعباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : لو أخذته بكفك لوسعته كفك . فقال: والله ما هذا أسرنى . لقد أسرنى رجل أبلج من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق فما أراه فى القوم . فقال الذى جاء به (كعب) : والله أنا الذى أسرته يارسول الله . فقال : «اسكت ، فقد أيدك الله بمَلَك كريم » (٥) .

٥٣ ـ وصيفى بن سواد : خمسة نفر .

ومن بنى نابى بن عمرو بن سواد بن غنْم بن كعب بن سلمة .

---

(١) ارتث : حمل الجريح من المعركة وهو ضعيف ، قد أثخنته الجراح .
(٢) الأنفال / ٧٥ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٥٢٤ ، وقال المحقق فيه : رجاله ثقات .
(٤) الأحزاب / ٢٣ .
(٥) السيرة الحلبية ٢/ ٤٥٨ .

٥٤ ـ **ثعلبة بن غنْمة** .

٥٥ ـ **وعبس بن عامر** : شهد بدراً .

٥٦ ـ **وخالد بن عمر بن عدى** .

٥٧ ـ **وعبد الله بن أنيس** : حليف لهم من قضاعة . شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . بعثه رسول الله ﷺ إلى خلد بن شيخ العنبرى وحده فقتله . وقال ابن يونس : صلى إلى القبلتين ، ودخل مصر، وخرج إلى أفريقية، وتوفى بعد أبى قتادة ، وكان أحد رجال الكتيبة الفدائية التى قتلت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق ، تقول عنه الرواية :

(فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو يقول : قَطْنى قطْنى ـ أى حسبى حسبى ـ وعند رسول الله ﷺ فأخبرناه بقتل عدو الله، واختلفنا عنده فى قتله كُلنا يدعيه ، فقال رسول الله ﷺ : « هاتوا أسيافكم ». فجئناه بها . فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس : « هذا قتله ـ أرى فيه أثر الطعام» (١) .

وهو الذى بعثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى خالد بن سفيان بن نبيح فقتله . ونتحدث عن سريته فى حينها .

هؤلاء هم الأوس والخزرج . الذين كانت سيوفهم تقطر من بعضهم بعضاً خلال مائة عام ، حتى كاد الحيان أن يفنى بعضهم بعضاً . كيف غدوا بعد بيعة العقبة ؟ غدوا كما يقول عبد الله بن كعب بن مالك فيما رواه ابن إسحاق: (وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار : الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئاً عن رسول الله ﷺ غَنَاءً إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلاً عند رسول الله ﷺ . وفى الإسلام . قال فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها) (٢) .

شهدها منهم خمسة نفر .

ومن بنى حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة :

٥٨ ـ **عبد الله بن عمرو بن حرام** : وقد رأينا وصفه وإسلامه فى بداية البحث كما حدّث عن ذلك كعب بن مالك رضي الله عنه : (فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٨٣ . (٢) المصدر نفسه ٣ / ٣٨١ .

رسول الله ﷺ لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا . أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا . فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أن أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة . قال : فأسلم ، وشهد معنا العقبة ، وكان نقيباً) (١) .

هذه بداية علاقته مع هذا الدين . حيث تبوأ مقعد السيادة فى قومه ، ولم يطل المقام به إلا ثلاث سنوات بعد البيعة . فقد شهد بدراً . أما حديثه فى عرس الدم فى أحد . فيحدثنا عنه جابر ـ رضى الله عنهما ـ فيقول :

(قال أبى : أرجو أن أكون أول من يصاب غداً . فأوصيك ببناتى خيراً . فأصيب فدفنته مع آخر . فلم تدعنى نفسى حتى استخرجته ودفنته وحده بعد ستة أشهر ، فإذا الأرض لم تأكل منه شيئاً إلا بعض شحمة أذنه) (٢) . وصدق حدس أبى جابر . فقد كان أول من أصيب ، وجاء ابنه جابر إليه كما يقول : (لما قتل أبى يوم أحد جعلت أكشف عن وجهه وأبكى ، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونى وهو لا ينهانى ، وجعلت عمتى تبكيه ، فقال النبى ﷺ : « تبكيه أو لا تبكيه . مازالت الملائكة تُظلّه بأجنحتها حتى رفعتموه » (٣) . ويتابع جابر حديثه الشيِّق الحى عن أبيه فيقول : أصيب أبى وخالى يوم أحد ، فجاءت أمى بهما قد عرضتهما على ناقة ، فأقبلت بهما إلى المدينة . فنادى منادٍ : ادفنوا القتلى فى مصارعهما فرُدًّا حتى دفنا فى مصارعهما) (٤) .

ولنشهد مع جابر رضي الله عنه مصرع أبيه وإخوانه مع شهداء أحد . وكأنا هناك رأى عين: أخبرنا الوليد بن مسلم قال : حدثنى الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن جابر بن عبد الله : (أن رسول الله ﷺ لما خرج لدفن شهداء أحد قال : «زملوهم بجراحهم ، فإنى أنا الشهيد عليهم ، ما من مسلم يُكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة يسيل دماً ، اللون لون زعفران ، والريح ريح المسك » . قال جابر : وكفّن أبى فى نمرة واحدة . وكان يقول ﷺ : « أى هؤلاء كان آخذاً للقرآن ؟ » فإذا أشير له إلى الرجل ، قال : «قدّموه فى اللحد قبل صاحبه » . قالوا : وكان عبد الله بن عمرو بن حرام أول قتيل

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٢٧ ، وقال المحقق فيه : أخرجه ابن سعد ، والحاكم ، وصححه ووافقه الذهبى . والبخارى (١٣٥١) .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٢٥ ، وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد ، ومسلم ، والبخارى .

(٤) المصدر نفسه ١/ ٣٢٥ ، وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد ، والترمذى وقال : « حديث حسن صحيح » .

قتل من المسلمين يوم أحد ـ فصلى عليه رسول الله ﷺ قبل الهزيمة . وقال رسول الله ﷺ : « ادفنوا عبد الله بن عمرو وعمرو بن الجموح فى قبر واحد ؛ لما كان بينهما من الصفاء » . وقال : « ادفنوا هذين المتحابين فى الدنيا فى قبر واحد ».

قال : وكان عبد الله بن عمرو رجلاً أحمر ، أصلع ليس بالطويل ، وكان عمرو ابن الجموح رجلاً طويلاً . فعرفا فدفنا فى قبر واحد) (١) .

ثم ينقلنا جابر إلى مشهد جديد بعد ست وأربعين عاماً عندما قرر معاوية رضي الله عنه أن يجرى عين ماءٍ هناك فيقول جابر :

(وكان قبرهما مما يلى المسيل فدخله السيل فحفر عنهما ، وعليهما نمرتان . وعبد الله قد أصابه جرح فى وجهه فيده على جرحه . فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم ، فردّت يده إلى مكانها فسكن الدم . قال جابر : فرأيت أبى فى حفرته كأنه نائم وما تغير من حاله قليل ولا كثير . فقيل له : فرأيت أكفانه ؟ قال : إنما كفّن فى نمرة ، خُمِّرَ بها وجهه ، وجُعل على رجليه الحرمل . فوجدنا النمرة كما هى ، والحرمل على رجليه على هيئته .

وبين ذلك ست وأربعون سنة ، وشاورهم جابر فى أن يطيّب بمسك . فأبى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : لا تحدثوا فيهم شيئاً ، وحوِّلا من ذلك المكان إلى مكان آخر ، وذلك أن القناة كانت تمر عليهما ، وأُخرِجُوا رِطاباً يتثَنون) (٢) .

وتعظم المصيبة على جابر بفقدان أبيه . ويلقاه رسول الله ﷺ فيحدثنا جابر عن هذا اللقاء :

(لقينى رسول الله ﷺ فقال لى : « يا جابر مالى أراك منكسراً ؟ » قلت : يارسول الله استشهد أبى ، قتل يوم أحد ، وترك عيالاً وديناً . قال : أفلا أبشرك بما لقى الله أباك ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب . وأحيا أباك فكلّمه كفاحاً (٣) . فقال : ياعبدى تمنّ علىّ أُعطك . قال : يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية . قال الرب ـ عز وجل : إنه قد سبق منى : « أنهم إليها لا يرجعون » . قال : وأنزلت هذه الآية : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا** . . ﴾ (٤)) (٥) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٦٢ ، ٥٦٣ ورجاله ثقات .

(٢) المصدر السابق .

(٣) كفاحاً : أى مواجهة ليس بينهما حجاب .

(٤) آل عمران / ١٦٩ .

(٥) رواه الترمذى وقال : حديث « حسن غريب » .

٥٩ ـ وابنه جابر بن عبد الله : الذى قال فى روايته إنه أصغر السبعين . وكما يقول :

(كنا مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، وأخرجنى خالاى وأنا لا أستطيع أن أرمى بحجر) (١) .

أما فى بدر فقال : (كنت أمنح أصحابى الماء يوم بدر) (٢) .

وأما فى أحد فقال له أبوه : (يابنى ، إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى، فتخلّف على أخواتك فتخلّفت عليهن) (٣) .

أما بقية الغزوات . فيقول جابر رضي الله عنه : (غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه شهدت منها تسع عشرة غزوة) (٤) .

هذا جهاده رضي الله عنه أما علمه (فقد كان لجابر بن عبد الله حلقة فى المسجد ـ يعنى النبوى ـ يؤخذ عنه العلم) (٥) .

وأعظم ما فاز به من رسول الله ﷺ يوم باعه جمله . فقال :

(استغفر لى رسول الله ﷺ ليلة الجمل خمساً وعشرين مرة . أخرجه أحمد) (٦).

٦٠ ـ **ومعاذ بن عمرو بن الجموح** (٧) : شهد بدراً .

٦١ ـ **وثابت بن الجذع** : شهد بدراً . وقتل بالطائف شهيداً .

٦٢ ـ **وعمير بن الحارث بن ثعلبة** : شهد بدراً .

٦٣ ـ **وخديج بن سلامة** : حليف لهم من بِلى .

٦٤ ـ **ومعاذ بن جبل** : الذى وصفه كعب بن مالك رضي الله عنه فقال : كان شاباً جميلاً سمحاً من خير شباب قومه . وقال الواقدى : كان من أجمل الرجال ، وشهد المشاهد كلها ، شهد بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وأمّره النبى ﷺ على اليمن ـ والحديث بذلك فى الصحيح . وفى سنن أبى داود عن معاذ بن جبل قال : قال لى النبى ﷺ « إنى لأحبك » ، وعدّه أنس بن مالك فيمن جمع القرآن على عهد رسول

---

(١) مجمع الزوائد ٦/٤١ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح » .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر م١ ج١/٢٢٢ .
(٣) السيرة النبوية ٣/١٤٨ .
(٤ ـ ٦) الإصابة م١ ج١/٢٢٣ .
(٧) سبق أن تحدثنا عنه من قبل .

الله ﷺ وهو فى الصحيح ، وفيه عن عبد الله بن عمرو رفعه : « اقرؤوا القرآن من أربعة » فذكره فيهم . . وقال أبو نعيم فى الحلية : إمام الفقهاء وكنز العلماء ، شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها، كان من أفضل شباب الأنصار حِلماً وحياءً وسخاءً ، وكان جميلاً وسيماً . . . وعن أنس عند الترمذى وغيره فى ذكر بعض الصحابة مرفوعاً: « . . . وأعلمهم فى الحلال والحرام معاذ » . . . وفى طبقات ابن سعد من طريق منقطع أن النبى ﷺ كتب إلى أهل اليمن لما بعث معاذاً :

« إنى بعثت إليكم خير أهلى » . ومناقبه كثيرة جداً ، وقدم من اليمن فى خلافة أبى بكر ، وكانت وفاته بالطاعون فى الشام سنة سبع عشرة أو التى بعدها، وهو قول الأكثر ، وعاش أربعاً وثلاثين سنة ، وقيل غير ذلك (١) .

سبعة نفر ، وهكذا كان مجموع من شهدها من بنى سلمة ثمان وعشرين صحابياً .

وشهدها من بنى عوف بن الخزرج : ثم من بنى سالم بن عوف :

٦٧ ـ **عبادة بن الصامت** (٢) : نقيب شهد بدراً والمشاهد كلها .

٦٨ ـ **والعباس بن عبادة بن نضلة** (٣) : قتل يوم أحد شهيداً .

٦٩ ـ **ويزيد بن ثعلبة** : حليف لهم من بنى غصينة من بلى .

٧٠ ـ **وعمرو بن الحارث بن لبدة** :

أربعة نفر ، وهم القواقل .

ومن بنى سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج : وهم بنو الحبلى :

٧٠ ـ **رفاعة بن عمرو** : شهد بدراً وهو أبو الوليد .

٧١ ـ **وعقبة بن وهب** : حليف لهم شهد بدراً . . . رجلان .

ومن بنى مازن بن النجار : نسيبة بنت كعب ـ رضى الله عنهما ـ (أم عمارة) وزوجها :

٧٢ ـ **زيد بن عاصم بن كعب** : وابناها :

٧٣ ـ **حبيب بن زيد** .

٧٤ ـ **وعبدالله بن زيد** .

---

(١) الترجمة كلها من الإصابة م١ ج١ ١٠٦ ، ١٠٧ . (٢) تحدثنا عنه من قبل كذلك .

(٣) سبق أن تحدثنا عنه من قبل رضي الله عنه .

وابنها حبيب الذى أخذه مسيلمة الكذاب الحنفى صاحب اليمامة فجعل يقول له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول: لا أسمع . فجعل يقطّعه عضواً عضواً حتى مات فى يده.

فخرجت إلى اليمامة مع المسلمين فباشرت الحرب بنفسها حتى قتل الله مسيلمة ، ورجعت وبها اثنا عشر جرحاً من بين طعنة وضربة .

وأخيراً :

حين نراجع رصيد هؤلاء السبعين العظيم . نلاحظ أنه قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبى ﷺ وبعده ، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قرابة النصف . فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول ﷺ فى جميع غزواته .

وأما الذين حضروا غزوة بدر منهم . فكانوا قرابة الستين ، ودخلوا فى الخيرية العظمى :

« لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر. فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

لقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه . ومنهم من قضى نحبه ولقى وجه ربه شهيداً ، ومنهم من بقى حتى ساهم فى قيادة الدولة المسلمة وشارك فى أحداثها الجسام بعد وفاة رسول الله ﷺ . . . .

وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإيمان ، النماذج التى تعطى ولا تأخذ ، والتى تقدم كل شىء ، ولا تطلب ثمناً إلا الجنة ، ويتصاغر التاريخ فى جميع عصوره ودهوره أن يحوى فى صفحاته أمثال هذه النماذج .

من القاعدة الصلبة..
إلى المجتمع الإسلامي الجديد

لقد شهدنا فى الجزء الأول من التربية القيادية : السابقين الأولين من المهاجرين الذين ربا عددهم على مائة وخمسين صحابى ، وكانوا موزعين أشتاتاً بين مكة والحبشة، أو أفراداً دعاةً داخل قبائلهم . لكنهم لم يكونوا يملكون الأرض الآمنة التى يقيمون عليها . إنهم القاعدة الصلبة ، والنواة الأولى للمجتمع الإسلامى ، لكن المجتمع الإسلامى الذى يستطيع أن يفرض وجوده لم يقم بعد . إنما منذ أن تمت بيعة العقبة ، وعاد المؤمنون إلى يثرب . برز القادة الكبار فى قبائلهم يدعونهم إلى الإسلام، وأصبح وجود الإسلام فى كل بيت أمراً لا يستطيع أن يمنعه أحد .

لقد بدأ الأوس والخزرج يتسابقون إلى تثبيت أركان الإسلام فى يثرب . ولم يعد هناك قوة قادرة على أن تمنع وجود الإسلام ، أو ممارسة شعائره ، أو الدعوة إليه ، وبانضمام معظم القيادات فى المدينة إلى الإسلام ، أصبح الشرك والوثنية مجال تندر وتهكم ، وغدا مستهجناً ومنبوذاً الاستمرار عليه ، ولابد من عرض بعض هذه النماذج التى توضح مفهوم قيام المجتمع الإسلامى فى المدينة .

١ ـ ها نحن نشهد أم سُليم ـ رضى الله عنهما ـ وكان هذا قبل بيعة العقبة . تدعو إلى الله علانية أبا طلحة الذى جاء خاطباً لها ، وقلنا إن ذلك كان قبل العقبة لأن أبا طلحة ـ رضي الله عنه ـ كان ممن شهدها من بنى النجار.

فعن أنس قال : (جاء أبو طلحة يخطب أم سليم فقالت : إنه لا ينبغى لى أن أتزوج مشركا. أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم التى تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار . وأنكم لو شعلتم فيها ناراً لاحترقت ؟ قال: فانصرف وقد دفع فى قلبه ذلك موقعاً . قال : وجعل لا يجيئها يوماً إلا قالت له ذلك . قال : فأتاها يوماً فقال : الذى عرضتِ علىّ قد قبلت . قال : فما كان لها مهر إلا إسلام أبى طلحة) (١) .

وفى رواية أن أم سليم قالت : (يا أبا طلحة ، ألست تعلم أن إلهك الذى تعبد إنما هو شجرة نبتت من الأرض ، وإنما نجرها حبشى بنى فلان ؟ قال: بلى. قالت : أما تستحى أن تسجد لخشبة نبتت من الأرض نجرها حبشى بنى فلان ؟ قالت : فهل لك أن

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤٦٢ ، ورجاله ثقات .

تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأزوجك نفسي . لا أريد منك صداقاً غيره ؟ قال لها : دعيني حتى أنظر. قالت : فذهب فنظر ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قالت : يا أنس ، قم فزوّج أبا طلحة) (١) .

لقد أسلمت ـ رضى الله عنها ـ ولم يستطع زوجها مالك بن النضر أن يمنعها ، أو يمنع ابنها عن الإسلام .

(فعن إسحاق بن عبد الله ، عن جدته أم سليم أنها آمنت برسول الله ﷺ . قال: فجاء أبو أنس وكان غائباً فقال : أصبوت . قالت : ما صبوت ، ولكنى آمنت بهذا الرجل . قالت : فجعلت تلقن أنساً وتشير إليه قل : لا إله إلا الله . قل : أشهد أن محمداً رسول الله . قال : ففعل . فيقول لها أبوه : لا تفسدى علىّ ابنى . فتقول : إنى لا أفسده . فخرج مالك أبو أنس فلقيه عدو فقتله . فلما بلغها قتله قالت : لا أفطم أنساً حتى يدع الثدى حباً ، ولا أتزوج حتى يأمرنى أنس . فيقول : قد قضت الذى عليها . فترك الثدى ، فخطبها أبو طلحة ، وهو مشرك فأبت . فقالت له يوماً فيما تقول: أرأيت حجراً تعبده لا يضرك ولا ينفعك ، أو خشبة تأتى بها النجار فينجرها لك . هل يضرك ؟ هل ينفعك ؟ قال : فوقع فى قلبه الذى قالت . فأتاها فقال : قد وقع فى قلبى الذى قلت . وآمن . قالت : فإنى أتزوجك ولا آخذ منك صداقاً غيره) (٢) .

٢ ـ هذا فى بنى النجار ، ورأينا الصورة الثانية فى بنى عبد الأشهل من الأوس : فقد كان الأمر قبل إسلام قائدى الأوس أسيد بن حضير وسعد بن معاذ ، أن قال سعد لابن خالته أسعد : هيا فاعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

لقد كان أسعد ومصعب يعانيان خطر الموت فى إصرارهما على الدعوة . وأكد أسيد بن حضير لسعد أن بنى حارثة قاتلوا أسعد بن زرارة لدعوته إلى الإسلام فى ديارهم .

أما بعد إسلام سعد وأسيد . فكان الموقف :

كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فلم يبق رجل ولا امرأة من بنى عبد الأشهل إلا آمن بالله ورسوله .

---

(١) المصدر نفسه ، ورجاله ثقات .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤٢٥ . وفى الرواية بعض التناقض لأن سن أنس رضي الله عنه عند الإسلام كان قرابة الثامنة ، ولا يعقل أن يبقى رضيعاً حتى هذا الوقت ، ورواتها عمرو بن عاصم . صدوق فى حفظه شىء وهمام ثقة ربما وهم . فلعل الروايتين تداخلتا فى بعضهما البعض .

وكان إعلان سعد رضي الله عنه بعد إسلامه فى قومه :

(من شك من صغير أو كبير ، أو ذكر أو أنثى ، فليأتنا بأهدى منه نأخذ به . فوالله لقد جاء أمر لتجزَّنَّ فيه الرقاب) . فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ . فلم يزل يدعو ويهدى على يديه حتى قلَّ دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة ، وأسلم أشرافهم .

٣ ـ كان هذا قبل بيعة العقبة ، أما بعد البيعة : فقد أصبح الإسلام هو صاحب السيادة فى المدينة المشرفة ، وكما يروى ابن سعد عن أبى أمامة سهل بن حنيف ، وعن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قال :

لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه ، وقد جعل الله له مَنَعَة وقوماً أهل حرب وعُدَّة ونجدةً . وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخزرج ، فضيقوا على أصحابه وعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى . فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، واستأذنوه فى الهجرة . فقال : « قد أُريت دار هجرتكم، أُريت سبخة ذات نخل بين لابتين ـ وهما الحرتان ـ ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هى هى » .

ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال : « قد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب . فمن أراد الخروج فليخرج إليها ») (١) .

إن قدرة المدينة على استيعاب المسلمين المهاجرين إليها . هو أهم حدث فى تطور حياة الدعوة . فالمجتمع الإسلامى قام فى المدينة ، وقياداتها مستعدة لاستقبال المؤمنين من كل مكان إليها .

لقد بقيت مكة ثلاثة عشر عاماً عاجزة عن قبول أى مسلم وافد فى صفوفها. والذى يعلن إسلامه من غير قريش . يقتل أو يعذب ، ولهذا لم يقبل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسلماً وافداً فى مكة ، وذلك لعجزه عن حمايته،ولعجزه عن تهيئة الأمان له. وأقصى تقدم حصل المسلمون عليه فى مكة أن يعبدوا الله فرادى فى الكعبة .وليس لهم أى سلطة فيها.

٤ ـ ولنقارن بين هاتين الصورتين . صورة المجتمع المكى الذى بقيت أوثانه وأصنامه ثلاثمائة وستون صنماً لا تمس حتى فتح مكة . وكانت حول الكعبة التى أقامها الله لتوحيده فى الأرض ، وبين المجتمع المدنى بعد صدور السبعين ، وذلك من

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣١٣ .

خلال إسلام عمرو بن الجموح رضي الله عنه . وهو الذى نقدمه النموذج الرابع لقيام المجتمع المسلم فى المدينة.

قال ابن إسحاق وغيره : لما قدم النفر الذين بايعوا رسول الله ﷺ . أظهروا الإسلام بالمدينة ، وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو ابن الجموح بن . . . كعب بن سلمة بن . . . جشم بن الخزرج ، وكان ابنه

معاذ بن عمرو شهد العقبة ، وبايع رسول الله ﷺ بها ، وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة وشريفاً من أشرافهم . وكان قد اتخذ فى داره صنماً من خشب يعظّمه يقال له مناة . كما كانت الأشراف يصنعون ، تتخذ إلهاً تعظمه وتظهره .

فلما أسلم فتيان بنى سلمة . معاذ بن جبل ، ومعاذ بن عمرو فى فتيان منهم ممَّن أسلم وشهد العقبة كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه ويطرحونه فى بعض حُفر بنى سلمة وفيها عَذِرُ[1] الناس منكّساً على رأسه . فإذا أصبح عمرو قال : ويحكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ قال : ثم يغدو فيلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأُخزينه . فإذا أمسى ونام عَدَوا عليه ، ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى ، فيغسله ويطهّره ويطيّبه . ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك . فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهّره وطيّبه ثم جاء بسيفه فعلّقه عليه ثم قال له : إنى والله لا أعلم من يصنع بك ما أرى . فإن كان فيك خير فامتنع . فهذا السيف معك . فلما أمسى ونام عمرو عَدَوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً ، فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فى عَذِرٌ من عَذِر الناس ، وغدا عمرو بن الجموح يلتمسه فلم يجده فى مكانه. فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكّساً مقروناً بكلب ميت ، فلما رآه أبصر شأنه، وكلّمه من أسلم من قومه . فأسلم ـ رحمه الله ـ وحسن إسلامه . فقال حين أسلم وعَرَفَ من الله ماعَرَفَ ـ وهو يذكر صنمه ، وما أبصر من أمره ، ويشكر الله تعالى الذى أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة ـ:

والله لو كنت إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قَرَن
أُفٍ لملقاك إلها مستدن ... الآن فتشناك عن سوء الغَبَن
الحمد لله العليٍّ ذى المنن ... الواهب الرزاق ديان الدين

---

(١) العَذِر : الغائط .

هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مرتهن
بأحمد المهدى النبى المؤتمن [١] .

لقد رأى عمرو بن الجموح أنه لا يزال على دينه الأول . لكن عشيرته ورهطه الأدنين ليسوا معه ، لقد دخلوا فى الإسلام . فبمن يستعين ليقتل هؤلاء الذين يعبثون بصنمه ؟! بولده ، وولده قد دخلوا فى الإسلام . أيستعين بصديقه الحميم عبد الله بن عمرو بن حرام وأولاده . إنهم قد دخلوا فى الإسلام ، إنه لم يكن يملك لمواجهة هذا التحدى إلا شخصه. بينما أصبحت البيئة حوله كلها مسلمة . وأصبح الشرك نشازاً فى هذا المجتمع . وعلى حد قول ابن إسحاق : (وفى قومهم بقايا شيوخ لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح) .

ولنشهد عمرو بن الجموح رضي الله عنه الذى قال :

فالحمد لله الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مرتهن

أين كان قبره رضي الله عنه ؟

(وقتل عمرو بن الجموح رضي الله عنه وكان أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد . يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد . فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له : قد عذرك الله . فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن بنىّ يريدون أن يحبسونى عن الخروج معك ، فوالله إنى أريد أن أطأ بعرجتى هذه الجنة . فقال له رسول الله ﷺ: « أما أنت فقد أعذرك الله فلا جهاد عليك » . وقال لبنيه : « ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة » . فأخذ سلاحه وأقبل على القبلة وقال: اللهم ارزقنى الشهادة ، ولا تردنى خائباً إلى أهلى . فقتل . فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجموح ») [٢] . وقال رسول الله ﷺ : « ادفنوا عبد الله بن عمرو ، وعمرو بن الجموح فى قبر واحد لما بينهما من الصفاء » .

ويقال : إن السيل حفر قبر عبد الله بن عمرو والد جابر ـ رضى الله عنهما ـ وعمرو بن الجموح . فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس ، وأنه أزيلت يد عمرو عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت ، كان ذلك بعد الواقعة لست وأربعين سنة [٣] .

٥ ـ ومما يوضح سمات المجتمع الإسلامى القائم فى المدينة ، تجمع المسلمين على شعائرهم . وإقامة الجمعة والجماعة فى المساجد التى بنوها دون أن يخشوا سطوة الشرك

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢/ ٣١٠ . (٢) السيرة الحلبية ٢/٥٢٨ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٥٣٩ .

وأهله ، وهذا ماحرموا منه فى مكة خلال ثلاثة عشر عاماً كاملة . ولا يخشى أى مسلم أو مسلمة أن يعبد الله تعالى ويعلن إسلامه ، ودخوله فى هذا الدين . فأسعد بن زرارة رضي الله عنه يبنى المسجد ويجمع بالناس ويصلى بهم الصلوات الخمس ، وهناك مسجد فى أكثر من مكان ، لا تستطيع سلطة المشركين أن تحول دونه . نعم هناك جيوب من المشركين بقيت لا وجود للإسلام فيها ، وهى جيوب محدودة . عند أوس الله . ولكن ظاهر الأمر أن القوم اختاروا الشرك اختياراً ، ولم تذكر كتب السيرة أن أحداً منهم أراد الإسلام وحيل بينه وبينهم .

٦ ـ ومن سمات المجتمع الإسلامى الجديد : حرية الدعوة إلى الله علانية . فقد أصبح واضحاً عند الجميع أن معظم قيادات يثرب دخلت فى هذا الدين ، ونشط الشباب والنساء والرجال فى الدعوة إلى الله ، والتبشير بقدوم رسول الله ﷺ وأصحابه. ولذلك كان عدد المسلمين يزداد بحيث يظهر أن المدينة كلها دخلت فى الإسلام ، وعندما قدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ المدينة كانت المئات قد خرجت تستقبله. وخرجت النساء والولدان على أسطح المنازل والطرقات يبتهجن بقدومه ، وكانت القبائل تتسابق فى دعوته للقيام عندها حيث العدد والعدة والمنعة . بينما رأينا أن الذين بايعوا بيعة العقبة كانوا بضعاً وسبعين فقط ، وبين البيعة وهجرة الرسول ﷺ ثلاثة أشهر تقريباً، أو تزيد قليلاً .

٧ ـ ولابد من المقارنة بين المجتمع الذى قام بالحبشة من المسلمين ، وبين المجتمع الإسلامى فى يثرب . لقد كانت الحبشة تحمل طابع اللجوء السياسى ، والجالية الأجنبية ، أكثر مما كانت تحمل طابع المجتمع الإسلامى الكامل . صحيح أن المسلمين ملكوا حرية العبادة هناك . لكنهم مفصولون عن المجتمع الحبشى ، عاجزون عن التأثير فيه . ممنوعون من النشاط السياسى فيه . هو خطوة إلى الأمام متقدمة على جو مكة ، حيث لا تتوفر حرية الدعوة وحرية العبادة ، لكنهم دون المجتمع الإسلامى فى المدينة بكثير . ومن أجل ذلك عندما بلغ المسلمين فى الحبشة أن الهجرة بدأت إلى المدينة ، توجه معظمهم إليها مباشرة أو عن طريق مكة المكرمة ؛ لأن المدينة انقلبت انقلاباً جذرياً؛ فأصبحت المدينة المسلمة بعد أن كانت المدينة الوثنية المشركة .

٨ ـ ولا شك أن التجمعات الوثنية واليهودية لا تزال قائمة . ولا تزال لها منعتها وحريتها ولا سلطان لأحد عليها والحرية فى الاختيار الدينى قائمة لكنها بالمقابل تفقد أى سلطة على المسلمين كجماعة . وقد لا تفقدها كأفراد بشكل جزئى ، ومع ذلك لم نجد له صورة تمثله . والشارع ـ كما يقال ـ هو للإسلام ، والمستقبل هو للإسلام، فهو

صاحب الكلمة الجماهيرية وسيد الساحة فى يثرب .

إذن نحن أمام مجتمع إسلامى بدأ نموه وتكونه بعد عودة الاثنى عشر صحابياً فى البيعة الأولى ، والتى كان على رأسها أسعد بن زرارة. والتى حملت المسؤولية الدعوية فقط ، دون الوجود السياسى . وبلغ أوج توسعه وبنائه بعد عودة السبعين الذين ملكوا الشارع السياسى والاجتماعى ، وقرروا أن تكون بلدهم هى عاصمة المسلمين الأولى فى الأرض ، وهم على استعداد أن يواجهوا كل عدو خارجى يمكن أن ينال من هذه السيادة حتى قبل قدوم رسول الله ﷺ ، إليهم فى المدينة .

٩ ـ ولابد من الإجابة على تساؤل كبير من خلال العرض التربوى للسيرة النبوية ، وذلك بصدد الحديث عن المجتمع الإسلامى . فالصورة الماثلة فى أذهان الكثيرين منا هى أن الفرد المسلم عندما تتم تربيته ويصل إلى القاعدة الصلبة ، يقوم على أثره المجتمع الإسلامى تلقائياً ، لكن أحداث السيرة تؤكد غير ذلك ؛ لأن المجتمع الإسلامى لم يقم تلقائياً لو لم يرافقه الجهاد والاستعداد العملى للمواجهة السافرة ، والحرب الضروس .

إن المجتمع الإسلامى أخذ أبعاده الحقيقية فى يثرب بعد بيعة العقبة الثانية التى اصطلح علماء السيرة على تسميتها ببيعة الحرب ، وعندما تهيأت القوة المناسبة لتحمى المجتمع الإسلامى ، قام المجتمع فى الأرض.

وهذا ما تحدث عنه ابن إسحاق بقوله : نزول الأمر لرسول الله ﷺ بالقتال :

قال : حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام ، قال : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن إسحاق المطلبى قال :

(وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحلل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم . ونَفَوْهم عن بلادهم . فهم من بين مفتون فى دينه، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم . منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفى كل وجه . فلما عتت قريش على الله ـ عز وجل ـ وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه ﷺ ، وعذّبوا ونفوا من عبده ووحّده وصدّق نبيه ، واعتصم بدينه . أذن الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ فى القتال والانتصار ممّن ظلمهم وبغى ، فكانت أوّل آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم . فيما بلغنى عن عروة ابن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**

وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) .

أى إنى إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، يعنى النبى ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم أجمعين ، ثم أنزل الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾ (٢) ، أى: حتى يعبد الله لا يعبد معه غيره) (٣) .

وسواء أنزلت هذه الآيات فى المدينة أو فى مكة بعد البيعة . فالمؤكد أن الإذن بالقتال قد صدر ، ولكن هذا القتال بعد قيام المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية . وعندما قال العباس بن عبادة بن نضلة : يا رسول الله ، لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا . قال : « لم أؤمر بهذا ، ولكن ارفضوا إلى رحالكم » .

أما بعد أن قام المجتمع العظيم فى المدينة ، فلابد من حمايته بقوة السلاح.

١٠ ـ وغنى عن البيان أن نؤكد على طبيعة أبناء هذا المجتمع ، ومعدن هؤلاء الذين قام على أكتافهم بنيان المجتمع الإسلامى ، المستوى العظيم الذى ارتقوا إليه . خاصة بعد لقائهم مع قائدهم الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ، وبعد بيعتهم له أرواحهم ودماءهم، لا يبغون ثمناً إلا الجنة . لقد كان من رحمة الله تعالى ألا تكون القاعدة الصلبة من بنى عامر الذين اشترطوا لحماية هذا الدين أن يكون لهم الأمر من بعده ، فيكون مجتمعاً بشرياً يطمح إلى السلطة والسيادة والزعامة . ويكرر صور الزعامات الجاهلية السابقة، ويكون حلقة من حلقاتها . وكان من رحمة الله تعالى ألا تكون القاعدة الصلبة من الذين اشترطوا عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يحموه من أنهار العرب لا أنهار الفرس ، وبذلك يكون المجتمع الجديد مجتمعاً خاضعاً للنفوذ الفارسى وتابعاً له ، وكان من رحمة الله تعالى ألا تكون القاعدة فى مكة مبنية على إيمان زعماء مكة ، ومرتبطة بأهوائهم ومزاجهم ، فيكون المجتمع الجديد صورة من صور جبروت قريش على العرب المادى بعد تسلطها المعنوى ، وتكون القاعدة هشة مرتبطة بأمزجة الملأ من قريش وأهوائهم ، وكان من رحمة الله ألا تكون القاعدة البشرية التى قام عليها هذا

(١) الحج / ٣٩ ـ ٤١ .
(٢) البقرة / ١٩٣ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٢١ ، ١٢٢ .

الدين مرتبطة بإحدى القبائل العربية الكبرى ، بنى حنيفة ، أو غطفان ، أو أسد ، أو تميم ، أو عامر ، وبذلك تستغل قضية الدين لتأليه نفسها على العرب كما قال الشاعر العربى للملك الكِنْدى من ملوك العرب :

أنت المملك فيهم   وهم العبيد إلى القيامة

إنما كانت رحمة الله تعالى أن يحمل هذا اللواء المهاجرون الأولون من قريش ، مع السابقين الأولين من الأنصار الذين باعوا أنفسهم لله وحده، وهم جاهزون فى كل لحظة للموت ابتغاء مرضاة الله فقط ، وكما يقول ابن إسحاق : فلما أذن الله تعالى فى الحرب، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه ، وآوى إليهم من المسلمين ؛ أمر رسول الله ﷺ أصحابه المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : «إن الله ـ عز وجل ـ جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » . فخرجوا أرسالاً

المهاجرون وتجمع القوى

أ ـ أبو سلمة بن عبد الأسد وآله :

والمرجح أن تكون هجرة أبى سلمة مبكرة . وذلك بعد قدوم الاثنى عشر من مكة إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة ، وحبست عنه امرأته أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة (١) .

وتروى لنا أمنا أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قصة هذه الهجرة فتقول :

(لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رَحَلَ لى بعيره ثم حملنى عليه ، وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود بى بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله قاموا عليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ـ رهط أبى سلمة ـ فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا قالت : فتجاذبوا بُنَىّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم . وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة . قالت : ففُرِّق بينى وبين زوجى وبين ابنى . قالت فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى ، حتى أمسى سنة أو قريباً منها ، حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى . فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها . قالت : فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت ، ورد بنو عبد الأسد عند ذلك إلىّ ابنى . قالت : فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله . فقلت أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، قالت : حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار . فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قالت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو ما معك من أحد ؟ فقلت : لا والله ، إلا الله وبنى هذا . قال : والله مالك من مترك . فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحطّ عنه ، ثم قيّده فى الشجرة ، ثم تنحى عنى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح ، قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى ، وقال : اركبى. فإذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقاده ، حتى ينزل بى . فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقُباء قال : زوجك فى هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة ، فكانت تقول : والله لا أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة) .

لقد ربى ـ عليه الصلاة والسلام ـ جيلاً رائداً ، مهيأ لحمل المسؤولية ، ومعداً لقيادة الأمة ، فكان الاتجاه عنده ﷺ أن اكتفى بالقول لصحبه :

« إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » ، وأمرهم بالهجرة .

فكان على كل مسلم فى بقاع الأرض أن يتحرك إلى عاصمته الجديدة ، وأن يضع هو خطة تحركه دون أن يشغل قيادته بذلك ، إنه الجندى القائد فى الوقت نفسه ، وعليه أن يختار الطريقة المناسبة لينضم إلى المجتمع الإسلامى الوليد فى المدينة .

وهذا النموذج الذى بين أيدينا يعطينا صورة عن المسؤولية الملقاة على عاتق كل مسلم فى عملية الهجرة ، فقد نجح أبو سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يلتحق بالركب فى المدينة . لكنه أخفق فى أن ترافقه زوجه وولده إلى هناك . وحيث أن الانضمام للمجتمع الإسلامى هو الهدف الرئيسى . فمضى تاركاً زوجه عند أهلها تبحث عن الطريقة المناسبة للالتحاق به ، وامتدت محنة أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قرابة العام ، حتى أذن لها أهلها بالخروج ، ولم تتردد لحظة واحدة عن التحرك ، حيث جاءت بابنها وانطلقت يحدوها الرجاء العظيم بالله ـ عز وجل ـ أن يحفظها فى هجرتها هذه ، فقيّض الله تعالى لها عثمان بن طلحة أخا بنى عبد الدار ليمضى بها إلى المدينة .

وإن المرء ليقف ملياً أمام هذا المعدن العظيم ، والجوهر النفيس لعثمان بن طلحة ، وهو المشرك المعادى لمحمد ﷺ وحزبه ، لكن سلامة امرأة عربية من قومه، جعلت الأولوية عنده لأن يرافقها الليالى ذوات العدد ، ويدلها على الطريق، ويحميها من العدو ، ويوصلها إلى مأمنها فى يثرب . وتصف لنا أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ ذلك الرجل الشهم ، الذى مضى طيلة الطريق صامتاً ، وهو يحس أنه يؤدى رسالة فى الحفاظ على عرض أم سلمة ، والذود عنها من العاديات . وفى تلك الصحراء المترامية الأطراف ، وحين يحين موعد الراحة يمضى بعيداً حتى تنزل ، وتقيل ، ويأخذ البعير فيريحه عند ظل شجرة ويختار هو شجرة أخرى يقيل عندها ، ويدع لأم سلمة ـ رضوان الله عليها ـ المكان الآمن ترتاح وتقيل عنده.

إن عظمة هذا الخُلقُ فى الحفاظ على عرض المرأة المسلمة ، لتتمنى أن تكون عند

الدعاة الكبار حين يفرض عليهم مثل هذا الموقف . وعثمان هنا اختار الموقف هذا اختياراً أملاه عليه مروءته وشهامته ،ولم يدنس هذه المروءة بكلمة أوحديث أو تصرف . بل أنهى مهمته وعاد دون أن يطلب لذلك ثمناً إلا الحفاظ على المروءة . ومن أجل هذا وجدنا عثمان بن طلحة حين شرح الله صدره للإسلام ـ بعد ثمان سنين ـ يمضى فى الطريق نفسه مع صاحبيه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ليسلموا أو يلتحقوا برسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه . وهو الذى رضى له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يعيد مفتاح الكعبة إلى يده . وهى أقدس ما فى الوجود ؛ ليكون حارساً أميناً عليها من دون أهل الأرض قائلاً له : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » .

وتكون رمزاً للثقة به وبأمانته في الأرض له ، ولأولاده من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

« خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة خالدة ، ولا ينزعها منكم إلا ظالم . إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا بالمعروف » . ولا غرو أن يكون الأمين على بيت الله أميناً على عرض أم سلمة ، وحارساً لها حتى تدخل المدينة .

وكان اتجاه أبى سلمة رضي الله عنه إلى المدينة قبل التوجيه النبوى المطلوب بالهجرة إليها ، فقد مضى إلى الحبشة ، وعاد ثم دخل فى جوار خاله أبى طالب ، ثم عاد يلقى الأذى والعناء والفتنة فمضى إلى المدينة. كما فى الفتح :

(يقال : إن أول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى زوج أم سلمة ، وذلك أنه أوذى لما رجع من الحبشة ، فعزم الرجوع إليها فبلغه قصة الاثنى عشر من الأنصار فتوجه إلى المدينة) ذكرذلك ابن إسحاق (١) .

ب ـ مصعب بن عمير :

روى البخارى فى صحيحه ، والحاكم فى الإكليل ، عن البراء بن عازب قال: (أول من قدم علينا المدينة من المهاجرين : مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، ثم قدم علينا عمار بن ياسر و بلال رضى الله عنهم) (٢) . ولمصعب عراقة فى المدينة . فهو أول مبعوث رسمى لرسول الله ﷺ إليها . وقد أدى مهمته بين البيعتين ، ثم عاد فانضم إلى السبعين بقصد الاستقرار والإقامة ، وذلك بعد أن وجه رسول الله ﷺ المسلمين للهجرة إليها .

ولا داعى للإفاضة فى الحديث عن السيد العظيم مصعب بن عمير . الذى قدّر الله

(١) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٢٨ . (٢) المصدر نفسه ٧ / ٢٥٩ .

له أن تقوم دعائم الإسلام فى المدينة على يديه ، وهو الذى خصّه الله تعالى بأن يحوّل المدينة من دار الحرب إلى دار الإسلام . مع أخيه أسعد بن زرارة .

جـ ـ عامر بن ربيعة :

ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبى سلمة : عامر بن ربيعة حليف بنى عدى بن كعب معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة بن غانم .

ونعيد إلى الذاكرة عامر بن ربيعة رضي الله عنه يوم أعد السير للهجرة إلى الحبشة ، وكيف جاء عمر بن الخطاب إلى زوجته ليلى قائلاً لها : إنه الانطلاق يا أم عبد الله . قالت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله مخرجاً . فقال: صحبكم الله . تقول : ورأيت له رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا . قال : فجاء عامر بحاجته تلك . فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا . قال : أطمعت فى إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب [1] .

وها هو عامر على أعقاب أبى سلمة . كلاهما من مهاجرة الحبشة ، وكلاهما يصوّبان نحو المدينة . حيث الوجود الإسلامى فيها هناك .

بنوغنم بن دودان عشرون راكباً :

ثم عبد الله بن جحش بن . . . غنم بن دودان بن . . . أسد بن خزيمة حليف بنى أمية بن عبد شمس . احتمل بأهله وأخيه عبد بن جحش ، وهو أبو أحمد ، وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر ، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد. وكان شاعراً ، وكانت عنده الفرعة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، فغلّقت دار بنى جحش هجرة . فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام . . . وهم مصعدون إلى أعلى مكة . فنظر إليها عتبة ابن ربيعة تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن . فلما رآها تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها ... يوماً ستدركها النكباء والحوب

ثم قال : أصبحت دار بنى جحش خلاءً من أهلها . فقال أبو جهل : وما تبكى عليه قُلٌ بن قُلٍ .

قال ابن إسحاق : (ثم قال : هذا عمل ابن أخى هذا . فرّق جماعتنا ، وشتّت أمرنا ، وقطع بيننا . فكان منزل أبى سلمة بن عبد الأسد ، وعامر بن ربيعة ، وعبد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ دار الجيل .

الله بن جحش ، وأخيه أحمد بن جحش على مبشر بن عبد المنذر بقباء فى بنى عمرو ابن عوف ، ثم قدم المهاجرون أرسالاً .

وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ ؛ هجرة رجالهم ونساءهم : عبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد بن جحش ، وعكاشة ابن محصن ، وشجاع وعقبة ابنا وهب ، وأربد بن حميرة ، ومنقذ بن نباتة ، وسُعَيْد ابن رُقيش ، ومُحرز بن نضلة ، ويزيد بن رقيش ، وقيس بن جابر ، وعمرو بن محصن ، ومالك بن عمرو ، وصفوان بن عمرو ، وثقف بن عمرو ، وربيعة بن أكتم، والزبير بن عبيد ، وتمام بن عبيد ، وسخبرة بن عبيد ، ومحمد بن عبد الله بن جحش .

ومن نسائهم : زينب بنت جحش ، وأم حبيب بنت جحش ، وجذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن ، وأم حبيب بنت ثمامة ، وآمنة بنت رقيش ، وسخبرة بنت تميم ، وحمنة بنت جحش .وقال أبو أحمد بن جحش ، وهو يذكر هجرة بنى أسد ابن خزيمة من قومه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وإيعابهم فى ذلك حين دعوا إلى الهجرة :

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد ... ومروتها بالله برّت يمينها
لنحن الألى كنا بها ثم لم نزل ... بمكة حتى عاد غثاً ثمينها
بها خيّمت غنم بن دودان وابتنت ... وما إن غدت غنم وحق قطينها
إلى الله نغدو بين مثنى وواحد ... ودين رسول الله بالحق دينها) (١)

لقد كان بنو غنم بن دودان من بنى أسد حلفاء بنى أمية . وانضموا جميعاً للصف الإسلامى ، وكان خروجهم جميعاً حدثاً ذا بال فى مكة ، لهذه الهجرة الجماعية ، وهم أصهار بنى هاشم وأصهار بنى أمية . فأم عبد الله بن جحش وإخوته أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وزوج أبى أحمد بن جحش الفارعة بنت أبى سفيان ابن حرب ،وحمنة بنت جحش زوج مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ، فقد صاهروا أكرام القبائل من قريش ، وخروجهم يعنى ثلمة فى مكة ؛ لأن هذا يعنى تخليهم عن حلفهم وجوارهم معها . ومن أجل هذا كان عتبة بن ربيعة سيد بنى أمية يعتصره الألم لخروجهم . فقد يلحق العار ببنى أمية أنهم عجزوا عن حماية جوارهم وحلفائهم ، وبنو أسد الذين ينتمى إليهم بنو غنم بن دودان من أعرق القبائل العربية ، والركبان سوف تسير بهذا التغير المفاجئ ، والذى يزيد النار أواراً أن أبا أحمد بن جحش شاعر

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

بليغ ، لم يترك خروجه يمر دون إثارة ضخمة فى المجتمع العربى هناك . وكان للشعر وقع السلاح وأشد فى المجتمع الجاهلى . وها هو يصف هذا الخروج من مكة قائلاً :

لـما رأتـنى أم أحـمد غـاديا بـذمة مـن أخشى بغـيب وأرهـب
تـقول فإمـا كـنت لابـد فاعـلا فيمـم بـنا البـلدان ولـتنأ يـثرب
فقـلت لـها بـل يثرب اليوم وجـهنا ومـا يـشأ الرحـمن فالـعبد يـركب

فهو تعريض شد بحلفائه وجواره الذى يسعى بذمتهم وجوارهم ، ويخشى ويرهب منهم أنفسهم ، فأى جوار هذا الذى نزلوا بساحته :

ويعلن أن خروجه لله ورسوله :

إلـى الله وجهى والرسول ومن يقم إلـى الله يـوماً وجـهه لا يخيّب
فكـم قد تركـنا من حميم مناصح وناصـحة تبـكى بـدمع وتنـدب
تـرى أن وتـراً نأينا عـن بلادنا ونـحن نـرى أن الرغـائب نطلب
دعـوت بـنى غنم لحقن دمائهم وللـحق لـمّا لاح للناس ملـحب
أجـابوا بـحمد الله لـما دعـاهُمُ إلى الحـق داعٍ والنـجاح فأوعـبوا

ويؤكد ارتباط قومه بمكة ارتباط حياة ومصير . فقد غدت مرابعها موطن أنسهم ، وأهلها أحبة وخلاناً تذرف عيونهم الدمع لفراقهم . لكن الحرص على العقيدة والحرص على حقن الدماء دعاهم إلى الهجرة .

وكـنا وأصـحاباً لنا فارقـوا الهـدى أعانـوا علـينا بالسلاح وأجلبوا
كـفوجـين أمـا منـهما فمـوفـق على الحق مهدى ، وفوج معذب
طـغوا وتمـنوا كـذبة وأزلّهم عـن الحـق إبليس فخابوا وخيّبوا
ورعـنا إلى قـول الـنبى محـمد فطاب ولاة الحـق مـنا وطيبوا

ولا يفتأ يذكر الأرحام التى يمت إليها ، والصهر الذى صاهر ، ولكن قريشاً هكذا فعلت بصهرها وابن أختها .

نمُتُّ بأرحام إلـينا قـريـبة ولا قـرب بالأرحام إذ لا نقرّب
فـأى ابن أخـت بعـدنا يأمننّكم وأية صـهر بـعد صـهرى تُرقَبُ
سـتعلم يومـنا أيـنا إذ تـزايلوا وزيّل أمـر الناس للحق أصوب (١)

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢٧ ، ١٢٨ .

هذا هو الاتجاه الإسلامى فى شعر أبى أحمد ، وهو ينقل القضية من المحيط المحلى إلى المحيط العربى ، بينما يحاول عتبة بن ربيعة بعد أن آلمه خلاء ديار بنى جحش وقال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدركها النكباء والحوب

ويقول بعدها : هذا عمل ابن أخى هذا ، فرّق جماعتنا ، وشتّت أمرنا ، وقطع بيننا . بينما يحاول أبو جهل أن يصغر من شأن هذا الركب المهاجر فيقول :

وما تبكى عليه قُلّ بن قُلّ .

إن الملاحظ أن المهاجرين من هذا التجمع هم حلفاء قريش لا من قريش نفسها ، وأراد أبو جهل ألا يعير للأمر اهتماماً ، ولا يلقى له بالاً . فقال كلمته تلك . لكن الذى أفزعهم هو :

هجرة عمر وبنى عدى :

حيث أراد عمر رضي الله عنه كذلك أن يهزّ كيان مكة هزّة ثانية . وهو الذى يمثل القوة الإسلامية فيها :

روى ابن السّمان فى (الموافقة) عن على رضي الله عنه قال :

(ماعلمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لمّا همّ بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكّب قوسه ، وانتضى فى يده أسهماً ، واختصر عَنَزَته ، ومضى قِبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها . فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أتى المقام ، فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحَلَق واحدة واحدة وقال لهم : « شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن يُثكِل أمه ، أو يُؤتم ولده ، أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى » . قال على رضي الله عنه : فلم يتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علَّمَهم ما أرشدهم إليه ثم مضى لوجهه) [1] .

كان هذا هو الجانب المعلن من الهجرة ، وهو الذى قال عنه ابن مسعود رضي الله عنه : (إن كان إسلام عمر لفتحاً ، وهجرته لنصراً ، وإمارته لرحمة . والله ما استطعنا أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر . فلما أسلم عمر قاتلهم حتى ودعونا . فصلينا)[2] .

أما الجانب السرى ، والتخطيط للهجرة فقد تم على الصيغة التالية :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٣١٥ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٩/ ٦٢ ، وقال المحقق فيه : رواه الطبرانى وفيه رواية : ما استطعنا أن نصلى عند الكعبة ظاهرين . ورجاله رجال الصحيح إلا أن القاسم لم يدرك جده ابن مسعود .

(حدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر ، عن عبد الله بن عمر ، عن أبيه عمر بن الخطاب قال : اتعدت ـ لما أردنا الهجرة إلى المدينة ـ أنا وعياش بن أبى ربيعة ، وهشام ابن العاص بن وائل السهمى التناضِب من أضاة بنى غفار فوق سرِف . وقلنا : أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه . قال : فأصبحت أنا وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب ، وحبس هنا هشام ، وفُتن فافتتن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام . والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة . وكان ابن عمهما . وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة فكلماه وقالا : إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك . ولا تستظل من شمس حتى تراك ،فرق لها . فقلت له : ياعياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم . فو الله لو آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت . فقال : أبر قسم أمى ، ولى هناك مال فآخذه . فقلت : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً . فلك نصف مالى ولا تذهب معهما ، قال : فأبى علىّ إلا أن يخرج معهما ؛ فلما أبى إلا ذلك ؛ فقلت له :

أما إذ فعلت ما فعلت : فخذ نافتى هذه .فإنها ناقة نجيب . فالزم ظهرها . فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : يا بن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا . أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟ قال : بلى. قال : فأناخ ، وأناخا ليتحول عليها . فلما استووا على الأض عدوا عليه، فأوثقاه ، وربطاه . ثم دخلا به مكة ، وفتناه فافتتن .

قال ابن إسحاق : فحدثنى به بعض آل عياش بن أبى ربيعة ، أنهما حين دخلا به مكة نهاراً موثقاً ثم قالا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

قال ابن إسحاق : فكنا نقول : والله ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم ! قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم .

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، أنزل الله تعالى فيهم ، وفى قولنا ، وقولهم لأنفسهم : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ**

ثُمَّ لا تُنصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (١).

قال عمر : فكتبتها بيدى فى صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص . فقال هشام بن العاص : فلما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى ، أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم فهمنيها ! فألقى الله تعالى فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا . وفيما كنا نقول فى أنفسنا ، ويقال فينا . قال : فرجعت إلى بعيرى ، فجلست عليه ، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة) (٢).

قال ابن هشام : (فحدثنى من أثق به : أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة : «من لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص» . فقال الوليد بن المغيرة : أنا لك يارسول الله بهما . فخرج إلى مكة ، فقدمها مستخفياً . فلقى امرأة تحمل طعاماً ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين ـ تعنيهما ـ فتبعها حتى عرف موضعهما وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما فكان يقال لسيفه : ذو المروة لذلك ، ثم حملهما على بعيره وساق بهما . فعثر فدميت أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت   وفى سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة) (٣) .

قال ابن إسحاق : (ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد بن الخطاب ،وعمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر ، وحنبس بن حذافة السهمى ، وكان صهره على ابنته حفصة بنت عمر ـ فخلف عليها رسول الله ﷺ بعده ـ وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل ، وواقد بن عبد الله التميمى . حليف لهم،وخولى بن أبى خولى ، ومالك بن أبى خولى حليفان لهم .وبنو البكير أربعتهم : إياس بن البكير ، وعاقل بن البكير ، وعامر بن البكير ، وخالد بن البكير ، وحلفاؤهم من بنى سعد بن ليث على رفاعة بن عبد المنذر فى بنى عمرو بن عوف بقباء . وقد كان منزل عيّاش بن أبى ربيعة معه حين قدما المدينة) (٤) .

يقول البراء بن عازب رضي الله عنه : ثم قدم عمر بن الخطاب فى عشرين من أصحاب النبى ﷺ (٥) .

---

(١) الزمر / ٥٣ ـ ٥٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢٩ ـ ١٣١ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٣١ .
(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٣٢ .
(٥) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى / ٢٦٠ .

١ ـ لقد أعدّ عمر رضي الله عنه خطة الهجرة له ولصاحبيه عياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السهمى . وكان ثلاثتهم كل واحد من قبيلة، وكان مكان اللقاء الذى اتعدوا فيه بعيداً عن مكة وخارج الحرم على طريق المدينة . وسرف تبعد ستة أميال عن مكة على أقل تقدير .

لقد تحدد الزمان والمكان بالضبط بحيث أنه إذا تخلف أحدهم فليمض صاحباه ولا ينتظرانه ؛ لأنه قد حبس ، وكما توقعوا ، فقد حُبس هشام بن العاص رضي الله عنه بينما مضى عمر وعيّاش بهجرتهما ونجحت الخطة كاملة ووصلا المدينة سالمين .

نحن لا نرى هنا صلة أو توجيهاً نبوياً مباشراً فى قضية الهجرة . فالأمر عام ومحدد. وعلى ضوء الأمر العام والتربية القيادية التى ربى عليها ـ عليه الصلاة والسلام ـ جنده . وذلك بعد تحديد الهدف المطلوب . وتركت الخطوات التنفيذية كاملة لكل فرد وعلى حدة .

٢ ـ ودليلنا على أن المجتمع الإسلامى فى المدينة . لم تدخله السلطة التنفيذية بعد، ولم تقم الدولة الإسلامية فيه . هو وصول أبى جهل بن هشام والحارث بن هشام، وهما عدوان لدودان للإسلام إلى المدينة دون أن يكون هناك سلطة تمنعهما أو تعتقلهما أو تقتلهما . وهما على ثقة بأن الجو آمن ، وإن كان هو لصالح التيار الإسلامى . لكن يثرب لا تزال ممر التجار والقصاد من كل مكان . ولم تقم بعد بها السلطة التنفيذية التى تمثل الإسلام آنذاك .فيلتقى أبوجهل مع عياش بن أبى ربيعة ، وعمر بن الخطاب . وعمر من هو ؟ ومع ذلك لا يعرضان لهما بسوء . فعمر رضي الله عنه القوى الأمين يعرف حدود الصلاحيات المتاحة فى المدينة . وليس له سلطة تخوّله قتل أبى جهل أو اعتقاله أو طرده. فلم يملك أكثر من الحوار معه وإبداء الرأى . ولا تزال القيم السائدة آنذاك وقبل الحكم الإسلامى حرية الزيارة واللقاءات فى جو يثرب ، بينما رأينا أن المشركين من قريش عندما أدركوا أن سعد بن عبادة سيد الخزرج قد كان من المبايعين لرسول الله ﷺ . لحقوا به وبالمنذر بن عمرو . فأدركوه وأخذوه وربطوا وثاقه وأوذى وشتم إلى أن أطلق سراحه بقانون الإجارة المعترف به عند العرب مقابل حمايته لهم لتجارتهم عندما تمر من المدينة .

٣ ـ وكان عمر رضي الله عنه قد أدرك بثاقب نظره ، ونفاذ بصيرته أن أبا جهل ابن هشام وأخاه الحارث . قد جاءا بهدف إعادة عيّاش إلى مكة . وأن حديث أمه ويمينها ألا تمتشط حتى تراه ولاتستظل بسقف حتى تراه . هو أمر مفتعل . وحذر عياشاً رضي الله عنه فلم يستجب لتحذيره . وعندما ذكر عيّاش لعمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه يريد أن يحصل على

ماله فى مكة . فكان جواب عمر رضي الله عنه له : ولقد علمت أنى لمن أكثر قريش مالاً . فلك نصف مالى ولا تذهب معهما) .

إنه المستوى العظيم من الأخوة التى بناها الإسلام فى هذه النفوس . فعمر رضي الله عنه يضحى بنصف ماله حرصاً على سلامة أخيه ، وخوفاً عليه من أن يفتنته المشركون ثانية بعد عودته . ولعل عيّاش لم يجد صعوبة إطلاقاً عندما خرج من مكة فحسب الأمر سيبقى على ما هو عليه ، وليس للزائرين من هدف وهما أخواه لأمه . إلا إنقاذ أمه من البلاء الكبير الذى وقعت به ، فقد غلبته عاطفته لأمه ، وبره بها على أن يمضى لمكة فيبر قسم أمه . ويأتى بماله هناك . وتأبى عليه عفته رضي الله عنه أن يأخذ نصف مال أخيه عمر رضي الله عنه وماله قائم فى مكة لم يمس . غير أن أفق عمر رضي الله عنه كان أبعد . فكأنه يرى رأى العين المصير المشؤوم الذى سينزل بعيّاش لو عاد إلى مكة . وحين عجز عن إقناعه أعطاه ناقته الذلول النجيبة ؛ ليعود عليها إن رابه منهم شيء على الطريق . وبقى عيّاش على ثقته بأخويه من أمه فهو أدرى بهما ، وعلى حرصه على الوفاء بيمين أمه . حتى على الطريق لم يحذر منهما حين طلب أبو جهل منه أن يعطيه ناقته . فهو يرى أن الأخوة بينهما أكبر من أن تدفعهما لإيذائه ومسِّه . ولم يتجشما هذا السفر الصعب إلا من دافع أخوى خالص . وحب عظيم لأمهما يجمع بينهم الثلاثة .

٤ ـ وساد فى الصف المسلم بعدها أن الله تعالى لايقبل صرفاً ولا عدلاً من هؤلاء الذين فتنوا فافتتنوا وتعايشوا مع المجتمع الجاهلى . خاصة بعد قيام دولة الإسلام ، ووصول رسول الله ﷺ إلى المدينة . وتحقق المفاصلة الكاملة بين المجتمعين والأمتين ، وأصبح وجود المؤمنين باختيارهم فى مكة يعنى انضماماً لمعسكر الكفر ضد معسكر الإسلام ، خاصة إذا كانوا قادرين على الخروج من هذا المعسكر ، وقبلوا التعايش معه إلى أن جاء الفرج الربانى بهذه الآية الكريمة: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [(١)] . ولم تكن نفسية المسلمين وقد حُجز إخوان لهم فى مكة تعرف الاستقرار والراحة من شدة ألمهم عليهم . لقد فقدوا أجزاء عزيزة عليهم من أنفسهم . وكل فرد فى مكة هو قطعة منهم وفلذة من كبدهم . فهو مجتمع حى . كل مسلم فيه قطعة منه . ولذلك ما أن نزلت هذه الآية حتى سارع الفاروق رضي الله عنه فبعث بهذه الآية إلى أخيه الحميم عياش وهشام ليجددا محاولاتهما فى مغادرة معسكر الكفر .

---

(١) الزمر / ٥٣ .

أى سمو عظيم عند ابن الخطاب رضي الله عنه . لقد حاول مع أخيه عياش، أعطاه نصف ماله على ألا يغادر المدينة ، وأعطاه ناقته ليفر عليها ، ومع هذا كله ، فلم يشمت بأخيه، ولم يشتف منه لأنه خالفه ، ورفض نصيحته ، وألقى برأيه خلف ظهره . إنما كان شعور الحب والوفاء لأخيه هو الذى يسيطر عليه ، فما أن نزلت الآية حتى سارع ببعثها إلى أخويه فى مكة لكل المستضعفين هناك ليقوموا بمحاولات جديدة للانضمام إلى المعسكر الإسلامى.

٥ ـ إن قيمة كل فرد فى الإسلام هى قيمة المجتمع كله . وفى الوقت الذى يعيش المسلم فى قلب إخوانه معاناة وألماً وحيوية . فهو كذلك يعيش فى قلب قائده ـ عليه الصلاة والسلام . وكل فرد هو بحاجة إليه مهما كان شأنه ، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقنت ويدعو للمستضعفين فى مكة عامة ولبعضهم بأسمائهم خاصة ، فكل فرد من هؤلاء أمة . والدولة الفتية بحاجة لكل فرد منهم.

(عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة : يقول : « اللهم أنج عيّاش بن أبى ربيعة ، اللهم أنج سلمة بن هشام ، اللهم أنج الوليد بن الوليد ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف) (١) .

ومن القنوت إلى العملية الفدائية : « من لى بعياش بن أبى ربيعة ؟ » وهى مخاطرة كبرى فى أن يمضى جندى جديد من المدينة إلى قلب مكة لينقذ إخواناً هناك . وبرز السيد العظيم الوليد بن الوليد الذى قام بهذه المخاطرة الجريئة ودخل مكة واستنقذ عياشاً وهشاماً من الأسر ، وعاد بهما إلى الأسرة المسلمة . ومضى شعره فى أصبعه مثلاً حياً على الفداء .

ما أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

٦ ـ وبقى الحديث الذى رواه البخارى رضي الله عنه عن الركب العدوى (عشرين راكباً) ، وهم الذين جاؤوا على أثر عمر رضي الله عنه فكما أوعبت بنو غنم بن دودان فى عشرين راكباً رجالهم ونساؤهم . فكذلك أوعبت بنو عدى هم وحلفاؤهم جميعاً على إثر هجرة عمر رضي الله عنه وكما ذكر ابن إسحاق أسماءهم بأعيانهم :

---

(١) البخارى .باب الاستسقاء م ١ . ج٢ ص ٣٣ ودعاء رسول الله ﷺ فى القنوت بنجاء الوليد ، لعلها خلال قيامه بمهمته فى إنقاذهما هناك . أو أنه كان قبل استنقاذهما فقد حبس ابن الوليد بعد بدر على إسلامه من أهله ، ثم أفلت من أسرهم ولحق بالنبى ﷺ .

٢ ـ زيد بن الخطاب .

٣ ـ عمرو بن سراقة .

٤ ـ عبد الله بن سراقة .

٥ ـ خنيس بن حذافة (صهر الفاروق) .

٦ ـ سعيد بن زيد (صهره على أخته) .

٧ ـ واقد بن عبد الله (حليف) .

٨ ـ خولى بن أبى خولى (حليف) .

٩ ـ مالك بن أبى خولى (حليف) .

١٠ ـ إياس بن البكير (حليف) .

١١ ـ عاقل بن البكير (حليف) .

١٢ ـ عامر بن البكير (حليف) .

١٣ ـ خالد بن البكير (حليف) وهم إخوة أربعة ، ولعل النساء الذين جاؤوا معهم هم تتمة الركب . أو كانوا صحابة أُخرين لم تتحدث كتب السيرة عن أسمائهم .

ولعل عمر رضي الله عنه قد رسم الخطة فى هجرتهم جميعاً بحيث نفّذت ونجحت كاملة ؛ لأنهم قدموا على أثره . ونزلوا جميعاً على رفاعة بن عبد المنذر رضي الله عنه .

وكما مر معنا ، فرفاعة بن عبد المنذر أحد النقباء الاثنى عشر كما تقول بعض الروايات ، وهو نقيب بنى عمرو بن عوف . بينما نزل الركب السابق من بنى أسد على أخيه مبشر بن عبد المنذر .

إنه بيت يستضيف عشرين راكباً ليس يوماً واحداً أو اثنين بل طيلة المدة . ولعلها تجاوزت الشهرين حتى قدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قباء ، وأقام فيها بضعة عشر ليلة، ثم مضى إلى المدينة .

فنحن أمام صورة جديدة عظيمة من التضحية والبذل نتناولها بالتفصيل فيما بعد ، حيث تحدد ملامح المجتمع الإسلامى الحى المتكافل بحيث يكون الأنصار قادرين على استيعاب المهاجرين القادمين جميعًا فى بيوتهم ومنازلهم دون سلطة عليا تشرف على هذا التكافل . بل مجتمع رفيع بلغ المستوى الأخلاقى الذى يؤهله ليكون خيرة مجتمعات الأرض بلا منازع .

بقية المهاجرين ومنازلهم :

ثم تتابع المهاجرون . فنزل طلحة بن عبيد الله ، وصهيب بن سنان على خبيب بن أساف أخى بلحارث بن الخزرج بالسنح ، ويقال : بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زرارة أخى بنى النجار . قال ابن هشام : وذكر لى عن أبى عثمان النهدى أنه قال : بلغنى أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت. ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك . والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا نعم . قال : فإنى جعلت لكم مالى . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فقال : « ربح صهيب ربح صهيب » .

قال ابن إسحاق : ونزل حمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وأبو مرثد كنّاز ابن الحصين . وابنه مرثد الغنويان . حليفا حمزة بن عبد المطلب ، وأنسة ، وأبو كبشة. موليا رسول الله ﷺ على كلثوم بن هدم أخى بنى عمرو بن عوف بقباء . ويقال: بل نزلوا على سعد بن خيثمة . ويقال : بل نزلوا على أسعد بن زرارة أخى بنى النجار كل ذلك يقال .

ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وأخوه الطفيل بن الحارث ، والحصين بن الحارث ومسطح بن أثاثة بن عبّاد بن المطلب ، وسويبط بن سعد بن حرملة أخو بنى عبد الدار ، وطليب بن عمير أخو بنى عبد بن قصى ، وخبّاب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة أخى بلعجلان بقُباء .

ونزل عبد الرحمن بن عوف فى رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخى بلحارث بن الخزرج فى دار بلحارث بن الخزرج . ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى على منذر بن محمد بن عقبة بالعصبة دار بنى جمحى . ونزل مصعب بن عمير بن هاشم أخو بنى عبد الدار على سعد بن معاذ أخى بنى عبد الأشهل فى دار بنى الأشهل .

ونزل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسالم مولى أبى حذيفة .

قال ابن هشام : سالم مولى أبى حذيفة : سائبة لثبيتة بنت يعار بن يزيد . سيبته فانقطع إلى أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة فتبناه ، فقيل : سالم مولى أبى حذيفة .

قال ابن إسحاق : ونزل عتبة بن غزوان على عبّاد بن بشر بن وقش أخا بنى عبد الأشهل فى دار عبد الأشهل . ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر

أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار ؛ فلذلك كان حسان يحب عثمان، ويبكيه حين قتل.

وكان يقال : نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة ؛ وذلك أنه كان عزباً فالله أعلم . أى ذلك كان (١) .

وها نحن نتابع الخطوات السريعة في بناء المجتمع الإسلامي الوليد .

١ ـ ثم تتابع المهاجرون ، فنزل طلحة بن عبيد الله ، وصهيب بن سنان على خبيب ابن يساف أخي بلحارث بن الخزرج بالسنح . ويقال : بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زرارة أخي بني النجار .

وحين نذكر طلحة بن عبيد الله ، يحسن أن نتابع العشرة المبشرين وموضوع هجرتهم . فهم اللبنات الأولى في الإسلام ، وهم بمثابة الحواريين من المهاجرين ، وهم النقباء فيهم .

أما أبو بكر رضي الله عنه فعندما عزم على الهجرة كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدّخره لنفسه فيقول له :

« يا أبا بكر ، لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً » . فيطمع أبو بكر أن يكونه(٢). وكانه ، فقد اختاره عليه الصلاة والسلام لذلك . وسنتحدث تفصيلاً عنه فيما بعد .

وأما عمر رضي الله عنه فهو الذى شهدنا هجرته التى كانت نصراً في جانبها العلنى ، والتى أرغمت معاطس مكة فلم يلحق به أحد . ثم الركب الذى هاجر معه وبعده والذى بلغ العشرين . فكان هو رضي الله عنه عميدهم ونقيبهم ، حتى أنهم نزلوا في موطن واحد .

ولاننسى أن ثالث العشرة سعيد بن زيد رضي الله عنه كان معهم .

أما رابع العشرة : عثمان بن عفان رضي الله عنه أول من هاجر بأهله إلى الله ورسوله بعد لوط ـ عليه السلام ، وذلك عندما مضى إلى الحبشة مع زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، فكانت له هجرته الثانية إلى المدينة ، كما روى عنه البخاري في صحيحه .

فـ (عن الزهرى ، حدثنى عروة بن الزبير ، أن عبيد الله بن عدى بن الخيار أخبره قال : ودخلت على عثمان فتشهد ثم قال : أما بعد فإن الله بعث محمداً ﷺ بالحق ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٣٢ ـ ١٣٥ .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للعسقلانى ٧ / ٢٦٣ .

وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ، وآمن بما بعث به محمد ﷺ، ثم هاجرت هجرتين ، وكنت صهر رسول الله ﷺ ، وبايعته فو الله ما عصيته ولاغششته حتى توفاه الله) .

لكننا نجد إشارة فى مكان آخر إلى أن هجرة عثمان رضي الله عنه قد تأخرت مع هجرة طلحة .

(روى ابن عائذ فى المغازى بإسناد له عن ابن عباس قال : خرج عمر والزبير وطلحةوعثمان وعياش بن ربيعة فى طائفة . فتوجه عثمان وطلحة إلى الشام. . .)(1).

ونكمل هذه الرواية بما يؤكد أن الزبير رضي الله عنه كذلك قد مضى إلى الشام ؛ وذلك لأن رسول اللهﷺ التقى والزبير أثناء هجرته إلى المدينة .

(قال ابن شهاب : فأخبرنى عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض . . .) (2) .

ويجمع الحافظ ابن حجر بين الروايتين حين ساق رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب به . وأتم منه وزاد ، قال : (ويقال لما دنا من المدينة كان طلحة قدم من الشام فخرج عائداً إلى مكة ، إما متلقياً وإما معتمراً ومعه ثياب أهداها لأبى بكر من ثياب الشام ، فلما لقيه أعطاه ، فلبس منها هو وأبو بكر . وهذا إن كان محفوظاً احتمل أن يكون كل من طلحة والزبير أهدى لهما من الثياب . والذى فى السير هو الثانى) (3) .

فقد رأينا إذن من العشرة المبشرين الذين مضوا للهجرة أو للشام :

عمر بن الخطاب ، سعيد بن زيد ، عثمان بن عفان ، طلحة بن عبيد الله، الزبير ابن العوام .

هؤلاء خمسة ، والمحفوظ أن أبا بكررضي الله عنه هاجر مع رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبى طالب تخلف بمكة بأمر رسول الله ﷺ لرد الودائع إلى أصحابها . فهؤلاء سبعة وثامنهم عبد الرحمن بن عوف الذى ذكرت الروايات عنه أنه هاجر كما هو عند موسى ابن عقبة :

(وذكر موسى بن عقبة أن أكثر المهاجرين نزلوا على بنى عمرو بن عوف بقباء إلا

---

(1) المصدر نفسه ٧ / ٢٦١ .
(2) فتح البارى ٧ / ٢٣٦ ح / ٣٩٠٦ .
(3) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٤٣ .

عبد الرحمن بن عوف فإنه نزل على سعد بن الربيع وهو خزرجى) (١) . وتاسعهم سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه . حيث تذكر عنه روايات السيرة:

ففى نص حديث البخارى : (أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانوا يقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر) (٢) .

ويذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح (وسعد) ، زاد فى رواية الحاكم وابن مالك ، وهو ابن أبى وقاص . وروى الحاكم عن طريق موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال : وزعموا أن آخر من قدم سعد بن أبى وقاص فى عشرة فنزلوا على سعد بن خيثمة)(٣).

وعاشرهم أبوعبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح رضي الله عنه وكل ما ورد عن هجرته :

(وهاجر أبو عبيدة إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فى رواية محمد بن إسحاق . . وعن قتادة : لما هاجر أبوعبيدة بن الجراح من مكة إلى المدينة نزل على كلثوم بن الهدم. . .) (٤) .

٢ ـ ومن المعانى التى نلقاها فى هجرة هؤلاء الرواد : أن هناك هجرة جماعية على رأس كل مجموعة منها أحد القادة ، وكانوا ينزلون جميعاً فى بيت واحد.

فكما ورد فى البخارى : ثم قدم عمر بن الخطاب فى عشرين راكباً (وفى الفتح كذلك) . وزعموا أن آخر من قدم سعد بن أبى وقاص فى عشرة فنزلوا على سعد بن خيثمة . وهؤلاء بنوهاشم رهط النبى ﷺ ينزلون على كلثوم بن الهدم وهم حمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وأبو مرثد حليفا حمزة ـ رضى الله عنهم ـ وأنسة ، وأبو كبشة موليا رسول الله ﷺ ، ولم يتخلف منهم إلا على بمكة رضي الله عنه بـأمر رسول الله ﷺ .

وهؤلاء بنو المطلب بن عبد مناف ، عبيدة بن الحارث وأخوه الطفيل بن الحارث ، والحصين بن الحارث ، ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب ينزلون على عبد الله بن سلمة . أخى بلعجلان بقباء وينزل معهم العبدريون سويبط بن سعد ، وطليب بن عمير، وخباب مولى عتبة بن غزوان .

وكان يقال : نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة وذلك أنه كان عزباً.

---

(١) المصدر نفسه ٧ / ٢٦١ .

(٢) المصدر نفسه ٧ / ٢٦٠ ح ٣٩٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ٧ / ٢٦١ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤١٠ .

وكما روى ابن سعد عن هجرتهم عن عائشة ـ رضى الله عنها : فجعل القوم يتجهزون ويترافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك .

فوجوه المهاجرين ـ رضى الله عنهم ـ كانوا على رأس قومهم ، وكانت المواساة بينهم أساساً ينطلقون منه فى الهجرة ، ولأول مرة بعد الحبشة يجد المهاجرون أنفسم على صور تجمعات موزعة فى أنحاء المدينة وبين صفوف إخوانهم من المدينة ، يعيشون الحياة الإسلامية . ويمارسون المعايشة اليومية الإسلامية ، ويتداخلون فيما بينهم لتبرز معالم وسمات المجتمع الإسلامى الجديد ، وكان هذا الأمر من التكافل الاجتماعى بين المهاجرين ابتداء ، ثم بين المهاجرين والأنصار بعد ذلك برهاناً ساطعاً على عظمة هذا الدين فى نفوس هذه الأمة ، فبعد الاحتكاك المباشر ، والصلة اليومية لم نسمع عن أى خلل فى البناء أو خلاف فى التصرف .

٣ـ وجانب البذل والعطاء يبقى ظاهرة نحن بحاجة إلى الإشارة إليها فى كل وقت. فقبل البذل والتضحية فى النفوس كان هناك البذل والتضحية فى المال . إننا فى عالمنا المعاصر ، وفى الصف الإسلامى وفى رحلة لبضعة أيام تتكشف النفوس والعيوب والحزازات والظنون ، وهذا مجتمع يبنى ولما يصل رسول الله ﷺ بعد ، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجدد ليس على مستوى فردى فقط ، بل على مستوى جماعى كذلك ، ويقيم المهاجرون فى بيوت الأنصار أشهراً عدة . والمعايشة اليومية مستمرة . والأنصار يبذلون المال والحب والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم ، نحن أمام مجتمع إسلامى بلغ الذروة فى لحمته وانصهاره . وقد مثل أعظم هذه النماذج صورتان توضح مدى هذا الحب وهذا التلاحم :

(فعن أم العلاء ـ امرأة من نسائهم ، بايعت النبى ﷺ ـ أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين) (١) . فلم يكن من السهل أن يختار المهاجر بيتاً أنصارياً ينزل فيه ، لقد كان التنافس عليهم شديداً لدرجة أنه لم يحل إلا بالقرعة يقترعون عليهم إيقافاً للتنافس على إيوائهم كما قالت أم العلاء : « حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين » .

٤ ـ ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل والعطاء ، فلم يكونوا أصلاً فقراء ، بل كانوا يملكون المال ، ويملكون الدار وتركوا ذلك كله ابتغاء مرضاة الله ، وبذلوه كله لطاعته جل وعلا . فهذا عمر رضي الله عنه يقول لعياش : (قد علمت أنى من

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٦٤ ح ٣٩٢٩ .

أكثر قريش مالاً ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما) .

إنه يتخلى مباشرة عن نصف ماله ليحمى أخاه من الوقوع ثانية فى يد المشركين .

وهذا صهيب بن سنان رضي الله عنه حين يكون الأمر عنده سلامة دينه بالهجرة، أو سلامة ماله بالمكث فى مكة يضحى بماله كله من أجل أن يلتحق بالدولة المسلمة .

ففى رواية ابن هشام : عن أبى عثمان النهدى أنه قال :

(بلغنى أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً فقيراً فكثر مالك عندنا . وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك ! فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى قد جعلت لكم مالى .قال : فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب ») (١) .

وفى رواية أخرى أخرجها أبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن المسيب قال :

(أقبل صهيب مهاجراً نحو النبى ﷺ ، وقد أخذ سيفه وكنانته وقوسه ، فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانتثل ما فى كنانته ثم قال :

يا معشر قريش ، قد علمتم أنى من أرماكم رجلاً ، وايم الله لا تصلون إلى حتى أرمى بكل سهم من كنانتى ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شىء ثم افعلوا ما شئتم . وإن شئتم دللتكم على مالى بمكة وخليتم سبيلى . فقالوا : نعم فقال لهم ما تقدم) (٢) .

وفى الخصائص الكبرى عن صهيب رضي الله عنه هذه الرواية .

(لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وخرج معه أبو بكر : وقد كنت هممت بالخروج معه فصدنى فتيان قريش وقالوا : جئتنا فقيرا حقيراً صعلوكاً فكثر مالك عندنا، وتريد أن تخرج بمالك ونفسك ، لا يكون ذلك أبداً . فقلت لهم: أنا أعطيكم أواقى من الذهب . وفى لفظ : ثلث مالى . وفى لفظ : مالى . وتخلون سبيلى . ففعلوا . فقلت : احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها الأواقى . وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قباء قبل أن يتحول منها . فلما رآنى قال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٣٣ . وقال المحقق فيه : رواه الحاكم ، وابن مردويه ، وأبونعيم . وهو صحيح من طريق الحاكم .

(٢) السيرة الحلبية ٢ / ١٨٦ .

« يا أبا يحيى ربح البيع » ثلاثاً . فقلت : يا رسول الله ، إنه ما سبقنى إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل ـ عليه الصلاة والسلام) (١) .

وذاك أبو أحمد بن جحش رضي الله عنه وأخوه عبد الله يؤذيهما أن تباع دور بنى جحش بمكة ، (فعدا أبو سفيان على دارهم فتملكها . فذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ فقال له : « ألا ترضى ياعبد الله أن يعطيك الله بها داراً فى الجنة خيراً منها ؟ » قال : بلى . قال : فذلك لك .

ولما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلمه أبو أحمد فى دارهم فأبطأ عليه رسول الله ﷺ. فقال الناس لأبى أحمد : يا أبا أحمد ، إن رسول الله يكره أن ترجعوا فى شىء أصيب منكم فى الله . فأمسك الكلام عن رسول الله ﷺ) (٢) .

فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٣) .

هذه التضحية وهذا الإيثار قابلهم بها الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ بحب أكثر ، وتضحية أكثر ، وبذل أكثر ، فكانوا يتقاتلون عليهم حتى اقترعوا عليهم .

٥ ـ ومن وسائل بناء هذا المجتمع الإسلامى الوليد أن وجَّه رسول الله ﷺ ركباً من المهاجرين أن يمضوا متاجرين إلى الشام ، فى محاولة لتحصيل جانب من الغنى . وهم من خيرة الشباب المهاجر وذلك قبل أن يتكامل وضع المجتمع الإسلامى الجديد وتتوزع مسؤولياته .

كما مر معنا من قبل : خرج عمر والزبير وطلحة وعثمان وعياش بن ربيعة فى طائفة ، فتوجه عثمان وطلحة إلى الشام .

وأمكن خلال شهرين أن يتجروا ويعودوا ويلتحقوا بالمدينة مع وصول رسول الله ﷺ إليها . فقد لقى طلحة والزبير ـ رضى الله عنهما ـ رسول الله ﷺ وهو ماض إلى المدينة ، وكسواه ثياباً من آثار تجارتهما . وذاك عبد الرحمن بن عوف وقد عرض عليه أخوه سعد بن الربيع ماله وإحدى زوجتيه يطلقها له فما كان منه إلا أن قال : بارك الله لك فى مالك وزوجك ، ولكن دلنى على السوق ، وماهى إلا أيام وقد جاء إلى رسول الله ﷺ وعليه أثر خلوق . فسأله : « مهيم » . فأجابه : أنه حديث عهد بعرس . إنه مجتمع يتمتع بالإيجابية التامة . كل فرد فيه يحاول أن يكون فاعلاً ومؤثراً أو منتجاً .

---

(١) السيرة الحلبية لابن برهان الدين ٢ / ١٨٦ . (٢) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣١٥ .
(٣) الحشر / ٨ .

لكن لاعلى حساب الدعوة والهجرة والجهاد . وكل فرد فيه منيته العليا أن يكون باذلاً مضحياً مؤثراً أخاه على نفسه وعلى بيته وعلى ماله . وبعض أفراد هذا الجيل خرج من الدنيا ولم يذق لها طعماً لأنه وهب نفسه لله ، واستشهد قبل أن تينع الثمرة كما يقول خباب رضي الله عنه :

(هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغى وجه الله ، ووجب أجرنا على الله ، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير . قتل يوم أحد ، فلم نجد شيئاً نكفنه فيه إلا نمرة ، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه ، فإذا غطينا رجليه خرج رأسه . فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه بها ، ونجعل على رجليه من أذخر. ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها [١]) [٢] .

٦ ـ ومن سمات هذا المجتمع الإسلامى أن أصبح الإسلام وحبه هو الذى يطغى عليه حتى عند المشركين ، فمن أغرب الروايات فى هذا الصدد ما ذكر أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وصهيب قد نزلا على خبيب بن إساف وقيل : يساف . ولم يكن مسلماً.

قال السهيلى : (فصل ، وذكر نزول طلحة وصهيب على خبيب بن إساف وهو إساف بن عنبة ، ولم يكن حين نزول المهاجرين عليه مسلماً فى قول الواقدى بل تأخر إسلامه حتى خرج رسول الله ﷺ إلى بدر . قال خبيب : فخرجت معه أنا ورجل من قومى . وقلنا له : نكره أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم . فقال : أأسلمتما ؟ فقلنا : لا . فقال : ارجعا فإنا لا نستعين بمشرك . . وخبيب هو الذى خلف على بنت خارجة بعد أبى بكر الصديق . . . ومات فى خلافة عثمان رضي الله عنه) .

حتى أن من نزل عليه الرسول ﷺ وكثير من المسلمين كان مشركا كذلك.

(ثم خرج من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه قال : قدم رسول الله ﷺ وأبو بكر وعليهما ثياب بيض شامية ، فمر على عبد الله بن أبى فوقف عليه ليدعوه إلى النزول عنده فنظر إليه فقال: انظر أصحابك الذين دعوك فانزل عليهم . فنزل على سعد ابن خيثمة. قال الحاكم: الأول أرجح، وابن شهاب أعرف بذلك من غيره. قلت: ويقوى قول ابن شهاب ما أخرجه أبو سعيد فى (شرف المصطفى) من طريق الحاكم ، من طريق ابن مجمع : لما نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم هو وأبو بكر ،

---

(١) يهدبها : يقطفها .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٥٣ ح ٣٩١٤ ، الروض الأنف للسهيلى ٢/ ٢٢٧ .

وعامر بن فهيرة ، قال كلثوم: يا نجيح - لمولى له - فقال النبى ﷺ : « أنجحت ». وذكر محمد بن الحسن بن زبالة فى (أخبار المدينة) : أنه نزل على كلثوم وهو يومئذ مشرك).

إنها ظاهرة عميقة الدلالة ، أن يتسابق المشركون فى هذا المجتمع الجديد فى استضافة المسلمين ، لقد أصبح الإسلام والمسلمون أمراً واقعاً فى يثرب ، وراح المشركون من أبناء الأوس والخزرج يتعاملون مع هذا الواقع ويتكيفون معه ، ويتسابقون مع المسلمين فى إكرام ضيوفهم الوافدين من مكة .

واتجاه رسول الله ﷺليربط الخيوط مع عبد الله بن أبى الزعيم الأكبر فى المدينة فى محاولة لضمه إلى الصف الإسلامى تعنى الخط الذى اختطه - عليه الصلاة والسلام - فى أن تكون الساحة للإسلام من جميع الاتجاهات ، لكن ضغينة عبد الله بن أبى أبت إلا أن تظهر من اللحظات الأولى . فقال بجفاء مستنكراً على العربى الأصيل : انظر أصحابك الذين دعوك فانزل عليهم .

نحن إذن فى مجتمع إسلامى أكثريته الساحقة من المسلمين ، ولذلك فالأقلية ماضية مع التيار حيث إن القيادات قد انضمت إلى الإسلام ، فيقوم المشركون فيه بحق الضيافة فيه للمسلمين .

٧ - والملاحظ أن أكثر النازلين كانوا بقباء رغم دخولهم يثرب واختلاطهم فيها ، وكانت قباء يومها قرية خارج يثرب ، وهى منازل بنى عمرو بن عوف من الأوس ، وكان نقيبهم سعد بن خيثمة رضي الله عنه ، أو رفاعة بن عبد المنذر ، وقد يكون هذا من أول المهاجرين - رضى الله عنهم . أن يكون تجمعهم فى قباء بحيث يمضون مع قيادتهم وقائدهم - عليه الصلاة والسلام - إلى يثرب ، وكان بنو عمرو بن عوف على المستوى المطلوب من تحمل مسؤولية الضيافة والجوار لأحبابهم المهاجرين ، وهم الذين وصفهم ربهم مع مسجدهم بقوله:

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (١) .

وعرف الله فيهم أنهم أهل لهذا الثناء ، فأثنى عليهم فى محكم تنزيله .

٨ - وآخر ما نقوله عن هذا المجتمع الجديد أنه تشكل فى غياب القائد الأعظم محمد ﷺ ، وبإشراف النقباء الاثنى عشر الذين كانوا فى كفالتهم لقومهم ككفالة

الحواريين لعيسى ابن مريم ، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى التى وصلت المدينة . والـذين استقـوا جميعاً من النبع النبوى الثر . واقتبسوا من هديه ـ عليه الصلاة والسلام . ولم تثر فيه المشكلات والمنازعات التى يمكن أن تقوم فى أى مجتمع وليد . لقد كانت روح الإسلام العالية هى التى تحكم هذا المجتمع ، فلم تتجدد عوامل الصراع بين الأوس والخزرج التى كانت تملأ مجتمع يثرب قبل قيام المجتمع الإسلامى ، ولم تنشأ فيه عوامل الصراع بين المهاجرين والأنصار التى يمكن أن ترافق أى مجتمع جديد تدخله عناصر جديدة لها احتياجاتها ، ولها عاداتها ، ولها آمالها وطموحاتها . لقد مثّل الفريقان أعلى صور التلاحم والحب والود فى هذا المجتمع الناشئ على ضوء الهدى النبوى ، والنور المحمدى الذى نهلوا منه واستضاؤوا به .

فـالأنصار قد عاهدوا وبايعوا على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، وعلى النفقة فى العسر واليسر . وعلى ألا ينازعوا الأمر أهله ، وعلى أن يحموه وصحبه مما يحمون منه نساءهم وأولادهم ، وكان هذا الأمر صريحا كما فى رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(وعن أبى مسعود قال : وعدنا رسول الله ﷺ فى أصل العقبة يوم الأضحى ونحن سبعون رجلاً . قال عقبة : إنى أصغرهم سناً . فأتانا رسول الله ﷺ فقال : «أوجزوا فى الخطبة ؛ فإنى أخاف عليكم كفار قريش » . فقلنا: يا رسول الله ، سلنا لربك وسلنا لنفسك وسلنا لأصحابك ، وأخبرنا ما لنا من الثواب على الله تبارك وتعالى وعليك . قال :

« أما الذى أسأل لربى أن تؤمنوا به ولا تشركوا به شيئاً ، وأما الذى أسأل لنفسى أسألكم أن تطيعونى أهدكم سبيل الرشاد ، وأسألكم لى ولأصحابى أن تواسونا فى ذات أيديكم وأن تمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة وعلى. فمددنا أيدينا فبايعناه) [(٢)] .

فالمواساة للأصحاب المهاجرين إذن جزء من بيعة العقبة التى تمت ، وهى شرط لدخول الجنة .

والمهاجرون مضوا بأمر رسول الله ﷺ إلى الموطن الجديد حيث حدده ﷺ كما

---

(١) التوبة / ١٠٨ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/٤٧ وقال فيه : « رواه الطبرانى ، وفيه مجالد بن سعيد وحديثه حسن وفيه ضعف ، وروى أحمد مثله مرسلاً عن الشعبى ورجاله رجال الصحيح » .

تقول رواية البخارى :

« إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين »[1] . وهما الحرتان .

وبعد تحديد المكان انطلقت أفواج المهاجرين من مكة ومن الحبشة مكان التجمع الثانى للمسلمين .

(فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة . وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى » . فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : « نعم » . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه[2] .

فقد كانت القناعات الأولى للمسلمين ، أن احتمال بقاء رسول الله ﷺ فى مكة قائم. فقد هاجر المسلمون إلى الحبشة هجرتين ولم يمض رسول الله ﷺ إليها ، وبلغ عدد المهاجرين إلى الحبشة ما ينوف عن الثمانين ، وبقى فى مكة ما لا يزيد عن بضعة وعشرين ، ومع ذلك لم يهاجر ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الحبشة .

وحين حدّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكان الهجرة لأصحابه لم يذكر لهم أنه سيكون معهم ، ومن أجل هذا تجهز الصديق للهجرة ليقوم مع إخوانه ببناء المجتمع الإسلامى الجديد لولا أن قائده ـ عليه الصلاة والسلام قال له :

« على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى » وفوجئ أبو بكر بهذا المعنى حتى ليقول الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : «نعم» .

وإذا كان الصديق رضي الله عنه الوزير الأول لا يدرى : يهاجر رسول الله ﷺ أم لا . فلا بدع ألا يعرف أحد ذلك . ففى رواية البراء بن عازب رضي الله عنه كما أوردها البخارى :

(أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم . وكانوا يقرئون الناس . وزاد فى رواية عبد الله بن رجاء : فقلنا له : ما فعل رسول الله ﷺ . فقال : هو مكانه وأصحابه على أثرى) .

فقد كان المهاجرون والأنصار على ما لديهم من علم أن رسول الله ﷺ مكانه ، وأن عليهم مسؤولية إقامة المجتمع الإسلامى الجديد ، وذلك بعد أن اجتمع سراة المهاجرين والأنصار فى المدينة .

(١، ٢) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٣١ ح ٣٩٠٥ .

٩ - ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية ، فقد كان إمام المسلمين فيه سالم مولى أبى حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

قال البخارى : مولاته امرأة من الأنصار . وقال ابن حبان : يقال لها ليلى ، ويقال بثينة بنت يعار ، وكانت امرأة أبى حذيفة . . أعتقته سائبة فوالى أبا حذيفة . وكان أبو حذيفة قد تبناه كما تبنى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة . فكان أبو حذيفة يرى أنه ابنه ، فأنكحه ابنة أخته فاطمة بنت الوليد بن عتبة . فلما أنزل الله : ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ** ﴾(١) ، رد كل أحد تبنى ابناً من أولئك إلى أبيه ، ومن لم يعرف أبوه رد إلى مواليه . أخرجه مالك فى الموطأ ،عن الزهرى ، عن عروة بهذا . وفيه قصة إرضاعه .

وروى البخارى من حديث ابن عمر : كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأولين فى مسجد قباء فيهم أبو بكر (٢) وعمر . وأخرجه الطبرانى من طريق هشام بن عروة عن نافع ، وزاد : وكان أكثرهم قرآناً) (٣) .

وروى البيهقى فى الدلائل عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال :

(قدمنا من مكة فنزلنا العصبة : عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسالم مولى أبى حذيفة ، فكان يؤمهم سالم مولى أبى حذيفة ؛ لأنه كان أكثرهم قرآناً) (٤) .

ولاعجب فى ذلك فرسول الله ﷺ قال : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل » (٥) .

فهذا المجتمع الذى يوجد فيه علية أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار ، وسادة العرب من قريش والأوس والخزرج يقوده ويؤمه حامل القرآن : سالم مولى أبى حذيفة بن عتبة - رضى الله عنهما . والكرامة العليا فيه لقارئ كتاب الله وحامله .

وحامل القرآن فى المجتمع الإسلامى هو نفسه حامل اللواء فى الحرب ، فليس بينهما ذلك الانفصام الذى نشهده اليوم بين حملة القرآن من الحفاظ ، وبين المجاهدين فى سبيل الله .

---

(١) الأحزاب / ٥ .

(٢) المعروف أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصل مع رسول الله ﷺ إلى قباء ولعل ذلك تم فى غياب النبى ﷺ.

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٢ ح٣ / ٥٦ .

(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤٦٣ .

(٥) رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، والترمذى .

فقد روى ابن المبارك (أن لواء المهاجرين كان مع سالم ـ فى معركة اليمامة ـ فقيل له فى ذلك . فقال : بئس حامل القرآن أنا ـ يعنى إن فررت ـ فقطعت يمينه ، فأخذه بيساره ، فقطعت ، فاعتنقه إلى أن صرع . فقال لأصحابه : ما فعل أبو حذيفة ـ يعنى مولاه ـ قيل : قتل . قال : فاضجعونى بجبنه) [1] .

١٠ ـ وأخيراً نقول عنه : إنه مجتمع الصحابة الذين كانوا لا يرون شيئاً فى الدنيا يعدل فضل هذه الصحبة ، فكانت حياتهم امتداداً لحياة رسول الله ﷺ ، وكانوا يستمدون من تربيته الصلة به ولو للحظات ، زاداً يمدهم طيلة الحياة ، ومع ذلك عندما اقتضى أمر الدعوة وأمر إقامة المجتمع المسلم أن يفارقوا رسول الله ﷺ إلى المدينة . لم يتأخر منهم أحد حتى الصدّيق نفسه رضي الله عنه أعدّ نفسه لذلك ، لولا أن حبسه رسول الله ﷺ هو وعلى بن أبى طالب ، ونشهد فقههم لهذه الصحبة ، ومدى تأثرهم بها،وتغلغلها فى أعماقهم من خلال هذا الحوار بين عمر وأبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنهما .

(فعن أبى بردة بن أبى موسى قال: قال لى عبد الله بن عمر : هل تدرى ما قال أبى لأبيك . قال : قلت : لا . قال : فإن أبى قال لأبيك : يا أبا موسى. هل يسرك إسلامنا مع رسول الله ﷺ ، وهجرتنا معه ، وجهادنا معه ، وعملنا كله معه برد لنا[2]. وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأس برأس؟ فقال أبى: لا والله ، قد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً وأسلم على أيدينا بشر كثير ، وإنا لنرجو ذلك . فقال أبى : لكنى أنا والذى نفس عمر بيده لوددت أن ذلك برد لنا وأن كل شىء عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس . فقلت :

إن أباك والله خير من أبى) [3] .

أقول بالرغم من هذه القناعات عندهم ، فقد مضوا ميممين صوب المدينة إلى إخوانهم من الأنصار ، كما التحق الأنصار المهاجرون الذين كانوا يقيمون فى مكة بالمدينة كذلك .

قال ابن سعد : (وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ فى العقبة الآخرة ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه فى الهجرة . فهم مهاجرون أنصاريون وهم : ذكوان بن

---

(١) الإصابة فى تميز الصحابة م٢ ج٣ / ٥٧ . (٢) برد لنا : سلم لنا .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٧ / ٢٥٤ ح ٣٩١٥ .

عبد قيس بن خلدة الزرقى ، وعقبة بن وهب ، والعباس بن عبادة بن نضلة ،وزياد بن لبيد بن ثعلبة الخزرجى البياضى) [1] .

وهكذا انتقل المجتمع الإسلامى كله إلى المدينة . ومضى ينتظر قائده الأعلى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليعلن ولادة الدولة الجديدة .

(١) سنبل الهدى والرشاد ٣ / ٣١٩ .

القيادة العظمى
تنتقل إلى المدينة

سنعرض فى هذا الفصل الوقائع الكبرى لهجرة المصطفى ﷺ ، وما أكرمه الله تعالى به من الآيات الباهرات فيها. وسيكون الأصل هو عرض الأحداث كما تمت دون تعليق . إلا ما له مساس بالتربية القيادية النبوية ؛ وذلك حتى تكتمل حلقة العرض ولا تفوتنا روعة الحادثة وجمالها الآسر الذى يعطينا كنوزاً جديدة من كنوز العطاء الربانى لمحمد رسول الله ﷺ .

١ ـ ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) :

روى ابن إسحاق وعبد الرزاق والإمام أحمد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن عباس ، وعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ، والبيهقى عن ابن إسحاق : أن قريشاً لما رأت أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم نزلوا داراً وأصابوا جواراً ومنعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ وعرفوا أنه أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له فى دار الندوة ، وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ـ يتشاورن فيها ما يصنعون فى أمر النبى ﷺ حين خافوه ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة ، فاعترضهم إبليس ـ لعنه الله ـ فى هيئة شيخ جليل عليه بت له (٢) .

فوقف على باب الدار . فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى ألا تعدموا منه رأياً ولا نصحاً . قالوا : أجل ، فادخل . فدخل معهم . وقد اجتمع فيها من أشراف قريش (من بنى عبد شمس) : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ـ وأسلم بعد ذلك ـ و (من بنى نوفل بن عبد مناف) طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ـ وأسلم بعد ذلك ـ والحارث بن عامر بن نوفل (من بنى عبد الدار) والنضر بن الحارث بن كلدة ، و (من بنى أسد بن عبد العزى) : أبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود ـ وأسلم بعد ذلك ، وحكيم بن حزام ـ وأسلم بعد ذلك .

---

(١) الأنفال / ٣٠ .

(٢) البت :الكساء الغليظ المربع وقيل : الطيلسان من خز .

و (من بنى مخزوم) : أبو جهل بن هشام، و (من بنى سهم) : نُبيه ومنبه ابنا الحجاج، و (من بنى جمح) أمية بن خلف ، ومن كان معهم وغيرهم من لا يعد من قريش .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً . قال : فتشاوروا ثم قال قائل منهم : ـ نقل السهيلى عن ابن سلام أنه أبو البخترى بن هشام ـ أحبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله : زهيراً، والنابغة ، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدى : ـ لعنه الله ـ لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم . ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : ـ ذكر السهيلى أنه أبو الأسود ربيعة بن عمرو أحد بنى عامر بن لؤى ـ نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا . فإذا خرج عنا فو الله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . وبزوا فيه رأياً غير هذا فقال أبوجهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً ، ثم يعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه بأجمعهم فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرّق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم . فقال الشيخ النجدى أخزاه الله : القول ما قال الرجل. هذا الرأى لا رأى غيره .

وذكر ابن الكلبى فى الجمهرة أن إبليس لما حمد رأى أبى جهل قال :

الرأى رأيان رأى ليس يعرفه هادٍ ورأى كنصل السيف معروف
يكون أوله عز ومكرمة يوماً وآخره جدٌ وتشريف

وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم وأذن الله تعالى له بالخروج . فلما كانت العتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم ، قال لعلى بن أبى طالب : « نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم» . وكان رسول الله ﷺ ينام فى برده ذاك إذا نام .

فلما اجتمعوا قال أبو جهل بن هشام : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم . فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن أنتم لم تفعلوا كان فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها .

فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال : « نعم أنا أقول ذلك وأنت أحدهم » . وأخذ الله ـ عز وجل ـ أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل يذرى ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات : ﴿ يسٓ . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ . . . فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع رسول الله ﷺ على رأسه تراباً . ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا: محمداً . قال : خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته . أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب . ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده. فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا . فقام على رضي الله عنه من الفراش . فقالوا : والله لقد صدقنا الذى كان حدّثناه . وذهب رسول الله ﷺ إلى غار ثور (٢) .

وعن عروة قال : (ومكث رسول الله ﷺ بعد الحج بقية ذى الحجة والمحرم وصفر، ثم إن مشركى قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج ، وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة ، وبلغهم إسلام الأنصار ، ومن خرج إليهم من المهاجرين . فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ ، فإما

---

(١) يس / ١ ـ ٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٣٢٤ ـ ٣٢٧ .

أن يقتلوه ، وإما أن يسجنوه ، وإما أن يحبسوه ـ وشك عمرو بن خالد ـ وإما أن يخرجوه وإما أن يوثقوه . فأخبره الله عز وجل بمكرهم فقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾(١) ، وبلغه ذلك اليوم الذى أتى فيه رسول الله ﷺ دار أبى بكر أنهم مبيتوه إذا أمسى على فراشه . وخرج من تحت الليل هو وأبو بكر قبل الغار بثور . وهو الغار الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن ، وعمد على بن أبى طالب فرقد على فراشه يوارى عنه العيون ، وبات المشركون من قريش يختلفون ويأتمرون : أن نجثم على صاحب الفراش فنوثقه . فكان ذلك حديثهم حتى أصبحوا فإذا على يقوم عن الفراش فسألوه عن النبى ﷺ فأخبرهم أنه لا علم له به . فعلموا عند ذلك أنه خرج . فركبوا فى كل وجه يطلبونه وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ، ويجعلون لهم الجعل العظيم) (٢) .

ونستمع إلى عائشة ـ رضى الله عنها ـ تعطينا طرفاً من هذه الهجرة : قالت :

(لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة . . . .) .

والنبى ﷺ يومئذ بمكة . فقال النبى ﷺ :

« إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين » ، وهما الحرتان ، فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر . فقال له رسول الله ﷺ : « على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى » . فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : « نعم » .

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر . قال ابن شهاب ،قال عروة ، قالت عائشة :

فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً فى ساعة لم يكن يأتينا بها ـ فقال أبو بكر : فداءٌ له أبى وأمى ، والله ما جاء فى هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له فدخل .فقال النبى ﷺ لأبى بكر : « أخرج من كان عندك » . فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله ، قال : « فإنى قد أُذن لى فى الخروج » فقال

---

(١) الأنفال / ٢٠

(٢) الجعل :الأجرة . مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ٥١ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى مرسلاً ، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام وحديثه حسن » .

أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال أبو بكر: فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى راحلتى هاتين. قال رسول الله ﷺ : «بالثمن» قالت عائشة : فجهزناهما أحثّ الجهاز ،وصنعنا لهما سفرة فى جراب .

فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق . قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل ثور . فكمنا فيه ثلاث ليالٍ ، يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام ، شاب ، ثقف ، لقن . فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت .فلا يسمع أمراً يكتادان به (١) إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء . فيبيتان فى رسل (٢) . وهو لبن منحتهما ورضيفهما (٣) .

حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث . واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الديل ، وهو من بنى عبد بن عدى هادياً خريتًا ـ والخريت ـ الماهر بالهداية ، قد غمس حلفاً فى آل العاص ابن وائل السهمى ، وهو على دين كفار قريش فأمناه . فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل) (٤) .

٣ ـ وفى رواية عن أسماء ـ رضى الله عنها ـ قالت : (صنعت سفرة للنبى ﷺ وأبى بكر حين أرادا المدينة . فقلت لأبى : ما أجد شيئاً أربطه إلا نطاقى ، قال : فشقيه . ففعلت ، فسميت ذات النطاقين،وقال ابن عباس : أسماء ذات النطاق) (٥) .

٤ ـ وعن أبى بكر رضي الله عنه قال : (كنت مع النبى ﷺ فى الغار ، فرفعت رأسى فإذا أنا بأقدام القوم . فقلت : يا نبى الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا . قال: « اسكت أبا بكر ،اثنان الله ثالثهما ») (٦) .

٥ ـ قال ابن إسحاق : (فحدثنى من لا أتهم ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

---

(١) يكتادان به : يدبر لهما من الكيد . (٢) الرسل : اللبن الطرى .
(٣) رضيفهما : اللبن المرضوف الذى وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس لينعقد وتزول رخاوته .
(٤) فتح البارى ٧ / ٢٣٠ ح ٣٩٠٥ . (٥) المصدرنفسه ٧ / ٢٤٠ ح ٣٩٠٧ .
(٦) المصدر نفسه ٧ / ٢٥٧ ح ٣٩٢٢ .

كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة وإما عشية . حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ﷺ فى الهجرة ، والخروج من مكة من بين ظهرى قومه . أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها، فلما رآه أبو بكر قال :ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت : فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره . فجلس رسول الله ﷺ ، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر . فقال رسول الله ﷺ : « أخرج عنى من عندك » . فقال : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاى ، وما ذاك ؟ فداك أبى وأمى ! فقال : « إن الله قد أذن لى بالخروج والهجرة » . قالت : فقال أبو بكر :الصحبة يا رسول الله ؛ قال : « الصحبة » . قالت : فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ . ثم قال : يا نبى الله ، إنَّ هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن أريقط . رجلاً من بنى الدئل بن بكر . وكانت أمه امرأة من بنى سهم بن عمرو ، وكان مشركاً يدلهما على الطريق . فدفعا إليه راحلتيهما . فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغنى ، بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا على بن أبى طالب وآل أبى بكر الصديق . أما على فإن رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ليس بمكة شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ .

فلما أجمع رسول الله الخروج ، أتى أبا بكر بن أبى قحافة فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار بثور - جبل - بأسفل مكة - فدخلاه : وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبى بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

قال ابن هشام : وحدثنى بعض أهل العلم : أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال : انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية . يقى رسول الله ﷺ بنفسه.

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى

قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به وما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر رضي الله عنه يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليها غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا عبد الله ابن أبى بكر غدا من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيره أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه بعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنها - بسفرتهما ونسيت أن تجعل لها عصاماً . فلما ارتحلت ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصاماً . ثم علقتها به . فلما قرب أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما ، ثم قال : اركب، فداك أبى وأمى ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى لا أركب بعيراً ليس لى » ، قال : فهى لك يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ؛ قال: « لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ » قال : كذا وكذا . قال : « قد أخذتها به » . قال: هى لك يا رسول الله فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ، ليخدمهما فى الطريق) (١) .

٦ - قال ابن إسحاق : فحدثت عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : (لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر . فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ قالت: قلت: لا أدرى والله أين أبى ؟ قالت : فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى . قالت : ثم انصرفوا . فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرويه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها ، للمؤمنين بمرصد

فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ وأن وجهه إلى المدينة . وكانوا أربعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٤٢ - ١٤٥ ، قال المحقق فيه : رواه البخارى ج ٢ ص ١٤١٨ والإمام أحمد فى مسنده ، والبيهقى فى الدلائل ، والطبرى فى التاريخ .

وعبد الله بن أريقط دليلهما) [1] .

٦ ـ قال ابن إسحاق : (فحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عباداً حدثه عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت : لما خرج رسول الله ﷺ ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف . فانطلق بها معه. قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قال : قلت : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده . فقلت يا أبت ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه . قال : لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن . وفى هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى قد أردت أن أسكن الشيخ بذلك) [2] .

١ ـ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [3] .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [4] .

لقد اجتمعت القيادات فى مكة بما فيهم بنو عبد مناف ، ولم يتخلف إلا بنو هاشم وبنو المطلب الذين يمثلون الحزب الهاشمى المؤيد لرسول الله ﷺ . وكان من الصعوبة بمكان أن يجمعوا على قتل النبى ﷺ . وكان من الممكن أن يتفرقوا دون الوصول إلى رأى محدد ؛ لأن التيارات موزعة بين المتعاطفين مع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذين يريدون أن يخرج سالماً من أرضهم إلى حيث يحب . وتنتهى الفتنة فى الداخل. وهو الذى مثله الرأى القائل :

(نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت) .

ثم كان الرأى الوسط الذى يريد أن يحسم الأمر بحبسه، وهو الذى قال : احبسوه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٤٥ ، وقال المحقق فيه : صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع . ورواه الطبرى فى التاريخ من طريق ابن إسحاق فيكون الخبر ضعيفا .

أقول : غير أن الإمام الزرقانى قال : لكن رواه الحافظ أبو الفتح اليعمرى متصلا عن طريق هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء قالت . وهذا ما يدفع الضعف عنه . انظر : المواهب ١ / ٣٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٤٦ ، ١٥٢ ، وقال المحقق فيه : وسنده متصل ، وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٥٩ : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ».

(٣) الأنفال / ٣٠ . (٤) الأنعام / ١١٢ .

فى الحديد . وأغلقوا عليه باباً . ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله : زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

وكان من العسير جداً أن يفوز الرأى المتطرف الداعى إلى قتل رسول الله ﷺ. وذلك لو تمت المحادثات البعيدة عن كل إيحاء . غير أن وجود الشيطان الرجيم هو الذى عدّل الموقف لصالح أكابر المجرمين أبى جهل وصحبه . وسفه الرأيين الآخرين .

لقد حضر الشيطان الأكبر إبليس لعنه الله هذا المحضر ، بهيئة شيخ من نجد . قال السهيلى : (إنما قال لهم إبليس لعنه الله : إنه من أهل نجد ، لأنهم قالوا : لايدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم مع النبى ﷺ ،لذلك تمثل لهم فى صورة شيخ نجدى) (١) .

وكان من بين الحاضرين ثلاثة ممن ساهموا فى نقض الصحيفة الظالمة . وهم : أبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وجبير بن مطعم ولد المطعم بن عدى . وفيهم من بنى عبد مناف : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب . غير أن شيطانى الإنس والجن قد تمالآ وتساندا حتى نجح رأى القتل .

وطبيعة الشيطان دائماً يصغر ويحقر عندما يرى الملائكة . ففى بدر عن رسول الله ﷺ :

ما رأى إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة، وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلاما رأى يوم بدر . قالوا : يارسول الله ، ومارأى يوم بدر ؟ قال :

« أما إنه رأى جبريل - عليه السلام - يزع الملائكة » (٢) .

فجبريل - عليه الصلاة والسلام - سيد الملائكة يرسله الله تعالى إلى محمد - سيد رسل الله - ليبطل مكر إبليس وأبى جهل ، ويعلمه ألا يبات على فراشه هذه الليلة. ذروة الشر فى الأرض تقرر القتل لسيد الخلق ، فيتنزل سيد الملائكة إليه ليحبط كيد العدوين اللدودين فى قضية القتل ويحول دون قتله .

٢ - وتشاء إرادة الله تعالى ألا يتم الأمر إلا بالصغار والذل لهؤلاء العتاة وعلى رأسهم فرعون هذه الأمة. فقد كان بالإمكان أن يغادر رسول الله ﷺ بيته منذ الظهيرة ،

(١) سبل الهدى والرشاد / ٣ / ٣٢٩ ، ورواية حضور إبليس لعنه الله مع قريش فى دار الندوة كما رواها ابن إسحاق . ذكر محقق الحديث فى السيرة : أن الحديث منقطع . لكن له سنداً صحيحاً فى تاريخ الطبرى عن مجاهد ومتصلاً بابن عباس ج٢ ص ٣٦٩ / ٣٧٢ .فيكون الخبر صحيحاً من طريق مجاهد .

(٢) مرسل ورجاله ثقات .

وقد غادره فعلاً ، وأعلم الصديق رضي الله عنه بقراره . لكن الإرادة الربانية أن يعود إلى بيته ويغادره فى قلب السيوف المصلتة ، والأفئدة المتلظية حقداً عليه ﷺ كى يعرف كل واحد منهم أنه ذليل وأن الله تعالى مانع نبيه منهم . ويضع على رأس كل واحد منهم تراباً شارة الذل والصغار لهم .

والآية القرآنية تشير تماماً إلى هذا المعنى : ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين** ﴾ (1) .

٣ ـ وآن الأوان للفتى الهاشمى على بن أبي طالب أن يأخذ موقعه الجديد بعد تربية ثلاثة عشرعاماً . وهذا الموقع الذى يجعله بحق رجل المهمات الصعبة فهو اليوم قد ناهز العشرين من عمره . ولابد أن يكون الفدائى الأول لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ويأخذ دور الصديق في ذلك ، فقد كان الصديق وابن أبى طالب هما الصحابيان الوحيدان اللذان أشركا فى خطة الهجرة . وترك على رضي الله عنه وحده بين براثن العدو وفى حد سيوفه ، وجفن الردى كما يقول المتنبى . ويتم صفعة السخرية بالجبارين الطغاة من قريش ، فيبقى نائماً فى فراش رسول الله ﷺ إلى الفجر ، وهم يحسبونه رسول الله ﷺ حتى يمضى مع صديقه آمناً إلى غار ثور .

وليست هـذه المهمـة الـوحيدة التى أوكلت إلى الفـتى الهاشمى رضي الله عنه فقد أوكل إليه أن يبقى ثلاثـة أيـام بين يـدى العدو يؤدى الأمانات إلى أهلها قبل أن يمضى مهاجراً خلف حبيبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولئن ضمنت سلامته ليلة المبيت فى الفراش :

« نم على فراشى ، وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم » . فلن تضمن سلامته وهو ينتقل بين يدى الحاقدين والمجرمين ثلاثة أيام ليؤدى المهمة الصعبة عن رسول الله ﷺ بعد خروجه ، ويعيد الأمانات إلى أصحابها ، ثم يمضى وحيداً فى هذه البيد يقطع الفيافى والقفار وتقطع رجلاه وتدمى قدماه حتى يصل إلى سيده ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد نفذ المهمة كاملة وهو يتربى فى الوقت نفسه على المواجهة ، وعلى ثقل المسؤولية ، وعلى عظمة الأمانة التى تجعله محفوفاً بالأخطار حتى يؤديها .وهو المكلف بعدها بالهجرة والحذر ، فهو قائد منذ هذه اللحظة وليس جندياً فقط ترسم له خطة الهجرة . وترسم له جزئيات التحرك فى مكة ، وترسم له احتمالات المواجهة مع العدو . لقد ألقى به فى قلب العدو ، وترك وحده يتصرف فى أول تجربة وأعنف تجربة يخوضها رضي الله عنه ولأول مرة فى

---

(1) الأنفال / ٣٠ .

حياته.

٤ ـ ومن أصغر جند محمد ﷺ وقادته على ، إلى أكبر جنده وقادته الصديق تبرز عظمة التربية النبوية . فقد كانت الإشارة النبوية فقط إلى الوزير الأول :

« على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى » : أو :

« لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً » .

وذلك ليبدأ فى الإعداد والتخطيط للهجرة . (فابتاع راحلتين فاحتبسهما فى داره يعلفهما إعداداً لذلك) ، وفى رواية البخارى : (فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر) .

لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه وهو الذى تربى ليكون قائداً ، أن لحظة الهجرة لحظة صعبة قد تأتى فجأة ، فلابد من الإعداد لها من الآن ، وفعلاً جاءت فى اليوم نفسه . حيث أُبلغ بالأمر فى الظهيرة . وكان تحركهما فى الليل ، كما أن الروايات لم تشر من الذى استأجر الدليل ، ولا نشك فى أنه الصدّيق رضي الله عنه فهو الذى رسم خطة اللقاء معه بعد استئجاره وذلك بعد ثلاثة أيام فى مكان محدد ووقت محدد ، ولا نشك كذلك فى أن هذا الاستئجار ليس وليد اللحظة ، بل هو مدروس من قبل ، خاصة وأنه مشرك ، ولا يمكن أن تتم المغامرة بهذه البساطة دون التأكد التام من استئمانه على ذلك. إنه الصديق القائد الذى تحمل عن قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمثال هذه الجزئيات من شراء الدابة وشراء علفها ، وإعدادها للتحرك والبحث عن الدليل المناسب،واستئجاره. فهو لن يشغل قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك بل قام رضي الله عنه بكل ما تحتاج له الهجرة . وعلم من سيده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكرة الاتجاه إلى الغار والإقامة فيه ، وكان عليه أن يتم كل جزئيات الخطة خلال الإقامة فى الغار . فأسماء تنقل الزاد ، وابنه عبد الله يتحسس أخبار قريش كل يوم ، ويقدم التقرير الليلى كاملاً بعد انفضاض مجالس قريش ، ومولاه عامر بن فهيرة رضي الله عنه يعض على آثار أقدام عبد الله وأسماء ، كما يقدم بعض معلومات الرعاة ويسقى لهما من لبن شائه .

فالقائد الأعظم ﷺ الذى ربى هذا الجيل ليتحمل مسؤوليته كاملة ، وربى الصديق بالذات ليكون أمين سره ، ووزيره الأول الذى يقوم برسم الخطة وتحديد جزئياتها ومتابعة تنفيذها . وها هو رضي الله عنه وقد اقتربا من الغار ، يرفض أن يدع حبيبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدخل الغار قبل أن يقوم بكل وسائل الحماية بشخصه وذاته حين لا

يكون إلا شخصه. كما روى ابن هشام عن الحسن البصرى - رحمه الله - انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية يقى رسول الله ﷺ بنفسه) .

٥ - وشاءت إرادة الله عز وجل بعد هذا التخطيط كله أن يصل العدو إلى الغار ، وأن يصل إلى آخر الأقدام هناك . كما يقول الصديق رضي الله عنه : وكنت مع النبى ﷺ فى الغار ، فرفعت رأسى فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت : يا نبى الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا . قال : « اسكت أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما » .

﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (١) .

وإن أوجس فى نفسه خيفة موسى ، وأوجس فى نفسه خيفة الصديق على نبيه العظيم . فقد كان القلب الموصول بالله هو الذى يسرِّى عن الصديق بنص القرآن الكريم: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٢).

وجاء نصر الله الجديد إلى الغار ليواجه هؤلاء الطغاة المتجبرين .

لم تأت قوة ضخمة من الفدائيين المسلمين لتواجه أبطال قريش . وتقع بينهما معركة عنيفة ، ولم تأت قوة ضخمة من الحزب الهاشمى يقودها شباب بنى هاشم وبنى المطلب.

جاء جيش الله تعالى المكون من الحمامتين والعنكبوت ، أَوْهَى خلق الله وأضعفه ليصد هؤلاء الجبابرة ويهزمهم ، ووقعت الهزيمة :

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

(روى ابن سعد وأبو نعيم والبيهقى وابن عساكر ، عن أبى مصعب المكى قال:

أدركت أنس بن مالك ، وزيد بن أرقم ، والمغيرة بن شعبة يتحدثون ؛ أن النبى ﷺ ليلة الغار أمر شجرة فنبتت فى وجه رسول الله ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا فى فم الغار ، وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم حتى إذا كانوا من النبى ﷺ على أربعين ذراعاً جعل بعضهم ينظر إلى الغار فلم ير إلا حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فرجع إلى أصحابه فقالوا له : مالك ؟قال : رأيت

---

(١) طه / ٤٦ .

(٢) التوبة / ٤٠ .

حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد فسمع النبى ﷺ ما قال : فعرف أن الله قد درأ عنه بهما ، فبارك عليهما النبى ﷺ وفرض جزاءهن وانحدرتا فى الحرم فأفرخ ذلك الزوج كل شىء فى الحرم .

وروى الإمام أحمد بسند حسن ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : أن المشركين قصوا أثر رسول الله ﷺ ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت فمكث فيه ثلاثة أيام .

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن سعيد القاضى ـ شيخ النسائى ـ فى مسند الصديق عن الحسن البصرى قال :

جاءت قريش يطلبون النبى ﷺ ، وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا : لم يدخله أحد ، وكان النبى ﷺ قائماً يصلى وأبو بكر يرتقب . فقال أبو بكر: يا رسول الله ، هؤلاء قومك يطلبونك ، أما والله ما على نفسى أبكى . ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره . فقال له النبى ﷺ : « لاتخف إن الله معنا » .

وروى الإمام أحمد ، والشيخان ، عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قال : قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » . وروى أبو نعيم فى الحلية عن عطاء بن ميسرة قال : نسجت العنكبوت مرتين : مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ، ومرة على النبى ﷺ فى الغار .

وذكر البلاذرى فى تاريخه وأبو سعيد فى الشرف : أن المشركين استأجروا رجلاً يقال له : علقمة بن كرز بن هلال الخزاعى ، وأسلم عام الفتح فقفا لهم الأثر ، حتى انتهى إلى غار ثور وهو بأسفل مكة فقال : ها هنا انقطع أثره ولا أدرى أخذ يميناً أم شمالاً أم صعد الجبل ، فلما انتهوا إلى فم الغار قال أمية بن خلف : ما أربكم فى الغار؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد، ثم جاء فبال .

وروى البيهقى ، عن عروة أن المشركين لما فقدوا رسول الله ﷺ ركبوا فى كل وجه يطلبونه ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم به ، ويجعلون له الجعل العظيم ، وأتوا على ثور ـ الجبل الذى فيه الغار ـ الذى فيه النبى ﷺ حتى طلعوا فوقه وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم،فأشفق أبو بكر وبكى، وأقبل عليه الهم والحزن والخوف . فعند ذلك يقول رسول الله ﷺ : « لا تحزن إن الله معنا » ، ودعا رسول الله ﷺ فنزلت السكينة من الله تعالى . وروى ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن

عساكر عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ . . ﴾ (١) قال: عَلَى أبى بكر ؛ لأن النبى ﷺ لم تزل السكينة معه) .

وروى أبو نعيم ، عن أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ أن أبا بكر رأى رجلاً مواجهاً الغار ، فقال : يا رسول الله ، إنه يرانا . قال : « كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها » ، فلم ينشب أن قعد يبول مستقبلنا . فقال رسول الله ﷺ : «يا أبا بكر ، لو كان يراك ما فعل هذا » . ويرحم الله الشرف البوصيرى حيث قال :

أخرجوه منها وآواه غار   وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت   ماكفته الحمامة الحصداء

وحيث قال :

فالصدق فى الغار والصديق لم يردا   وهم يقولون ما بالغار من أرم(٢)
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على   خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عالٍ من الأطم

وروى ابن عدى وابن عساكر ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لحسان :
« هل قلت فى أبى بكر شيئاً ؟ » قال: نعم . قال : « قل وأنا أسمع » . فقال :

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة   فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
التالى الثانى المحمود شيمته   وأول الناس طراً صدَّق الرسلا
والثانى اثنين في الغار المنيف وقد   طاف العدو به إذ صَعَّد الجبلا
وكان حِب رسول الله قد علموا   من البرية لم يعدل له رجلا

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال : « صدقت يا حسان ، هو كما قلت » (٣) .

٦ ـ لقد كان الصدّيق القائد ، والوزير الأول ، يتلقى هذه التربية وهم فى الغار . وهو ثانى اثنين . فهو الرجل الأول فى الإسلام . بشهادة القرآن العظيم . فهو ثانى اثنين لرسول الله ﷺ ، وهو الذى نصر رسول الله ﷺ من دون الناس جميعاً ، وهو الذى تلقى مع حبيبه المصطفى ﷺ نصر الله حين قاد الشيطان جنده لقتله ـ عليه الصلاة

---

(١) التوبة / ٤٠ .   (٢) من أرم : من أحد .
(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٣٤٠ ـ ٣٤٢ .

والسلام ـ ونزلت السكينة على قلب الصدّيق ليرتفع إلى مستوى صاحبه الذى كان أثقل من الجبال ثقة بالله تعالى وهو يقول لصاحبه : « لا تحزن إن الله معنا » .

ويقول لصاحبه الصديق : يا رسول الله ، إنه يرانا .

قال : « كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها » : وأراه الدليل العملى حين قام يبول مواجهاً لهما . ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [1] . والملائكة حفت من فوق سبع سموات ؛ خوفاً على نبيها ، وجاءت لتحميه وكانت هذه من أعجب الحمايات فى التاريخ . فبشهادة القرآن :

﴿ وإن أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ [2] .

لكن هذا البيت الذى أقامته أجادت فيه إجادة ، كانت أعظم من جدارٍ من الباتون المسلح .كما قال أحدهم :

والعنكبوت أجادت نسج حلتها فما تخال خلال النسج من خلل

وفازت العنكبوت بهذا النصر حتى على سابغات الدروع .

وصدق الشاعر إذ يقول :

نسج داود ما حمى صاحب الغار وكان الفخار للعنكبوت

ونعود ثانية إلى الصديق رضي الله عنه ونقف عند كلمة الصاحب .

فرسول الله ﷺ يقول لأبى بكر : « يا أبا بكر لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحباً».

وطمع أبو بكر رضي الله عنه أن يكون ذلك الصاحب . وأعد لهذا الأمر عدته . وعندما جاء رسول الله ﷺ للصديق فى نحر الظهيرة ، وقال الصديق له :

وما ذاك ؟ فداك أبى وأمى ؟ فقال :« إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة » . فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله ؟ قال : « الصحبة » .

تقول عائشة ـ رضوان الله عليها : فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ .

إنها قمة الفرح البشرى ؛ أن يتحول الفرح إلى بكاء ، كما يعبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

---

(١) التوبة / ٤٠ .

(٢) العنكبوت / ٤١ .

ورد الكتاب من الحبيب بأنه سيزورنى فاستعبرت أجفانى
غلب السرور علىّ حتى إننى من فرط ما قد سرنى أبكانى
ياعين صار الدمع عندك عادة تبكين من فرح ومن أحزان

فالصديق رضي الله عنه يعلم أن معنى هذه الصحبة ، أنه سيكون وحده برفقة رسول رب العالمين بضعة عشر يوماً على الأقل ، وهو الذى سيقدم حياته فداءً لحبيبه المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فأى فوز فى هذا الوجود يفوق هذا الفوز : أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض ومن دون الصحبة جميعاً برفقة سيد الخلق وصحبته كل هذه المدة الطويلة .

ولقد أثبت القرآن هذه الصحبة له وحده رضي الله عنه يُتلى من الخلائق ويتُعبد به :

﴿ . . . إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (1) .

وحتى ندرك عظمة هذا التفرد بالصحبة نستمع للفاروق رضي الله عنه وهو الرجل الثانى فى الأمة يتحدث عن ليلة واحدة فقط من هذه الليالى البضعة عشر . فيقول كما روى البيهقى عن ابن سيرين قال :

(وذكر رجال على عهد عمر . فكأنهم فضلوا عمر على أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ لما بلغ ذلك عمر رضي الله عنه قال :

(والله لليلة من أبى بكر خيرمن آل عمر ، وليوم من أبى بكر خير من آل عمر ، وفى رواية : والله لليلة من أبى بكر خير من عُمْر عُمَر .

لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضي الله عنه فجعل يمشى ساعة بين يديه ، وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال : «يا أبا بكر ، مالك تمشى ساعة بين يدىّ وساعة خلفى » . فقال : يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك . فقال : « يا أبا بكر ، لوكان شىء أحببت أن يكون لك دونى ؟ » . قال : نعم ، والذى بعثك بالحق ، ما كانت لتكن من ملمة إلا أحببت أن تكون لى دونك ، فلما انتهيا من الغار ، قال أبو بكر رضي الله عنه : مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار فاستبرأه ، حتى إذا كان فى أعلاه ذكر أنه لم يستبر الجحرة . فقال : مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الحجرة ثم قال : انزل يا رسول الله ، فنزل.

---

(1) التوبة / ٤٠ .

فقال عمر: والذى نفسى بيده ، لتلك الليلة خير من آل عمر) (١) .

فكيف بالفوز بصحبة أكثر من نصف شهر . لا يعكر صفوها أحد ؟

ونتساءل بدورنا ، عم كانا يتحدثان فى هذه الأيام والليالى ، ألم يكن رسول الله ﷺ يعد صاحبه لخلافة هذه الأمة ، ويخطط معه للمرحلة الجديدة القادمة ، مرحلة الدولة المسلمة ، ويتناجيان فى المشاعر والعواطف حتى ليدعو ﷺ لصاحبه كما مر معنا فى بعض الروايات : « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة » .

فهو التفانى فى الصحبة فى الدنيا وفى الآخرة وفى الجنة ، وكم تلقى الصديق رضي الله عنه من تربية وبناء من صاحبه فى هذه الرحلة السعيدة . وكم شهد من آيات باهرات لم يشهدها غيره ؛ مثل العنكبوت . والحمامة ، وكيف لا يرى أحد رسول الله ﷺ ؛ لأن الملائكة تستر هذا الرائى . فتحول بين عيونه وبين رؤية الحبيب المصطفى صلوات الله عليه .

ويمتد فقط السهيلى ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن آثار هذه الصحبة بعيداً فيقول :

(وانتبه أيها العبد المأمور بتدبر كتاب الله تعالى لقوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٢) ، كيف كان معهما بالمعنى وباللفظ . أما المعنى فكان معهما بالنصر والإرفاد والهداية والإرشاد ، وأما اللفظ فإن اسم الله تعالى كان يذكر إذا ذكر رسوله ، وإذا دعى فقيل : يا رسول الله ، أو فعل : رسول الله ، ثم كان لصاحبه كذلك يقال : ياخليفة رسول الله ، وفعل خليفة رسول الله . فكان يذكر معهما بالرسالة والخلافة ، ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون) (٣) .

٧ ـ وكلما ارتفعت الجندية كلما عظمت القيادة .

فالصدّيق رضي الله عنه وهو يمضى مع رسول الله ﷺ يأخذ معه ماله كله وهو خمسة آلاف درهم فى هذه الهجرة السعيدة ، دون أن يبقى فى بيته شيئاً ، وقد وضع ماله كله فى سبيل الله . فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

(أنفق أبو بكر على النبى ﷺ أربعين ألف درهم ـ وفى لفظ دينار ـ ومن ثم قال ﷺ : « ليس من أحد أمن علىَّ فى أهل ومال من أبى بكر » وفى رواية : « ما أحد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤٧٣ . (٢) التوبة / ٤٠ .
(٣) الروض الأنف للسهيلى ٢ / ٢٣٣ .

أمنَّ علىَّ فى صحبته وذات يده من أبى بكر وما نفعنى مال ما نفعنى مال أبى بكر » . فبكى أبو بكر وقال : وهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله ؟ وفى رواية : « وما لأحد عندنا يد إلا قد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً الله يكافئه بها يوم القيامة)(١).

ووضع ابنه وابنته تحت تصرف هذه الخلوة فى الغار يتحسس أحدهما الأخبار . وتأتى الثانية بالزاد ووضع مولاه عامر بن فهيرة تحت تصرف هذه الرحلة، ووضع نفسه وذاته كذلك .

وكانت أسماء على مستوى المسؤولية ، وذلك حين لطمها أبو جهل دون أن تفشى سر رسول الله ﷺ ، وكانت على مستوى المسؤولية حين وضعت الحجارة عوضاً عن المال لتقنع جدها أبا قحافة . أن الصديق أبقى لهم المال المناسب .

وحتى عائشة ـ رضى الله عنها ـ ابنة الثامنة أو التاسعة . كانت أهلاً لتحمل سر رسول الله ﷺ ، والتعرف على خبر الهجرة والصحبة ، ونقلت لنا جزئيات هذه الرحلة الميمونة المباركة .

٨ ـ وبقى عندنا جزيئة نستأنس بها عن هذه المرحلة ، تصل بين على والصديق ـ رضى الله عنهما ـ ما . بحيث تحصر أمر الهجرة بهما فقط ، وبآل أبى بكر ، وتوضح بعض الانقطاع الذى يواجهنا فى الليلة الأولى للهجرة ، وذلك من خلال هذه الرواية التى وردت فى السيرة الحلبية .

(وفى الفصول المهمة أنه ﷺ وصى علياً ـ رضى الله تعالى عنه ـ بحفظ ذمته وأداء أمانته ظاهراً على أعين الناس ،وأمره أن يبتاع رواحل للفواطم) : فاطمة بنت النبى ﷺ ، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، ولمن هاجر معه من بنى هاشم ومن ضعفاء المؤمنين . وقال له :

(إذا أبرمت ما أمرتك به ، كن على أهبة الهجرة إلى الله ورسوله ، وبقدوم كتابى عليك ، وإذا جاء أبو بكر توجهه خلفى نحو بئر أم ميمون) . وكان ذلك فى فحمة العشاء ، والرصد من قريش قد أحاطوا بالدار ينتظرون أن تنتصف الليلة وتنام الناس . ودخل أبو بكر على علىّ وهو يظنه (أى : وأبو بكر يظن علياً رسول الله ﷺ . فقال له على : إن رسول الله ﷺ خرج نحو بئر ميمون وهو يقول لك : أدركنى ، فلحقه أبو بكر ، ومضياً جميعاً يتسايران حتى أتيا جبل ثور فدخلا الغار) (٢) .

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٠٠ .

(٢) السيرة الحلبية ٢ / ٢٠٥ .

ثم نتابع أمر الهجرة بعدها منذ الخروج من الغار إلى دخول المدينة :

الانطلاق من الغار :

(فلما مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه فركبا ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلى ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه ليخدمهما فى الطريق وأخذ بهما الدليل طريق السواحل أسفل من عُسفان ، ثم أجاز بهما حتى عادا من الطريق على أمج .

وروى أبو نعيم من طريق إبراهيم بن سعد ، عن محمد بن إسحاق قال :

بلغنى أن رسول الله ﷺ لما خرج مهاجراً قال : « الحمد الله الذى خلقنى ولم أك شيئا . اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام. اللهم اصحبنى فى سفرى ،واخلفنى فى أهلى ،وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللنى ، وعلى صالح خلقى فقوّمنى ، وإلى ربى فحببنى ، وإلى الناس فلا تكلنى. أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض فكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين . أن يحل بى غضبك أو ينزل علىّ سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك وفجاءة نقمتك وتحول عافيتك ، وجميع سخطك ، لك العتبى خير ما استطعت ولا حول ولا قوة إلا بك » . وروى الإمام أحمد والشيخان ويعقوب بن سفيان ، عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن أباه قال لأبى بكر رضي الله عنه : كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ ؟ قال :

خرجنا ، فأدلجنا ، فأحيينا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا ، وقام قائم الظهيرة . فضربت ببصرى هل أرى ظلاً نأوى إليه بصخرة ؟ فأهويت إليها فإذا بقية ظلها فسويته لرسول الله ﷺ ، وفرشت له فروة ثم قلت : اضطجع يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، ثم خرجت ـ هل أرى أحداً من الطلب ؟ فإذا براع مقبل بغنمه يريد من الصخرة ما أردنا ، فلقيته فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ فقال: لرجل من أهل مكة فسمّاه فعرفته . فقلت : هل فى غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت : هل أنت حالب لى ؟ قال : نعم . فأمرته فاعتقل شاة منها. فقلت : انفض الضرع من التراب والقذى ، فحلب لى فى قعب معه كثبةً من لبن ومعه إداوة أرتوى فيها للنبى ﷺ يشرب منها ويتوضأ على فمِها خرقة . فأتيت النبى ﷺ ، وكرهت أن أوقظه من نومه ، فوقفت حتى استيقظ فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله .فقلت : يا رسول الله ، اشرب من هذا اللبن ، فشرب حتى رضيت . ثم قال : « ألم يأن الرحيل ؟ » قلت :

بلى . قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس) (١) .

قصة أم معبد :

وعن قيس بن النعمان قال : لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مستخفيان نزلا بأبى معبد فقال : والله ما لنا شاة وإن شاءنا لحوامل فما بقى لنا لبن . فقال رسول الله ﷺ أحسبه : « فما تلك الشاة ؟ » فأتى بها . فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها ثم حلب عساً فسقاه ثم شربوا . فقال : أنت الذى تزعم أنك صابئ . قال : « إنهم يقولون » . قال : أشهد أن ما جئت به حق . ثم قال : اتبعك . قال : « لا حتى تسمع أنَّا قد ظهرنا . فاتبعه بعد » (٢) .

وروى البيهقى بسند حسنه والحافظ ابن كثير عن أبى بكر رضي الله عنه أنه قال:

(خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حى من أحياء العرب ، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت متنحياً فقصد إليه ، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة . فقالت : يا عبدى الله ، إنما أنا امرأة وليس معى أحد . فعليكما بعظيم الحى إن أردتم القِرى . قال : فلم نجبها ، وذلك عند المساء . فجاء ابن لها بأعنز له يسوقها . فقالت له : يا بنى ، انطلق بهذه العنزة والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما : تقول لكم أمى اذبحا هذه وأطعمانا ، فلما جاء . قال النبى ﷺ : « انطلق بالشفرة وجئنى بالقدح » . قال : إنها عازب وليس لها لبن . قال : « انطلق » . فانطلق فجاء بقدح فمسح النبى ﷺ ضرعها ثم حلب ملء القدح ثم قال : « انطلق به إلى أمك » . فشربت ثم رويت ثم جاء به . فقال : « انطلق بهذه وجئنى بأخرى » ففعل بها كذلك ، ثم سقى أبا بكر ، ثم جاء بأخرى . ففعل بها كذلك ثم شرب النبى ، فلبثنا ليلتين ثم انطلقنا ، وكانت تسميه المبارك ، وكثرت غنمُها حتى جلبت جلباً إلى المدينة ، فمرّ أبو بكر رضي الله عنه فرآه ابنها فعرفه . فقال : يا أُمَّه ، إن هذا الرجل الذى كان مع المبارك . فقامت إليه فقالت: يا عبد الله ، من الرجل الذى كان معك ؟ قال : وما تدرين ؟ ! قالت : لا. قال : هو نبى الله ﷺ . قالت : فأدخلنى عليه . قال : فأدخلها فأطعمها وأعطاها . وفى رواية : فأهدت إليه شيئاً من أقط ومتاع الأعراب ، فكساها وأعطاها . قال : ولا أعلمه إلا قال : أسلمت) (٣) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٤٤ ـ ٣٤٦ ، وهوعند البخارى ح ٣٩١٧ من فتح البارى ٧ / ٢٥٥ .
(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٧ / ٥٨ وقال فيه : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .
(٣) سبل الهدى والرشاد ٣/ ٣٤٩ ، ٣٥٠ وهى فى الدلائل عند البيهقى ٢/ ٤٩٢ .

(قلت : وهذه القصة وإن كانت تنقص عما روينا فى قصة أم معبد ويزيد فى بعضها ، فهى قريبة منها ، ويشبه أن يكونا واحدة) (١) .

قصة سراقة :

وروى الإمام أحمد ويعقوب بن سفيان والشيخان عن سراقة بن مالك رضي الله عنه والإمام أحمد والشيخان ويعقوب عن أبى بكر رضي الله عنه قال سراقة بن جعشم:

جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر دية كل واحد منهما مائة ناقة من الإبل لمن قتله أو أسره ، فبينا أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : يا سراقة ، إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، وفى لفظ ركبة ثلاثة .أراها محمد وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فأومأت إليه بعينى أن اسكت فسكت ، ثم قلت له : إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا يبغون ضالة لهم. ثم لبثت فى المجلس ثم قمت فدخلت بيتى ، فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أُكمة فتحبسها على . وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت ، فحططت بزجه الأرض ، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها ، فرفعتها تقرب بى حتى رأيت أسودتهما ، فلما دنوت منهم عثرت بى فرسى فخررت عنها . فقمت فأهويت بيدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا أضرهم . فخرج عنها . فخرج الذى أكره : أنى لا أضرهم . وكنت أرجو أن أردهً فآخذ المائة ناقة . فركبت فرسى ، وعصيت الأزلام ، فرفعتها تقرُبُ بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغت الركبتين . فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عُثان ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره . الا أضرهم ، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى ،وأنه ظاهر . فناديتهم بالأمان وقلت : انظرونى فو الله لا آذيتكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه . قال : فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: « قل له وما تبتغى منا ؟ » فقلت : إن قومك قد جعلوا فيكم الدية ، وأخبرتهما أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضتُ عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآنى شيئاً ، ولم يسألانى إلا أن قال : اخف عنا . فسألته أن يكتب لى كتاب موادعة آمن به ، قال: «اكتب يا أبا بكر » . وفى رواية : فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

---

(١) المصدر السابق ٣ / ٤٩٢ .

وقال أبو بكر رضي الله عنه : (وتبعنا سراقة بن مالك ونحن فى جلد من الأرض . فقلت: يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا . قال : « لا تحزن إن الله معنا» . فلما دنا منا ، وكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة قلت : هذا الطلب قد لحقنا ، وبكيت . قال ﷺ : « ما يبكيك ؟ » قلت : أما والله ما على نفسى أبكى. ولكنى أبكى عليك . فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال : «اللهم اكفناه بما شئت ! » . قال : فساخت به فرسه فى الأرض إلى بطنها فوثب عنها ثم قال : يا محمد ، قد علمت أن هذا عملك . فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه ، فو الله لأُعمِّين على من ورائى من الطلب ، وهذه كنانتى فخذ منها سهماً ، فإنك ستمر على إبلى وغنمى بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك. فقال رسول الله ﷺ : « لا حاجة لنا فى إبلك وغنمك » . ودعا له رسول الله ﷺ ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه لا يلقى أحداً إلا قال : قدكفيتم من ها هنا ولا يلى أحداً إلا ردّه ، ووفَّى لنا .

وعند ابن سعد : أن سراقة لما رجع قال لقريش : قد عرفتم بصرى بالطريق ، وقد استبرأت لكم . فلم أر شيئاً . فرجعوا . وقال ابن سعد والبلاذرى : عارضهم سراقة بقديد ، يوم الثلاثاء .

لقاء طلحة والزبير :

وروى البخارى ، عن عروة والحاكم عنه ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ : لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ ثياباً بيضاً . وروى البيهقى ، عن موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ لما دنا من المدينة هو وأبو بكر ، وقدم طلحة بن عبيد الله من الشام ، خرج عامداً إلى مكة لما ذكر له رسول الله ﷺ وأبو بكر ، خرج إما متلقياً لهما ، وإما عامداً عمرة بمكة ومعه ثياب أهداها لأبى بكر من ثياب الشام ، فلما لقيه أعطاه الثياب فلبس رسول الله ﷺ منها وأبو بكر.

لقاء بريده بن الحصيب الأسلمى :

وروى البيهقى ، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر مدخله المدينة : « ألْهِ عنى الناس ، فإنه لا ينبغى لنبى أن يكذب » . فكان أبو بكر إذا سئل : من أنت ؟ قال : باغٍ ، وإذا قيل : من الذى معك ؟ قال : هادٍ يهدينى .

وروى البخارى ، عن أنس رضي الله عنه قال : أقبل النبى ﷺ وهو مردف أبا بكر ،

وأبو بكر شيخ ، والنبى ﷺ شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا بين يديك ؟ فيقول : هذا الذى يهدينى السبيل ، فيحسب الحاسب إنما يعنى الطريق. وإنما يعنى سبل الخير) (١) .

وأخرج البيهقى ، عن بريدة بن الحصيب قال :

لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبى ﷺ ، حملنى الطمع فركبت فى سبعين من بنى سهم فلقيته . فقال : « من أنت » : قلت : بريده . فالتفت ﷺ إلى أبى بكر وقال : « برد أمرنا وصلح » . ثم قال : « فمن أنت؟» قلت : من أسلم . قال : « سلمنا » ثم قال : « ممن ؟» قلت : من بنى سهم . قال : « خرج سهمك يا أبا بكر» . فقال بريدة للنبى ﷺ : من أنت ؟ قال : « أنا محمد بن عبد الله رسول الله » فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً . قال بريدة : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين، فلما أصبح قال بريدة: يا رسول الله ، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحلّ عمامته ، ثم شدّها فى رمح ، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة (٢) .

١ ـ لقد كانت المحطة الأولى على الطريق بعد الدعاء الخاشع المتبتل ، وبعد مسيرة مضنية استمرت منذ سحر اليوم الأول حتى ظهيرة اليوم الثانى ، هى عند الصخرة . حيث استلقى الحبيب المصطفى ﷺ غافياً ، بينما قام الصدّيق رضي الله عنه بتهيئة اللبن من الراعى وتبريده ، وكانت الاستراحة قصيرة ، حيث قاموا وغذوا السير بعدما زالت الشمس ، تكلؤهم عين الله ورعايته .

٢ ـ لكن المحطة الثانية كانت تحمل فى ثناياها المعجزة العظيمة ، مع أم معبد والتى تناقلها الركبان من الإنس والجن ، والتى شهدت ذلك الوصف العظيم للمصطفى ﷺ من هذه المرأة العظيمة ، وقد حرصت على نقل ما صح فى قصة أم معبد ابتداء ، ولكن كل رواة السيرة تحدثوا عن قصتها رغم ضعف سندها . وعن الوصف الحى العظيم للمصطفى ﷺ ، وننقل هنا سنداً ساقه الفقيه أبو ذر الخشنى ـ رحمه الله ـ هو أقوى ما ورد فيها ، مع شرحه كذلك لها عن حبيش بن خالد صاحب رسول الله ﷺ ، وهو أخو أم معبد واسم أم معبد : عاتكة بنت خالد الخزاعية فيما ذكره العقيلى : أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة ، خرج منها مهاجراً إلى المدينة ، وأبو بكر ، ومولى أبى بكر عامر بن فهيرة ، ودليلهما الديلى عبد الله بن أريقط فمروا على خيمتى أم معبد، وكانت برزة (٣) جلدة تحتبى بفناء القبة ، ثم تسقى وتطعم . فسألوها لحماً وتمراً

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٥١ ـ ٣٥٦ .   (٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٤٠٥ .

(٣) برزة : المرأة التى طعنت فى السن فهى تبرز للرجال .

يشترونه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً . وكان القوم مرملين (١) مشتين (ويروى مسنتين) (٢) . فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة بكسر الخيمة (٣) . فقال : « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ » قالت : شاة خلّفها الجهد عن الغنم . قال : « هل بها من لبن ؟ » . قالت : هى أجهد من ذلك . قال : « أتأذنين أن أحلبها ؟» . قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت حلباً فاحلبها . فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها ، فسمّى الله تعالى ودعا لها فى شأنها فتفاجت (٤) عليه ودرت واجترت ودعى بإناء يربض الرهط (٥) فحلب فيه ثجاً (٦) حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم ثم أراضوا (٧) ، ثم حلب فيه ثانياً بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثم بايعها ـ يعنى على الإسلام . ثم ارتحلوا عنها فما لبث حتى جاء زوجها أبومعبد يسوق أعنزاً يشاركن هزلاً (٨) منحهن (٩) قليل ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ؟ والشاة أعازب (١٠) حيال (١١) ولا حلوب (١٢) فى البيت ، قالت :

لا والله إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا . قال : صفيه يا أم معبد، قالت : رأيته رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج الوجه ، حسن الخلق لم يُعبه نحلة (١٣) ، ولم تزر به صعلة (١٤) ، وسيماً جسيماً فى عينه دعج (١٥) ، وفى أشفاره عطف أو غطف ، ويروى وطف (١٦) وفى صوته صحل (١٧) . وفى عنقه سطح (١٨) ، وفى لحيته كثافة(١٩) ، أزج (٢٠) أقرن (٢١) .إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء(٢٢) أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق ،

---

(١) مرملين : يقال : أرمل الرجل إذا نفذ زاده فى سفر أو فى حضر .
(٢) مشتين : دخلوا فى الشتاء ، ومسنتين ،دخلوا فى الجدب والقحط .
(٣) كسر الخيمة : جانبها .
(٤) تفاجت : فتحت رجليها للحلب .
(٥) يربض الرهط : يبالغ فى ريهم ويثقلهم والرهط من الثلاثة للعشرة .
(٦) ثجاً :سائلاً .
(٧) أراضوا :كرروا الشراب .
(٨) يشاركهن هزلاً : يساوين فى الضعف .
(٩) منحهن : حلبهن .
(١٠) أعازب : بعيد المرعى .
(١١) حيال : جمع حائل التى لم تحمل .
(١٢) الحلوب : الشاة التى تحلب .
(١٣) النحلة :الضعف .
(١٤) الصعلة : تعنى أنه ناعم الجسم ضامر الخاصرة .
(١٥) الدعج : شدة سواد العينين .
(١٦) فى أشفاره وطف : طول شعر أشفار العين .
(١٧) صحل : ليس بحاد الصوت .
(١٨) فى عنقه سطح : أى إشراف وطول .
(١٩) الكثافة : دقة نبات شعر الحية مع استدارة فيها .
(٢٠) أزج : الزجج دقة شعر الحاجبين مع طولها .
(٢١) أقرن : أن يتصل ما بينهما من شعر .
(٢٢) البهاء : حسن الظاهر .

فصل[1] لا نزر [2] ولا هذر [3] وكأن منطقه خرزات نظم تحدرن ربعة لا تشنؤه [4] من طول ، ولا تقتحمه [5] عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره محفود [6] ، محشود [7] لا عابس ولا مفنَّد [8] .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، لقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا . قال : فأصبح بمكة عالٍ يسمعون الصوت ولا يرون صاحبه وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلاّ خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى ما زوى الله عنكمُ ... به من فعال لا يجارى سؤدد
ليهن بنو كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... له بصريح [9] ضرة الشاة [10] مزبد
فغادرها هنأ لديها لحالبٍ ... يرددّها فى مصدر ثم مورد

وزاد أبو عمر بن عبد البر بعد هذا بسنده إلى قاسم بن أصبغ قال : فلما سمع حسان بن ثابت بذلك قال يجاوب الهاتف :

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقدّس من يسرى إليه ويغتدى
ترحَّل عن قوم فضلت عقولهم ... وحلّ على قوم بنورٍ مجددِ
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدهم من يتبع الحق يُرشدِ
وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا ... عمى ، وهداةٌ يهتدون بمهتدى
لقد نزلت منه على آل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبى يرى مالا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله فى كل مسجد

---

(1) الفصل : الكلام البيّن .
(2) النزر : الكلام القليل .
(3) الهذر : الكلام الكثير .
(4) لاتشنؤه من طول : ليس بمفرط طولاً .
(5) لا تقتحمه عين : لا تحتقره .
(6) محفود : مخدوم .
(7) محشود : محفوف به .
(8) ولا مفند : لا يخطئ رأيه .
(9) صريح : لبن خالص .
(10) ضرة الشاة : أصل ضرعها .

وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته ، من يسعد الله يسعد

ورواية أسماء ـ رضى الله عنها ـ أثبتت ثلاثة أبيات فقط ، والتى قالت فيها (فمكثنا ثلاث ليالٍ ، وما ندرى أين وجه رسول الله ﷺ ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر العرب ، وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروّحا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنو كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

فلما سمعنا قوله . عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهه إلى المدينة ، وكانوا أربعة رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديق ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما) . وحول صحة الرواية يقول الإمام الزرقانى فى شرح المواهب :

قالت أسماء بنت أبى بكر فيما رواه فى الفيلانيات عن طريق ابن إسحاق قال : حُدثت عن أسماء فهو منقطع ، لكن رواه الحافظ أبو الفتح اليعمرى متصلاً عن طريق هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء قالت .

فنحن أمام احتفال الجن والإنس بهذه المعجزة لسيد الخلق ﷺ .

٣ـ ولهذه الأبيات على ما يبدو دور كبير فى متابعة النبى ﷺ على طريق المدينة . فأسماء عرفت الاتجاه ومعها أهل مكة أنه نحو المدينة منها ، وكانت المعجزة الثانية مع سراقة بن مالك سيد بنى مدلج . بنو كعب من خزاعة ،وبنو مدلج هم على الطريق الساحلى بين مكة والمدينة .

فسراقة سيد ، مدلج ، ومن أشراف بنى كنانة ، وليس رجلاً عادياً من القوم ، نلاحظ ذلك مما روته كتب الحديث والسير عنه فى بدر : أن الشيطان تمثل به ليحض قريشاً على الخروج لمواجهة النبى ﷺ :

(قال ابن إسحاق : حدثنى يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى كان بينها وبين بنى بكر ، فكاد ذلك يثنيهم ، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى ، وكان من أشراف بنى كنانة. فقال لهم : أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه فخرجوا

سراعاً)(١) .

(وقال محمد بن كعب فى تفسير قوله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ** ... ﴾ (٢) . حسّن لهم ـ لعنه الله ـ ما جاؤوا له وماهموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا فى ديارهم من عدوهم بنى بكر ، فقال : إنى جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بنى مدلج كبير تلك الناحية .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه راتبه فى صورة رجل من بنى مدلج وفى صورة سراقة بن مالك بن جعشم . فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم . فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل ـ عليه السلام ـ إلى إبليس فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين . انتزع يده ثم ولّى مدبراً وشيعته . فقال الرجل : يا سراقة ، أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ، وذلك حين رأى الملائكة) (٣) .

فنحن إذن مع سيد قومه ، وشريف من أشراف بنى كنانة ، سمع بما أعدت قريش لقاتل محمد ﷺ ، ورأى أنها فرصة سانحة يثأر من قريش فيقتل محمداً كبير أشرافها ثأراً لما بين بنى كنانة وقريش ، ويأخذ من قريش كذلك مائة من الإبل ، وكما يقول رضي الله عنه وقد أسلم وحسن إسلامه : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله وأبى بكر دية كل واحد منهما مائة ناقة من الإبل لمن قتله أو أسره . وهو الفارس الفاتك . فلم يدع هذه الفرصة تفوته ، وهؤلاء الرسل قد جاؤوا بعد التأكد من اتجاه النبى ﷺ نحو المدينة ، ولن يدركه أحد مثل ما يدركه أبناء هذه الصحراء الذين يعرفون طرقها ومجاهلها ، ومضى سراقة على فرسه بعدما سمع ذلك القادم القائل : إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، وفى رواية : ركبة ثلاثة أراها محمد وأصحابه ، وأخذ رمحه ، وأخذ كنانته ومضى ، وكل هدفه كما قال : وكنت أرجو أن أرده فآخذ المائة ناقة فهو يطمع بأسره أكثر مما يطمع بقتله ، والملاحظ كذلك أن أبا بكر رضي الله عنه قد غدا هدفاً مثل رسول الله ﷺ ، فقد وضع فيه كذلك مائة من الإبل لمن يقتله أو يأسره ، والملاحظ كذلك أن المصطفى ﷺ ، والصديق لم يكن معهما أى سلاح للمواجهة ، فقد خرجا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٠١ .
(٢) الأنفال / ٤٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٣١ ، ٣٣٢ .

وليس معهما سيف أو رمح أو سهم ، والفارس المسلح قادر على استئسارهما أو قتلهما وهما أعزلان من السلاح ، وتشاء الإرادة الربانية أن تكون الحماية ربانية خالصة . ليس للجهد البشرى فيها دور . وكما تشير الرواية . فرسول الله ﷺ مطمئن إلى موعود الله عز وجل له بالنصرة والحماية . (حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لايلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات) . وفى الرواية الثانية: وتبعنا سراقة بن مالك ونحن فى جلد من الأرض. فقلت : يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا . قال : «لا تحزن إن الله معنا » . فلما دنا منا وكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة . قلت : هذا الطلب قد لحقنا ، وبكيت . قال ﷺ : « ما يبكيك ؟ » قلت : أما والله ما على نفسى أبكى، ولكنى أبكى عليك . فالصاحب العظيم يقلقه الخوف على قائده أكثر ما يقلقه الخوف على نفسه ، ورسول الله ﷺ يهدئ روعه قائلاً : « لا تحزن إن الله معنا » .

وتشاء إرادة الله أن يصل العدو فى الغار ، إلى فم الغار ، ولو نظر أحدهم إلى خلل قدميه لرآهما ، وتحرس العناية الإلهية حبيبه ومصطفاه من خلقه فتحول بالملائكة بين العدو وبينه ، وهنا يصل الطلب إلى أن يكون قيد رمح أو رمحين أو ثلاثة ، وتشاء العناية الإلهية ثانية أن تحرس حبيبه ومصطفاه من خلقه بأن تسيخ قدما الفرس فى الأرض بعد الدعاء النبوى الخالص: « اللهم أكفنيهم بما شئت ».

ونحن مع سراقة الفارس الذى لا يشق له غبار ، ها هو يسيخ فرسه ويكاد يهلك معها ، ويدرك أن محمداً ﷺ ممنوع ، فلا تنفتح قلبه للإسلام . فإن إسلامه يغير كل زعامته فى قومه ، لكنه يدرك فى أعماقه أن محمداً ﷺ هو رسول الله ، ولن يستطيع هو ولا قريش النيل منه ، وستكون له الغلبة والنصر فى المستقبل . إن كل الذى يريده الآن هو الأمان لنفسه حالاً ومستقبلاً ، والأمان لقومه ، لقد غزى فى داخله ، وعرف أن الرجل ممنوع . لكن قضية إسلامه تأخرت به ثمانى سنوات تماماً حتى كان فتح مكة وحنين والطائف ، وإن كان نتيجة هذه المحاولة قد بقى بعيداً عن المواجهة مع رسول الله ﷺ وصحبه ، وعقد مع رسول الله ﷺ فيما بعد ميثاق موادعة. ومسالمة، بل اندفع فى أعماقه لأكثر من حماية نفسه وقومه فى الكتاب الذى طلبه من رسول الله ﷺ. غدا حريصاً على إنقاذ المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من الطلب فانطلق راجعاً إلى أصحابه ، لا يلقى أحداً إلا قال : قد كفيتم ما هاهنا ، ولا يلقى أحداً إلا ردَّه ووفى لنا .

وفى الرواية الثانية التى رواها البخارى : (فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم فقال : يا رسول الله ، هذا فارس قد لحق بنا . فالتفت نبى الله ﷺ ، فقال :

«اللهم اصرعه » فصرعه الفرس ، ثم قامت تحمحم فقال : يا نبى الله مرنى بما شئت . قال : « فقف مكانك » لاتتركن أحداً يلحق بنا . فكان أول النهار جاهداً على النبى ﷺ، وكان آخر النهار مسلحة له (أى : سلاحاً وحماية له) (١) . ولما عاد سراقة جعل يقص ما رأى وشاهد من أمر النبى ﷺ . فخاف أمراء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام كثير من الناس ، فكتب أبو جهل إلى بنى مدلج :

بنى مدلج إنى أخاف سفيهكم ... سراقة مستفو لنصر محمد

عليكم به ألا يفرّق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

(قال ابن إسحاق : قال أبو جهل فى أمر سراقة أبياتاً ، فقال سراقة يجيب أبا جهل :

أبا حكم واللات لو كنت شاهداً ... لأمر جوادى إذ تسيخ قوائمه

عجبت ولم تشكك بأن محمداً ... نبى وبرهان فمن ذا يقاومه

عليك بكف الناس عنه فإننى ... أرى أمره يوماً ستعلو معالمه

بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طراً يسالمه) (٢)

إننا ونحن نرى موقف سراقة ، يطالعنا موقف أبى طالب الذى أيقن فى أعماقه بنبوة ابن أخيه محمد وصدقه ، وحال الخوف من العار والمجتمع دون إسلامه ، لكنه كان يبذل الرخيص والغالى لحماية ابن أخيه .

وها نحن نجد فى أبيات سراقة ما يشير إلى اقتناعه بنبوة المصطفى ﷺ ، حيث بهت أمام هذه المعجزة ، ولم يدر ماذا يفعل لنصر محمد بعد ذلك ؟ يعرض عليه الزاد والمتاع، ويعطيه أسهمه لينحر ما شاء من غنمه وإبله فى وادى كذا ، ويصرف الناس عن ملاحقة النبى ﷺ ؛ ذوداً عنه وخوفاً عليه ، وبقى سلماً للنبى ﷺ ، وكما يقول الإمام ابن حجر ـ رحمه الله ـ فى فتح البارى قوله : (كتاب أمن) بسكون الميم ، وفى رواية الإسماعيلى : (كتاب موادعة) ، وفى رواية ابن إسحاق : (كتاباً يكون آية بينى وبينك) .

ونجده قبيل فتح مكة يخشى على هذا السلم أن يتصدع . (ففى رواية الحسن عن سراقة قال : فبلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى ، فأتيته فقلت : أحب

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٥٠ ح ٣٩١١ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٤٨٩/٢ . أما البيتان الأولان فقد أوردهما محقق الدلائل دون أن يعزوهما إلى سند ، وأخذنا تصحيح البيت الأخير من الروض الأنف للسهيلى .

أن توادع قومى . فإن أسلم قومك أسلموا ، وإلا أمنت منهم . ففعل ذلك . قال : ففيهم نزلت : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ (١) ، ولم يدخل رسمياً فى الإسلام إلا بعد حنين والطائف كما فى رواية ابن إسحاق قال : فكتب لى كتاباً فى عظم أو فى رقعة أو خزفة (٢) ثم ألقاه إلىّ فأخذته ، فجعلته فى كنانتى ثم رجعت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على الرسول ﷺ ، وفرغ من حنين والطائف خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة . قال : فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك إليك . ماذا تريد؟ قال : فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه (٣) كأنها جمارة (٤) . قال : فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله ، هذا كتابك لى أنا سراقة بن جُعشم ، فقال رسول الله ﷺ : « يوم وفاء وبر ، ادنه » فدنوت منه ، فأسلمت ، ثم تذكرت شيئاً أسأل عنه رسول الله ﷺ فما أذكره إلا أنى قلت : يا رسول الله ، الضالّة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر أن أسقيها ؟ قال : « نعم فى كل ذات كبد حرًى أجر » .قال : ثم رجعت إلى قومى فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتى .

بقى أن نعلم عن سراقة السيد الفارس الفاتك الأعرابى أن رسول الله ﷺ وعده أن يلبس سوارى كسرى بن هرمز .

(وفى الحديث أنه ﷺ قال لسراقة : «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى» . وذكر ابن المنير : أنه ـ عليه السلام ـ قال له ذلك يوم لحقهما فى الهجرة فعجب من ذلك. فلما أُتِيَ بهما عمر وبتاجه ومنطقته ، دعا سراقة فألبسه السوارين وقال : ارفع يديك وقل : الله أكبر ، الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك أعرابياً من بنى مدلج ، ورفع عمر صوته ثم قسم ذلك بين المسلمين) (٥) .

٤ ـ وكانت المحطة الرابعة على الطريق يوم لقى ﷺ طلحة والزبير . قادمين من الشام ، وهما يستقبلان النبى ﷺ ، ويكسوانه الثياب البيض التى يدخل بها المدينة ، وذلك فى رحلة تجارية سريعة تمت بين بيعة العقبة والهجرة ، ومعهما عثمان بن عفان ـ رضى الله عنهما ـ كما مر معنا من قبل ، وهم من أحبابه وأصفيائه ، فهم ثلاثة من المبشرين بالجنة ، والذين دخلوا معترك المسؤولية منذ الهجرة كما دخلها علىّ رضي الله عنه

---

(١) فتح البارى لابن حجر ٧ / ٢٤٢ والآية : النساء / ٩٠ .

(٢) الخزفة : الشقف .

(٣) غرزه : رِكاب كور الجمل . وقيل : هو الكور مطلقاً مثل الركاب للسرج ويكون من جلد أو خشب .

(٤) الجُمَّارة قلب النخلة وشحمتها ، شبّه ساقه ببياضها .

(٥) شرح المواهب للزرقانى ١/ ٤٠٤ .

وأسنان الثلاثة متقاربة .

٥ ـ ويحسن بنا أن نقارن بين سيدين خرجا لمهمة واحدة ، كيف انتهى بهما المطاف بعد ذلك :

أما السيد الأول فقد تحدثنا عنه : هو سراقة بن مالك .

وأما السيد الثانى : فهو بريدة بن الحصيب الأسلمى ، ونعيد الحادثة هنا كما رواها البيهقى عن بريدة رضي الله عنه قال : لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبى ﷺ حملنى الطمع ، فركبت فى سبعين من بنى سهم فلقيته . فقال : « من أنت ». قلت : بريدة . فالتفت ﷺ إلى أبى بكر وقال : « برد أمرنا وصلح » . ثم قال : «ممن أنت؟» قلت : من أسلم . قال : « سلمنا » . ثم قال : « ممّن ؟» قلت من بنى سهم. قال : « خرج سهمك يا أبا بكر » . فقال بريدة للنبى ﷺ : من أنت ؟ قال : « محمد ابن عبد الله رسول الله » . فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً . قال بريدة : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين . فلما أصبح قال بريدة : يا رسول الله ، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحلّ عمامته ، ثم شدّها فى رمح ، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة .

فسراقة تكاد المعجزة تودى بحياته ، ويوقن أن محمداً ﷺ ممنوع ، وسيظهر أمره على العرب قاطبة ، ومع ذلك يتأخر فى إسلامه بُعَيْد فتح مكة .

أما بريدة الذى خرج طامعاً بالنوق المائة مثل سراقة تفجأه نفسية المصطفى ﷺ فى الثناء عليه وعلى قومه ، وفى التفاؤل فيهم ، وليس فى هذا القلب من العوائق ما غلظ حتى يحول دون إشراقه بالإيمان ، فقد لامس أوتار الخير والشهامة والأريحية فى قلبه. وعندما عرف بريدة فقط . أن هذا صاحب مكة ، وهو الصيد الثمين الذى يريده وأنه محمد رسول الله ، كانت تلك المقدمات النبوية النفسية هى التى استلت الطمع وحب المال من نفسه ليحل محله الهدى والنور والإيمان ، واخترقت الحواجز الكثيفة من الزعامة التى يخشى عليها ، فقومه بين يديه ، وما أن أسلم حتى أسلم قومه جميعاً ، وغمره الفرح بهذا الانتقال الكامل من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان قائلاً : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين .

إنه سعد بن معاذ الجديد الذى مضى مهدداً متوعداً ، يرعد ويبرق بقتل محمد وصاحبيه مصعب وأسعد . فتلامس أوتار قلبه الدعوة إلى أن يتعرف على هذا الدين

الجديد ، فيسمع ويقع الانقلاب المفاجئ ، ويشرق وجهه قبل أن ينطق لسانه بالإسلام. ويمضى إلى قومه ليقول لهم : كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فلم يبق من بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا أسلم .

وهذا بريدة بن الحصيب ، جاء يود اغتيال رسول الله ﷺ . أو أسره لمائة من الإبل يضيفها إلى ثروته ، فإذا به أمام إنسان سمح كريم ، على خلق عظيم ، وهو يرحب ويهلل ببريدة : « سلمنا ، وبرد أمرنا وصلح ، وخرج سهمك يا أبا بكر » ، ولم يحتج إلى أن يُدْعى إلى الإسلام ، فأعطى ذاته لهذا العظيم الذى لقيه بمجرد أن سمع أنه رسول الله وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ولم يرض إلا أن يحول هذين المهاجرين الطريدين إلى كتيبة خرساء تحمل اللواء فتدخل به المدينة ، تحف بها بنو سهم بن أسلم فى أعظم تجمع يسلم بهذه السرعة ، وينضم لموكب الإيمان(١) .

لقد كان بريدة هو الذى فتح لقومه أسلم هذا المجد ، وتجلّت نفاسة معدنه من خلال هذا التسارع للإسلام ، لكننا نؤكد كذلك عظمة التربية النبوية التى تلقاها ، وللحظات فقط ، وفى كلمات قلائل تأسِر نفسه ، وتدفعه إلى الإسلام دفعاً دون تلكؤ؛ بل دونما طلبِ منه أن يُسلم ، ويفوز بعدها بالحظوة النبوية مع قومه ، فتقدم لنا هذه الكلمات النبوية العظيمة القليلة منهجاً فى فقه النفوس ، وتمضى أسلم أبد الدهر ، كما قال عنها عليه الصلاة والسلام : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما والله ما أنا قلته ولكن الله قاله » (٢) .

---

(١) الغالب أن رسول الله ﷺ طلب من بريدة ومن أسلم معه من قومه أن يبقوا فى قومهم ؛ لأن الروايات الصحيحة تؤكد دخول الصاحبين وحدهما إلى بنى عوف ثم إلى المدينة .

(٢) الإمام أحمد ، والطبرانى ، والحاكم عن سلمة بن الأكوع ، ومسلم عن أبى هريرة . انظر صحيح الجامع الصغير ١/٣٢٨ ح٩٨٦ .

إلى بنى عمرو بن عوف

قال ابن شهاب : (فأخبرنى عروة بن الزبير : أن رسول الله ﷺ لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياضٍ ، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة على الحرة ، فينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم ، أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصُر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب ، هذا جدُّكم الذى تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ فطفق من جاء من الأنصار ، ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ، فلبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى. . .)(١).

وفى رواية : فلما رأوا أبا بكر ينحاز له عن الظل عرفوا رسول الله ﷺ ، فعدل بهم رسول الله ﷺ عليه ذات اليمين حتى نزل بهم عُلُوَّ المدينة بقباء فى بنى عمرو بن عوف على كلثوم بن الهِدم . قيل : وكان يومئذ مشركاً ، وبه جزم محمد بن الحسن بن زبالة ، وقيل : (إنما نزل على سعد بن خيثمة) . قال رزين : والأول أصح . وقال الحاكم : (إنه الأرجح) ، وقد قاله ابن شهاب ، وهو أعرف بذلك من غيره . وقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ نزل على كلثوم بن الهدم ، وكان يخرج للناس من منزله فيجلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة لأنه كان عزباً لا أهل له هناك ، وكان منزل العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين فمن هناك يقال : نزل على سعد بن خيثمة ، ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف أحد بنى الحارث بالسنح ، ويقال : على خارجة بن زيد بن أبى زهير أخى بنى الحارث بن الخزرج .

وروى الزبير بن بكار ، عن عبد الله بن حارثة قال : نزل رسول الله ﷺ على

(١) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٣٦ ح ٣٩٠٦ .

كلثوم بن الهِدْم ، فصاح كلثوم بغلام له فقال : يا نُجيح ، فقال رسول الله ﷺ : «أنجحت يا أبا بكر » .

وأقام على بن أبى طالب رضي الله عنه بمكة بعد مخرج رسول الله ﷺ أياماً - قال بعضهم: ثلاثة - حتى أدى للناس ودائعهم التى كانت عند رسول الله ﷺ ، وخَلَفَه ليردها . ثم خرج فلحق برسول الله ﷺ بقباء فنزل على كلثوم بن الهِدم.

وقال على فيما رواه ابن إسحاق ورزين : (كنت نزلت بقباء ، وكانت امرأة مسلمة لا زوج لها ، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه ، فاستربت شأنه فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدرى ماهو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟ قالت : هذا سهل بن حنيف ، قد عرف أنى امرأة لا زوج لى ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءنى بها . فقال : احتطبى بها . فكان على يأثر [1] ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق .

وكان لكلثوم بن الهدم مربد ، والمربد : الموضع الذى يبسط فيه التمر ليجف، فأخذه منه رسول الله ﷺ فأسّسه وبناه مسجداً ، وفى الصحيح عن عروة : فلبث فى بنى عمرو بن عوف ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى) .

وفى رواية عبد الرزاق عنه قال : الذى بنى فيهم المسجد الذى أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف ، وكذا عند ابن عائذ ولفظه : ومكث فى بنى عمرو بن عوف ثلاث ليال واتخذ فيهم مسجداً فكان يصلى فيه ، ثم بناه بنو عمرو بن عوف ، فهو الذى أسس على التقوى .

وروى يونس بن بكير فى زيادات المغازى،عن المسعودى،عن الحكم بن عتيبة قال:

لما قدم النبى ﷺ فنزل بقباء ، قال عمار بن ياسر : ما لرسول الله ﷺ بد من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلى فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء ،فهو أول من بنى مسجداً .

روى الحافظ والسيد : يعنى لعامة المسلمين أو للنبى ﷺ بالمدينة .

وهو فى التحقيق أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وإن كان قد بنى غيره من المساجد . فقد روى ابن أبى شيبة ، عن جابر رضي الله عنه قال: لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا النبى ﷺ سنتين ، نعمر المساجد ونقيم الصلاة .

---

(1) يأثر : ينقل ويحفظ أو ينبئهم بما سبقوا فيه من الأثر . وفى دعاء على رضي الله عنه على الخوارج : ولا يبقى منكم آثر ، أى مخبر يروى الحديث .

وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات ، عن الشموس بنت النعمان ـ رضى الله عنها ـ قالت :

(نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد ـ مسجد قباء ـ فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره الحجر ، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه، فيأتى الرجل من أصحابه ويقول : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، أعطنى أكفك ! فيقول : « لا ، خذ مثله » . حتى أسسه).

وروى ابن شبة أيضاً أن عبدالله بن رواحة كان يقول وهم يبنون فى مسجد قباء : أفلح من يعمر المساجدا . فقال رسول الله ﷺ : « المساجدا » . فقال عبد الله : ويقرأ القرآن قائماً وقاعداً . فقال ﷺ : « وقاعداً » . فقال عبد الله : ولا يبيت الليل عنه راقداً . فقال رسول الله ﷺ : « راقداً » (١) .

١ ـ قلوب المسلمين تنتظر على أحرٍّ من الجمر قدوم قائدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى المدينة ، وخاصة الأنصار ، وذلك بعد وصول طلائع المهاجرين عليهم ، لكن ليس أحد فى المسلمين يعرف ، هل يؤذن لرسول الله ﷺ بالهجرة أم لا ، ومتى ، وإلى أين؟ فلم يعرف أحد هذا الأمر ابتداءً حتى وزيره الأول ، وبقى الصدِّيق رضي الله عنه يتوقع ذلك على غلبة الظن ، وعندما أذن الله تعالى لنبيه بالهجرة ، حُصِر الأمر بالصدِّيق وعلى ـ رضى الله عنهما ـ وحتى آل أبى بكر كل الذى عرفوه أن هناك هجرة، وأن الإقامة فى الغار استمرت ثلاثة أيام،وكما ذكرت أسماء ـ رضى الله عنها ـ أنها لم تدر أين توجه النبى ﷺ حتى سمعت ذلك الهاتف من الجن ، فأدركت أن وجهته المدينة ، وتناقلت الركبان الخبر ، ولعله وصل إلى المسلمين فى المدينة كما وصل إلى مكة ، فراحوا يخرجون كل يوم إلى ظاهر الحرة ينتظرون قدوم حبيبهم وقائدهم ، وأسعد شيء عندهم هو وصوله سالماً إليهم ، وهم يعلمون ما تبيت قريش للفتك به ، ويعلمون ما وضعت قريش من الجائزة لقتله أو القبض عليه فقد تحرك لهذه الجائزة سراقة بن مالك من مدلج، وبريدة بن الحصيب من أسلم ، وكثيرون ردّهم سراقة بعدما ساخت فرسه، وأمّنه المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام .

وكانت التربية الكبرى لكل الجيل المسلم على الإطلاق فى هذا الأمر هى درس عملى بليغ فى الكتمان والسرية ، وعمق التخطيط للأحداث الكبرى ، وليس درساً نظرياً فقط .

٢ ـ وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون اليهودى على أُطُمِه هو الذى يرى رسول الله

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٣٧٨ ـ ٣٨٢ بتصريف .

ـ صلوات الله عليه ـ وهو الذى يصرخ بالمسلمين :

يا معاشر العرب ، هذا جدكم ، قد جاء .

ومنذ الآن سنجد اليهود عنصراً مهماً فى أحداث المدينة وليس عنصراً عارضاً، وندرك من هذا النداء مدى السيطرة الإسلامية الكاملة على أجواء المدينة ، وأن الشارع صار إسلامياً كله ، فلم يعد اليهودى الذى يرى تلك الجلبة وهذا الاهتمام فى أجواء يثرب يستطيع أن يتجاهل الانقلاب الكامل فى أهل المدينة ، والالتحام العظيم مع رسول الله ﷺ ، وبلا وعى منه أو شعور يحس أنه جزء من هذا الحدث الذى طال انتظاره ، فيصرخ بالعرب أن يمضوا لملاقاة جدِّهم .

وحظهم الأسعد فى قدوم الأسعد ـ عليه الصلاة والسلام . وكأن هذا اليهودى لا يخبر فقط بضع مئات فى المدينة تتجاوب قلوبهم فى لحظة واحدة من لحظات هذا الوجود ، إنما يخبر التاريخ كله وعلى مدار القرون كلها مئات الملايين من العرب وآلاف الملايين من المسلمين :

هذا جدُّكم قد جاء .

فقد جاء جَدُ المسلمين منذ ذلك الوقت ، وقد ولد تاريخهم ، فبهذه الهجرة ، ابتدؤوا ، ومنها انبثقوا وانطلقوا ، وكأنه ينطق بلسان القدر دون أن يشعر : هذا جدّكم قد جاء .

فقد ابتدأ التاريخ الحقيقى لهذه الأمة بهجرة المصطفى ﷺ ، واعتبروه أكبر حدث فى حياتهم .

فى المواهب الكبرى للقسطلانى : أن رسول الله ﷺ هو الذى أمر بابتداء التاريخ بالهجرة يقول ـ رحمه الله ـ : (وأمر ﷺ بالتاريخ فكتب من حين الهجرة) .

ويقول شارح المواهب :

(وأمر ﷺ وهو بقباء بالتاريخ . قال الجوهرى : هو تعريف الوقت والتواريخ ، مثله يقال : أرخت وورخت . . . واختصت العرب بأنها تؤرخ بالسنة القمرية لا الشمسية ، فلذلك قدمت الليالى ؛ لأن الهلال إنما يظهر ليلاً (فكتب من حين الهجرة). رواه الحاكم فى الإكليل عن الزهرى وهو معضل ، والمشهور خلافه ، وأن ذلك زمن عمر كما قال الحافظ (وقيل : إن عمر أول من أرَّخ) ، أخرجه أبو نعيم الفضل بن دكين فى تاريخه ، ومن طريقه الحاكم عن الشعبى : أن أبا موسى كتب إلى عمر أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ فجمع عمر الناس ، فقال بعضهم : أرِّخ

بالبعث، وبعضهم بالهجرة : فقال عمر : الهجرة فرَّقت بين الحق والباطل ، فأرَّخوا بها وبالمحرم لأنه منصرف الناس من حجهم ، فاتفقوا عليه ، وذلك سنة سبع عشرة ، ورواه ابن أبى خيثمة عن ابن سيرين بنحوه .... والمتحصّل من مجموع آثار : أن الذى أشار بالمحرم عمر وعثمان وعلى ، وذكر السهيلي أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ (١) : لأن من المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقاً فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمر ، وهو أول الزمن الذى عز فيه الإسلام ، وعبد النبى ﷺ ربَّهُ آمناً ، وابتدأ فيه بناء المسجد فوافق رأى الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم . وفهمنا من فعلهم أن قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أنه أول التاريخ الإسلامى قال فى الفتح : كذا قال والمتبادر أن معنى قوله : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ : أى دخل النبى ﷺ وأصحابه المدينة) (٢) .

يقول السهيلى ـ رحمه الله ـ : فإن كان أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا هذا من الآية ، فهو الظن بأفهامهم ، فهم أعلم الناس بكتاب الله وتأويله وأفهمهم بما فى القرآن من شارات وإفصاح وإن كان ذلك منهم عن رأى واجتهاد ، فقد علم ذلك منهم قبل أن يكونوا ،وأشار إلى صحته قبل أن يفعل ؛ إذ لا يعقل قول القائل : فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام أو شهر معلوم ، أو تاريخ معلوم ، وليس ها هنا إضافة فى المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لدعم القرائن الدالة على غيره . من قرينة لفظ أوقرينة حال . فتدبره ، ففيه معتبر لمن اذكر ، وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر والحمد لله) (٣) .

٣ـ ونزوله ﷺ عند كلثوم بن الهدم ، ونزول الصدّيق عند خباب بن إساف ، وقد روى عنهما أنهما كانا مشركين يوم تم النزول عليهما ، لتعطى إشارة واضحة إلى أن جو المدينة كله مسلمه ومشركه كان يرحب بالنبى ﷺ ، خاصة الذين دخلت قيادات قبائلهم فى الإسلام . فبنو عمرو بن عوف . قد دخلوا فى الإسلام ، وكان نقيبهم سعد بن خيثمة ، ونقيب الأوس فى المدينة أسيد بن حضير ، وكلثوم شيخ كبير فى بنى عمرو ابن عوف ، وهو وجيههم الكبير فلا يناسب أن تكون الأضياف إلا عنده ، وكما ذكر الحافظ ابن حجر : (وكان نزوله على كلثوم بن الهدم وقيل : كان يومئذ مشركاً ، وجزم به محمد بن الحسين بن زبالة فى أخبار المدينة) (٤) .

وأما خبيب بن إساف ، فقد كان مشركاً كذلك ، كما روى الحافظ ابن حجر فى الإصابة عنه قال :

---

(١) التوبة / ١٠٨ .
(٢) شرح المواهب للزرقانى ١ / ٤٠٨ .
(٣) الروض الأنف للسهيلى ١ / ٢ / ٢٤٧ .
(٤) فتح البارى ٧ / ٢٤٤ .

(روى أحمد والبخارى فى تاريخه من طريق المسلم بن سعيد ، عن خبيب بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن جده قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يريد غزواً ، أنا ورجل من قومى . فقلنا : إنا نستحى أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم . قال: « فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين » . قال : فأسلمنا وشهدنا معه) (١) .

وبذلك حفظت نفوس هؤلاء المشركين بحيث لا ينفصلون عن المجتمع الإسلامى ، ويشاركون فى أفراحه ومباهجه ، ويشاركون فى حق الضيافة فيه ، ومما يجعلهم ألصق بالإسلام وأقرب إليه ، بينما نجد من طرف آخر أن التربية ، واللقاءات النبوية مع صحبة كانت تتم فى بيت سعد بن خيثمة رضي الله عنه أحد النقباء الاثنى عشر . وذلك كما تقول الرواية .

وقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ نزل على كلثوم بن الهدم ، وكان يخرج للناس من منزله فيجلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة ؛ لأنه كان عزباً لا أهل له هناك، وكان منزل العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين ، فمن هناك يقال: نزل على سعد بن خيثمة . ها نحن ندلف إلى ابتداء التربية النبوية العلنية لأول مرة ، ويلتقى ﷺ مع صحابته العزاب من المهاجرين عند سعد بن خيثمة ، وبدأ الناس يسعدون بالاستماع إلى الإسلام دون خوف أو سطوة من أحد ، وذلك فى إقامة الحكومة المؤقتة فى بنى عمرو بن عوف فى قباء ، وبدأ المهاجرون يحسون لأول مرة أن الدعوة إلى الله وإعلان شعائر الإسلام ، والجلوس إلى المصطفى ﷺ ، ليس جريمة يعاقب عليها الملأ ، وليس عملية سرية يجب التخطيط لها ، والاستعداد للمواجهة من جرائها ، إنهم قد ولدوا من جديد ، ويستطيعون الجلوس طيلة النهار مع حبيبهم وقائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ دونما رقيب أو حسيب ، ودونما خوف أو وجل من أحد (٢) .

٤ ـ وبأفراح هذا الجو الجديد ، وبمباهج هذه الحكومة الجديدة ، يقول عمار بن ياسر رضي الله عنه الذى لاقى الأمرين فى أجواء مكة ، والذى بقى يعذب ويطارد حتى أظهر الكفر ، وأعطاهم إياه وقلبه مطمئن بالإيمان ، يعلن هذا السيد العظيم اليوم : (ما لرسول الله ﷺ بد من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلى فيه) ، فجمع حجارة ، فبنى مسجد قباء . فهو أول من بنى مسجداً .

وروى الحافظ والسيد : يعنى لعامة المسلمين أو للنبى ﷺ . وهو فى التحقيق أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهراً) .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة م١ / ٢ / ١٠٣ .   (٢) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٨٠ .

هذا ولم يستيقظ المسلمون صبيحة وصولهم إلى قباء ووصول قائدهم إليهم - عليه الصلاة والسلام - ليمضوا الوقت فى التهانى ؛ بل أصبحوا ليقضوا الوقت فى العمل ، فأى رجال هؤلاء ؟

(لقد اختلف فى قدر إقامته فى بنى عمرو بن عوف ، ففى الصحيح عن ابن شهاب ، عن عروة بن الزبير : أنه ﷺ لبث فيهم بضع عشرة ليلة ، وفيه عن أنس : أنه أقام لهم أربع عشرة ليلة ، وقدمه فى الإشارة وقيل : خمس ليالٍ . قاله ابن إسحاق، وقال ابن حبان : أقام بها الثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس يعنى وخرج يوم الجمعة فلم يعتد بيوم الخروج ، وقال ابن عباس وابن عقبة : ثلاث ليال ، فكأنهما لم يعتدا بيومى الخروج ولا الدخول ، وعن قوم من بنى عمرو بن عوف : أنه أقام فيهم اثنين وعشرين يوماً) (١) .

ويقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : (وجزم ابن حزم : بأنه خرج من مكة لثلاث ليالٍ بقين من صفر ، وهذا يوافق قول هشام بن الكلبى : إنه خرج من الغار ليلة الإثنين أول يوم من ربيع الأول . فإن كان محفوظاً ، فلعل قدومه قباء كان يوم الإثنين ثامن ربيع الأول ، وإذا ضم إلى قول أنس: إنه أقام بقباء أربع عشرة ليلة . خرج منه أن دخوله المدينة كان لاثنين وعشرين منه) (٢) .

لقد تشرف الوجود بمقدمه ﷺ فى شهر ربيع الأول قبل ثلاث وخمسين عاماً ، وها هو فى ربيع الأول تتشرف البشرية وتتشرف المدينة بمقدمه إليها - عليه الصلاة والسلام - وقد نصره الله بعد أن أخرجه الذين كفروا .

وكان الشيطان على موعد مع أبى جهل ، أن يطووا صفحته من الوجود ؛ ليقتلوه كما قر قرارهم الأخير ، لكن الإرادة الربانية كانت أن تبدأ صفحة وجود الأمة الإسلامية . منذ هذا التاريخ .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ (٤) :

ولقدكان تأسيس المسجد من أول يوم فى هذه الأمة ، وعوضاً عن أن يأتى - عليه الصلاة والسلام - فيقص الشريط الحريرى للمسجد ،أو يضع حجر الأساس فى بنائه .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٨٣ .

(٢) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٤٤ ك . مناقب الأنصار .

(٣) الأنفال / ٣٠ . (٤) التوبة / ١٠٨ .

وتتجه الكاميرات التلفزيونية كلها لتصويره وهو يفعل ذلك كما هو الحال فى قياداتنا اليوم ، ويكتب فى سطور من ذهب وضع حجر الأساس : فلان ، جلالة الملك ، أو فخامة الرئيس . بدل هذا كله ، ننظر إلى (كاميرا) تصوير الشموس بنت النعمان ـ رضى الله عنها ـ والتى جاءت بلقطة للقائد أثناء هذا الأساس :

(فرأيته يأخذ بالحجر أو الصخرة حتى يهصره الحجر (يثنيه ويميله من ثقله) وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سرُتّه ، فيأتى الرجل من أصحابه ويقول : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى ، اعطنى أكفك .فيقول : « لا ، خذ مثله » حتى أسسه .

وهذه اللقطة التصويرية تغنينا عن أى تعليق ، فقد كان درس التربية اليوم درساً عملياً لهؤلاء العشرات المتزاحمين فى بناء المسجد ، قبل أن تبدأ الدروس النظرية فيه ، وكان الجواب : « لا . خذ مثله » .

ولم يودّع هؤلاء العشرات إلا بثناء رب الوجود عليهم . سواء أكان هذا الثناء عقب البناء والتأسيس مباشرة أو كان بعد ذلك ، فنحن مع من قال رب الوجود فيهم : وفى مسجدهم : ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ (١) .

وسواءً أكانت هذه الآية الآن ، أو بعد أيام مع المئات فى المسجد النبوى فالنتيجة واحدة ، ولا نقف عند اختلاف الروايات فى أول مسجدا أسس على التقوى ؛ لأن كليهما يصح فيه ذلك ، إنما المهم أننا مع جيل يمثل الطهارة فى الأرض ، والنظافة فى الوجود ، مع رجالٍ يحبون أن يتطهروا ، فهم أحباب الله تحت هذا الأديم ، فالله يحب المطهرين .

بقى أن نعلم : أن كلثوم بن الهدم رضي الله عنه شيخ بنى عمرو بن عوف ، والذى حمل على عاتقه ضيافة أصحاب محمد ﷺ فى بنى عمرو بن عوف ، هو نفسه الذى قدّم أرضه كذلك لتكون المركز الأول للإسلام فى هذه الوجود ، وهو (المشرك) الذى ربط حياته بالإسلام ، ونبى الإسلام ، وخالط حب المصطفى بشاشة قلبه ،قبل أن يخالط الإيمان بشاشة قلبه ؛ ليكون بعد هذا ابن الإسلام العظيم ، وأول الوافدين على الله تعالى من هذه الأمة : الذين يحبون أن يطهروا كما فى الروايتين التاليتين :

(وكان لكلثوم بن الهدم مربد ، والمربد : الموضع الذى يبسط فيه التمر ليجف)

---

(١) التوبة / ١٠٨ .

فأخذه منه رسول الله ﷺ ، فأسسه وبناه مسجداً) (١) .

(وذكر موسى بن عقبة ، وغيره من أهل المغازى : أن النبى ﷺ نزل عليه بقباء أول ما قدم المدينة ، وقال بعضهم : نزل على سعد بن خيثمة ، وقال الواقدى: كان نزوله على كلثوم ، وكان يتحدث فى بيت سعد بن خيثمة ؛ لأن منزله كان منزل القرآن،وذكر الطبرى وابن قتيبة : أنه أول من مات من أصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم مات بعده أسعد بن زرارة ، وله ذكر فى ترجمة غلامه نجيح) (٢) ويالهما من سعيدين كانا أول وافدين على ربهم من هذا الجيل ؛ فأسعد بن زرارة كان عمره فى الإسلام سنة أو تزيد قليلاً ، وضع أساس الإسلام ودعوته فى المدينة ، وكلثوم بن الهدم كان عمره فى الإسلام أشهراً فقط ، نزل فى ضيافته المهاجرون العظام فى البداية، وعلى رأسهم سيد الخلق ﷺ وبأرض مربده قام أول مسجد أسس على التقوى فى الأرض بعد البيت الحرام وبيت المقدس .

٥ ـ ولابد أن نذكر لقطة أخيرة تعطينا صورة عن هذا المجتمع الجديد الذى بدأنا الآن نلمس آثاره لمس اليد ، هذه اللقطة هى لقطة على بن أبى طالب رضي الله عنه وقد وصل بعد ثلاثة أيام أو أكثر من وصول المصطفى ﷺ لقباء ، وجراح رجليه تنزف دماً من طيلة الطريق وصعوبته ، وقد نفَّذ المهمات الموكلة إليه كاملة لقطته وقد راعه أن يرى رجلاً يأتى كل يوم إلى امرأة لازوج لها إذا جن المساء ، وفى هذه الدولة الجديدة تعتبر هذه العملية مثيرة للريبة والشك ، ومحط المراقبة الشديدة ، وقبل أن يصدر حكمه ، ويتم اعتقال الجانى ويودع فى السجن . تقدم على رضي الله عنه يسأل المرأة كذلك : يا أمة الله، من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدرى ما هو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟ قالت : هذا سهل بن حنيف ، قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه ، فكسرها ثم جاءنى بها ، فقال : احتطبى بها .

وانتهى التحقيق ، وقضى الأمر ، وغدا سهل بن حنيف من الشخصيات العظيمة عند على رضي الله عنه . فإذا به وقد غدا أمير المؤمنين يبعثه والياً على البصرة .

ونعود للقطة نفسها التى تشير إلى أن أوثان المشركين ،قد أصبحت نهباً للمسلمين، وليس للمشركين شوكة تدفع عن هذه الآلهة المزيفة ، ليحطم هذا العمل تلك القدسية المزيفة فى نفوس العابدين ، ويعيدوا حساباتهم من جديد ، فيحطموا أوهام وخرافات

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٨٠ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٣ / ٥ / ٣١١ .

هذه الآلهة ، وتتابع موجهم فى الانضمام إلى الإسلام. ولا تبقى امرأة جائعة أو محتاجة فى هذا المجتمع الجديد ، ولو أن تحتطب هذه الأوثان المكسرة . فتبيعها بدريهمات ، تكسب بها قوتها ، وتغنيها الحاجة والتكفف إلى الناس ، فسهيل يبنى عملاً للمرأة تكسب منه ولا يعطيها صدقة تجعلها عالة على المجتمع .

الرسول ﷺ فى المدينة

روى الإمام أحمد والشيخان عن أبى بكر ، وسعيد بن منصور عن عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهم ـ والبيهقى عن موسى بن عقبة ، وابن إسحاق عن عويم بن ساعدة ، ويحيى بن الحسن عن عمارة بن خزيمة : أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يدخل المدينة : أرسل إلى بنى النجار ، وكانوا أخواله ؛ لأن أم عبد المطلب منهم ، كما تقدّم فى باب النسب ، فجاؤوا متقلدى السيوف ، فقالوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه : اركبوا آمنين مطاعين ، وكان اليوم يوم الجمعة ، فلما ارتفع النهار دعا رسول الله ﷺ براحلته، وحشد المسلمون ولبسوا السلاح ، وركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء والناس معه عن يمينه وعن شماله وخلفه ، منهم الماشى والراكب فاجتمعت بنو عمرو ابن عوف فقالوا : يا رسول الله ، أخرجت ملالاً لنا ، أم تريد داراً خيراً من دارنا ؟ قال : « إنى أمرت بقرية تأكل القرى فخلوها ـ أى ناقته ـ فإنها مأمورة » . فخرج رسول الله ﷺ من قُباء يريد المدينة ، فتلقاه الناس فخرجوا فى الطرق وعلى الأباعر ، وصار الخدم والصبيان يقولون : الله أكبر جاءنا رسول الله . جاء محمد ، قال أنس فيما رواه البيهقى : (إنى لأسعى مع الغلمان إذ قالوا : محمد جاء ، فننطلق فلا نرى شيئاً، حتى أقبل وصاحبه أبو بكر ، فكمنّا فى بعض جدر المدينة ، وبعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار ، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار ، حتى انتهوا إليهما. فقالت الأنصار : انطلقا آمنين مطاعين ، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن : أيُّهم هو ؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ .

روى الإمام أحمد وأبو داود ، عن أنس رضي الله عنه قال : (لما قدم رسول الله ﷺ لعبت الأحباش بحرابها فرحاً بقدومه) . وروى البيهقى ورزين، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :ولما قدم رسول الله ﷺ جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

زاد رزين :

أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

وروى البخارى ، عن البراء رضي الله عنه أنه قال : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله ﷺ . وروى ابن ماجة عن أنس رضي الله عنه قال : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء ، وروى ابن أبى خيثمة رضي الله عنه قال:

شهدت يوم دخل رسول الله ﷺ المدينة ،فلم أر يوماً أحسن منه ولا أضوأ ، فلم يمر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا : هلمَّ يا رسول الله إلى العز والعزة والمنعة والثروة . فيقول لهم : خيراً ويدعو أو يقول : « إنها مأمورة فخلوا سبيلها » . فمر بهما سالم ، فقام إليه عتبان بن مالك ، ونوفل بن عبد الله بن مالك بن العجلان وهو آخذ زمام راحلته فقال : يا رسول الله ، انزل فينا فإن فينا العدد والعشيرة والحلقة(١) ، ونحن أصحاب الفضاء (٢) والحدائق والدَّرك (٣) يا رسول الله ، قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة (٤) خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له : قوقل (٥) حيث شئت . فجعل رسول الله ﷺ يتبسم ويقول : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » . فقام إليه عبادة بن الصامت ، وعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان فجعلا يقولان : يا رسول الله ، انزل فينا ، فيقول : « بارك الله عليكم إنها مأمورة ».

فلما أتى مسجد بنى سالم وهو المسجد الذى فى الوادى ـ وادى رانوناء ـ (٦) أدركته الجمعة هناك فصلاها فيه وكانت أول جمعة صلاها فى المدينة ، وقيل إنه كان يصلى الجمعة بمسجد قُباء ، وعند ابن سعد : أنه صلى معه الجمعة مائة نفس ، ثم أخذ رسول الله ﷺ عن يمين الطريق حتى جاء بنو الحبلى ، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبى بن سلول وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسها فقال : اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم . فقال سعد بن عبادة : لا تجد يا رسول الله فى نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه عليها ، فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك شرق بذلك ، ولكن هذه دارى . ذكره موسى بن عقبة ورزين ، قال السيد : الذى فى الصحيح ذكر سعد بن عبادة لذلك فى قصة عيادته ﷺ له من مرض بعد سكناه بالمدينة . قلت : ويحتمل أن سعداً قال ذلك مرتين . والله أعلم .

فمرّ رسول الله ﷺ ببنى ساعدة فقال له سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، وأبو

---

(١) الحلْقة : السلاح . (٢) الفضاء : الأرض الوسيعة .

(٣) الدرك : اللحاق والوصول إلى الشىء .

(٤) البحرة : الأرض والبلدة . وأصل البُحرة : فجوة من الأرض تنبسط وتتسع ومتسع .

(٥) قوقل :القوقلة : التغلغل فى الشىء والدخول فيه .

(٦) وادى رانوناء : واد فى المدينة صلى فيه النبى الجمعة .

دجانة : هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد،وسعد يقول: يا رسول الله، ليس فى قومى رجل أكثر عذقاً ولافم بثر منى مع الثروة والجلد والعدد . فيقول رسول الله ﷺ : « يا أبا ثابت ، خل سبيلها فإنها مأمورة » ، فمضى واعترضه سعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة ، وبشير بن سعد فقالوا : يا رسول الله ، لا تجاوزنا فإنا أهل عدد وثروة وحلقة . قال : « بارك الله فيكم خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، واعترضه زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو من بنى بياضة . فقالا : يا رسول الله ، هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة ، نحن أهل الدرك يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، وفى حديث البراء قال : « إنى أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك » ، ثم مر ببنى عدى بن النجار وهم أخواله فقام أبو سليط ، وصرمة بن أبى أنس فى قومهما فقالا : يا رسول الله ، نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة والقوة مع القرابة لا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله ، ليس أحد من قومنا أولى بك منا ، لقرابتنا بك . فقال رسول الله ﷺ : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » .

فسار حتى إذا أتت دار بنى عدى بن النجار . قامت إليه وجوههم ، ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد . فبركت راحلته على باب مسجده ﷺ . وذكر الأقشهرى فى روضته عن ابن نافع صاحب مالك فى أثناء كلام نقله عن مالك : أن ناقته ﷺ لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها وأخذه الذى كان يأخذه عند الوحى . ثم وثبت فسارت غير بعيد ، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ثم تلحلحت (١) وأرزمت (٢) ووضعت جرانها (٣) . وجعل جبار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتنزل فى دار بنى سلمة فلم تفعل فنزل رسول الله ﷺ عنها وقال : « هنا المنزل إن شاء الله » ، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ (٤) . وجاء أبو أيوب ، فكلموه فى النزول عليهم . فقال رسول الله ﷺ : «أى بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله ، هذه دارى وهذا بابى وقد حططنا رحلك فيها . قال : « فانطلق فهيئ لنا مقيلاً » . فذهب فهيأ لهما مقيلاً .

وروى الطبرانى ، عن عبد الله بن الزبير : أنه كان هناك عريش يرشونه ويعمرونه ويتبردون فيه حتى نزل رسول الله ﷺ عن راحلته فأوى إلى الظل فنزل فيه ، فأتاه

---

(١) تلحلحت : أقامت ولزمت مكانها ولم تبرح . (٢) أرزمت : صوَّتت .

(٣) الجران :مقدّم عنق البعير . فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل : ألقى جرانه بالأرض .

(٤) المؤمنون / ٢٩ .

أبو أيوب فقال : يا رسول الله ، منزلى أقرب المنازل إليك فانقل رحلك . قال : «نعم». فذهب برحله إلى المنزل فأتاه آخر . فقال : يا رسول الله ، انزل على . فقال ﷺ : «المرء مع رحله حيث كان » ، فمضت مثلاً ، فنزل رسول الله ﷺ فى منزل أبى أيوب. وقر قراره واطمأنت داره ، ونزل معه زيد بن حارثة .

وروى الحاكم وأبو سعيد النيسابورى : أن رسول الله ﷺ لما نزل على أبى أيوب خرج جوار من بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوارٍ من بنى النجار   يا حبذا محمد من جار

فقال رسول الله ﷺ: « أتُحببننى ؟ » قلن: نعم يا رسول الله ، فقال : « وأنا والله أحبكن » ، قالها ثلاثاً . . .

وروى ابن إسحاق ومسلم ، عن أبى أيوب رضي الله عنه قال : لما نزل علىّ رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى السفل ، وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له : يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر فكن أنت فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل .فقال : « إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت » . قال : فكان رسول الله ﷺ فى سفله، وكنا فوقه فى المسكن . فلقد انكسر حُبٌ لنا فيه ماء . فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه ،وذكر أن أبا أيوب لم يزل يتضرع إلى النبى ﷺ حتى تحول رسول الله ﷺ فى العلو وأبو أيوب فى السفل . قال أبو أيوب : كنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده، فأكلنا منه نبتغى البركة ،حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً ، فرده ﷺ . ولم أر ليده فيه أثراً . قال : فجئته فزعاً فقلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، رددت عشاءك ،ولم أر موضع يدك ، نبتغى بذلك البركة .قال :

« إنى وجدت ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه » .

قال : فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد .

وفى كتاب أخبار المدينة ليحيى بن الحسن ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

لما نزل رسول الله ﷺ على أبى أيوب لم يدخل منزل رسول الله هدية ، وأول هدية دخلت بها عليه قصعة مثرودة خبز بر وسمناً ولبناً فأضعها بين يديه . فقلت : يا رسول الله ، أرسلت بهذه القصعة أمى . فقال:« بارك الله فيها » ، ودعا أصحابه

فأكلوا فلم أرم (١) الباب حتى جاءته قصعة سعد بن عبادة على رأس غلام مغطاة . فأقف على باب أبى أيوب ، فأكشف غطاءها لأنظر ، فرأيت ثريداً عليه عُراقٌ (٢) . فدخل بها على رسول الله ﷺ . قال زيد : فلقد كنا فى بنى مالك بن النجار ما من ليلة إلا على باب رسول الله ﷺ منا الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ويتناوبون بينهم حتى تحوَّل رسول الله ﷺ من بيت أبى أيوب ، وكان مقامه فيه سبعة أشهر ، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة ، وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة ، وفيه أنه قيل لأم أيوب: أى الطعام كان أحب إلى رسول الله ﷺ فإنكم عرفتم ذلك لمقامه عندكم ؟ قالت: ما رأيته أمر بطعام صُنع له بعينه ، ولا رأيناه أُتى بطعام فعابه ، وقد أخبرنى أبو أيوب أنه تعشى عنده ليلة من قصعة أرسل بها سعد بن عبادة طفيشل (٣) . فقال أبو أيوب : فرأيت رسول الله ﷺ ينهل تلك القدر ما لم أره ينهل غيرها ، فكنا نعملها له. وكنا نعمل له الهريس وكانت تعجبه ، وكان يحضر عشاءه خمسة إلى ستة عشر ، كما يكون الطعام فى الكثرة والقلة .

قال ابن إسحاق : وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة بنت زمعة زوجته ، وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر فيهم عائشة وأختها أسماء زوج الزبير وأم رومان ـ أم عائشة . فلما قدموا المدينة نزلوا فى بيت حارثة بن النعمان ، وذكر رزين : أن أبا بكر أرسل عبد الله بن أريقط مع زيد ليأتيه بأهله .

قال ابن إسحاق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة إلا مفتون أو محبوس ، ولما اطمأنت برسول الله ﷺ داره ، وأظهر الله بها دينه ، وسره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهّل ولايته . قال أبو قيس ـ صرمة بن أبى أنس ـ أخو بنى عدى بن النجار ، يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام، وما خصهم به من نزول رسول الله ﷺ عليهم :

---

(١) أرم : أبرح .

(٢) عراق : جمع عرق وهو العظم إذا أخذ منه معظم اللحم ، ويقال : عرقت العظيم أى أخذت منه اللحم بأسنانك .

(٣) الطُفيشل : (فى القاموس المحيط) بوزن سميدع نوع من المرق .

ثوى[1] فى قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا[2]
ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقا واطمأنت به النوى[3] ... وكان لنا عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لايخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا[4]
بذلنا الأموال من حِلٍّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا[5]
ونعلم أن الله لا شىء غيره ... ونعلم أن الله أفضل هاديا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
أقول إذا أدعوك فى كل بيعة ... تباركت قد أكثرتُ لاسمك داعيا
أقول إذا جاوزت أرضاً مخيفة ... حنانيك[6] لاتظهر علىّ الأعاديا
فطأ معرضاً إن الحتوف كثيرة ... وإنك لا تبقى لنفسك باقيا
فو الله ما يدرى الفتى كيف يتقى ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولا تحفل النخل المعيمة[7] ربها ... إذا أصبحت رياً وأصبح ثاويا

١ ـ نحن فى بداية عهد جديد ، نلحظ معالمه ، ونشاهد آثاره ، إنه عهد الدولة المسلمة التى تحميها السيوف المسلمة ، والسواعد المسلمة ، ولا تحميها السيوف الهاشمية ولا الحماية المشركة ، ومن أجل ذلك عندما بعث رسول الله ﷺ رسله فى الأنصار ، ارتجت المدينة كلها لاستقباله استقبالاً عسكرياً يتناسب مع استقبال الفاتحين ، لقد جاء الأنصار متقلدى سيوفهم ، يحفون بقائدهم الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من كل جانب ، ولأول مرة تظهر القوة الإسلامية فى المدينة كما ذكر النص ، زهاء خمسمائة من الأنصار ، لقد غدت يثرب عاصمة إسلامية ، تتحرك بأمر رسول الله ـ صلوات الله

(١) ثوى : أقام
(٢) مواتيا : موافقاً .
(٣) النوى : البعد والسفر .
(٤) نائياً : بعيداً .
(٥) التآسى : التعاون .
(٦) حنانيك : أى تحنناً بعد تحنن . والتحنن الرأفة والرحمة .
(٧) النحل المعيمة : النخل العاطشة . وعند ابن السكيت العيم : إفراط الشهوة إلى اللبن .

وسلامه عليه . ومن الخروج فى الليل تحت جنح الظلام مع الصديق رضي الله عنه أمام سيوف وحراب قريش إلى رعاية المقاتلين الأشداء ، والمجاهدين الأبطال ، الذين خاضوا الحروب العنيفة زهاء مائة عام ، والذين قالوا لسيدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وناثبه : اركبا آمنين مطاعين ، فهو الحاكم الذى تدين المدينة له بالولاء والطاعة وهؤلاء جميعاً جنده ، وحراسه ورجالاته .

وحشد المسلمون ولبسوا السلاح ، وركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء والناس معه عن يمينه وعن شماله وخلفه ، منهم الماشى والراكب .

وكان لابد لهذا الاستعراض العسكرى الحاشد أمام الصف الداخلى أولاً ، أمام اليهود والذين يتلمظون حقداً على المسلمين ، وأمام المشركين الذين قد يهتمون بالمعارضة أو المواجهة ، وأمام العدو الخارجى كذلك ، والذى قد تحدثه نفسه أن يغزو المدينة أو ينقض عليها من الظهر .

إن القوة المرهوبة الجانب ، هى عنصر أصيل فى الإسلام وليست عنصراً طارئاً ، وبهذه القوة تدين الأمة وتستمع إلى الإسلام وتتعرف عليه .

وعرف المسلمون من الأنصار والمهاجرين أنهم مقدمون على مواجهة سافرة مع العدو ، وأن عليهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة كل طارئ .

ونحن الآن ، وفى هذه المرحلة الجديدة تتضح الصور أمامنا ، وتزداد جلاءً ، وتعرض علينا أدق التفصيلات ، وتظهر آثار التربية النبوية العظيمة فى هذا المجتمع الجديد ، وبين هؤلاء الرجال العظام .

٢ ـ ولا أدل على ذلك من بروز النقباء جميعاً أثناء هذه المسيرة من بنى عمرو بن عوف لبنى عدى بن النجار والذين مثلوا القيادات التنفيذية فى المدينة وكما قال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم . وأنا كفيل على قومى » .

وهم المسؤولون كذلك عن الحماية التى أعلنوها فى حرب الأحمر والأسود من الناس ذوداً عن هذا الدين ونبيه ، ومن أجل هذا جاء عتبان بن مالك بن العجلان ، ونوفل ابن أخيه عبد الله ، والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان وهم سادة بنى سالم بن عوف ، وعلى رأسهم عبادة بن الصامت نقيب بنى عنز بن عوف وهم يقولون :

(يا رسول الله ، انزل فينا فإن فينا العدد والعشيرة والحلقة ، ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدرك يا رسول الله ، قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له : قوقل حيث شئت ، ثم جاء سعد بن عبادة نقيب بنى ساعدة ، والمنذر بن عمرو نقيبهم الثانى مع أبى دجانة وقالوا : هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد ، وسعد يقول : يا رسول الله ، ليس فى قومى رجل أكثر عذقاً ولا فم بئر منى مع الثروة والجلد والعدد .

ثم يعترضه سعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة نقيبا بنى الحارث بن الخزرج مع بشير بن سعد فيقولون له ـ عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ، لا تجاوزنا فإنا أهل عدد وثروة وحلقة .

كما يعترضه زياد بن لبيد ،وفروة بن عمرو سيدا بنى بياضة فيقولان :

يا رسول الله ، هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة ، نحن أهل الدرك يا رسول الله .

لقد مر ببطون خمسة من النقباء الاثنى عشر دعوه إلى أن ينزل عندهم يحمونه مما يحمون منه أزرهم وأولادهم كما عاهدوه فى العقبة ، ونزل عند بنى عمرو بن عوف وفيهم نقيبان عظيمان هما رفاعة بن عبد المنذر ، وسعد بن خيثمة ، وآلمهما أن يغادرهما رسول الله ﷺ بعد الإقامة المؤقتة فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، وهم يقولون له : يا رسول الله ، أخرجت ملالاً منا أم تريد داراً خيراً من دارنا .

فهؤلاء النقباء السبعة . أما الخمسة الآخرون : فلم يمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ على دارهم لأن بنى النجار فى وسط المدينة ، وقد نزل فى بنى عدى بن النجار وأسعد ابن زرارة نقيبهم .

أما الأربعة الآخرون : فهم أسيد بن الحضير سيد بنى عبد الأشهل مع سعد بن معاذ ـ رضى الله عنهما ـ ورفاعة بن رافع بن مالك سيد بنى زريق من بنى جشم بن الخزرج، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، والبراء بن معرور سيدا بنى سلمة من بنى جشم بن الخزرج ، فقد كانوا فى الطرف الآخر من المدينة ، ولم يمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ على بطن صغير أو كبير من الأنصار كما هو النص : (فلم يمر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا : هلم يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة) .

لقد كان الأنصار إذن بسيوفهم وسلاحهم يضعون كل قوتهم تحت تصرف قائدهم الأعظم ﷺ ؛ تنفيذاً لما عاهدوا الله تعالى عليه .

٣ ـ وأمام هذه الجحافل العظيمة المؤمنة ، وهذه الدعوات الحرّى فى طلب النزول والضيافة عندهم ، كان الجواب النبوى الحكيم : « إنها مأمورة ، خلوا سبيلها » ، كما يدعو لهم : « بارك الله عليكم ، إنها مأمورة » ، وقد صرَّح بهذا الأمر ابتداء بالاتجاه من قباء إلى المدينة حيث أجاب بنى عمرو بن عوف الأوسيين ـ رضى الله عنهم ـ بقوله:

« إنى أمرت بقرية تأكل القرى خلوا سبيلها ــ أى ناقته ـ فإنها مأمورة » .

وبذلك رفع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من نفوس هذه القيادات عوامل التناحر والتنافس والضغن ، بحيث أدركوا أن الله تعالى هو الذى يختار لنبيه موطن إقامته، والبطن الذى ينزل فيه ، ونزع من نفوسهم كل نوازع الصراع ، والتوتر حين ربط ذلك بأمر الله عز وجل ، ولم يعرف المسلمون بعد من الأمر إلا أن مقصده المدينة نفسها كما عبر عنها ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إنى أمرت بقرية تأكل القرى » ، وكانت هذه التربية العلنية العامة التى مست قلوب هذه القيادات ، وزرعت فيها السكينة والطمأنينة هى التى رافقت كل خطوة من خطوات النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهم جميعاً برفقته ـ عليه الصلاة والسلام ـ من قباء إلى طيبة الطيبة .

ولا شك أن التنافس بين الأوس والخزرج هو فى ذروته ، ومن أجل هذا طيب رسول الله ﷺ نفوس الأوس ابتداءً بالنزول على بنى عمرو بن عوف منهم فى قباء ، وأقام بضعة عشر يوماً عندهم . وبعدها مضى ليقيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين ظهرانى الخزرج .

٤ ـ وعلى الطريق ، وقبل الوصول إلى المدينة أدركته الجمعة ﷺ فى بنى سالم بن عوف فصلى بالمسلمين هناك وتناقل الرواة نبأ هذه الخطبة ، فقد حُشد فيها زهاء مائة نفس من الأنصار ، وهو أكبر تجمع للمسلمين فى الصلاة الجماعية ، ولم ينس المؤرخوّن كذلك أن ينقلوا خبر هذه الخطبة .

(فلما أتى مسجد بنىْ سالم ـ وهو المسجد الذى فى الوادى ـ وادى رانوناء ـ أدركته الجمعة هناك فصلاها فيه ، وكانت أول جمعة صلاها فى المدينة ، وقيل : إنه كان يصلى الجمعة بمسجد قباء) .

وفى هذا الجمع الحاشد لأول مرة نقلت لنا كتب التاريخ هذه الخطبة التى خطبها هناك :

روى ابن جرير ، عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحى أنه بلغه عن خطبة رسول الله

ﷺ فى أول جمعة صلاها فى المدينة فى بنى سالم بن عوف :

« الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه ، وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط وضل ضلالاً بعيداً ، أوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله عز وجل . فاحذروا ماحذّركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ، ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله تعالى من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل أمره وذخراً له فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان ممّا سوى ذلك يودٌّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [(١)] . هو الذى صدق قوله وأنجز وعده، لا خُلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ [(٢)] . فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية فإنه : ﴿ **مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا** ﴾ [(٣)] ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله توقى مقته ، وتوقى عقوبته ، وتوقى سخطه ، وتقوى الله تبيِّض الوجوه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة ، فخذوا بحظكم ، ولا تفرِّطوا فى جنب الله ، فقد علمكم كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فأكثروا ذكر الله تعالى ، واعملوا لما بعد الموت ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»[(٤)] .

لأول مرة فى تاريخ السيرة النبوية يتمكن عليه الصلاة والسلام أن يقف خطيباً بين

---

(١) آل عمران / ٣٠ . (٢) ق / ٢٩ .

(٣) الطلاق / ٥ .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٤٧٨/٣ . وهو فى تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٥ عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب، عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحى .

المسلمين . أو لعلها المرة الأولى التى نُقِلت لنا فى السيرة ، فما ندرى إن تم بقباء شيء من ذلك أم لا ، على اختلاف الرواة فى مدة الإقامة فى قباء ، وها نحن نشهد عهداً جديداً فى التربية ، هو عهد التربية الجماعية بحيث يصغى المسلمون لسيد الخلق يعظهم ويذكرهم ويقف فيهم خطيباً ، ويستطيع عليه الصلاة والسلام أن يجعل نهاره كله وشهره كله لهذا التوجيه النبوى ، وهذه الموعظة العظيمة ، فتعمر القلوب بالإيمان والتقوى وتتفتح النفوس بالطاعة والهدى ، وتُشحن الأفئدة بحب الله ورسوله .

لم تعد التربية كلمة عابرة فى الطريق ، أو توجيهاً محدداً بعيداً عن الأعين ، أو عرضاً سريعاً متناسباً مع السرية ، إنما أصبح الوقت كله معداً ومفتوحاً للتربية النبوية ، وصار تلقى النور والاستضاءة بهدى الله ورسوله متوفراً لكل طالب علم ، وقاصد نور.

٥ ـ وقد كانت رغبة الحبيب المصطفى ﷺ أن ينتقل من قومه إلى أهله ، من أعمامه إلى أخواله ، فقد كان يحب ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن ينزل عند أخواله بنى النجار . ففى حديث البراء : « إنى أنزل على أخوال عبدالمطلب أكرمهم بذلك » ، لكنه ترك الناقة تمضى كما يوجهها ربها ، وحقَّق الله تعالى رغبة نبيه ، فقد بركت الناقة فى بنى عدى بن النجار ، لكنه قبل أن يترك الناقة فى مضاربهم كان جوابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهم كجوابه للقيادات جميعاً :

ثم مر ببنى عدى بن النجار ، وهم أخواله ، فقام أبو سليط ، وصرمة بن أبى أنس فى قومهما فقالا : يا رسول الله ، نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة ، والقوة مع القرابة ، لا تجاوزنا إلى غيرنا يارسول الله ، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا بك . فقال رسول الله ﷺ : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، ومضت الناقة فى ديار بنى عدى حتى انتهت إلى باب المسجد ـ الذى غدا مسجداً فيما بعد ـ فبركت راحلته على باب مسجده .

لقد كان الله تعالى يبعث النبى فى منعة من قومه ، وهذا محمد ﷺ ، قد كان فى منعة من قومه بنى هاشم وبنى المطلب ، وها هو فى منعة من أخواله بنى النجار ، وخاصة بنى عدى بن النجار أخوال عبد المطلب ، لقد وثبت الناقة فسارت غير بعيد ، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت ثم تلحلحت وأرزمت ، ووضعت جرانها) . وكان أحد شباب بنى سلمة جبار بن صخر رضي الله عنه ينخسها لعلها تمضى إلى ديار قومه بنى سلمة ، فيفوز قومه بضيافة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكنها لم تفعل .

فنزل رسول الله ﷺ وقال : « هذا المنزل إن شاء الله » ، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً

﴿مُبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [1] . لقد أنزله ربه منزلاً يرضاه ، كما استجاب له بعد فولاه قبلة يرضاها .

٦ ـ أما دروس التربية العملية التى تلقاها الجيل الأول خلال هذه الساعة التى تحرك بها الركب النبوى إلى المدينة ، فقد كانت تتزاحم مع تزاحم المشاعر العنيفة فى هذا اللقاء الفريد ، وأهم هذه الدروس : هو تعامله مع بطون المدينة وقياداتها جميعاً على السواء ، ونزُله حيث اختار ربه له ذلك المنزل .

ومن تلك الدروس كذلك ك نزوله ﷺ عند امرئ عاد من بنى النجار ، إذ هو أقرب البيوت إلى مبرك الناقة ، حيث قال رسول الله ﷺ : « أى بيوت أهلنا أقرب؟».

فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله ، هذه دارى وهذا بابى ، وقد حططنا رحلك فيها. قال : « فانطلق فهيئ لنا مقيلاً » ، ولم ينزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند سيد بنى النجار ، ونقيبهم أسعد بن زرارة رجل الإسلام الأول فى المدينة ، فقد علّم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذه المجموعة المختارة حوله فقه التعامل مع الأشخاص ، وليكن النزول عند أفقر بنى النجار ـ أبى أيوب ، ليسُد كذلك أبواب حب الجاه ، والتنافس بين القيادات حين يختار فقيراً عادياً من بنى النجار ، ولا ينزل فى بيت سادات بنى النجار وسراتهم وأغنيائهم ، إنها قيم جديدة يغرسها فى نفوس هؤلاء الصحب ، لم يعهدوا لها وجوداً من قبل فى تاريخهم . فأبو أيوب رضي الله عنه هو صاحب الحق ؛ لأن بيته أقرب البيوت لمبرك الناقة ، وهو ليس اختياراً نبويا فقط ، بل هو اختيار ربانى حظى به أبو أيوب رضي الله عنه .

وكما تؤكد الرواية الثانية :

وقد روى الطبرانى ، عن عبد الله بن الزبير : أنه كان هناك عريش يرشونه ويعمرونه ويتبردون فيه حتى نزل رسول الله ﷺ عن راحلته ، فأوى إلى الظل فنزل فيه فأتاه أبو أيوب فقال : يا رسول الله ، منزلى أقرب المنازل إليه فأنقل رحلك ؟ قال : «نعم » . فذهب برحله إلى المنزل ، فأتاه آخر فقال : يا رسول الله ، انزل علىّ . فقال ﷺ : «المرء مع رحله حيث كان » وهو درس تربوى آخر فى فقه الإعتذار ، وفقه تقديم الحق على كل شىء حيث قال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ :« المرء مع رحله حيث كان » ، وقد سبق رحله إلى بيت الفقير العظيم أبى أيوب رضي الله عنه .

٧ ـ والنزول عند أبى أيوب رضي الله عنه قدّم عدة معانٍ تربوية إضافة إلى ما ذُكر ، وقد أدركها هذا الجيل العظيم وفقه من خلالها عظمة النبوة .

(١) المؤمنون / ٢٩ .

فهو ﷺ يأكل من الطعام الذى يتناوله أبو أيوب وزوجه ، هذا الطعام المتواضع الذى يأبى الزوجان السعيدان أن يتناولا منه شيئاً حتى يتناوله رسول الله ﷺ ، فيتبعا موضع يده : (وكنا نصنع العشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردَّ علينا فضلة تيمّمتُ أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة) . فالتواضع إذاً سمة أساسية من سمة سيد الأنبياء وإمامهم : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » (١) .

وتعلّم هذا الجيل كذلك أن رسول الله ﷺ لا يعيب طعاماً قط ، وقد أوفدوا لأم أيوب ـ رضى الله عنها ـ من يسألها عن أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ . فأجابتهم :

ما رأيته أمر بطعام فصنع له بعينه ، ولا رأيناه أُتِىَ بطعام فعابه ، وقد أخبرنى أبو أيوب : أنه تعشى عنده ليلة من قصعة أرسل بها سعد بن عبادة طفيشل . فقال أبو أيوب: فرأيت رسول الله ﷺ ينهل تلك القدر ما لم أره ينهل غيرها ، فكنا نعملها له، وكنا نعمل له الهريس (٢) وكانت تعجبه .

وتعلّم هذا الجيل أن سيد الخلق كما يأكل ما تيسّر له من الطعام ، فهو ينزل فى أسفل الدار ليدع أعلاها لصاحبه الفقير أبى أيوب ، وليس نزله تلك القصور ذوات الشرفات العالية ، والردهات الواسعة ، والأثاث الفاخر كما هو الحال فى إيوان كسرى، وقصور قيصر . إن نزله تلك الحجرة المتواضعة فى ذلك البيت البسيط ، ويضرع أبو أيوب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ أن يكون سكنه فى العلو قائلاً : إنى لأكره وأُعظِمٍ أن أكون فوقك وتكون تحتى فاظهر . فكن أنت فى العلو وننزل نحن فنكون فى السِّفل فقال ـ فداه أبى وأمى :

« إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت » ، لقد كان بالإمكان أن يطالب ببناء قصر فخم للقيادة ينزل فيه ، وسراة الأنصار وسادتهم على استعداد أن ينزلوا عن كل بيوتهم له وأموالهم ليهيؤوا النزل الفخم المناسب له ، وقد صار الآن رئيس دولة .

ولكنه ﷺ ترك كل أولئك السراة وبيوتهم ونزل فى هذا البيت البسيط العادى ، ونعرف بساطته من تلك الليلة الحانية التى كان يرعاها رب السماء والأرض ، والتى حدثنا عنها أبو أيوب قائلاً : لقد انكسر لنا حُبٌ (٣) فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٩/ ٢١ وقال فيه : « رواه البزار وفيه حفص بن عمارة الطاحي ولم أعرفه ، وبقية رجاله وثّقوا » .

(٢) الهريس : هو الحب المدقوق قبل أن يطبخ ، فإذا طبخ فهو الهريسة .

(٣) الحب : هو ما يجعل فيه الماء كالجرة والخابية .

بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف به الماء ؛ تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه .

هذا طعامه عليه الصلاة والسلام ، وهذا نزله .

ولكن بيته الذى كان موئل المسلمين لم يمنع سيد الخزرج سعد بن عبادة، وسيد بنى النجار أسعد بن زرارة أن يرفدا بيته ﷺ كل يوم بقصعة من الطعام مناسبة ، للضيوف الذين يفدون إليه .

(وكان يحضر عشاءه خمسة إلى ستة عشر كما يكون فى الكثرة والقلة).

ونتحدث عن هذه الجزئيات المتناثرة لنصل إلى معلمين كبيرين من معالم منهج التربية النبوية ، وقد برزا مع استهلال العهد الجديد ، عهد الدولة المسلمة .

المعْلم الأول : التربية المباشرة :

والمتمثلة بالصلة اليومية الدائمة بين القائد محمد ﷺ وجنده ، بحيث يتلقون أعظم قدر منها على الإطلاق ، مع كل صلاة ، وطيلة النهار ، ورسول الله ﷺ جالس بين ظهرانيهم .

المعْلم الثانى : التربية بالقدوة :

والتى يتجلى فيها التطبيق العملى للإسلام فى شخص سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ والجيل الربانى الذى يشهد هذا السلوك العملى من المطعم والملبس والمسكن ، وهو بين ظهرانيهم كذلك ، يتعلم كيف يطوّر نفسه ويكيف ذاته مع هذا القائد العظيم، مع سيد ولد آدم ـ عليه الصلاة والسلام .

وحتى بعد أن جاء بعياله وأهله ، وعيال أبى بكر وأهل أبى بكر ، بقى الأمر على ما هو عليه .

إنه يعلمهم نظرياً فيربط قلوبهم بالآخرة ، ويقول لهم :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله عز وجل » ، ويعلمهم سلوكياً بحيث لا يعطى لهذه الدنيا بالاً فى كل فتنها وبهارجها ، ويتجه بقلوب هذا الجيل إلى الآخرة ، وهو يربيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ نظرياً إلى معانٍ جديدة لم تكن تخطر على بالهم قبل أن يدخلوا فى هذا الدين ، وهو أن يتجهوا بقلوبهم لمرضاة الله عز وجل ، لا يبتغون وراء ما يعملون ذِكراً بين الناس ، وحمداً على الألسنة ، ولهجاً من الشعراء بمآثرهم وأمجادهم، كما عاشوا من قبل :

« ومن يصلح الذى بينه وبين الله تعالى من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله ، يكن له ذكراً فى عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر إلى ما قدم» .

ويربيهم عملياً على ذلك بحيث لا يتفاوتون فى طعامهم ، ولا يأخذون مواقعهم من كثرة بنيهم وأموالهم ، ويشتركون غنيهم وفقيرهم فى الحياة والطعام والتلقى والتربية، ويتنافسون فى الطاعات والالتزام والتضحية . فهم جيل أشرق قلبه بالنور النبوى الذى اختاره الله تعالى لخلقه .

٨ ـ ولا نستطيع أن نتجاوز حديث الهجرة إلا ونعيش فى الأجواء النفسية التى عاشتها طيبة الطيبة بمناسبة وصول رسول الله ﷺ لها ، فقد شهدت أعظم عيد فى الوجود بهذه الهجرة المباركة .

أما فرحة الرجال ، فقد سمعنا وصفها :

(فخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة ، فتلقاه الناس فخرجوا فى الطرق وعلى الأباعر .... حتى أقبل وصاحبه أبو بكر ، وبعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار ، فاستقبله زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار : انطلقا آمنين مطاعين ...) .

وأما فرحة الخدم والصبيان فكما قال أنس وهو يركض ويمرح معهم :

(وصار الخدم والصبيان يقولون : الله أكبر جاءنا رسول الله ، جاء محمد) .

قال أنس فيما رواه البيهقى : إنى لأسعى مع الغلمان إذ قالوا : محمد جاء فننطلق فلا نرى شيئاً ، حتى أقبل وصاحبه أبو بكر فكمنَّا فى بعض جُدُر المدينة ... فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم ـ الخمسمائة المذكورين .

وأما فرحة النساء :

(فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن : أيُّهم هو؟ أيُّهم هو ؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذٍ) .

وأما فرحة العبيد بقدومه فقد قدموا عرضاً عسكرياً رائعاً بهذه المناسبة :

(روى الإمام أحمد وأبو داود ، عن أنس رضي الله عنه أنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحاً بقدومه) .

وأما فرحة الصبايا الصغار والصبيان والأولاد .. فقد روى البيهقى ورزين عن

عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البـــدر علينــا ... مـــن ثـنيات الوداع

وجـب الشكـر علينا ... مـــا دعـــا للّه داع

زاد رزين :

أيهـا المبعـوث فـينـا ... جـئت بالأمـر المطـاع

هذه الفرحة العامة الغامرة ، أما الفرحة الخاصة حين نزل فى بنى النجار ، فقد شكل الجوارى الصغار عرضاً خاصاً بهن .

فقد روى الحاكم وأبو سعيد النيسابورى : أن رسول الله ﷺ لما نزل على أبى أيوب خرج جوارٍ من بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار ... ياحبذا محـمد مـن جـار

فقال رسول الله ﷺ : « أتحببننى ؟ » . قلن : نعم يارسول الله .

فقال : « وأنا والله أحبكن » ، قالها ثلاثاً .

لقد لبست المدينة أبهى حللها ، وأحلى زينتها وغمرتها الفرحة كلها بنزول المختار ﷺ فيها .

روى البخارى ، عن البراء رضي الله عنه أنه قال : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله ﷺ ، وروى ابن ماجة ، عن أنس رضي الله عنه أنه قال :

لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء .

وروى ابن أبى خيثمة رضي الله عنه قال : (عن أنس : شهدت يوم دخل رسول الله ﷺ المدينة ، فلم أر يوماً أحسن منه وأضوأ هذه هى المدينة فى أحلى أعراسها ، وأرغد أفراحها ، تضم بين حناياها سيد ولد آدم ليقيم على ثراها الطاهر المبارك) .

٩ ـ ولعل هذه الإقامة قد تمت بناءً على تمهيد عظيم تم قبل قرون خلت ، حيث يتصل موكب الإيمان بجذوره العريقة فى القدم ، فنحن أمام حلقة جديدة من سلسلة طويلة الحلقات ، كان ختامها مع ختام الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ، نروى ذلك استئناساً بما ذكره ابن إسحاق فى المبتدأ والخبر عن قصة هذا النزول القديم الجديد :

(ذكر *ابن إسحاق في المبتدأ وابن هشام في التيجان* : أن بيت أبي أيوب الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مقدمة المدينة بناه تُبّع الأول واسمه تبّان أسعد ، وكان معه أربعمائة حَبْر فتعاقدوا على ألا يخرجوا منها ، فسألهم تُبّع عن سر ذلك. فقالوا :

إنا نجد في كتبنا أن نبياً اسمه محمد هذه دار هجرته ، فنحن نقيم لعلنا نلقاه . فأراد تبّع الإقامة معهم ، ثم بنى لكل واحد من أولئك داراً واشترى له جارية وزوجها منه ، وأعطاه مالاً جزيلاً وكتب كتاباً فيه إسلامه ، ومنه :

شهدت على أحمد أنه رسول من الله بارى النسم
فلو مُدَّ عمرى إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه وفرّجت عن صدره كل هم

وختمه بالذهب ، ودفعه إلى كبيرهم ، وسأله أن يدفعه إلى النبي ﷺ إن أدركه ، وإلا فمن أدركه من ولده أو ولد ولده ، وبنى للنبي ﷺ داراً ينزلها إذا قدم المدينة ، فتداول الدار الملاك إلى أن صارت لأبي أيوب ، وهو من ولد ذلك العالم ، وأهل المدينة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء (١) .

ويقال : إن الكتاب الذي فيه الشعر كان عند أبي أيوب حتى دفعه إلى رسول الله ﷺ - وهو غريب - فما نزل رسول الله ﷺ إلا في بيته) (٢) .

١٠ - والنغم النشاز في هذه الهجرة ، والذي كان يسبح عكس التيار ، ويكون جيبًا سيكبر فيما بعد ويضخم هو عبد الله بن أبي الذي وجد أن الانقلاب الإسلامي قد وقع تحت عباءته ودون أن يشعر ، وقد أفنى عمره حتى استطاع أن يحظى بثقة الأوس والخزرج ، فيعقدوا له تاج الملك على المدينة ، وذلك حين لم يشارك قومه الخزرج قتالهم للأوس ؛ لأنهم بغوا عليهم واتفق الأوس والخزرج على تقليده الملك ، قدموه على رأس أضخم وفود يثرب الذين كانوا يتجاوزون الثلاثمائة بصفته السيد الأول الذي لا ينازع ، وهو الذي رفض بعنف فكرة الحلف مع محمد ﷺ ، ونفى أن يكون قد تم

---

(١) وقد ذكر السهيلي ج١ ص ٢٤ إيمان تُبع بالنبي ﷺ ؛ إذ قد روى عنه : « لا تسبوا تبعاً فإنه كان مؤمناً » . وبلفظ : « لأنه كان قد أسلم » عند الإمام أحمد . ورواه عبد الرزاق عن وهب بن منبه قال : نهى النبي ﷺ عن سب أسعد وهو تُبع . غير أن عبد الرزاق روى حديثاً آخر ، عن أبي هريرة مرفوعاً : لا أدرى أتُبع لعين أم لا ؟ . وهذا في نظر السمهودي ج١ ص١٣٤ محمول على أنه ﷺ قبل أن يعلم بحاله . وفي المعارف لابن قتيبة أن أسعد أبا كرب الحميري آمن بالنبي ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وأضاف ص ٢٨ أنه كان أول من كسا البيت الأنطاع .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٣٩٢ .

شيء من هذا فى السر أو العلن .

ما كان لقومى أن يتفوتوا علىَّ مثل هذا .

وقد تفوّت قومه عليه ، وبايعوا المصطفى ﷺ على حمايته وحماية دينه ، ولو هلك المال والولد ، ولو قاتلوا الأحمر والأسود من الناس ، ولو نهكت أموالهم مصيبة، وأشرافهم قتلاً ، فلن يتخلوا عنه .

وأراد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يرأب الصدع الذى فى نفس عبد الله بن أبى، ويرعى سيادته وزعامته بأن ينزل ضيفاً عليه وبذلك يُجبر الكسر ، ويرضى بالسيادة تحت اللواء الإسلامى ، لكن حقده كان أكبر من عقله ، فرفض ذلك.

(.. حتى جاء رسول الله ﷺ بنو الحبلى ، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبى ابن سلول ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسها فقال : اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم) .

لقد كانت هذه أول بادرة هم نالت رسول الله ﷺ منذ وصوله المدينة ، ولعل التأثر كان بادياً على وجهه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هذه المقابلة اللاأخلاقية من ابن أبى، فسارع سعد بن عبادة سيد الخزرج إلى القول :

لا تجد [١] يا رسول الله فى نفسك من قوله : فقد قدمت علينا ، والخزرج تريد أن تملكه عليها ، فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك ، شرق بذلك [٢] ، ولكن هذه دارى .

وكان رسول الله ﷺ يدرك من هذا الرجل ما تعتلج به نفسه للمستقبل ، وأنه سيكون مصدر متاعب كبيرة . وهكذا كان .

١١ ـ رسالة إلى مكة ، لقد أحاط الغموض بهجرة النبى ﷺ بعد أن غادر غار ثور وصاحبه ، وتناقضت الأخبار عنهما بعد ذلك ، إلى أن جاءت الرسالة التى بعثها أبو صرمة بن أبى أنس أخو بنى عدى بن النجار ، وهو يمثل الناطق باسم القبيلة المضيفة ، حيث نزل رسول ﷺ فى مضاربها وبيوتها ، وتناقل الركبان هذه الرسالة . طالما أنها شعر بمثل ما استقرت عليه أوضاع المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى المدينة.

فقد راح يعرِّض ابتداء بقريش الذين حاربوه وآذوه :

---

(١) تجد : أى تجد تأثراً أو ألما ، أو من الوجد بمعنى : الألم والتحسر .
(٢) شَرِق بذلك : ضاق صدره كمن غصّ .

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا

وراح يعرّض كذلك بأهل الموسم حيث كان يعرض نفسه عليهم فيردوه :

ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا

ويعلن باسم أهل المدينة أنه أصبح نزيلاً عندهم فى حمايتهم وبين ظهرانيهم :

فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى ... وكان لنا عوناً من الله باديا

إن أثر التربية النبوية بدا مباشرة عند صرمة رضي الله عنه فقد كان رسول الله ﷺ عوناً للأنصار ،وكان هادياً لهم . وكان سبباً فى إظهار دين الله وإعلاء كلمته .

إنه المن لله ولرسوله ، وليس المنّ لهم عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه .

وهو معلن كذلك أن أرواحهم وأموالهم ودماءهم فداءً له :

بذلنا له الأموال من حِلٍّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتأسيا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا

فهو إعلان سياسى واضح ، أنهم معه ولو وقف الخلق كلهم ضده ، ولو كان أقرب قريب وأصفى حبيب ؛ لأنهم دخلوا فى دين الله طائعين ، حيث يختم حديثه بمناجاة ربانية موحِّدة تنهى كل أثر للشرك فى أرض يثرب وبطاحها :

أقول إذا أدعوك فى كل بيعة [1] ... تباركت قد أكثرت لاسمك داعيا
أقول إذا جاوزت أرضاً مجوفة ... حنانيك لا تظهر علىَّ الأعاديا

إلى آخر الأبيات التى تعلن (هوية) المدينة منذ اليوم .

١٢ ـ وهكذا تحولت المدينة المنورة إلى قلعة من قلاع التوحيد وسط بحر من الشرك، ولا يزال فى هذه القلعة تجمعات لم تعلن موقفها بعد ، هى تجمعات اليهود ، وهى ذات شأن كبير ، وقوة ضاربة ، والأمل أن تنضم إلى الصف الإسلامى ؛ لأنها هى التى كانت تبشر بقدوم النبى المنتظر ، والمسلمون اليوم الذين يبلغ عددهم المئات هم أنصار رسول الله فهم أسعد الناس به، وهم الذين فتحوا أبوابهم لإخوانهم المهاجرين ، الذين راحوا يتوافدون عليهم من مكة وخارج مكة .

لقد قامت دولة الإسلام وعلى رأسها رسول الله ﷺ ، وأعلن الوجود الإسلامى

---

(١) بيعة : مسجد .

فى الأرض كما قال صرمة رضي الله عنه:

نعادى الذى عادى مـن الناس كلهم   جميعاً وإن كـان الحـبيب المصافيا

وسنشهد فى الصفحات القادامات معالم المنهج التربوى الجديد لهذا الجيل، والذى اختلف عما كان عليه الوضع فى مكة ، بعد أن أصبحت حرية الدعوة والحركـة مصونة.

فأصبح لا يخشى من الناس واحداً   قـريباً ولا يخـشى مـن الـناس نـائيا

* * *

اللبنات الأولى للدولة المسلمة

لقد كانت اللبنات الأولى لهذه الدولة هى: بناء المسجد ، المؤاخاة ، بدء الأذان ، إعلان ميثاق الدولة . وسنعالج هذه اللبنات ، ونعالج دور التربية من خلال ذلك .

أولاً : فى بناء المسجد النبوى الأعظم :

تقدم أن ناقته ﷺ بركت عند باب مسجده . فقال رسول الله ﷺ : « هذا المنزل إن شاء الله » ثم أخذ فى النزول ، فقال : « ﴿ **رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**﴾(1) » . وكان مربداً (2) ليتيمين من بنى النجار . . كانا فى حجر أسعد بن زرارة كما فى صحيح البخارى عند أكثر رواته . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ أرسل إلى بنى النجار بسبب موضع المسجد ، فقال : « يا بنى النجار ، ثامنونى بحائطكم هذا » فقالوا : والله لا نطلب ثمنه إلا من الله . وفى رواية : فدعا بالغلامين وساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً . فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله . فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً . وكان أسعد بنى المربد مسجداً قبل أن يقدم النبى ﷺ . . . (3) .

(روى الشيخان والبيهقى ، عن أنس رضي الله عنه قال : كان المسجد جداراً ليس له سقف، وقبلته إلى بيت المقدس ، فكان فيه ما أقول لكم ؛ كانت فيه قبور المشركين ، وكانت فيه خرب ، وكان فيه نخل ، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسوِّيت ، وبالنخل فقطع . قال : فصفُّوا النخل قبلة المسجد ، وجعلوا عضادتيه حجارة . قال : جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره فانصر الأنصار والمهاجره) (4) .

(وفى رواية له عن عائشة :وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِنَ فى بنيانه ويقول وهو ينقل اللَّبِن :

---

(1) المؤمنون / 29 .

(2) المربد : الموضع الذى يجعل فيه التمر .

(3) سبل الهدى والرشاد 3 / 485 .

(4) البخارى 5 / 86 .

« هذا الحمال لا حمال خيبر   هـذا أبـر ربـنـا وأطـهـر »

ويقول :

« اللهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحـم الأنصـار والمهاجـرة »

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسمَّ لى . قال ابن شهاب : ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تامٍ غير هذا البيت) (١) .

(وروى ابن عائذ : أن النبى ﷺ صلى فيه وهو عريش اثنى عشر يوماً ثم سقِّف . وروى محمد بن الحسن المخزومى ، ويحيى بن الحسن ، عن شهر بن حوشب قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يبنى المسجد قال : « ابنوا لى عريشا (٢) كعريش موسى ثمامات(٣) وخشبات وظلة كظلة موسى والأمر أعجل من ذلك » . قيل وماظُلة موسى؟ قال : كان إذا قام أصاب رأسه السقف . وروى محمد بن الحسن المخزومى ، عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : بنى رسول الله ﷺ مسجده فقرَّب اللبن وما يحتاجون إليه . فقام رسول الله ﷺ فوضع رداءه . فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

لئـن قـعدنا والنـبى يعـمل   ذاك إذن للـعمل المـضـلل

وروى البيهقى عن الحسن قال : لما بنى رسول الله ﷺ المسجد أعانه أصحابه وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبر صدره . وكان عثمان بن مظعون رجلاً متنطعاً (٤) ، وكان يحمل اللبنة فيجافى بها ثوبه ، فإذا وضعها نفض كمهُ ، ونظر إلى ثوبه . فإن أصابه شىء من التراب نفضه . فنظر إليه على بن أبى طالب رضي الله عنه فأنشد يقول :

لا يستوى من يعمر المساجدا   يـدأب فـيها قائـمًا وقاعـدا

ومـن يـرى عـن الغـبار حـائـدا

فسمعها عمار بن ياسر ، فراح يرتجز بها وهو لا يدرى من يعنى بها . فمر بعثمان فقال : يا ابن سمية ما أعرفنى بمن تعرِّض ، ومعه جريدةٌ (٥) فقال : لتكفنَّ أو لأعترضن بها وجهك . فسمعه رسول الله ﷺ ، فغضب ثم قال :

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ٥ / ٧٨ .   (٢) العريش :السقف وما يستظل به .

(٣) ثمامات : جمع ثمام ، وهو نبت ضعيف له خوص ، وربما حُشى به وسُدَّ به خصاص البيوت.

(٤) التنطع : هو كل تعمق قولاً وفعلاً . وهى فى رواية أخرى : نظيفاً متنظفاً ، والمتنظف : المترفه ويرجحهما شارح السيرة .

(٥) الجريدة :قطعة فيها ورق النخل .

« إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عينى وأنفى ، فإذا بلغ ذلك من المرء فقد أبلغ ».

ووضع يده بين عينيه . فكف الناس عن عمار . ثم قالوا لعمار : إن النبى ﷺ قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن . فقال : أنا أرضيه كما غضب . فقال : يارسول الله ، ما لى ولأصحابك ؟ قال : « مالك ولهم ؟ » . قال : يريدون قتلى يحملون لبنة لبنة ، ويحملون علىّ لبنتين لبنتين . فأخذ بيده وطاف به فى المسجد ، وجعل يمسح وفرته (١) بيديه من التراب ويقول : « يا ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية ، تدعونهم إلى الجنة ، ويدعونك إلى النار » . ويقول عمار :

أعوذ بالله من الفتن .

وروى عبد الرزاق بسند على شرط الشيخين ، عن أم سلمة ، والبخارى والبيهقى، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد ، جعل أصحاب رسول الله ﷺ يحمل كل رجل منهم لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين : لبنة عنه ، ولبنة عن رسول الله ﷺ . فمسح رسول الله ﷺ ظهره وقال :

« يا ابن سمية ، للناس أجر ، ولك أجران ، وآخر زادك شربة من لبن ، وتقتلك الفئة الباغية ، تدعوهم إلى الجنة ، ويدعونك إلى النار » . وعمار يقول : أعوذ بالله من الفتن .

وروى أبو يعلى برجال الصحيح ، إلا أن التابعى لم يسمع عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

لما أسس رسول الله ﷺ مسجد المدينة ، جاء بحجر فوضعه ، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه ، وجاء عمر بحجر فوضعه ، وجاء عثمان بحجر فوضعه . فقالت : فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك . فقال : « هذا أمر الخلافة من بعدى » .

وروى الإمام أحمد ويحيى بن الحسن،عن طلق بن على رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ ، وهو يبنى المسجد ، والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنت صاحب علاج وخلط طين فأخذت المسحاة أخلط الطين ، والنبى ﷺ ينظر إلىَّ ويقول :

« إن هذا الحنفى لصاحب طين » . وكان يقول : « قرِّبوا اليمامى من الطين فإنه أحسنكم له مسكاً وأشدُّكم منكباً » .

---

(١) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن .

وروى يحيى بن الحسن ، عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ عن أبيه قال : خرج رسول الله ﷺ ، ومعه حجر ، فلقيه أسيد بن حضير ، فقال : يا رسول الله أعطنيه . فقال :

« اذهب فاحتمل غيره ، فإنك لست بأفقر إلى الله منى » .

وروى يحيى ، عن أسامة أيضاً ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه قال :كان بناء مسجد رسول الله ﷺ بالسميط (١) لبنة على لبنة ، ثم بالسعيد (٢) لبنة ونصف أخرى ، ثم كثر الناس فقالوا يا رسول الله ، لو زيد فيه ؟ ففعل . فبنى بالذكر والأنثى وهى لبنتان مختلفتان ، وكانوا رفعوا أساسه قريباً من ثلاثة أذرع بالحجارة ،وجعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره : مائة ذراع . وكذا فى العرض، وكان مربعاً ، ولم يسطح (٣) فشكوا الحر ، فجعلوا خشبه وسواريه (٤) جذوعاً وظلّلوه بالجريد (٥) ثم بالخصف (٦) . فلمّا وكف (٧) عليهم ، طينوه بالطين ، وجعلوا وسطه رحبة ، وكان جداره قبل أن يسقف قامة وشيئاً) (٨) .

(وفى بنائه ﷺ حجر نسائه .قال فى الروض :كانت بيوته ﷺ تسعة . بعضها من جريد مطين بالطين ، وسقفها من جريد ، وبعضها من حجارة مرضومة (٩) بعضها فوق بعض ، وسقفها من جريد أيضاً ، قال الحافظ الذهبى فى بلبل الروض: ولم يبلغنا أنه ﷺ بنى له تسعة أبيات حين بنى المسجد ، ولا أحسبه فعل ذلك ، إنما كان يريد بيتاً واحداً لسودة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها. ولم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى بعائشة ـ رضى الله عنها ـ فى شوال سنة اثنتين . وكان ﷺ ـ وتقدم فى الباب الثانى ـ بنى لزوجيه سودة وعائشة ـ رضى الله عنهما ـ على نعت بناء المسجد ؛ لأن عائشة كانت زوجه حينئذ وإن تأخر الدخول بها ، ثم بنى بقية الحجر عند الحاجة إليها .

قال محمد بن عمر الأسلمى : كان لحارثة بن النعمان رضي الله عنه منازل قرب المسجد وحوله ، وكلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً نزل له حارثة عن منزل ـ أى محل حجرة ـ حتى صارت منازله كلها لرسول الله ﷺ وأزواجه .

---

(١) السميط : أى على لبنة واحدة .
(٢) السُّعَيْد : ربع اللبنة على وزن زبير .
(٣) لم يسطح : لم يكن له سطح .
(٤) السوارى :جمع سارية وهى الاسطوانة أو العمود .
(٥) الجريد :أغصان النخل .
(٦) الخصف :المنسوج من الخُوص .
(٧) وكف : سال ماؤه .
(٨) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٨٦ ـ ٤٩٠ مقتطفات .
(٩) الرُّضم : حجارة مجتمعة بعضها فوق بعض الواحدة رضمة .

قال محمد بن عمر : حدثنا عبد الله بن يزيد الهذلى قال : رأيت بيوت أزواج النبى ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك . كانت بيوتاً من اللبن ، ولها حجر [1] من جريد مطرورة بالطين ، عددت تسعة أبيات بحجرها ، وهى ما بين بيت عائشة إلى الباب الذى يلى باب النبى ﷺ إلى منزل أسماء بنت حسن (اليوم) . قال : ورأيت بيت أم سلمة زوج النبى ﷺ ، وحجرتها من اللبن . فسألت ابن ابنها فقال: لما غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل ، بنت أم سلمة حجرتها بلبن . فلما قدم النبى ﷺ نظر إلى اللبن ودخل عليها أول نسائه فقال : « ما هذا البناء ؟ » فقالت : أردت يا رسول الله أن أكفَّ أبصار الناس . فقال :

« يا أم سلمة ، إن شرَّ ما ذهب فيه مال المسلم البنيان » .

قال محمد بن عمر : فحدثت بهذا الحديث معاذ بن محمد الأنصارى فقال : سمعت عطاء الخراسانى فى مجلس فيه عمران بن أبى أنس يقول وهو فيما بين القبر الشريف والمنبر المنيف : أدركت حجر أزواج النبى ﷺ من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود . فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ ، يأمرنا بهدم حُجر أزواج النبى ﷺ. فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم . قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التفاخر والتكاثر .

قال معاذ : فلما فرغ عطاء الخراسانى من حديثه قال عمران بن أبى أنس : كان فيها أربعة أبيات بلبن ، لها حجر من جريد . وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح الشعر . ذرعت الساتر فوجدته ثلاثة أذرع ، وعظم الذراع أو أدنى من العظم .فأما ما ذكر من البكاء يومئذ فلقد رأيتنى فى المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبى ﷺ منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف . وأبو أمامة بن سهل ابن حنيف ، وخارجة بن زيد بن ثابت. وإنهم ليبكون حتى أخْضَلوا لحاهم من الدمع، وقال يومئذ أبو أمامة : ليتها تركت فلم تهدم حتى يفصُل الناس عن البناء . ويروا ما رضى الله لنبيه ﷺ ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده .

وروى ابن سعد والبخارى فى الأدب وابن أبى الدنيا والبيهقى ، عن داود بن قيس قال : رأيت الحجر من جريد النخل تغشى من خارج بمسوح من الشعر ، وأظن عرض

---

(١) الحُجَر : غرف البيوت .

البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ست أو سبع أذرع ، وأَحْزِر البيت من الداخل عشر أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والسبع) (١) .

فى أول خطبة خطبها ﷺ :

وهى أول جمعة صلاها ، وأول خطبة خطبها ، كما جزم به أبو سلمة بن عبدالرحمن ، والعيون نقلاً عن ابن إسحاق ، والبيهقى عن أبى سلمة قال : كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس فقدموا لأنفسكم . تعلمُنَّ والله ليُصعقنّ أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلّغك ، وآتيتك مالاً ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل. ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزئ الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال :

« إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحبَّه الله ، أحِبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملّوا كلام الله وذكره ، ولا تقسُ عنه قلوبكم ، فإن كل ما يخلق الله يختار ويصطفى . قد سمّاه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام . فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله ، إن الله يغضب إن نكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » (٢) .

١ ـ لقد ابتدأت عملية التربية الجماعية منذ اليوم الأول لنزول المدينة . ومن أجل

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣/ ٥٠٦ ـ ٥٠٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٦٦ ، ١٦٧ ، والبيهقى ٢/ ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

هذا كانت القضية الأولى عند رسول الله ﷺ ، بعد أن نزل عند أبى أيوب رضي الله عنه هى قضية المسجد ؛ مركز العبادة ، ومركز التربية ، حيث تتم أداء الصلوات ، ويتم اللقاء العام بين القائد وجنده . وها نحن الآن نواجه بأول حدث تحتفل كل المدينة به ، بعد وصول رسول الله ﷺ إليها ، وكان هذا الحدث هو بناء المسجد ، وحرص - عليه الصلاة والسلام - أن يكون المسجد بجواره ، ولعل هذا كذلك من التوجيه الربانى فى اختيار هذا المكان بحيث لا يكون فى حرم أحد، أو فى بيت أحد من المسلمين تجاوزاً للحساسية التى يمكن أن تقع بين الأوس والخزرج ، وبين القيادات التى تتسابق وتتنافس على هذه الأمجاد العظيمة ، وأى مجد أعظم من أن يكون المسجد فى ظل أحد هؤلاء القادة ، ويغدوا تجمع الجميع عنده ، ويمضى بهذا الفضل على الجميع ، فقد تجاوز عليه الصلاة والسلام هذه العقبة فى مكان نزوله من خلال ثلاثة أطر :

الإطار الأول : دعوها فإنها مأمورة ؛ فالناقة تمضى بأمر الله إلى المكان الذى يختاره الله لها .

الإطار الثانى : نزوله ﷺ عند أهله وأخواله من بنى عدى بن النجار ، وهذا الحق معترف لهم فيه .

الإطار الثالث : نزوله عند فرد عادى من الأمة ، وليس عند سيد أو قائد أو نقيب من نقباء الأنصار . بحيث يكون هذا الأمر بداية احتكاك وتنافس بين النقباء ، وها نحن نرى إذن عملية التربية تتم منذ اللحظات الأولى لهذه الأمة السعيدة التى يرأسها رسول الله ﷺ .

وفى الاختبار الثانى كذلك ، وهو الأخطر ، وهو بناء المسجد ، فهو مكان تجمع المسلمين جميعاً ، وأن يكونوا مدانين لرجل مهما عظم هذا الرجل ، بحيث يمضى بهذا الشرف على الجميع ، فهو صعب على هذه النفوس التى اختلطت بشاشة الإسلام فيها من دون أن تفقد من بشريتها ، ونوازع هذه البشرية شيئاً .

٢ - ولذلك عندما تم اختيار المربد ، فهو ليتيمين فى المدينة من بنى النجار، فهو من حيث الملك لأفقر من أبى أيوب الأنصارى - رضى الله عنهما - وحيث أنهما كانا فى حجر أسعد بن زرارة رضي الله عنه . وأسعد نقيب من النقباء ،وسيد بنى النجار ، عرض على رسول الله ﷺ أن يهب له هذا المربد ويرضيهما ، كما سارع لذلك عدد من قادة الأنصار، غير أن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - لم يرض ذلك ، وأصر على دفع الثمن لهما ، حتى لا تكون المنة لأحد فى أعظم وأخطر مركز للمسلمين فى المدينة. ولذلك دعا - عليه الصلاة والسلام - الملأ من بنى النجار ، وغرَّة أسيادهم

وقادتهم وقال لهم : « ثامنونى بحائطكم هذا ؟ » فقالوا : والله لا نطلب ثمنه إلا من الله ، وفى رواية : فدعا بالغلامين فساومهما بالمربد يتخده مسجداً .

وروى البلاذرى [(١)] : أن رسول الله ﷺ صلى فى مسجد أسعد بن زرارة [(٢)] ثم إنه سأل أسعد أن يبيعه أرضاً متصلة بذلك المسجد كانت فى يده ليتيمين فى حجره يقال لهما : سهل وسهيل ابنا رافع بن أبى عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم . فعرض عليه أن يأخذها ويغرم عنه لليتيمين ثمنها ، فأبى رسول الله ﷺ وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر الصدِّيق رضي الله عنه [(٣)] .

وبعد أن اشتراها عليه الصلاة والسلام ، أمر بالأرض فسويت ، وبالنخل فقطعت ، وبالقبور فنبشت إلى مكان آخر ، وسوِّيت الأرض تسوية كاملة . ومُهِّدت بحيث أصبحت جاهزة للبناء .

٣ ـ وحيث إن هذه الدولة هى دولة رسول الله ﷺ ، وليشهد دولة الطغاة والجبابرة الذين يتكبرون فى الأرض ويعيثون فيها فساداً . فلابد أن تسود فيها معالم العبودية الخالصة لله سبحانه ، وحيث إن خط الأنبياء واحد ، وطريقهم واحد . فكانت التوجيهات النبوية العظيمة أن يكون البناء بسيطاً متواضعاً ، وأن يكون عريشاً كعريش موسى ـ عليه السلام ـ كما وصفه عليه الصلاة والسلام :

« ثمامات وخشبات وظلة كظلة موسى ، والأمر أعجل من ذلك » . قيل : وما ظلة موسى ؟ قال : « كان إذا قام أصاب رأسه السقف » .

وحين نقرأ وصف هذا المسجد العظيم ، أكرم بيت فى الأرض بعد المسجد الحرام ، تبهرنا هذه البساطة فى البناء ويعجب المرء . حقا إن أساتذة الدنيا تخرَّجت من هذا المعهد العظيم ؟ !

الوصف الأول : (بنى رسول الله ﷺ مسجده سبعين ذراعاً فى ستين ذراعاً أو يزيد ، ولَبِن لبنة من بقيع الخبخبة [(٤)] ، وجعله جدراً ، وجعل سواريه خشباً شقة شقة ، وجعل سقفه وسطه رحبة ، وبنى بيتين لزوجتيه) .

الوصف الثانى : ونتناول تطور البناء بعد ذلك كما روى يحيى بن الحسن :

(كان بناء مسجد رسول الله ﷺ بالسميط لبنة على لبنة ، ثم بالسعيد لبنة ونصف

---

(١) فتوح البلدان ص ١٢ .

(٢) كان أسعد بن زرارة رضي الله عنه كما مر معنا ـ قد اتخذ المربد مسجداً قبل وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ص (٥٠٠) هامش للمحقق عبد العزيز عبد الحق حلمى .

(٤) الخبخبة : شجر عرف به هذا الموضع كما ذكر الفيروزآبادى فى المسجد .

أخرى ، ثم كثر الناس فقالوا : يارسول الله لو زيد فيه ؟ ففعل . فبنى بالذكر والأنثى وهى : لبنتان مختلفتان . وكانوا رفعوا أساسه قريباً من ثلاثة أذرع بالحجارة ، وجعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وكذا فى العرض ، وكان مربعاً ، ولم يسطح. فشكوا الحر ، فجعلوا خشبه وسواريه جذوعاً ، وظللوه بالجريد ثم بالخصف . فلما وكف عليهم طينوه بالطين وجعلوا وسطه شيئاً . وكان جداره قبل أن يسقف قامة وشيئاً) (١) .

فهو فى أول عهده سبعون ذراعاً فى ستين ، وبعد تجديده فى العهد النبوى مائة ذراع بمائة ذراع . أى ما يعادل تقريباً خمسين متراً فى خمسين متراً فى الطول والعرض. أما سقفه فكان من جريد النخل ثم الخصف والطين ، أما جدرانه فكانت من لبن مرصوف فوق بعضه ، ثم أعيد بناؤه باللبن ، ولكن بصورة أقوى مما كان عليه بحيث اختلفت أحجام اللبن ليكون مرصوصاً أكثر . وكانت سواريه من جذوع النخل أو خشب الخبخبة .

فهو بناء حوى المتانة والبساطة بوقت واحد . وهو قصر الحكم . وهو قيادة الجيش، وهو دوائر الدولة ، وهو المسجد الجامع ، وهو رمز عز الأمة . ومركز انطلاقها وانسياحها فى الأرض . وهكذا تختلف دولة رسول الله ﷺ عن دول الحاكمين فى الأرض.

٤ ـ أما عملية البناء فقد حوت جوانب شتى من التربية النبوية للجيل الرائد، وذلك على المستوى العام والخاص .

ـ وكان الجانب الأهم والأول منها هو مشاركة القائد الأعظم ﷺ فى عملية البناء الأولى ، ككل العمال الذين شاركوا فيه ، وليس بقطع الشريط الحريرى فقط ،وليس بالضربة الأولى من الفأس فقط ، بل غاص بعملية البناء كاملة ، وعندما حاول سيد الأوس رضي الله عنه أسيد بن حضير أن يحمل عن رسول الله ﷺ قائلاً : يارسول الله أعطنيه؟ فقال :

« اذهب فاحتمل غيره . فإنك لست بأفقر إلى الله منى » .

إنه مشهد لا مثيل له عند دول الأرض ، وإذا كان القادة الكبار قد يقدمون أحياناً على المشاركة بالعمل لتكون شاشات التلفزيون جاهزة لنقل أعمالهم ، وتملأ الدنيا فى الصحف ووسائل الإعلام كلها بالحديث عن أخلاقهم وتواضعهم ، فسيدنا رسول الله

(١) سبل الهدى والرشاد ، للإمام الصالحى ٤٨٩/٣ ، وقال : « روى يحيى بن الحسن عن . . . خارجة بن زيد بن ثابت » .

ﷺ ينازع الحجر جنديه ، ويؤكد له أنه أفقر إلى الله تعالى ، وأحرص على ثوابه من جنديه ، وهو بحاجة إلى هذا الثواب ، وهذا الأجر .

وكان عمل رسول الله ﷺ فى انخراطه فى عملية البناء دافعاً لأن يحذو حذوه الملأ، كل الملأ من بنى النجار وغيرهم ، وأن يشارك فى عملية البناء قادة المدينة وسادتها وأولو النهى والعقل فيها ؛ كل حسب عزمه وجهده ، ويستوى فى هذه الحالة سيد ولد آدم مع نقيب النقباء ، مع النقباء مع الجنود مع الغلمان ، فهم يبنون لله مسجداً يتسابقون ويتنافسون فى العمل فيه . ولعمرى فقد كانت هذه التربية الجماعية أثناء عملية البناء صقلاً للنفوس المترفعة وتطامناً بالشخصيات القيادية بحيث تتسابق مع سيدها على الأجر فى عملية البناء .

ولعله مشهد لم يبرز قط قبل ذلك أن تكون الأمة بقادتها وسادتها وجنودها وسيدها الأعظم عمال بناء للمسجد النبوى الكريم ، ولا ندرى إن تكرر أم لا كذلك !

ـ وقد تفاعل هذا الجيل تفاعلاً عظيماً مع البناء بحيث احتدمت مشاعر الأخوة الربانية وراحوا يرددون مع قائدهم هذا الرجز الذى يشى بالعالم الذى يتفاعل فى نفوسهم . فهم جند الآخرة ، هم الجند الذين بايعوا على الجنة فقط دون أى شىء ، وها هم يرون دولتهم قد قامت اليوم ، فراحوا يعيدون برجزهم الهدف الذى بايعوا عليه:

اللهم إن الأجر أجر الآخره ، أو :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره .

وفى الشطر الثانى يزغردون بسعادتهم بهذه الأخوة العظيمة بين المهاجرين والأنصار:

فارحم الأنصار والمهاجره ، أو : فانصر الأنصار والمهاجره . أو ترديد النبى ﷺ على رواية الزهرى :

اللهم لا خير إلا خير الآخره   فارحم المهاجرين والأنصار

لكنه المجتمع السعيد بأعضائه ، السعيد بقيادته ، السعيد بعقيدته ، والذى يهتف كله بهذه السعادة ، كما كان الرجز الثانى خاصاً بالسيد القائد عليه الصلاة والسلام ، والذى كان يحفزهم حفزاً إلى العمل ويدفعهم دفعاً إليه :

لـئن قعـدنـا والنبى يـعمـل   ذاك إذن للعـمـل المضـلّل

ويخلعون أرديتهم ، وقد رأوا سيد الخلق يخلع رداءه تسابقاً فى العمل وتفانياً فيه .

هذه التربية التى لا تتم من خلال الموعظة ، ولا تتم من خلال الكلام المنمق ، إنما تتم من خلال العمل الحى الدؤوب ، والقدوة المختارة المصطفاة من رب العالمين ، والتى ما كان يمكن أن تتم فى أجواء مكة ، والملاحقات والاضطهاد والمطاردة فيها ، إنما تتم بين يدى هذه الدولة الحية الفتية ، وكأنما غدا هذا الركب كله صوتاً واحداً ، وقلباً واحداً ، وروحاً واحدة تمثلت فى قائدها عليه الصلاة والسلام ، فمضت تهتف :

اللهم إن العيش عيش الآخره فانصر الأنصار والمهاجره

وتهتف بلحن واحد :

لئن قعدنا والنبى يعمل فذاك منا العمل المضلل

وكلهم يفدون قائدهم بهذا الهتاف ، وهو يغريهم بقوله : فاغفر للمهاجرين والأنصار ، أو يقول : فارحم الأنصار والمهاجرة .

- وكان الرجز الثالث : يربط هؤلاء القوم بربهم ربطاً حياً ، فهم يهزجون :

هذى الحمال لا حمال خيبر هذا أبر لربنا وأطهر

فحمل التمر والزبيب من خيبر إلى المدينة الذى هو أنفس الأحمال التى كانوا يعرفونها من قبل ، قد غدت لا تذكر أمام حمل اللبن لبناء المسجد النبوى العظيم . إنه عالم جديد يعيشونه ، وأفق جديد يتطلعون إليه وينطلقون منه . فأين أحمال الدنيا ونعيمها من ثواب الآخرة وأجرها ، وكما ذكر الحافظ ابن حجر :

هذا الحمال . . . أى المحمول من اللبن أبر عند الله ، أى أبقى ذخراً ، وأكثر منفعة ، وأشد طهارة من حمال خيبر أى : التى يحمل منها التمر والزبيب (١) .

- ويأتى الرجز الرابع : الذى تفاعلت معه نفوس المهاجرين والأنصار كذلك. ولكن فى إطار نوع من التربية الخاصة التى تمت لبعض أفراد الأمة ، وللأمة كلها بعد ذلك .

كان هذا الرجز هو :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يُرى عن الغبار حائدا

نحن مع شريحة من المجتمع ، تحمل كل أنواع النماذج البشرية وأنماطها . ومن هذه النماذج هذا الصحابى المتأنق المتنظف عثمان بن مظعون رضي الله عنه والذى كان ينفض

(١) فتح البارى ٧/٢٤٦ ح ٣٩٠٦ .

الغبار عن جسده بعد كل حِمل للبن .

وعثمان رضي الله عنه ليس نكرة من الجيل الأول ، وهو أحد الثلاثة الذين هموا بالتبتل ، وترك النساء . ورفض له رسول الله ﷺ ذلك مع صديقيه على بن أبى طالب (وكان عابداً مجتهداً ، وكان هو وعلى وأبو ذر همّوا أن يختصوا) (١) .

وكما قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه : (سمعت سعداً يقول : ردَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل . ولو أذن له لاختصينا) (٢) .

وهو الذى حافظ على مروءته فحرم الخمر على نفسه فى الجاهلية قائلاً :

(لا أشرب شراباً يُذهب عقلى ، ويُضحك بى من هو أدنى منى ، ويحملنى على أن أنكح كريمتى) (٣) .

وقد قدّر الله تعالى أن يشارك فى عمارة المسجد ، وهو بهذه المواصفات ، ولم يفعل أكثر من نفض الغبار عنه كلما فرغ من حمل من أحماله .

بينما كان صديقه على ـ رضوان الله عليه ـ يرتجز :

لا يستوى من يعمر المساجدا　　　يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يُرى عن الغبار حائدا

ورواية البيهقى عن الحسن تشير إلى أن هذا الرجز من على كان تعريضاً بعثمان . أما ابن هشام فيقول :

(وإنما قال على ذلك مباسطة ومطايبة كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل، وليس نيلاً من أحد) (٤) .

أما عمار رضي الله عنه فليس فى الروايتين أى إشارة إلى أنه قصد التعريض بأحد . كما هو النص :

(فسمعها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجزها ولا يدرى من يعنى بها ، فمر بعثمان فقال : يابن سمية لأعرفنَّ بمن تعرِّض . ومعه حديدة ـ أو جريدة ـ فقال : لتكفن أو لأعترضن بها وجهك) .

فإذن بين يدينا هذا النموذج من النماذج البشرية ، المتأنق فى النظافة ، وشديد

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ١٥٥ .

(٢) المصد نفسه / ١٥٤ ، وقد أخرجه أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى .

(٣) المصدر نفسه / ١٥٥ .　　　(٤) شرح المواهب للزرقانى ١/ ٤٣٦ .

الغضب ، وغضب لتوهمه أن عمار يعرِّض به ، فقال له هذه الكلمة . إنها أول مشكلة تقع فى قلب هذا العمل الجماعى ومن جراء هذا الاحتكاك . ورسول الله ﷺ يسمع . فيغضب لعمار رضي الله عنه قائلا : « إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عينى وأنفى ، فإذا بلغ ذلك من المرء فقد بلغ » ووضع يده على عينيه . لقد اكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يربى هذا الجيل أن أعلمه حبه لعمار الذى بلغ الذروة ،واكتفى بذلك ، ولعل المسلمين استغلوا قوة عمار رضي الله عنه فراحوا يحملون عليه لبنتين لبنتين :

(فكف الناس عن عمار) .

ولابد أن نفقه مستوى هذا الجيل ، وهو يسمع الحبيب المصطفى يثنى على حبيبه عمار بن ياسر ، الذى بلغ عند رسول الله ﷺ مبلغ جلدة ما بين أنفه وعينه .

وفجّرت هذه الكلمة النبوية الخالدة ينابيع الخير فى هذه النفوس الدؤوبة العاملة . فأقبلوا على حبيب رسول الله ﷺ يقولون له :

(إن النبى ﷺ قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآناً) .

فهم يعيشون مع الله تعالى فى كل لحظة ، ومع وحيه ، فإن أغضبوا عماراً، فقد أغضبوا رسول الله ، ولئن غضب رسول الله ﷺ ، فيغضب الله تعالى لنبيه ، فجاؤوا يرجون عماراً ليرضوه ، وهو عضو فى هذا المجتمع الجديد . فقال : أنا أرضيه كما غضب .

وكان هذا السمو العالى من عمار ، فإخوانه حريصون عليه ، ولا يرفأ له جفن أن يكون سبباً لغضب نبيهم عليهم ، لم يأخذه الزهو بنفسه ، فيتعالى هو بهذه المنزلة عند الحبيب المصطفى ﷺ ، إنما أصبح همه هو هم إخوانه . فجاء بهذه المباسطة الطريفة للنبى ﷺ كى يدفع عنهم هذا الغضب فقال :

(يارسول الله ، مالى ولأصحابك ؟ قال : « مالك ولهم ؟ » قال : يريدون قتلى ، يحملون لبنة لبنة ، ويحملون عليّ لبنتين لبنتين ، فأخذ بيده وطاف فى المسجد وجعل يمسح وفرته بيديه من التراب ويقول :

« يابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، تقتلك الفئة الباغية ، تدعوهم إلى الجنة ، ويدعونك إلى النار » ويقول عمار : أعوذ بالله من الفتن) .

لقد برئ الصحب من أذى عمار ، لكن الأفق القادم يحمل فى ثناياه مقتل ابن ياسر ، وليس هذا على يد المشركين ، إنما هو على يد المسلمين ، على يد الفئة الباغية . ويتطلع عمار مع رسوله ﷺ إلى هذا المستقبل ، فيعجب ويتساءل ويقول : أعوذ بالله

من الفتن .

وعرف هؤلاء الصحب جميعاً أن عمار بن ياسر هو الذى يمثل الحق فى تلك المرحلة . وسيكون قتله ظلماً عليه . فليعدوا أنفسهم إن طال بهم العمر أن يكونوا تحت رايته آنذاك . أما عثمان بن مظعون رضي الله عنه فقد أكرمه الله تعالى ببناء المسجد ، ولم يطل به المقام . فكان أول وافد على ربه من هذا الجيل ، وتوفى فبكاه المسلمون فى أحر الدموع . فعن ابن عباس : أن النبى ﷺ دخل على عثمان بن مظعون حين مات ، فأكب عليه ، فرفع رأسه . فكأنما رأوا أثر البكاء ، ثم جثا الثانية ، ثم رفع رأسه فرأوه يبكى ، ثم جثا الثالثة ، فرفع رأسه وله شهيق ، فعرفوا أنه يبكى . فبكى القوم . فقال: « مه ، هذا من الشيطان » . ثم قال : « استغفر الله . أبا السائب ، لقد خرجت منها ولم تلبس منها بشىء ») (١) . (وعن عائشة : أن رسول الله ﷺ قبل عثمان بن مظعون وهو ميت ، ودموعه تسيل على خد عثمان بن مظعون. صححه الترمذى) (٢) .

وأصبح عثمان بعد وفاته رمزاً يطلق عليه : السلف الصالح .

(فلما ماتت بنت رسول الله ﷺ قال : الحقى بسلفنا الخيِّر عثمان بن مظعون . مضى ولم يدخل الدنيا رضي الله عنه بينما كان عمار مهيئاً للمواجهات ، والأعاصير حتى للقتل، ونعوذ بالله من الفتن .

ومن نماذج التربية الخاصة أثناء هذا العمل الجماعى كذلك ، هو الاستفادة من الخبرة والاختصاص عند طلق بن على الحنفى رضي الله عنه . فقد رأى رسول الله ﷺ خبرته وهو وافد جديد على المدينة ، لم يكن من المسلمين الأوائل . ورأى خبرته فى خلط الطين وفى قوة العمل فقال :

« إن هذا الحنفى لصاحب طين » . وقال : « قرِّبوا اليمامى من الطين فإنه أحسنكم له مسكاً وأشدكم منكبا » .

وهو درس فى الثناء على الكفاءات ، والاستفادة منها ، وتربية فى طريقة التعامل معها . ومن نماذج التربية الخاصة كذلك ، وبعد أن تم الثناء على عمار وعلى الحنفى اليمامى النجدى ، كانت نقطة البدء فى البناء والثناء كما تشير الرواية التالية إلى أن رسول الله ﷺ وضع حجر الأساس وبجواره كان واضعو حجر الأساس : أبو بكر وعمر وعثمان .

(لما أسس رسول الله ﷺ مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه ، وجاء أبو بكر بحجر

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ١٥٦ . وقال المحقق فيه : « سفيان بن وكيع ضعيف » .
(٢) المصدر نفسه / ١٥٩ .

فوضعه وجاء عمر بحجر فوضعه، وجاء عثمان بحجر فوضعه ، قالت ـ أى عائشة ـ : فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : هذا أمر الخلافة من بعدى) (١) .

لكن هذا الأمر لم يستفض من الشهرة بحيث يدرك المسلمون من خلاله هذا التوجيه ، ومن هذا كانت سقيفة بنى ساعدة ، وكانت تولية عمر من الصديق ، وكانت بيعة عثمان من الستة .

وكان بناء حجرتى رسول الله ﷺ وهو (القصر الخاص) على نفس المستوى ، من الجريد واللبن والخوص . (كان فيها أربعة أبيات بلبن ، لها حُجَر من جريد) .

(كانت خمسة أبيات (مع التى عمرت فيما بعد) من جريد مطينة لا حجر فيها على أبوابها مسوح الشعر) . هذه هى قصور أزواجه المنيفة . ويحدثنا الحسن البصرى عن جانب آخر منها فيقول : كنت وأنا مراهق أدخل بيوت أزواج النبى ﷺ فى خلافة عثمان أتناول سقفها بيدى .

ـ ويحدثنا داود بن قيس عنها من الداخل ، وعن سعتها وعظمتها فيقول :

(أظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ست أو سبع أذرع . وأحزر البيت من الداخل عشر أذرع) .

إن البيت وفضاءه والحجرة تمتد خمسة أمتار فى أربع أمتار .

هذه هى بيوت وحجر سيد ولد آدم ، وإمام الدنيا والآخرة ﷺ ، وهذه هى قصور الحريم عنده ، وحق للمسلمين جميعاً أن يبكوا عندما صدرت أوامر الهدم .

(فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم) .

لقد وصفت لنا فأذهلتنا فى بساطتها وتواضعها ، فكيف لو رأيناها لتكون حجة على كل ملوك وجبابرة الأرض فى هذا الوجود .

وحق لسيد التابعين سعيد بن المسيب أن يقول :

والله لوددت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناشئ من أهل المدينة ، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ فى حياته . فيكون هذا مما يزهّد الناس فى التفاخر والتكاثر .

وحق لأبى أمامة بن سهل بن حنيف أن يقول : (ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصُر الناس عن البناء ، ويروا ما رضى الله لنبيه ﷺ ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٨٨ . وقال فيه الصالحى : « ورواه أبو يعلى برجال الصحيح ، إلا أن التابعى لم يسمع من عائشة . وهذه علة الحديث » .

وفى هذا غنى عن أى تعليق .

ومن تربية القدوة العملية إلى التربية المباشرة من خلال الموعظة . فقد صار يوم الجمعة موسماً محدداً يلتقى فيه جميع المسلمين بلا استثناء ، ويستمعون إلى خطبة المصطفى ﷺ . ونقلت لنا كتب السيرة إضافة إلى الخطبة التى استعرضناها من قبل فى بنى سالم بن عوف خطبتين أخريين :

الأولى : تربط المسلم باليوم الآخر ويوم الحساب ، وتتحدث عن اللقاء المباشر بين الله تعالى وبين عبده فيسأله ربه دون ترجمان أوحجاب : « ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ » .

ويسمع الجيل هذا المشهد مباشرة من فم رسول الله ﷺ ، فترتجف القلوب والأفئدة من الرسول الصادق المصدوق وهو يحدثهم فيما بلغه عن ربه .

« فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل » .

إن الصدقة على الفقراء والمحتاجين كانت من قبل حرصاً على الصيت الحسن، وشفقة إنسانية وانتهى الأمر،ويمكن نيل الصيت وحسن الثناء بالولائم الكبرى للأغنياء ، وببذل المال بسخاء للمداحين والشعراء . أما الفقراء فلو ضعف الجانب الإنسانى عند الغنى فيمكن أن يدير ظهره لهم ، وهم ممن لا يعبأ بهم وبكلامهم . أما الدرس الجديد اليوم فهو نقلة هائلة من الدنيا إلى الآخرة ، وأن اكتناز المال وعدم إنفاقه لا يفقد الصيت الحسن فحسب،بل يقود إلى جهنم،ويمكن الوقاية منها بالصدقة ولو بشق تمرة.

فليست القضية حكراً على الأثرياء فحسب،بل الفقراء أنفسهم قادرون على ذلك . وحتى الذى لا يملك شيئاً يمكن أن يتصدق .

كيف كانت تخفق هذه القلوب وهى ترى رسول الله ﷺ بعيونها يحدثها عن هذه المشاهد . وكيف يتصدق الفقير ؟

« ومن لم يجد فبكلمة طيبة . فإن بها تجزى الحسنة إلى سبعمائة ضعف » فالحسنة تصل إذن إلى سبعمائة حسنة فيزكيها الله تعالى ويبارك فيها .

أما الخطبة الثانية : فلعل ازدياد المؤمنين حال دون أن يرى المسلمون جميعاً رسول الله ﷺ،لكنهم يسمعون صوته فيحفر فى قلوبهم وهم منصتون له . وقد وقف يخطب إلى جذع نخلة . فيذكرهم فى هذه الخطبة بكتاب الله عز وجل ، والذى عبروا بسحر حديثه وحلاوة منطقه وعظمة إعجازه من الكفر إلى الإسلام، فهو مصطفاه من الكلام.

« إنه أحسن الحديث وأبلغه ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه وأدخله فى الإسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس » .

ورسول الله ﷺ فى هذه الخطبة الثانية يدعو هذا الجيل إلى إعادة صياغة عواطفه ، فقد كان قبل الدخول فى هذا الدين همه زينه وزين عشيرته ، وحمايتها من كل مكروه، والتقرب إلى آلهتها بالطاعة والقرابين . أما الآن فهو مدعو إلى صياغة جديدة وبناء جديد لهذه العواطف تفترق افتراقاً كاملاً عما سبق .

« أحبوا من أحبه الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم » .

ومن الداعى ، من الهاتف الآن الذى يدعوهم لذلك ؟

إنه المصطفى من خلق الله ، إنه المختار من رب العالمين ، إنه سيد الثقلين الإنس والجن . هو الذى يخطب ويدعو ويؤكد لهم .

« فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام » .

ما أسعد هذا الصف المؤمن الذى أكرمه الله بنصرة رسوله ،وأعزه الله بالدخول فى دينه خير أديانه ،وخصه بالقرآن الكريم خير كتبه ، هؤلاء المئات اليوم الذين يستمعون لرسول الله ﷺ هم كذلك خيرة خلق الله على ظهر هذا الكوكب . وهم العصابة الوحيدة فى الدنيا شرقها وغربها وشمالها وجنوبها على هدى من الله وبصيرة منه . فلابد لهم أن يرتضعوا إلى هذا المقام الذى شرّفهم الله فيه .

« فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته » .

فهم يتعاملون مع الله مباشرة ، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ، هو المبلغ لهم عن ربه . فلابد أن يتطابق ظاهرهم وباطنهم بالإخلاص لله وحده ، والحب لله وحده.

« واصدقوا لله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم . إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

والخطبة رسالة كذلك إلى بعض أفراد هذا الصف ، الذين انضموا إليه اندفاعاً مع التيار وخوفاً من مواجهته . فالله تعالى مطلع على سرائرهم . ولابد أن تكون أعمالهم متوافقة مع ما يقولون بأفواهم عن الإسلام ، وبعد العهد عليه والدخول فيه . « فإن الله يغضب أن ينكث عهده » . قد يكون بعض الناس قد أسلم للتو واللحظة ،

وبعضهم قبل ساعات ، وبعضهم قبل أيام . لكن رواد هذا المسجد هم أهل الله . وخيرته من خلقه ، هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وسينضم إليهم خلال هذه الفترة الخصيبة العائدون من الحبشة ، والمسلمون من جديد . فقد قامت دولة الإسلام ، ودعى إلى الله تعالى . وأصبح المسجد والمدينة حول عاصمة الإسلام والمسلمين .

إعلان ميثاق الدولة [1]

انفرد ابن إسحاق من بين معظم كتاب السيرة فى الحديث عن هذا الميثاق ، وننقله هنا كما ورد فى السيرة النبوية لابن هشام . ومشيرين إلى الرأى فى صحته فى الهامش[2]: وحسب تسلسل الأحداث فهذا ميثاق موقعه هنا بعد بناء المسجد ؛ لأن

---

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب : فقه السيرة النبوية للمؤلف مع بعض الإضافات والإيضاحات .

(٢) أسهب الدكتور أكرم العمرى ـ حفظه الله ـ فى الحديث عن صحة هذه الوثيقة وتفنيد ادعاء وضعها نأخذ منه المقتطفات التالية :

ونظراً لأهمية الوثيقة التشريعية إلى جانب أهميتها التاريخية ، فلابد من تحكيم مقاييس أهل الحديث لبيان درجة قوتها وضعفها . وما ينبغى أن يتساهل فيها كما يفعل مع الروايات الأخرى . إن أقدم من أورد نص الوثيقة كاملاً هو محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) لكنه أوردها بدون إسناد وقد صرح بنقلها عنه كل من ابن سيد الناس وابن كثير ، فوردت عندهما بدون إسناد أيضاً . وقد ذكر البيهقى إسناد ابن إسحاق للوثيقة التى تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون البنود التى تتعلق باليهود . لذلك لا يمكن الجزم بأنه أخذها من نفس هذه الطريق أيضاً . وقد ذكر ابن سيد الناس أن ابن أبى خيثمة أورد الكتاب (الوثيقة) فأسنده بهذا الإسناد (حدثنا أحمد بن خباب أبو الوليد ، حدثنا عيسى بن يوسف ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده : أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار) فذكر بنحوه ،ولكن يبدو أن الوثيقة وردت فى القسم المفقود من تاريخ ابن أبى خيثمة . إذ لا وجود لها فيما وصل إلينا منه . كذلك وردت الوثيقة فى كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام بإسناد آخر هو : (حدثنى يحيى بن عبد الله بن بكير (ثقة فى الليث) وعبد الله بن صالح (كاتب الليث صدوق كثير الغلط) قالا : حدثنا الليث بن سعد (ثقة ثبت فقيه) قال : حدثنى عقيل بن خالد (ثقة ثبت)عن الزهرى (الفقيه الحافظ المتفق على جلالته) أنه قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب . .) وسرده كما وردت الوثيقة فى كتاب الأموال لابن زنجويه عن طريق الزهرى أيضا ، وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة ،ولكن الوثيقة بمجموعها لا ترقى إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة فابن إسحاق فى سيرته رواها دون إسناد مما يجعل روايته ضعيفة . وأوردها البيهقى عن طريق ابن إسحاق أيضا بإسناد فيه سعد بن المنذر وهو مقبول فقط . وابن أبى خيثمة أوردها من طريق كثير المزنى وهو يروى الموضوعات . وأبو عبيد القاسم ابن سلام رواها بإسناد منقطع يقف عند الزهرى وهو من صغار التابعين فلا يحتج بمراسيله . ولكن نصوصاً من الوثيقة وردت فى كتب الأحاديث بأسانيد متصلة وبعضها أوردها البخارى ومسلمَ فهذه النصوص هى من الحديث الصحيح ، وقد احتج بها الفقهاء وبنوا عليها أحكامهم كما أن بعضها ورد فى مسند الإمام أحمد ، وسنن أبى داود ، وابن ماجة والترمذى . وهذه النصوص جاءت من طرق مستقلة عن الطرق التى وردت منها الوثيقة . وإذا كانت الوثيقة بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها فى الأحكام الشرعية سوى ما ورد منها فى كتب الحديث الصحيح . فإنها تصلح للدراسة التاريخية التى لا تتطلب درجة الصحة التى تقتضيها الأحكام الشرعية. خاصة وأن الوثيقة وردت من طرق عديدة ، وتتضافر فى إكسابها القوة .كما وأن الزهرى علم كبير من الرواد الأوائل فى كتابة السيرة النبوية . ثم إن أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبى ﷺ لليهود وكتابته بينه وبينهم كتاباً . كما ذكرت كتاباً بين المهاجرين والأنصار أيضاً) انظر المجتمع النبوى فى عهد النبوة ص ١٠٨ ـ ١١١ .

الأحداث الأخرى على أهميتها ، تناولتها السيرة على أنها وقعت بعد أشهر . وستتحدث عنها بموضعها إن شاء الله . والتسلسل المنطقى يقتضى أن تكون الوثيقة أول الإنجازات بعد بناء المسجد وإقامة أركانه ، وعلى الترتيب نفسه الذى اختاره ابن إسحاق . قال ابن إسحاق :

(وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم . وأقرهم على دينهم وأموالهم ، شرط لهم واشترط عليهم :

كتاب رسول الله ﷺ الذى كتبه بين المهاجرين والأنصار ، وموادعة اليهود :

الباب الأول (١)

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ،وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم(٢) يتعاقلون(٣) بينهم . وهم يفدون عانيهم(٤) بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (٥) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو

---

(١) هذا التبويب من عندى وليس فى أصل الكتاب . (٢) الربعة : الحال التى جاء الإسلام وهم عليها .
(٣) المعاقل : الديات . (٤) العانى : الأسير .
(٥) المُفرح : المثقل بالدين الكثير العيال .

ابتغى دسيعة (١) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم . وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة ،لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواءٍ وعدلٍ بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا . وإن المؤمنين يبيء (٢) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ،ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط (٣) مؤمناً قتيلاً عن بينة فإنه قود به (٤) ، إلا أن يرضى ولى المقتول . وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه وأن من نصره وآواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .

الباب الثانى

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ (٥) إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، إن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ما ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ما ليهود الأوس مثل ما ليهود بنى عوف وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف إلا من ظلم وأثِم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالى بنى ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ .

---

(١) الدسيعة : العظيمة وهى فى الأصل ما يخرج من حلق البعير إذا رغا ويراد بها هنا كثرة الظلم .
(٢) يبيء بعضهم على بعض : يرجع بعضهم على بعض .
(٣) اعتبطه : قتله بلا جناية . (٤) قود به : مقتول به .
(٥) يوتغ : يهلك .

وإنه لا ينحجز ثأر على جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم، وإن الله على أبرّ هذا ،وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضارٍ ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وألا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر والمحض من أهل هذه الصحيفة وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ،وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم . وإن الله جار لمن برّ واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ (١) .

إنه دستور الدولة الإسلامية الجديدة ، وقد حدّد المعالم الآتية :

أ ـ الباب الأول :

حقوق وواجبات المسلمين فى الدولة المسلمة :

١ ـ الكتاب من محمد رسول الله ﷺ . فهو الرسول المبلغ عن ربه ، وهو الحاكم بشريعة الله سبحانه ، والحاكم المسلم بعده بمثل هذه السلطة .

٢ ـ الكتاب فى بابه الأول بين المؤمنين والمسلمين من قريش ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . فهو يمثل كتلة المسلمين الواحدة وهم جميعاً أمة واحدة من الناس. فمفهوم الأمة قائم على أساس الدين .

٣ ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ،ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وقد ذابت الكيانات القبلية بين المهاجرين ، وأصبحوا تجمعاً واحداً تحت هذه الراية .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٦٧ ـ ١٧٢ .

٤ ـ أما التنظيم الإسلامى عند الأنصار ، فقد أقرّ التجمعات القبلية ، واعترف بها، بحيث تقوم بمسؤولية الدولة فى صفوفها . وذلك من خلال النقباء الاثنى عشر الذين مثلوا هذه التجمعات .

٥ ـ وقد كانت الخزرج مقسمة إلى خمس بطون كبيرة هى :

(بنو عوف بن الخزرج ، وبنو النجار [١] ، وبنو جشم بن الخزرج ، وبنو الحارث ابن الخزرج ، وبنو ساعدة) . وهذه البطون الخمس قد أثنى رسول الله ﷺ على ثلاثة منها حيث قال :

« خير دور الأنصار : بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير » .

وإذا كان بنو عبد الأشهل من الأوس ، فالبطون الثلاثة الأخرى خزرجية ، والبطون التى لم تذكر فى نص الحديث هى : بنو عوف بن الخزرج ، وبنو جشم بن الخزرج .

وكان النقباء الاثنا عشر موزعين على هذه البطون الخمسة .

٦ ـ أما الأوس فقد قسمت كما فى الصحيفة إلى ثلاث بطون كبيرة هى : (بنو الأوس، بنو عمرو بن عوف ، بنو النبيت) .

وكان بنو عمرو بن عوف يقيمون بقباء ، أما بنو الأوس والنبيت فإقامتهم داخل المدينة . وكانت هذه الأمور التى تركت للكيانات القبلية من توزيع دم العاقلة ، وفك أسير ابن القبيلة أشبه ما تكون بالحكم الذاتى داخل الدولة الواحدة .

٧ ـ وقد حدّد الدستور نوعين من الالتزامات المالية هى من مسؤولية هذا التنظيم وهى : الدية ، وفك العانى ، فالدية تحملها القبيلة ، وفك الأسير وتكاليفه المادية تحملُه التنظيم على أفراده .

٨ ـ ومن الواجبات المالية كذلك على كل تجمع من هذه التجمعات معالجة وضع الغارمين المثقلين بديونهم وهذا يمكن المشاركة فيه . فليس من خصوصيات التجمع الواحد.

٩ ـ (وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم) فهو ولاء جديد يقوم لله ورسوله . ولا يقوم للقبيلة ونصر ابنها ظالماً أو مظلوماً كما كان من قبل :

(١) بنو النجار : هم بنو عمرو بن الخزرج ، وغلب عليهم لقب بنى النجار . كما أن بنى عبد الأشهل هم فرع من فروع بنى النبيت من الأوس . لكن غلب على السعدين أن تكون لهما السيادة على قومهما ، سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ما قال برهانا

فالظالم الباغى يحاربه المجتمع كله ، وهو تطور هائل فى التاريخ البشرى . وقد حدّد رسول الله ﷺ نصر الأخ الظالم بردعه عن ظلمه كما قال عليه الصلاة والسلام :

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . فقال رجل : يا رسول الله ، أنصره مظلوماً . فكيف أنصره ظالما ؟ قال : « تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » [1] .

١٠ ـ (وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان أحدهم) . فلم تقر التجمعات القبلية للخزرج، وللأوس ، وتجمع المهاجرين كى تشكل كتلاً متصارعة . إنما أقر هذا الواقع ليحقق التكافل لكل فرد ، ويحدد المسؤولية عليه ، أما عند البغى والظلم، فالبراءة من كل باغ وظالم ، ولو كان ولد أحدهم ، والولاء لله ورسوله .

١١ ـ (ولا يقتل مؤمن مؤمناً بكافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن) . فمعالم دولة الإيمان فى الأرض تحدد ولا يمكن أن يتساوى المؤمن والكافر . وكما تبرز الدولة القومية معالمها بعدم التفريق بين أبنائها على أساس الدين ، لكنها تجعل لأبناء قوميتها الميزة والعلو ، فدولة الإيمان كذلك لن تدع الرابطة القبلية أقوى من الرابطة الإسلامية ، وتقبل التناصر بين المؤمن والكافر على المؤمن ، وتبيح قتل المؤمن بالكافر ؛ لأن المؤمنين إخوة . وفى الوقت الذى تطالب الوثيقة جميع أبناء الأمة المسلمة أن يكونوا يداً واحدة على الباغى والظالم ولو كان ولد أحدهم، لطالب ألا تكون الولاية للقبلية ، بل للمجتمع الجديد الذى يقول عن المؤمن والكافر : ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [2] .

١٢ ـ (وأن ذمة المسلمين واحدة يجير عليهم أدناهم) . فكرامة أدنى فرد فى الأمة محفوظة ، وكلمته تسرى على جميع المؤمنين ، وإجارته لشخص ينفذها رئيس الدولة .

١٣ ـ وليس هذا الولاء للمؤمنين فقط ، بل حتى غير المؤمنين الذين يرتضون أن يسلموا أمورهم وقيادهم للمؤمنين بحيث يكونون تبعاً لهم « وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » . فمثل هؤلاء الأفراد الذين

---

(١) شرح السنة للبغوى ١٣ / ٩٧ ح ٣٥١٦ . وقال فيه : « هذا حديث متفق على صحته » . والبخارى ٥/ ٧١ فى المظالم .

(٢) هود / ٢٤ .

يقدمون ولاءهم للقيادة المسلمة مباشرة رغم اختلافهم معها فى العقيدة ، يعرِّضون أنفسهم للخطر الماحق من فئاتهم أو طوائفهم . فالدولة المسلمة كفيلة بحمايتهم ورد العدوان عنهم .

١٤ ـ والجهاد أساس فى الدولة المسلمة ، ينتظم أفراد الأمة عند الضرورة وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

١٥ ـ وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . فهو التعاون والتناصر فى التعويض على الخسائر فى الأرواح والأموال . يواسى بعضهم بعضاً كأنهم أسرة واحدة ؛ المواساة فى المال والكفالة لليتامى ، والرعاية للثكالى سمة رئيسية من سمات هذا المجتمع .

١٦ ـ (وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه) . فليس الإسلام فقط هو خير دين كذلك المسلمون هم خير أمة ، وعلى خير هدى ، وأقوم هدى . لا حاجة لهم بشرائع الشرق والغرب ، قد أغناهم الله من فضله ،وأرسل لهم خير رسله، وخير كتبه ، وخير رسالاته .

١٧ ـ ولئن ذُكرت الإجارة (يجير على المسلمين أدناهم) . فهذه المادة توضح حدودها، فلا إجارة لعدو محارب من مشرك مهادن معنا ، ولا أمان له إلا من مسلم . ولا أمان لمال عدو محارب إلا من الدولة المسلمة نفسها ، (وإنه لا يُجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن) .

وقد ذكرت قريش خصيصاً هنا بصفتها العدو المحارب للمؤمنين . فعند إباحة دم الكافر المحارب ، وإباحة ماله ، فلا يستطيع مشرك مشترك معه فى العقيدة أن يحمى ماله أو حياته .

١٨ ـ وقاتل المؤمن عندما يكون مشركاً ، فالأصل قتل المشرك المجرم إلا إذا رضى ولى المقتول ، أو يكون قد قُتل بحق .

١٩ ـ ولا حماية لمعتد من السلطة المسلمة ، (وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل إلا قيام عليه) .

٢٠ ـ وتقول الوثيقة تأكيداً على هذا المعنى لخطورته ، (وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه) و (أن من نصره وآواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل) .

٢١ ـ وأى خلاف فى تفسير أحكام هذه المواد فمردّها إلى الله ورسوله (وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﷺ) .

(ب) الباب الثانى :

حقوق وواجبات غير المسلمين فى الدولة المسلمة :

٢٢ ـ غير المؤمنين فى الدولة الإسلامية لن يبلغوا كيان أمة مستقلة ، وهم كذلك ليسوا جزءاً من الأمة المسلمة ، لكن بعضهم يمكن أن يكونوا مع التجمع الإسلامى ، وبعضهم له استقلاله الذاتى .

٢٣ ـ والذين تهودوا من الخزرج والأوس يتبعون قبائلهم التى ينتمون إليها.

(وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . فلليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم) .

٢٤ ـ والذى يظلم منهم أو يأثم ، فيحمل وزر ظلمه وإثمه ، فلا تزر وازرة وزر أخرى. ولا يهلك إلا نفسه وأهل بيته ، (إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته) .

٢٥ ـ والشىء المحجور على هؤلاء الأفراد أنه لا يخرج أحد منهم من بلده إلا بإذن من الدولة : (وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ) .

٢٦ ـ والثارات ليست هى الرد على اعتداءات الجروح ، فالدولة هى التى تقيم النظام وتعاقب المعتدين ، (وأنه لا ينحجز ثأر على جرح) . ومن تجرأ على حدود الله، وراح يقتل ثأراً لجرح وقع به ، فقد حكم على نفسه بالموت ، (وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم) .

٢٧ ـ ورسول الله ﷺ هو الكفيل بتطبيق هذه المواد بصفته رئيساً للدولة ، والله تعالى على ذلك من الشاهدين ، فهو منهج الله وشرعه ، (وإن الله على أبر هذا) .

٢٨ ـ أما التجمعات اليهودية المستقلة الخارجة عن التبعية للقبائل ولها قياداتها وزعاماتها(١) ، فلابد أن تشارك بالنفقة فيما يخصها ؛ من مسؤولية الدفاع عن البلد وحماية الوطن ، (وأن يهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) .

٢٩ ـ لكن لا يحمل اليهود العبء كله ، ولا يحمل المؤمنون العبء كله، وإنما كل منهم

---

(١) قد تكون هذه المادة خاصة باليهود التابعين للقبائل ، أما التجمعات المستقلة ، فيظهر أن لها مواثيقها الخاصة غير هذا الميثاق .

حسب إمكاناته وعدده ، (وإن على يهود نفقتهم ، وعلى المؤمنين نفقتهم) .

٣٠ ـ وحين يتعرض الوطن للخطر ، ويدعى غير المسلمين للمشاركة فى الدفاع عنه فيجب عليهم ذلك ، (وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة) .

٣١ ـ ولابد من تبادل النصح والتشاور فى الملمات فيما يعود على البلد بالنفع ، (وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم) .

جـ ـ الباب الثالث :

أحكام شاملة للمواطنين عامة :

وهذه الأحكام تشمل كافة المواطنين ، يتساوون فيها بالحقوق والواجبات .

٣٢ ـ خطأ الحليف لا يحمله المتحالف معه ، فكل مخطئ يحاسب على تقصيره ، (وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه) .

٣٣ ـ والمظلوم أياً كان جنسه أو عقيدته ، فلابد أن ينصر ، والدولة هى حزبه ، (وإن النصر للمظلوم) .

٣٤ ـ وحدود هذه المدينة ، وهذا الوطن حرام للجميع ، (وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة) .

٣٥ ـ معاملة الجار كمعاملة النفس ، ما لم يكن مضاراً لجاره ، أو معتدياً عليه ، (وإن الجار كالنفس غير مضارٍ ولا آثم) .

٣٦ ـ والحرمات مصونة ، فلا يتدخل أحد فيها إلا بإذن أهلها ، حق التملك ، وحق التصرف ، (وأنه لا تجار حرمة بدون أهلها) .

٣٧ ـ وإن الجهة التى يحتكم إليها هى الله ورسوله فقط ، ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** .... ﴾ [1] ، (وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من اشتجار أو حدث يخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله).

٣٨ ـ وإن الجوار للعدو ممنوع ، ولحلفاء هذا العدو ، (وإنه لا تجار قريش ، ولا من نصرها) .

---

(١) النساء / ٥٩ .

٣٩ ـ ومسؤولية الدفاع عن الوطن مسؤولية شاملة لكل فرد ، (وإن بينهم النصر على من دهم يثرب) .

٤٠ ـ وإن ما تقره الدولة من سلم أو حرب فيسرى على الجميع ، (وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه) .

٤١ ـ ومن حق غير المؤمنين على المؤمنين أن ينصروا حلفاءهم ، (وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب الدين) ، والشرط المرهون به النصرة هو ألا يكون الحليف عدواً محارباً للمسلمين والإسلام .

٤٢ ـ لا أمان لظالم أو آثم فى الدولة المسلمة مهما كان جنسه أو كانت عقيدته ، (وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم) .

٤٣ ـ وحق الأمن مصون للجميع فى أموالهم ، وتحركهم ، وتعاملهم ، (وإنه من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن) . والذى يخاف هو الظالم الآثم (إلا من ظلم وأثم) .

٤٤ ـ والدولة عون وكهف ونصر لكل من بر واتقى ، ونفذ أحكام الوثيقة ، (وإن الله جار لمن برَّ واتقى ومحمد رسول الله ﷺ) .

لقد تم هذا التنظيم لمجتمع المدينة : الأوس والخزرج والمهاجرين فيه ، المسلمون واليهود فيه . أما تجمعات اليهود الكبرى ، والتى كانت منفصلة عن مجتمع المدينة ، ومغلقة على ذاتها ، فقد جرى تنظيم العلاقة معها فى وثيقة أو (وثائق أخرى) . وإن كان نص هذه الوثائق ليس بين أيدينا ، لكن التأكيد عليها ورد فى أكثر من نص من نصوص السيرة .

فعن محمد بن عمر قال : حدثنى عبد الله بن جعفر (١) عن الحارث بن فضيل (٢) عن ابن كعب القرظى (٣) قال :

(لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وادعته يهود كلها ، وكتب بينه وبينها كتاباً ، وألحق رسول الله ﷺ كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً . فكان فيما شرط عليهم ـ ألاَّ يظاهـروا عليه عدواً . فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر ، وقدم المدينة ، بغت يهود ، وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله

(١) عبد الله بن جعفر : ليس به بأس .
(٢) الحارث بن فضيل : ثقة .
(٣) محمد بن كعب القرظى : ثقة عالم .

ﷺ من العهد) (١) .

ويقول الإمام محمد بن يوسف الصالحى : (وقد كان الكفار بعد الهجرة مع النبى ﷺ على ثلاثة أقسام : قسم وادعهم على ألا يحاربوه ، ولا يوالوا عليه عدوه . وهم طوائف اليهود الثلاثة : قريظة ، والنضير ، وبنى قينقاع . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة وهم قريش . وقسم تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب . فمنهم من كان يحب ظهوره فى الباطن كخزاعة ، وبالعكس كبنى بكر . ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً وهم المنافقون) (٢) .

والملاحظ كذلك أن الوثيقة لم تعترف بالوجود المشرك على ثرى المدينة ، فبقى المشركون ضائعين فى كيان قبائلهم المسلم ، بينما اعتُرف بالوجود اليهودى فيها .

وحيث فات قريش أن تحول دون قيام الدولة المسلمة فى المدينة ، وكانت قيادة قريش قد التقت مع عبد الله بن أبى فى مكة أثناء بيعة العقبة ، ورأته يرفض الإسلام ، والحلف مع محمد ﷺ ، ولا شك أن عيونها كذلك فى المدينة لاحظت تجاهل المشركين فى المدينة،فمضت تخطط لتدمير هذا الأمان ولقلب نظام الحكم من الداخل .

(فقد روى ابن مردويه بإسناد صحيح إلى معمر ، عن الزهرى ، أخبرنى عبد الله ابن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبى وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهددونهم بإيواء النبى ﷺ وأصحابه ، ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب . فَهَمَّ ابن أبى ومن معه بقتال المسلمين . فأتاهم النبى فقال : « ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش ، يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم » .

فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا) (٣) .

وخضع عبد الله بن أبى وحزبه للاتجاه العام فى المدينة ، لكن دون أن ينضم للإسلام ، وبقى مع حزبه على شركه ووثنيته ، وبلغت به القحة مبلغاً لا يليق بالعربى الأصيل مرتين :

المرة الأولى : عندما رفض أن يستضيف رسول الله كما فى النص : (فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبى بن سلول ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسها فقال : اذهب إلى

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ١٧٦ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤ / ١٣ ، وهو منقول عن الحافظ ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى ٧/ ٣٣٠ ح ٤٠٢٢ .

(٣) فتح البارى ٧ / ٣٣١ ح ٤٠٢٢ .

الذين دعوك فانزل عليهم . .) .

المرة الثانية : وهى كما رواها ابن إسحاق فى الرواية الصحيحة عن أسامة بن زيد حِبٍّ رسول الله ﷺ قال : ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه ، على حمار عليه إكاف (١) ، فوقه قطيفة (٢) فدكية (٣) مختطمة (٤) بحبل من ليف (٥) ، وأردفنى رسول الله ﷺ خلفه ، فمرّ بعبد الله بن أبى وهو فى ظل مزاحم أطُمِه (٦) ، وحوله رجال من قومه . فلما رآه رسول الله ﷺ تذمَّم (٧) من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم ثم جلس قليلاً ، فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل ، وذكر الله، وحذر ، وبشر وأنذر . وهو زام (٨) لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته قال :

يا هذا إنه ، لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً ، فاجلس فى بيتك ، فمن جاءك له فحدِّثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تفته (٩) به ،ولا تأته فى مجلسه بم يكره منه .

فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين :

بلى فاغشنا به ، وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ، ومما أكرمنا الله به ، وهدانا له . فقال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه وإن جذ يوما ريشه فهو واقع

(قال ابن هشام : البيت الثانى عن غير ابن إسحاق) .

(وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة ، وفى وجهه ما قال عبد الله بن أبى . فقال : والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً ، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه ؛ قال : أجل . ثم أخبره بما قال ابن أبى ؛ فقال سعد :

---

(١) الإكاف : البرذعة بأدواتها . (٢) القطيفة :الشملة .
(٣) فدكية : منسوبة إلى فدك .
(٤) مختطمة : الاختطام أن يجعل على رأس الدابة وأنفها حبل يمسك به .
(٥) الليف : ليف النخل . (٦) الأُطُم : الحصن ، ومزاحم : اسم له .
(٧) تذمم : خرج من الذم . (٨) زامٌّ : ساكت .
(٩) فلا تفتَّه : لا تكثره عليه ، وقد يكون معناه : لا تعذبه به .

ارفق به ، فو الله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لننظم له الخرز [1] لنُتَوِّجَهُ . فو الله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً) [2] .

وكان سعد بن عبادة رضي الله عنه رفيق رسول الله ﷺ ، وهو قادم من قباء إلى المدينة . فعندما مر على بنى الحبلى (وهو سالم بن غنم بن عوف) ، وكان سيدهم عبد الله بن أبى ، أراد رسول الله ﷺ أن يتألف عبد الله بن أبى سيدهم ، فأراد أن ينزل عنده ولو لفترة قصيرة ، غير أنه أجاب ذلك الجواب الأرعن .

(اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم) .

فاعتذر سعد بن عبادة عن سفاهته بقوله :

لا تجد يا رسول الله فى نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه عليها . فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذى أعطاك شرِق بذلك [3] ولكن هذه دارى . وظاهر الأمر أن ابن أبى قد ضغن قلبه ، ونفث حقده لفوات هذه الزعامة عليه ، وذلك حين تواقح أولاً ، فرفض ضيافة النبى ﷺ ، وحين طلب من رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثانياً أن يكتفى بالدعوة فى بيته .فقد ألقى هذه القنبلة على أمل أن تنجح، فيتقدم خطوة إلى الأمام فى مواجهة الدعوة. ولعله يستطيع أن يوجد جيباً تحظر فيه الدعوة وتمنع ، ثم يمتد هذا الجيب فيحصر الدعوة فى البيوت ، ويعيد للشارع شركه، وللشرك والوثنية احترامهما ، وقال هذا الكلام بين ظهرانى المسلمين وعلى رأسهم عبد الله بن رواحة نقيب بنى الحارث بن الخزرج ، وهم أقرب الجيران لابن أبى. وحسب أنه بذلك سوف يضع له موطئ قدم فى استعادة زعامته ، غير أن عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه سيد بنى الحارث بن الخزرج كان له بالمرصاد ، فأجابه الجواب الذى يليق بسفاهته ، ويخنق آماله :

(بلى فاغشنا به ، وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ، ومما أكرمنا الله به وهدانا له) .

وعض عبد الله بن أبى أنامله من الغيظ أمام هذا التأييد العنيف لرسول الله ﷺ ، وصغر فى نفسه وهو يرى من يرد عليه ويسفه رأيه . فتمثل بهذين البيتين اللذين عبرا

---

(١) الخرز : قال أبوعبيدة : لم يكن تاجاً وإنما كان خرزات تنظم . وقال السهيلى : لم يتوج العربى إلا قحطانى، والأنصار قحطان .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام وهى رواية ابن إسحاق ، عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير ، عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما .

(٣) شرق بذلك : ضاق صدره كمن غصَّ .

عن خيبة أملة ، ودفين حقده :

متى ما يكن مولاك خصمك لم تزل ... تُذل ويصرعك الذين تصارع

وهل ينهض البازى بغير جناحه ... وإن جذ يومًا ريشه فهو واقع

إن الذين كان يرجوهم لولائه ونصرته هم خصومه اليوم ، وهذا ذل ما بعده ذل ، وحين يستنهض ابن بنى الحارث بن الخزرج إخوان بنى عوف بن الخزرج ، فيتخلون عنه، فلابد أن يسقط مهما كان قوياً . . وهكذا أصبح عبد الله بن أبى ، مجذوذ الريش منتوفه فى موقف ابن رواحة ومن معه ، وموقف سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو وابن أبى من بطن بنى عوف بن الخزرج . لكن سعداً لا يزال يشفق على ابن أبى، ويفسر تصرفاته كلها بغيظه الدفين لفوات ملكه بعد قدوم الرسول ﷺ . ثم كانت المحاولة الثالثة التى رأيناها ، حيث جمع ابن أبى كل مشركى المدينة من كل القبائل ليشكل منهم حركة عسكرية تواجه الإسلام والمسلمين ، وتكون طليعة خائنة تمهد الجولة لدخول قريش المدينة واحتلالها ، فباءت الحركة بالفشل ، وأفشلها ﷺ بنفسه حين قال لابن أبى وشرذمته :

« ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش ، يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم» . فرجعوا .

وشخصية ابن أبى ليست من الشخصيات المواجهة ، وقد اكتسب زعامته كما مر معنا من استغلال الظروف ، بعد الحرب بين الأوس والخزرج ، واصطنع الحكمة فى رفضه بغى الخزرج على الأوس ، وضمن عدم هدم اليهود لحصنه حين أكد لهم أنه على الحياد . فأصبح الزعيم المرشح للمدينة بهذا الموقف ، ومن أجل ذلك سرعان ما انهارت مقاومته أمام تخويفه بالبأس الشديد فى قومه ، حيث سوف يلعنه قومه لو حرّك دماءً جديدة ، وحروباً جديدة فى صفهم ، وهو الحكيم عندهم . لكن ضغط قريش عليه دفعته إلى هذا الموقف المتهور ، وضمن بذلك أن يعذر أمام قريش من جهة ، وأن يحافظ على البقية الباقية من زعامته بالتراجع عن هذه المواجهة الخاسرة مع المسلمين .

لقد أصبحت المدينة دولة رسمية تحكم بالإسلام ، واعترفت كل القيادات من كل الاتجاهات بشخص رسول الله ﷺ الحاكم الأول للمدينة ، وبالإسلام الشريعة الحاكمة للمجتمع ، وبالنقباء الاثنى عشر ، الذين يمثلون الحكومة الإسلامية مع قائدها ورئيسها - عليه الصلاة والسلام .

إعلان شعار الدولة : الأذان

روى الشيخان [1] والترمذى والنسائى ، عن ابن عمر ، وابن إسحاق ، وإسحاق ابن راهويه ، وأبو داود بسند صحيح صححه النووى ، عن محمد بن عبد الله بن زيد ابن ثعلبة بن عبد ربه عن أبيه . وأبو داود بسند صحيح ، عن ابن عمر عن أنس بن مالك ، عن عمومة له من الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ وإسحاق بن راهويه عن الشعبى مرسلاً بسند حسن ، وعبد الرزاق وأبو داود عن عبيد بن عمير أحد كبار التابعين ، وابن أبى شيبة ، وأبو داود وابن خزيمة وأبو الشيخ ، والدارقطنى والبيهقى والطحاوى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال :

حدّثنا أصحابنا ـ ولفظ ابن أبى شيبة وابن خزيمة والطحاوى والبيهقى : حدثنا أصحاب رسول الله ﷺ ـ حين قدم المدينة : إنما كان يجمع للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة . فلما كثر الناس اهتم النبى ﷺ كيف يجمع الناس للصلاة؟ فاستشار الناس ، فقيل له : انصب راية عند حضور الصلاة إذا رأوها أعلم بعضهم بعضاً ، وذُكر له القنع [2] ـ يعنى شبُّور اليهود ، وفى لفظ : البوق ، وفى القرن الذى يدعون به لصلاتهم ـ فلم يعجبه ذلك ، وقال : « هو من أمر اليهود » فذكر له الناقوس فقال : «هو من أمر النصارى » . فقالوا : لو رفعنا ناراً ؟ فقال : « ذلك المجوس » .

وفى حديث عمر عند الشيخين وغيرهما فقال عمر : أولا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال قم فناد بالصلاة » . فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ . فأرى الأذان فى منامه. قال [3] : (لما أمر رسول اللّه ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب للناس لجمع الصلاة طاف بى وأنا نائم رجل يحمل ناقوسًا فى يده ، فقلت يا عبد الله أتبيع الناقوس ؟ . قال : وما تصنع به ، فقلت : ندعو به إلى الصلاة . فقال : ألا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ فقلت له : بلى .

---

(١) رواية البخارى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : (أنه كان يقول : كان المسلمون حين قدموا المدينة مجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها . فتكلموا يوماً فى ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم : بل بوقاً مثل قرن اليهود . فقال عمر : أولا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة. فقال رسول الله ﷺ : يا بلال : قم فناد بالصلاة) فتح البارى ٢ / ٧٧ . ك الأذان ح ٦٠٤ .

(٢) القُنْع والشبور والقرن والبوقة بمعنى واحد ، وهو الذى ينفخ فيه ليخرج منه صوت .

(٣) وهذا نص رواية أبى داود بسنده الصحيح الذى صححه النووى ، عن محمد بن عبد الله بن زيد عن أبيه .

قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ ، فأخبرته بما رأيت فقال :

« إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به ، فإنه أندى صوتاً منك » . فقمت مع بلال ، فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به ، قال : فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو فى بيته فخرج يجر رداءه يقول : والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد رأيت مثل ما رأى . فقال رسول الله ﷺ : « فلله الحمد ») (١) .

(قال أبو داود هكذا رواية الزهرى ، عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن زيد، وقال فيه ابن إسحاق عن الزهرى : الله أكبر الله أكبر الله أكبر . وقال معمر ويونس ، عن الزهرى فيه: الله أكبر الله أكبر لم يثنيا) (٢) . وفى حديث أبى عمير بن أنس : (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رآه فكتمه عشرين يوماً) (٣) . . فبينا عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين لناقوس إذ رأى فى المنام : لا تجعلوا الناقوس . وفى حديث عبيد بن عمير : بل أذنوا . فذهب عمر ليخبر النبى ﷺ بالذى رأى . وقد جاء الوحى، فما راع عمر إلا بلال يؤذن . قال عبد الله بن زيد : فقال رسول الله ﷺ لعمر: « ما منعك أن تخبرنى؟» فقال : سبقنى عبد الله بن زيد فاستحييت . فقال رسول الله ﷺ : « فلله الحمد فذلك ثبتت » . قال الزهرى ونافع بن جبير ، وابن المسيب : وبقى ينادى فى الناس : « الصلاة جامعة » . للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به ، وإن كان فى غير وقت صلاة) (٤) .

لقد كان الأذان حلاً لمعضلة من أهم المعضلات التى اعترضت هذا المجتمع الجديد، فالصلاة أعظم أركان الإسلام لابد أن تؤدى جماعة ، ولابد أن يسبقها إعلام معين بها حتى يتوافد الناس فى وقتها المحدد . وحسب رواية الشيخين ، رفض رسول الله ﷺ كل عمليات التشبه بالنصارى واليهود والمجوس. فهو لا يريد لهذه الأمة إلا أن تكون متميزة متفردة عن بقية الأمم . وأخذ باقتراح عمر رضي الله عنه بالمناداة للصلاة . وحسب

(١ ، ٢) سنن أبى داود ج ١ / ١٣٥ ، ١٣٦ م١ ط . مكتبة الرياض الحديثة .
(٣) المصدر نفسه ١ / ١٣٥ .
(٤) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٥١٢ .

الرواية الثانية الصحيحة كذلك أن أمر النداء لم ينه المشكلة نهائياً . وأمكن تحت الضرورة القبول بالناقوس ؛ ليكون على الأقل مخالفاً لليهود الذين تعج بهم المدينة وبأبواقهم فى معابدهم . وكإجراء مؤقت يساعد على إيجاد حل جذرى للمعضلة ، ولم يتدخل الوحى ابتداءً ، وترك أمر حل القضية لهذا الجيل الفريد . فللجيل دوره فى حل معضلاته ، ولابد أن يتحمل مسؤولية ذلك فى المشاركة والرأى والشورى . وبعد بذل الجهد ، وتقليب أوجه النظر من كل جانب ، كانت المناداة للصلاة ابتداءً، ثم الهم بالتوقيت بالناقوس ثانية وبصورة مؤقتة إلى أن كانت رؤيا عبد الله بن زيد من الأنصار ، وعمر رضي الله عنه من المهاجرين ، والوحى الذى سبقهما ، لتتجه القلوب جميعها إلى هذا الشعار العظيم .

ولا أريد أن أتحدث إلا هذه الكلمات القليلة عن الأذان ؛ لأن ما ساقه الصالحى عنه عن بعض علماء الأمة كافٍ ليوضح بجلاء أثر هذا الشعار وهذه الصبغة للدولة ، أكتفى بنقله من هناك . قال الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى :

(الثانى : فى بعض أسرار الأذان وبدائعه ، قال القاضى :

الأذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان ، مشتملة على نوعية من العقليات والسمعيات. فأوله إثبات الذات وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها وذلك بقوله : « الله أكبر » . وهذه اللفظة مع اختصارها دالة على ما ذكرناه ، ثم صرَّح بإثبات الوحدانية . ونفى ضدها من الشركة المستحيلة فى حقه ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه عمدة الإيمان والتوحيد، المقدمة على كل وظائف الدين . ثم صرح بإثبات النبوة والشهادة بالرسالة لنبيه ﷺ ، وهى قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية ، وموضعها بعد التوحيد . . . ثم دعاهم إلى ما دعاهم إليه من العبادات ،فدعاهم إلى الصلاة ،وعقبها بعد إثبات النبوة ؛ لأن معرفة وجوبها من جهة النبى ﷺ لا من جهة العقل ، ثم دعا إلى الفلاح ، وهو الفوز والبقاء فى النعيم المقيم ، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث والجزاء ، وهى آخر تراجم عقائد الإسلام ، ثم كرر ذلك بإقامة الصلاة للإعلام بالشروع فيها . وهو متضمن لتأكيد الإيمان ، وتكرار ذكره عند الشروع فى العبادة بالقلب واللسان ، وليدخل المصلى فيها على بينة من أمره وبصيرة بإيمانه ، ويستشعر عظيم ما دخل فيه ، وعظمة حق من يعبده وجزيل ثوابه) . انتهى كلام القاضى . قال النووى : وهو من النفائس الجليلة ، وبالله التوفيق .

قلت : قد ألف الإمام الحافظ برهان الدين البقاعى ـ رحمه الله ـ جزءاً لطيفاً فى أسرار الأذان سماه : (الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان) . وأنا مورد هنا ما ذكره

فى الأذان ليستفاد منه فإنه نفيس جداً . قال ـ رحمه الله ـ بعد أن أورد أحاديث بعض الأذان والتشهد :

(مقصوده ـ أى الأذان ـ الإعلام بأوقات الصلاة تنبيهاً على أن الدين قد ظهر . وانتشر علم لوائه فى الخافقين واشتهر . وسار فى الآفاق على الرؤوس فبهر ، وأذلّ الجبابرة وقهر ، واعلم أنه لما كان الدين المحمدى دين الإسلام الذى لا يقبل الله من أحد ديناً غيره ، قد علا على كل دين ، فظهر كل مخالف ، وخفقت راياته بعد أن كانت خفية ، وانتشرت أعلام ألويته بعد أن كانت ملوية . وبعتاة أهل الباطل مطوية . وقد كان الشرك منذ أزمان فى غاية الظهور ، والباطل هو المعمول به والمشهور . فناسب أن يصرَّح بأذانه ، ويشدى به على غاية إعلانه ، ولما كانوا يشركون به سبحانه، ويتعبدون بسواه كان نسب الأمور البداثة بالتنبيه على تفرده بالكبرياء ، وتوحده بالعلاء . فقال بادئاً بالاسم الأعظم الدال على الذات ، المستجمع لجميع الكمالات : « الله » أى الملك الذى لا كفء له ولا سمى ، ولا ضدّ ولا نظير . وآتى بالخبر نكرة ليدل على إسناده إليه على الإطلاق ، وأنه لا خفاء فى انفراده بذلك ، فقال : « أكبر » ولم يذكر متعلقاً ذهاباً بالتعميم إلى أعلى الغايات ، وأنهى النهايات . ولما كان قد طال ما قرّر الشرك فى الأذهان ، وصال به أهل الطغيان ، اقتضى الحال تأكيد ذلك . ولأجل هذا ثنى التكبير فى الإقامة مع أنها فرادى . ولما كان المراد من جميع كلمات الأذان مجرد الإعلام بالوقت ، وبهذه المقاصد المراد بها نسخه ما عداه ، قال مؤكداً من غير عطف لشىء من الجمل : « الله أكبر ».

ولما كان الحال مع جميع الأكوان شديد الاقتضاء ، لم يذكر التأكيد لتطاول أزمان الشرك . قال ملذذاً لأسماع الموجودات ، ومُروِياً لعطاش أكباد الكائنات : « الله أكبر » ولما تم تقرير ذلك فى الأذهان وعُلم علماً تاماً أن التوحيد قد علا ، وقهر جميع الأديان، ارتقب كل سامع ما يقال بعده . فقال مبتدئاً دوراً جديداً من هذا الإعلام لمزيد التقدير عند جميع الأنام : « الله أكبر».

فلما علم أن ذلك إلى غير نهاية ، ولا حد تقف عنده كل غاية ، قال مترجماً لما أنتجه . ملقناً كل سامع ما وجب عليه من الجواب ، مسراً بذلك بعض الإسرار ، إعلاماً بما كان من حال هذا الدين فى أول الأمر ، برهاناً على حسن هذا التأكيد «أشهد» أى أعلم علماً قطعياً أنى فى مريد بصرى كالناظر إلى محسوس هو فى غاية الجلاء « أن لا إله إلا الله ». ولما كان المقام كما مضى شديد الاقتضاء للتأكيد .قال ثانياً : ـ « أشهد أن لا إله إلا الله » . فلما أخذ المقام حظه من التأكيد ، ولم يحتج إلى مزيد ، فتلقى

ذلك فى القبول العبيد .

فثبتت رسالة الذى أتى بهذا الدين ، وجاهد به الجاحدين ، حتى قهرهم وحده صاغرين أجمعين ، قال على طريق النتائج المسلمة : « أشهد أن محمداً » ذاكراً أشهر أسمائه ، وأطيبها وأظهرها ، « رسول الله » مخصصاً وصف الرسالة الذى هو بين الحق والخلق ، لأن المقام داعٍ إليه ، ومقصور عليه ، ثم أتبع ذلك ما اقتضاه الحال من تأكيده فى تعظيمه وتمجيده . فقال : « أشهد أن محمداً رسول الله » . فلما أخذ المقام حظه من التأكيد للإعلان بما كان فيه للإسلام من الشدائد والآلام . . ولما استقر فى الأذهان سر هذا الإعلان . . قال ذاكراً لما آثرته الرسالة من الخلاص من أشراك الضلالة والردّ على طرقها الميالة وأوديتها المفتالة: « حى على » ، أى هلموا ، أقبلوا جهاراً ـ غير خائفين من أحد ـ إلى « الصلاة » بادئاً بما هو نهاية الدين ، الجامع لشمله المميزُ لأهله.

ولما كان الناظر لذلك الحال ، يستدعى عجباً من الوصول إلى هذا المآل ، قال مؤكداً : « حى على الصلاة » . فلما تقرَّر ذلك كان كأنه قيل : هل من عمل غيرها ؟ فقال : « حى على الفلاح » . فكان ذلك ـ مع أنه دعاء إلى كل عمل يوجب الفوز والظفر بكل مراد ـ مؤكداً للدعاء إلى الصلاة على أبلغ وجه .

ولما كان تطاول الصولة بالإذلال والقهر ، موجباً لاستبعاد الإقبال على كل عمل من أعمال الشرع على سبيل القهر ، أكد هذا الكلام الداعى إلى كل خير لهذا ، وللإشارة إلى أنه لحسنه جدير بالتأكيد وأهل لأن يعرف بمقدار لجلالة آثاره فقال : « حى على الفلاح » . وفيه إشارة إلى أن الأمر خطير . والطريق صعب . فلابد من التأهب له بأعظم الزاد لتحصل الراحة فى المآل والمعاد . . . .

ولما تم الدين بجملته ، وكمل أصلاً وفرعاً ، قولاً ونية وعملاً برمته ، علل الدعاء إليه مرغباً مرهباً بقوله ، مذكراً بما بدأ الأمر به ، لاستحضار عظمته التى أظهر بها الدين، وأذل بها المعتدين ، بعد أن كانوا على ثقة من أنه لا غالب لهم : « الله أكبر ». ثم أكد بمسيس الحاجة إلى ذلك فى الترغيب والترهيب فقال : « الله أكبر » . فلما تم الأمر ، وجلا التشويق والزجر ، لم تدعُ حاجة إلى تربيع التكبير هنا كما كان فى الأول، فختم بما بدأ به من التوحيد إعلاماً بأنه لا يقبل شيئاً من هذا الدين إلا به ، مقارناً له من ابتدائه إلى انتهائه . فقال: « لا إله إلا الله » . ولما كان قد وصل إلى حد لا مزيد عليه ، لم يحتج إلى تأكيد ، حتى ولا بلفظ الشهادة إعلاماً بأنه ليس وراء هذا إلا السيف لو توقف عنه ، أو عاند فيه . ولما كان من أجلِّ ما يراد بالأذان ـ كما

مضى - الإعلام بظهور الإسلام على جميع الأديان ، وأنه قد أورق عوده ،وزكا وجوده، وثبت عموده ، وعزّ أنصاره وجنوده ، جاء على سبيل التعديد والتقرير والتأكيد ، ومن غير عاطف ولا لافت عن هذا المراد ، ولا صارف تنبيهاً على أن كل جملة منه ركن برأسه ، مستقل بذلك بنفسه ، معرب عما هو المراد من إظهار التعداد .

هذا ما شرحه الله تعالى لعباده من الأذان فى حال النوم واليقظة فى الليل والنهار، على وفاء لا مزيد عليه كما صرّح به قوله ﷺ : « اللهم رب هذه الدعوة التامة» . فمن زاد حرفاً فما فوقه فقد أساء وظلم) (١) .

ولقد كان الأذان قاصمة لظهر أعداء الله :

(فقد ذكر بعض أهل التفسير أن اليهود لما سمعوا الأذان قالوا : لقد ابتدعت يا محمد شيئاً لم يكن فيما مضى . فنزلت : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢)) (٣) .

والأذان شعار الوجود كله . كما يقول جل وعلا :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٤) .

ودليل هذا الإسلام من خلال هذا الشعار الأذان : (فعن عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى صعصعة الأنصارى ثم المازنى ، عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى قال له : إنى أراك تحب الغنم والبادية. فإذا كنت فى غنمك - أو باديتك - فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ) (٥) .

ولعظمة هذا الشعار ، وارتباطه بعزة الإسلام وتمكنه ووجوده ، كان وجوده هو الذى يحول دون غزو البلاد والعباد . فقد عنون البخارى - رحمه الله - لذلك بقوله : باب ما يُحقَن بالأذان من الدماء .

ثم أورد الحديث بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٥١٤ - ٥١٩ .
(٢) المائدة / ٥٨ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢ / ٧٧ ، ٧٨ .
(٤) آل عمران / ٨٣ .
(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢ / ٨٧ ، ٨٨ ح ٦٠٩ .

« أن النبى ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر ، فإذا سمع أذاناً كف عنهم ، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم . فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلاً . فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبتُ خلف أبى طلحة . وإن قدمى لتمس قدم النبى ﷺ . قال : فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم . فلما رأوا النبى ﷺ قالوا : محمد والله ، محمد والخميس . قال : فلما رآهم رسول الله ﷺ قال : الله أكبر ، الله أكبر ، خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (١) .

وبذلك شهد الوجود ميلاد الدولة الإسلامية على الأرض ، استجابة لدعوة إبراهيم الأولى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢) وشائت إرادة الله تعالى أن تعلن هذه الدولة فى المدينة لا فى مكة حيث كانت دار الكفر ودار الشرك والوثنية .ولم يأذن الله تعالى أن يعلن التوحيد والإسلام فى مكة إلا بعد ثمان سنوات من الأذان الأول فى المدينة . وتحقيقاً لدعاء الخليل إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) .

---

(١) المصدر السابق / ٨٩ ، ٩٠ ح ٦١٠ .

(٢) الحج / ٢٧ .

(٣) البقرة / ١٢٩ .

إقامة المجتمع المسلم

رأينا فى الفصل قبل السابق كيف تم تنظيم الدولة من خلال ميثاقها الذى رسم الأطر العامة ؛ أن المهاجرين والأنصار أمة من دون الناس ، ونظم العلاقة بينهم وحدد حقوقهم وواجباتهم ، كما أكد أن اليهود أمة أخرى ، يلتقى تجمعهم من خلال التوزيع القبلى مع المسلمين ، وتحددت حقوقهم وواجباتهم ، وكيف وجدت ملاحق أخرى نظمت العلاقة بين الدولة المسلمة وبين تجمعات اليهود الكبرى والممثلة ببنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة .

لكن هذا الدستور قد أقام الجانب الرسمى والنظرى للدولة المسلمة . أما البناء الحقيقى للمجتمع الإسلامى ، والذى تم مباشرة بإشراف رسول الله ﷺ فهو الذى نشهده فى هذا الفصل .

باب كيف آخى النبى ﷺ بين أصحابه ؟

وقال عبد الرحمن بن عوف : آخى النبى ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع لما قدمنا المدينة .

وقال أبو جحيفة : آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء .

حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق . فربح شيئاً من أقط وسمن فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة فقال النبى ﷺ :

« مهيم يا عبد الرحمن ؟ » قال : يارسول الله ، تزوجت امرأة من الأنصار . قال: « فما سقت فيها ؟ » فقال : وزن نواة من ذهب . فقال النبى ﷺ: « أولم ولو بشاة»(١) .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : (قوله : كيف آخى النبى ﷺ بين أصحابه ، وتقدم فى مناقب الأنصار . . . . قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين ، مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار فهى المقصودة هنا . وذكر

---

(١) البخارى م٢ ج٥ ص٨٨ باب كيف آخى النبى ﷺ بين أصحابه .

ابن سعد بأسانيد الواقدى إلى جماعة من التابعين قالوا : لما قدم النبى ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة . وكانوا يتوارثون ، وكانوا تسعين نفساً بعضهم من المهاجرين، وبعضهم من الأنصار . وقيل : كانوا مائة . فلما نزل : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ ﴾ (١) بطلت المواريث بينهم بتلك المؤاخاة .. قال السهيلى: آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة . ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد بعضهم أزر بعض . فلما عز الإسلام ، واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢) يعنى فى التوادد وشمول الدعوة واختلفوا فى ابتدائها: فقيل : بعد الهجرة بخمسة أشهر. وقيل : بتسعة . وقيل : وهو يبنى المسجد . وقيل : قبل بنائه . وقيل : بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر ، وعند أبى سعيد فى (شرف المصطفى) كان الإخاء بينهم فى المسجد . وذكر محمد بن إسحاق المؤاخاة فقال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه بعد أن هاجر : « تآخوا أخوين أخوين » . فكان هو وعلى أخوين ، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين ، وجعفر ابن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل أخوين. وتعقبه ابن هشام بأن جعفراً كان يومئذ بالحبشة ، وفى هذا نظر ، وقد تقدم . ووجهها العماد بن كثير بأنه أرصده لأخوته حين يقدم . وفى تفسير سنيد آخى بين معاذ وابن مسعود ، وأبو بكر وخارجة ابن زيد أخوين، وعمر وعتبان بن مالك أخوين ، ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين. وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان . وقيل : بين عمار وثابت بن قيس بن الشماس ؛ لأن حذيفة إنما أسلم زمان أحد ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وعبّاد بن بشر ، وأبو ذر ، والمنذر بن عمرو أخوين ، وتعقب بأن أبا ذر تأخرت هجرته والجواب كما فى جعفر . وحاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين ، وسلمان وأبو الدرداء أخوين، وتعقب بأن سلمان قد تأخر إسلامه وكذا أبو الدرداء . والجواب ما تقدم فى جعفر . وكان ابتداء المؤاخاة أوائل قدومه المدينة . واستمر يجددها بحسب من يدخل فى الإسلام أو يحضر إلى المدينة. والإخاء بين سلمان وأبى الدرداء صحيح كما فى الباب . وعند ابن سعد : وآخى بين أبى الدرداء وعوف بن مالك وسنده ضعيف ، والمعتمد ما فى الصحيح ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع مذكور فى هذا الباب ، وسمى ابن عبد البر جماعة آخرين .... ولمسلم من طريق ثابت عن أنس : آخى النبى ﷺ بين أبى طلحة وأبى عبيدة . وتقدَّم فى الإيمان حديث عمر : (كان

---

(١) الأنفال / ٧٥ .

(٢) الحجرات / ١٠ .

لى أخ من الأنصار، وكنا نتناوب النزول. وذكر ابن إسحاق أنه عتبان بن مالك..) (١).

(وواخى بين بلال بن رباح وأبى رويحة واسمه عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى . . . وبين عبد الله بن جحش وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وبين عبيدة بن الحارث (ابن المطلب بن عبد مناف) وعُمير بن الحُمَام . وبين الطفيل بن الحارث أخي عبيدة وسفيان ابن نسر بن زيد بن الحارث الخزرجي . وبين الحصين بن الحارث أخي عبيدة وعبد الله ابن جبير (ابن النعمان الأوسى) وبين عثمان بن مظعون والعباس بن عبادة بن نضلة ، وذكر سنيد بدل العباس أبا الهيثم بن التيهان. وبين عتبة بن غزوان ، ومعاذ بن ماعص . وبين صفوان بن وهب القرشى الفهرى وهو المعروف بابن بيضاء ورافع بن المعلى ، وبين المقداد بن الأسود وعبد الله بن رواحة ، وبين ذى الشمالين (ابن عبد عمرو بن نضلة بن غُبشان) ويزيد بن الحارث. وبين أبى سلمة بن عبد الأسد وسعد بن خيثمة . وبين عامر بن أبى وقاص وخبيب بن عدى . وبين عبد الله بن مظعون وقطبة بن عامر. وبين شماس بن عثمان وحنظلة بن أبى عامر . وبين الأرقم بن أبى الأرقم وطلحة بن زيد الأنصارى ، وبين زيد بن الخطاب ومعن بن عدى . وبين عمرو بن سراقة وسعد ابن زيد الأشهلى . وبين عاقل بن البكير ومبشر بن عبد المنذر . وبين عبد الله بن مخرمة وفروة بن عمرو البياضى . وبين خنيس بن حذافة والمنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة . وبين أبى سبرة بن أبى رُهم وعبادة بن الخشخاش . وبين مسطح بن أثاثة ، وزيد بن المزين . وبين أبى مرثد الغنوى وعبادة بن الصامت . وبين عكاشة بن محصن والمجذر بن زياد . وبين عامر بن فهيرة الحارث بن الصِّمة ، وبين مهجع مولى عمر وسراقة بن عمرو بن عطية) (٢) .

(وروى البخارى فى الكفالة وفى الاعتصام ، ومسلم فى الفضائل ، وأبو داود فى الفرائض عن عاصم بن سليمان الأحول قال : (قلت لأنس بن مالك: أبلغك أن النبى ﷺ قال : « لا حِلْفَ فى الإسلام ؟ » قال : قد حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى . قال الطبرانى : ما استدل به أنس على إثبات الحلف لا ينافى الأحاديث السابقة فى نفيه . فإن الإخاء المذكور كان أول الهجرة . وكانوا يتوارثون به ، ثم نسخ من ذلك الميراث ، وبقى ما لم يبطله القرآن . وهو التعاون على الحق والنصر والأخذ على يد الظالم . كما قال ابن عباس : (إلا النصر والنصيحة) ويوصى به فقد ذهب الميراث) (٣) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٦٩ ـ ٢٧٢ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٥٣١ ـ ٥٣٣ .
(٣) المصدر نفسه / ٥٣٥ .

وقال الخطابى : قال ابن عيينة : حالف بينهم : أى آخى بينهم يريد أن معنى الحلف فى الجاهلية معنى الحلف فى الإسلام جار على أحكام الدين وحدوده ، وحلف الجاهلية جارٍ على ما كانوا يتواضعونه بينهم . فبطل منه ما خالف حكم الإسلام، وبقى ما عدا ذلك على حاله .

والحِلْف قال فى النهاية : (أصله المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات . فذلك الذى ورد النهى عنه فى الإسلام بقوله ﷺ : « لا حلف فى الإسلام » وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذاك الذى قال فيه ﷺ : « وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدةً » يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق (وبذلك يجتمع الحديثان وهذا هو الحلف الذى يقتضيه الإسلام . والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام ، والله سبحانه وتعالى أعلم) [1] .

١ ـ لقد كان نص الوثيقة بين المهاجرين والأنصار على :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ،وبنو ساعدة . . . وبنو الحارث . . . وبنو جشم . . . . وبنو النجار . . . . وبنو عمرو بن عوف . . . . وبنو النبيت . . . وبنو الأوس .

هذه الأمة الجديدة من المهاجرين والأنصار تنقسم إلى مجموعات تسعة :

مجموعة المهاجرين واحدة ، ومجموعة الأوس اثنتان ، ومجموعة الخزرج ستة . وتستقل كل مجموعة من هذه المجموعات بالعاقلة فيها . وفى فداء أسراها.

وهناك محظورات شخصية على كل فرد فى مجموعته ، ومسؤوليات شخصية كذلك ، ذكرناها فى فصل سابق ، لا داعى لإعادة الحديث فيها .

لكن هذه الصيغة لا تجعل عملية الالتحام والانصهار قائمة بين أبناء الأمة الواحدة .

فأقدم سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إصدار توجيهه النبوى العظيم، الذى ينتزع الفرد المسلم من مجموعته ليتآخى مع مسلم من مجموعة ثانية ؛ بحيث

---

(١) النهاية لابن الأثير : ١ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

يتكون من هذا البناء الجديد نواة مجتمع إسلامى رائد . واختير حوالى مائة مسلم من هذه المجموعات التسع لتكون هذه الطليعة بإشراف القائد الأعظم ﷺ .

وأول سمة من سمات هذا المجتمع الرائد : أن تسمو العلاقة بين الأخوين على اختلاف أنسابهما فوق رابطة النسب ، وذلك لتتم عملية دمج المهاجرين فى صلب مجتمع الأنصار ، وتردم الهوة بين أبناء مكة ومواليها وبين أبناء المدينة ومواليها هذا وإن كان المهاجرون جميعاً قد انضموا لمجتمع الأنصار . لكن شخصيات منتقاة من الأوس والخزرج اختارها رسول الله ﷺ لتحقق نواة هذا المجتمع القدوة لجماهير المسلمين فى المدينة .

٢ ـ وكانت صيغة رائدة عملية من أنجح الصيغ فى التاريخ بحيث يبنى الولاء من جديد على ضوء هذه الأخوة وتكون رابطتها فوق رابطة الأسرة والعشيرة والقبيلة والمدينة الواحدة ، ويشهد المجتمع الناشئ صنيعة تطبيق هذا الولاء فيه . وترتفع التربية ببقية أبناء الأمة إلى هذا المستوى . فكان من مستلزمات هذه الأخوة المواساة فى جميع مرافق الحياة . يوضح هذا المعنى ما رواه الواقدى بأسانيده إلى جماعة من التابعين قالوا :

لما قدم النبى ﷺ آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة وكانوا يتوارثون ، وكانوا تسعين نفساً . فلما نزل : ﴿ وأُولُوا الأَرْحَام ﴾ (١) بطلت المواريث بينهم بتلك المؤاخاة . وقال الحافظ ابن حجر وهو يتحدث عن حكمة المؤاخاة:

فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى . وروى الخرائطى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير . لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم » (٢) .

وهذا أوضح نص على المستوى العام الذى أحسَّ به المهاجرون من إخوانهم الأنصار . فالأنصار هم العاملون فى أرضهم ، ثم هم بعدها يشاركون إخوانهم المهاجرين فى الثمر ، حتى ليحس المهاجرون أنهم قد أصبحوا بلا أجر لحسن مواساة إخوانهم لهم وحسن بذلهم كذلك . ويشير الحديث إلى طبيعة هذا التعامل العظيم

---

(١) الأنفال / ٧٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٣ / ٥٢٩ وقد أخرجه الإمام أحمد عن يزيد عن حميد عن أنس ج ٣ / ٢٠٠ .

فالذى يملك القليل يواسى فيما يملك ، والذى يملك الكثير يبذل أحسن ما يكون البذل والعطاء لأخيه الأنصارى . وتبقى الصورة المثلى التى حدثنا عنها عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (فعرض سعد على عبد الرحمن أن يناصفه أهله وماله. قال سعد : أنا أكثر أهل المدينة مالاً فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتى هويت ، نزلت لك عنها فإذا حلَّت تزوجتها) .

لقد مثَّل الأنصار فى هذا الوجود عنصر الإيثار الذى شهد رب العزة لهم به : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١) . وبلغ من حبهم لإخوانهم المهاجرين أنهم كانوا يقترعون على نزولهم عندهم . كما روت أم العلاء الأنصارية :

(عن خارجة بن زيد بن ثابت ، أن أم العلاء ـ امرأة من نسائهم ـ بايعت النبى ﷺ، أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين . . .) (٢) .

وبلغ من ارتفاع مستوى التآخى الذى أشرف عليه رسول الله ﷺ أن الأنصار حرصوا على نقل ملكية ما يملكون من النخيل لإخوانهم المهاجرين . غير أن رسول الله ﷺ لم يسمح لهم بذلك ، (فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قالت الأنصار : اقسم بيننا وبينهم النخل . قال :

« لا ، يكفونا المؤونة ويشركونا فى الثمر » . قالوا : سمعنا وأطعنا) (٣) .

إن الأمر الطبيعى عند أجواء العرب أن تكون الضيافة ثلاثة أيام ، وما زاد فهو صدقة . وقد أقرَّ الإسلام هذا المستوى العادى لكل مسلم . أما أن يصبح الأخ بصورة دائمة شريكاً فى كل شىء من مرافق الحياة ، ويبقى الحب والإيثار هو الذى يسود هذه الأخوة ، فهذا لم تشهده البشرية إلا عند هذا الجيل الرائد من الأنصار ، الجيل الذى يعطى ولا يأخذ ، الجيل الذى يؤثر على نفسه رغم حاجته ، هذا وإن كانت الآية قد نزلت بحادثة معينة من حوادث الإيثار ، لكنها عمت بالفضل كل أنصارى فى الوجود . أما سبب نزول الآية : فكما ذكر البخارى ـ رحمه الله ـ :

(فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبى ﷺ ، فبعث إلى نسائه . فقلن : ما معنا إلا الماء . فقال رسول الله ﷺ : « من يضم أو يضيف هذا ؟ » فقال رجل من

(١) الحشر / ٩ .
(٢) البخارى م٢ ج٥ ص٨٥ .
(٣) المصدر نفسه : ٣٩ .

الأنصار أنا . فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمى ضيف رسول الله ﷺ. فقالت : ما عندنا إلا قوت صبيانى . فقال : هيئى طعامك . وأصبحى سراجك ، ونومى صبيانك إذا أرادوا عشاءً . فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ، ونومت صبيانها ، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته . فجعلا يريانه أنهما يأكلان . فباتا طاويين . فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ . فقال : ضحك الله الليلة ، أو عجب من فعالكما ، فأنزل الله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] . إنه رجل من عَرَض الناس ، وعظمته فى أنه لم يُعرف اسمه . فليس من مشاهير الأنصار وقيادتهم ، بل هو فرد عادى من جمهورهم ، احتفى الله به ، وبسببه أنزل هذه الآية فخلدته رغم جهالة اسمه . لكنه أنصارى بالتأكيد ، وهذا يعنى أن المعدن النفيس لهذه الصفوة واحد لقادتهم وجماهيرهم . فاستحقوا الثناء الربانى الذى شملهم جميعاً ولم يتحدث عن شخص المؤثر وحده . إنما جاءت الآية القرآنية العظيمة :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

لقد شهد لهم ربهم خمس شهادات :

الأولى : تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم .

والثانية : يحبون من هاجر إليهم .

الثالثة : ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا .

الرابعة : ويوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

الخامسة : ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

وكانت هذه النماذج المختارة الخمس والأربعون هى التى يتجسد فيها هذا المستوى الرفيع . حتى أن رسول الله ﷺ همّ فيما بعد أن يعطى مال البحرين للأنصار . فرفضوا ذلك إلا أن يشاركهم المهاجرون فيه .

(فعن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك رضي الله عنه حين خرج معه إلى الوليد . قال : دعا النبى ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين ، فقالوا : لا، إلا أن تقطع

---

(١) المصدر السابق : ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) الحشر / ٩ .

لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى فإنه سصيبكم بعدى أثرة [1] ») [2].

إنها الأخوة التى تقوم على الحب لا على الأمر ، والأخوة التى تقوم على الإيثار لا على الأوامر المفروضة والإرهاب الدموى ، والمجازر البشرية كما هو الحال فى دنيا الاشتراكية والشيوعية .

٣ـ ولابد من الإشارة إلى أن المهاجرين الذين بهرهم هذا الحب ، وأسرهم هذا الوفاء ، وشدهم هذا الإيثار ، كانوا يحاولون أن يكون لهم دور فاعل فى الإنتاج ، لا أن يكونوا عالة فقط على إخوانهم المهاجرين . (فعندما عرض سعد بن الربيع رضي الله عنه على أخيه عبد الرحمن أن يشاركه فى ماله ونخله وزوجه قال له :

بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدوَّ ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة . فقال النبى ﷺ : « مهيم ؟ »[3] . قال : تزوجت . قال : « كم سقت إليها؟ » قال : نواة من ذهب أو وزن نواة من ذهب . . .) [4] .

ونقول بصورة أدق : لقد كان السابقون الأولون من المهاجرين ، هم القدوة والمثل الأعلى للأنصار فى التضحية . فلئن تخلى الأنصار عن نصف أموالهم لإخوانهم المهاجرين ، فقد تخلى المهاجرون عن مالهم كله فى سبيل الله ،وأمضوا ثلاثة عشر عاماً من الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله. فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿ . . . **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّه** . . . ﴾ [5] .

وكما وصفهم جل ثناؤه : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون** ﴾ [6] .

فكانوا هم النموذج الحى الأول فى التضحية بالمال والنفس ، وفى نصرة الله ورسوله . فكان الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ ومن وحى تأثرهم بجهاد وتضحيات إخوانهم المهاجرين ، يحاولون السمو لآفاقهم فى التضحية والبذل ، ويفرحون بهم ، وبقبولهم عونهم ونصرتهم .

---

(١) أثره : تقديم لغيرهم عليهم .
(٢) مسند أحمد ج ٣ ص ١١١ .
(٣) مهيم : كلمة استفهام ، أى : ما حالك وما شانك وما وراءك ؟
(٤) البخارى ج ٥ / ٨٨ باب : كيف آخى النبى ﷺ بين أصحابه .
(٥) الحج / ٤٠ .
(٦) الحشر / ٨ .

وأراد المربى الأعظم ﷺ أن يكون المجتمع النموذج فى قلب هذه المئات ، فاختار هؤلاء التسعين ليكونوا صورة حية فى مجتمعهم النموذج كذلك .

٤ ـ وعملية تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية هى من أصعب وأعقد العمليات فى المجتمعات الجاهلية ، حيث العصبية هى الدين عندهم ، وعملية المؤاخاة هذه تهدف فى أعمق ما تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورة واقعية منطلقة من قلب البيئة الجاهلية . فبعد أن أقر الإسلام توزيع فئات المهاجرين والأنصار على ربعتهم وقبائلهم ، عاد فانتقى هذه المجموعة لتكون مجتمعاً خاصاً. هو القدوة والمثل الحى المحتذى . لتعيش الأمة كلها بعد ذلك بهذه الروح . حين تذكر أن أكبر مناحر الأمة المسلمة على مدار التاريخ هو الفرقة المنطلقة من القبلية والإقليمية . ندرك أهمية هذه الخطوة التربوية فى عمليات البناء الأولى .

ونحن نشهد الحركات الإسلامية اليوم ، والتى تتصدى لتقود المجتمع الإسلامى ، وتمثل البديل المطروح عن الجاهلية المعاصرة ، نلاحظ أن التآكل الذى يتم فى داخلها ، ويحول بينها وبين التمكين فى الأرض ، هو سيطرة الروح الإقليمية والعصبية فى داخلها . فتفصمها وتقصمها ، وتنشغل بنفسها عن أهدافها الكبار ، ولعل أكبر داءٍ نزل بإحدى الحركات الإسلامية المعاصرة ، والتى كانت رائدة فى مواجهة الحكم الطائفى فى بلدها ، وقدّمت أعظم التضحيات فى العصر الحديث . أقول كان أكبر داء فيها ذبحها هو : داء العصبية الإقليمية ، والعصبية الشخصية ، والعصبية القطرية ، والعصبية حتى على مستوى المدينة والقرية الصغيرة . نذكر هذا لنستشعر أهمية هذه الخطوة التربوية فى الجيل الأول . والتى رفع الإسلام مستوى الرباط فيها إلى مستوى التوارث ، دون الأرحام .

وتجاهل هذا الأمر فى خطوات التربية والبناء الأولى ، ينعكس فيما بعد شرخاً يهدم البناء كله .

٥ ـ ونلاحظ فقه أنس رضي الله عنه لهذه الخطوة ، والتى سماها حلفاً بين المهاجرين والأنصار ، وأن رسول الله ﷺ الذى أقام هذا التحالف . ولفظ أنس بن مالك رضي الله عنه (قد حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى).

فالعملية ليست توصيات وعظية فى الأخوة والحب والبر ، بل هى عقد وميثاق يجب الوفاء به ، وله مستلزماته وتكاليفه ، بحيث حدد فيه اسم كل شخص وارتباطه بأخيه . وذكر رضي الله عنه أن هذا لا يتنافى مع قول رسول الله ﷺ : « لا حلف فى الإسلام» .

وتعليق الطبراني ـ رحمه الله ـ على ذلك : ما استدل به أنس على إثبات الحلف لاينافى الأحاديث السابقة فى نفيه . فإن الإخاء المذكور كان أول الهجرة . وكانوا يتوارثون به ، ثم ينسخ بعد ذلك الميراث . وبقى ما لم يبطله القرآن وهو التعاون على الحق والنصر والأخذ على يد الظالم كما قال ابن عباس : (إلا النصر والنصيحة) .

وهذا يعنى أن بالإمكان إعادة هذه التجربة الحية فى كل عملية بناء جديد ؛ لتسهم فى تذويب العصبيات والحزازات . ولا حرج من وجود النص النبوى : « لا تحالف فى الإسلام » من ذلك .

٦ ـ وأخيراً نقف مع هؤلاء التسعين ؛ لنشهد من سبق أن ترجمنا لهم من قبل . فنكتفى بذلك ونعيش مع الباقين الذين أضيفوا إلى الشخصيات القيادية من جديد . ولم نسمع بهم من قبل . ولابد من الإشارة إلى أن المهاجرين جميعاً قد سبق وترجمنا لهم فى فصول سابقة . أما الأنصار فقد ترجمنا لبعضهم فى الحديث عن السبعين المبايعين فى العقبة ويتبقى عندنا بعدها حوالى خمس وعشرين صحابياً هم :

١ ـ **عتبان بن مالك** : خزرجى ، من القواقلة . آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشهد بدراً وأحداً والخندق ، وذهب بصره على عهد النبى ﷺ. فسأل النبى أن يأتيه فيصلى فى مكان من بيته فيتخذه مصلى . ففعل ذلك رسول الله ﷺ . (وعن الزهرى ، عن محمود بن الربيع،عن عتبان بن مالك قال : قلت : يا رسول الله ، إنها تكون الليلة المظلمة والمطر والريح فلو أتيت منزلى فصليت فيه قال : فجاءنى رسول الله ﷺ فقال : « أين تحب أن أصلى ؟ » فأشرت له إلى ناحية من البيت، فصلى وصلينا خلفه ركعتين . قال محمد بن عمر : فذلك البيت يصلى فيه الناس بالمدينة إلى اليوم . وقال: ومات عتبان بن مالك فى وسط من خلافة معاوية بن أبى سنيان ، وليس له عقب) (١) .

فقد ساهم بالجهاد رضي الله عنه إلى أن كف بصره ، وعن محمود بن الربيع أن عتبان بن مالك كان محجوب البصر ، (وأنه ذكر للنبى ﷺ التخلف عن الصلاة . فقال:« هل تسمع النداء ؟ » فقال : نعم . فلم يرخص له) (٢) .

فكان إمام قومه بنى سالم بن عوف . فقد عاش سيداً ومات سيداً فى قومه ، وكان أحد القيادات التى تلقت النبى ﷺ يوم مر ببنى سالم بن عوف ، (فمر ببنى سالم

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٥٠ .

فقام إليه عتبان بن مالك ، ونوفل بن عبد الله بن مالك بن العجلان، وهو آخذ بزمام راحلته فقال : يا رسول الله ، انزل فينا . فإن فينا العدد والعشيرة والحلقة(١) ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدرك(٢) . يا رسول الله ، قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البحْرة (٣) خائفاً فيلجأ إلينا ، فنقول له : قوقل (٤) حيث شئت . فجعل رسول الله ﷺ يبتسم ويقول : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » وفى مسجد بنى سالم بن عوف صلى رسول الله ﷺ الجمعة . فكانت أول جمعة صلاها فى المدينة .

٢ ـ أبى بن كعب : وهو على مستوى الأمة الإسلامية كلها فقد تجاوزت سيادته عصره ، إنه من بنى مالك بن النجار (سيد القراء ، أبو منذر الأنصارى النجارى المدنى المقرئ البدرى . وقد كان علماً فى السماء كما كان علماً فى الأرض .

فعن أنس،قال النبى ﷺ لأبى بن كعب: « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن » . قال:الله سمانى لك ؟ قال : « نعم ». قال:وذكرت عند رب العالمين ؟ قال : « نعم » فذرفت عيناه.وفى رواية عن عبد الرحمن بن أبزى قال:قلت لأبى: فرحت بذلك ؟ قال: وما يمنعنى وهو تعالى يقول: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (٥))(٦).

وبعد هذه التزكية الربانية كان أحد أربعة فى هذه الأمة يؤخذ عنهم القرآن:

(فعن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : استقرئوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وأبى ، ومعاذ ، وسالم مولى أبى حذيفة) (٧) .

وهو إمام الأربعة ، كما روى عن رسول الله ﷺ « ... أقرؤهم لكتاب الله أبى ابن كعب » (٨) .واختاره عمر رضي الله عنه من بين المسلمين ليكون إمام المسلمين فى صلاة التراويح ؛ فعن الحسن أن عمر بن الخطاب جمع الناس على أبىّ بن كعب فى قيام رمضان . فكان يصلى بهم عشرين ركعة .

وسماه عمر رضي الله عنه (سيد المسلمين) .

قال أبو نضرة العبدى : قال رجل منا يقال له جابر أو جويبر : طلبتُ حاجة إلى

---

(١) الحلقة : السلاح . (٢) الدرك : اللحاق والوصول إلى الشىء.
(٣) البحرة : فجوة من الأرض تنبحر أى تنبسط وتتسع .
(٤) القَوقل : التغلغل فى الشىء والدخول فيه . (٥) يونس / ٥٨ .
(٦) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٩٠ ، وأخرجه أحمد والبخارى .
(٧) البخارى ٣٥٥٨ فى الفضائل .
(٨) أحمد وغيره ، وهو صحيح كما فى صحيح الجامع الصغير للألبانى ١ / ٣٠٥ ح ٩٠٨ .

عمر وإلى جنبه رجل أبيض الثياب والشعر فقال : إن الدنيا فيها بلاغنا ، وزادنا إلى الآخرة ، وفيها أعمالنا التى نجزى بها فى الآخرة . فقلت : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا سيد المسلمين : أبى بن كعب) (١) .

وأخذها المسلمون عنه ؛ فعن عتى بن ضمرة قال : (قلت لأبى بن كعب : ما شأنكم يا أصحاب رسول الله نأتيكم من العزبة ،نرجو عندكم الخير فتهاونون بنا؟ قال : والله لئن عشت إلى هذه الجمعة لأقولن قولاً لا أبالى استحييتمونى أو قتلتمونى . فلما كان يوم الجمعة ، خرجت فإذا أهل المدينة يموجون فى سككها ، فقلت : ما الخبر ؟ قالوا : مات سيد المسلمين أبى بن كعب) (٢) .

وأراد له الفاروق رضي الله عنه أن يفرغ عمره كله للقرآن والفقه والعلم . فقد سأله أبى ابن كعب : (مالك لا تستعملنى ؟ قال : أكره أن أدنس دينك) (٣).

وعن أبى العالية قال : كان أبى صاحب عبادة ، فلما احتاج الناس إليه ترك العبادة وجلس للقوم . وله فى الكتب الستة : نيف وستون حديثاً . وعند بقى بن مخلد مائة وأربعة وستون حديثاً ، منها فى البخارى ومسلم ثلاثة أحاديث وانفرد البخارى بثلاثة ومسلم بسبعة .

قال الواقدى : رأيت أهله وغير واحد يقولون : (مات فى سنة اثنتين وعشرين بالمدينة فى خلافة عمر) (٤) وبقى علينا أن نعلم أن رسول الله ﷺ قد آخى بين أبى بن كعب وبين سعيد بن زيد رضي الله عنه وهو أحد العشرة المبشرين .

٣ ـ **محمد بن مسلمة** : وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن أبى وقاص . (وهو أبو عبد الله الأنصارى الأوسى من نجباء الصحابة ، شهد بدراً والمشاهد كلها . وهو حارثى من حلفاء بنى عبد الأشهل . وكان رجلاً طِوالاً أسمر معتدلاً أصلع وقوراً. أسلم على يد مصعب بن عمير) (٥) .

أما بطولته وجهاده فنسمع له يقول : يا بنى ، سلونى عن مشاهد النبى ﷺ ومواطنه فإنى لم أتخلف عنه فى غزوة قط إلا واحدة فى تبوك خلّفنى على المدينة ، وسلونى عن سراياه ﷺ . فإنه ليس منها سرية تخفى علىّ . إما أن أكون فيها أو أن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٩٢ .
(٢) المصدر نفسه / ٣٩٩ .
(٣) المصدر نفسه / ٣٩٨ .
(٤) المصدر نفسه / ٤٠٠ .
(٥) المصدر نفسه / ٣٦٩ .

أعلمها حين خرجت) [١] . (وفى الصحاح من حديث جابر : مقتل كعب بن الأشرف على يد محمد بن مسلمة) [٢] .

(وكان عند عمر رضي الله عنه رجل المعضلات . فهو يطلب منه أن يقوِّمه ابتداءً فيسأله : يا محمد ، كيف ترانى ؟ قال : أراك كما أحب ، وكما يحب من يحب لك الخير ، قوياً على جمع المال ، عفيفاً عنه ، عدلاً فى قسمه . ولو ملت عدَّلناك كما يُعدَّل السهم فى الثقاف .قال : الحمد الله الذى جعلنى فى قوم إذا مِلتُ عدَّلونى)[٣] .

ولا غرو بعدها أن يجعله مقوِّماً لكل انحراف يراه .

فعن عباية بن رفاعة قال : (بلغ عمر أن سعداً اتخذ قصراً وقال : انقطع الصويت: فأرسل عمر محمد بن مسلمة ، وكان عمر إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما يريد بعثه ، فأتى الكوفة ، فقدح ، وأحرق الباب على سعد . فجاء سعداً قال : إنه بلغ عمر أنك قلت : انقطع الصويت ، فحلف أنه لم يقله) [٤] .

وعندما تأزم الأمر فى مصر ، واستنجد عمرو بن العاص رضي الله عنه بعمر بعث له الفاروق المدد وعلى رأس هذا المدد من الأربعة آلاف أربعة كل واحد بألف . كان محمد ابن مسلمة أحد هؤلاء الأربعة . قال ابن يونس : (شهد محمد فتح مصر وكان فيمن طلع الحصن مع الزبير . قال عباية بن رفاعة : كان محمد بن مسلمة ، أسود طويلاً عظيما) [٥] .

أما لقبه : فكان فارس نبى الله (ولما خرج رسول الله ﷺ إلى عمرة القضية فانتهى إلى ذى الحليفة ، قَدَّم الخيل أمامه وهى مائة فرس ، واستعمل عليها محمد ابن مسلمة) [٦] . وكان عند عمر رضي الله عنه بمثابة رئيس استخباراته . فـ (قد استعمله عمر على زكاة جهينة ، وقد كان عمر إذا شُكى إليه عامل ، نفذ محمداً إليهم ليكشف أمره) [٧] .

بما أن حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ ، فقد كشف سراً عن محمد بن مسلمة أنه معصوم من الفتنة حين تقع . فعن حذيفة قال : (ما من أحد إلا وأنا أخاف عليه الفتنة إلا ما كان من محمد بن مسلمة ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تضره

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٤٤ .
(٢ـ ٤) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٧٢ .
(٥) المصدر نفسه / ٣٧١ .
(٦) الطبقات الكبرى ٣ / ٤٤٤ .
(٧) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٧٠ .

الفتنة » [1] .

وعن الحسن (أن النبى ﷺ أعطى محمد بن مسلمة سيفاً فقال: قاتل به المشركين . فإذا رأيت المسلمين قد أقبل بعضهم على بعض ، فاضرب به أحداً حتى تقطعه ، ثم اجلس فى بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية) [2] .

وفى رواية عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه أنه قال : أعطانى رسول الله ﷺ سيفاً فقال: « يا محمد بن مسلمة ، جاهد فى سبيل الله بهذا السيف حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره ، ثم كفّ لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطئة ». (فلما قُتل عثمان ، وكان من أمر الناس ما كان ، خرج إلى صخرة فى فنائه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره) . وعن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة قال : (وكان محمد بن مسلمة يقال له فارس نبى الله . قال : فاتخذ سيفاً من عود نحته وصيّره فى الجفن معلقاً فى البيت ، وقال : إنما علقته أهيب به ذاعراً) [3] .

وكان على رأس من اعتزل الفتنة . فعن ضبيعة بن حصين التغلبى قال : (كنا جلوساً عند حذيفة فقال : إنى لأعلم رجلاً لا تنقصه الفتنة شيئاً . فقلنا : من هو ؟ قال محمد بن مسلمة الأنصارى . فلما مات حذيفة وكانت الفتنة خرجت فيمن خرج من الناس ، فأتيت أهل ماء فإذا فسطاط مضروب متنحى تضربه الرياح . فقلت : لمن هذا الفسطاط ؟ قالوا: لمحمد بن مسلمة، فأتيته. فإذا هو شيخ فقلت له: يرحمك الله، أراك رجلاً من خيار المسلمين تركت بلدك ودارك وأهلك وجيرتك. قال: تركته كراهية الشر، ما فى نفسى أن تشتمل علىَّ مصر من أمصارهم حتى تنجلى عما انجلت) [4] .

(أما وفاته فكانت فى سفر سنة أربع وأربعين ، وهو يومئذ ابن سبع وسبعين سنة، وصلى عليه مروان بن الحكم) [5] .

ولابد أن نشير إلى أن بعض الروايات تذكر أن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح بدل سعد بن أبى وقاص .

وهو علم عند أهل السماء كما هو علم عند أهل الأرض . فعنه قال : مررت فإذا رسول الله ﷺ عند الصفا ، واضعاً يده على يد رجل. فذهبت . فقال :

---

(1) المصدر السابق / ٣٧٢ .
(2) المصدر نفسه / ٣٧٢ .
(٣ ـ ٥) الطبقات الكبرى ٣ / ٤٤٥ .

« ما منعك أن تسلّم ؟ » قلت : يا رسول الله ، فعلت بهذا الرجل شيئاً ما فعلته بأحد، فكرهت أن أقطع عليك حديثك ، من كان يا رسول الله ؟ قال : «جبريل ، وقال لى : هذا محمد بن مسلمة لم يسلِّم. أما إنه لو سلم رددنا عليه السلام ». قلت : فما قال لك يا رسول الله ؟ قال: « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه يأمرنى فأورثه » (١).

وهكذا نرى العشرة المبشرين من المهاجرين وكبار المهاجرين ، آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين القادة الكبار من الأوس والخزرج على الصورة التالية :

١ - رسول الله ﷺ	على بن أبى طالب
٢ - حمزة بن عبد المطلب	أسيد بن حضير (أوسى)
٣ - جعفر بن أبى طالب	معاذ بن جبل(خزرجى)
٤ - أبو بكر الصديق	خارجة بن زيد(خزرجى)
٥ - عمر بن الخطاب	عتبان بن مالك (خزرجى)
٦ - عثمان بن عفان	أوس بن ثابت (خزرجى)
٧ - طلحة بن عبيد الله	كعب بن مالك (خزرجى)
٨ - الزبير بن العوام	سلمة بن سلامة بن وقش (خزرجى)
٩ - سعد بن أبى وقاص	محمد بن مسلمة (أوسى)
١٠ - عبد الرحمن بن عوف	سعد بن الربيع (خزرجى)
١١ - أبو عبيدة بن الجراح	سعد بن معاذ أو أبو طلحة (أوسى)
١٢ - مصعب بن عمير	أبو أيوب الأنصارى (خزرجى)
١٣ - أبو حذيفة بن عتبة	عبَّاد بن بشر (أوسى)
١٤ - عمار بن ياسر	حذيفة بن اليمان (أوسى حليف)
١٥- طلبب بن عمير أو أبو ذر الغفارى	المنذر بن عمرو (أوسى حليف)

وفى العودة إلى قيادات الأنصار الذين لم يكونوا ضمن السبعين ، وكانوا ممن آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين نذكر :

٤ - **حذيفة بن اليمان** : من نجباء أصحاب محمد ﷺ ، وهو صاحب السر . واسم اليمان حسْل (ويقال: حسيل) ابن جابر العبسى اليمانى أبو عبد الله ، حليف الأنصار. له فى الصحيحين اثنا عشر حديثا، وفى البخارى ثمانية، وفى مسلم سبعة عشر حديثاً .

(وكان والده حسل قد أصاب دماً فى قومه ، فهرب إلى المدينة وحالف بنى عبد

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٧٠ .

الأشهل . فسماه قومه اليمان لحلفه لليمانية وهم الأنصار) (١) .

أما بدر فقد فاتته ، فعنه : (أنه أقبل هو وأبوه فلقيهم أبو جهل ، قال : إلى أين؟ قالا: حاجة لنا. قال: ما جئتم إلا لتمدوا محمداً . فأخذوا عليهما موثقاً الا يكثّرا عليهم . فأتيا رسول الله فأخبراه) وقد أخرج مسلم هذا الحديث فقال عن حذيفة: ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى ، فأخذنا كفار قريش . فقالوا : إنكم تريدون محمداً ! فقلنا ما نريد إلا المدينة ؛ فأخذوا العهد علينا لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه . فأخبرنا النبى ﷺ . فقال : « نفى بعهدهم ، ونستعين الله عليهم » (٢) .

وأما أحد فحضرها وأبلى فيها بلاءً حسناً ، لكنه فقد أباه فيها .(فاستشهد يومئذ . قتله بعض الصحابة غلطاً ولم يعرفه ، لأن الجيش يختفون فى لأمة الحرب ... ولما شدوا على اليمان يومئذ بقى حذيفة يصيح : أبى ! أبى يا قوم ! فراح خطأ . فتصدق حذيفة عليهم بديته) (٣) .

وفى رواية ابن إسحاق : (فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً) (٤) .

أما فى الخندق فقد اختاره رسول الله ﷺ من بين المسلمين جميعاً ليأتيه بخبر قريش يوم الأحزاب ، كما رُوى فى الصحاح .

(وحذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ فى المنافقين ، لم يعلمهم أحد إلا حذيفة ، أعلمه بهم رسول الله ﷺ . وسأله عمر : أفى عمالى أحد من المنافقين؟ قال : نعم ، واحد . قال : من هو ؟ قال: لا أذكره . قال حذيفة فعزله كأنما دُلّ عليه . وكان عمر إذا مات ميت يسأل عن حذيفة ، فإن حضر الصلاة صلى عليه عمر ، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر) (٥) .

وأما حذيفة القائد المجاهد فقد :

(شهد حذيفة الحرب بنهاوند . فلما قُتل النعمان بن مقرّن أمير ذلك الجيش أخذ الراية . وكان فتح همذان والرى والدينور على يده ، وشهد فتح الجزيرة ، ونزل نصيبين ، وتزوج فيها) (٦) .

وأما حذيفة الأمير السياسى الحاكم ، فكما ذكر ابن سيرين :

بعث عمر حذيفة على المدائن ، فقرأ عهده عليهم . فقالوا : سل ما شئت. قال :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٦٢ .

(٢) مسلم فى باب الجهاد ح ١٧٨٧ باب الوفاء بالعهد .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٦٢ .

(٤) السيرة لابن هشام ٣ / ٣٤ دار الجيل .

(٥ ، ٦) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٤٦٨ .

(طعاماً آكله ، وعلف حمارى هذا ما دمت فيكم من تبن) .

وقال محمد بن سيرين : كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب عهده . وقد بعثت فلاناً وأمرته بكذا . فلما استعمل حذيفة على المدائن كتب فى عهده : أن اسمعوا له وأطيعوا واعطوه ما سألكم . فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين . فلما قرأ عهده . قالوا : سلنا ما شئت . قال : أسألكم طعاماً آكله ، وعلف حمارى ما دمت فيكم . فأقام فيهم . ثم كتب إليه عمر ليقدم عليه . فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق ، فلما رآه على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخى وأنا أخوك) (١) .

وحذيفة عند عمر رضي الله عنه قمة من القمم .

روى زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب قال لأصحابه : (تمنوا ، فتمنوا ملء البيت الذى كانوا فيه مالاً وجواهر ينفقونها فى سبيل الله ، فقال عمر : لكنى أتمنى رجالاً مثل أبى عبيدة ، ومعاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان فأستعملهم فى طاعة الله عز وجل) (٢) .

وحذيفة عند رسول الله ﷺ أحد النقباء النجباء الوزراء له .

أخبرنا أبو ياسر بن أبى حبة بإسناده ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنى أبى ، أخبرنا أبو نعيم (هو الفضل بن دكين) ، أخبرنا فِطر عن كثير بن نافع النواء ، قال : سمعت عبد الله بن مليل قال : سمعت علياً يقول : قال رسول الله ﷺ :

« لم يكن نبى قبلى إلا قد أعطى سبعة رفقاء نجباء وزراء،وإنى أعطيت أربعة عشر : حمزة ، وجعفر ، وعلى ، وحسن ، وحسين ، وأبو بكر ، وعمر ، والمقداد ، وحذيفة ، وسلمان ، وعمار ، وبلال ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو ذر » (٣) .

٥ ـ عباد بن بشر : ابـن وقش بن زغبـة بن زعـوراء بن عبـد الأشهـل ، الإمـام أبو الربيع الأنصارى الأشهلى أحد البدريين . كان من سادة الأوس ، عاش خمساً وأربعين سنة ، وهو الذى أضاءت له عصاته ليلة انقلب إلى منزله من عند رسول الله ﷺ . أسلم على يد مصعب بن عمير ، وكان أحد من قتل كعب بن الأشرف اليهودى، واستعمله النبى على صدقات مزينة وبنى سليم ، وجعله على حرسه فى

(١ ، ٢) أسد الغابة لابن الأثير ١ / ٤٦٩ .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ٩/ ١٥٦ . وقال فيه : « رواه البزار وأحمد وفيه كثير النواء وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات » .

غزوة تبوك ، وكان كبير القدر ، أبلى يوم اليمامة بلاءً حسناً ، وكان أحد الشجعان الموصوفين (١) .

وعن عائشة قالت : (ثلاثة من الأنصار ، لم يكن أحد يقدر عليهم فضلاً : كلهم من بنى عبد الأشهل : سعد بن مِعاذ ، وعبَّاد بن بشر ، وأسيد بن حضير) (٢) .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : تهجد رسول الله ﷺ فى بيتى ، فسمع صوت عباد بن بشر . فقال : « ياعائشة ، هذا صوت عباد بن بشر ؟ » . قلت : نعم. قال : « اللهم اغفر له » (٣) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : (سمعت عباد بن بشر يقول : يا أبا سعيد ، رأيت الليلة كأن السماء قد فرجت لى ، ثم أطبقت علىّ فهى إن شاء الله الشهادة ، قال: قلت خيراً والله رأيت . قال : فأنظر إليه يوم اليمامة ، وإنه ليصيح بالأنصار : احطموا جفون السيوف ، وتميزوا بين الناس ، وجعل يقول : أخلصونا ، أخلصونا . فأخلصوا أربعمائة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد، يقدمهم عبّاد بن بشر، وأبو دجانة، والبراء بن مالك حتى انتهوا إلى باب الحديقة فقاتلوا أشد القتال . وقتل عباد بن بشر. فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً ماعرفته إلا بعلامة كانت فى جسده .) (٤) .

٦ ـ **سهل بن حنيف** : أبو ثابت الأنصارى الأوسى العوفى ، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وقد شهد له رسول الله ﷺ ببطولته النادرة .

ثبت يوم أحد ، وبايع على الموت ، وجعل ينضح بالنبل عن رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « نبّلوا سهلاً فإنه سهل » (٥) .

وعن ابن عباس قال : (دخل على بسيفه على فاطمة وهى تغسل الدم عن وجه رسول الله ﷺ فقال: خذيه. فلقد أحسنت به القتال. فقال النبى ﷺ: إن كنت أحسنت القتال فقد أحسن سهل بن حنيف) (٦) . وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين ابن مسعود. وكان من أمراء علىّ رضي الله عنه مات بالكوفة سنة ثمان وثلاثين، وصلى عليه على .

وعن عبد الله بن معقل قال : (صلى علىّ على سهل بن حنيف فكبَّر ستاً) (٧) ،

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٣٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٣٧ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه الحاكم ٣/ ٢٢٩ ووافقه الذهبى » .
(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٣٨ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه البخارى معلقاً ٢٦٥٥ » .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٤١ . (٥) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٢٨ .
(٦) المصدر نفسه ٣٢٧ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه الحاكم وصححه » .
(٧) المصدر نفسه ٣٢٧ ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح » .

وفى رواية قال : (كبّر خمساً . فقالوا : ما هذا ؟ فقال : لأهل بدر فضل على غيرهم. فأحببت أن أعلمكم فضله) (١) .

٧ ـ **أبو الدرداء** : الإمام القدوة ، قاضى دمشق ، وصاحب رسول الله ﷺ ، أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس . . . الأنصارى الخزرجى ، حكيم هذه الأمة ، وسيد القراء بدمشق . . ويروى له مائة وتسعة وسبعون حديثاً ، اتفقا له على حديثين ، وانفرد البخارى بثلاثة ومسلم بثمانية . وهو معدود فيمن تلا على النبى ﷺ ، ولم يبلغنا أبداً أنه قرأ على غيره .

وهو معدود فيمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، وتصدّر للإقراء بدمشق فى خلافة عثمان وقبل ذلك (٢) .

ومن مواقفه الجهادية رضي الله عنه :

قال سعيد بن عبد العزيز : (أسلم أبو الدرداء يوم بدر ، ثم شهد أحداً ، وأمره رسول الله ﷺ يومئذ أن يرد من على الجبل . فردّهم وحده . وكان قد تأخر إسلامه قليلاً) (٣) .

قال شريح بن عبيد الحمصى : (لما هزم أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد كان أبو الدرداء يومئذ فيمن فاء إلى رسول الله ﷺ فى الناس ، فلما أظلهم المشركون من فوقهم . قال رسول الله : « اللهم ليس لهم أن يعلونا » . فثاب إليه ناس ، وانتدبوا ، وفيهم عويمر أبو الدرداء. حتى أدحضوهم عن مكانهم.وكان أبو الدرداء يومئذ حسن البلاء ، فقال رسول الله ﷺ : « نعم الفارس عويمر ») (٤) .

حكيم الأمة : وقال : « حكيم أمتى عويمر » .

هذا رواه يحيى البابلتى : حدثنا صفوان بن عمرو عن شريح (٥) .

وجامع القرآن : ثابت البنانى وثمامة عن أنس : مات رسول الله ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد (٦) .

(وعن الشعبى:جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ستة وهم من الأنصار:

---

(١) المصدر السابق / ٣٢٩ وقال المحقق فيه : « أخرجه ابن سعد وأبو جناب هو يحيى بن أبى حية الكلبى ، وقد ضعفوه لكثرة تدليسه . وقد صرح بالسماع وباقى رجاله ثقات » .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٣،٤) المصدر نفسه : ٣٣٨ .

(٥) المصدر نفسه ، والحديث مرسل .

(٦) المصدر نفسه / ٣٣٩ ، وقال المحقق عنه : « أخرجه البخارى فى صحيحه ٩ / ٤٧ ، ٤٨ » .

معاذ، وأبو الدرداء ، وزيد ، وأبو زيد ، وأبى ، وسعد بن عبيد) (١) .

أما قصة إسلامه : فقال أبو الزاهرية : (كان أبو الدرداء آخر الأنصار إسلاماً . وكان يعبد صنماً ، فدخل ابن رواحة ، ومحمد بن مسلمة بيته فكسرا صنمه . فرجع فجعل يجمع الصنم ويقول : ويحك ! هلا امتنعت ! ألا دفعت عن نفسك، فقالت أم الدرداء : لو كان ينفع أو يدفع عن أحد دفع عن نفسه ، ونفعها ! فقال أبو الدرداء : أعدّى لى ماءً فى المغتسل . فاغتسل ، ولبس حلته ثم ذهب إلى النبى ﷺ . فنظر إليه ابن رواحة مقبلاً فقال : يا رسول الله ، هذا أبو الدرداء وما أراه جاء إلا فى طلبنا ؟ فقال : إنما جاء ليسلم . إن ربى وعدنى بأبى الدرداء أن يسلم) (٢) .

شيخ دمشق وإمامها : عن محمد بن كعب قال :

جمع القرآن خمسة : معاذ ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وأُبَى ، وأبو أيوب. فلما كان زمن عمر كتب إليه يزيد بن أبى سفيان : إن أهل الشام قد كثروا وملؤوا المدائن واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم . فأعنى برجال يعلمونهم . فدعا عمر الخمسة . فقال : إن إخوانكم قد استعانونى من يعلمهم القرآن ، ويفقههم فى الدين . فأعينونى يرحمكم الله بثلاثة منكم إن أحببتم . وإن انتدبت ثلاثة منكم فليخرجوا . فقالوا : ما كنا لنتساهم ، هذا شيخ كبير - لأبى أيوب - وأما هذا فسقيم - لأبى - فخرج معاذ ، وعبادة ، وأبو الدرداء.

فقال عمر : (ابدؤوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة . منهم من يلقن . فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس . فإذا رضيتم منهم. فليقم بها واحد ، وليخرج واحد إلى دمشق والآخر إلى فلسطين . قال : فقدموا حمص فكانوا بها ، حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة بن الصامت، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ، ومعاذ إلى فلسطين . فمات فى طاعون عمواس ، ثم صار عبادة بعد إلى فلسطين وبها مات ، ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات) (٣) .

وننقل أخيراً هذه الشهادات عن علمه رضي الله عنه من الصحابة والتابعين:

معاذ بن جبل : لما حضرته الوفاة قال : العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما . قالها ثلاثاً . فالتمسوا العلم عند أربعة: عند عويمر أبى الدرداء ، وسلمان ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٣٩ ، وهو صحيح مع إرساله كما ذكر المحقق عنه .
(٢) المصدر نفسه / ٣٤٠ ، عن ابن عساكر ، والمستدرك للحاكم ٣ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٤٤ .

وابن مسعود ، وعبد الله بن سلام [1] .

ابن مسعود : علماء الناس ثلاثة : واحد بالعراق ، وآخر بالشام ـ يعنى أبا الدرداء ـ وهو يحتاج إلى الذى بالعراق ـ ويعنى نفسه ـ وهما يحتاجان إلى الذى بالمدينة ـ يعنى علياً رضي الله عنه [2] .

أبو ذر الغفارى : يقول لأبى الدرداء : ما حملت ورقاء ولا أظلت خضراء ، أعلم منك يا أبا الدرداء [3].

مسروق : وجدت علم الصحابة انتهى إلى ستة : عمر، وعلى، وأبى ، وزيد. وأبى الدرداء ، وابن مسعود ، ثم انتهى علمهم إلى على وابن مسعود [4] .

ابن عمر : رضى الله عنهما كان يقول : حدثونا عن العاقلين . فيقال : من العاقلان ؟ فيقول : معاذ ، وأبو الدرداء [5] .

وصورة عن مجلس علمه : عن مسلم وابن مشكم قال لى أبو الدرداء : أعدد من فى مجلسنا . قال : فجاؤوا ألفاً وست مائة ونيف . فكانوا يقرؤن ويتسابقون عشرة عشرة . فإذا صلى الصبح انفتل وقر جزءاً فيحدقون به يسمعون ألفاظه ، وكان ابن عامر مقدماً فيهم [6] .

وعن يزيد بن أبى مالك ، عن أبيه قال : (كان أبو الدرداء يصلى،ثم يقرئ ويقرأ، حتى إذا أراد القيام قال لأصحابه،هل من وليمة أو عقيقة نشهدها ؟ فإن قالوا: نعم،وإلا قال: اللهم إنى أشهدك أنى صائم . وهو الذى سنّ هذه الحلق للقراءة) [7] .

وقال الليث عن رجل عن آخر : رأيت أبا الدرداء دخل مسجد النبى ﷺ ، ومعه من الأتباع مثل السلطان : فمن سائل عن فريضة ، ومن سائل عن حساب ، وسائل عن حديث ، وسائل عن معضلة ، وسائل عن شعر [8] .

وقيل : الذين فى حلقة إقراء أبى الدرداء كانوا أزيد من ألف رجل ، ولكل عشرة منهم ملقّن . وكان أبو الدرداء يطوف عليهم قائماً . فإذا أحكم الرجل منهم ، تحول إلى أبى الدرداء ـ يعنى يعرض عليه .

---

(١) سيرأ علام النبلاء ٢ / ٣٤٢ .
(٢) المصدر نفسه / ٣٤٣ .
(٣ ـ ٥) المصدر نفسه / ٣٤٤ .
(٦) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٤٦ ، وقال المحقق عنه : رجاله ثقات .
(٧) المصدر نفسه / ٣٤٦ .
(٨) المصدر نفسه / ٣٤٧.

بقى أن نعلم أن أخاه فى الإسلام هو سلمان الفارسى رضي الله عنه . واعتبر سلمان من المهاجرين بعد أن قال عنه رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » .

٨ ـ **أبو رويحة** : الخثعمى ، آخى النبى ﷺ بينه وبين بلال المؤذن ، ويقال اسمه: عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى . ثم ساق من طريق محمد بن إسحاق قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فكان بلال مولى أبى بكر مؤذن رسول الله ﷺ وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى أخوين . فلما دون عمر الديوان بالشام قال لبلال : إلى من تجعل ديوانك . قال مع أبى رويحة لا أفارقه أبداً للأخوة المذكورة، فضمه إليه وضم ديوان الحبشة إلى خثعم لمكان بلال، فهم مع خثعم بالشام إلى اليوم ، وقال أبو أحمد الحاكم عن . . أبى الدرداء قال : لما رجع عمر من بيت المقدس وسار إلى الجابية سأله بلال أن يقره بالشام ففعل . فقال : وأخى أبو رويحة . آخى بيننا النبى ﷺ . فنزلا دارياً فى خولان ، فأقبل هو وأخوه إلى حى من خولان فقالا : أتيناكم خاطبين . قد كنا كافرين فهدانا الله عز وجل ، ومملوكين فأعتقنا الله عز وجل . وفقيرين فأغنانا الله عز وجل ، فإن تزوجونا فالحمد الله ، وإن تردونا فلا حول ولا قوة إلا بالله . فزوجوهما) (١) .

٩ ـ **عاصم بن ثابت** : ابن قيس وهو أبو الأقلح الأوسى . . ويكنى أبا سليمان. آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن جحش . وشهد عاصم بدراً وأحداً ، وثبت يوم أحد مع رسول الله ﷺ حين فر الناس ، وبايعه على الموت ، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ . وقتل يوم أحد من أصحاب اللواء من المشركين الحارث ، ومسافعاً ابنى طلحة بن أبى طلحة ، وأمهما سلافة بنت سعد الشهيد . فنذرت أن تشرب فى قحف عاصم الخمر . وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة . فقدم ناس من بنى لحيان من هذيل على رسول الله ﷺ . فسألوه أن يوجه معهم نفراً يقرئونهم القرآن ، ويعلمونهم شرائع الإسلام . فوجه معهم عاصم بن ثابت فى عدة من أصحابه . فلما قدموا بلادهم قال لهم المشركون : استأسروا فإنا لا نريد قتلكم ، وإنما نريد أن ندخلكم مكة فنصيب بكم ثمناً ، فقال عاصم : إنى نذرت أن لا أقبل جوار مشرك أبدا . وجعل يقاتلهم ويرتجز ويرمى حتى فنيت نبله . ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه وبقى السيف فقال : اللهم إنى حميت دينك أول النهار فاحم لى لحمى آخره ، وكانوا يجردون كل من قتل من أصحابه . ثم قاتل فجرح منهم رجلين وقتل واحداً وجعل يقول :

---

(١) الإصابة فى تميز الصحابة م٤ ج٧ / ٧٠ .

أنا أبو سليمان ومثلى راما ورثت مجدى معشراً كراما

أصيب مرثد و خالد قياما

ثم شرعوا فيه الأسنة حتى قتلوه . فأرادوا أن يحتزوا رأسه فبعث الله إليه الدبّر فحمته ثم بعث الله تبارك وتعالى فى الليل رجلا آتياً فحمله فذهب به فلم يصلوا إليه . وكان عاصم قد جعل على نفسه ألا يمس مشركاً ولا يمسه . وكان قتله وقتل أصحاب الرجيع فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة (١) .

١٠- **عمير بن الحمام** : (ابن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب الخزرجى. . وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبيدة بن الحارث ، وقتلا يوم بدر جميعا) (٢) .

ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد بدراً . وقال ابن إسحاق : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمير بن الحمام أحد بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ . فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء . فقذف التمر من يده ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد

فكان أول قتيل قتل فى سبيل الله فى الحرب (٣) .

ورواها الحافظ ابن حجر ، عن أنس رضي الله عنه بسند صحيح فيها :

(قال : قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » . فقال عمير بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « نعم » ، قال : بخ بخ . قال : «ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟ » قال : رجاء أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منها ثم قال : لئن حييت حتى آكل تمراً إنها لحياة طويلة . قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتِل) (٤) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٦٤ ، ٤٦٥ . (٢) المصدر نفسه ٣ / ٥٦٥ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة م٣ ج٥ / ٣١ . وهى فى السيرة لابن هشام ٢ / ٣٢٢ .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة م٣ ج٥ / ٣١ .

قال الحافظ ابن حجر : أخرجه مسلم عن عبد بن حميد فوافقناه فيه بعلو ودرجتين(١) .

١١ ـ **سفيان بن نسر** : وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين الطفيل بن الحارث .

وهو ابن عمرو بن الحارث ... الخزرجى . شهد بدراً وأحداً . وكان له عقب فانقرضوا (٢).

١٢ ـ **معاذ بن ماعص** : (ابن قيس الخزرجى . وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سالم مولى أبى حذيفة . قال محمد بن عمر : والثابت أنه شهد بدراً وأحداً ويوم بئر معونة . وقتل يومئذ شهيداً فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة . وليس له عقب) (٣) .

(ويقال إن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين عتبة بن غزوان رضي الله عنه) (٤).

١٣ ـ **رافع بن المعلى** : (ابن لوذان الخزرجى . وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين صفوان بن بيضاء ، وشهدا جميعاً بدراً وقتلا يومئذ فى بعض الرواية ، وقد روى أن صفوان لم يقتل يومئذ . وأنه بقى بعد رسول الله ﷺ . وكان الذى قتل رافع بن المعلى عكرمة بن أبى جهل . أجمع موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وأبو معشر ومحمد بن عمر وعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصارى على أن رافع بن المعلى شهد بدراً . وقتل يومئذ شهيداً وليس له عقب) (٥) .

١٤ ـ **يزيد بن الحارث** : (ابن قيس الخزرجى .. وآخى رسول الله ﷺ بين يزيد ابن الحارث وبين ذى اليدين (أو الشمالين) عمير بن عبد عمرو الخزاعى . وشهدا جميعاً بدراً وقتلا يومئذ شهيدين ، وكان الذى قتل يزيد بن الحارث نوفل بن معاوية الديلى . وكانت بدر صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة) (٦) .

١٥ ـ **خبيب بن عدى** : ابن مالك الأنصارى الأوسى . شهد بدراً واستشهد فى عهد النبى ﷺ . وفى الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه قال :

بعث رسول الله ﷺ عشرة عيناً ، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى جد

---

(١) المصدر السابق م٣ ج٥ / ٣١ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٣٦ .
(٣) المصدر نفسه / ٥٩٥ .
(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣ / ٥٣١ .
(٥) الطبقات الكبرى ٣ / ٦٠٠ ، ٦٠١ .
(٦) المصدر نفسه / ٥٣٤ .

عاصم بن عمر بن الخطاب . حتى إذا كانوا بالهدة ، بين عسفان ومكة ، ذُكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان . فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر فى منزل نزلوه . فقالوا : تمر يثرب فاتبعوا آثارهم . فلما حس بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى موضع . فأحاط بهم القوم . فقالوا لهم : انزلوا فأعطوا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألاّ نقتل منكم أحداً . . . ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم خبيب ، وزيد بن الدثنة ورجل آخر . فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها . قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم. . . فانطلق خبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر . فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً . وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر . فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا قتله . فاستعار من بعض بنات بنى الحارث موسى يستحد بها فأعارته . فدرج بنى لها وهى غافلة حتى أتاه . فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب . والله لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب فى يده وإنه لموثق بالحديد ، وما بمكة من ثمرة . وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيباً . فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل . قال لهم خبيب : دعونى أصلى ركعتين . فتركوه فركع ركعتين . فقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزع لزدت . ثم قال : اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحداً . ثم أنشأ يقول :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث . فقتله . وكان خبيب هو سنَّ لكل مسلم قتل صبراً الصلاة . وأخبر النبى ﷺ أصحابه يوم أصيبوا خبرهم (١) .

وروى ابن أبى شيبة عن طريق جعفر بن عمرو بن أمية ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ بعثه وحده عيناً إلى قريش . فجئت إلى خشبة خبيب فحللته فوقع إلى الأرض . وانتبذت غير بعيد ثم التفت فلم أره كأنما ابتلعته الأرض . . وذكر القيروانى فى (حلى العلى) أن خبيباً لما قتل جعلوا وجهه إلى غير القبلة فوجدوه مستقبل القبلة ، فأداروه مراراً ثم عجزوا ، فتركوه) (٢) .

---

(١) البخارى فى فتح البارى (٣٠٤٥) فى الجهاد .   (٢) الإصابة فى تميز الصحابة م١ ج٢ / ١٠٤ .

١٦ ـ **حنظلة بن أبى عامر**: ابن صيفى الأوسى الأنصارى المعروف بغسيل الملائكة . وكان أبوه فى الجاهلية يعرف بالراهب. واسمه: عمرو وكان يذكر البعث ودين الحنيفة . فلما بعث النبى ﷺ عانده وحسده وخرج عن المدينة . وأسلم ابنه حنظلة فحسن إسلامه واستشهد بأحد ، لا يختلف أصحاب المغازى فى ذلك . وروى ابن شاهين بإسناد حسن إلى هشام بن عروة ، عن أبيه قال : استأذن حنظلة بن أبى عامر وعبد الله ابن عبد الله بن أبى بن سلول رسول الله ﷺ فى قتل أبويهما فنهاهما عن ذلك ، وعن عبد الله بن الزبير قال : كان حنظلة بن أبى عامر الغسيل التقى هو وأبو سفيان بن حرب، فلما استعلى حنظلة رآه شداد بن شعوب فعلاه بالسيف فقتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان، فقال النبى ﷺ: « إن صاحبكم تغسله الملائكة» ، فاسألوا صاحبته . فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهائعة فقال النبى ﷺ:« بذلك تغسله الملائكة » (١) .

١٧ ـ **سعد بن زيد الأشهلى** : (الأوسى ، أسلم يوم أسلم سعد بن معاذ . وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار فى رواية محمد بن عمر. وبعثه رسول الله ﷺ سرية إلى مناة بالمشلل فهدمه ، وذلك فى شهر رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة) (٢) . وأنه الذى بعثه النبى ﷺ بسبايا من بنى قريظة فاشترى بها من نجد خيلاً وسلاحاً (٣) . وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عمرو بن سراقة .

١٨ ـ **مبشر بن عبد المنذر العوفى الأوسى** : (آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عاقل ابن أبى البكير . وشهد مبشرا بدراً ، وقتل يومئذ شهيداً ، قتله أبو ثور . وعن السائب ابن أبى لبابة أن رسول الله ﷺ أسهم لمبشر بن عبد المنذر وقدم بسهمه علينا معن بن عدى) (٤) . والسائب بن أبى لبابة هو ابن أخى مبشر ـ رضى الله عنهم ـ جميعاً .

١٩ ـ **عبدة بن الخشخاش** : من حلفاء القوافلة من الخزرج . آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبى سبرة بن أبى رهم . (وأما محمد بن إسحاق وأبو معشر فقالا: عبادة بن الخشخاش : وشهد بدراً وأحداً . وقتل يوم أحد شهيداً فى شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة وليس له عقب) (٥) . (وهو الذى أسر قيس بن السائب يوم بدر ، وهو حليف فى بنى سليم . ودفن مع النعمان بن مالك ، والمجذر بن زياد فى

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م١ ج٢ / ٤٥ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٣٩ .
(٣) الإصابة م٢ ج٣ / ٧٨ .
(٤) الطبقات الكبرى : ٣/ ٤٥٦ .
(٥) المصدر نفسه / ٥٥٣ .

قبر واحد) [1] .

٢٠ ـ **زيد بن المزين**: الخزرجى ، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين مسطح بن أثاثة . شهد بدراً وأحداً ، وسماه الواقدى يزيد ، بزيادة ياء فى أوله . وقد ضبطه الدارقطنى مزين .

٢١ ـ **المجذر بن زياد** : (البلوى ، حليف القوافلة من الخزرج . وكان اسم المجذر عبد الله . وهو قتل سويد بن الصامت فى الجاهلية ، فهيج قتله وقعة بعاث . ثم أسلم المجذر بن زياد والحارث بن سويد بن الصامت ، وآخى رسول الله ﷺ بين المجذر بن زياد وعكاشة بن محصن (أو عاقل بن أبى البكير) [2] (وذكره موسى بن عقبه فيمن شهد بدراً . وذكر ابن إسحاق من طريق الزهرى ومن طريق عروة وغيرهما أن النبى ﷺ قال : « من لقى منكم أبا البخترى بن هشام فلا يقتله » . فلقيه المجذر فقال له : استأسر ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نهانا عن قتلك . فقال وزميلى ؟ فقال المجذر : لا والله إنى قاتله . فقتله وزميله . وكان المجذر فى الجاهلية قتل سويد بن الصامت . فلما كان يوم أحد قتل الحارث بن سويد المجذر غدراً، وهرب فلجأ بمكة مرتداً ، ثم أسلم يوم الفتح فقتله رسول الله ﷺ بالمجذر)[3].

٢٢ ـ **الحارث بن الصمة** : الخزرجى النجارى . (آخى رسول الله ﷺ بينه وبين صهيب بن سنان . . . وعن عبد الله بن مكنف قال: خرج الحارث بن الصمة مع رسول الله ﷺ . فلما كان بالروحاء كُسر ، فردَّه رسول الله ﷺ ، وضرب له بسهمه وأجره . فكان كمن شهدها . قال محمد بن عمر : وشهد الحارث أحداً وثبت مع رسول الله ﷺ يومئذ حين انكشف الناس ، وبايعه على الموت ، وقتل عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومى . وأخذ سلبه درعاً ومغفراً وسيفاً جيداً ولم نسمع بأحد سلب يومئذ غيره . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: الحمد الله الذى أحانه . وجعل رسول الله ﷺ يوم أحد يقول : « ما فعل عمى؟ ما فعل حمزة ؟ » فخرج الحارث فى طلبه فأبطأ . فخرج على بن أبى طالب رضي الله عنه وهو يرتجز ويقول :

يارب إن الحارث بن الصمة كان رفيقاً وبنا ذا ذمة
قد ضلَّ فى مهامِهِ مهمه يلتمس الجنة فيها ثمة

---

(١) الإصابة م٢ ج٤ / ٢٧ .
(٢) الطبقات الكبرى ٣ / ٥٥٢ ، ٥٥٣ .
(٣) الإصابة لابن حجر م٣ ج٦ / ٤٣ ، ٤٤ .

حتى انتهى على بن أبى طالب إلى الحارث فوجده ، ووجد حمزة مقتولاً . . . وشهد الحارث أيضاً يوم بئر معونة وقتل يومئذ شهيداً فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة ، وللحارث اليوم عقب بالمدينة وبغداد) (١).

٢٣ ـ **سراقة بن عمر النجارى الخزرجى** : (آخى رسول الله ﷺ بينه وبين مهجع مولى عمر رضي الله عنه . شهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وعمرة القضية ويوم مؤته . قتل يومئذ شهيداً فيمن قتل من الأنصار سنة ثمانٍ من الهجرة وليس له عقب) (٢) .

المائة الأوائل :

وبنهاية الحديث عمن آخى رسول الله ﷺ بينهم . نكون قد استعرضنا المائة الأوائل من السابقين الأولين من الأنصار . حيث سبق وتحدثنا عن السبعين العقبيين وبعض الشخصيات الهامة التى عرضت أثناء البحث ممن لم يكتب لها أن تحضر العقبة . وحيث إن المؤاخاة قد تمت بين خمس وأربعين من الأنصار وخمس وأربعين من المهاجرين .كان من أهل العقبة من الأنصار منهم حوالى النصف ، وترجمنا الثلاث وعشرين منهم ممن لم يسبق أن تحدثنا عنهم .

ولابد من الإشارة إلى الملاحظات التالية :

١ ـ اشتراك الأوس والخزرج فى المؤاخاة بنسبة متقاربة . فقد شارك من الأوس اثنان وعشرون صحابياً وشارك من الخزرج ثلاثة وعشرون .

٢ ـ فى استعراض الثلاثة والعشرين من الذين فاتتهم بيعة العقبة لاحظنا أن العشر الأوائل منهم تقريباً ذوو شأن وتاريخ عريق ، ومواقف مهمة ومواقع قيادية فى الأمة . بينما رأينا الثلاثة عشر الآخرين ليسوا كذلك . وهذا لا يعنى أنهم لم يكونوا شخصيات قيادية . بل الأصح أنه لم يتح لهم أن تبرز هذه المواهب والطاقات ؛ لأنهم قضوا شهداء فى سنى الدعوة الأولى فى بدر وأحد والرجيع . أى خلال السنوات الثلاث الأولى من الهجرة . وبالتحديد نرى أن أربعة منهم استشهدوا ببدر ، وثلاثة فى أحد ، واثنين منهم فى الرجيع ، واثنين منهم فى معونة . وواحد منهم وهو الحارث بن الصمة استشهد فى مؤتة . بينما ذكر عن صحابى واحد أنه بقى بعد رسول الله ﷺ .

٣ ـ وبذلك يكون الجيل الأول من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار قد أصبح نصفهم ماثلة حياتهم بين أيدينا حيث استعرضنا مائة وخمسين من المهاجرين فى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥١٩ .

الجزء السابق . ونرى كيف صنع رسول الله ﷺ بهم ، ومنهم أنصع تاريخ فى الحياة . وكيف استطاعوا أن يقودوا الأمة بعد وفاته فيجوبوا الأرض بهذا الدين ، ويمثلوا خير أمة أخرجت للناس . وإن كنا لابد أن نعود إليهم دائماً فى المهمات التى أوكلت إليهم ، وفى المواقع القيادية التى تبوؤها فنشهد عظمة التربية أولاً ، ثم عظمة القيادة للمسلمين فى الأرض ثانياً بعد وفاة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه .

الأزمة الأولى بعد الهجرة

« وباء المدينة »

روى الإمام أحمد والشيخان وابن إسحاق واللفظ له،عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، وكان واديها يجرى نجلاً ـ يعنى ماءً آجناً ـ فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه . قالت : فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وبلال موليا أبى بكر فى بيت واحد . فأصابتهم الحمى ، فاستأذنت رسول الله ﷺ فى عيادتهم فأذن . فدخلت إليهم أعودهم . وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب . وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك(١) . فدنوت من أبى بكر فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ فقال :

كل امرئ مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

قالت : فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول . ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه(٢) كالثور يحمى جلده بروقه(٣)

قالت: فقلت : والله ما يدرى عامر مايقول . قالت : وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته (٤) ويقول :

ألا ليت شعرى هلى أبيتن ليلة بوادٍ وحولى إذخر (٥) وجليل (٦)
وهل أرِدَن يوماً مياه مَجِنَة وهل يبدون لى شامة وطفيل(٧)

---

(١) الوعْك : الحمى . (٢) بطوقه : بطاقته .
(٣) بروقه : بقرنه .
(٤) عقيرته : أى صوته . قال الأصمعى : إن رجلاً عُقرت رجله فرفعها على الأخرى وجعل يصيح ، فصار كل من رفع صوته يقال له : رفع عقيرته ، وإن لم يرفع رجله .
(٥) الإذخر : نبات طيب الرائحة . (٦) جليل : نبت ضعيف له خوص .
(٧) شامة وطفيل : جبلان مشرفان على مجنة على بريد من مكة .

قالت : فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، وماسمعته منهم . قلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى ، فنظر إلى السماء وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة » .

وفى لفظ للجندى ورزين : « وأشد » بالواو بدلاً من أو ـ « وصحّحها وبارك لنا فى مدِّها وصاعها ثم انقل وباءها إلى مهيعة ـ وهى الجحفة » .

وروى البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجة ومحمد بن الحسن المخزومى ، عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس ، خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة ، فأوّلتها أن وباءً نزل المدينة نقل إلى مهيعة » .

وقال ابن إسحاق : وذكر ابن شهاب الزهرى ، عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هو وأصحابه . أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً ، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ حتى ماكانوا يصلون إلا وهم قعود . قال : فخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم يصلون كذلك فقال لهم : « اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم » . فيتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماساً للفضل [1] .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ماجعلت بمكة من البركة » [2] رواه الشيخان .

وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :« إن إبراهيم حرَّم مكة ، وإنى حرّمت المدينة ، ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة » . حديث متفق عليه

وعن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك . دعا لأهل مكة بالبركة ، وأنا محمد عبدك ورسولك ، وأنا أدعو لأهل المدينة أن تبارك لهم فى صاعهم ومُدَّهم . مثلما باركت لأهل مكة ، واجعل مع البركة بركتين » [3] .

رواه الترمذى وصححه ، والطبرانى برجال الصحيح .

---

(١) صحيح البخارى جـ٢ ص١١٠ ، كتاب الصلاة ، باب صلاة القاعد بلفظ آخر عن عمران بن حصين .
(٢) صحيح البخارى جـ٣ ص٥٥ .
(٣) أخرجه مسلم بلفظ آخر بشرح النووى ج٩ ص١٣٤ ، ١٣٥ .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا الثمر جاؤوا به إلى النبى ﷺ فإذا أخذه ـ زاد الطبراني : وضعه على عينه ـ قال : « اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا،وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا . اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل مادعاك لمكة ومثله معه » .

قال : ثم يدعو أصغر وليد فيعطيه ذلك الثمر (١) .

رواه مسلم والترمذى والطبرانى .

(وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدُر المدينة ـ وفى لفظ : دوحاتها ، وفى لفظ درجاتها ـ طرح رداءه عن منكبيه وقال : « هذه أرواح طيبة » . وأوضع راحلته (٢) ، وإن كان على دابة حرَّكها من حبه)(٣) ـ وفى لفظ : تباشراً بالمدينة . وقال : « اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً » . رواه الشيخان والمحاملى ومحمد بن الحسن المخزومى .

١ ـ إنه موطن جديد لم يألفه المهاجرون بعد. وقد غادروا أحب بقاع الله إلى الله ، وأحب بقاع الله إليهم فراراً بدينهم من الفتنة .لكن جو المدينة الموبوء . سرعان ما انعكس عليهم . فنزلت بهم الحمى التى جعلتهم يهذون ولا يدرون ما يقولون ، والتى عبروا عنها أن الموت أخف منها ، فقد ذاقوا الموت قبل ذوقه ، بينما كان عامر بن فهيرة رضي الله عنه يرى أن أجله قد دنا لا محالة ، وراح بلال يتغنى ولو لحظة واحدة أن تبدو له مشارف مكة بجبالها وعشبها . وهى صورة مقتطعة من واقع مجتمع المهاجرين قدمتها لنا عائشة ـ رضى الله عنها. وتؤكد فى الرواية أنها عرضت لنموذج واحد من عشرات النماذج . وهذه القضية من الخطورة بحيث تجعل القرار والاستقرار صعب فى يثرب الموطن الجديد .

٢ ـ وتنقل عائشة ـ رضى الله عنها ـ الصورة إلى الحبيب المصطفى ـ صلوات الله عليه .فيضرع إلى ربه جل وعلا بالدعاء ليس فى أمر واحد . لكن فى أمور عديدة .

أ ـ اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة (وأشد) .

ب ـ وبارك لنا فى مدها وصاعها . (واجعل البركة بركتين) (ضعفى ما جعلت بمكة) .

جـ ـ ثم انقل وباءها إلى مهيعة (الجحفة) .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى ج٩ ص١٤٥ ، ١٤٦ .
(٢) أوضع راحلته : حثها على السرعة .
(٣) أخرجه البخارى عن أنس مع اختلاف فى اللفظ ج٣ ص ٥٥ .

وحيث إن هؤلاء الجند حزب الله وعلى رأسهم حبيب الله ورسوله ﷺ . وما قاموا فى هذه الأرض إلا لتحكيم شريعة الله فيها ، ففتحت أبواب السماء لهذه الدعوات المباركات ، احتفاء بها . وحقق الله تعالى رغبة رسوله ﷺ فى هذه الأمور الثلاثة . ولا مخرج لهذه الأزمة إلا هذا الطريق. وهو أمر لابد أن تضعه الدعاة إلى الله نصب أعينها . ففى كثير من الأحيان حين تسد أبواب الأرض ، فلا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه . وعندها تفتح أبواب السماء . والذى يملك القلوب هو الله جل شأنه ، وهو الذى يحبب ويكرِّه . فالالتجاء له سبحانه أن يحبب الموطن الجديد ، والناس الجدد ، والبيئة الجديدة . حين لا يجد الدعاة لهم إلا هذا الملجأ ، هو المخرج الوحيد من المحنة .

٣ـ وأما تأكيد الاستجابة ، فقد أخذ صورة مادية كما فى الحديث الصحيح :

(رأيت امرأة سوداء ، ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة ، فأولتها أن وباء المدينة قد نقل إلى مهيعة) .

وعوفى المسلمون بعدها من هذه الحمى ، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكل الوافدين والمهاجرين إليها من المسلمين والعرب على تنوع بيئاتهم ومواطنهم .

وأما حب المدينة ، فرأينا صورة هذا الحب عند الحبيب المصطفى ﷺ :

(. . كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدر المدينة (وفى لفظ دوحاتها ، وفى لفظ درجاتها) طرح رداءه عن منكبيه وقال : « هذه أرواح طيبة » ، وأوضع راحلته ، وإن كان على دابة حرّكها من حبه (تباشراً بالمدينة) . فكما وجد يعقوب ريح يوسف ، كان رسول الله ﷺ يجد ريح المدينة . وتغنى المسلمون فيها حباً وهياماً ، وتوارثتها الأجيال بعد الأجيال إلى قيام الساعة ، خاصة بعد أن أصبحت دار المصطفى ، وقبره الشريف، ودخل حبها جزءاً من شريعة الله ودينه. فهى موطن الإيمان إلى قيام الساعة .

« إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » (١) .

وهى بالمقابل تنفى الخبث منها : « أمرت بقرية تأكل القرى ـ وهى المدينة ـ تنفى شرار الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » (٢) .

وغدا حب أهلها جزءاً من الدين: « حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق » (٣) .

و « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ،

---

(١) صحيح الجامع الصغير م ١ ج ٢ ح ١٥٨٥ عن ابن ماجة والإمام أحمد .

(٢) صحيح البخارى كتاب الحج ، باب فضل المدينة ج ٣ ص ٥٠ .

(٣) الإمام أحمد .

ومن أبغضهم أبغضه الله » (١) .

« وآية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » (٢) .

وأما البركة فيحدثنا عنها عبد الله بن الفضل بن العباس ـ رضى الله عنهم ـ : (إنا لنتعرف ذلك، إنا ليجزئ المد عندنا والصاع بمثلى ما يجزئ بمكة) (٣).

٤ ـ وحمّى يثرب مشهورة على مستوى الأرض العربية . وقريش كانت تطمح أن يذوى المسلمون فى المدينة من الحمى .

ففى عمرة القضية : (قعد جمع من المشركين بجبل قينقاع ينظرون إليه ﷺ وإلى أصحابه وهم يطوفون بالبيت ،وقد قالوا (أى كفار قريش) : يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب . فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا . ثم قال ﷺ : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة » .

فأمر أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة (أى ليروا المشركين أن لهم قوة) فعند ذلك قال المشركون :هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم . هؤلاء أجلد من كذا ، إنهم لينفرون نفر الظبى . واضطبع ﷺ بردائه وكشف عضده اليمنى . ففعلت الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كذلك وهذا أول رمل واضطباع فى الإسلام (٤) .

٥ ـ هذه الأزمة العامة : أما الأزمة الخاصة . فقد برزت فى جانبين : إذ راح اليهود يشيعون أن لهم فعلاً فى النفوس ، وفعلاً فى الأرواح وأنهم قادرون بسحرهم أن يغتالوا المسلمين ، ويحولوا دون الإنجاب فيهم وسرت هذه الشائعة من ضمن الحرب الإعلامية . وأول ما نالت سيد بنى النجار أبى أمامة أسعد بن زرارة رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق :وهلك فى تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زرارة . والمسجد يبنى أخذته الذبحة أو الشهقة . قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم ، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة أن رسول الله ﷺ قال :

« بئس الميت أبو أمامة ، اليهود ومنافقو العرب يقولون لو كان نبياً لم يمت صاحبه ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئاً ».

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى :

---

(١) رواه الستة ما عدا أبا داود .

(٢) رواه الشيخان والنسائى .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٣٠ .

(٤) السيرة الحلبية ٢ / ٧٨١ .

(إنه لما مات أبو أمامة أسعد بن زرارة اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وكان أبو أمامة نقيبهم فقالوا له : يا رسول الله ، إن هذا قد كان منا حيث قد علمت . فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم . فقال رسول الله ﷺ :« أنتم أخوالى ، وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم » .

وكره رسول الله ﷺ أن يخص بها بعضهم دون بعض ، فكان من فضل بنى النجار الذين يعدون على قومهم ، أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم ، لقد كان أسعد بن زرارة علماً عظيماً من أعلام الإسلام ، ومعلماً من معالمه ، وهو على صغر سنه ، استطاع أن يفتح أبواب المدينة المقفلة للإسلام ، وهو عدو اليهود الأول ،وهو الرئيس المطاع والسيد المفدى الذى لم ينازعه فى زعامته على بنى النجار فى جميع بطونها أحد . وبقيت النقابة له وحده . ومن أجل ذلك كانت وفاته فاجعة كبيرة للإسلام والمسلمين فى أيامه الأولى . وتحركت الدعاية المسمومة اليهودية لتجعل لوفاته انتصاراً لليهود وهزيمة للمسلمين ؛ لأن رسول الله ﷺ فجع فى أعز أحبابه عليه . غير أن بناء العقيدة فى نفوس الجيل المسلم أكبر من الأشخاص مهما سموا وارتفعوا ، ورسول الله ﷺ يريد أن يربى فى نفوس هذا الجيل أن الموت والحياة أمر أكبر من الأشخاص فهو من اختصاص صاحب الألوهية فقط ، من اختصاص الله سبحانه ، وردً على هذه الدعاية المضللة بقوله : « بئس الميت أبو أمامة ، اليهود ومنافقو العرب يقولون : لو كان نبياً لم يمت صاحبه ، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى شيئاً » .

ولهذا الحديث وقع فى التربية لهذا الجيل أعظم الأثر ، فأبو أمامة السيد العظيم على فضله ودعوته وشبابه جاءه أجله فلا راد لأجله .

وفى الوقت الذى كان هذا الجيل يتلقى التربية الأولى فتفتح أبواب السماء لرحيل الحمى ، وتفتح القلوب لحب المدينة ، وتفتح المكاييل والموازين للبركة المضاعفة . فى الوقت نفسه تأخذ الشهقة أبا أمامة رضي الله عنه فلا يملك رسول الله ﷺ له شيئاً . ولا يكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يعلن ذلك ، بل يعلن معه أنه لا يملك لنفسه ولا لصاحبه شيئاً .

ومن هذه النقطة ذلت يهود ، وضلت يهود ، حين ادعت العصمة ، وادعت أنها شعب الله المختار ، بينما نجد عبد الله ورسوله يربى جيله المؤمن على القناعة المطلقة ، أن الله تعالى وحده هو المحيى والمميت ، وليس للبشر دور فى ذلك ولو كان سيد ولد آدم .

٦ ـ لقد فقد بنو النجار زعيمهم الفتى ، وقائدهم القوى ، وداعيتهم العظيم .فمن

الذى يحل مكانه ، ويتبوأ موقع القيادة مثله ، وحتى لا يقع التنازع بعده جاؤوا لرسول الله ﷺ ، يطلبون منه اختيار القائد . فهو حبيبهم ومصطفاهم ورسولهم ، وهو ابن أختهم من جهة ثانية .

ويالها من تربية عظيمة ، ويالها من مكرمة خالدة مضى بها بنو النجار على أمم الأرض . لقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ للأنصار يوم العقبة،وللنقباء الاثنى عشر : « أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم .وأنا كفيل على قومى » .

فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ نقيب قريش والمهاجرين معهم ، فكانوا هم الطرف المقابل للأنصار ، وهم أهله وعترته وقومه ، لكن بنى النجار بجميع بطونهم هم أخواله كذلك .

قالوا : يا رسول الله ، إن هذا كان منا حيث قد علمت ، فاجعل منا رجلاً مكانه، يقيم من أمرنا ما كان يقيم . فقال عليه الصلاة والسلام : « أنتم أخوالى ، وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم » .

وكره رسول الله ﷺ أن يخص بها بعضهم دون بعض . فكان من فضل بنى النجار الذى يعدون على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم .

وبهذا غدا بنو النجار رهط النبى ﷺ دون وساطة بينهم وبينه ، فهو نقيبهم الذى يقيم لهم أمورهم ، وله تتجه جميع القلوب بالطاعة والولاء والحب والفداء . وربط ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذه البطون جميعاً بشخصه. وانتزع منها التطلع للقيادة والسيادة والتنازع عليها حين غدت كلها جنوداً للحبيب المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام . وهى تربية ذات مغزى عميق فى عمليات البناء الأولى ؛ لضبط النفوس وإبعادها عن مواطن الاحتكاك والتنازع على القيادة والسلطة .

٧ ـ وكانت الأزمة العامة الثالثة : هى ما أشاعته يهود أن المسلمين لن يلد لهم بعد دخول المدينة ؛ وذلك بسحرهم لهم .

فعن أسماء ـ رضى الله عنها ـ أنها حملت بعبد الله بن الزبير . قالت : فخرجت وأنا متم . فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء ، ثم أتيت به النبى ﷺ فوضعته فى حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فى فيه . فكان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ، ثم حنكه بتمرة ، ثم دعا له وبرّك عليه ، وكان أول مولود وُلد فى الإسلام [١] .

---

(١) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ج ٧ ح ٣٩٠٩ ، ٣٩١٠ .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : أول مولود ولد فى الإسلام عبد الله بن الزبير ، أتوا به النبى ﷺ ، فأخذ النبى ﷺ تمرة فلاكها ، ثم أدخلها فى فيه . فأول ما دخل بطنه ريق النبى ﷺ (١) .

قال الحافظ ابن حجر : وقع عند الاسماعيلى من الزيادة عن طريق عبد الله بن الرومى عن أبى أسامة بعد قوله : فى الإسلام (ففرح المسلمون فرحاً شديداً لأن اليهود كانوا يقولون : سحرناهم حتى لا يولد لهم . وأخرج الواقدى ذلك بسند له إلى سهل ابن أبى خيثمة ، وجاء عن أبى الأسود عن عروة نحوه) (٢) .

فقد كانت ولادة عبد الله بن الزبير فرحة غامرة للمسلمين بهذا المولود الجديد ، وكأنه ولدهم جميعاً . وكذبت الفرية اليهودية بهذا المولود . وحتى يتم الاحتفاء به فى هذا المجتمع الوليد مضى به إلى رسول الله ﷺ ليحنكه ويبرك عليه ـ أى يدعو له بالبركة . وتعطينا تفصيلات الرواية صورة عن الوضع الصعب الذى يعانى المسلمون منه من أجل التمرة التى يحنك بها .

ففى رواية مسلم عن عروة وفاطمة بنت المنذر قالا : خرجت أسماء حين هاجرت وهى حبلى بعبد الله بن الزبير . قالت : فقدمت قباء فنفست به ، ثم خرجت فأخذه رسول الله ﷺ ليحنكه ثم دعا بتمرة ، قالت عائشة : فمكثنا ساعة نلتمسها قبل أن نجدها فمضغها .

والحديث عن عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ يقودنا إلى الحديث عن أهل بيت النبى ﷺ الذين لحقوا بالنبى بعد هجرته . . فقد ذكر ابن إسحاق أن النبى ﷺ لما قدم المدينة بعث زيد بن حارثة فأحضر زوجته سودة بنت زمعة وبنتيه فاطمة وأم كلثوم ، وأم أيمن زوج زيد بن حارثة وابنها أسامة ، وخرج معهم عبد الله بن أبى بكر ومعه أم رومان وأختاه عائشة وأسماء .

فهو ركب من أطهر الركبان وأنفسها ، فيه آل رسول الله ﷺ ، وآل مولاه زيد، وآل الصديق رضي الله عنه . فقد كانت هجرة الصاحبين أولاً للقدرة على الحركة والاختفاء ، ومواجهة الصعاب ، ثم كانت بعدها هجرة الأسرة النبوية ، وهجرة أسرة الصدّيق ، وأسرة زيد . وهناك التشابك بين الأسر الثلاثة . فعائشة زوج رسول الله ﷺ ، وإن كان لم يبن بها بعد . وزيد مولاه فكان زيد رضي الله عنه وعبد الله بن أبى بكر هما محرما هؤلاء المهاجرات .

---

(١) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ج ٧ ح ٣٩٠٩ ، ٣٩١٠ .
(٢) فتح البارى ٧ / ٢٤٩ .

اليهود على الساحة

لقد كان جل هم الأنصار الأوائل الذين استجابوا لله ورسوله قبل بيعة العقبة هو أن يسبقوا اليهود ببيعة النبى ﷺ .

(وكان مما صنع الله لهم أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب ، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا : إن نبياً سيبعث الآن أظل زمانه نتبعه ، فنقتلكم معه . فلما كلمهم النبى ﷺ عرفوا النعت . فقال بعضهم لبعض : لا تسبقنا إليه يهود. فآمنوا وصدّقوا) (١) وفى رواية : (تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه) (٢).

(ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم . . . وكان أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ويأتونه باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل . فكان القرآن يتنزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلاً من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها) (٣) .

وأنزل الله تعالى فيهم: **﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾** (٤) .

وكانت قبائل اليهود الكبرى هى :

١ ـ بنو النضير : وعلى رأسهم حيى بن أخطب ، وأخواه أبو ياسر وجدى بن أخطب. . . وكعب بن الأشرف ، وأبو رافع الأعور . وهو الذى قتله أصحاب رسول الله ﷺ بخيبر .

٢ ـ بنو ثعلبة بن الفطيون : وعلى رأسهم : عبد الله بن صوريا الأعور ، ولم يكن بالحجاز فى زمانه أحد أعلم بالتوراة منه ، وابن صلوبا ، ومخيريق .

٣ ـ بنو قينقاع : وعلى رأسهم : زيد بن اللّصيت ، وفنحاص ، وشاس بن قيس ،

---

(١) فتح البارى ٧ / ٢٣٠ عن ابن إسحاق .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٨٢ .
(٣) المصدر نفسه / ١٨٤ .
(٤) البقرة / ٨٩ .

ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وعبد الله بن سلام . وكان حبرهم وأعلمهم .

٤ ـ بنو قريظة : وعلى رأسهم الزبير بن باطا ، وعزَّال بن شمويل ، وكعب بن أسد وهو صاحب عقد بنى قريظة الذى نقض عام الأحزاب ، ووهب بن يهوذا .

وكان هناك بعض الذين تهودوا من العرب وعلى رأسهم :

لبيد بن أعصم ، من بنى زريق وهو الذى أخَّذ رسول الله ﷺ عن نسائه ، وكنانة ابن صوريا من يهود بنى حارثة ، وقروم بن عمرو من يهود بنى عمرو بن عوف ، وسلسلة بن برهام من يهود بنى النجار .

إسلام عبد الله بن سلام حبر بنى قينقاع :

قال ابن إسحاق : (وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم وكان حبراً عالماً قال : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له . فكنت مُسراً لذلك صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله ﷺ ، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها . وعمتى خالدة ابنة الحارث تحتى جالسة . فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرت ؛فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى :خيَّبك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت ! قال : فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به . قال : فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يُبعث مع نفس الساعة ؟ . قال : فقلت لها : نعم . قالت : فذاك إذاً . قال : ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ ، فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتى ، فأمرتهم فأسلموا) (١).

(وعن زرارة بن أوفى ، عن عبد الله بن سلام قال : لما أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وانجفل الناس قبله . فقالوا : قدم رسول الله . قال : فجئت فى الناس لأنظر إلى وجهه . فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . فكان أول شىء سمعته منه أن قال : « يا أيها الناس : أطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، وصَلُوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام ») (٢) .

ولنستمع إلى إسلامه عند البخارى فى روايته :

(... فقيل فى المدينة:جاء نبى الله ﷺ، فأشرفوا ينظرون ويقولون : جاء نبى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٨٦ . ومجموعة البيهقى فى الدلائل ٢ / ٥٣٠ .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٥٣١ .

الله . فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب . فإنه ليحدث أهله ؛ إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو فى نخل لأهله يخترف (١) لهم ، فعجل أن يضع الذى يخترف لهم فيها . فجاء وهى معه . فسمع من نبى الله ﷺ ، ثم رجع إلى أهله. فقال نبى الله ﷺ: «أى بيوت أهلنا أقرب ؟ » فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله، هذه دارى وهذا بابى. قال : « فانطلق فهيئ لنا مقيلاً » . قال : قوما على بركة الله . فلما جاء نبى الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق . وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى أسلمت ؛ فإنهم إن يعلموا أنى أسلمت قالوا فِيَّ ما ليس فِيَّ . فأرسل نبى الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه. فقال لهم رسول الله ﷺ : « يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله . فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم بحق. فأسلموا » . قالوا : ما نعلمه ـ قالوا للنبى ﷺ ، قالها ثلاث مرار ـ . . قال : « فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ » قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : « أفرأيتم إن أسلم قالوا » : حاشا لله ما كان ليسلم . قال : « أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ؟ » قال : « أفرأيتم إن أسلم ؟ » قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم . قال : « يابن سلام اخرج عليهم » فخرج . فقال : يا معشر يهود ، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت . فأخرجهم رسول الله ﷺ) (٢) .

(وعن أنس رضي الله عنه أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه وأمه ؟ قال :

« أخبرنى به جبريل آنفاً ». قال ابن سلام :ذاك عدو اليهود من الملائكة . . قال : « أما أول أشراط الساعة : فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة : فزيادة كبد الحوت .وأما الولد : فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد » . قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . قال :

يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى .

---

(١) يخترف : يقطع .

(٢) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ج٧ ص ٢٥٠ ح٣٩١١ .

فجاءت اليهود . فقال النبى ﷺ : « أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ » قالوا : خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : « أرأيتم إن أسلم عبد الله ابن سلام ؟ » قالوا : أعاذه الله من ذلك . فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قالوا : شرنا وابن شرنا . ونقصوه . قال : هذا كنت أخاف يا رسول الله) (١) .

حيى بن أخطب وأخوه ياسر :

قال ابن إسحاق : (وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن حزم قال : حُدِّثت عن صفية بنت حيى بن أخطب أنها قالت : كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر . لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذانى دونه . قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبى حيى بن أخطب وعمى أبو ياسر بن أخطب مغلسين . قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى . قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلى أحد منهما ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حيى بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم . قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت) (٢) .

وروى موسى بن عقبة عن الزهرى قال : (.. وبالمدينة مقدم رسول الله ﷺ أوثان يعبدها رجال من أهل المدينة لم يتركوها . فأقبل عليهم قومهم ، وعلى تلك الأوثان فهدموها . وعمد أبو ياسر بن أخطب أخو حيى بن أخطب وهو أبو صفية زوج النبى ﷺ فجلس إلى النبى ﷺ فسمع منه وحادثه ، ثم رجع إلى قومه، وذلك قبل أن تصرف القبلة نحو المسجد الحرام . فقال أبو ياسر :

يا قوم أطيعونى ، فإن الله عز وجل قد جاءكم بالذى كنتم تنتظرون ، فاتبعوه ولا تخالفوه . فانطلق أخوه حيى حين سمع ذلك وهو سيد اليهود يومئذ وهما من بنى النضير ، فأتى النبى ﷺ فجلس إليه وسمع منه فرجع إلى قومه وكان فيهم مطاعاً . فقال : أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً أبداً . فقال له أخوه أبو ياسر : يابن أم ، أطعنى فى هذا الأمر ، ثم اعصنى فيما شئت بعده ولا تهلك . فقال : لا والله لا أطيعك . واستحوذ عليه الشيطان فاتبعه قومه على رأيه) (٣) .

---

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧ / ٢٧٢ ح ٣٩٣٨ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٨٩ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٥٣٣ .

(وكلّم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود منهم عبد الله بن صورى الأعور، وكعب بن أسد فقال لهم : « يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به هو الحق » . قالوا : ما نعرف ذلك يا محمد . وجحدوا ما عرفوا ، وأصروا على الكفر . فأنزل الله عز وجل فيهم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ (١)) (٢) .

(وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لو آمن عشرة بى من اليهود لآمن بى اليهود ») (٣) .

(روى أبو سعيد فى (شرف المصطفى) عن طريق سعيد بن جبير قال :جاء ميمون بن يامين ـ وكان رأس اليهود ـ إلى رسول الله ﷺ . فقال: يا رسول الله ، ابعث إليهم فاجعلنى حكماً ، فإنهم يرجعون إلى فأدخله داخلاً . ثم أرسل إليهم فأتوه فخاطبوه فقال : « اختاروا رجلاً يكون حكماً بينى وبينكم » . قالوا : قد رضينا ميمون ابن يامين. فقال: اخرج إليهم. فقال : أشهد أنك رسول الله . فأبوا أن يصدقوه) (٤) .

(وأخرج أبو عبيد بن حميد فى تفسيره بسند قوى إلى جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال : كان ميمون بن يامين الحبر ، وكان رأس اليهود بالمدينة ، فأسلم وقال : يارسول الله ، ابعث إليهم فاجعل بينك وبينهم حكماً من أنفسهم . فأرسل إليهم فجاؤوا فحكمهم ، فرضوا بميمون وأثنوا عليه خيرا ، فأخرجه إليهم ، فبهتوه وسبوه . فأنزل الله تعالى : **﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُم . . . . ﴾** (٥)) (٦).

١ ـ لقد كان رسول الله ﷺ حياً فى المدينة ، وكأنه بين ظهرانيهم من العرب واليهود قبل أن يقدم المدينة .

فقد روى البيهقى ، عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وناس من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ قالوا :

---

(١) النساء / ٤٧ . (٢) دلائل النبوة ٢ / ٥٣٤ .
(٣) فتح البارى فى شرح البخارى ح ٣٩٤١ ج٧ ص ٢٧٤ .
(٤) المصدر نفسه ج٧ص٢٧٥ . (٥) الأحقاف / ١٠ .
(٦) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٣ ج٦ ص ١٥٠ .

كانت العرب تمر باليهود فيؤذونهم . وكانوا يجدون محمداً ﷺ فى التوراة فيسألون الله تعالى أن يبعثه فيقاتلون معه العرب . فلما جاءهم كفروا به حين لم يكن من بنى إسرائيل) (١) .

بل كان حياً فى المنطقة العربية المجاورة ليثرب كذلك . فقد روى ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وغيرهم عن قتادة :

أن يهود أهل المدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ كانوا إذا قاتلوا من يليهم من مشركى العرب من أسد وغطفان وجُهينة وعُذرة يستفتحون يدعون الله على الذين كفروا ويقولون : (اللهم إنا نستنصر بحق محمد النبى الأمى إلا نصرتنا عليهم) فينصرون . وكانوا يقولون : (اللهم ابعث النبى الأمى الذى نجده فى التوراة الذى وعدتنا أنك باعثه فى آخر الزمان) . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً للعرب . وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ . قال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء أخو بنى سلمة : (يا معشر يهود ، اتقوا الله وأطيعوا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته) (٢) .

وهذه المعرفة التى تكاد تكون يقينية عند المشركين من الأوس والخزرج ـ بله عند اليهود ـ هى التى دفعت بالوفد الأول من الأوس والخزرج أن يسارعوا إلى الإسلام .

٢ ـ ومع الوصول الميمون لرسول الله ﷺ إلى المدينة وفى اللحظات الأول التى وطئت قدماه الشريفة ثرى طيبة ، كان سيد اليهود عبد الله بن سلام (أو الحصين بن سلام) كأنما هو على موعد معه . والمسلمون كذلك ينتظرون بفارغ الصبر ذلك اللقاء بين اليهود وبين النبى الذى كانوا يبشرون به لتصبح المدينة لحمة واحدة من المؤمنين عرباً ويهودا .

لقد كان الحصين بن سلام ـ وسماه رسول الله : عبد الله ـ هو حبرهم الأعظم . واختاره الله تعالى لينهى مباشرة هذه المعضلة . هل هو الرسول المنتظر أم لا ؟

وعبد الله بن سلام من ذرية سيدنا يوسف الصدِّيق ـ عليه السلام ـ حليف القوافل من الخزرج . ويدلنا على أصالة معدنه ، ونفاسة فطرته ، أنه مجرد أن سمع بقدوم رسول الله ﷺ وقبل أن يراه ، ارتاحت نفسه إلى أنه رسول الله حقا . بل كان يؤمن بذلك حتى قبل قدوم السيد المصطفى ﷺ إلى المدينة كما يقول: (لما سمعت برسول الله

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٥٤٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣ / ٥٤٣ .

ﷺ ، وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذى كنا نتوكف له . فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة). ومن هذه الأرضية التى كانت عنده ، ما أن سمع بوصوله ﷺ حتى كبر وهو على رأس النخلة ؛ مما أغضب عمته خالدة بنت الحارث ، واغتاظت منه قائلة :

خيبك الله . والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت .

فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه .

فليس فى ذهنه شك بذلك . إننا أمام الصدّيق رضي الله عنه الذى كان قلبه مشرعاً ومهيئاً للإسلام . فهذا الصدّيق الجديد من اليهود . وزال استغراب عمته حين سمعت جوابه فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قلت لها: نعم . قالت : فذاك إذن .

لقد كانت الأجيال تلو الأجيال من اليهود ورجالهم ونسائهم وأطفالهم ، يعرفون هذا النبى الأمى ، وليس خاصاً بأحبارهم وعلمائهم .

ودفعه حب رسول الله ﷺ ـ حتى قبل أن يراه ـ إلى أن يمضى مسرعاً ولا يزال التمر فى يده ، كى يحظى برؤية وجهه الحبيب . إنه لم يتمالك نفسه أن يجعل التمر فى بيته ، ثم يمضى ، بل أسرع حتى يلقاه بين المئات من المسلمين. ولم ينزل بعد فى بيته. ولا يزال يمضى بناقته المأمورة . ولعله رآه عند حلفائه من القواقلة من الخزرج والذين دعوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم . وكان جوابه عليه الصلاة والسلام : « بارك الله عليكم : إنها مأمورة » .

وكان ذلك التواصل الروحى والنفسى العجيب ، وتلك الفراسة الصادقة ، كفراسة خديجة ـ رضى الله عنها ـ : (كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتحمل الكل وتقرى الضيف ، وتفك العانى ، وتعين على نوائب الحق) . أما فراسة ابن سلام رضي الله عنه (فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب) واتصلت الرؤيا القلبية بسماع المشهد العظيم من فم النبى ﷺ ، (فسمعته يقول :

« أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام ») . ونستعيد بالذاكرة موقف سعد بن معاذ رضي الله عنه . وقد تهلل وجهه بالإسلام . وكيف كان يحس مسؤولية قومه . فكذلك ابن سلام رضي الله عنه فاليهود وراءه ، فلا بد أن يخطط بما يناسب موقعه فى قومه بحيث يكون إسلامه علناً ، وبعد تثبت كامل ، وفى محاولة (رغم أنها يائسة) لعل القوم البهت من

اليهود تلين قناتهم ويستجيبون للدعوة الجديدة . فاكتفى بهذا القدوم برؤية الحبيب المصطفى والسماع منه . ولا شك أن الغالبية العظمى من المسلمين قد رأته ، ورأت فى يديه التمر ورأت تهلل وجهه برؤية رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ ووضعوا قلبهم على أيديهم . ماذا سيكون بعد هذا اللقاء بين سيد يهود ، وسيد ولد آدم محمد عليه الصلاة والسلام .

٣ ـ ونحن نتحدث عن التربية والمسلمون فى لحظاتهم الأولى ، وقلوبهم تخفق حباً بلقاء من يفدونه بآبائهم وأمهاتهم ، نود أن نتعرف على أثر اللقاء الثانى ، الذى شهدوه وقد استقر برسول الله ﷺ مقامه فى بيت أبى أيوب الأنصارى ، وجلس للناس يحدثهم، فى يومهم الأول من أيام المدينة الذى يحسون أنه يوم ميلادهم الجديد ؛ إذ ابتدأت حياتهم به ، وتاريخهم منه . فهم اليوم نزيلهم وضيفهم وحبيبهم رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وما المدينة بدونه ، وكيف تكون الحياة بدونه ؟ !

جاء عبد الله بن سلام رضي الله عنه والمسلمون مشدودون بقلوبهم ونفوسهم إلى رسول الله ﷺ . جاء حبر يهود ليلقى أسئلته الثلاثة على رسول الله ﷺ قائلاً له : إنى سائلك عن ثلاثٍ ـ أو عن خلالٍ ـ لا يعلمهن إلا نبى ؛ ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجَنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو أمه ؟ وصدق الحصين . فهذه أمور من الغيب لا يعلمها إلا الله ، ومن يصطفى من خلقه . فهى من الغيب المكنون عند الله عز وجل . وهى ليست من أجل إيمانه أو من أجل إيمان هذه القاعدة الصلبة التى آمنت بالله تعالى ورسوله ، ولكنها من أجل جمهور اليهود الذى لا يزال يلقى ظلالاً من الشك على نبوة الرسول ﷺ ، ومحمد النبى الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب بالعربية بله بالعبرية ، حتى يعرفها من كتبهم .

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أخبرنى بهنّ جبريل آنفاً » . قال: جبريل: «نعم». قال : عدو اليهود من الملائكة . قال : « أما أول أشراط الساعة ، فنار تخرج من المشرق تحشرهم إلى المغرب ،وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت،وأما الولد ، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد،وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت المرأة » .

فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

ويمضى عبد الله بن سلام حبر اليهود إلى أهله ، فيأمرهم بالإسلام فيسلموا وتسلم عمته خالدة بنت الحارث ، ويكتم إسلامه وإسلامهم جميعا .

أما المؤمنون فكأنما سكبت فى قلوبهم اليقين سكباً ، فصاروا حلقاً آخر وهم يرون رسولهم فى اليوم الأول يجيب تساؤلات حبر اليهود كاملاً . وانتهى من هذه اللحظة أن

يطلبوا العلم من عند أهل الكتاب .

ولِمَ يطلبونه ، وعندهم النبى المجتبى الذى يأتيه الوحى غضاً من السماء ؟ «أخبرنى بها جبريل آنفاً » . وكان أول وأعمق درس تربوى يتلقونه منذ الساعات الأولى للإسلام.

٤ ـ وكان درس اليوم التالى أعمق وأبلغ ، فقد حضر أحبار يهود جميعاً ، وإسلام حبرهم سرٌ لا يعرفه أحد ، وأراد الحبر ـ رضوان الله عليه ـ أن يكشف زيف قومه وبهتانهم وافتراءهم على الملأ من المسلمين علناً لا سراً ، وما يضيره وقد انضم إلى حزب الله الجديد . فهو ابن هذا الدين الذى أفنى عمره فيه ، وأمضى حياته يترقب قدوم هذا النبى الجديد .

يحدثنا رضي الله عنه عن سبب كتمان إسلامه فهو لا يريد أن يحدث انقلاباً كاملاً فى المدينة ، ويسقط فيه يهود منذ الأيام الأولى ؛ قال :

يارسول الله ، إن اليهود قد علمت أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، وأنهم قوم بهت ، وأنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى ، وقالوا فىّ ما ليس فىّ . فأحب أن تدخلنى بعض بيوتك .

فأدخله رسول الله ﷺ بعض بيوته ، وأرسل إلى اليهود ، فدخلوا عليه .

والمؤمنون الذين يكتظ بهم المجلس ، ولعل المسجد لم يبنَ بعد ، قد حضروا جميعاً ليشهدوا هذا اللقاء الحاشد الحاسم بين نبيهم المصطفى ﷺ وبين أحبار أهل الكتاب ، وهم يتوقعون أن ينقلب اليهود ـ كما انقلب حبرهم عبد الله بن سلام ـ مؤمنين ـ صادقين ، إخواناً لهم ، وتنتهى الشحناء بينهم إلى الأبد ، بعد أن جاء النبى ﷺ ، وحسم الموقف .قال عليه الصلاة والسلام : « يامعشر يهود ،ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله ، قد جئتكم بالحق فأسلموا » .

والمسلمون على رؤوسهم الطير ، وقلوبهم معلقة مشدودة ، ينتظرون ذلك الإسلام العام ، وذلك الصوت الجماهيرى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . . وابن سلام حبرهم وسيدهم وعالمهم ، قد سبقهم إلى ذلك ، وكان الجواب المفجع : لا نعلمه .

وحتى ينجلى الموقف . قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أى رجل فيكم الحصين ابن سلام ؟ » .

قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . فقال :

«أرأيتم إن أسلم ؟ ». قالوا : أعاذه الله من ذلك. وأعادها عليهم ثلاثاً . ثم قال: « يابن سلام ، اخرج إليهم ؟ » .

وهذا هو ابن سلام بعينه وشخصه سيدهم وخيرهم وعالمهم يقول أمامهم :

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

والمؤمنون يترقبون قد حبست أنفاسهم . فماذا بعد شهادتهم بابن سلام ؟ وماذا بعد إسلامه أمامهم ؟ وماذا بعد أن دعاهم إلى الإسلام قائلاً :

يامعشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقاً ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة ؛ اسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه . ثم كان الفجور والبهتان من هؤلاء العلماء وأهل الكتاب . وكان هذا الحقد الأسود أن ردّوا عليه : كذبت أنت شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه .

قال : هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله ، ألم أخبرك بأنهم قوم بهت . أهل غدر وكذب وفجور ؟

قال : وأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها .

كان هذا هو الدرس الثانى الذى تلقاه صحب محمد ﷺ فى المدينة .

فقد أصبحوا كتلة ملتحمة من الإيمان الصادق بالله وبرسوله ، بعد هذا المشهد . لكن الذى أضيف من جديد إلى أعماقهم ، هو الإيمان العميق الصادق كذلك ؛ بأن اليهود كما قال عنهم سيدهم :

(قوم بهت ، وأهل غدر وكذب وفجور) . وانقشعت من النفوس كل بقايا الثقة بهم أو بعلمهم .

وتأهب الصحب المؤمن فى أعماقه ، وتغذى ليواجه هذا العدو الداخلى الغادر الفاجر .

وجاء القرآن الكريم بعدها من السماء غضاً ليؤكد هذه المعانى ، بحيث نشهد ربانية هذا الجيل وهو ينهل من الأمينين جبريل ، ورسول الله ـ صلوات الله عليهما وسلامه .

إننا نشهد فى هذه اللحظات تكوّن هذا الجيل ، وخطوات تربيته خطوة فخطوة .

٥ ـ وحين ندع الجيل المؤمن السعيد بنبيه السعيد بقرآنه المتلو عليه من نبيه . لنعود إلى قلب تلك الأمة المنكودة ، أمة يهود ، نشهد الموقف المعاكس تماماً فى صفوف بنى

النضير ، عند حبرهم وعالمهم وسيدهم حيى بن أخطب. واللقطة التى نقلتها لنا ابنته صفية أم المؤمنين ، وهى من ملفاتهم القديمة ، وهى من الوثائق الهامة جداً والتى كشف عنها النقاب بعد دخولها إلى الصف المسلم ، وانصهارها عضواً فى حزب الله ، وزوجاً لرسول الله ﷺ ، تعود بنا كذلك إلى اليوم الأول الذى توجّه فيه عبد الله بن سلام إلى رسول الله ﷺ ، بل تسبقه إلى قباء . وتحدثنا عن تلك المحادثة الفريدة بين أبيها وعمها أبى ياسر لأبيها حيى : أهو هو ؟ . قال حيى : نعم . أبو ياسر : أتعرفه بنعته وصفته ؟ . قال أبوها : نعم والله . قال : فما فى نفسك منه ؟ . قال : عداوته والله ما بقيت.

لقد مضى ابن سلام رضي الله عنه على خطا الصديق ليكون الوزير الأول من اليهود لرسول الله ﷺ ، بينما مضى ابن أخطب على خطا فرعون الأمة أبى جهل ليكون العدو الأول من اليهود لرسول الله ﷺ .

وحاول أبو ياسر محاولة يائسة بعد لقاء منفرد له مع رسول الله ﷺ أن يتدارك الموقف فى اجتماع مغلق لبنى النضير ، حيث كان حب اليهود أعظم عنده من حب هذا الدين .

فرجع إلى قومه فقال : ياقوم ، أطيعونى فإن الله تعالى قد جاءكم بالذى تنتظرونه فاتبعوه ولا تخالفوه . بينما وقع حيى ، بعد لقاء ثان كذلك ليصد أخاه بعنف وصلف وحقد يغلى كالمرجل فى صدره ، قائلاً : وأتيت من عند رجل والله لا أزال له عدوا .

ويهود تنظر إلى الأخوين الزعيمين ؛ علهما ينتهيان إلى رأى واحد .

أبو ياسر : يا بن أم ، أطعنى فى هذا الأمر واعصنى فيما شئت بعد .

حيى : لا والله لا أطيعك .

وانتهى الأمـر . فحيى هو السيد المطاع ، وبنو النضير خلفـه ، ولـم يكن أمـام أبى ياسر ليحافظ على زعامته إلا أن يمضى خلف أخيه ليجره إلى النار .

٦ ـ ولم يكن موقف بنى قريظة ، وبنى الغطيون يخرج عن هذه المواقف جميعاً . فهذا عبد الله بن صورى الأعور سيد بنى الغطيون ، وكعب بن أسد سيد بنى قريظة . يقول لهم رسول الله ﷺ : « يا . معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به هو الحق » .

قالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، وجحدوا ماعرفوا .

والتحق بركب عبد الله بن سلام من جميع الفصائل اليهودية ميمون بن يامين ،

الذى ارتضته اليهود حكماً ، وعادت خيوط الأمل الضعيفة لدى الصحابة العظام ، أن يتراجع اليهود عن فجورهم ، ويقبلوا حكم ابن يامين رأسهم وسيدهم ، فخرج ودعاهم إلى الإسلام ، فسبوه وبهتوه .

٧ ـ رجلان فقط ـ من جميع هذه الفصائل اليهودية ـ هما اللذان انضما للإسلام فى لحظاته الأولى ، بينما وقف اليهود جميعاً فى موقف موحد ، كما وقفت قريش من قبل فى ملئها وقادتها وسادتها ، لكن الفرق اليوم ، أن ملأ بنى النجار وبنى عبد الأشهل ، والأوس والخزرج جميعاً خلف رسول الله ﷺ قرروا أن يحاربوا الأحمر والأسود من الناس مع سيدهم المفدى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأزمعوا أمرهم أن يقطعوا كل عقودهم وحبالهم مع اليهود وغيرهم ، وهم خلف رسول الله ﷺ إلا بعض الأفراد ، ذُبحوا على مذبح الشهرة ، ومذبح حب اليهود ، سنرى مواقفهم فيما بعد .

يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود » .

يقول الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ فى الفتح : (قوله : « لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود » ، وفى رواية الإسماعيلى: « لم يبق يهودى إلا أسلم » . وكذا أخرجه أبو سعيد فى (شرف المصطفى)، وزاد فى آخره قال : (قال كعب : هم الذين سماهم الله فى سورة المائدة) . فعلى هذا فالمراد عشرة مختصة وإلا فقد آمن به أكثر من عشرة . وقيل المعنى : لو آمن بى فى الزمن الماضى كالزمن الذى قبل قدوم النبى ﷺ المدينة أو حال قدومه . والذى يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء فى اليهود، ومن عداهم كان تبعاً لهم . فلم يسلم منهم إلا القليل ؛ كعبد الله بن سلام وكان من المشهورين بالرياسة فى اليهود عند قدوم النبى ﷺ . ومن بنى النضير : (٢) أبو ياسر ابن أخطب و(٣) أخوه حيى بن أخطب و(٤) كعب بن الأشرف و(٥) رافع بن أبى الحقيق . ومن بنى قينقاع: (٦) عبد الله بن حنيف و(٧) فنحاص و(٨) رفاعة بن زيد. ومن بنى قريظةً (٩) الزبير بن باطيا و(١٠) كعب بن أسد و(١١) شمويل بن زيد . فهؤلاء لم يثبت إسلام أحد منهم، وكان كلٌّ منهم رئيسا فى اليهود، ولو أسلم لاتبعه جماعة منهم. فيحتمل أن يكونوا هم المراد. وقد روى أبو نعيم فى (الدلائل) من وجه آخر الحديث بلفظ: «لو آمن بى الزبير بن باطيا وذووه من رؤساء اليهود لأسلموا كلهم». . . ووقع عند ابن حبان قصة إسلام جماعة من الأحبار كزيد بن سعنة مطوّلاً. وروى البيهقى أن يهودياً سمع النبى ﷺ يقرأ سورة يوسف فجاء ومعه نفر من اليهود ، فأسلموا كلهم . لكن يحتمل ألا يكونوا أحباراً . وحديث ميمون بن يامين قد تقدم فى الباب .

وأخرج يحيى بن سلام فى تفسيره من وجه آخر ، عن محمد بن سيرين ، عن

أبى هريرة هذا الحديث . فقال : قال كعب : (إنما الحديث اثنا عشر لقول الله تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ (١) فسكت أبو هريرة ، وقال ابن سيرين : أبو هريرة عندنا أولى من كعب . قال يحيى بن سلام : وكعب أيضاً صدوق ؛ لأن المعنى عشرة بعد الاثنين وهما عبد الله بن سلام ومخيريق ، وكذا قاله . هو معنوى) (٢) .

وبالعودة إلى الآية القرآنية فى المائدة يتضح جانب من المعنى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٣) .

وهو الخط الذى خطه عيسى ـ عليه السلام ـ فى النصارى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤) .

وهو الخط الذى خطّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع قيادات الأوس والخزرج :

« أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم » . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله بن أبى بكر ، أن رسول الله ﷺ قال للنقباء :

« أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى » .

وهذا هو الظاهر والأرجح والله أعلم ، أنه لو آمن عشرة من قيادات اليهود ، أو عشرة إضافة إلى الاثنين الآخرين لأسلم اليهود جميعاً . لكن الله تعالى لم يعطهم هذا الفضل . فقد نكثوا من قبل ، وسنشهد تاريخهم فيما بعد ، وأعطى هذا الفضل للأميين من الأوس والخزرج ليكونوا هم الورثة الحقيقيين لهذا الدين وهذه الرسالة . وبقى أحبار يهود وقياداتهم على كفرهم وعنادهم وحربهم لله ورسوله .

---

(١) المائدة / ١٢ .
(٢) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٧٥ .
(٣) المائدة / ١٢ .
(٤) آل عمران / ٥٢ ، ٥٣ .

والنماذج التى ذكرها ابن حجر - رحمه الله - من قياداتهم ، هى التى قادت المعركة الفكرية والحربية والسياسية ضد رسول الله ﷺ فيما بعد . ثم سقط بعضها قتيلاً بيد المسلمين ، أو لاجئاً فى أرض الشام ، أو هلك وهو على كفره وعناده ، ويعلم فى قرارة قلبه أن محمداً رسول الله حقاً ، كما يعرفون أبناءهم ، لكنهم خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون .

بينما وفَّى النقباء الاثنا عشر من الأوس والخزرج بعهدهم ، ومضوا يقودون قومهم. فى أحلك اللحظات ، وأصعب الظروف ، وسطروا هذا المجد بأن كانوا أنصار الله ورسوله . مع قومهم من خلفهم ، لم يتخلف عنهم إلا منافق مغموص النفاق .

سورة البقرة ...
ومعركة اليهود الفكرية والسياسية

قال الزرقانى فى شرح المواهب : (وجعل - عليه الصلاة والسلام - يقول للعباس: «نادِ يا معشر الأنصار » ؛ لأنهم بايعوه ليلة العقبة على عدم الفرار « يا أصحاب السمُرة» يعنى شجرة الرضوان التى بايعوا تحتها على ألا يفروا عنه ، كما فى مسلم ، بل فى البخارى : أنهم بايعوه على الموت . وجمع الترمذى بأن بعضاً بايع على هذا ، وبعضاً بايع على ذاك كما مر مفصلاً . فجعل ينادى تارة يا أصحاب السمُرَة، وتارة يا أصحاب سورة البقرة. خُصّت بالذكر حين الفرار لتضمنها: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾(١)، أو لتضمنها : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم ... ﴾ (٢) ، أو : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ... ﴾ (٣) . وليس النداء بها اجتهاداً من العباس بل بأمره ﷺ. ففى مسلم وغيره قال العباس: فقال ﷺ : « يا عباس : ناد يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمُرَة ، يا أصحاب سورة البقرة » . وكان العباس رجلاً صيتاً ولذا خصّه بالنداء) (٤) .

فقد غدا الأنصار من سماتهم - رضى الله عنهم - أنهم أصحاب سورة البقرة.

وأى حديث عن التربية أو المنهج التربوى للسيرة النبوية وهو يتناول جيل بدر لابد أن يتحدث بإسهاب عن سورة البقرة . فهى العرض القرآنى للمجتمع المدنى فى سنتيه الأوليين مع آيات عديدة متنوعة من المائدة والنساء ، وتأتى سورة آل عمران تتمة لحلقة سورة البقرة .

ولا بأس أن نعرض مقتطفات من الظلال فى الحديث عن هذه السورة ؛ لتتضح لدينا أجواء تلك الأيام الأولى للدعوة . يقول صاحب الظلال :

(هذه السورة تضم عدة موضوعات . ولكن المحور الذى يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً . . . فهى من ناحية تدور حول موقف بنى إسرائيل من الدعوة الإسلامية فى المدينة ، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها

---

(١) البقرة / ٢٤٩ . (٢) البقرة / ٤٠ .
(٣) البقرة / ٢٠٧ .
(٤) شرح الإمام الزرقانى على المواهب اللدنية للقسطلانى ج ٣ / ١٢ .

ﷺ ، وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها. وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى. . . وهى من ناحية أخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة فى أول نشأتها ، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة فى الأرض . بعد أن تعلن السورة نكول بنى إسرائيل عن حملها ، ونقضهم لعهد الله بخصوصها ، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقى لإبراهيم ـ عليه السلام ـ صاحب الحنيفية الأولى . وتبصير الجماعة المسلمة ، وتحذيرها من العثرات التى سببت تجريد بنى إسرائيل من هذا الشرف العظيم . وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين كما سيجىء فى استعراضها التفصيلى)(١) ، (. . . فشا الإسلام فى المدينة حتى لم يبق فيها بيت لم يدخله الإسلام . وأخذ المسلمون فى مكة يهاجرون إلى المدينة تباعاً ، تاركين وراءهم كل شىء، ناجين بعقيدتهم وحدها حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم ، ومن الإيثار والإخاء ما لم تعرف له الإنسانية نظيراً قط ، ثم هاجر رسول الله ﷺ وصاحبه الصدّيق ، هاجر إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التى بحث عنها من قبل طويلاً . وقامت الدولة الإسلامية فى هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول ﷺ)(٢) ، (. . . لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة فى المدينة . وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة . . . كان لليهود فى يثرب مركز ممتار بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب ـ الأوس والخزرج ـ ومع أن مشركى العرب لم يظهروا ميلاً لاعتناق ديانة أهل الكتاب هؤلاء ، إلا أنهم كانوا يعدّونهم أعلم منهم وأحكم بسبب ما لديهم من كتاب. ثم كان هناك ظرف موات لليهود فيما بين الأوس والخزرج من فرقة وخصام ، وهى البيئة التى يجد اليهود دائماً لهم فيها عملاً . فلما أن جاء الإسلام سلبهم هذه المزايا جميعاً . فلقد جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه ، ثم إنه أزال الفرقة التى كانوا ينفذون من خلالها للدس والكيد وجر المغانم ، ووحد الصف الإسلامى الذى ضم الأوس والخزرج، وقد أصبحوا منذ اليوم يعرفون بالأنصار ، إلى المهاجرين ، وألّف منهم جميعاً ذلك المجتمع المسلم المتضام المتراص الذى لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيراً على الإطلاق .

ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنّ فيهم الرسالة والكتاب . فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائماً . فلما أن جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته ، وأن يقصر الدعوة على الأميين

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب م١ ج١ / ٢٨ .
(٢) المصدر نفسه م١ ج١ / ٣٠ .

من العرب . فلما وجدوه يدعوهم - أول من يدعو - إلى كتاب الله ، بحكم أنهم أعرف به من المشركين ، وأجدر بالاستجابة له من المشركين ، أخذتهم العزة بالإثم ، وعدّوا توجيه الدعوة لهم إهانة واستطالة ! ثم إنهم حسدوا النبى ﷺ حسداً شديداً ، حسدوه مرتين : مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب ، وهم لم يكونوا يشكون فى صحته . وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل فى محيط المدينة .

على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى . ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلتهم عن المجتمع المدنى الذى كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية ، والتجارة الرابحة ، والربا المضعّف ! هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة ، ويذوبوا فى المجتمع الإسلامى . وهما أمران فى تقديرهما أحلاهما مر) (١) .

(وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التى دفعتهم بها هى الصفة الملازمة لهم فى كل أجيالهم من قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا ، مما جعل القرآن يخاطبهم - فى عهد النبى ﷺ - كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى - عليه السلام - وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبارهم جبلة واحدة . سماتهم هى هى ، ودورهم هو هو .. وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان ، ومن ثم يكثر الالتفات فى السياق من خطاب قوم موسى إلى خطاب اليهود فى المدينة ، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين ، ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها .

وهذه السورة التى تضمنت هذا الوصف ، وهذا التنبيه ، وهذا التحذير ، تضمنت كذلك بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة فى الأرض، بعد نكول بنى إسرائيل عن حملها قديماً ، ووقوفهم فى وجهها هذه الوقفة الأخيرة .

تبدأ السورة كما أسلفنا بوصف تلك الطوائف التى تواجه الدعوة أول العهد بالهجرة بما فى ذلك تلك الإشارة إلى - الشياطين - اليهود الذين يرد ذكرهم فيما بعد مطولاً . وتلك الطوائف هى التى تواجه هذه الدعوة على مدار التاريخ بعد ذلك ، ثم تمضى السورة على محورها بخطيه الأساسيين إلى نهايتها فى وحدة ملحوظة تمثل الشخصية الخاصة للسورة مع تعدُّد الموضوعات التى تتناولها وتنوعها .

فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى : المتقين والكافرين والمنافقين ،وبعد الإشارة الضمنية لليهود الشياطين ، نجد دعوة الناس جميعا إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب م١ ج١ / ٣١ ، ٣٢ .

على عبده ، وتحدى المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله ، وتهديد الكافرين بالنار ، وتبشير المؤمنين بالجنة ، ثم التعجب من أمر الذين يكفرون بالله . . . وعند هذا المقطع الذى يشير إلى خلق ما فى الأرض جميعاً تجىء قصة استخلاف آدم فى الأرض .

بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بنى إسرائيل . . تتخللها دعوتهم للدخول فى دين الله ، وما أنزله الله مصدقاً لما معهم مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى ـ عليه السلام ـ وتستغرق هذه الجولة كل هذا الجزء الأول من السورة . ومن خلال هذه الجولة ترتسم صورة واضحة لاستقبال بنى إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه . لقد كانوا أول كافر به، وكانوا يلبسون الحق بالباطل ، وكانوا يأمرون الناس بالبر ـ وهو الإيمان ـ وينسون أنفسهم ، وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وكانوا يخادعون الذين آمنوا . . وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارا ، وكانوا يدّعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم ، كما كان النصارى يدّعون هذا أيضاً ، وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل ـ عليه السلام ـ بما أنه هو الذى حمل الوحى إلى محمد دونهم ، وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ، ويتربصون بهم السوء ، وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك فى صحة الأوامر النبوية ومجيئها من عند الله تعالى ـ كما فعلوا عند تحويل القبلة ـ وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين . . .

وتنتهى هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع فى إيمانهم لهم ، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد ، المؤوفة الطبع كما تنتهى بفصل الخطاب فى دعواهم أنهم وحدهم المهتدون ، بما أنهم ورثة إبراهيم ، وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته ، ويتقيدون بعهده مع ربه ، وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد ﷺ والمؤمنين به ، بعدما انحرف اليهود وبدّلوا ونكلوا عن حمل أمانة العقيدة ، والخلافة فى الأرض بمنهج الله . . .عند هذا الحد يبدأ سياق السورة يتجه إلى النبى ﷺ ، وإلى الجماعة المسلمة من حوله حيث يأخذ فى وضع الأسس التى تقوم عليها حياة هذه الجماعة المستخلفة على دعوة الله فى الأرض ، وفى تمييز هذه الجماعة بطابع خاص ، وبمنهج فى الحياة وفى التصور خاص .

ويبدأ فى هذا بتعيين القبلة التى تتجه إليها الجماعة . . . ثم تمضى فى بيان المنهج الربانى لها ؛ منهج التصور والعبادة ، ومنهج السلوك والمعاملة . . . وفى مناسبات معينة يرجع السياق فى الحديث عن بنى إسرائيل من بعد موسى ، وعن حلقات من قصة إبراهيم ، ولكن جسم السورة بعد الجزء الأول منها ينصرف إلى بناء الجماعة

المسلمة ، وإعدادها لحمل أمانة العقيدة ، والخلافة فى الأرض بمنهج الله وشريعته ، وتمييزها بتصورها الخاص للوجود ، وارتباطها بربها الذى اختارها لحمل هذه الأمانة الكبرى) [1] .

وستتناول الحديث عن سورة البقرة ودورها فى تربية الجيل الأول من خلال نقاط عشر . مراعين ما استطعنا تسلسل الأحداث وترتيب السورة .

١ ـ فئات المجتمع الإسلامى الثلاثة :

فقد أخذ الحديث عن المؤمنين أربع آيات . والحديث عن الكافرين آيتين فى صورتين متقابلتين متضادتين ، بين القلب المنفتح للإيمان بكل أشرعته ومنافذه ، والقلب الموصد عن الإيمان الذى أغلقت كل منافذه وأحكم إغلاقها . فقد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم . وهو إعلان للجيل المؤمن ألا ينتظر طويلاً هؤلاء اليهود الذين أوصدوا الأبواب دون الإيمان كما مثلهم حيى بن أخطب :

ـ أهو هو ؟

ـ نعم والله .

ـ أتعرفه وتثبته ؟

ـ نعم .

ـ فما فى نفسك منه ؟

ـ عداوته والله ما بقيت .

وفى الرواية الثانية : أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً ما بقيت .

ونقف بتفصيل عند المنافقين ؛ لأن القرآن الكريم تولى فضح المخططات المخبوءة والمستورة .

وبالعودة إلى يهود بنى قينقاع نجد النماذج الثلاثة فيهم :

النموذج الأول : عبد الله بن سلام رضي الله عنه وقد انسلخ عن الكيان اليهودى وانضم إلى الصف المسلم .

النموذج الثانى : عتاة الأحبار المعاندين منهم أمثال فنحاص ، ونعمان بن أضأ ، وشاس بن قيس .

---

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب / مقتطفات ١/ ٣٣ ـ ٣٥ .

النموذج الثالث : وهو نموذج المنافقين من الأحبار .

إننا نرجح أن آيات المنافقين فى صدر سورة البقرة إنما تناولت هؤلاء الذين أسلموا نفاقاً من أحبار يهود ضمن خطة خبيثة ماكرة ، وليست تتحدث عن المنافقين من مشركى العرب من الأوس والخزرج والذين تزعمهم عبد الله بن أبى ـ وإن كانت الأوصاف واحدة ـ فابن أبى إنما أسلم بعد بدر عندما رأى الأمر قد توجه ، أما المنافقون من اليهود فيحدثنا عنهم ابن إسحاق فيقول :

(من أسلم من أحبار يهود نفاقاً :

وكان ممّن تعوذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود . من بنى قينقاع : سعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، ونعمان بن أوفى بن عمرو ، وعثمان بن أوفى ، ورافع بن حريملة ـ وهو الذى قال عنه الرسول الله ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حين مات : « قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين » . ورفاعة بن زيد ابن التابوت . . وسلسلة بن برهام ، وكنانة بن صوريا . وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ، ويسخرون ويستهزئون بدينهم) (١) .

وكان المسلمون يرون بين ظهرانيهم هؤلاء الأحبار الذين يزعمون أنهم مسلمون ، وفى قلوبهم حرقة ؛ لما يرون من كذبهم ، وغمزهم للمسلمين ، والبحث عن الشبه لإثارتها، فماذا يفعلون. هل يواجهونهم بكذبهم وتقع المشادة بينهم ؟ كيف يكون لهم ذلك مع هذا الادعاء ؟ ! فجاء القرآن وأثلج صدورهم بفضيحة هؤلاء المخادعين: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾** (٢) ولعل النصائح كانت توجه لهم من سادة الأوس والخزرج للإقلاع عن هذه التناقضات ، فيزدادون تبجحاً : **﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾** (٣) .

فالجيل العظيم يتربى بالقرآن ليخوض معركته به على بينة ، ورسول الله ﷺ فى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٩٨ ـ ٢٠٠ .
(٢) البقرة / ٨ ـ ١٠ .
(٣) البقرة / ١١ ـ ١٦ .

المسجد علانية يتلو هذه الآيات فى هؤلاء المنافقين الذين يظنون أن لعبتهم مستورة . فماذا بعد أن فضحها القرآن : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ (١) .

فقد مضوا فى طريقهم إلى غير رجعة وأصروا على ظلمات النفاق : ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (٢) .

٢ ـ دعوة إلى الإيمان :

حيث تترى الآيات فى بيان خلق الله للكون ، وأنزل الوحى على رسوله محمد ﷺ وعاقبة الإيمان بالجنة ، وعاقبة الكفر بالنار، ثم التعقيب على الذين يتجرؤون على الوحى من اليهود والكافرين حين يتبجحون بالسؤال : ﴿ **مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا** ﴾ .

(قال السدى فى تفسيره ، عن ابن عباس ،وابن مسعود ، عن ناس من الصحابة:

لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ـ يعنى قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا** . . ﴾ ، وقوله : ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ** . . ﴾ ، الآيات الثلاث ـ قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ (٣)) (٤) .

فقد كانت هذه الآيات شفاءً لصدور المؤمنين ، فى الحديث عن المنافقين عامة ، ومنافقى اليهود خاصة ، هؤلاء الأحبار الذين كشفوا عن خبيئتهم فقالوا : الله أعلى وأجل من ذلك ، فقال لهم الله تعالى : إنهم هم الفاسقون الذين نقضوا عهد الله بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا فى الأرض ، ولا جرم أن تكون لهم الخسارة فى الدنيا والآخرة .

---

(١) البقرة / ١٧ ، ١٨ .
(٢) البقرة / ١٩ ، ٢٠ .
(٣) البقرة / ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١١١ .

لقد كان هذا الجيل يعيش هذه المواقف والأحداث بأعصابه ومشاعره ، وينقلب بالآيات القرآنية وقد فضحت المنافقين ، فيملأ وقته ولحظاته فى تلاوتها. وهى تعبر عما يكن فى أعماقه نحو هؤلاء المنافقين .

٣ ـ آدم والاستخلاف فى الأرض والشيطان :

كيف كانت قصة خلق الإنسان الأولى عند العرب كما يسمعونها من اليهود؟

فى الإصحاح الثالث من التوراة نقرأ القصة الأولى للإنسان :

(وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات البرية التى عملها الرب الإله. فقالت للمرأة : أحقاً قال الله لا تأكلا من شجر الجنة . فقالت المرأة للحية : من ثمر الجنة نأكل ، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله : لا تأكلا منه ولا تمساه ؛ لئلا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين للخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعين ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل . فانفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان ، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر ، وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها ؟ قال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذى فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية غرّتنى فأكلت . فقال الرب الإله للحية :

لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ، ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها ، وهو يسحق رأسك ، وأنت تسحقين عقبه .

وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حملك ، بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجُلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك .

وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك ، وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها . ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل ، بعرق وجهك تأكل خبزاً ، قد تعود إلى الأرض التى أُخذت منها لأنك تراب ، وإلى التراب تعود . ودعا آدم امرأته حواء لأنها أم لكل شر . وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما ، وقال الرب

الإله : ها هو ذا الإنسان صار كواحد منا عارف الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن لعمل الأرض التى أخذ منها. فطرد الإنسان ، وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم . ولهب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة) (١) .

لقد كانت قصة مليئة بالأساطير ، يكتنفها الغموض ، وتمثل صراعاً بين الله والشيطان ، ونصراً للشيطان فى النهاية ، وانتقاماً إلهياً من هذا النصر الذى تفلت من يد الله . والحية وحواء والشجرة وما رافقها من خرافات . والعرب عاجزون ولا مصدر فى هذا الوجود عندهم للعلم إلا ما تقدمه لهم كتب التوراة ، وتجعل النفس البشرية لا تطمئن للحادثة ، وتعجز عن الوصول إلى كنهها وحقيقتها . ولوجود مثل هذه الألغاز والأساطير واليد البشرية فى الكتاب ، نفر العرب من اليهودية ، وابتعدوا عنها واستساغوا الوثنية أكثر مما استساغوا اليهودية على ضلال الوثنية وخرافاتها .

وإذا بهؤلاء العرب الأميين العالة على فتات علم اليهود ، إذ بهم فى وثبة واحدة هم أتباع النبى المصطفى الذى بشرت به رسالات السماء . وها هم يتلقون القصة الأولى للبشرية غضة حية من فم محمد ﷺ بلسان عربى مبين ، وبكلام الله عز وجل لا كلام البشر . فيستمعون إليها ، وإلى قصة أبيهم آدم ، وقصة وجودهم على هذه الأرض بأجلى بيان ، وأبلغ لغة : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٢) .

وتتشبع القلوب العامرة المتفتحة بالإيمان ، وتتسع المعرفة بالعلم الربانى الخالص كما هى فى كتاب الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا

(١) الإصحاح الثالث : سفر التكوين ٣ ، ٤ ص ٦٠ / ٧ صفحة .
(٢) الإسراء / ٨٨ .

اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

٤ ـ دعوة .. وتهديد :

هؤلاء الذين كانوا على سدّة العلم فى الأرض العربية ، والذين يزعمون أنهم شعب الله المختار ، والذين يهددون بقتل خصومهم من العرب مع النبى الذى أظل زمانه . ولا يعرفه أحد غيرهم فصفاته عندهم ، فتح عليهم حبرهم عبد الله بن سلام ثغرة لا ترتق أبداً . بعد أن أكّد لهم أنه هو ، وبعد أن انتزع اعترافهم أنه سيدهم وابن سيدهم وعالمهم وابن عالمهم ، وخيرهم وابن خيرهم ، وكانت فضيحة العصر لهم أن قلبوا ظهر المجن لسيدهم وعالمهم ، وتنكروا لما قالوه وراحوا يصمونه بأنه شرهم وابن شرهم . هؤلاء جاء القرآن الكريم تتردد به جنبات المسجد ، وينقلب به كل مؤمن إلى بيته يتلوه على أهله ، ويشف صدره، ويذهب غيظه عن هؤلاء الفجرة الكفرة ، فلم يعد المسلم الذى تلقى هذه الآيات من فم النبى ﷺ عن جبريل عن رب العالمين ، لم يعد يخشى بعد اليوم لقاء يهودى أو يجمجم بين يديه أو يصمت حائراً أمام تلبيسه . فقد أعطاه القرآن سلاحاً يواجه به هؤلاء الطواغيت . وتأتى الآيات حلقة حية من حلقات التربية ، تنطلق من المسجد لتعمر كل قلب ، وتحيى كل نفس ، وتغدو على كل لسان . تأتى هذه الآيات الكريمة من الله سبحانه بلسما وشفاء من عقدة الاستعلاء اليهودية ، وتحيى كيان القلب المؤمن أنه على حق ، وأنه هو الذى يمثل الحق فى الوجود ، خلف نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام : **﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ . وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ . الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾** (٢) .

---

(١) البقرة / ٣٠ ـ ٣٩ .

(٢) البقرة / ٤٠ ـ ٤٦ .

٥ ـ القرآن ينشر فضائح اليهود :

وانتظر المسلمون عقب هذه الآيات ، وبعد هذا البيان الجلى الواضح أن تتحرك أفواج اليهود إلى النبى طائعة مختارة . فماذا بعد أن خاطبهم الله تعالى بكلامه المبين ، يدعوهم إلى الإيمان بالنبى ﷺ ؟ ومرت الساعات ساعة بعد ساعة ، والأيام تترى يوماً بعد يوم ، وفى كل لحظة يتوقع المؤمنون أن يأتى أحبار اليهود يعلنون إسلامهم وولاءهم للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولكن دون جدوى ، ويعجب المؤمن أشد العجب : أبعد دعوة الله دعوة ؟ وبعد تهديد الله تعالى تهديد ؟ ماذا ينتظرون وهم المؤمنون المصطفون أهل الكتاب الأول ، أهم على استعداد لحرب ربهم سبحانه ،وبه كانوا يقاتلون وباسمه كانوا يستعلون على الناس ؟

بقى هذا الجيل العظيم الرائد الذى يتأدب بما يؤدبه الله به ، وينطق بما ينطق به رسوله العظيم . بقى هذا الجيل المعد لقيادة البشرية وهو لا يدرى ذلك ، تتردد فى قلبه التساؤلات. أيعقل أن يكون هؤلاء شعب الله المختار ؟ وهم يتلكؤون أمام دعوة ربهم ! هل هذا موقف جديد أم لهم مواقف مشابهة من قبل مكتومة عن الناس يخفونها عنهم؟ ولكنه جيل يتربى على عين الله ، ويشرف على تربيته سيد ولد آدم وإمام البشرية كلها محمد رسول الله ﷺ ، ينتظر كل يوم جديداً من عند الله سبحانه فى طبيعة علاقته مع اليهود الذين يجاورونه . ماذا بعد أن دعوا للإيمان ورفضوا ؟ ماذا بعد أن هددهم الله تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ ، ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُون ﴾ ، ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ . إنهم ينتظرون كما أدبهم نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويرددون ما سمعوه من لسان نبيهم المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام .

وكانت السعادة الفائقة واليقين الخالص والطمأنينة الكاملة ، والسكينة الغامرة . فها هو ملف يهود يفتح فى مسجد النبى ﷺ كما جاء به الصادق المصدوق عن رب العالمين .

إنه ملف كامل لتاريخهم فى أهم حلقاته . وفى هذا الملف أصبحوا عراة تماماً من كل ثوب ، وسقطوا وسقطت كل الأقنعة المصطنعة التى كانوا يتسترون وراءها .

أ ـ نعم لقد أكد القرآن الكريم أنهم اختارهم وفضلهم على العالمين . وهذا الادعاء صحيح : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (١) .

(١) البقرة / ٤٧ ، ٤٨ .

ب ـ ونعم ، للمعجزات الكبرى فى نصرهم على فرعون وملئه : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (١).

جـ ـ ونعم ، لمناجاة موسى ربه ، ونعم أنه كليم الله . لكن الجديد الذى أعلن وصعقهم هو فعلهم الشنيع فى غياب موسى ؛ إذ كفروا بالله وعبدوا العجل ، فلأول مرة تكشف هذه السوأة القبيحة فيهم .

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

د ـ ونعم ، للكتاب الذى أنزل على موسى ـ عليه الصلاة والسلام . وهم أهل الكتاب الأول : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

هـ ـ لكن لماذا يخفون العقوبة الربانية التى جاءتهم من الله لاتخاذهم العجل رباً من دون الله ؟ فلم يأت العفو إلا بعد أمرهم بقتل أنفسهم : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

و ـ وتأتى الفضيحة الثانية الكبرى ، فهم يرفضون الإيمان بالله حتى يرونه، والذى فعل ذلك السبعون المصطفون من القوم مثل السبعين الذين بايعوا فى العقبة . وإن كان هذا الأمر لم يوضح للمسلمين بهذه التفصيلات لكنها سمة وجبلة سيئة فيهم ، ألا يؤمنوا بالله حتى يروه جهرة . ويحس الجيل السعيد بعظمة إيمانه واستعلائه فيه ، حين استجاب لله ورسوله من الظلمات الأولى من الصادق المصدوق ، أو من رسوله :
﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥) .

فلئن كانت العقوبة الأولى أن يقتلوا أنفسهم ، وما فعله إلا قليل منهم ـ أما الآن فقد كانت العقوبة مباشرة بيد الله سبحانه ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون .

ز ـ ونعم ، لمعجزات الغمام والمن والسلوى بعد العقوبة على الجريمة الثانية .

---

(١) البقرة / ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) البقرة / ٥١ ، ٥٢ .
(٣) البقرة / ٥٣ .
(٤) البقرة / ٥٤ .
(٥) البقرة / ٥٥ ، ٥٦ .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

ح - وتأتى الفضيحة الثالثة ، والجريمة النكراء ؛ أن يستعلى هذا الجيل المصطفى من اليهود عن طلب المغفرة من الله ، ويتخذ آيات الله هزوا ، ويقول حنطة بدل من حطة . فيبدل كلام الله ويغيره استهزاء واستخفافاً بالله وآياته . وكان الرجز من السماء بعد الصاعقة : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٢) .

ويفسرها رسول الله ﷺ لصحبه فيما بعد :

(عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « قال الله لبنى إسرائيل : ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ (٣) فبدّلوا ودخلوا الباب يزحفون على استاههم فقالوا : حبة فى شعرة » . وهذا حديث صحيح رواه البخارى عن إسحاق بن نصر ، ومسلم عن محمد بن رافع ، والترمذى عن عبد الرحمن بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به) (٤) .

والرجز : الغضب ، أو الطاعون ، أو البرد ، أو العذاب ؛ كما ورد فى التفاسير .

ط - ونعم ، للماء يتفجر فى الصحراء ، وإن كان وجودهم فيها غضب وعقوبة وتربية : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٥) .

ى - ولكن نفاد صبرهم ، هو الفضيحة الرابعة . وكفرهم بآيات الله هو الفضيحة الخامسة . وقتلهم أنبياءهم هو الفضيحة السادسة . وقد انتظمت هؤلاء جميعاً آية واحدة : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ

---

(١) البقرة / ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) البقرة / ٥٩ .
(٣) البقرة / ٥٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٧٢ .
(٥) البقرة / ٦٠ .

بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُون ﴾ (١) .

ك ـ لكن هذا لا ينفى وجود بعض النماذج الخيرة فيهم ؛ كنموذج عبد الله بن سلام الذى شهده الجيل الرائد ، ونموذج ميمون بن يامين ، فينتظم مع غيرهم وحدة الحق الذى ينتمون إليه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ (٢) .

لكن جمهورهم الأعظم فيما مضى مثل جمهورهم الأعظم فى المدينة . وبعد دعوة الله تعالى لهم للإيمان بالله ورسوله ، جمهورهم الأعظم مختوم عليهم بغضب الله ، ومضروب عليهم الذلة والمسكنة ؛ لأنهم يكفرون بآيات الله كما كفروا اليوم ، ولأنهم ـ ياللفظاعة ـ يقتلون أنبياء الله بغير حق ، فهم أذلة بما عصوا وبما كانوا يعتدون ، فالاعتداء جبلة مستمرة عندهم لا تنقطع .

ل ـ ونعم ، لرفع الجبل فوقهم كأنه ظلّة ؛ لكى يروا المعجزة ويستسلموا لله طائعين منيبين . لكنها الفضيحة السابعة ـ تولوا بدل أن ينيبوا وأخذوا الكتاب يبتغون به عرض الحياة الدنيا بدل أن يأخذوه بقوة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِين ﴾ (٣) .

م ـ وكانت الفضيحة الثامنة فى الفريق الذى نهى عن العمل يوم السبت فرمى نهيه وراء ظهره ، وراح يحتال على الصيد ، فكانوا قردة خاسئين : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِين ﴾ (٤) .

إنه تاريخ أسود لهؤلاء اليهود الذين كانوا قبل هذه الآيات يتبجحون ويتباهون بحب الله لهم ، وبمعجزات أنبيائهم ، فإذا العقوبات عليهم من القتل ، إلى الصاعقة ، إلى الرجز ، إلى المسخ قردة وخنازير هى جزء أساسى من تاريخهم .

---

(١) البقرة / ٦١ .
(٢) البقرة / ٦٢ .
(٣) البقرة / ٦٣ ، ٦٤ .
(٤) البقرة / ٦٥ ، ٦٦ .

ن ـ وتأتى الفضيحة التاسعة ، فضيحة ذبح البقرة والصورة السوداء التى انتهوا بعدها لتلكؤهم وتمحكهم فى ذلك : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

س ـ وتأتى الفضيحة العاشرة ، حين يضيع الحق بينهم ، ويضيع المجرم القاتل، ويتواطؤون على كتمانه ، يراق دم المقتول هدراً حتى يفضحهم الله بعد ذبح البقرة . فإذا قلوبهم قلوب الشياطين وأشد ، كما يفضحهم القرآن بذلك : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وسواءً كانت هذه الفضائح العشر ، أتت متتالية فى وقت واحد ، أو تنزلت على فترات متقطعة ، لكنها أنهت أسطورة التفوق اليهودى ، وأسطورة شعب الله المختار ، وأسطورة النطق باسم الله ، وادعاء أنهم حزبه وجنده . ولم يعد فى ذهن أى فرد من هذا الجيل الرائد أى لبس أو شك فى دجل هذا الفريق الضال، وكذبه على الله وعلى رسله ، وأصبحوا ساقطين يحملون كل تاريخ الكفر والضلال والعداء للأنبياء .

هذا الجانب الأول من التربية الذى تم من خلال هذه الآيات البينات ، فقد فُضح العدو فضحاً كاملاً وتوحدت قناعات المئتين أو الأكثر ، بالنسبة لهذا العدو ؛ بحيث أصبح كل صحابى يملك من القوة الفكرية والعلمية ، ما يرد به على ادعاءات اليهود ، ويفند كذبهم ودجلهم ، ويفضح تاريخهم .

أما الجانب الثانى : فهو وحدة الثقافة ووحدة التربية وهو الصبغة الجديدة للتربية العامة من خلال المسجد بعد أن قامت دولة الإسلام . فالجميع يلتقون فى هذا المسجد

---

(١) البقرة / ٦٧ ـ ٧١ .
(٢) البقرة / ٧٣ ، ٧٤ .

الجامع أو الجامعة ، والجميع يحضرون الصلاة جماعة فيها لا يتخلف عنها إلا منافق مغموص النفاق ، والجميع يستمعون إلى آيات الله تتلى عليهم . فتنسكب فى قلوبهم ، وتزيديهم إيماناً إلى إيمانهم ، وهدى إلى هداهم ، وتقوى إلى تقواهم .

والجانب الثالث: وهو الجانب الأهم الذى تعلمه هذا الجيل القائد من هذه الآيات ، أن الله تعالى لايحابى أحداً من خلقه ؛ فالله تعالى الذى اصطفى بنى إسرائيل على العالمين ، وبعث فيهم رسولاً منهم ، وجعله كليمه ، وأعطاه من المعجزات الباهرات ما قهر به عدوه وأغرقه ، ومكن لقومه فى الأرض ، الله تعالى الذى أعطى هذه المعجزات الخالدات بالعصا تلقف ما يأفكون ، وبالعصا يضرب موسى البحر فيغدو يبساً لجيشه ، وبالعصا يضرب البحر فيغدو غرقاً لعدوه ، أقول : رغم كل هذه المعجزات وموسى كليم الله بين ظهرانيهم ، حين عصوا ، وحين كفروا ، وحين اتخذوا العجل ، وحين قالوا: أرنا الله جهرة ، وحين بدلوا كلام الله وقالوا حبة فى شعرة ، حين فعلوا ذلك ، لم يعفهم وجود نبيهم بينهم من العقوبة ، فحكم عليهم بقتل أنفسهم ، وأخذتهم الصاعقة بين يدى نبيهم ، ونزل عليهم الرجز بين يدى نبيهم ، ومضوا إلى التيه أربعين عاماً بين يدى نبيهم . فما الذى يمنع من عذاب الله وسخطه وعقوبته لو تخلى هذا الجيل عن مسؤوليته ، ونكث فى بيعته ، وعصى أوامر ربه ؟

إن هذه الآيات فى الحقيقة لتمثل دورة تدريبية كاملة ، عُرض فيها تاريخ أمة كاملة، انبثقت بين يدى نبى ومن كتاب مثل هذه الأمة . والله تعالى هو الذى يعرض فيها على لسان نبيه نقاط القوة ونقاط الضعف بشكل متسلسل متكامل ، يتعلم فيها هذا الجيل المسلم من هو عدوه ، ويتعلم كيف يتجنب عثرات عدوه . إن القادة العسكريين والسياسيين يدرسون دائماً تجارب من قبلهم دراسة فاحصة ؛ ليتعرفوا من خلالها على عوامل النصر ، وعوامل الهزيمة ، ويدرسون نفسيات أعدائهم ، وطبائعهم فيتعاملون من خلالها معهم ، وكلما كانت القيادات أعمق تجربة ، وأوسع اطلاعاً ، وأرحب أفقاً كلما كانت قادرة على تحقيق النصر ، وتجنب الهزيمة ، والقدرة على المحافظة على النصر .

وهذا الجيل القائد من المهاجرين والأنصار ، والذى كان يعد ليقود البشرية كلها ، ها هو الآن يخضع لهذه الدورة الطويلة الأمد التى بلغت قرابة سنة ونصف يتعرف من خلالها على تاريخ اليهود وطبائع اليهود ، وخلق اليهود ، كما يتعرف على عوامل نصرهم ، وعوامل هزيمتهم ، وعوامل عون الله لهم ، وسنن نصر الله لهم ، وسنن إخفاقهم وسنن هزيمتهم وسنن خذلان الله لهم ، وتخلى الله عنهم ، بحيث يأخذ كل درس مداه فى تفصيلات لاحقة وردت فى سور آل عمران، والنساء ، والمائدة ،

والأعراف وغيرها ؛ بحيث تؤخذ كل خطيئة على حدة فتعرض تفصيلاتها ، ويتم التركيز على الجوانب الرئيسية فيها من خلال هذا التفصيل ، علماً أن المعركة الآن هى مع المشركين فى مكة . أما اليهود فالموادعة معهم قائمة ،والسلم معهم قائم . وهم مشاركون فى المجتمع الإسلامى، ومقر ومعترف بوجودهم فيه حسب ما نصت عليه وثيقة المدينة الأولى .

هذا من الجانب النظرى ، أما من الجانب العملى ، فالنموذج الحى السيئ بين ظهرانيهم ، يرونه كل يوم ، يلتقون معه ، ويتحاورون معه ، ويناظرونه ، ويرون بأم أعينهم ختله ، ودجله ، وكفره ، ونفاقه ، وزيفه ، ويشهدون مؤامراته، وافتراءاته ، وادعاءاته وكيده .

فالصورة النظرية تعرض عليهم من رب السموات والأرض خلال الدورة التدريبية المكثفة ، والصورة العملية يتعاملون معها صباح مساء ؛ لتكون التطبيق العملى لهذه الأمة الساقطة التى انتزعت منها الرسالة ؛ لأنها لم تعد أهلاً لذلك.

٦ ـ مع اليهود وجهاً لوجه ، المناظرات الاثنى عشر :

وكما جاءت الآيات تقول فى أول الدعوة للرسول القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾** (١) .

أ ـ جاء القرآن الكريم الذى انبثق منه هذا الجيل وتشربه روحه ليقول لهم عن هذا العدو : **﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ . أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾** (٢) .

ب ـ أغلق الملف الماضى ، وفتحت الصفحة الحديثة التى تظهر أنهم على خطا من سبقهم ؛ كفراً وضلالاً . وها هم الآن تضاف لهم سحنة جديدة وسمة جديدة اختارها أكابر مجرميهم من بنى قينقاع ؛ فأعلنوا إسلام فريق من أحبارهم ضمن مهمة سرية أن

---

(١) الأنعام / ٣٥ .

(٢) البقرة / ٧٥ ـ ٧٩ .

يلبسوا على المسلمين دينهم . فهم يسمعون كلام الله تعالى فى القرآن الكريم [1] ، ولن يسمعوه إلا إذا دخلوا إلى الصف المسلم ، وحضروا إلى المسجد وصلوا مع المسلمين .

وحتى لا تقع الخديعة ، ويغرق بعض المسلمين فى علاقات خاصة معهم على أنهم إخوانهم ، يأتى القرآن ليضعهم ضمن القائمة السوداء . فهم دخلوا فى الإسلام ليتمكنوا من تحريف كلام الله بعد ما عقلوه واستوعبوه . فهى مؤامرة داخلية ، يربى القرآن هذا الجيل القائد على الوعى منها ومن أحابيلها ، وذلك فى وضع تصرفات هؤلاء المشبوهين تحت المراقبة ، ويرتفع هذا الجيل القائد بوعيه على هؤلاء المتآمرين .

فهم يقولون للذين آمنوا : آمنا ، وفى الليل وتحت جنح الظلام يمضون ليدرسوا هذه الآيات ، ويدرسوا الخطة التى وضعوها للتشويش والدس. هل تنجح ، أم تفشل. ويعيدون النظر فى الخطة ، وخطورة إعلان الإيمان .

(قال السدى : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا . وكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وغير واحد من السلف والخلف حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما رواه ابن وهب عنه : كان رسول الله ﷺ قد قال : « لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن» . فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق : اذهبوا فقولوا : آمنا . واكفروا إذا رجعتم إلينا . فكانوا يأتون المدينة بالبكر ، ويرجعون إليهم بعد العصر ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [2] . وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره . فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر . فلما أخبر الله نبيه ﷺ ذلك ، قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فقالوا : ﴿ **أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُم** ﴾ [3] . قال : كانوا يقولون : سيكون نبى فخلا بعضهم إلى بعض . فقالوا : ﴿ **أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم** ﴾ [4] .

هذا هو النموذج الأول .

أما النموذج الثانى : فهم الأميون الجهلة من اليهود الذين لا يعرفون من كتابهم إلا أنهم شعب الله المختار ، وأنهم خيرته من خلقه .

---

(١) هناك تفسير آخر أن المقصود بكلام الله : التوراة .
(٢) آل عمران / ٧٢ .
(٣) البقرة / ٧٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٢ .

وأما النموذج الثالث ـ وهو أخطر النماذج ـ : هم علماء السوء الذين لا يكتفون بتحريف كلام الله ومقصوده بألسنتهم بل يتجرؤون على الله ، ويكتبون بأيديهم وما تمليه أهواؤهم فى كتاب الله ، ويقولون : هذا من عند الله .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُون ﴾ (١) .

جـ ـ ولأول مرة يتعرف الجيل القائد على هذه النماذج الثلاثة ، وخاصة النموذج الأخير . ويعرفون أن كثيراً مما يزعمه اليهود أنه من عند الله ، وأنه من كتاب الله التوراة، إنما هو من عند الأحبار الكفرة المارقين الذين باعوا دينهم بدنياهم ، واشتروا به ثمناً قليلا .

وحين كشف أمرهم للمسلمين بأنهم دجالون يضيفون من عندهم كلاماً وينسبونه إلى الله ، راح المسلمون يحذرونهم مغبة كفرهم ، وافتراءاتهم على الله عز وجل ، ويتلون عليهم تهديد الله لهم : **﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُون ﴾** .

فمضوا يواجهون المسلمين بـاستخفاف قائلين : **﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَة ﴾** (قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : **﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَة ﴾** يعنى : الأيام التى عبدنا فيها العجل . وقال عكرمة : خاصمت اليهود رسول الله ﷺ . فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة . وسيخلفنا فيها قوم آخرون (يعنون محمداً ﷺ وأصحابه) . فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم: « بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد » (٢) .

ومضى المسلمون يردون فرية اليهود بقول الرسول المصطفى ﷺ ، ويعاود اليهود الكرة يكذبون . فجاء البلسم الشافى قرآناً يتلى ، ويصوغ هذه الحادثة ، وتصاغ قلوب المؤمنين بهذا القرآن كذلك :

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ . بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴾ (٣) .

د ـ وراحت الآيات تترى بأن أكثرهم فاسقون ناقضون لميثاق الله الذى أخذ منهم :

---

(١) البقرة / ٧٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٧ .
(٣) البقرة / ٨٠ ـ ٨٢ .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

لقد انهار جدار احترام اليهود بعد الفضائح الإلهية لهم ، فهم حتى فى أخص ما يدعون إليه من عبادة الله وطاعته ، متخلون عن هذه الطاعة وهذه العبادة إلا القليل منهم . وهذا القليل فى المدينة انضم إلى الصف الإسلامى ، وبقى الأكثرون ذوو القلوب الصلدة الجاسية القاسية .

هـ - وهذا نقض ميثاق آخر ، أعلم الناس به هم الأوس والخزرج .

قال ابن إسحاق : (فى قوله تعالى : **﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾** على أن هذا من حق ميثاقى عليكم **﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾** أى : أهل الشرك حتى يسفكوا دماءهم معهم ويخرجون من ديارهم معهم ، **﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾** أى : أتفادونهم مؤمنين بذلك ، وتخرجونهم كفاراً بذلك . **﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾** (٢) .

فكانوا فريقين : منهم بنو قينقاع ولفّهم حلفاء الخزرج ، والنضير وقريظة ولفهم حلفاء الأوس ، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب ، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج ، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم ، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم . والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا نارا ، ولا بعثا ولا قيامة ، ولا كتاباً ، ولا حلالاً ولا حراما . فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما فى التوراة وأخذ به بعضهم من بعض ؛ يفتدى بنو قينقاع من كان من أسراهم فى أيدى الأوس ، وتفتدى النضير وقريظة ما فى أيدى الخزرج منهم ، ويُطلُّون (٣) ما أصابوا من الدماء ، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل

---

(١) البقرة / ٨٣ . (٢) البقرة / ٨٤ - ٨٦ .

(٣) يطلونهم : يبطلونهم .

الشرك عليهم ، يقول الله تعالى لهم حين أنّبهم بذلك : ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾ أى : تفاديه بحكم التوراة وتقتله ، وفى حكم التوراة ألا تفعل ، تقتله وتخرجه من داره ، وتُظاهِر عليه من يشرك بالله ، ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا . ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج ـ فيما بلغنى ـ نزلت هذه القصة) (١) .

ويسمع المهاجرون والأنصار هذه الآيات تتلى ، وتدمغ اليهود بالإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر ، فتسبح أرواحهم بحمد الله أن عافاهم من هذا البلاء . ويتنفسون الصعداء شكراً لله أن نقلهم من الظلمات إلى النور بهذا الكتاب . فصاروا يعرفون الله تعالى والدار الآخرة والحلال والحرام ، ونبذوا الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وصاروا خلقاً آخر ، كأنما بعثوا من جديد .

و ـ وهذه الميزة التى كان يتبجح بها اليهود ، أنهم الملوك ، وأن الأنبياء فيهم ، وليس عند العرب نبى منهم ، سرعان ما تكشف الخبث الكبير منها وهو الذى فضحهم الله تعالى بهم أولاً وهو يؤكدها عليهم ثانياً . فصحيح أنهم أمة الأنبياء ولكن الصحيح كذلك أنهم قتلة الأنبياء : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾ (٢) .

فليس موقفهم من رسول الله ﷺ موقفاً جديداً لأول مرة ، بل هو موقف أصيل عندهم يكاد يكون سمة لازمة بهم من سماتهم. وتكذيبهم واضح من موقفهم: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (٣) . فهى مغلفة لا تفقه ، وليست مستعدة لأى جديد يدخل عليها .

لكن قتل الأنبياء جعل فى قلوب المؤمنين حساسية خاصة أن يقدم هؤلاء على قتل محمد ﷺ ، ويخططوا لذلك . والقرآن أشار إلى ذلك ليأخذ المسلمون أهبتهم وحذرهم من هذا العدو المقنع والذى بدأ يكشر عن أنيابه رويداً رويداً .

ز ـ وحيث الحديث عن تكذيب الأنبياء وقتلهم واللغط الذى رافق رفضهم الإيمان بالنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه . والمؤمنون يستمعون كل يوم إلى جديد يتحفهم الله به من عنده . ولا تزال الدورة التدريبية معقودة فى عرض الماضى اليهودى ، وفى فقه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) البقرة / ٨٧ .

(٣) البقرة / ٨٨ .

الحاضر على ضوء الماضى . ابتهجت قلوب المؤمنين بالتفصيل المناسب لأسباب الكفر اليهودى الذى تغلغل فى أعماقهم ونشر الحقد والحسد والضغينة التى كانت تحكمهم من موقفهم من النبى ﷺ بحيث لا يبقى فى ذهن أى مسلم لحظة من اللحظات أن عدم الإيمان لجهلهم أو عدم تثبتهم من نبوته . والله تعالى خالق الخلق ، هو الذى يبرز هذا المأفون المدفون : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ (١) .

(قال محمد بن إسحاق : أخبرنى محمد بن أبى محمد ، أخبرنى عكرمة أو سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس : أن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة: يا معشر اليهود ، اتقوا الله وأسلموا . فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكر لكم فأنزل الله ذلك من قولهم : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ** ﴾ الآية . وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ **وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ يقول : يستنصرونه بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب ـ يعنى بذلك أهل الكتاب . فلما بُعث محمد ﷺ ، ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه) .

﴿ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ (٢) .

وإذا كان هذا موقفهم مع نبيهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلا غرو أن يكون هذا الموقف مع محمد بن عبد الله ﷺ ، لقد دخلت المعصية كل ذرة فى كيانهم ، وأشربوا حب العجل الذى يمثل الخروج على الله فى أعماقهم : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ**

---

(١) البقرة / ٨٩ .
(٢) البقرة / ٩٠ ـ ٩٢ .

الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ح ـ المعركة مستمرة واليهود يدَّعون كل يوم جديداً ، ويزعمون كل يوم زعماً . قد جاءهم ما أقضّ مضجعهم ، وفضح ألاعيبهم . ولابد أن يعدوا ، صدقاً أوكذباً ، ما يشوهون به الصورة الوضيئة للورثة الجدد حملة كتاب الله . وهاهم اليوم يزعمون أن الجنة لهم وحدهم ، فهم أصحابها . ولا يدعهم الله عز وجل فى قلب هذه المعركة يشهرون سلاحاً إلا فله . فجاء الجواب الربانى الحاسم الذى يتحداهم : **﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾** (٢).

وكما قال ابن عباس : فهم أجبن من أن يتمنوا الموت : (لو تمنى اليهود الموت لماتوا) أو لشرق أحدهم بريقه. وفى رواية للإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قوله :

« لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » (٣) .

ط ـ ثم كان مؤتمر على مستوى عالٍ بين اليهود وبين رسول الله ﷺ شدَّ إليه أنظار الجيل الرائد . وكان قريباً من ذلك المؤتمر العام الذى عقد فى مكة وحضره قادتها جميعاً وتم استعراض جميع الحلول المقترحة لوضع مكة . واليهود اليوم يقصدون وراء هذا المؤتمر نوعاً من إثارة البلبلة ، لكن رسول الله ﷺ حوّله إلى كسب عظيم للجانب الإسلامى ، حيث لم تأت شهادة مفردة من حبر واحد كما هو الحال عند عبد الله بن سلام رضي الله عنه . بل جاءت الشهادات من جلِّ أحبار اليهود بصدق رسول الله ﷺ وصدق نبوته ورسالته. لكنهم جحدوا فى اللحظة الأخيرة تحت عذر أوْهَى من خيط العنكبوت، وتملصوا به من إعلان إسلامهم. لكنها كانت دفعة إيمانية جديدة للجيل الأول.

(عن شهر بن حوشب قال : قال ابن عباس :

حضرت عصابة من اليهود نبى الله ﷺ يوماً فقالوا : يا أبا القاسم ، حدِّثنا عن

---

(١) البقرة / ٩٣ .

(٢) البقرة / ٩٤ ـ ٩٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢٢٢ .

خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى . قال : « سلونى عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب ـ عليه السلام ـ على بنيه لئن حدَّثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام ؟ ! » قالوا: فذلك. قال: « فسلونى عما شئتم » .

قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن : أخبرنا أى الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل كيف يكون الذكر منه ؟وأخبرنا كيف هذا النبى الأمى فى النوم ؟ومن وليه من الملائكة ؟ .

قال : « فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعنى » . فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق قال : « فأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ﷺ هل تعلمون أن إسرائيل ـ يعقوب عليه السلام ـ مرض مرضاً شديداً وطال سقمه ، فنذر لله لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه ، وأحب الطعام إليه . وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل . وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ » .

قالوا : اللهم نعم . قال : « اللهم اشهد عليهم » .

« فأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله . إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله تعالى . وأن علا ماء المرأة كان أنثى بإذن الله ! » .

قالوا : اللهم نعم . قال : « اللهم اشهد عليهم » .

« فأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ » .

قالوا : اللهم نعم . قال : « اللهم اشهد عليهم » .

قالوا : وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك.

قال : « فإن وليى جبريل ـ عليه السلام ـ ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه » .

قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك . قال : « فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ » قالوا : إنه عدونا .

قال : فعند ذلك قال الله عز وجل : ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ** .. ﴾ (١) إلى قوله عز وجل :﴿ .. **كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا**

---

(١) البقرة / ٩٧ .

يعلمون﴾ (١) ، فعند ذلك : ﴿ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ الآية) (٢) .

لقد انتهى المؤتمر بإعلان صدق رسول الله ﷺ ، وأنه النبى الأمى المنتظر الذى تنام عينه ولا ينام قلبه ، وأن وليه جبريل من الملائكة . لكنهم قرروا أن يفارقوه ويعادوه لا لأن الحقيقة غير واضحة ، بل لأنه والى جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عدوهم . ولو تولى غيره لكذبوه . فهم يعلمون أنه ولى رسل الله من الملائكة ، وما بعث الله نبياً قط إلا كان وليه . لكن كما قال إبليس دون أن ينكر ربوبية أو ألوهية : ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٣) ، وهو موقن بصدق ربه ومعترف بربوبيته وألوهيته .

فكذلك اليهود يعرفون أن جبريل ولى رسل الله ـ عز وجل ـ وهو عدوهم؛ لأنه كان يأتيهم بالعذاب كلما عصوا الله تعالى وأسخطوه ، إنهم يريدون أن يترك محمد ﷺ أوامر ربه ، وخط إخوانه من الرسل ، ويمضى معهم فى هواهم، ويتواطأ معهم على معصيته ، ويقف بصفهم ضد جبريل ـ عليه السلام . فخابوا وخسروا فى الدارين ، وباؤوا بغضب على غضب . والجيل المسلم العظيم يشهد هذا المؤتمر ، ويشهد هذا الحوار ، فيمتلئ قلبه غيظاً وحقداً على هذه الأمة التى تريد أن يكون دين الله على هواها ، ويشعرون أن هذه الأمة قد سقطت فى المعصية وسقطت فى غضب الله وسخطه معاندة مكابرة ، ولم يعد لها عند الله تعالى غير سخطه وغضبه .

وجاءت الآيات تترى ترد على هذا الموقف القذر : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ . وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ (٤) .

ورسخ فى أعماق السابقين الأولين ، تلاميذ مسجد النبوة وخريجى أول دورة من دوراته التى استمرت كما قلنا قرابة سنة ونصف ، رسخ فى أعماقهم أن اليهود أتباع الشياطين ، وليسوا أتباع الله تعالى وكتبه ورسله ، ورسخ فى أعماقهم أنهم أعداء الله

---

(١) البقرة / ١٠١ .
(٢) الإمام أحمد ج١ ص ٢٧٨ والآية فى البقرة / ٩٠ .
(٣) الحجر / ٣٣ .
(٤) البقرة / ٩٧ ـ ١٠٢ .

وملائكته ورسله وليسوا أولياءه .

ى - وهم صورة مكررة للملكين اللذين وقعا فى المعصية ، بل يتبعون آثارهم ويقتفون خطاهم كما حدثنا ابن عمر - رضى الله عنهما - بقوله :

(أنه سمع النبى ﷺ يقول : « إن آدم ﷺ لما أهبطه الله تبارك وتعالى إلى الأرض قالت الملائكة : أى رب : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ (١) قالوا : ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم . قال الله تبارك وتعالى للملائكة : هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبط بهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان . قالوا : ربنا هاروت وماروت . فأهبطا إلى الأرض. ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءها فسألاها نفسها فقالت : لا والله حتى تكلما بهذه الكلمة من الإشراك . قالا : لا والله لا نشرك بالله أبداً . فذهبت عنهما ثم رجعت بصبى تحمله . فسألاها نفسها فقالت : لا والله حتى تقتلا هذا الصبى . فقالا : لا والله لا نقتله أبداً . فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله . فسألاها نفسها فقالت : لا والله حتى تشربا هذا الخمر . فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى فلما أفاقا قالت المرأة : والله ما تركتما شيئا مما أبيتماه علىّ إلا فعلتماه حين سكرتما . فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة . فاختارا عذاب الدنيا) (٢) .

أما اليهود فقد اختاروا عذاب الدنيا والآخرة.وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ . مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (٣).

---

(١) البقرة / ٣٠ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ٣١٤ ، وقال فيه : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن جبير وهو ثقة » .

(٣) البقرة / ١٠٢ - ١٠٦ .

فالله تعالى هو الذى اختار أن ينقل رسالته إلى هذا النبى الأمى ، وهذه الأمة الأمية ، ولتكون هذه الرسالة خاتمة الرسالات ، ناسخة ما قبلها بأمر الله عز وجل . وهو على كل شىء قدير .

ك ـ وعاد أحبار اليهود بعد أن سقطوا فى الادعاء أنهم الأحبار والعلماء وعندهم من العلم ما ليس عند رسول الله ﷺ . عادوا ليتركوا هذه القالة ، وينطلقوا معجزين فى الأرض ، فيتحدثون كما يتحدث المشركون من أهل مكة.

فقد قال أهل مكة فى مؤتمرهم : (فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماءً ولا أشد عيشاً منا . فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق . . .) .

وقال له ابن عمته : فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيها وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول .

وقال القرآن فى ذلك : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً** ﴾ (١).

وهكذا فعل حبرا بنى قينقاع . فقال رافع بن حريملة ، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ : يا محمد ، ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهاراً ، نتبعك ونصدقك . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهما : ﴿ **أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ (٢) . فسجيتهم وكفرهم وعنادهم ، يتكرر فى لبوس جديد كل يوم .

ل ـ لكن حقد حيى بن أخطب وأخيه أبى ياسر الذى انجر وراء أخيه كان فى القمة .

قال ابن إسحاق : وكان حيى بن أخطب وأخوه أبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً ؛ إذ خصَّهم الله تعالى برسوله ﷺ . وكانا جاهدين فى رد الناس عن

---

(١) الإسراء / ٩٠ ـ ٩٣ .　　(٢) البقرة / ١٠٨ .

الإسلام بما استطاعا . فأنزل الله تعالى فيهما :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) .

م - ومن ادعاءاتهم : أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، فيقول الله تعالى لهم : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

ودليل تناقضهم واضح . فبعد ادعاء أن الجنة لليهود والنصارى ، وفى أول لحظة يتاح لهم أن يلتقوا بالنصارى فسرعان ما يخرجونهم من الدين ، ويعتبرونهم كفاراً كالمسلمين . فإذا الدعوى الثانية تسقط الدعوى الأولى . (فلما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار يهود . فتنازعوا عند رسول الله ﷺ . فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل . فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : وما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٣) .

ثم يأتى الرد على الفريقين اللذين يزعمان أنهما من أهل الجنة :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ

---

(١) البقرة / ١٠٩ ، ١١٠ .
(٢) البقرة / ١١١ ، ١١٢ .
(٣) البقرة / ١١٣ .
(٤) وهو ادعاء النصارى .

لَهُ كُن فَيَكُون ﴾ (١) .

ن ـ إنها مناقشات وحوار لا ينقطع . والمسلمون يتدربون على المواجهة الفكرية ويرتفع رصيدهم الثقافى . وأصبحوا يمتلكون كنوزاً عظاماً فى الرد على ادعاءات اليهود والنصارى وأصبحوا من القناعة بحقهم والإيمان بدينهم بحيث يسقطون كل ادعاء ، ويدحضون كل حجة ويضعفون كل تبجح . لكن الإسلام يؤكد على أن تبقى حدود المعركة فى هذا الإطار ، فلا تتجاوز إلى خصومة مادية أو عسكرية ، إنما هى حلقات ومحاضرات ومؤتمرات ، تملك الساحة الفكرية بشكل كامل ، وتحطم عقدة التفوق العلمى عند اليهود الذى بقى يسود قروناً طويلة . وفى هذه الأيام المباركات ، وفى عام واحد ، ترتفع التربية بهذا الجيل الفريد ، الذى يبنى بالقرآن الكريم ، ويصاغ باليد النبوية الشريفة ما يجعله مؤهلاً لاستلام أعلى المسؤوليات .

ويعود الدجال الكبير رافع بن حريملة الذى لم يكتف من قبل بالمطالبة بالكتاب من السماء ، والمطالبة بتفجير الأنهار ، يعود إلى سحنته وسجيته فيطالب الآن كما طالب أجداده موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يطالب أن يكلم الله اليهود لتكون آية بينة تزيل شكوكه .

يا محمد ، إن كنت رسولاً من الله كما تقول ، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله تعالى فى ذلك من قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٢) .

فالقلوب واحدة والنفوس واحدة ، والتبجح عند يهود واحد ، تشابهت قلوبهم . أما الذين أيقنوا بالله وحرصوا على الحق ، فقد جاءتهم الآيات بينات.

وها نحن نغادر فى سورة البقرة تلك المواجهة مع اليهود وتنتهى المناظرات كاملة ، بعد أن توضحت الأمور ، وكشف الزيف ، وأصبح الجيل الأول ينظر بنور الله ، وينطق بكلمات الله ، ويتلو آيات الله ؛ ليبدأ الإعلان الجديد فى سقوط خلافة اليهود فى الأرض ، وانتقال هذه الخلافة إلى هذا الجيل الرائد الذى يقوده رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام .

ولا ننسى أن الجزء الثانى من سورة البقرة وأوائل الثالث قد انصب كله تقريباً على البناء الداخلى ، حيث كانت الأحكام التشريعية تستمر كل يوم من عبادات ، وبيع وشراء ونكاح وطلاق ودين وصدقة . حيث أصبح القرآن الكريم مصدر التشريع فى

(١) البقرة / ١١٤ ـ ١١٧ .

(٢) البقرة / ١١٨ .

التكاليف والواجبات والمسؤوليات . والرسول ﷺ يشرح ويوضح ويشرع ، والمسلمون يقومون بالتطبيق العملى ، حتى غدت سورة البقرة سمة هذا الجيل الرائد من الأنصار فينادون بها يوم حنين : يا أصحاب سورة البقرة ، كما ينادون ببيعة الجهاد والموت يوم الحديبية . فهم التلاميذ النجباء الذين دعوا إلى التنفيذ العملى للقرآن المتلو ؛ ليكونوا القرآن الناطق ، والقرآن المجاهد ، والقرآن العامل .

أخبث مؤامرة يهودية

قال ابن إسحاق :(ومرّ شاس بن قيس ـ وكان شيخاً قد عسا ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية . فقال :

قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد . لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله . وأنشدهم بعض ما كانوا تقوَّلوا فيه من الأشعار .

وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج . وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج . وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلى ، أبو أسيد بن حضير . وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى فقتلا جميعاً .

ففعل . فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيَّين على الركب : أوس بن قيظى ، أحد بنى حارثة بن الحارث من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج ، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة . فغضب الفريقان جميعاً وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة: الحرة ـ السلاح السلاح . فخرجوا إليها فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ ! » .

فعرف القوم أنها نزغة من نزغات الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس . فأنزل الله تعالى فى شاس ابن قيس وما صنع : **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾** (١) .

---

(١) آل عمران / ٩٨ ، ٩٩ .

وأنزل الله فى أوس بن قيظى ، وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما، الذين صنعوا ما صنعوا عمّا أدخل عليهم شاس من أمر الجاهلية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)) (٢) .

قال ابن إسحاق:(ولما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الإسلام ورسخوا فيه ، قالت أحبار يهود ، أهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلي غيره . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (٣)) (٤) .

قال ابن إسحاق : (وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف . فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مباطنتهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ . . . ﴾ أى : تؤمنون بكتابكم وما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم. فأنتم كنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم ، ﴿ . . وَإِذَا

(١) آل عمران / ١٠٠ ـ ١٠٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٣) آل عمران / ١١٣ ـ ١١٥ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [1]) [2] .

(ودخل أبو بكر الصديق بيت المدراس على يهود ، فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر من أحبارهم يقال له : أشيع . فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . فقال فنحاص لأبى بكر :

والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا .

قال : فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً . وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك . أى عدو الله . قال : فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، انظر ما صنع بى صاحبك فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « ما حملك على ما صنعت ؟ » فقال أبو بكر: يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، وضربتُ وجهه . فجحد ذلك فنحاص ، وقال : ما قلت ذلك .

فأنزل الله عز وجل فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبى بكر : **﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾** [3] .

ونزل فى أبى بكر الصديق رضي الله عنه وما بلغه فى ذلك من الغضب : **﴿ . . . وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾** [4] .

ثم قال فيما قال فنحاص والأحبار معه من يهود : **﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا**

---

(١) آل عمران / ١١٨ ـ ١٢٠ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٣٧ .
(٣) آل عمران / ١٨١ ، ١٨٢ .
(٤) آل عمران / ١٨٦ .

الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ . لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) يعنى فنحاص وأشيع وأشباههما من الأحبار الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ! أن يقول الناس : علماء ، وليسوا بأهل علم ، لم يحملوهم على هدى ويحبون أن يقول الناس : قد فعلوا) (٢) .

١ ـ الحديث عن هذه المقاطع من سورة آل عمران ، يوحى بأنها نزلت فى الفترة نفسها التى سبقت غزوة بدر ، والفترة التى سبقت تغيير القبلة . والذى يرجح هذا المعنى هو أن مجرمى هذه الحوادث هم أحبار اليهود ، كلهم من بنى قينقاع . والمعروف أن بنى قينقاع قد تم إجلاؤهم عن المدينة عقب غزوة بدر . فقد كانت بدر فى السابع عشر من رمضان ، وكانت بنو قينقاع فى الخامس عشر من شوال ، حيث حصرهم رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً حتى نزلوا على حكمه . فنحن لا نزال فى الفترة نفسها . ولو انقطعنا عن سورة البقرة ونرجح هذا الخط كذلك لنشهد به عملية التربية المستمرة ونشهد أثر هذه السنة والنصف والتى كثفت فيها هذه التربية حتى أنشأت الجيل الجديد من الأنصار الذين التحق بالسابقين الأولين من المهاجرين ، وحاز قصب السبق معه ، فصار يمثل السابقين الأولين من الأنصار ليكون هؤلاء وهؤلاء قمة أهل الأرض .

٢ ـ والحديث الذى نتناوله هو أخطر قضية على الإطلاق أُتى المسلمون فيها فى تاريخهم كله . فقضية الخلاف فى الصف الداخلى ، هى التى عانى المسلمون منها طيلة التاريخ الإسلامى . ويحسن أن نشير إلى حديث رسول الله ﷺ بهذا الصدد .

فعن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلاً . ثم انصرف إلينا فقال ﷺ : « سألت ربى ثلاثاً فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة . سألت ربى ألا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها . وسألته ألايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » (٣) .

وقد أقدم الأوس والخزرج وانضموا إلى الإسلام فخلعوا ربقة الجاهلية من أعناقهم ، وصاروا صفاً واحداً ملتحماً حمل اسم الأنصار كما سماهم الله عز وجل . وحين رأى

---

(١) آل عمران / ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٣٨ .
(٣) مسلم ، ك الفتن ج٤ ص٢١٦ .

شاس بن قيس وحدة كلمة الأوس والخزرج بعد حروب طاحنة استمرت قرابة مائة عام أنهكتهم وقتلت أشرافهم ، وقتلت عزمهم حتى استطاع اليهود أن يكون لهم التفوق من خلال تفرقة كلمتهم وإسعار نار الفتنة فى صفهم ، قال شاس بن قيس :

قد اجتمع ملأ بنى قيلة فى هذه البلاد . لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار .

فهو يقرر مبدأ حاسماً من المبادئ التى ورثها اليهود عن سلفهم ، وتوارثوها جيلاً بعد جيل . هذا المبدأ هو أن وحدة الأوس والخزرج لن تكون إلا ضد السيطرة اليهودية فى المدينة . ولذلك لابد أن يحافظوا على الصراع المستمر بينهم حتى تبقى لهم الكلمة العليا ،ولذلك لجؤوا إلى تلك الحيلة الخبيثة الماكرة ،وهى توزيع تحالفهم بين الفريقين . فبنو قريظة حلفاء الأوس ، وبنو النضير وبنو قينقاع حلفاء الخزرج ، وهم الذين كانوا يؤججون العداوة بين هذين الفريقين .

ونعيد إلى الذاكرة كلمة أبى الهيثم بن التيهان رضي الله عنه أثناء بيعة العقبة :

قال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

وتشى هذه الكلمة بالخطورة التى كان يحس بها الأنصار من قطع التحالفات مع يهود ، وأنهم لو بقوا وحدهم ، لانتقم اليهود منهم وثأروا منهم . وكان جواب المصطفى ﷺ أنه لن يتخلى عنهم ، فهو جزء منهم . وهم جزء منه يحارب من حاربوا ويسالم من سالموا .

إن هذا المبدأ يجب ألا يغيب أبداً عن ذهن دعاة الإسلام . فهو ليس مبدأ مختصاً بزمان ومكان معين ، بل هو من الثوابت الإسلامية فى التاريخ . فلن ينفذ العدو إلا من الثغرة الداخلية . ولن يتمكن ويستتب إلا من البأس الشديد فى الصف الإسلامى ، وإذا كان اليهود هم أعدى العدو ، فهو الذى وصفه الله تعالى بأنهم : ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (١) .

٣ ـ وهذه خطة مكشوفة شهدناها . فلم يأت شاس بن قيس نفسه؛ لأنه مكشوف ، إنما بعث شاباً مغموراً وكلفه بقوله :

---

(١) المائدة / ٦٤ .

اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .

وكان الاختلاط قائماً بين اليهود والمسلمين . وليس بينهم حواجز فى المرحلة الأولى من الدعوة . والمسلمون يقيمون كل يوم حجة عليهم ، ويكشفون أسرارهم وفضائحهم . ونفَّذ الفتى دوره بدقة ، وتحدث بأشعار بعاث . فتحركت الحمية فى النفوس ، وكانت مرحاً ، ثم انقلبت جداً ، وعاودوا الأشعار ، ونفخ الشيطان فى هذه الحمية ، حتى اشتعلت ، وثاروا إلى السلاح للثأر من يوم بعاث . ونحن هنا كذلك أمام مبدأ عام شامل ولسنا أمام حادثة مؤقتة . وهو من الثوابت الأساسية فى التاريخ الإسلامى،وهو أن الصراع فى الصف الإسلامى إنما ينطلق من النزعات الجاهلية شخصية كانت أو قبلية أو وطنية أو إقليمية أو قومية فهى التى تمزق الصف وتذبح الأمة .

« إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . لا فضل لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى وعمل صالح » ، هذا هو نص الحديث : « إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية ، وفخرها بالآباء . مؤمن تقى ، وفاجر شقى . أنتم بنو آدم وآدم من تراب ، ليدعنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن» (١) .

ولقد استشرى الخلاف في المسلمين وصاروا نهباً لهذه العصبيات حتى استبيحت بيضتهم وأخذت أرضهم، وحُكموا من الكفار والمشركين فى أراضيهم . والدعاة إلى الله العاملون للإسلام يحملون هذا السرطان كذلك ، فتأخذهم الحمية والعصبية لآرائهم، وأشخاصهم ، وقياداتهم ، وجماعتهم ، وحزبهم ، فلا يتجاوزوا مرحلة المحنة إلا وتنزل بهم محنة أخرى وذلك حتى يخلصوا من هذه العصبيات .

٤ ـ وهنا نشهد عظمة التربية النبوية . وقد ثار المسلمون إلى السلاح ، وتوزع الأوس والخزرج فى صفين متقابلين يتهيآن للمعركة. فيبلغ الخبر رسول الله ﷺ ، ويمضى سريعاً مع عدد من المهاجرين ؛ ليصل ساحة المعركة وهى على وشك الانفجار.

وينظر الأوس والخزرج إلى شخص قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين ظهرانيهم وهم يحملون السلاح للمواجهة ، فيسقط فى أيديهم ، قبل أن ينطق ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكلمة واحدة . فهم لم يستأذنوا قائدهم بهذه المواجهة ، ولا رجعوا إليه .

---

(١) الإمام أحمد وأبو داود . وقال الألبانى فى صحيح الجامع الصغير : حسن ١ / ١١٩ / ح ١٧٨٣ .

وكان من الممكن أن تكون نهاية الإسلام والمسلمين فى الأرض خلال هذه الأشهر الأولى من الهجرة ولا عجب فى ذلك . فالثارات والدماء بين فريقى الأوس والخزرج قد تمتد عشر سنين أو عشرين سنة ثم يعود الثأر . ولما يمضى بعد على بُعاث ثلاث سنوات أو أكثر . فآثار الجراح لا تزال حارة ، والنفوس التى غمرها الإسلام قد ينفخ فيها الشيطان . ويعيدها جذعة ـ كما قالوا لبعضهم . أقول : كان يمكن أن تكون نهاية الإسلام والمسلمين فى هذه المحنة . ويأتى سيد الخلق ـ صلوات الله عليه ـ ليخطب فيهم هذه الخطبة البليغة الموجزة . والتى فعلت فى نفوسهم فعل آلاف الكتب وأطنان المحاضرات فى الحديث عن وحدة الصف ووحدة الكلمة ؛ لأنها صدرت من أطهر قلب فى الوجود وأتقى قلب فى الوجود . فسكبت فيهم السكينة وأخرجتهم من الظلمات إلى النور .

« يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم » .

رسول الله فى المدينة ـ المبعوث رحمة للعالمين ـ بين صفوفهم وفى ديارهم ، النور الأعظم الذى أضاءت به البشرية فى صفهم ، والجاهلية تجرؤ أن تبرز أمامه .

إنه الإسلام لله رب العالمين الذى تمت به الكرامة ، ودفنت به الجاهلية ، وتم الاستنقاذ به من الكفر والنار ، وبه تم التآلف بين القلوب فكون نسيجاً جديداً، ولحمة جديدة ، وأعاد الصياغة كلها من جديد . فكيف يكون للجاهلية دور فى هذا المجال . (فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين . قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس) .

٥ ـ وكان هذا الجيل الرائد يخشى أن ينزل الله تعالى به قرآناً يتلى . فهى نكسة ضخمة يودون ألا تسجل فى تاريخهم . ولا تتناسب مع المستوى الرفيع الذى ارتقوا إليه بالإسلام وبرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه . لكن التربية الربانية ، إنما تريد لهذا الجيل أن يكون قدوة للبشرية كلها ، فلو حذفت هذه النكسة من تاريخه ، لجاءت الأجيال اللاحقة تشعر بالإحباط حين تقع بمثل هذه النكسة،ولا تدرى طريقة معالجتها . والقرآن الكريم هو للبشرية كلها ، المنهج والخط والطريق . فلابد أن تتضح به جميع معالم المنهج ، وطرق المعالجة لجميع الكبوات والانتكاسات . وما يريده الله تعالى بهم ولهم أعظم من خطأ عارض ، بل يريد بهم أن تكون الأمة المثلى فى الوجود . فجاء

القرآن الكريم يعرض جميع التفاصيل بعيداً عن الأسماء والأشخاص ، يعرض النفوس التى تتكرر فى كل جيل ولو اختلفت المسميات .

٦ ـ فكان الخطاب الأول للجيل المخلوع عن الاصطفاء لليهود الذين سقطوا فى الامتحان فى توجيه ربانى لرفعهم من هذا السقوط المريع . ولكن هيهات ، فقد أشربوا العجل وفتنوا فى المعصية :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

لكن هذه الآيات تتنزل على قلوب قد وصفها الله تعالى بقوله : **﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾** (٢) .

أما قلوب اليهود فهى ليست من هذه الأنواع الثلاثة فهى أشد قسوة من الحجارة . ولذلك سمع شاس بن قيس وأشباهه هذا النداء فلم يحرك فيهم نبضة قلب ؛ لأن الحقد قد أعمى بصرهم وبصيرتهم . فهم **﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾** (٣) .

٧ ـ وكان النداء الثانى لهذه القلوب الندية الحية الفتية ، الظمأى لكلام الله التى تنتظره فى كل لحظة رغم أنه توبيخ وتأنيب على هذه النكسة . لكنه بلسم حى . فهم يدعون ثانية ألا تتكرر هذه المأساة وإلا كان لها حساباً آخر . ولابد أن تتضح فى أذهانهم وفى قلوبهم وفى نفوسهم أبعاد هذه الخطيئة ، فهى ليست فقط استثارة همدت وانتهى الأمر إنها أكبر من هذا بكثير .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٤) .

إن العودة إلى السلاح للمواجهة ، عودة إلى الكفر بعد الإيمان ، وليست نزوة عارضة وانتهى الأمر ، وهذا الكفر قد يكون مقبولاً ، أو فيه عذر أو فيه شبهة عذر . وليس للأوس والخزرج رسول ولا نذير . فهم أميون لا يسمعون عن الإيمان إلا من اليهود ، واليهود عندهم قوم غُدر فجر ،يكذبون ، ويخونون . فتأبى قلوبهم هذا الدين

---

(١) آل عمران : / ٩٨ ، ٩٩ .
(٢) البقرة / ٧٤ .
(٣) البقرة / ١٧١ .
(٤) آل عمران / ١٠٠ .

من هؤلاء الأدعياء .

أمَّا الكفر . والقرآن يتنزل مباشرة عليهم ليس بينهم من واسطة إلا الأمينين جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام. وهم يعيشون بهذا القرآن . فلا عذر أبداً على هذه النكسة . ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وهذه النكسة فى الحمأة الجاهلية إنما تعالج بالاعتصام بالله ، والاعتصام بالله هو تقوى الله حق التقوى فلقد قال القرآن قبلهم لليهود : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ (٢) . وها هو يقول لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٣) . وكأنه يقول لهم : لو أنكم عندما ثرتم إلى السلاح، ولم ينقذكم حضور قائدكم بينكم . وقتلتم أنفسكم لقضيتم كافرين غير مسلمين . فالحذار الحذار أن تموتوا على غير الإيمان وغير الإسلام .

والذى يعصم من هذه الوهدة هو الكلمة الواحدة ، والصف الواحد ، والقلب الواحد ، والنفس الواحدة :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

فبعد إخوة الإيمان لا يجوز العودة إلى الفرقة والكفر : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ .

هذه الأخوة هى أخوة الإسلام والإيمان التى لا يفرط بها لأى شىء: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٤) .

(والنص القرآنى يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط : القلب . فلا يقول : فألف بينكم ، إنما ينفذ إلى المكمن العميق ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ . فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه . كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه ، بل مشهداً حيا متحركاً تتحرك معه القلوب ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ . وبينما حركة السقوط فى حفرة النار متوقعة ، إذ بالقلوب ترى يد الله ، وهى تدرك وتنقذ ، وحبل الله وهو يمتد ويعصم ، وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والترقب ، وهو مشهد

---

(١) آل عمران / ١٠١ .
(٢) البقرة / ٩٣ .
(٣) آل عمران / ١٠٢ .
(٤) آل عمران / ١٠٣ .

متحرك حى تتبعه القلوب واجفة خافقة وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال) (١) .

٨ - ويوجههم كذلك إلى صورة حية لابد أن تكون فى صفوفهم ، صورة العين الساهرة ، والجماعة التى تبقى مستيقظة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر من داخلهم . فكيف تقع هذه النكسة ؟ وأين قياداتهم العليا التى ارتشفت من معين النبوة ابتداءً ؟ وأين النقباء الاثنا عشر الكفلاء على قومهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ؟ فكيف وقعت هذه الواقعة ، والنقباء موجودون فى صفهم ، والسبعون الذين بايعوا فى العقبة موجودون فى صفهم ؟ ! لابد من تلك الحركة الساهرة الدؤوبة الحية التى تكشف المؤامرات قبل وقوعها ، وتوضح المكائد قبل استفحالها ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . وتذكر بالخير العميم الدائم الواصل من الله : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٢).

وعندما تغيب هذه الأمة أو الفصيل من الأمة ويغيب الساهرون على أمن الجماعة ، سلامة دينها ، وسلامة تصوراتها ، عندما يغيب هذا الفصيل من الأمة ويغيب الذين ينهون عن السوء ، ويغيب الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . عندئذ تقع الطامة بهذه الأمة الفتية الحية ، التى لم يمر على تكوينها عام واحد . فيصيبها ما أصاب الورثة قبلها للرسالات : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (٣).

فعندما غابت الفئة الداعية إلى الخير ، الآمرة بالمعروف ، الناهية عن المنكر . وقعت الأمة كلها فى الحمأة وتفرقوا واختلفوا ، وآيات الله بين أيديهم ، وجاءهم العذاب العظيم فى الدنيا والآخرة : ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (٤) .

فالحفرة التى كانت على شفا النار ، لو اختلف المسلمون ؛ لعادوا وسقطوا فيها . ولكان هذا الاتقاء لا يجدى يوم يتجاوزون تعليمات قائدهم - عليه الصلاة والسلام - ويثورون إلى السلاح لاستثارة جاهلية فى نفوسهم .

٩ - تشير الرواية إلى أن ما نزل فى هذه الحادثة هو حتى قول الله - عز وجل - :

(١) فى ظلال القرآن ١/ ٤/ ٤٤٣ .
(٢) آل عمران / ١٠٤ .
(٣) آل عمران / ١٠٥ .
(٤) آل عمران / ١٠٦ ، ١٠٧ .

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

لكن جو هذه الآيات يؤكد أن الآيات التالية قد نزلت فى هذه الأجواء نفسها . خاصة والآيات التى سترد بعدها كذلك مرتبطة بالأجواء نفسها . فستتابع الحديث عن التربية بالقرآن ، والتربية بنبى الأمة كما يقول تعالى : ﴿ . . . وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُه ﴾ (١).

يقول عز وجل بعدها : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ . كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢) .

إن انتهاء الحادثة ، وتنزل الآيات فيها لا يعنى أن التربية قد انتهت ، ولا يعنى أن المعركة قد انتهت كذلك ، فالقرآن الكريم يعاود الكرة ثانية وثالثة ؛ لتنجلى الأمور جميعها ، وتتوضح أبعاد المؤامرة كاملة ، وتتكرس فى النفوس معالم الإيمان وخطوطه ومتطلباته . . . إنه جيل يتربى بغذائه اليومى من القرآن الكريم ، وينتظر على أحر من الجمر آيات تتلى ، فينقلب فيها لينفذ كل ما فيها على التو دون تلكؤ .

ويأتى التأكيد على أن الحق هو ما يأتى من عند الله ، وبلسان رسوله ﷺ .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

ولا معنى بعد اليوم أن يسأل أهل الكتاب عن الحق ، بعد ما صار رسول الله ﷺ بين أظهرهم تتنزل عليه الآيات فيتلوها ، وكان لابد من التأكيد الشديد على هذا المعنى لإنهاء الثقة والرجوع إلى أهل الكتاب فى هذا الموضوع .

(ولقد كان رسول الله ﷺ يتشدد مع أصحابه - رضوان الله عليهم - فى أمر التلقى فى شأن العقيدة والمنهج ، بقدر ما كان يفسح لهم فى الرأى والتجربة فى شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة ، كشؤون الزرع ، وخطط القتال ، وأمثالها من المسائل العملية البحتة التى لا علاقة لها بالتصور الاعتقادى ، ولا بالنظام الاجتماعى ،

---

(١) آل عمران / ١٠١ .

(٢) آل عمران / ١٠٨ - ١١٢ .

ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان . . .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق . . . . عن عبد الله بن ثابت قال :

جاء عمر إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى مررت بأخ يهودى من بنى قريظة ، فكتب لى جوامع من التوراة : ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ . قال عبد الله بن ثابت . قلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً . قال : فسرى عن النبى ﷺ وقال : « والذى نفسى بيده ، لو أصبح فيكم موسى ـ عليه السلام ـ ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، إنكم حظى من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين » (١) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا حماد ، عن الشعبى ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذِّبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعنى » (٢) . وفى بعض الأحاديث : « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى » .

هؤلاء هم أهل الكتاب . وهذا هو هدى رسول الله ﷺ فى التلقى عنهم فى أى أمر يختص بالعقيدة والتصور ، أو بالشريعة والمنهج . . .) (٣) .

﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يوم ينزع عن أهل الضلالة حق الهداية للبشرية . فقد اصطفاهم على العالمين ، وسقطوا فى هذا الاصطفاء إلا قليلاً منهم ، أما أكثرهم ففاسقون ضالون .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُور ﴾ .

فهو العليم بما يتنزل على رسله وما ينسخ من آياته ، وما يحكم ، وإليه ترجع الأمور .

١٠ ـ وتأتى البشارة الكبرى لهؤلاء المئات الذين ينتقلون فى المدينة بين بيوتهم ومسجد نبيهم ؛ ليروا أنهم قد اختارهم الله تعالى ليكونوا على قمة البشرية، وعلى سدة القيادة والرئاسة فيها ، بعد أن كانوا ينظرون إلى اليهود أنهم أصحاب هذه المهمة وهم الأمة الأمية :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ

(١) مسند الإمام أحمد ٣ / ٤٧١ .
(٢) مسند أبى يعلى ٤ / ١٠٢ برقم (٢١٣٥) .
(٣) فى ظلال القرآن م١ / ٤٤٠ .

آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١) .

إنه أسعد إعلان يستمعه المؤمنون من فم رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الإعلان الذى يتضمن أنهم هم نواة خير أمة أخرجت للبشرية كافة ، كما يتضمن الإعلان نفسه أسباب نزع القيادة من اليهود الذين كانوا يتبوؤون هذا المركز .

أما حيثيات الصدارة لهذه النخبة المختارة فى الأرض فهى :

يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله .

أما اليهود الذين كانوا فى هذا الموقع ، فقد رفضوا الانضمام لحزب الله . منهم القليل المؤمن وأكثرهم الفاسقون .

ولن يسكت اليهود على نزع هذه القيادة منهم. فسيحاولون الحرب لانتزاعها . وهم لجهلهم وسفاهتهم يتصورون أن معركتهم مع الله يمكن أن ينتصروا فيها . ويواجهون السنن الإلهية بحقدهم حين يواجهون ممثل الله تعالى فى الأرض . والمرسل من عنده للبشر كافة .

وهيهات أن ينصروا وهم المتمردون على ربهم وإلههم وأنبيائهم ! !

أما حيثيات انتزاع قيادة البشرية منهم ، وكتابة الذلة عليهم ، وضرب المسكنة عليهم وتبوئهم بغضب الله ، فهم يرتعون ويسرحون فيه . حيثيات هذا كله :

أ ـ يكفرون بآيات الله . ب ـ يقتلون الأنبياء بغير حق .

جـ ـ يعصون ربهم . د ـ يعتدون .

هذه المواصفات نزعت منهم القيادة وسلمها الله تعالى لهذه النخبة من المهاجرين والأنصار الذين يُعدُّون على عين الله ، يرعاهم رسوله ومصطفاه من خلقه ، يربيهم ، ويعلمهم ، ويفقههم ، ويعدهم لهذا الموقع .

١١ ـ وقبل أن نغادر هذه المرحلة نستمع إلى القرآن ، يستنقذ أولئك الأفراد من تلك اللعنة ، وذلك الغضب ، وتلك الذلة والمسكنة، ويضمهم إلى حزب الله الجديد . دون أن تنالهم تلك اللعنات أو تبقى محيطة بهم ؛ لأنهم استجابوا لله ورسوله .

(١) آل عمران / ١١٠ ـ ١١٢ .

وكما قال ابن إسحاق : (ولما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسيد ابن سعبة ، وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود معهم ، فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الإسلام ورسخوا فيه . قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ، ولا اتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره فأنزل الله تعالى :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

فقد آذى المسلمين هذه التهم الشنيعة التى يشنها اليهود ضد المؤمنين منهم ، ويتحدثون عنهم أنهم شرارهم ، ولو كانوا خيارهم لما تركوا دين آبائهم. وتأتى تلكم الأوصاف لليهود الساقطين فى غضب الله والمضروب عليهم بالذلة والمسكنة فما هو وضع هؤلاء الأفراد الذين انضموا لحزب الله ؟

لن ينساهم ربهم ، بل سيخلدهم فى كتابه ولو كانوا فرداً أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة فهم قد انضموا إلى الأمة القائدة ، ولهم من الله تعالى حسن الثناء ؛ لأنهم حملوا مواصفات هذا الجيل القائد .

ولو أن أهل الكتاب جيمعاً آمنوا لأصبحوا جزءاً من هذه الأمة المختارة المصطفاة .

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

وهؤلاء بضعة أفراد هم المؤمنون ؛ لأنهم :

اختلطت بشاشة قلوبهم بهذا القرآن فغمرهم بفيض الله ورحمته . فهم ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ، ويحمدون الله عز وجل على مارزقهم من الهدى والنور .

وهم حازوا عناصر السبق والقيادة الثلاثة :

يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر .

وغمرهم ثناء ربهم سبحانه زيادة عن ذلك يسارعون فى الخيرات ، وغمرهم ثناء ربهم سبحانه أنه حفظ لهم عملهم الصالح وهم فى قلب يهود . فلن يكفروه ، والله

---

(١) آل عمران / ١١٣ ـ ١١٥ .

عليم بالمتقين . وكان هذا الكلام له وقع الصواعق على رؤوس أولئك العتاة الذين يوزعون الشر والخير على أهوائهم ولذاتهم . ولو كانت تحدياً لله رب العالمين ، ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وعاد بعد أن أكد الفلاح لهؤلاء الأفراد ليؤكد الخسار لتلك الجموع الضالة مع كل ما تملك من مال وقوة وعتاد تحاد به الله ورسوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) .

١٢ ـ وكما أنهى الإسلام التلقى من أهل الكتاب فى العقيدة والتصور ومنهج الحياة ، وكما كان لغضب رسول الله ﷺ من وزيره الثانى الذى أراد أن يأخذ من أهل الكتاب أكبر دور فى إنهاء هذا التلقى جاءت المرحلة الجديدة ، لتحدد العلاقات الاجتماعية مع هذه الأمة المغضوبة ، بعد أن كشفوا عن موقفهم المعادى لهذا الدين .

فكان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود . لما كان بينهم من الجوار والحلف ، فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مباطنتهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٣) .

وتأتى هذه الآيات لتؤكد الآيات السابقات فى سورة البقرة ، وتنهى وضع أولئك المنافقين من أحبار اليهود الذين يتظاهرون بالإيمان أمام المسلمين ، وقلوبهم تنز بالحقد عليهم وعلى دينهم ، وتنهى هذه العلاقة التى تحمل طابع التغرير بالمؤمنين فهؤلاء المدعون للإيمان كاذبون ، إذا خلوا إلى بعضهم ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُم . . . ﴾ .

ولا تزال هذه المرحلة تحمل طابع الصبر عليهم ، وتدفع المواجهة . وهذه مرحلة

---

(١) آل عمران / ١١٥ .
(٢) آل عمران / ١١٦ ، ١١٧ .
(٣) آل عمران / ١١٨ ــ ١٢٠ .

لابد أن تنتهى ، لكن كيدهم لن يضر المسلمين إلا أذى . وعلى هذا الجيل الفتى ألا يخشى المواجهة معهم . فلو وقع القتال بين هذه الأمة وهؤلاء الضالين . فالنصر للمسلمين . ولم يأن الأوان بعد لذلك .

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ .

إن هؤلاء القادة الجدد مدعوون إلى ضبط أعصابهم مع أهل الكتاب ، والصبر على كيدهم ، والتعامل بحذر معهم ، وقطع علاقات المودة والحب معهم. وبالصبر والتقوى لن يضر كيدهم شيئاً ؛ لأن الله تعالى محيط بكيدهم ، وهو قطع كذلك للحجة التى تقول : إن هذه الصلة معهم قد نكون بحاجة لها ؛ لنطلع على مكائدهم ومخططاتهم. لكن الله تعالى يقول لهم : لا تخشوا ذلك ، واقطعوا هذه العلاقة مع هؤلاء الحاقدين، والله تعالى هو المحيط بكيدهم ، والمحبط له . ولعل اليهود كذلك يحاولون أن يتمسكوا بالأحلاف السابقة . ويثيروا الحرب بين الأوس والخزرج من وراء تلك الأحلاف . فجاء الأمر القرآنى بإنهاء هذه العلاقات إلى غير رجعة .

١٣ ـ وحملت هذه السنة موقفين من الوزير الأول ، والثانى : أبى بكر ، وعمر مع اليهود .

الموقف الأول : من الصديق رضي الله عنه . وقد مضى إلى أحبار اليهود يدعوهم إلى الله، فإذا بهم يكشفون عن حقدهم وغيظهم حتى من الله تعالى، وراحوا يسبون الله ويستهزئون به ، حين افتضحوا وما زادهم إلا كفراً وعنادا.

قالوا للصديق رضي الله عنه وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله :

والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا .

وإذا بأبى بكر رضي الله عنه حامى عرين رسول الله ﷺ فى مكة ، وأشجع المؤمنين ، الذى كان يواجه عتاة وطغاة مكة ، ها هو فى قلب مدراس اليهود وبين ظهرانيهم وتنتهك حرمة الله فيغدو شعلة من الإيمان تتفجر غضباً لله ولا يتمالك إلا أن يضرب وجه فنحاص قائلاً له : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله .

ولا يجرؤ اليهود جميعاً أن تمتد يد منهم للنيل من الصديق سيد المسلمين بعد رسول الله ـ صلوات الله عليه .

لكنهم يلجؤون إلى الكذب والدس والانتقام ، انتقام الجبان النذل ، فيمضى

فنحاص حبرهم الوغد الذى يتألى على الله ورسوله . ويتباكى بين يدى رسول الله ﷺ فيستدعى - عليه الصلاة والسلام - وزيره الأول ويسائله عن ادعاء فنحاص فيقول رضي الله عنه :

إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال وضربت وجهه .

وجحد ذلك فنحاص .

عجيب أمر هؤلاء المجرمين !! إنهم يعلمون أن الله مطلع عليهم ، وقد فضح كل دجلهم ، فكيف يجرؤ على الجحود ؟ ولكنها السحنة اليهودية اللئيمة ، المجبولة بغضب الله وسخطه ، لا تكف عن استمطار غضب الله ولعنته ، وينصر الله حبر المسلمين الصديق الذى أصبح علماً عليه على جحود فنحاص وكذبه .

فكان الوحى يتنزل وقد اكفهر الجو وتعقَّد ، وعبد الله ورسوله عاجز أن يأخذ بكلام وزيره الأول دون بينة . وقلوب المسلمين كلها تتحرق غيظاً من هذا الأفاك الذى يتحدى سيدهم ويكذِّبه . وجاء جبريل من عند رب العالمين ، لينقل كلام الله تعالى إلى نبيه . فتردده جنبات المسجد النبوى وكأن كل حبة تراب تزغرد وتسعد بتصديق الصدّيق من فوق سبع سموات : ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ . الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (١) .

ويسرِّى الله تعالى على قلب نبيه المصطفى لهؤلاء الجاحدين الكفرة :

﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ (٢) .

وحساب هؤلاء سيكون يوم القيامة . . . وحساب المؤمنين كذلك :

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ (٣) .

وبعد أن أقرَّ الله تعالى نبيه ، وصدِّيقه بالصدق ، عاد يدعو حزب الله إلى الموقف المحدد خلال هذه المرحلة ، إلى الصبر : ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ**

---

(١) آل عمران / ١٨١ ــ ١٨٣ .
(٢) آل عمران / ١٨٤ .
(٣) آل عمران / ١٨٥ .

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١) .

فهى التربية الربانية لهذا الجيل ، أن يبتعد عن الاحتكاك المباشر مع اليهود وليقيم عليهم الحجة أولاً ، ثم هو الذى يحدد وقت ومكان المواجهة ثانياً بعد ذلك .

وهو الاحتكاك الوحيد الذى وقع بين المسلمين وبين أهل الكتاب خلال هذه المرحلة ، مرحلة الحوار الفكرى والسياسى . أما المواجهة المادية ، وأما الجهاد، فلم تصدر التعليمات بشأنه بعد . ومن منطلق هذا الحوار الفكرى والعقدى والسياسى ، يثبت جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما نقله عن ربه نقض اليهود لميثاقهم مع الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ . لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

لقد كانت سنة حافلة بالأحداث ، غنية بالتربية ، موفورة بالفكر والثقافة ، يتكون الجيل القائد فيها بالقرآن ، وبالنور المرافق للقرآن : **﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾** (٣) .

وها نحن نشهد عملية الإخراج من الظلمات إلى النور . إخراج خير أمة أخرجت للناس بكل خطوة من خطواتها المتتالية .

ونقف قليلاً مع الوزير الثانى عمر رضي الله عنه فى الحديث السابق الذى مر معنا يوم قال لرسول الله ﷺ : (إنى مررت بأخ يهودى من بنى قريظة . فكتب لى جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟) فتغير وجه رسول الله ﷺ .

هذه هى طريقة التربية التى اختارها ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع وزيره وحبيبه الفاروق رضي الله عنه أن يتغير وجهه . وهذا التغير كفيل أن يغير كيان الفاروق كله . وأحسَّ مع هذا التغير أنه قد أخطأ الطريق كثيراً ، رغم سلامة الهدف . فهل يقف ليعاتب حبيبه المصطفى على هذا التغير ؟ أو يقدم التبرير لموقفه ويوضح سلامة هدفه ؟ وتبدأ المناقشة

---

(١) آل عمران / ١٨٦ .

(٢) آل عمران / ١٨٧ ــ ١٨٩ .

(٣) المائدة / ١٥ ، ١٦ .

والمعالجة ، وتعقد الجلسات لإيضاح غوامض هذا الموقف كما يجرى فى صفنا الإسلامى اليوم . وذلك فى حالة عافيته ، أما فى حالة مرضه . فيتحول النقاش إلى جدل ، والحب إلى بغض ، والكلام إلى خصومة ، والتفكير بالتخلى عن الموقع احتجاجاً على هذه الإهانة ، أو العمل لتكوين تكتل يواجه تسلط المسؤول . نريد أن نقف عند قمة البشرية قيادة ممثلة بشخص رسول الله ﷺ ، وقمة الجندية ممثلة بشخص الفاروق ـ رضي الله عنه .

فقد كانت العقوبة الكبرى التى وجهت لعمر : هى تغير وجه رسول الله ﷺ . وكان التحول الكامل العميق فى كيان الوزير الثانى والجندى العظيم . أن جدّد إسلامه وإيمانه وكأنما أعلن إسلامه من جديد :

رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا .

ومع هذه الكلمات : سُرى عن وجه النبى ﷺ ، وأشرقت أنوار النبوة تتلألأ فى وجهه فرحاً بوزيره العظيم الذى أدرك مباشرة أبعاد التلقى عن غير الله ورسوله. فقال عندئذ كلمته التاريخية للأفراد والأجيال على مرّ العصور :

« والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ـ عليه السلام ـ ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، أنا حظكم من النبيين . وإنكم حظى من الأمم » .

لقد نزل القرآن ليكون هو الباعث للأمة على يدى قائدها رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأكرم الله تعالى هذه الأمة أن تتلقى كلام الله مباشرة ليس لرسوله ﷺ إلا نقله عن طريق الأمين جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو ليس صياغة بشرية نبوية ؛ لأن الصياغة البشرية النبوية هى حديث رسول الله ﷺ التى يبلغ بها لأمته تعاليم ربه وأوامره ونواهيه . أما القرآن فيتنزل من الله تعالى كما هو ، يحدث المسلمين عن واقعهم ، أو ينصرهم فى معركتهم ، أو يثنى على القمم فيهم ، أو يعاقب المقصرين منهم . وما يستطيع ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يغير لفظة واحدة فيه .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (١) .

(ومعجزة القرآن البارزة تكمن فى أنه نزل لمواجهة واقع معين، فى حياة أمة معينة ، فى فترة من فترات التاريخ محددة ، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها . ولكنه ـ مع هذا ـ يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة

(١) الحاقة / ٤٤ ـ ٤٧ .

الحاضرة ، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة فى شؤونها الجارية . وفى صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها ، وفى معركتها كذلك فى داخل النفس ، وفى عالم الضمير بنفس الحيوية ، ونفس الواقعية التى كانت له هناك يومذاك .

ولكى نحصل نحن من القرآن على قوته الفاعلة ، وندرك حقيقة ما فيه من الحيوية الكامنة ، ونتلقى منه التوجيه المدخر للجماعة المسلمة فى كل جيل . . . ينبغى أن نستحضر فى تصورنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى التى خوطبت بهذا القرآن أول مرة ، كينونتها وهى تتحرك فى واقع الحياة ، وتواجه الأحداث فى المدينة ، وفى الجزيرة العربية كلها ، وتتعامل مع أعدائها وأصدقائها ، وتتصارع مع شهواتها وأهوائها . ويتنزل القرآن حينئذ ليواجه هذا كله ، ويواجه خطاها فى أرض المعركة الكبيرة مع نفسها التى بين جنبيها ، ومع أعدائها المتربصين بها فى المدينة وفى مكة وفيما حولهما ، وفيما وراءهما كذلك .

أجل ! يجب أن نعيش مع تلك الجماعة الأولى ، ونتمثلها فى بشريتها الحقيقية ، وفى حياتها الواقعية وفى مشكلاتها الإنسانية . ونتأمل قيادة القرآن لها قيادة مباشرة فى شؤونها اليومية ، وفى أهدافها الكلية على السواء . ونرى كيف يأخذ القرآن بيدها خطوة خطوة . وهى تعثر وتنهض ، وتحيد وتستقيم ، وتضعف وتقاوم ، وتتألم وتحتمل، وترقى الدرج الصاعد فى بطء ومشقة ، وفى صبر ومجاهدة ، تتجلى فيها كل خصائص الإنسان ، وكل ضعف الإنسان وكل طاقات الإنسان .

ومن ثم ، نشعر أننا نحن أيضاً مخاطبون بالقرآن فى مثل ما خوطبت به الجماعة الأولى . وأن بشريتنا التى نراها ونعرفها ونحسها بكل خصائصها ، تملك الاستجابة للقرآن ، والانتفاع بقيادته فى ذات الطريق . إننا بهذه النظرة سنرى القرآن حياً يعمل فى حياة الجماعة المسلمة الأولى ، ويملك أن يعمل فى حياتنا نحن أيضاً . وسنحس أنه معنا اليوم وغداً . وأنه ليس مجرد تراتيل تعبدية مهوِّمة بعيدة عن واقعنا المحدد ، كما أنه ليس تاريخاً مضى وانقضى ، وبطلت فاعليته وتفاعله مع الحياة البشرية .

إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته . الكون كتاب الله المنظور ، والقرآن كتاب الله المقروء ، وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع . كما أن كليهما كائن ليعمل . والكون بنواميسه ما زال يتحرك ويؤدى دوره الذى قدّره له بارئه ، الشمس ما زالت تجرى فى فلكها وتؤدى دورها ، والقمر والأرض وسائر النجوم والكواكب لا يمنعها تطاول الزمان من أداء دورها، وجدة هذا الدور فى المحيط الكونى . والقرآن كذلك أدى دوره للبشرية ، وما يزال هو هو . فالإنسان ما يزال هو هو

كذلك . ما يزال هو هو فى حقيقته وفى أصل فطرته . وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الإنسان ـ فيمن خاطبهم الله به . خطاب لا يتغير ؛ لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقاً آخر ، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حولَه ، ومهما يكن هو قد تأثر وأثر فى هذه الظروف والملابسات ، والقرآن يخاطبه فى أصل فطرته ، وفى أصل حقيقته التى لا تبديل فيها ولا تغيير ، ويملك أن يوجه حياته اليوم وغداً ؛ لأنه معد لهذا بما أنه خطاب الله الأخير ، وبما أن طبيعته كطبيعة هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل.

وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلاً : هذا نجم قديم « رجعى » يحسن أن يُستبدل به نجم جديد « تقدمى » أو أن هذا الإنسان مخلوق قديم « رجعى » يحسن أن يستبدل به كائن آخر « تقدمى » لعمارة هذه الأرض .

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك ، فأرى أن يكون هذا هو الشأن فى القرآن . خطاب الله الأخير للإنسان) (١) .

(١) فى ظلال القرآن م١ ج٣/٣٤٨ ، ٣٤٩ .

الإذن بالقتال والتربية بالجهاد

التطور الجديد على الساحة هو الإذن بالقتال . وعلى اختلاف آراء المؤرخين متى تم الإذن بالقتال ؟ لكن المؤكد أن القتال لم يقع إلا بعد الهجرة على خلاف فى ابتداء أول السرايا فى رمضان بعد سبعة أشهر من الهجرة أو فى صفر من السنة الثانية .

١ـ يقول الزرقانى فى شرحه على المواهب : (وأذن الله تعالى لرسوله ـ عليه السلام ـ بالقتال) لاثنتى عشرة ليلة مضت من صفر فى السنة الثانية من الهجرة . قال الزهرى محمد بن مسلم شيخ الإسلام : (أول آية نزلت فى الإذن بالقتال) كما أخبرنى عروة عن عائشة : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾(١) . أخرجه النسائى بإسناد صحيح موقوفاً على عائشة كما هو فى النسائى وحكمه الرفع لا على الزهرى كما أوهمه المصنف . نعم ! رواه ابن عائذ عن الزهرى معضلاً بإسقاط قوله : كما أخبرنى عروة عن عائشة . وزاد تلاوة الآية التى تليها إلى قوله : ﴿ ... لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢) . وأخرج أحمد والترمذى وحسّنه والنسائى وابن سعد والحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن . فنزلت : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ الآية . قال ابن عباس : فهى أول آية أنزلت فى القتال ... (قال فى البحر : والمأذون به ، أى : فى الآية هو المحذوف ، أى : فى القتال لدلالة الذين يقاتلون عليه ، وعلل بأنهم ظلموا ، كانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج فيقول لهم : « اصبروا فإنى لم أؤمر بقتال » حتى هاجر فأذن له بالقتال) ولم يُفرض عليه . وظاهره أنه لم يؤمر بالصبر بعد الهجرة مع أنه أمر بالصبر على أذى اليهود ووعد بالنصر عليهم ، كما قال العلماء فيما نقله فى الشامية ، لكنه نزله كالعدم بالنسبة لأذى أهل مكة فإنه كان بالمدينة فى غاية العزة من أول يوم ، وأذى اليهود غايته المجادلة والتعنت بالسؤال . وكان جبريل يأتيه من ربه بغالب الأجوبة أو لقلة مدته أتى بالتعقيب ، أى : أذن له بعد صبر قليل على أذى اليهود ، أى : لما قويت الشوكة واشتد الجناح (بعدما نهى عنه فى نيف وسبعين آية) غالبها بمكة ثم فرضٍ عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتل ، ثم فرض عليهم قتال المشركين) كافة . وبيِّن المصنف فى غزوة بنى قينقاع أن الكفار بعد الهجرة

(١) الحج / ٣٩ .

(٢) الحج / ٤٠ .

كانوا معه على ثلاثة أقسام (وقال غيره : وإنما شرع الله الجهاد فى الوقت الأليق به ؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً ، فلو أمر المسلمين وهم قليل بقتال الباغين لشق عليهم . فلما بغى المشركون وأخرجوه ـ عليه السلام ـ من بين أظهرهم وهموا بقتله ، واستقر عليه السلام بالمدينة ، واجتمع عليه أصحابه المهاجرون والأنصار ، وقاموا بنصره وصارت المدينة دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه شرع الله جهاد الأعداء . فبعث عليه السلام البعوث والسرايا وغزا) . وجرت عادة المحدّثين وأهل السير واصطلاحاتهم غالباً أن يسموا كل عسكر حضره النبى ﷺ بنفسه الكريمة غزوة ، وما لم يحضره بل أرسل بعضاً من أصحابه إلى العدو سرية وبعثاً (وقاتل هو وأصحابه حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً أفواجاً) (١) .

٢ ـ قال ابن إسحاق:(قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الإثنين حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل لثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول ، وهو التاريخ فيما قال ابن هشام) (٢) .

٣ ـ قال ابن إسحاق : (حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، ثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ:

أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : (إنكم أويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتُقاتلنه ، أو لتخرجن،أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم). فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبى ﷺ . فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم فقال لهم :

« لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟! » .

فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا . . .) (٣) .

٤ ـ قال ابن إسحاق : (ورسول الله ﷺ يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد أن بعثه الله ـ عز وجل ـ بثلاث عشرة سنة . فأقام بها بقية شهر ربيع الأول . وشهر ربيع الآخر وجمادين ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوالاً وذا القعدة

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج٨ ك١ المغازي / ٤٤٨ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٧٥ .
(٣) سنن أبى داود ،ج٣ باب فى خبر النضير / ١٥٣ .

وذا الحجة . وولى تلك الحجة المشركون ، والمحرم ، ثم خرج غازياً فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه المدينة .

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة سعد بن عبادة .

قال ابن إسحاق : حتى بلغ ودان ، وهى غزوة الأبواء . يريد قريشاً وبنى ضمرة ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فوادعته فيها بنو ضمرة . وكان الذى وادعه منهم عليهم مخشى بن عمرو الضمرى ، وكان سيدهم فى زمانه ذاك ، ثم رجع رسول الله ﷺ ولم يلق كيداً ، فأقام بها بقية صفر وصدراً من شهر ربيع الأول .

قال ابن هشام : وهى أول غزوة غزاها) (١) .

٥ ـ قال ابن إسحاق : (وبعث رسول الله ﷺ فى مقامه ذلك بالمدينة عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصى فى ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد . فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المُرة . فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش. فلم يكن بينهم قتال إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به فى الإسلام .

ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية ، وفرَّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى حليف بنى زهرة ، وعتبة بن غزوان المازنى حليف بنى نوفل ابن عبد مناف ، وكانا مسلمين ، ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار . وكان على القوم عكرمة بن أبى جهل .

قال ابن هشام : حدثنى ابن أبى عمرو بن العلاء ، عن أبى عمرو المدنى أنه كان عليهم مكرز بن حفص بن الأخيف أحد بنى معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر) (٢) .

قال ابن إسحاق : (فكانت راية عبيدة بن الحارث ـ فيما بلغنى ـ أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين ـ وبعض العلماء يزعم أن رسول الله ﷺ بعثه حين أقبل من غزوة الأبواء قبل أن يصل إلى المدينة) (٣) .

وعند الواقدى فى المغازى : (فخرج عبيدة فى ستين راكباً . فلقى أبا سفيان ابن حرب على ماءٍ يقال له : أحياء من بطن رابغ . وأبو سفيان يومئذ فى مائتين. فكان أول من رمى بسهم فى الإسلام سعد بن أبى وقاص نثر كنانته وتقدم أمام أصحابه ، ترس أصحابه عنه . قال: فرمى بما فى كنانته حتى أفناها . ما فيها سهم إلا ينكى به . . .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٧٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٢٨١ .

يقال : كان فى الكنانة عشرون سهماً . فليس منها سهم إلا يقع فيجرح إنساناً أو دابة . ولم يكن سهم يومئذ إلا هذا ، لم يسلوا السيوف ولم يصطفوا للقتال أكثر من الرمى والمناوشة . ثم انصرف هؤلاء على حاميتهم وهؤلاء على حاميتهم . فكان سعد بن أبى وقاص يقول فيما حدثنى ابن أبى سبرة عن المهاجر بن مسمار قال : كان الستون كلهم من قريش . قال سعد : فقلت لعبيدة : لو اتبعناهم لأصبناهم . فإنهم وقد ولوا مرعوبين . قال : فلم يتابعنى على ذلك . فانصرفنا إلى المدينة) (١) .

٦ - وبعث فى مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر (٢) من ناحية العيص(٣) فى ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد . فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى . وكان موادعاً للفريقين جميعاً . فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال .

وبعض الناس يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين ، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معاً . فشُبه ذلك على الناس . وقد زعموا أن حمزة قد قال فى ذلك شعراً يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله ﷺ . فإن كان حمزة قد قال فى ذلك فقد صدق إن شاء الله ، لم يكن يقول إلا حقا (٤) .

وقال فى الشامية : قال ابن سعد : والمجمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله ﷺ أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً . وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه فى دارهم وهذا هو الثبت عندنا (وصححه فى المورد . وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب - رضى الله تعالى عنهما - وهو أول لواء عقد فى الإسلام كما قال عروة وابن عقبة ومحمد بن عمر وابن سعد وابن عائذ والبيهقى وابن الأثير والدمياطى وغيرهم وصححه أبو عمر - رحمهم الله تعالى .

وقال الواقدى : فلما رجع حمزة إلى النبى ﷺ خبَّره بما حجز بينهم مجدى وأنهم رأوا منه نصفة لهم . فقدم رهط مجدى على النبى ﷺ فكساهم وصنع إليهم خبزاً ، وذكر مجدى بن عمرو فقال : إنه ما علمت ميمون النقيبة مبارك الأمر) (٥) .

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ١٠ ، ١١ . (٢) سيف البحر : ساحله .
(٣) العيص هنا : موضع ، وأصل العيص نبت الشجر وهو موضع فى بلاد بنى سُليم .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٨١ ، ٢٨٢ .
(٥) السيرة الشامية (سبل الهدى والرشاد) ٦ / ٢١ .

٧ ـ قال ابن إسحاق : (ثم غزا رسول الله ﷺ فى شهر ربيع الأول يريد قريشاً .

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة : السائب بن عثمان بن مظعون .

قال ابن إسحاق : حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً . فلبث فيها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى) (١) .

وقال الواقدى : (ثم غزا بواط ـ وبواط حيال ضبة من ناحية ذى خُشُب . بين بواط والمدينة ثلاث برد ـ فى ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً ، يعترض لعير قريش . فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير . ثم رجع ولم يلق كيداً) (٢) .

٨ ـ ثم غزا قريشاً فاستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد فيما قال ابن هشام .

قال ابن إسحاق : (فسلك على نقب بنى دينار ، ثم على فيفاء الخبار . فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر يقال لها : ذات الساق . فصلى عندها . فثم مسجده ﷺ. وصنع له عندها طعام فأكل منه،وأكل الناس معه. فموضع أثافى البرمة معلوم هنالك . واستقى له من ماء به يقال له : المشترب . ثم ارتحل رسول الله ﷺ فترك الخلائق بيسار ، وسلك شعبة يقال لها : شعبة عبد الله ، وذلك اسمها اليوم ، ثم صبَّ لليسار حتى هبط بليل فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة، واستقى من بئر بالضبوعة، ثم سلك الفرش ، فرش ملل ، حتى لقى الطريق بصحيرات اليمام ، ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العُشيرة من بطن ينبع . فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة ، ووادع فيها بنى مُدلج وحلفاءهم من بنى ضُمرة،ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً)(٣) .

وفى تلك الغزوة قال لعلىّ بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ ما قال .

قال ابن إسحاق : (فحدثنى يزيد بن محمد بن خيثم المحاربى ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن محمد بن خيثم أبى يزيد ، عن عمار بن ياسر قال : وكنت أنا وعلى بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العُشيرة . فلما نزلها رسول الله ﷺ وأقام بها ، رأينا أناساً من بنى مُدلج يعملون فى عين لهم وفى نخل. فقال لى على بن أبى طالب : يا أبا اليقظان ، هل لك فى أن نأتى هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون؟ قال : إن شئت. قال : فجئناهم . فنظرنا إلى عملهم ساعة ثم غشينا النوم . فانطلقنا أنا وعلى حتى اضطجعنا فى صور من النخل ، وفى دقعاء من التراب . فنمنا ، فوالله ما أهبَّنا إلا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٨٤ .

(٢) المغازى للواقدى ١ / ١٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٨٥ .

رسول الله ﷺ يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء التى نمنا فيها ، فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب : « ما لك يا أبا تراب » ، لما يرى عليه من التراب ثم قال: « ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله، قال : « أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا علىّ على هذه ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى يبل منها هذه » وأخذ بلحيته) (١).

٩ ـ قال ابن إسحاق : (وقد كان بعث رسول الله ﷺ فيما بين ذلك من غزوة سعد بن أبى وقاص ، فى ثمانية رهط من المهاجرين . فخرج حتى بلغ الخرَّار من أرض الحجاز . ثم رجع ولم يلق كيداً .

قال ابن هشام : ذكر بعض أهل العلم أن بعث سعد هذا كان بعد حمزة) (٢).

قال الصالحى : (وعقد له لواء أبيض حمله المقداد بن عمرو البهرانى . وعهد إليه رسول الله ﷺ ألا يجاوز الخرار . يعترض عيراً لقريش تمر بهم فخرجوا على أقدامهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى صبحوا أصبح خمس الخرار من الجحفة قريباً من خُمْ . فوجدوا العير قد مرت بالأمس فانصرفوا إلى المدينة) (٣).

وعند الواقدى عن سعد : (فكنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحناها صبح خمس فنجد العير قد مرت بالأمس . وقد كان النبى ﷺ عهد إلى ألا أجاوز الخرار . ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم) (٤) .

١٠ ـ قال ابن إسحاق : (ولم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العشيرة إلا ليالى قلائل لا تبلغ العشر حتى أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة فيما قاله ابن هشام .

قال ابن إسحاق : حتى بلغ وادياً يقال له : سفوان من ناحية بدر . وفاته كرز بن جابر فلم يدركه . وهى غزوة بدر الأولى ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجباً وشعبان) (٥) .

١١ ـ فى سرية فيها سعد بن أبى وقاص قال : (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة ، فقالوا له : إنك نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك وقومنا . فأوثق

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٨٥ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٢٨٦ .
(٣) السيرة الشامية للصالحى ٦ / ٢٥ .
(٤) المغازى ١ / ١١ .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٨٨ .

لهم فأسلموا . فبعثنا رسول الله ﷺ فى رجب ولا نكون مائة ، وأمرنا أن نغير على حى من بنى كنانة إلى جنب جهينة . فأغرنا عليهم وكانوا كثيراً فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا : لم تقاتلون فى الشهر الحرام ؟ فقلنا : إنما نقاتل من أخرجنا من البلد الحرام فى الشهر الحرام . فقال بعضنا لبعض : ما ترون ؟ فقال بعضنا : نأتى نبى الله فنخبره. وقال قوم : لا ، بل نقيم هاهنا . وقلت أنا فى أناسى معى : لا ، بل نأتى عير قريش فنقتطعها . فانطلقنا إلى العير . وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئاً فهو له . فانطلقنا إلى العير .وانطلق أصحابنا إلى النبى ﷺ فأخبروه الخبر . فقام غضباناً محمر الوجه فقال : « أذهبتم من عندى جميعاً وجئتم متفرقين ؟ ! إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة ؛ لأبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم ، أصبركم على الجوع والعطش » . فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدى فكان أول أمير أمر فى الإسلام) (١) .

١٢ - فى سرية أمير المؤمنين المجدّع فى الله تعالى عبد الله بن جحش - رضى الله تعالى عنه - فى رجب من السنة الثانية إلى بطن نخلة ، دعاه رسول الله ﷺ حين صلى العشاء فقال : « واف مع الصبح معك سلاحك أبعثك وجهاً » . قال : فوافيت الصبح وعلىّ قوسى وسيفى وجعبتى ومعى درقتى . فصلى رسول الله ﷺ الصبح بالناس ، ثم انصرف ، فيجدنى قد سبقت واقفاً عند بابه وأجد نفراً من قريش . فدعا رسول الله ﷺ أبى بن كعب فدخل عليه فأمره فكتب كتاباً ثم دعانى فأعطانى صحيفة من أديم خولانى وقال : « قد استعملتك على هؤلاء النفر ، فامض حتى إذا سرت ليلتين فانظر كتابى هذا ثم امض لما فيه » . قلت :يا رسول الله،أى ناحية ؟ قال : «اسلك النجدية تؤم ركبه » . قال ابن إسحاق وأبو عمر :

وأرسل معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم أنصارى وهم : أبو حذيفة بن عتبة ، وسعد بن أبى وقاص ، وعكاشة بن محصن ، وعتبة بن غزوان، وعامر بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله الليثى ، وخالد بن البكير ، وسهيل ابن بيضاء .

وذكر ابن عائذ : فيهم سهل ابن بيضاء ولم يذكر سهيلاً ولا خالداً ولا عكاشة . وذكر ابن سعد : فيهم المقداد بن عمرو - وهو الذى أسر الحكم بن كيسان . وقال ابن سعد : كانوا اثنى عشر من المهاجرين ، كل اثنين يعتقبان بعيراً. وروى الطبرانى بسند حسن عن زر بن حبيش - رحمه الله تعالى - قال : « أول راية رفعت فى الإسلام راية عبد الله بن جحش » (٢) .

فانطلق عبد الله بن جحش حتى إذا كان مسيرة يومين فتح الكتاب فإذا فيه: « سر

---

(١) مسند الإمام أحمد ١ / ١٧٨ ، والسيرة الشامية للصالحى ٦ / ٢٧ .

(٢) الهيثمى فى المجمع ٦ / ٧٠ وقال : « رواه الطبرانى بإسناد حسن » .

باسم الله وبركته ولا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك ، وامض لأمرى فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصّد عير قريش ، وتعلم لنا أخبارهم » فلما نظر فى الكتاب قال : سمعا وطاعة . وقرأه على أصحابه وقال : قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر . وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم . فمن كان يريد الشهادة ويرغب بها فلينطلق . ومن كره ذلك فليرجع . . . فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ . فقالوا أجمعون :

نحن سامعون مطيعون لله تعالى ولرسوله ﷺ ولك ، فسر على بركة الله .

فسار ومعه أصحابه لم يتخلف منهم أحد . وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له : بحران أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه . فتخلفا فى طلبه يومين ولم يشهدا الموقعة . وقدما المدينة بعدهم بأيام . ومضى عبد الله بن جحش فى بقية أصحابه حتى نزل بنخلة . فمرت به عير قريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة قريش ، جاؤوا بها من الطائف . فيها عمرو بن الحضرمى وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومى وأخوه نوفل بن عبد الله . وقيل : بل أخوهما المغيرة . والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة .

فلما رآهم أصحاب العير هابوهم وأنكروا أمرهم . وقد نزلوا قريباً منهم ، فحلق عكاشة بن محصن رأسه ،وقيل : واقد بن عبد الله . ثم وافى ليطمئن القوم فلما رأوهم قالوا : لا بأس عليكم منهم ، قوم عمار . فأمنوا وقيّدوا ركابهم وصنعوا طعاماً. فاشتور المسلمون فى أمرهم ذلك فى آخر يوم من رجب ، ويقال : أول يوم من شعبان . وقيل : فى آخر يوم من جمادى الآخرة . فشكّوا فى ذلك اليوم أهو من الشهر الحرام أم لا. فقالوا: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلُن الحرم ، فليمتنعُن منكم به ولئن قتلتموهم لتقلتنهم فى المسجد الحرام . فتردّد القوم وهابوا الإقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم .

فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله . وشدّ المسلمون عليهم فأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان أسره المقداد بن عمرو. وأعجز القوم نوفل بن عبد الله بن المغيرة عند من يقول : إنه كان معهم . . . وحاز المسلمون العير ، وعزل عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ خمس تلك الغنيمة ، وقسم سائرها بين أصحابه . فكان أول خمس خمِّس فى الإسلام ، وأول غنيمة . وأول قتيل بيد المسلمين عمرو بن الحضرمى ، وأول أسير كان فى الإسلام عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان . وذلك قبل أن يفرض الخمس من المغانم . فلما أحل

الله الفيء بعد ذلك وأمر بقسمه ، وفرض الخمس فيه وقع على ما كان صنع عبد الله بن جحش فى تلك العير . وقال بعضهم : بل قدموا بالغنيمة كلها . وروى الطبرانى بسند حسن عن زر بن حبيش رضي الله عنه قال : أول مال خمس فى الإسلام مال عبد الله بن جحش . ثم سار عبد الله بالعير والأسيرين إلى المدينة . فلما قدم على رسول الله ﷺ قال : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ». فأوقف العير والأسيرين . وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك سقط فى أيديهم وظنوا أنهم هلكوا . وعنّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا .

وقالت قريش : استحل محمد الشهر الحرام وأصحابه ، وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال فقال من يرد عليهم من المسلمين ممّن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان . وقالت يهودٌ تتفاءل بذلك على رسول الله ﷺ : عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله الليثى، عمرو: عمرت الحرب ، والحضرمى: حضرت الحرب ، وواقد بن عبد الله : وقدت الحرب .

فجعل الله ذلك عليهم لا لهم . فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ** ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **خَالِدُون** ﴾(١).

فلما نزل القرآن بهذا الأمر،وفرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق ، قبض رسول الله ﷺ الغنيمة أو خمسها والأسيرين .

وبعثت إليه قريش فى فداء الأسيرين . فقال رسول الله ﷺ : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ يعنى سعد بن أبى وقاص ، وعتبة بن غزوان ـ فإنا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » . فقدم سعد وعتبة فأفدى رسول الله ﷺ الأسيرين عند ذلك بأربعين أوقية لكل أسير . فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً . وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات كافراً .

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر فقالوا :

يا رسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟

فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (٢) فوضعهم الله تعالى من ذلك على أعظم

(١) البقرة / ٢١٧ .

(٢) البقرة / ٢١٨ .

الرجاء [1] .



١ ـ لقد كانت قريش تدرك خطورة خروج رسول الله ﷺ بين ظهرانيها منذ ليلة الهجرة . حين قال إبليس لهم :

والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به . والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه عليه . ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأياً غير هذا.

وأعداء الله ورسوله من الإنس والجن يدركون عظمة هذا النبى ، وقوة تأثيره على أصحابه . وكيف يفعل حبهم له الأعاجيب . ولذلك لم يقر لهم قرار حين أفلت من أيديهم ونزل فى الأوس والخزرج الذى يمثلون شوكة حادة فى جنبهم وقوة لا يستهان بها ، كما قالوا لهم يوم بيعة العقبة :

يا معشر الخزرج ، إنه بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا تبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فهم يدركون أنها الحرب الضروس القادمة . خاصة وأن نداء الشيطان الذى أفاقوا عليه أكد هذا المعنى : (فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب (المنازل) ، هل لكم فى مذمم (محمد) والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟ !) .

فالشيطان أولاً وثانياً أكد لقريش أن الحرب قادمة لا محالة بين محمد ﷺ والحزب الذى ينضم له وبينهم ، حتى يهلك أحد الفريقين . وهذه من الثوابت التى لا تقبل النقاش عند قيادات قريش .

٢ ـ ولابد من الاعتراف أن قريشًا أبدت كفاءة فائقة فى مواجهة الدعوة. ولم تنم أو تستسلم إلى الدعة بعد خروج الرسول ﷺ إلى المدينة مع أصحابه . وكان بين يديها معلومتين خطيرتين فى الصف الداخلى للأوس والخزرج . اعتمدت عليهما كثيراً فى مواجهة المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه :

المعلومة الأولى : أن عبد الله بن أبى سيد الخزرج هو ضد هذه الدعوة ، وضد

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٦ / ٢٨ ـ ٣٢ .

قائدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ أدركت ذلك منذ ليلة العقبة . وحين التقى وفدها بابن أبى زعيم وفد الخزرج ، وبعد أن نقلوا له ما سمعوا من حلفهم مع محمد ﷺ حين قال لهم :

(والله إن هذا لأمر جسيم . ما كان قومى ليتفوتوا علىّ بمثل هذا ، وما علمته كان) .

قال : فانصرفوا عنه .

وهم يدركون أن عبد الله بن أبى سيبقى العدو الألد ؛ لأن الانقلاب الفكرى والعسكرى قد تم من خلف ظهره ودون علمه . فهو ركيزة رئيسية لهم .

المعلومة الثانية : يعرفون نزيف الدماء الرهيب بين الحيين الأوس والخزرج . وأن صفهم الداخلى قابل للانفجار فى كل لحظة .

ومن هاتين المعلومتين ومن يقظة استخباراتهم كذلك أدركوا مركز القوة المناسب للمواجهة فبعثوا إلى عبد الله بن أبى قائلين :

إنكم أويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو ليخرجن ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم .

وكانت هذه الخطة الأولى من قريش للمواجهة فى إشعال الصف الداخلى من جديد .

لكنّ عظمة النبوة وعظمة القائد المربى ـ عليه الصلاة والسلام . دفنت هذه الفتنة فى مهدها ، وضرب على وتر العزة القبلية . لتبريد الفتنة الخارجية . فقال لابن أبى ومن معه من المشركين الذين حملوا السلاح للمواجهة :

« ولقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ . ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ ! » .

فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا .

ونحن بحاجة إلى وقفة قصيرة مع هذا الموقف النبوى العظيم . فالذى يتبادر إلى الذهن أن تصدر الأوامر النبوية للمسلمين بحمل السلاح والمواجهة مع الكفار ، باسم المفاصلة وتطهير الصف الداخلى وأن المعركة ابتداء معركة إيمان وكفر . وسيستجيب المسلمون لذلك . لكن ما هى آثار هذا الموقف فيما بعد ؟ لا شك أنه سيتكون فريق داخل الصف الإسلامى يحمل راية الثأر ممّن ؟ من رسول الله ﷺ والذى أدى دخوله إلى قتل الآباء والأبناء والأعمام . ولما يمر بعد عام واحد على الدعوة فى صفوفهم .

وطبيعة الثأر عند العربى أقوى غرائزه . فسينظر هذا الفريق بحقد إلى هؤلاء الذين نزلوا فى دارهم . وأوقعوا الحرب بينهم منذ السنة الأولى مع أن قياداتهم أقبلت على هذه الدعوة بهدف وحدة صفها الداخلى ، كما قال أسعد بن زرارة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : قال : إنا قد تركنا قومنا . ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك .

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعظمة بصره النافذ ، يدرك أغوار النفس البشرية التى يتعامل معها ، ويدرك كذلك أن المهمة الأولى التى تنتظره هى التحام هذه القلوب حول هذا الدين وحوله . وأن يهيئ كل العوامل النفسية لذلك . ومعركة داخلية فى الصف المسلم فى أيامه الأولى تمزق وتفرّق ولا تجمع وتضم ؛ ولهذا كان تركيزه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على وحدة الصف الداخلى ابتداء فى مواجهة العدو الخارجى حتى لا تقع المقتلة. فتمزق الصف، وتوهنه.

والدعاة إلى الله تعالى لابد أن يدركوا هذا الفقه العظيم للنبوة ، حين يمرون بمثل هذه المخاطر،ويتعرضون لمثل هذه المواقف. وما نشهده فى أفغانستان اليوم، وفى بدايات الحكم الإسلامى الراشد ، يعطينا صورة تامة عن خطورة قتال الإخوة مع بعضهم. ومع مراكز القوى الأخرى من الميلشيات الشيوعية والعدو الخارجى المتربص هو الذى يدفع بعنف لهذا الانفجار ؛ كى يتحطم الوجود الإسلامى كله . ولعل استلهام التصرف النبوى النموذج يجنِّب قادة الجهاد الإسلامى العواقب الوخيمة لهذه المحنة .

٣ـ وكان الجانب الإسلامى يدرك كذلك أن الحرب لابد قادمة مع قريش ولابد من توحيد المعركة لا تشتيتها . فقد عاهدوا رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود من الناس ، وعاهدوه على أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأولادهم إذا قدم عليهم . وفى الوقت الذى كانت ملامح القتال مع قريش تفرض نفسها على الساحة ، كانت الأوامر تنزل إلى المسلمين بالصبر فى صراعهم مع اليهود ، علماً بأن الاستفزازات اليهودية كانت تدعو إلى قتالهم . غير أن القضية مع القيادة الإسلامية ليست قضية استفزازات أو ردود فعل . إنها قضية تخطيط ، ودراسة للقوى القائمة . والتوجيه الربانى لهذه القاعدة الصلبة ، يصوب هذا الاتجاه أو ذاك حين يقع خلل فى الاتجاه .

ومع الإقرار فى بيعة الحرب فى العقبة لمبدأ القتال . لكنا لاحظنا مع إقرار هذا المبدأ ملاحظتين اثنتين :

الأولى : أنه لم يجر توقيت محدد لهذا القتال ، ولم يتحدد زمانه . وهذا مرهون

بالقرار النبوى ، أو بصورة أصح مرهون ابتداءً بالإذن الربانى .

الثانية : أن ساحة المعركة حسب نصوص البيعة هى المدينة ، لأن البيعة كانت تنص على الدفاع عن رسول الله ﷺ كما طلب منهم ـ عليه الصلاة والسلام . ولم تكن تنص على مواجهة قريش فى عقر دارها ، ومن أجل ذلك لم يشرك رسول الله ﷺ الأنصار فى سرايا الاستطلاع والهجوم الأولى والتى تمت قبل بدر . إنما كان يقوم بها المهاجرون فقط .

٤ ـ ونعود إلى نص الإمام الزرقانى الذى يقول :

وأذن الله تعالى لرسوله ـ عليه السلام ـ فى القتال لاثنتى عشرة ليلة مضت من صفر فى السنة الثانية من الهجرة . قال الزهرى محمد بن مسلم شيخ الإسلام : أول آية أنزلت فى الإذن بالقتال كما أخبرنى عروة ، عن عائشة : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (١) .

وبدأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحرك فى الساحة بين مكة والمدينة ، حيث شريان حياة مكة فى تجارتهم إلى الشام . وذلك بعد نزول الإذن له بالقتال (٢) . وقام بأربع غزوات فى هذه المرحلة .

أ ـ لقد كانت الغزوة الأولى ـ كما يقول ابن إسحاق : إلى ودان أو الأبواء ليلقى جمعاً من قريش ، ولموادعة بنى ضمرة . وأول ما يواجهنا فى الغزوات النبوية هى قضية الاستطلاع النبوى التى لا نعرف عنها شيئا . ولم تذكر كتب السيرة شيئاً عن ذلك . وإننا نستبعد أن يكون الوحى هو الذى يتنزل على رسول الله ﷺ بتحرك قوافل قريش ؛ لأن بعض السرايا أو الغزوات كانت تجد القافلة قد غادرت المكان أو سبقت إليه . إنما هى إذن عملية الجهد البشرى فى الاستطلاع . وإن المرء ليقف مشدوهاً أمام هذه التحركات السريعة خلال عام واحد . والذى نقدره ـ والله أعلم ـ أن العباس رضي الله عنه وبعض المسلمين الذين مكثوا فى مكة كانوا يوافون رسول الله ﷺ بكل التحركات لقوافل تجارة مكة وعلى جميع الاتجاهات . وانطلاقاً من هذه المعلومات كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحرك فى الوقت المناسب .

---

(١) الحج / ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) يرى محمد بن إسحاق أن الإذن بالقتال قد تم منذ بيعة العقبة الثانية . وإن كان لم تتم مباشرته إلا فى صفر من السنة الثانية .

وقد ذكرت كتب السيرة أن لهذه الغزوة هدفين هما لقاء قريش ، وموادعة بنى ضمرة . هذه الموادعة التى تشير إلى خط واضح فى معالم السيرة النبوية ، هى إمكانية العهود والعقود مع غير المسلمين لمصلحة الإسلام . فبنو ضمرة مركز استراتيجى هام على خط القوافل المكية المتجهة إلى الشام ، فهو مركز استخبارات لصالح الدولة المسلمة ومركز وقاية .

والظاهر أن هذا التحالف قد تم أولاً دون توثيق فى غزوة ودان . ثم تم توثيقه فيما بعد فى غزوة العشيرة التى تمت بعد أربعة أشهر من غزوة ودان أو أقل . وكان نص وثيقة التحالف :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم ، ألا يحاربوا فى دين الله ما بل بحر صوفة . وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله » .

وهو نموذج حى لطبيعة التعاقدات مع غير المسلمين ، وحدودها التى ترتبط بالنصرة المتبادلة بين الطرفين . وذلك لمواجهة عدوٍ ثالث .

والذى يؤكد أن سيد بنى ضمرة لم يدخل الإسلام هو ما ذكره علماء السير من أنه كان مشركاً . يقول الزرقانى فى شرحه على متن العسقلانى :

(قال ابن إسحاق وابن سعد وأبو عمر : عقد ذلك مع سيدهم مخشى بن عمرو الضمرى . . . قال البرهان : لا أعلم له إسلاماً . وقال الشابى : لم أر من ذكر له إسلاماً) (١) .

وفعلاً ففى تراجم الصحابة لا ذكر له .

وتشير الرواية كذلك إلى أن هذا الحلف قد تم كذلك مع بنى مدلج من بنى كنانة . ولا تشير روايات السيرة إلى تفاصيل مهمة عن هذا الحلف . لكننا حين نعود إلى رحلة الهجرة نجد فى رواية البخارى عن سراقة بن مالك رضي الله عنه سيد بنى مدلج وأحد سادات بنى كنانة . نجد قوله :

« . . . فسألته أن يكتب لى كتاب أمنٍ . فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أدم ثم مضى رسول الله ﷺ » (٢) .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : (وفى رواية الإسماعيلى : كتاب موادعة ،

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٤٥٥ .
(٢) فتح البارى ٧ / ٣٣٩ .

وفى رواية ابن إسحاق : كتاباً يكون آية بينى وبينك) (١).

فقد تمت تلك الموادعة بين بنى مدلج ورسول الله ﷺ منذ الهجرة ، ولعلها قد توثقت مرة ثانية فى غزوة العشيرة . وبقيت مستمرة طيلة العهد المدنى . نلحظ ذلك من قول سراقة رضي الله عنه كما ذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح عن رواية الحسن عن سراقة قال :

فبلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى فأتيته فقلت : أحب أن توادع قومى ، فإن أسلم قومك أسلموا . وإلا أمنت منهم ففعل ذلك ، ففيهم نزلت : ﴿ . . . إلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ (٢) (٣) .

وحين نذكر أن عدد المسلمين فى غزوة ودان أو الأبواء كان ستين رجلاً من المهاجرين ، وفى غزوة العشيرة فى خمسين ومائة رجل من المهاجرين . ندرك أن هاتين الغزوتين كانتا تدريباً عملياً لهذا الجيل على القيادة . فهم مهيؤون لأن يكونوا قادة دول وقادة جيوش فيما بعد ، فلأن يتلقوا التربية المناسبة للتعلم على طبيعة الحرب ، وطبيعة السلم ، وطبيعة التحالف والتعامل مع الأعداء والأصدقاء ، وحين يشهدون بأعينهم هذه المواقف تصبح جزءاً من كيانهم وتركيبهم . ويتحملون مسؤولية قيادة هذه الأمة فيما بعد .

ب ـ والملاحظ أن اتجاه الغزوات الثلاثة كان إلى جهة واحدة . وللملاحظة عير قريش ، ومواجهتها . وهذه الغزوات هى : ودان وبُواط والعُشيرة . فلم يكن بين بواط وودان أكثر من شهر واحد . ويمكن القول : إن النبى ﷺ تحرك إلى ودان قبل شهر ليحقق تلك الموادعة وذلك الحلف مع بنى ضمرة . وتمهيداً ليكون هذا الحليف دائماً مركز معلومات للمدينة . وحين بلغ النبى ﷺ أخبار التجارة الماضية من مكة إلى الشام تحرك بسرعة إلى ذلك المكان .

ففى شرح المواهب : (ثم غزوة بُواط . . . غزاها ﷺ فى شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة حتى بلغها من ناحية رضوى) جبل بالمدينة . . . على أربعة برد من المدينة . . . وفى خلاصة الوفاء : رضوى كسكرى جبل على يوم من ينبع وأربعة أيام من المدينة . . . (فى مائتين من أصحابه) المهاجرين وحمل لواءه وكان أبيض سعد بن أبى وقاص كما فى الشامية (يعترض عيراً) لقريش عدتها ألفان وخمسمائة بعير ، قاله ابن سعد وشيخه الواقدى:(فيهم أمية بن خلف الجمحى ، ومائة

---

(١) المصدر السابق ٧ / ٣٤٢ .
(٢) النساء / ٩٠ .
(٣) فتح البارى ٧ / ٣٤٢ .

رجل من قريش) (١) . أما غزوة العشيرة فقد (نسبت إلى المكان الذى وصلوا إليه ، وهو موضع لبنى مدلج بينبع) ليس بينها وبين البلد إلا الطريق السالك . (وخرج إليها ﷺ فى جمادى الأولى وقيل : الآخرة ، على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة فى خمسين ومائة رجل . وقيل : مائتين ومعهم ثلاثون بعيراً يعتقبونها . وحمل اللواء - وكان أبيض - حمزة . يريد عير قريش التى صدرت من مكة إلى الشام بالتجارة) . وكانت قريش جمعت أموالها فى تلك العير ، ويقال : إن فيها خمسين ألف دينار وألف بعير . . . (فخرج إليها ليغنمها فوجدها قد مضت) قبل ذلك بأيام وهى العير التى خرج إليها حين رجعت من الشام فكان بسببها وقعة بدر الكبرى) (٢) .

بينما نرى أن الغزوة الرابعة والتى توجه فيها رسول الله ﷺ إلى بدر كانت رداً على الهجوم المباغت الذى قام به كرز بن جابر الفهرى على المدينة . فلذلك لم يكن بينها وبين غزوة العشيرة إلا عشرة أيام (فخرج رسول الله ﷺ حتى بلغ سفوان موضع ناحية من بدر . . . ففاته كرز بن جابر ، وتُسمى بدراً الأولى ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وحمل اللواء على بن أبى طالب . فرجع ولم يلق كيداً) (٣) .

والصورة الجديدة التى نستقيها من هذه الغزوة الأخيرة هى طبيعة التحرك اليقظ رداً على إغارة كرز بن جابر الفهرى . والملاحقة حتى بدر ، وتعنى الاستعداد للمواجهة . وتعنى للجيل المسلم أن قدره فى الجهاد ألا يخرج من معركة إلا ويدخل فى أخرى . ولا يجوز أن يكون الموطن الإسلامى نهباً للغارات دون ردع أو ثأر .

٥ - ونلاحظ ولاة رسل الله ﷺ على المدينة فى حال غيابه عنها . فقد كان سعد ابن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج هو والى المدينة فى غزوة ودان أو الأبواء . بينما كان والى المدينة فى غزوة بواط السائب بن عثمان بن مظعون . وواليها فى غزوة العشيرة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى . وواليها فى غزوة بدر الأولى أو سفوان زيد بن حارثة. ومع أن الفترة التى كان يغيب فيها رسول الله ﷺ عن المدينة هى فترة قصيرة . لكن هذا لا يعنى أن يبقى المسلمون دون حاكم مسؤول يفيؤون إليه . وهى من جهة ثانية تجربة لهذه النماذج على القيادة ، وتهيئة لها للمستقبل . ونلاحظ أن ولاية سعد بن عبادة رضي الله عنه ذات مغزى فى أول غياب يغيبه المصطفى ﷺ عن المدينة . والخزرج هم أكثر أهل المدينة . لكن التجربة لم تتكرر لإفساح المجال لبقية الطاقات أن تمارس

---

(١) شرح المواهب للإمام الزرقانى ١ / ٤٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٤٥٨ . ونشير إلى أن ما بين القوسين هو نص القسطلانى وما دونهما فهو للزرقانى .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٤٦٠ .

المسؤولية من جهة . ولأن سعداً رضي الله عنه لا يزال يمثل الأغلبية القوية فى المدينة . وقد يرى الأوس فى هذا الأمر نوعاً من النفاسة عليهم . ولا ترتاح نفوسهم لذلك ، وهذا فى السنة الأولى للهجرة . وكما رأينا فى الأيام الأولى قبل إعلان دولة الإسلام أن مصعب بن عمير رضي الله عنه هو الذى كان أهدأ للنفوس ليقود المدينة من أسعد بن زرارة الخزرجى النجارى رضي الله عنه فالحيان الكبيران لا يجدان غضاضة أن ينصاعا لرجال الجيل الأول من المهاجرين والذين سبقوهم بإحسان . ويطمئنون إلى بعده عن الثارات والنعرات القبلية السابقة . ونذكر أن سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج وأول ولاة رسول الله ﷺ . هو نفسه الذى أجمعت عليه الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة قبل أن تتم خلافة الصديق . ولسعد بن عبادة رضي الله عنه حدته المعروفة والتى نذكر منها قوله فى الطريق إلى مكة عام الفتح حين رأى أبا سفيان :

اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً . . . وكان جواب المصطفى ﷺ على ذلك : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم تعظم الحرمة ، اليوم أعز الله قريشاً » .

ورجا عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يرحم مكة من ثارات سعد . فقال : يا رسول الله ، اسمع ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة . فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب : « أدركه فخذ الراية ، فكن أنت الذى تدخل بها»(١) .

(وفى رواية الأموى : وأرسل إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس) وفى رواية عند ابن عساكر من طريق أبى الزبير عن جابر لما قال سعد بن عبادة ذلك عارضت امرأة رسول الله ﷺ فقالت :

يا نبى الهدى إليك لجا حى قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء
والتفت حلقتا البطان على القوم ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعداً يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء

فلما سمع هذا الشعر دخلته رأفة ورحمة فأمر بالراية فأخذت من سعد ودفعت إلى

(١) السيرة النبوية لابن هشام وقد وردت فى صيغة ضعيفة : قال ابن إسحاق : (فزعم بعض أهل العلم) .

ابنه قيس) (١) .

فسعد شديد إذن ، يصلح أن يكون قائداً فى معركة أكثر من أن يكون رجل دولة . ولهذه العوامل ـ والله أعلم ـ كانت الولاية فى الغزوة التالية للسائب بن عثمان بن مظعون . ولابد من الإشارة هنا إلى أن الواقدى ذكر أن والى المدينة فى غزوة بواط هو سعد بن معاذ رضي الله عنه ووجه ذلك لو صح أن يستوى الحيان فى هذا المجد ، فلا يمضى مجد ولاية المدينة للخزرج وحدهم ينفسون بها على إخوانهم من الأوس . فسعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه . أما بروز السائب بن عثمان بن مظعون الجمحى رضي الله عنه وهو الشاب . فلعله نوع من الوفاء له بعد وفاة والده رضي الله عنه عثمان بن مظعون أول المهاجرين موتاً فى المدينة ـ وتدريب لهذه الطاقة الشبابية على المسؤولية . وليس بعيداً أن نربط بين السائب بن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أمير المدينة فى غياب المصطفى ﷺ . وبين إمرة أمية ابن خلف الجمحى على قافلة قريش الكبرى . وإشعار قريش أن كل بطونها يحملون المسؤولية فى المدينة تحت راية محمد ﷺ . كما هى حالهم فى مكة .

وكان الوالى الثالث لرسول الله ﷺ ابن عمته أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، والوالى الرابع مولاه زيد بن حارثة . وكانت هذه الاختبارات النبوية عملية تدريب لهذه القيادات من جهة لتمارس مسؤولية الحكم والإدارة . وعملية تدريب للجيل القائد من المهاجرين والأنصار ، فتنمو عندهم عملية السمع والطاعة للأمير أياً كان شأنه . طالما أن رسول الله ﷺ هو الذى ولاه . وزيد بن حارثة مولى ، والسائب بن عثمان شاب من بطن ضعيفة من بطون قريش لا يؤبه له . ومع ذلك فالسمع والطاعة قاعدة إسلامية أصيلة تحتاج إلى أن تتمكن فى النفوس المسلمة ذات العزة الجاهلية السابغة ، والنعرة القبلية والأنفة والحمية من خلال الممارسة العملية . فليس صعباً إطلاقاً أن تنقاد هذه النفوس لرسول الله ﷺ ، لكن الصعوبة الحقيقية أن تنقاد لهؤلاء الولاة . الذين قد يكونون فى الحسب والنسب دون غيرهم بكثير . أو أنهم يمثلون فرعاً خصماً للفرع الآخر . لكن الشيء الذى لا يقبل المناقشة فى المفهوم الإسلامى . هو السمع والطاعة للأمير ولو كان رأسه زبيبة ما أقام كتاب الله . ولم يحمل تاريخ السيرة لهذا الجيل خلال العام الأول ومنتصف العام الثانى ولو مخالفة واحدة للأمير مما يعنى عظمة تمكن هذا الدين بهذه النفوس بهذه السرعة العجيبة .

٦ ـ وكان حمل الرايات بين يدى رسول الله ﷺ يحمل شيئاً من المعانى السابقة .

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلانى ، الشرح ٢ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

فقد كان اللواء عند قريش واحداً من المفاخر العشرة التى تقاسمتها قريش وكان من نصيب بنى عبد الدار .

لقد كان حامل اللواء فى غزوة ودان حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ (وكان أبيض) .

وكان حامل اللواء في غزوة بواط سعد بن أبى وقاص خال رسول الله ﷺ(وكان أبيض) .

وكان حامل اللواء فى غزوة العشيرة حمزة مرة ثانية (وكان أبيض) كذلك .

وكان حامل اللواء فى غزوة سفوان أو بدر الأولى على بن أبى طالب رضي الله عنه (وكان أبيض) .

والملاحظ أن حملة اللواء هم من أقرب المقربين من رسول الله ﷺ . ولعل ذلك يعنى أن القيادة العسكرية منوطة بقريش عامة وبنى هاشم خاصة . ففداء القائد والذود عنه من أقرب المقربين إليه . وهو تدريب لهذه النماذج العالية على مسؤولية القيادة العسكرية وتدريب لها على الاضطلاع بهذه المهام . ونجد صلة وثيقة بين حملة الألوية وبين قادة السرايا فى هذه المرحلة . فحمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ ، وسعد بن أبى وقاص ، ثم عبد الله بن جحش هم قادة السرايا النبوية خلال هذه المرحلة. وقد كان سعد رضي الله عنه قد برز جندياً خبيرا فى إحدى السرايا . حيث كان أول من رمى بسهم فى سبيل الله . ولم تطش له رمية ففى كل سهم عقر لعدوٍ من أعداء الله . ومن خلال هذه الطاقات الشابة التى برزت أمكن أن توكل إليه قيادة إحدى السرايا فيما بعد .

٧ ـ وحين نقف مع كل سرية على حدة ، نلاحظ جوانب ذات أهمية فى عملية التربية النبوية ، والتدريب على المسؤولية :

أ ـ لقد كان عبيدة بن الحارث رضي الله عنه شيخ بنى هاشم وسيدهم . وكان أسنّ بنى عبد مناف فهو أسن من أعمامه العباس وحمزة ـ رضوان الله عليهما ـ ولا غرو أن يقلده ـ عليه الصلاة والسلام ـ سنام القيادة وهو بهذا الفضل فى ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد .(فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المرة . فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش فلم يكن بينهم قتال إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمى به فى الإسلام) .

وتشير الرواية إلى أن الصدّيق رضي الله عنه كان فى هذا السرية . إنه وهو الوزير

الأول،وصدّيق الأمة لا يمنعه ذلك أن يكون جندياً تحت راية عبيدة بن الحارث . فلكل موقعه ، وموقع القيادة العسكرية لعل عبيدة أجدر به من أبى بكر فأوكل له . ومن جهة ثانية ، فوجود الصدّيق رضي الله عنه فى هذه السرية يعنى انتقال المدرسة المحمدية التربوية مع هذه السرية ، فالصديق ـ رضوان الله عليه ـ هو الصورة الشخصية للأسوة النبوية كما تحدثنا من قبل .

وتشير الرواية كذلك إلى أن هذا الحدث لم يمر عابراً ، إنما تناقلته الركبان من خلال الأشعار التى تبودلت بين الفريقين ، وهى استئناف لتلك المعركة الشعرية القصيرة التى كانت عقب بيعة العقبة . ومما قاله الصديق رضي الله عنه فيما رواه ابن إسحاق :

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث ارقت وأمر فى العشيرة حادث
ترى من لؤى فِرقة لا يصدُّها عن الكفر تذكير ولا بعث باعث
فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم فما طيبات الحل مثل الخبائث
وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم فليس عذاب الله عنهم بلابث
ونحن أناس من ذؤابة غالب لنا العز منها فى الفروع الأثائث(١)

إلى أبيات أخرى يلوِّح فيها رضي الله عنه بالمواجهة العسكرية .

فيبرز شاعر قريش عبد الله بن الزبعرى السهمى ليرد على هذا الهجوم فكان مما قاله :

ومن عجب الأيام ـ والدهر كله له عجب ـ من سابقات وحادث
لجيش أتانا ذى عُرام يقوده عبيدة يدعى فى الهياج ابن حارث
لنترك أصناماً بمكة عكفاً مواريث موروث كريم لوارث
فأبلغ أبا بكر لديك رسالة فما أنت من أعراض فِهر بماكث
ولما تجب منى يمين غليظة تجدِّد حرباً حلفة غير حانث(٢)

ويذكر ابن إسحاق شعراً لسعد بن أبى وقاص رضي الله عنه وهو يفخر بسهمه الأول :

فما يعتد رامٍ فى عدوٍ بسهمٍ يا رسول الله قبلى

لقد بدأ شعر العقيدة يطفح على الساحة العربية ، ويرافق هذا الشعر تلويح وتهديد بالمواجهة والحرب العوان بين الفريقين .

(١) الأثائث : الكثيرة المجتمعة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٧٧ ـ ٢٨٠ . وقد ذكر ابن هشام أن أهل العلم بالشعر ينكرون القصيدتين .

وفى هذه السرية انضم بطلان قرمان إلى الجيش الإسلامى حيث فرا من جيش قريش. هما المقداد بن عمرو فارس رسول الله ﷺ . ويقال : هو الفارس الأول فى بدر، وعتبة بن غزوان ، سابع سبعة أسلم مع رسول الله ﷺ ، وصديق سعد رضي الله عنه وواليه على البصرة بعد ربع قرن أو يزيد .

وكانت هذه المعركة الجانبية بمثابة تدريب عملى على المواجهة العسكرية وكسر حاجز التهيب من العدو . وهى تلاقى فى نفوس المسلمين صدىً عميقاً. فقد آن أوان المواجهة والقتال بعد حبس عنه استمر خمسة عشر عاماً احترقت فيها أعصاب العصبة المسلمة . فكان هذا أول تنفس لهم بعد هذه الفترة الطويلة . ومن أجل هذا رأينا سعداً رضي الله عنه ينثر كنانته كلها ويفرغ أسهمه فى صدور العدو ونحورهم . ونجده يأتى إلى قائده عبيدة ـ رضى الله عنهما ـ فى نهاية المعركة ، فيقول له :

(لو اتبعناهم لأصبناهم فإنهم قد ولوا مرعوبين . قال : فلم يتابعنى على ذلك ، فانصرفنا إلى المدينة) . إنه يملك فقط أن يقترح . وعندما رفض قائده ذلك التزم بأوامره وعاد إلى المدينة .

ب ـ ومن سرية عبيدة إلى سرية حمزة على خلاف عند علماء السير أيهما قبل الآخر ، وإن كان ابن إسحاق يجمع بين الرأيين فيقول : وبعض الناس يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معاً . فشبّه ذلك على الناس .

فزعموا أن حمزة قد قال شعراً يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله ﷺ . فإن كان حمزة قد قال ذلك فقد صدق إن شاء الله . لم يكن يقول إلا حقاً . . . فقال حمزة فى ذلك :

ألا يـــالقــومــى للتحلم والجهل — وللـنقص من رأى الرجال وللعقل
ولـلراكـبينا بالـمظـالم لـم نـطأ — لهــم حــرمات من سوامٍ ولا أهل
وأمـــر بإســـلام فـــلا يقبــلونه — ويــنزل منـــهم مثــل منزلة الهزل
فـــما بــرحـــوا حتى انتُدبْتُ لغارة — لهم حيث حلُّوا أبتغى راحة الفضل
بأمـــر رســـول الله أولَّ خــــافقٍ — عــليه لـواء لم يكن لاح من قبلى
فثار أبـــو جـــهل هنـــالك بـاغياً — فـــخاب ورد الله كـيد أبى جهل
وما نحــن إلا فـــى ثـــلاثين راكباً — وهـــم مـــئتان بعـــد واحـدة فضل
فيا لـــلؤى لا تطـــيعوا غـــواتكم — وفـيؤوا إلى الإسلام والمنهج السهل

لقد مثل حمزة رضي الله عنه البطولة العربية بأبعد معانيها . بطولة الساعد والسلاح ، وبطولة اللسان والشعر . فقد حاز المكارم كلها ، وليس حمزة بنكرة عند قريش . فهو أسد الله وأسد رسوله . وليس بنكرة عند أبى جهل فشجة حمزة لأبى جهل أصبحت تاريخاً يتناقل . للنقلة العظيمة التى نقلت فيها حمزة من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام.

ويريد أبو جهل كما يسمونه ـ سيد البطحاء ـ أن يرد الصاع صاعين على خصمه العتيد حمزة فيقول :

فقلنا لهم يا قومنا لا تخالفوا ... على قومكم إن الخلاف مدى الجهل
فإنكم إن تفعلوا تدع نسوة ... لهن بواكٍ بالرزية والثكل
وإن ترجعوا عما فعلتم فإننا ... بنو عمكم أهل الحفائظ والفضل
فقالوا لنا إنا وجدنا محمداً ... رضاً لذوى الأحلام منا وذى العقل
فلما أبوا إلا الخلاف وزيّنوا ... جماع الأمور بالقبيح من الفعل
تيممتهم بالساحلين بغارة ... لأتركهم كالعصف ليس بذى أصل
فورعنى مجدى عنهم وصحبتى ... وقد وازرونى بالسيوف وبالنبل

لقد كان حمزة رضي الله عنه البطل المرجى للحروب القادمة . وهذه السرية التى أُسند إليه قيادها إنما كانت تفريجاً لكربه بعد صبر عشر سنين دون قتال . وها هو بثلاثين راكباً على استعداد أن يواجه ثلاثمائة راكب لولا أن حجز بينهم مجدى (أو مخشى) بن عمرو الجهنى . وعاد بسريته تلك مظفراً . وتناقلت الجزيرة هذه الأشعار بين الفريقين إيذاناً باحتمال المواجهة .

ولكن هذة السرية أثمرت صداقات جديدة على الساحة . فقد قدم وفد جهينة إلى المدينة ، فكساهم رسول الله ﷺ وصنع لهم خيراً ، وذكر مجدى بن عمرو فقال: (إنه ما علمت ميمون النقيبة مبارك الأمر). وكان درساً تربوياً كذلك حيث يفقه المسلمون من خلاله ، فضل ذوى المعروف والثناء على مناقبهم ولو كانوا مشركين . والحرص على أن يكونوا عوناً للمسلمين لا سيفاً مصلتاً عليهم . ونلاحظ من رواية الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أن هذا التعامل الرفيع قد أثمر حلفاء جدد على الساحة العربية . فكما قال سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه :

لما قدم رسول الله ﷺ جاءته جهينة فقالوا : إنك نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك وقومنا . فأوثق لهم فأسلموا . والظاهر من الرواية أنهم وقعوا ميثاق تحالف مع

رسول الله ﷺ ، ودخلوا فى الإسلام . فقد اكتسبت الدعوة ثلاث مواقع جديدة . هى مواقع تطمئن إليها ، وكوّنت صداقات جديدة على الساحة هى أحوج ما تكون إليها لتراقب منها على كثب تحركات العدو . وسط هذه البحيرة من الشرك . وسنشهد أثر هذا التحالف فى الحديث عن السرايا القادمة. إنه جيل يجوب الساحة بين المدينة ومكة . يتعرف العرب على خُلقه وعلى مبادئه . ويرهب جانبه من جهة ثانية . إنه شىء جديد على الساحة لا مثيل له من قبل .

جـ - ثم كانت سرية سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه والذى شهدنا بطولته الفائقة فى سرية عبيدة بن الحارث . ها هو الآن على رأس مجموعة مقاتلة ، وفى مهمة محددة ، هى مهمة استطلاعية أكثر منها مهمة قتالية حيث بلغ الخَرَّار من أرض الحجاز ، ثم رجع ولم يلق كيداً . ومع هذا العدد الضئيل ، ثمانية من المهاجرين ، فقد عُقد لهم لواء حمله الأسير الفار من المشركين المقداد بن عمرو حليف بنى زهرة . وعهد إليه رسول الله ﷺ ألا يجاوز الخرَّار يعترض عيراً لقريش . فخرجوا على أقدامهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى صبحوا صبح خمس الخرَّار من الجحفة قريباً من خم . فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

يقول سعد رضي الله عنه : وقد كان النبى ﷺ عهد إلى ألا أجاوز الخرَّار . ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم .

إنه يتحرق لإدراكهم. لكن الأوامر النبوية صريحة، ألا يجاوز الخرَّار. فكان الالتزام دقيقاً بتنفيذ التوجيهات والأوامر . وما أحوج هذا الجيل القائد أن تتعمق فيه هذه التربية. وأن يكون منضبطاً حسب التوجيهات التى يتلقاها، لا حسب اندفاعاته وعاطفته؛ لأنه معد ليقود البشرية كلها . والملاحظ أنهم مضوا جميعاً على أرجلهم ليس عندهم راحلة ، يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل . والمسافة لا تقل عن مئتى كيلو متر. ومع ذلك قطعوها بكل ما تحمل من جهد ومشقة وبكل ما تقتضى من سرية وحذر؛ ليتدربوا على الجندية الخالصة. والقائد قبل كل شىء جندى رفيع المستوى عالى الأداء .

د - وها نحن نتحدث عن السرية الثالثة التى شارك فيها سعد جندياً فيما نرجحه . وهى التى رواها الإمام أحمد - رحمه الله - فبعثنا رسول الله ﷺ فى رجب ولا نكون مائة . وأمرنا أن نغير على حى من كنانة إلى جنب جهينة فأغرنا عليهم وكانوا كثيراً . فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا : لم تقاتلون فى الشهر الحرام ؟ فقلنا : إنما نقاتل من أخرجنا من البلد الحرام فى الشهر الحرام . فقال بعضنا لبعض : ما ترون ؟ فقال بعضنا: نأتى نبى الله فنخبره ، وقال قوم : لا، بل نقيم هاهنا ، وقلت أنا فى أناس

معى : لا بل نأتى عير قريش فنقتطعها . فانطلقنا إلى العير . وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئاً فهو له . فانطلقنا إلى العير ، وانطلق أصحابنا إلى النبى ﷺ فأخبروه الخبر . فقام غضباناً محمرًّ الوجه . فقال : « أذهبتم من عندى جميعاً وجئتم متفرقين ؟ ! إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة ؛ لأبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش » . فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدى فكان أول أمير أُمر فى الإسلام .

والسرية هذه غنية فى دروس البناء والتربية . فقد كان الهدف الرئيسى للسرية هو الإغارة على حى من كنانة جنب جهينة . ونُفذت التعليمات . لكن العدو وانقضاضه عليهم دفعهم إلى أن يلتجئوا إلى حلفائهم من جهينة . والأمر إلى هنا طبيعى لا خلل فيه . وقد أثارت جهينة معهم قضية القتال فى الشهر الحرام . فقامت مشكلة نتحدث عن أبعادها فيما بعد . لكننا هنا نجد السرية تنقسم إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : يرى العودة إلى المدينة لتلقى الأوامر المحددة من النبى ﷺ .

القسم الثانى : يرى ملاحقة عير قريش التى تمر من هناك .

القسم الثالث : يرى الانتظار فى جهينة حتى ترد الأوامر الجديدة .

وبغض النظر عن الرأى الصحيح والرأى الخطأ فى هذه الآراء الثلاثة . فقد أغضبت الفُرقة النبى ﷺ أيما غضب . ولم يناقش صحة أى من الآراء الثلاثة أو يصوب أحدها ، إنما انصب غضبه ـ صلوات الله عليه ـ على الجيش الذى مضى بقيادة موحدة، وعاد بثلاثة فِرق كل فِرقة تحمل رأياً يخالف الآخر .

لقد كان الجواب النبوى الحاسم القاصم :

« أذهبتم من عندى جيمعاً وجئتم متفرقين ؟ ! إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة » .

إن اختلاف الرأى الذى يؤدى إلى المواقف المتضاربة . ويؤدى إلى تشقق الصف . هو سبب هلاك الأمة . والأمم من قبل . فأن يختلفوا فى الرأى ويتشاوروا فيه فهذا لا غبار عليه . لكن أن يصر كل فريق على موقفه . ويتمزق الجيش ، ولا يصدروا عن رأى واحد بعد المشورة فهذا هو المرفوض . وقد ظهرت آثار هذا الخلاف بأن ثلث السرية تقديراً هو الذى قدم إلى المدينة .

وهؤلاء هم ذخيرته وعدته . وهم صفوة الأمة من المهاجرين . فلابد أن يفقهوا من خلال الواقع العملى أن الفرقة مرفوضة ، وأنها سبب هلاك الأمم . فلا تتكرر هذه الصورة أبداً . وحفظ المهاجرون درسهم فلم تتكرر هذه الحالة أبداً. حتى عندما كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف ، وعدد العدو مائتى ألف فى مؤتة . فاختلفوا فى الرأى بين

من يرى المواجهة ، وبين من يرى التريث حتى يُعلم النبى ﷺ بالأمر ويُصدر التعليمات المناسبة . فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه : والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون، وإننا لا نقاتل الناس بعدد ولاعدة ، ولكننا نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فامضوا على بركة الله . فإنما هى إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

وترجح هذا الرأى فصدروا جميعاً عنه ، ومضوا يقاتلون فى سبيل الله ، حتى استشهد قادتهم الثلاثة . وأمَّروا البطل المجرب خالد بن الوليد ، فأنقذ الموقف ، وتم على يديه النصر .

وأى تربية تفوق هذه التربية أن يروا قائدهم الحبيب ورسولهم المصطفى يقوم غضبانا محمر الوجه ؛ لأنهم جاؤوا متفرقين ، وقد كانوا جميعاً . إن هذا الغضب والقيام كفيل أن يزيح كل ركام الجاهلية . ويعيد صقل هذه النفوس على ما يهواه ـ عليه الصلاة والسلام . أى سماء تظلهم ؟ وأى أرض تقلهم . وهم يرون رسول الله ﷺ غاضباً منهم محمر الوجه ؟ هم على استعداد أن يقطعوا أنفسهم بالسيوف ليذهبوا غضب نبيهم عليهم . فغضب النبى ﷺ هو غضب الله . وأين يمضون إذا كان غضب الله يلاحقهم ؟ وشتان بين أمتين : أمة اليهود التى وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ (١) .

أمة تقتل أنبياءها ، وتكفر بآيات الله . وأمة تفدى نبيها بالأرواح والمهج ، وتقطع الفيافى والقفار فى هجير الصحراء ، ماشية على أقدامها ، ممتطية سيوفها تجاهد فى سبيل الله . كل فرد يعد فيها ليكون قائد أمة . واختار ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائداً جديداً . وانتقى معه مجموعة فدائية ، فى مهمة تتجاوز المسافة السابقة بضعفين . وكان اختيار النبى ﷺ لشخصية جديدة ذات مواصفات فائقة ، لم تحصل على هذا الموقع؛ لأنها خير هذه المجموعة ، بل لأن أكبر مقومات القيادة العسكرية الصبر بجميع أنواعه . وهنا ورد النص النبوى : « أصبركم على الجوع والعطش» . إنها مهمة جديدة وفريدة . اختار لها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ابن عمته عبد الله بن جحش الأسدى نسباً الحليف لبنى أمية فى قريش . ولنشهد سريته فى هذه الحلقة الأخيرة .

٨ ـ إننا سنقف مع كل فرد ، فى عملية البناء هذه ؛ لأننا نود أن نشهد تربية هذه

---

(١) آل عمران / ١١٢ .

القيادات ، وفنَّ بنائها وفنّ تفجير طاقاتها ، وصقل أخطائها . وإبراز مواهبها الفائقة .

(دعاه رسول الله ﷺ حين صلى العشاء فقال : « واف مع الصبح معك سلاحك أبعثك وجهاً ») .

قال : (فوافيت الصبح وعليّ قوسى وسيفى وجعبتى ومعى درقتى) .

إنه مدجج بسلاحه ؛ وترسه وقوسه ونبله . وفى الموعد المحدد . (فصلى رسول الله ﷺ الصبح بالناس ثم انصرف . فيجدنى قد سبقت واقفاً عند بابه . وأجد نفراً من قريش) . فهو لا يدرى من الذى سيمضى معه . وقد توقع أن يكون هؤلاء رفاق سلاحه .

كان هؤلاء النفر ثمانية رهط من المهاجرين هم : أبو حذيفة بن عتبة الأموى . . . وعبد الله بن جحش هو حليف بنى أمية ، وسعد بن أبى وقاص ، البطل المجرب الذى برز على الساحة ، الزهرى القرشى ، وعكاشة بن محصن أسدى حليف مثل عبد الله ابن جحش ، وعتبة بن غزوان المازنى حليف مثل قائد جيشه عبد الله ، لبنى نوفل بن عبد مناف ، وعامر بن ربيعة العدوى القرشى ، وواقد بن عبد الله الليثى حليف بنى عدى بن كعب ، وخالد بن البكير الليثى حليف بنى عدى بن كعب كذلك ، وسهل ابن بيضاء الحارثى القرشى . وحين نعيد توزيعهم بصورة جديدة ، نجدهم : أبا حذيفة بن عتبة الأموى وحليفيه عبد الله بن جحش الأسدى قائد السرية ، وعكاشة بن محصن الأسدى ، وعامر بن ربيعة العدوى ، وحلفاءه واقد بن عبد الله ، وخالد بن البكير الليثين ، وعتبة بن غزوان حليف بنى نوفل ، وسعد بن أبى وقاص الزهرى ، وسهل ابن بيضاء الحارثى . فثلاثة هم من صميم قريش . وستة حلفاء فيها ، وقد سوى الإسلام بين الجميع ، بعد أن أصبح الحليف مثل الصميم .

والطريقة الفريدة الجديدة اليوم أن رسول الله ﷺ قال للأمير الشاب :

« قد استعملتك على هؤلاء النفر ، فامض حتى إذا سرت ليلتين فانظر كتابى هذا ثم امض لما فيه » قلت: يا رسول الله، أى ناحية ؟ قال : « اسلك النجدية تؤم ركبة » .

فالسرية يكتنفها الغموض من كل ناحية . ولا يدرى أحد أين المسير . إنما كل ما تلقاه عبد الله رضي الله عنه من توجيه هو تحديد اتجاهه ، ولا يفتح الكتاب إلا بعد مسير ليلتين أو يومين .

ومضى الأمير الشاب بمجموعته الفدائية الفذة حتى إذا كان مسيرة يومين فتح الكتاب فإذا فيه :

« سر باسم الله وبركته ، ولا تكرهنّ أحداً من أصحابك على السير معك ، وامض لأمرى فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة ، فترصد عير قريش ، وتعلم لنا من أخبارهم » .

وهذه تجربة جديدة أن يترك الخيار دون إكراه لمتابعة المسير ، إلى أين ؟ إلى بطن نخلة بين مكة والطائف . وليس العدد بالمئات إنما العدد بالأفراد . وحين يتوقف البعض عن المتابعة فقد يبقى وحده أو معه نفران أو ثلاثة ، والمكان فى قلب أرض العدو ، إنها مهمة انتحارية فى ظاهر الأمر . من أجل هذا قال عبد الله رضي الله عنه لجنده : قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى النخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر . وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم . فمن كان يريد الشهادة ، ويرغب بها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع . فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ .

إنه اختبار من نوع جديد لهذه النماذج . فهم لو تخلوا عن المتابعة فى هذه المهمة الشاقة المحفوفة بالمخاطر . فلا إثم عليهم ، ولا يستكره أحد منهم . ومما يؤكد خطورة هذه المهمة أن كلام عبد الله رضي الله عنه يؤكد أنهم ماضون للشهادة ، واحتمال سلامتهم من الموت ، احتمال لا يكاد يذكر . وأكد لجنده أنه ماضٍ ولو كان وحده لتنفيذ المهمة .

لقد وضعوا فى محك الاختبار ، فنجحوا نجاحاً فائقاً وقالوا أجمعون :

نحن سامعون مطيعون لله تعالى ولرسوله ﷺ ولك ، فسر على بركة الله . لقد كان بنو إسرائيل تصدر لهم الأوامر فيقولون : سمعنا وعصينا . وقد أشربوا فى قلوبهم العجل . أما جيل هذه الأمة الفتية ، فيخير دون إكراه . فيختار حباً وكرامة وفداءً لله ورسوله . واستطاعت هذه الكتيبة الفدائية أن تصل إلى العير فى الموعد المحدد . وهى التى فيها عمرو بن الحضرمى حليف عتبة بن ربيعة ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومى ، وأخوه نوفل بن عبد الله ، وقيل : بل أخوهما المغيرة . . . والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة .

لقد كان بنو مخزوم هم حراس القافلة ومعهم عمرو بن الحضرمى .

وتمت المشاورة فى المواجهة ، وتعلموا من الدرس السابق أن يصدروا عن رأى واحد ولو اختلفت قناعتهم ، لكن لا يجوز أن تختلف مواقفهم . وذلك بين أن يدعوهم رهبة من القتال فى الشهر الحرام ، وبين أن يأخذوا القافلة ويقضوا على حراسها ، وترجح الرأى الثانى . وما هى إلا لحظات حتى كانت العير كلها بيد الكتيبة الخرساء الفدائية . وأما حراسها فهم بين أسير وفار وقتيل . وعادوا إلى رسول الله ﷺ بموقف واحد . ومعهم العير والأسيران وهما الحكم بن كيسان ، والمغيرة بن

عبد الله . وتصرف الأمير بصلاحياته حيث اصطفى خمس الغنيمة لرسول الله ﷺ ، ووزع الأخماس الأربعة على جنده . فهو أمير المؤمنين المتوج المطاع ، ومن هذه السرية حاز شرف هذا اللقب .

ولن ندخل فى تفصيل الآيات الكريمة هنا ؛ لأنا عالجناها بالتفصيل فى الجزء الأول من السلسلة ـ التربية الجهادية ـ لكننا نخوض هنا مع كل التفصيلات الجانبية التى تلقى لنا أضواء على التربية النبوية لهذا الجيل .

ونشهد آخر الدروس التربوية من هذه السرية . حين رفض رسول الله ﷺ ابتداءً فداء الأسيرين ؛ لأن السرية قد جاءت مفتقدة لبطلين منها هما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان اللذين أضلا بعيرهما . وانقطعت أخبارهما عن السرية . فقال عليه ـ الصلاة والسلام ـ : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ يعنى سعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان ـ فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » .

إنه الحرص النبوى العظيم على دم كل جندى عنده . فلن يفرط فى هذين الأسيرين حرصاً على حياة جندييه الحبيبين ، ويؤكد لوفد قريش القادم للفداء : « فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » . وكانت هذه الحماية البشرية الممكنة لهذين الجنديين العظيمين . فالدم المسلم غالٍ جداً ، ونفيس جداً . لا يُفرَّط فيه بسهولة ، وعندما عاد سعد وعتبة . تم فداء الأسيرين . وربحت الدعوة أحدهما وهو الحكم بن كيسان رضي الله عنه الذى أسلم وحسن إسلامه واستشهد فى بئر معونة .

لقد كان لهذه السرية أثر كبير فى صفوف المدينة ، أما اليهود وإن كانوا فى ظاهر الأمر حلفاء للنبى ﷺ لكنهم فى أعماقهم يحقدون عليه وعلى دعوته . ويتوقون بفارغ الصبر إلى أن تغزو قريش محمداً ﷺ وتنهيه . فيضيفون حلقة جديدة من حلقات قتل الأنبياء . وكراهية ما أنزل الله ؛ ولهذا تفاءلوا كثيراً بإيقاد نار الحرب فقالوا :

عمرو : عمرت الحرب ، وواقد : وقدت الحرب ، والحضرمى : حضرت الحرب فهم أعجز من المواجهة للنبوة . لكنهم يحاولون أن يقضوا عليها . محادة لله ورسوله فهم المغضوب عليهم . وهم النموذج المتكرر لإبليس الذى يعرف ربه ، وأدت نفاسته لآدم ألا يسجد لله . فيبوء بلعنته إلى يوم القيامة . واليهود نسخ مكررة من هذا الشيطان الأكبر . فقد نفسوا أن تكون النبوة فى ولد إسماعيل . فراحوا يكفرون بآيات الله ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً .

وبعد أن نزلت الآيات القرآنية وأجازت السرية ، واستلم رسول الله ﷺ الأسيرين والخمس ، راح هؤلاء الفتية الأبطال يتطلعون إلى الأجر . فقالوا : يا رسول الله ،

أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى ما يثلج صدورهم بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) . فوضعهم الله تعالى من ذلك على أعظم الرجاء ، وقد أسعدهم أن يقول الله تعالى عنهم : إنهم حازوا الأمجاد الثلاثة : آمنوا وهاجروا وجاهدوا . وأسعدهم أن يصدِّق الله نياتهم وإخلاصهم بأنهم جاهدوا ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . وكانت هذه أعلى الأوسمة الربانية فى دولة النبوة .

(١) البقرة / ٢١٨ .

انتقال الخلافة إلى الأمة الراشدة

١ ـ (عن أبي موسى رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ المدينة وإذا أناس من اليهود يعظمون عاشوراء ويصومونه . فقال النبي ﷺ : « نحن أحق بصومه ». فأمر بصومه)(١) .

٢ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : (لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا : هذا اليوم الذى أظفر الله فيه موسى وبنى إسرائيل على فرعون ، ونحن نصومه تعظيماً له . فقال رسول الله ﷺ : « نحن أولى بموسى منكم » ، فأمر بصومه) (٢) .

٣ ـ عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ (أن النبي ﷺ كان يسدل شعره ، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم . وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم. وكان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء . ثم فرق النبي ﷺ رأسه)(٣) .

٤ ـ (ولما كان بعد شهر من مقدمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لاثنتى عشرة خلت من ربيع الآخر ، قال الدولابى : يوم الثلاثاء . وقال السهيلى : بعد الهجرة بعام أو نحوه، زيد فى صلاة الحضر ركعتان وتركت صلاة الفجر لطول القراءة فيها وصلاة المغرب ؛ لأنها وتر النهار ، وأقرت صلاة السفر ، وفى البخارى عن عائشة : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، ثم هاجر ـ عليه السلام ـ إلى المدينة ففرضت أربعاً وتُركت صلاة السفر على الفريضة الأولى ، وقيل : إنما فُرضت أربعاً ثم خُفّفت عن المسافر ، ويدل له حديث : « إن الله وضع عن المسافر شطر الصلاة » ، وقيل : إنما فرضت فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين وهو قول ابن عباس . قال رضي الله عنه : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين. رواه مسلم وغيره) (٤) .

٥ ـ (عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة. فأنزل الله : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ... ﴾ (٥) فتوجه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس وهم اليهود : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ ،

(١ ـ ٣) فتح البارى ٧ / ٢٧٤ برقم (٣٩٤٢ ـ ٣٩٤٤) .

(٤) مسلم فى صلاة المسافرين ١/ ٤٧٩ (٦/٦٨٧) .

(٥) البقرة / ١٤٤ .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ **قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾(١)، فصلى مع النبى ﷺ رجل ثم خرج بعد ما صلى فمرَّ على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس . فقال : هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجه إلى الكعبة فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة) (٢) . وعن عبد الله بن عمر قال : (بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال : إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن. وقد أُمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة) (٣) .

٦ ـ وروى موسى بن عقبة عن الزهرى قال : (وصرفت القبلة نحو المسجد الحرام فى رجب على رأس ستة عشر شهراً من مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وكان رسول الله ﷺ يقلِّب وجهه فى السماء وهو يصلى نحو بيت المقدس . فأنزل الله عز وجل حين وجّهه إلى البيت الحرام : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ . وما بعدها من الآيات ، فأنشأت اليهود تقول : قد اشتاق الرجل إلى بلده ، وبيت أبيه ، ومالهم حتى تركوا قبلتهم ، يصلون مرة وجهاً ومرة وجهاً آخر . وقال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ : فكيف بمن مات منا وهو يصلى قِبَل بيت المقدس ، أتبطل صلاته ؟ ففرح بذلك المشركون . وقالوا : إن محمداً قد التبس عليه أمره، ويوشك أن يكون على دينكم . فأنزل الله عز وجل فى هؤلاء تلك الآيات التى ذكر فيها قول السفهاء : ﴿ ... **وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾) (٤) .

٧ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة . فأتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس ، وقردم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، والربيع بن أبى الحقيق ، وكنانة بن أبى الحقيق فقال له : يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ،

---

(١) البقرة / ١٤٢ . (٢) البخارى ، ك الصلاة ج١/ ١١٠ / م١ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى وقال : « رواه البخارى فى الصحيح عن عبد الله بن يوسف ورواه مسلم كلاهما عن مالك » ٢ / ٥٧٢ .

(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٥٧٥ والآيات من سورة البقرة / ١٤٢ ، ١٤٣ .

ونصدقك ، وإنما يريدون فتنته عن دينه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلأَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ - إلى قوله - :﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ - أي ابتلاءً واختباراً - ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم ﴾ - يقول: صلاتكم بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعكم إياه إلى القبلة الآخرة ، أي : ليعطيكم أجرهما جميعاً - ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثم قال: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾- إلى قوله - : ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾(١) (٢) .

٨ - (ثم فرض صيام شهر رمضان بعد ما حُوِّلت القبلة إلى الكعبة بشهر فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدمه - عليه السلام - وزكاة الفطر قبل العيد بيومين أن يخرج عن الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى صاع من تمر أو صاع من شعير أو صاع من زبيب أو صاع من بر ، أى :قمح كذا فى حديث الثلاثة كرواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده عند أبى داود وأحمد ، والترمذى وحسّنه . وذكر أبو داود أن عمر بن الخطاب جعل نصف صاع من بر مكان هذه الأشياء ، وفى الصحيحين أن معاوية هو الذى قوّم ذلك. وعند الدارقطنى عن عمر : أمر رسول الله ﷺ عمرو بن حزم بنصف صاع من حنطة ، ورواه أبو داود والنسائى عن ابن عباس مرفوعاً وفيه فقال علىّ: أما إذ وسع الله فاجعلوه صاعاً من دقيق . ولكنه وهم من سفيان بن عيينة نبَّه عليه أبو داود - وذلك قبل أن تفرض زكاة الأموال ، وقيل : إن زكاة الأموال فرضت فيها - أى : السنة الثانية - وقيل : قبل الهجرة - حكاه مغلطاى وغيره ، واعتُرِض بأنه لم يفرض بمكة بعد الإيمان إلا الصلاة ، كل الفروض بالمدينة ، وإن قيل : فرض الحج قبل الهجرة فالصحيح خلافه ، والأكثر أن فرض الزكاة إنما كان بعد الهجرة ، والله أعلم بالصواب من ذلك ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه) (٣) .

* * *

كنا قد توقفنا فى الحديث عن سورة البقرة ، ودورها فى البناء التربوى للجيل المسلم عند قول الله - عز وجل - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

وفى هذا الفصل نتابع الآيات التى نرجح أنها نزلت فى هذه الفترة الزمنية قبيل تحويل القبلة ، وهى فى الترتيب القرآنى كذلك ، وهى من حيث المعنى توطئة لها من

(١) البقرة / ١٤٢ - ١٤٧ .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٥٧٥ .
(٣) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى ١/ ٤٧٠ .
(٤) البقرة / ١١٨ .

جهة وتهيئة لإعلان نزع الخلافة من هؤلاء الظالمين اليهود الذين ادعوا أنهم حملة كتاب الله ، وانتقالها لهذه الأمة الجديدة التى يقوم عليها رسول الله ﷺ . وقد أصبح لها دولة ، ولها كيان قائم ، وهى المثات التى تتربى فى مركز الخلافة ، ومركز القيادة ، فى المسجد العظيم الذى كان أول مشروع من مشاريع هذه الأمة ـ رضوان الله عليها :

١ ـ الرسول المجتبى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (١) .

قال الإمام أحمد : . . . عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص . فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . فقال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ، ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً . انفرد بإخراجه البخارى فرواه فى البيوع عن محمد بن سنان عن فليح به . . . . ورواه فى التفسير (٢) .

فهو إعلان من الله تعالى أن هذا الرسول الأمى هو الرسول الخاتم .

٢ ـ إن هدى الله هو الهدى :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣) .

قال ابن جرير : (يعنى قوله ـ جل ثناؤه ـ : **﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾** وليست اليهود يا محمد ، ولا النصارى براضية عنك أبداً . فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق . وقوله تعالى : **﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾** أى : قل يا محمد : إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى، يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، قال قتادة : فى قوله : **﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾** قال : خصومة علَّمها الله محمداً ﷺ

---

(١) البقرة / ١١٩ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤ / ٣٤٢، ٣٤٣ برقم (٢١٢٥) ، ٧ / ٥٨٥ برقم (٤٨٣٨) .

(٣) البقرة / ١٢٠ ، ١٢١ .

وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة . وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » . قلت : هذا الحديث مخرَّج فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو . ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ، فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك . فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته ... وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ . قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هم اليهود والنصارى وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير . وقال سعيد عن قتادة : هم أصحاب رسول الله ﷺ ... وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ خبر عن ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أى من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته . آمن بما أرسلتك به يا محمد ... ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) ، كما قال تعالى :﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ...﴾ (٢) ، وفى الصحيح : « والذى نفسى بيده لا يسمع أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ولا يؤمن بى إلا دخل النار ») (٣) .

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يطمع بإيمان اليهود ، أكثر من طمعه بإيمان قومه المشركين . خاصة واليهود أهل الكتاب الأول ، وهم الذين كان يبشرون به وإليهم كانت تلجأ قريش للتأكد من صحة النبوة ، ولا تزال قصتهم حين بعثوا النضر بن الحارث ورجلاً معه إلى اليهود فى المدينة ماثلة فى الذهن وقالوا لهم: سلوه عن ثلاث : فإن أجابكم فهو نبى مرسل ، وإن لم يجبكم فهو متقول كذاب ، وأجابهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الثلاث ، ولم يؤمنوا . فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يطمع أن يؤمن اليهود . بعد الذى عندهم من العلم عنه ، فتقوم الأمة المسلمة الجديدة على أكتافهم ، ويصلون الماضى بالحاضر . لكن الصورة كانت على غير التقديرات البشرية ، فكان اليهود أشد جحوداً من المشركين فى مكة ، وأغلظ كفراً وأغلظ قلوباً . كما وصفهم الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ... ﴾ (٤) . وكان الأمر يمر بمراحل ونماذج . فقد كان المتوقع أن يتهافت

---

(١) البقرة / ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) هود / ١٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ، مقتطفات ١/ ٢٨٥ ـ ٢٨٧ .
(٤) البقرة / ٧٤ .

اليهود بعد إسلام زعيمهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه إلى الصف المؤمن . خاصة أحبارهم الكبار . والذين قال فيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود » .

وحرص ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدع الباب مفتوحاً لتقريب قلوبهم ، وتهيئة نفوسهم لهذا الإيمان. كما روى البخارى ـ رحمه الله ـ عن عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :أن النبى ﷺ كان يسدل شعره ،وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم . وكان النبى ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، على أمل أن تلين قلوبهم القاسية وتنفتح مغاليق هذه القلوب فى لحظة من لحظات الرحمة . لكن القوم مضوا سادرين على غيهم ، وراحوا يشعلون الفتن فى الصف الإسلامى ، والذى شهدناه من قبل فى فصل سابق أوضح هذه الصورة تماماً . ولا ننسى أنهم قد حاولوا أن يجاروا النبى ﷺ فى محاولة لضرب هذا الدين من الجذور كما قال تعالى : ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ (١) على أمل الردة من المؤمنين مع ردتهم . ففضح الله خطتهم . وبقى الأمر بين مد وجزر خلال عام ونصف تقريباً ، ولم تقطع الحبال والآمال بعد إلى أن جاءت هاتان الآيتان على مشارف المرحلة الجديدة ، وعلى أبواب بدر لتقطع نهائياً كل الآمال بإيمانهم الجماعى كأمة . أما الأفراد الذين هم قلة فيهم لابد أن يقودهم إيمانهم إلى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه . ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾ هذا عن الأمة عامة . وأما عن الأفراد المؤمنين منهم : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ (٢) .

إذن لا جدوى من الحرص على موافقتهم ، ولا جدوى من الحرص على كسب قلوبهم ، والعمل على إرضائهم ؛ لأنهم لن يرضوا إلا بترك هذا الدين، واتباع ملتهم اليهودية أو النصرانية . وحيث كان القرآن الكريم هو النور الذى يشع فى المدينة على هؤلاء المئات ، الذين يتلقون دورة تدريبية نظرية عن طبيعة أهل الكتاب ، وتاريخهم ، وانحرافاتهم . ثم ينتقلون إلى المجال التطبيقى العملى من خلال التعامل مع يهود المدينة الذين هم صورة عن هذه الأمة المغضوب عليها . فلابد خلال هذا العام والنصف من

(١) آل عمران / ٧٢ .

(٢) البقرة / ١٢٠ ، ١٢١ .

تمحيص النفوس ، وتعرفها نظرياً ، وعملياً على طبيعة العدو ، ومع قرب انتهاء هذه الدورة . كانت الأحكام النهائية وكانت الخلاصة عن هاتين الأمتين ككيان عام :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ .

فقد قطعت عملية موافقة أهل الكتاب التى شهدها المسلمون من مربيهم القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلال هذه السنة والنيف ، (ثم فرق النبى ﷺ رأسه) إيذاناً بانتهاء هذه المرحلة . وكانت نفوس الجيل الأول . والتى كانت تأمل بانضمام أمة يهود إليها . قد بدأت تتعمق فى ثناياها طبيعة اليهود الحقيقية . وانتهت إلى الصورة الكلية النهائية التى رباهم الله تعالى عليها . ورباهم نبيه عليها . وكما يقول ابن كثير : (فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته) ألا تتبع أهواء اليهود والنصارى فى شىء ، ولو زلوا واتبعوها فما لهم من الله تعالى ولاية ولا نصرة .

وهكذا كانت الخطوة الرئيسية الأولى فى إعلان انتقال الخلافة . هو أن اليهود والنصارى لن ترضى من المؤمنين أبداً إلا بضلالهم واتباعهم لملتهم .

ثم كانت الخطوة الثانية فى إعلان انتقال الخلافة . هو أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق الوحيد فى هذا الوجود ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ .

ثم كانت الخطوة الثالثة فى إعلان انتقال الخلافة . هو أن يفىء اليهود والنصارى لله ورسوله إن شاؤوا الانضمام لهذه الأمة . وكل محاولة بعد هذا الإعلان للتوفيق أو الاسترضاء أو المتابعة فهى خسارة من جهة ، وتخلٍ من الله تعالى ـ رب العزة ـ عن هذه الأمة الفتية .

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(١) .

والصبغة الفردية هى الخيط الرفيع الذى بقى موصولاً مع اليهود والنصارى . فالذى يفقه التوراة ويتلوها حق تلاوتها لابد أن يؤمن برسول الله ، وينتهى جندياً فى هذه الأمة الوارثة الراشدة ، والذى يرفض ذلك أكبه الله على منخريه فى النار .

ثم تأتى الآيتان الكريمتان ؛ لتنهى الحديث عن اليهود وتنهى أسطورة تفضيلهم المستمرة . بمثل مابدأت به من الآيات : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة / ١٢٠ .
(٢) البقرة / ١٢٢ ، ١٢٣ .

٣ ـ الأسس الفكرية والتاريخية لانتقال الخلافة :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ . وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) . لقد كانت المعلومات لدى هذا الجيل الفريد قبل نزول العلم على رسول الله ﷺ ؛ أن قريشاً من ذرية إبراهيم وإسماعيل وهم سدنة البيت وحماته . وكانت قريش تزعم أنها على ملة إبراهيم. وتحمل كل ما فى بيت الله الحرام من أوثان وأصنام إلى إبراهيم ﷺ . واختلطت المفاهيم البشرية المغلوطة ، والإضافات البشرية القاصرة إلى أصول الدين الأولى ، فأصبح بيت المقدس مركزاً لليهودية والنصرانية على كل ما فيها من شوائب وتثليث وتأليه لغير الله . وأصبح البيت الحرام مركزاً للوثنية . وأنهم ما يعبدون هذه الآلهة إلا لتقربهم إلى الله زلفى ، وأن الملائكة بنات الله .

فجاء القرآن الكريم يتنزل على قلب محمد ﷺ بالحق الناصع المبين ؛ ليرد على العدوين اليهود والمشركين .

إنه إبراهيم أبو الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ يثنى رب العزة عليه فى نجاحه بالابتلاء فيما حمله من مسؤولية. وقلده على ضوئها الإمامة في البشرية. وبطبيعته البشرية قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ . . . وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقطعت هذه الآية أوصال المغضوب عليهم والضالين بإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأثبتت أن ادعاءهم الإمامة كذب وافتراء ، وهم يفترون على الله الكذب.

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

(يقول الله تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله ـ عليه السلام ـ وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به فى التوحيد ، حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهى ، ولهذا قال : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أى : واذكر يا محمد ، لهؤلاء المشركين وأهل الكتاب الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها ، وإنما الذى هو

(١) البقرة / ١٢٤ ـ ١٢٨ .

عليها مستقيم ، فأنت والذين معك من المؤمنين . . . وقوله تعالى : ﴿ **بِكَلِمَاتٍ** ﴾ أى بشرائع وأوامر ونواه ﴿ **فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾ أى : قام بهن قال : ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً** ﴾ أى : جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه . . . وقوله قال: ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِي** ﴾ قال : ﴿ **لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته ، فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة يقتدى بهم ، والدليل على أنه أجيب إلى طلبه ، قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ** ﴾ (١) فكل نبى أرسله الله وكل كتاب أنزله بعد إبراهيم ففى ذريته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ) (٢) ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ .

فلابد من الحديث عن عظمة هذا البيت وفضله توطئة لانتقال القبلة مع إنتقال الخلافة إليه ، فعن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا** ﴾ قال: يثوبون إليه ثم يرجعون ، وعن عبدة بن أبى لبابة . . . قوله : لا ينصرف عنه منصرف، وهو يرى أنه قضى منه وطرا ، وقال ابن زيد : يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه . وما أحسن ما قال الشاعر فى هذا المعنى أورده القرطبى :

جـــعـل البـيت مثـاباً لهـــمُ ليس منه الده ر يقضـون الوطر (٣)

فلا عجب أن كانت قلوب العرب تثوب إليه . وأشرف هؤلاء العرب المهاجرون والأنصار وسيد الخلق كافة كذلك . أن يكون مهوى الأفئدة ، وموقع العبادة . فعن عمر بن الخطاب أنه مر بمقام إبراهيم وقال : يا رسول الله ، أليس تقوم بمقام خليل ربنا؟ قال: « بلى » قال: أفلا نتخذه مصلى ؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت : ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ . . وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب فى جاهليتها . ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية :

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة على قـدميه حـافياً غـير ناعل (٤)

---

(١) العنكبوت / ٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٨٨ وما بعدها مقتطفات .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٢٩٤ .

(٤) المصدر نفسه مقتطفات ١ / ٢٩٨ .

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود ﴾ .

قال الحسن البصرى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل ﴾ قال : أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ قال : من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس . وأما قوله تعالى: ﴿ لِلطَّائِفِين ﴾ فالطواف بالبيت معروف . وعن سعيد بن جبير أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلطَّائِفِين ﴾ يعنى : من أتاه من غربة ، ﴿ وَالْعَاكِفِين ﴾: المقيمين فيه . . وأما قوله تعالى: ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُود ﴾ قال : إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود ، وكذا قال عطاء وقتادة .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : فمعنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتى للطائفين . والتطهير الذى أمرهما به فى البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك (١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم ﴾ (٢) .

وندع تفصيل هذه الآيات القرآنية التى تلقاها هذا الجيل بسعادة غامرة إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كما روى البخارى ذلك قال :

(أول ما اتخذ الناس المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتقفى آثارها على سارة ،ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ،وليس بمكة يومئذ أحد . وليس بها ماء . فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ، ثم قضى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل . فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولاشىء ؟ فقالت له ذلك مراراً . وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت: آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل البيت ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ حتى بلغ: ﴿ يَشْكُرُون ﴾ (٣)

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٠ .

(٢) البقرة / ١٢٥ ـ ١٢٨ .

(٣) إبراهيم / ٣٧ .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال يتلبط . فانطلقت ؛ كراهية أن تنظر إليه،فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى ، تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ،فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت فسمعت أيضاً . فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث .فإذا كان عندك غواث . فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ـ أو قال : بجناحه ـ حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال ـ لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معيناً » قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضبعة ، فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله . فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا ، فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال : وأم إسماعيل عند الماء . فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت: نعم . ولكن لاحق لكم فى الماء عندنا ، قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبى ﷺ : «فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس » . فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٍّ ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه. قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألنى : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى

بأهلك وطلقها ، وتزوج منهم بأخرى . فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل . قال: ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبى ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه » . فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه . فسألنى عنك فأخبرته . فسألنى : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم. هو يقرأ عليك السلام . ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة . أمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم . فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال وأعنك ؛ قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ؛ قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .ورواه عبد بن حميد ، عن عبد الرزاق به مطولاً . ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير مختصراً) .

وفى رواية له : (. . حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١).

وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (٢) : قال ابن جرير : يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك لا نشرك معك فى الطاعة أحداً سواك ،ولا فى العبادة غيرك) (٣) . ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ قال سعيد بن منصور : أخبرنا عتاب بن بشر ، عن خصيف ، عن مجاهد قال : قال إبراهيم أرنا مناسكنا فأتاه جبرائيل فأتى به البيت ، فقال : ارفع القواعد ، فرفع القواعد وأتم البنيان ، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا قال : هذا من شعائر الله ، ثم انطلق به إلى المروة ، قال : هذا من شعائر الله ، ثم انطلق به نحو منى ، فلما كان فى العقبة ، إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال : كبِّر وارمه ، فكبر ورماه ، ثم انطلق فقام عند الجمرة

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٠ .
(٢) البقرة / ١٢٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٢ ، وهو عند البخارى .

الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال : كبر وارمه ، فكبّر ورماه ، فذهب الخبيث إبليس ، وكان الخبيث أراد أن يدخل فى الحج شيئاً فلم يستطع . فأخذ بيد ابراهيم حتى أتى به المشعر الحرام. فقال : هذا المشعر الحرام . فأخذ بيد ابراهيم حتى أتى به عرفات قال : قد عرفت ما رأيتك ؟ قالها : ثلاث مرات . قال : نعم . وروى عن أبى على وقتادة نحو ذلك . وعن ابن عباس قال : إن إبراهيم لما أرى المناسك عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم ، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى فقال :هذا منا فى الناس . فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرّض له الشيطان فرماه بسبع حصيات . ثم أتى به إلى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، فأتى به جميعاً . فقال : هذا المشعر ، ثم أتى به عرفة فقال له جبريل : أعرفت ؟) [1] .

لقد كانت هذه الآيات إعلاناً مدوياً فى المدينة تناقلها الجيل المسلم فغمرت حياته بالسعادة لعظمة هذا البيت وعظمة هذه المشاعر ، فلأول مرة يأتيهم قرآن يتلى عنها فيوضحها ، ويجلى غامضها ويرون أنهم من ذرية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا رسولهم من ذريته ويحدثهم عن ماضيهم العريق التليد . فهذا البيت مقدس قدم السموات والأرض . لكنه عند اليهود مطموس لا ذكر له . لا فى بنائه ولا فى الحج له ولا فى دعاء إبراهيم له .

فهم يخفون كثيراً من الكتاب وهم يحرّفون الكلم عن مواضعه ، حتى تبقى الوراثة فيهم كما يزعمون ، فهم يغالبون قدر الله ، والله غالب على أمره ، فجاء هذا الوضوح وهذا الجلاء ؛ ليسكب فى قلوب هذه العصبة المسلمة الأنوار العظمى التى لا توصف ولا تقدر .

فماذا يقول اليهود فى كتبهم عن إسماعيل والبيت ، ورفع القواعد ؟ لا شىء .

إنها قصة مطموسة ، منقوصة . ففى الإصحاح السادس عشر فيما يسمونه (بالكتاب المقدس) :

(فأذلتها ساراى (أى لهاجر) فهربت من وجهها ، فوجدها ملاك الرب على عين الماء عند البرية على العين التى فى طريق شور ، وقال : يا هاجر جارية ساراى من أين أنت وأين تذهبين ؟ قالت : أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى . فقال لها ملاك الرب : ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها ، وقال لها ملاك الرب : نكثر أكثر نسلك فلا يُعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب : ها أنت تلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل ؛ لأن الرب قد سمع لمذلتك. وأنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ، ويد كل واحد

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٣٣ .

عليه . وأمام جمع إخوته يسكن . فدعت اسم الرب الذى تكلّم معها : أنت إيل ربى لأنها قالت : هاهنا أيضاً رأيت بعد رؤى لذلك دعيت البئر بئر لحى ربى وها هى بين قادش وبارد فولدت هاجر لإبرام ابناً ، ودعا اسم ابنه الذى ولدت هاجر إسماعيل . كان إبرام ابن ست وثمانين سنة) (١) .

ولـذلك لم يكن اليهـود والنصـارى يقيمـون أى قـدسيـة للبيت أو يقصـدونـه . أو يحجون إليه . فقد مسخوه من كتبهم ، ومسخوا قدسيته . وجعلوا حادثة إسماعيل وهاجر فى فلسطين فى بئر السبع .

(فبكر إبراهيم صباحاً ، وأخذ خبزاً وقربة ماء أعطاها لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد ، وصرفها فمضت وتاهت فى بئر السبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأحجار ، ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس ؛ لأنها قالت : لا أنظر موت الولد . فجلست مقابله ، ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : ما لك ياهاجر ، لا تخافى؛ لأن الله سمع صوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به ؛ لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينها فرأت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماءً وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر) (٢) .

فإسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ كل ما له عند اليهود أن يخرج من ذريته أمة عظيمة . لكن النبوة والوراثة والاختيار الربانى لا وجود له عندهم : **﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** (٣) .

وما أسعد العصبة المؤمنة بهذه الآية . فها هى دعوة أبيهم إبراهيم تتحقق ، وهذا رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم وهاهم أنصاره وهم سيفه وساعده ، وها هم الآن يمثلون الحق فى هذا الوجود وحدهم ، وليس اليهود وليس النصارى وليس المشركون ، وها هم اليهود يعضون أناملهم من الغيظ بعد أن انكشف رجسهم ودجلهم وكذبهم . فهم يقولون : إن النبى منهم ، ولن يكون من العرب حسداً وبطراً وبغياً كما يزعمون فى كتبهم .

---

(١) الكتاب المقدس سفر التكوين (١٦ ، ١٧) الإصحاح السادس عشر / ص٣٤ .
(٢) الكتاب المقدس سفر التكوين ، الإصحاح الحادى والعشرون .
(٣) البقرة / ١٢٩ .

(وقال إبراهيم ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق . وأقيم عهدى معه عهداً أبدياً لنسله من بعده، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا ذا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . اثنى عشر رئيساً منه واجعل منه أمة كثيرة ، ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلده سارة فى هذا الوقت من السنة الآتية) [1] .

والقرآن الكريم الذى جلّى هذه الحقائق وفضح بها يهود . يوضح أن العهد مع إسحاق وبنيه ، وأن إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عهد الله تعالى إليه بالنبوة . ويؤكد أن رسالة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هى رسالة هذا النبى : ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [2] .

وينتقل الإسلام لذرية إبراهيم ، وتمضى النبوة مع إسحاق ويعقوب ـ عليهما الصلاة والسلام : ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[3] .

فلم يحمل إسحاق ويعقوب وإبراهيم وإسماعيل إلا الإسلام ، أما اليهودية القائمة والنصرانية القائمة فقد دخلها التحريف والتبديل .

وهذا الرسول الخاتم هو الذى يحق الحق بما يأتيه من عند الله ، وهو صاحب العلم الوحيد على هذه الأرض بعد أن اندرس الحق على يد هؤلاء المدّعين : ﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [4] .

وملة إبراهيم هى هذا الدين الذى جاء به المصطفى ـ صلوات الله عليه .

إن التوجيه الربانى لهذه الأمة الربانية ، وهى تواجه المبطلين والمنحرفين ، وتواجه المغضوب عليهم والضالين. والمنهج الحق الذى تحمله العصبة المسلمة: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ**

---

(١) الإصحاح السابع عشر / ص٢٥ .
(٢) البقرة / ١٣٠ ، ١٣١ .
(٣) البقرة / ١٣٢ ـ ١٣٤ .
(٤) البقرة / ١٣٥ .

وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

فهذه هى رسالة الله وهؤلاء هم أنبياؤه . كما تردد جنبات المسجد هذه الآيات الخالدات فيعمر بها قلب كل مؤمن فى هذا الصف ، ويمضى بها داعياً إلى الله عز وجل ومعه سلاحه الذى لا يفل من آيات الله البينات . فهذا هو القول الذى علمهم الله تعالى أن يقولوه : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (٢) .

لقد انتهى عهد المجاملة ، وانتهى عهد المسايرة . فلابد من المفاصلة الواضحة. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وانضموا إلى الصف المؤمن ، وإن أصروا على ضلالهم . فهم المنشقون المحادون لله ورسوله . والله تعالى كاف عبده وجنده كيد انشقاقهم وحربهم : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

فهذا رسول الله ﷺ ينقل عن ربه ـ جل وعلا ـ حقائق هذا الدين ، وحقائق هذه الرسالات ، الحقائق التى كتمها اليهود وأخفوها .

إن الله تعالى يربى هذه الأمة بهذا الأسلوب الرفيع العالى . فكثير مما يقوله اليهود حق ، وكثير كذلك مما يقولون باطل ، وكثير يخفون وكثير يحرفون . فجاء القرآن الكريم بأنصع أسلوب وأرفعه يضع هذه الحقائق كاملة أمام هذا الجيل القائد ؛ كى يمضى بها إيماناً فى قلبه ، وحقاً على لسانه وسلوكاً فى حياته ، دون عمليات إثارة أو ردود فعل ، أو مهاترات شخصية . منهج يقوم على الحق وحده ؛ لأنه من عند الحق المبين رب العالمين .

وهاهم الآن يتربون على يد الرسول الخاتم ، ويكونون هم المعنون بهذه التربية :

---

(١) البقرة / ١٣٦ . (٢) البقرة / ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) البقرة / ١٣٩ ـ ١٤١ .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ . . ﴾ .

وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ : يتلو عليهم آيات الله البينات : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ وها هو الحبيب المصطفى يعلمهم الكتاب ويعلمهم الحكمة .

إنه يعلمهم الحق المنزل من عند الله ، ومنهج هذا الحق ، وصيغة تبليغه كما علمه الله ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وهذه التلاوة وهذا التعليم هو الذى يثمر التزكية ويثمر التربية . وينشئ الجيل القائد الفذ الفريد فى تاريخ البشرية ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وشاءت إرادة الله عز وجل بعد هذه القرون الطوال أن يبعث النبى الخاتم إلى الوجود . والذى خفقت السماوات والأرض والملائكة بحبه . كما حدثهم ربهم عنه ، وكما أخذ ميثاق إخوانه النبيين ليؤمنن به ، وكما دعا به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام، وكما بشر به عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ آن الأوان لكى ينبلج هذا النور فيبدد ظلمات الأرض بهذه العصبة حوله من المهاجرين والأنصار.

يوضح هذه المعانى رسول الله ﷺ كما يروى العرباض بن سارية رضي الله عنه فيقول : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » (١) .

وفى رواية عن أبى أمامة رضي الله عنه قال : قلت : يانبى الله ، ماكان أول بدء أمرك ؟ قال :« دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام » (٢) .

يقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (والمراد أن أوَّل من نوّه بذكره فى الناس إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولم يزل ذكره فى الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسباً . وهو عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ حيث قام فى بنى إسرائيل خطيباً وقال : ﴿ . . إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (٣) . ولهذا قال فى هذا الحديث ، دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم . وقوله : « ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » قيل : كان مناماً رأته حين حملت به ، وقصّته على قومها ، فشاع فيهم ، واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة ، وتخصيص الشام بظهور نوره ، إشارة إلى

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤ / ١٢٧ .
(٢) المصدر نفسه ٥ / ٢٦٢ .
(٣) الصف / ٦ .

استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا تكون الشام فى آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء فى الصحيحين : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » .وفى صحيح البخارى: « وهم فى الشام ») (١).

ونحن إذن أمام إعلان صريح تلقته العصبة المسلمة عن الله ـ عز وجل ـ أن رسول الله ﷺ هو صاحب الخلافة فى الأرض ، وصحبه من المهاجرين والأنصار الذين يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وهم الورثة الشرعيون للنبوات فى الأرض . وهم الذين يتلقون آناء النهار وأطراف الليل التربية المستمرة من قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام .

لقد تجلى لهذا الجيل الفريد أن كتابه آخر كتب الله ، والحق الوحيد فى هذا الوجود ، وأن رسوله المبعوث منه هو خاتم رسل الله ، وإمام الأنبياء ـ كما حدثهم يوم الإسراء والمعراج ـ وها هم يتلقون أن بيت الله الحرام الذى هو عز العرب وشرفهم هو أقدس بيوت الله فى الأرض وأقدمها ، وأنهم هم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . ولم تكن هذه المقدمات عن البيت الحرام إلا توطئة لإعلان القبلة الجديدة بحيث تنال الكمالات كلها . ويتجه المسلمون إلى قبلتهم الجديدة التى اختارها لهم قبيل بدر بشهرين .

٤ ـ تحويل القبلة :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

قال محمد بن إسحاق : كان رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس ، ويكثر

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٢٤ .

(٢) البقرة / ١٤٢ ـ ١٤٤ .

النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله : ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ . . .** ﴾ . فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة . كيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ، فأنزل الله : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ . . .** ﴾ . وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، فأنزل الله : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ . .** ﴾ إلى آخر الآية .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود . فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم . فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل الله عز وجل : ﴿ . . . **فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . .** ﴾ أى نحوه ، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿ **مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** ﴾ فأنزل الله عز وجل: ﴿ . . . **قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ .

وأين أين السفهاء من الناس من الأمة الوسط ؟ ! هؤلاء السفهاء الذين غرّهم أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس كما أمره الله . فأرادوا أن يسندوا بهذا الموقف باطلهم وبطرهم على الناس . وشاءت إرادة الله تعالى أن يمتحن هذا الجيل المسلم بالطاعة والانضباط ابتداءً فوجههم إلى بيت المقدس ، وهم يرون بالكعبة عزهم وعز أبيهم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفخرهم على العرب ، ومع ذلك تخلوا عن ذاتهم ، وتخلوا عن أغوار كيانهم . وقالوا : بأن هذا هو الذى بعثه الله تعالى فيهم فـ (يذكر الله تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات ، ويزكيهم أى يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهى السنة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء،وسجايا العلماء . فصاروا أعمق الناس علماً ، وأبرهم قلوباً ، وأقلهم تكلفاً ، وأصدقهم لهجة . وقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ الآية (١) . وذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة . فقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** ﴾ (٢) . قال ابن عباس : يعنى بنعمة الله محمداً ﷺ . ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾ (٣)) (٤) .

---

(١) آل عمران / ١٦٤ .
(٢) إبراهيم / ٢٨ .
(٣) البقرة / ١٥٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٤ .

﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ (١) :

فما يتلو عليكم هو الحق . . . والإيحاء الآخر هو الإشعار بعظمة التفضل فى أن يخاطب الله العبيد بكلامه يتلوه عليهم رسوله ، وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه حين يتعمق حقيقته ، فمن هؤلاء الناس ؟ من هم ، وما هم ؟ حتى يخاطبهم الله سبحانه بكلماته ، ويتحدث إليهم بقوله ، ويمنحهم هذه الرعاية الجليلة من هم وما هم لولا أن الله يتفضل ؟ ولولا أن فضل الله يفيض ؟ ولولا أن الله سبحانه منذ البدء منحهم فضل النفخة من روحه ليكون فيهم من يستأهل هذا الإنعام ، ومن يستقبل هذا الإفضال .

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ :

ولولا الله ما زكى منهم من أحد ، ولا تطهر ولا ارتفع ، ولكنه أرسل رسوله ﷺ يطهرهم ، يطهِّر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية، ورجس التصورات التى تثقل الروح الإنسانى وتطمره ، وتطهّرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم فى الحمأة . والذين لا يطهر الإسلام أرواحهم فى جنبات الأرض قديماً وحديثاً يرتكسون فى مستنقع آسن وبىء من الشهوات والنزوات تزرى بإنسانية الإنسان ، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة ، وهى أنظف كثيراً مما يهبط إليه الإنسان بدون الإيمان، ويطهر مجتمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب ، وهى كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر ، ويلطخ المجتمع والحياة . ويطهر حياتهم من الظلم والبغى ، وينشر العدل النظيف الصريح الذى لم تستمتع به البشرية كما استمتعت به فى ظل الإسلام وحكم الإسلام ومنهج الإسلام ، ويطهرهم من سائر اللوثات التى تلطخ وجه الجاهلية فى كل مكان حولهم،وفى كل مجتمع لا يزكيه الإسلام بروحه ، سمعنا وأطعنا، وخالفوا هواهم استجابة لأمر الله عز وجل . وحتى سيدهم سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يحب ذلك ولا يقوله إنما يرجوه فى أعماقه فيكثر التطلع إلى السماء لهذه الرغبة العميقة فى كيانه الشريف . وجاء الأمر الربانى بالاتجاه إلى الكعبة . فإذا اليهود أصحاب الهوى ، والسفهاء يشككون بالنبى ﷺ ودينه. فيأتى الجواب الأول الذى يصفهم :

﴿ . . . قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) . وقد لُقبوا بهذا اللقب من قبل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة / ١٥١ .
(٢) البقرة / ١٤٢ .
(٣) البقرة / ١٣ .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

وحيث تم الاستقلال فى القبلة ، فقد تم الإعلان معه أن هذه القبلة المستقلة هى لهذه العصبة المسلمة . هى لهؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين يشرفون برسول الله ﷺ وتشرف بهم البشرية فهم سادة الأرض ، وهم الشهداء عليها ، وسيدهم المصطفى المختار ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد البشرية سابقها ولاحقها ، فهى الأمة الوسط .

يقول الحافظ ابن كثير :(يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل ، والوسط هاهنا : الخيار والأجود ، كما يقال قريش أوسط العرب نسباً وداراً أى خيرها . وكان رسول الله ﷺ وسطاً فى قومه . ومنه الصلاة الوسطى التى هى أفضل الصلوات ، وهى العصر كما ثبت فى الصحاح وغيرها. ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً ، وخصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس . . ﴾ (٢) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح يوم القيامة . فيقال له هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد . فيقال لنوح من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته. قال:فذلك قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . . ﴾ . قال : والوسط : العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم » (٣) ، رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجة .

وقال الإمام أحمد أيضاً . . . عن أبى سعيد الخدرى. قال : قال رسول الله ﷺ : « يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان ، وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هل بلغت قومك؟ فيقول : نعم؛ فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيدعى محمد وأمته ؛ فيقال لهم : هل بلّغ هذا

---

(١) البقرة / ١٤٣ . (٢) الحج / ٧٨ .
(٣) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٢ .

قومه؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم . فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا . فذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [1]. قال عدلاً .

وروى الحافظ ابن مردويه وابن أبي حاتم .... عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: « أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق . ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا ، وما من نبيّ كذّبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلّغ رسالة ربه ـ عز وجل » [2] .

فهي الأمة القوامة على البشرية كلها ، وهي مصدقة الأنبياء ، سواءً أمم أولي العزم كنوحٍ وقومه ، أو أمم الأنبياء الذين يأتون معهم الرجل أو الرجلان المؤمنان بهم .

(وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط ، سواءً من الوسط بمعنى الحسن والفضل. أو من الوساطة بمعنى الاعتدال والقصد ، أو من الوسط بمعناه الحسي .

﴿ أُمَّةً وَسَطا ﴾ : في التصور والاعتقاد لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي ، إنما تتبع الفطرة الممثلة بروح متلبس بجسد ، أو جسد تتلبس فيه روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد ، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها ، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق ، وعالم النوازع بلا تفريط ولا إفراط في قصد وتناسق واعتدال .

﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ : في التفكير والشعور ، لا تجمد على ما علمت ، وتغلق منافذ التجربة والمعرفة .. ولا تتبع كذلك كل ناعق ، تقلّد تقليد القردة المضحك . إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب ، وشعارها الدائم الحقيقة ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذها في تثبت ويقين .

﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ : في التنظيم والتنسيق ، لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب .. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب ، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب ، وتزاوج بين هذه وتلك . فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان . ولكن مزاج من هذا وذاك .

﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ : في الارتباطات والعلاقات ، لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة . ولا تطلقه كذلك فرداً أثِراً جشعاً لا هم له إلا ذاته ، إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء . وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه ، ثم تضع من الكوابح

(1) مسند الإمام أحمد ٣/ ٥٨ ، والآية من سورة البقرة / ١٤٣ .

(2) تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

ما يقف دون الغلو ، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد فى خدمة الجماعة ، وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة، والجماعة كافلة للفرد فى تناسق واتساق .

﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ : فى المكان فى سرة الأرض ، وأوسط بقاعها . وما تزال هذه الأمة التى غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة ، هى الأمة التى تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب ، وجنوب وشمال . وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً ، وتشهد على الناس جميعا ، وتعطى ما عندها لأهل الأرض قاطبة ، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك ، وتتحكم فى هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء .

﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ : فى الزمان ، تنهى عهد الطفولة البشرية من قبلها ، وتحرس عهد الرشد العقلى من بعدها ، وتقف فى الوسط ، تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها ، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى ، وتزاوج بين تراثها الروحى من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلى المستمر فى النماء ، وتسير بها على الصراط السوى بين هذا وذاك .

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذى وهبها الله لها ؛ إلا أنها تخلَّت عن منهج الله الذى اختاره لها ، واتخذت لها مناهج ليست هى التى اختارها الله لها . واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها . والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها .

وأمة تلك وظيفتها ، وذلك دورها ، خليقة بأن تحتمل التبعة ، وتبذل التضحية ، فللقيادة تكاليفها وللقوامة تبعاتها ، ولا بد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى. ليتأكد خلوصها لله وتجردها ، واستعدادها للطاعـة المطلقة للقيادة الراشدة.

وإذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التى كانوا عليها بمناسبة تحويلهم الآن عنها .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (١) .

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التى يأخذ الله بها هذه الجماعة الناشئة التى يريد أن تكون الوارثة للعقيدة ، المستخلفة فى الأرض تحت راية العقيدة . إنه يريد

(١) البقرة / ١٤٣ .

لها أن تخلص له ، وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها ، وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ، ومن كل رغائبها الدفينة ، وأن تتعرى من كل رداء لبسته فى الجاهلية ، ومن كل شعار اتخذته ، وأن ينفرد فى حسها شعار الإسلام وحده ، لا يلتبس به شعار آخر ، وأن يتوحد المصدر الذى تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر .

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به فى نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة ، وشابت عقيدة جدهم إبراهيم شوائب من الشرك ، ومن عصبية الجنس، إذ كان البيت يعتبر فى ذلك الحين بيت العرب المقدس ، والله يريده أن يكون بيت الله المقدس، لا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره ولا يلتبس بسمة أخرى غير سمته.

لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبَّست به هذه السمة الأخرى . فقد صرف الله عنه المسلمين فترة ، ووجههم إلى بيت المقدس ؛ ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولاً ، ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول ﷺ ثانياً ، يفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله ، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة . فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة .

إنها لفتة دقيقة شديدة الدقة. إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها فى القلب شريكاً ، ولا تقبل شعاراً غير شعارها المفرد الصريح ، إنها لا تقبل راسباً من رواسب الجاهلية فى أية صورة من الصور جلَّ أم صغر . وهذا هو إيحاء ذلك النص القرآنى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾ (١) . والله سبحانه يعلم كل ما يكون قبل أن يكون، ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس حتى يحاسبهم عليه ، ويأخذهم به . فهو لرحمته بهم لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم ، بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم .

ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية ، والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس عُلْقة أمر شاق ، ومحاولة عسيرة . . . إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق، وإلا أن يعين الله هذا القلب فى محاولته فيصله به ويهديه إليه.

﴿ **وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ** ﴾ .

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر فى أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات ، وأن تنفض عنها تلك الرواسب ، وأن تتجرد لله وتسمع منه وتطيع ، حيثما وجهها الله تتجه، وحيثما قادها رسول الله تنقاد .

---

(١) البقرة / ١٤٣ .

ثم يُطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم . إنهم ليسوا على ضلال، وإن صلاتهم لم تضع . فالله سبحانه لا يعنت العباد ولا يضيع عليهم عبادتهم التى توجهوا بها إليه، ولا يشق عليهم فى تكليف يجاوز طاقتهم التى يضاعفها الإيمان ويقويها. ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١) .

إنه يعرف طاقتهم المحدودة ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، وإنه يهدى المؤمنين ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان ،حين تصدق منهم النية ، وتصح العزيمة ، وإذا كان البلاء مظهراً لحكمته ، فاجتياز البلاء فضل رحمته . ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

بهذا يسكب فى قلوب المسلمين الطمأنينة ، ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرضا والثقة واليقين) (٢) .

لقد كانت القبلة بهذه الصورة نحو بيت المقدس ، ثم نحو الكعبة المشرفة امتحاناً للفريقين ، للعصبة المسلمة ولأهل الكتاب؛ليكشف أصحاب الهوى من أصحاب الحق .

فقد كانت القبلة نحو بيت المقدس ابتداءً مخالفة لهوى العصبة المسلمة التى ترى فى البيت الحرام أعظم مقدساتها وأعظم أمجادها . لكنها اتبعت الرسول ، ولم تنقلب على عقبيها ، وانضبطت بميزان الله الذى لا يخيس قيد شعرة .

ثم كانت القبلة نحو الكعبة . مخالفة لهوى أهل الكتاب ، الذين رحبوا ابتداءً بهذا الاتجاه نحو بيت المقدس ؛ لأنها قبلتهم ، وتاريخهم هناك ، وأمجاد بنى إسرائيل فيها . فلما جاء الأمر الجديد قلبوا ظهر المجن وانقلبوا على عقبيهم . فراحوا يشككون بالرسالة والرسول غيظاً وحقداً .

وتميز على الساحة الذين اتبعوا الرسول . فكانوا هم الأمة الوسط .

والذين انقلبوا على عقبيهم واتبعوا هواهم فكانوا هم السفهاء من الناس ، الخلعاء من الخلافة . وكانت كبيرة على أهل الكتاب . لكن الذين هداهم الله بهداه لم تكن كذلك ، وأثبتوا نجاهم بجدارة فائقة . يقول الحافظ ابن كثير بصدد تفسير هذه الآية : يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ؛ ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ، ممن ينقلب على عقبية : أى مرتداً عن دينه ﴿ **وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً** ﴾ أى : هذه الفعلة وهو صرف

---

(١) البقرة / ١٤٣ .

(٢) فى ظلال القرآن م١ ج٢ / ١٣١ ـ ١٣٣ .

التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أى : وإن كان هذا الأمر عظيماً فى النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول . وأن كل ما جاء به هو الحق الذى لا مرية فيه .

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه فى ذلك ، وتوجه حيث أمره الله من غير ريب ولا شك من سادات الصحابة . وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين . وقال البخارى فى تفسير هذه الآية عن . . . ابن عمر قال : بينا الناس يصلون الصبح فى مسجد قباء ؛ إذ جاء رجل فقال : قد أُنزل على النبى ﷺ قرآن ، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ؛ فتوجهوا إلى الكعبة . وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر ، ورواه الترمذى من حديث سفيان الثورى ، وأنهم كانوا ركوعاً فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع . وكذلك رواه مسلم . . . عن أنس مثله . وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله ، وانقيادهم لأوامر الله ـ عز وجل ـ رضى الله عنهم أجمعين (١) .

٥ ـ المفاصلة :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

إنها إعلان المفاصلة التامة بين العصبة المسلمة وبين أهل الكتاب . وكان تحويل القبلة إيذاناً بذلك ، وليست القضية عند أهل الكتاب قضية جهل برسول الله ﷺ وبكتاب الله . ولكنها قضية إصرار على الباطل بغياً وحسداً . فلا يجدى المراء والجدال إلا فى جو يغيب فيه الحق ، فيتضح من خلال الحوار . أما وأن القوم يعرفون الحق والقرآن والرسول كما يعرفون أبناءهم ، وكما مر معنا أهو هو ؟ إى والله هو هو . فما نقول ؟ عداوته والله ما بقيت .

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ / ٣٣٧ .

(٢) البقرة / ١٤٤ ـ ١٤٨ .

ورواية ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ تعطينا صورة من هذا الخبث وهذا الكيد ، وهذا الإصرار على الباطل . وصرفت القبلة من الشام إلى الكعبة فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة . فأتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس ، وقردم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق ، وكنانة بن أبى الحقيق . فقالوا : يا محمد ، ماولاك عن قبلتك التى كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك ؛ وإنما يريدون فتنته عن دينه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاس . . . ﴾ ثم قال : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء ﴾ إلى قوله : ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين ﴾ .

وإسلام اليهود هدف ضخم من الأهداف الإسلامية لو كانوا صادقين . ولو كانوا صادقين من قبل فلم لم يسلموا عندما كان على قبلتهم . إنما هى مؤامرة خبيثة ماكرة لصرفه عن دينه ثم يسقط بذلك مثلهم . ويجعل العقيدة تبعاً للهوى ، وعندئذ يفتقد الميزة التى أكرمه الله تعالى بها حيث إنه عبد الله ورسوله . يوم اتجه لبيت المقدس ، فنفذ أمر الله ، وعبد الله ـ عز وجل ـ يوم توجه للكعبة فنفذ أمر الله . أما اتباع الهوى فهو الظلم بعينه . ولا مجال للهوى بعد أوامر الله تعالى الصريحة بذلك ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِين ﴾ .

وكما أوضح الله تعالى لرسوله والعصبة المسلمة أنهم لن يرضوا إلا باتباع ملتهم . واتباع الهوى بديلاً عن العلم المنزل من الله ـ عز وجل ـ يفقد الجيل المؤمن الولاية والنصرة ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [1] وهنا لن يتبعوا ملة الإسلام فهم كاذبون ولو أتيتهم بكل آية . فقد شقوا طريقهم ليقودوا الناس إلى الضلال . وعلى ضوء ذلك لكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات .

وأيقن الجيل المسلم بعد هذه الآيات . أنه من العبث إضاعة الوقت والجهد مع هؤلاء المغضوب عليهم . فهم مصرون على المواجهة ، وهم مصرون على التعنت ، وهم مصرون على الخبث والكيد والفتنة ، فليتجه المسلمون إلى بنائهم الداخلى ، وليمضوا على قبلتهم التى اختارها الله لهم . وليقل السفهاء ما قالوا . فهذا فى ميزان الله لا يعدل جناح بعوضة . ومن المفاصلة إلى .

٦ ـ التميز :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

---

(١) البقرة / ١٢٠ .

شطْرَهُ لئلاَّ يكُونَ للنَّاسِ عليْكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا منهُمْ فلا تخشَوْهُمْ واخشَوْنِي ولأُتمَّ نعْمَتِي عليْكُمْ ولعَلَّكُمْ تهتَدُونَ . كمَا أرسَلْنَا فيكُمْ رسُولاً منكُمْ يتْلو عليْكُمْ آياتِنَا ويُزكِّيكُمْ ويُعلِّمُكُمُ الْكِتَابَ والْحكْمَةَ ويُعلِّمُكُم مَّا لَمْ تكُونُوا تعْلَمُونَ . فاذْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي ولا تكْفُرُون ﴾ (١) .

فتأكيد الآيات الجازم الصارم المكرر بالاتجاه شطر المسجد الحرام لرسول الله ﷺ والنخبة المؤمنة معه ، بدون أن يعيروا التفاتاً للمشككين والمثبطين الحاقدين والموتورين. فخشية الله تعالى هى الأصل ، واتباع أمره هو المنطلق ، ولابد من إزاحة حساب الناس وخشيتهم من الذاكرة . والحجة قائمة على الناس بالأمر الربانى بهذا التوجه. أما الذين ظلموا منهم فلن تجدى معهم حجة ، ولن ينفع معهم حوار . وليكن التلقى والتربية والتوجه من خلال رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهو الرسول ، وهو القائد، وهو المعلم ، وهو المربى .

وإن كانت الآية السابقة جاءت لتتحدث عن دعوة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ : **﴿ ربَّنَا وابْعثْ فيهِمْ رسُولاً منْهُمْ يتْلو عليْهِمْ آياتِكَ ويُعلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ ويُزكِّيهِمْ إنَّكَ أنتَ الْعزِيزُ الْحكِيمُ ﴾** (٢) فالآية هنا تؤكد استجابة الدعوة ، وتؤكد أنها تحققت بهذا الرسول المصطفى بين ظهرانيهم ، والمبعوث منهم ، لكنه أنفسهم ، لكنه سيدهم . فهو المسؤول عن تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم ، وهو الذى تتشرف البشرية بالانتساب إليه . ويشرفون بالانتساب إليه .

وكما تأكدت قبلة إبراهيم . فقد تأكدت ملة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتأكدت دعوة إبراهيم (والذى يلفت النظر هنا أن الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التى سبقت فى السورة ، وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل ، دعوته أن يبعث الله فى بنيه من جيرة البيت ، رسولاً منهم. يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . ليذكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم ، ووجودهم هم أنفسهم مسلمين. هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم ، وفى هذا ما فيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مستحدثاً إنما هو قديم ،وأن قبلتهم ليست طارئة إنما هى قبلة أبيهم إبراهيم ، وأن نعمة الله عليهم سابغة ، فهى نعمة الله التى وعدها خليله وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد .

إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم ، وتمييزكم بشخصيتكم هى إحدى الآلاء المطردة فيكم ، سبقتها نعمة إرسال رسول منكم **﴿ كمَا أرْسَلْنَا فيكُمْ رسُولاً منكُمْ ﴾** .

---

(١) البقرة / ١٤٩ ـ ١٥٢ .

(٢) البقرة / ١٢٩ .

فهو التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم ، وأن نختار الرسول الأخير منكم . وقد كانت يهود تستفتح به عليكم ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ فما يتلو عليكم هو الحق . والإيحاء الآخر هو الإشعار بعظمة التفضل بأن يخاطب الله العبيد بكلامه يتلوه عليهم رسوله ، وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه حين يتعمق حقيقته ، فمن هم هؤلاء الناس ؟ من هم وما هم ؟ حتى يخاطبهم الله سبحانه بكلماته ، ويتحدث إليهم بقوله ، ويمنحهم هذه الرعاية الجليلة ؟ من هم وما هم لولا أن الله يتفضل ؟ ولولا أن فضل الله يفيض ؟ ولولا أنه ـ سبحانه ـ منذ البدء منحهم فضل النفخة من روحه ليكون فيهم ما يستأهل هذا الإنعام . وما يستقبل هذا الإفضال ؟

﴿ وَيُزَكِّيكُم ﴾ ولولا الله ما زكى منهم من أحد ، ولا تطهر ولا ارتفع . ولكنه أرسل رسوله ﷺ يطهرهم ، يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ، ودنس الجاهلية ، ورجس التصورات التى تثقل الروح الإنسانى وتطمره ، ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم فى الحمأة . والذين لا يطهر الإسلام أرواحهم فى جنبات الأرض كلها قديماً وحديثاً يرتكسون فى مستنقع آسن وبىء من الشهوات والنزوات تزرى بإنسانية الإنسان ، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة ، وهى أنظف كثيراً مما يهبط إليه الإنسان بدون الإيمان ! ويطهر مجتمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب . وهى كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر ، ويلطخ المجتمع والحياة ، ويطهر حياتهم من الظلم والبغى ، وينشر العدل النظيف الصريح الذى لم تستمتع به البشرية كما استمتعت فى ظل الإسلام وحكم الإسلام ومنهج الإسلام ، ويطهرهم من سائر اللوثات التى تلطخ وجه الجاهلية فى كل مكان من حولهم ، وفى كل مجتمع لايزكيه الإسلام بروحه ومنهجه النظيف الطهور .

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ، وفيها شمول لما سبق من تلاوة الآيات وهى الكتاب ، وبيان للمادة الأصيلة فيه وهى الحكمة ، والحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب، وهى ملكة يتأتى معها وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة ، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة ، وإدراك غايات الأمر والتوجيهات . . وكذلك تحققت هذه الثمرة ناضجة لمن رباهم رسول الله ﷺ ، وزكاهم بآيات الله .

﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وكان ذلك حقاً فى واقع الجماعة المسلمة . فقد التقطها الإسلام من البيئة العربية لا تعلم إلا أشياء قليلة متناثرة تصلح لحياة القبيلة فى الصحراء ، أو فى تلك المدن

---

(١) البقرة / ١٥١ .

الصغيرة المنعزلة فى باطن الصحراء . فجعل منها أمة تقود البشرية قيادة حكيمة راشدة ، خبيرة بصيرة عالمة . وكان هذا القرآن مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن ، هو الجامعة الكبرى التى تخرج فيها هذا الجيل الذى قاد البشرية تلك القيادة الحكيمة الراشدة ، القيادة التى لم تعرف لها البشرية نظيراً من قبل ولا من بعد فى تاريخ البشرية الطويل.

وما يزال هذا المنهج الذى خرّج ذلك الجيل ، وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان ، لو رجعت الأمة المسلمة إلى هذا المعين ، ولو آمنت حقاً بهذا القرآن، ولو جعلته منهجاً للحياة لا كلمات تغنى باللسان لتطريب الآذان) (١) .

* * *

إنه المنهج التربوى لهذه النخبة القيادية التى تصاغ على عين الرحمن ، ويقوم بالصياغة سيد الثقلين الإنس والجن ، والتى تمثل عناصرها الأربعة خصائص هذا المنهج الذى لم تتوفر فى تاريخ البشرية إلا فى هذه المرحلة الفريدة.

أ ـ ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُم ﴾ :

فهو العربى القرشى الهاشمى ، أوسط العرب نسباً وداراً ، من أشرف البيوتات العربية . اصطفاه الله تعالى رسولا له من بين الخلائق كافة ؛ ليكون إمام رسله وسيد خلقه . والنور الذى تستضىء به البشرية كافة فى جميع مراحلها ودهورها ، وهو الرسول الخاتم الذى ختمت بشريعته الشرائع والرسالات . وبعد عشر سنين . سوف ينقطع هذا الوحى إلى الأبد حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فوجود شخص رسول الله ﷺ ، إمام المربين والدعاة ، هو من خصيصة هذه النخبة القيادية التى شرفها الله تعالى بأن يكون هو المسؤول عن تربيتها . فقيه النفوس ، وطبيب القلوب ، ونور الأفئدة ، فهو النور والبرهان والحجة .

ب ـ ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ :

فالمادة الأساسية للبناء والتربية . ليست نظريات أرسطو وأفلاطون ،ونظريات علماء التربية القدامى والمحدثين . إنها كلام الله تعالى المحكم المبين وآياته البينات . فهى أساس البناء والتربية .

هذا وإن كانت هذه الآيات القرآنية اليوم موجودة فى ظهرانينا كما هى موجودة لدى الجيل الأول . لكن أثرها الشعورى والوجدانى فى البناء أعظم بكثير من أثرها فى

(١) فى ظلال القرآن م١ ج٢ / ١٣٨ ، ١٣٩ .

أجيالنا المعاصرة . إننا دعاة الإسلام اليوم فى الأرض نختلف ونتشاحن من منا أصاب الطريق الحق ، ومن منا الفئة الناجية ، ونستجمع المواصفات التى وردت فى النصوص القرآنية ، والنصوص الحديثية لتكون شاهداً لفئة من فئات هؤلاء الدعاة ، إنها هى المعنية فى النص المذكور ، ولا يملك أحدنا أن يجزم أن النص نزل بشخصه وبجماعته مهما أوتى من الجرأة . أما الآيات فى هذا العهد السعيد من تاريخ البشرية ؛ فإنما تنزل بسؤال سأله فلان بشخصه. وبحوار خاضه فلان مع خصمه. وبنزاع وقع بين مجموعة بعينها ، وبناء على موقف أو سلوك فعله صحابى معين . تتنزل الآيات المتلوة بالتو من الله تعالى إلى جبريل إلى محمد ﷺ . نعم إن تلاوة الآيات وحدها قائمة أبد الدهر . لكن الشحنة العاطفية العظيمة التى كانت ترافق نزولها لأول مرة غضة طرية وفى الأحداث القائمة . لا توجد فى أى جيل على الإطلاق . ومن أجل هذا كان هذا الجيل جيلاً فريداً فى تاريخ البشرية .

جـ ـ ﴿ وَيُزَكِّيكُم ﴾ :

ومن التربية النظرية إلى التربية العملية . إلى تطبيق هذه النصوص فى الواقع العملى لتثمر الجيل المزكى ، والجيل المتأدب بأدب الله ، وعندما نذكر المادة النظرية فى التعليم . نقول إنها تبقى ميتة إذا كان المربى فاشلاً فى تطبيقها شخصياً على نفسه أولاً ، وبيئته ثانياً ، والذين يتربون بين يديه ثالثاً . ولو كانت المادة النظرية بسيطة ووجد المعلم الناجح ، المعلم المربى لاستطاع أن يكون جيلاً قوياً مثقفاً عظيماً ، فكيف إذا كانت المادة النظرية كلام الله تعالى ، والمعلم المربى رسول الله ﷺ . أو بالأحرى إمام رسل الله ـ صلوات الله عليه . هو المسؤول عن عملية التزكية ، وهو المسؤول عن عملية التربية . وهو الذى بلغ من الاستقامة على الجادة ،والعظمة فى التطبيق ،ما وصفه الله ـ تعالى ـ به هذا الوصف الجامع المانع الذى تفرد به من دون البشرية كافة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) . وهو الذى وصفته عائشة ـ رضى الله عنها ـ بأعظم ما يملك بشر أن يصف به نبى فقالت : « كان خلقه القرآن » . فنحن أمام قرآن يتلى فى المادة النظرية ، وقرآن يمشى على الأرض فى التطبيق العملى، وهو الذى يقوم بعملية التزكية لهذه المجموعات الفريدة التى لا تتجاوز الأربعمائة فى صلة يومية مستمرة طيلة النهار . فى المسجد حيناً ، وفى ساحة المعركة حيناً آخر ، وداخل البيت مرة ثالثة ، ولهو الثناء العظيم من رب العالمين . أن يعيد التزكية إلى شخص رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) القلم / ٤ .

د ـ ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾:

فهو ﷺ قد نفذ المهمة الأولى . فكانت تلاوة الآيات المبينات مباشرة من الأمين الأول جبريل إلى الأمين الثانى محمد ﷺ ، وتأتى المهمة الثانية فى مسؤولية التزكية وأنها من اختصاصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إكراماً لهذا الجيل ، وتأتى المهمة الثالثة فى طريقة التزكية من خلال تعليم الكتاب والحكمة . فهذا الكتاب لا يكفى أن يتلى ليكون فاعلاً فى الأمة. فلا بد أن يُعلَّم ، ويُعلَّم من شخص رسول الله ﷺ ابتداءً إلى العلماء الربانيين على مدى التاريخ انتهاءً .

أما معلم البشرية ﷺ الذى وضع بين يديه هذه النخبة الكريمة لتكون مثالاً ونموذجاً للبشرية فى الأرض بعد ذلك . فهو يتلو عليهم الآيات ، ويعلمهم الكتاب ، يشرح لهم غامضه ، ويبين لهم حكمه . ويفصل مجمله ، ويسأل عن تطبيقه ، ويصحح خطأ الفهم له إن وجد . من خلال حديثه المبين الشريف. فالقرآن الحى يعلم القرآن الوحى . ويعلِّمهم الحكمة . فهو يعطيهم المنهج كذلك لهذا التعليم ؛ لأن هذه النخبة معدة لقيادة البشرية فليست مهمتها أن تتعلم فقط ، وأن تتربى فقط ، لكن مهمتها كذلك أن تعلّم وأن تربى للأجيال اللاحقة ، مهمة هؤلاء السابقين الأولين أن يكونوا دعاة وهداة ومربين للذين اتبعوهم بإحسان . فلن تتاح هذه الفرصة لكل مسلم فى أصقاع الجزيرة أن يفد إلى المدينة ، ويتلقى من النبع مباشرة . فلابد لهذه النخبة القيادية أن تعلم منهج التعليم ، ومنهج التربية ، ومنهج الدعوة ، ومنهج القيادة للأمة من خلال ما تسمع وما تبصر . ومن خلال ما تعانى وتكافح ، ومن خلال ما تجرب ، فتقر التجربة أو تعدل أو تصحح ، فهو جيل رائد قائد . اختصه الله تعالى بأن تتلى عليه آياته ، وبأن يكون فيه رسوله ، وبأن يكون هذا الرسول هو معلمه الكتاب والحكمة . وكلما مر الزمن ، وازدادت الأعداد قلت فرص التربية المباشرة . وقلت فرص التربية القيادية . فلابد لهذا الجيل أن يكون معداً الإعداد الكامل ، ومؤهلاً التأهيل النموذجى ليؤدى دوره فى قيادة البشرية ؛ لأن حياة رسول الله ﷺ محدودة ، ويبقى محدوداً كذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطبيعته البشرية بحدود الزمان والمكان بينما ينتشر بعد ذلك هؤلاء المعلمون فى الآفاق يحملون التربية القرآنية والتربية النبوية إلى كل صقع . وتكون لهم القوامة على البشرية .

هـ ـ ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ :

وهى إشارة ذات دلالة عميقة إلى عظم النعمة ، وعظم المنة فى هذه التربية ، فماذا كانوا قبل أن يفد إليهم شخص رسول الله ﷺ ؟ وماذا كانوا قبل أن ينزل عليهم وحى

الله وتتلى عليهم آياته ؟ ويتعلمون من مربيهم الكتاب والحكمة ؟ ماذا كانوا فى سلم البشرية ؟

ونحن لا نتحدث عن الطاقات والمؤهلات التى فجَّرها المصطفى ﷺ ووظفها فى مكانها المناسب ، إنما نتحدث عن هذه الطاقات أين تصرف ؟ وهذه العبقرية أين تدرَّب ؟ قبل نعمة الإسلام ونعمة القرآن ، ونعمة الرسول ﷺ .

لقد كان الكامل فى هذه الأمة هو من يعرف أن يقرأ ويعرف أن يكتب ، ويعرف أن يرمى ، ويعرف أن يعوم . فهذه هى معارف العرب آنذاك .

أما القراءة والكتابة فلم يكن لها أى أثر إيجابى فى المجتمع ؛ لأن طبيعة العربى أنفَت من اليهودية والنصرانية التى دخلتها اليد البشرية . فلم يدخل فى هذين الدينين إلا أفراد قلائل معدودون على الأصابع . فبقيت هذه الطاقات حبيسة لا تصرَّف .

وأما الرمى والقوة . فقد صرفت هذه الطاقات على مذبح الشهرة . فذبحت الأمة فى حروبها الداخلية ،وغدت البطولة وعبقرية القيادة فى البغى والغزو والسلب والثأر .

وصارت مفاخر العربى فى شجاعته وبيانه إن كان شاعراً ، وجوده إن كان موسراً. حيث توظف هذه الطاقات كلها لنيل السمعة والشهرة فى المجتمع . وتحقيق البغى والسيادة واستعباد المستضعفين . وجاءت هذه النعم تترى من القرآن والوحى والرسالة والرسول لتنتقل بهذه الأمة نقلة هائلة تحتاج إلى قرون وأجيال لتتحقق فى عالم الأسباب . ولكن الله تعالى منَّ على هؤلاء السابقين الأولين بهذه المنن . وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون هم ولا آباؤهم. وزكى أخلاقهم تزكية عجيبة فنزع منها كل نوازع الشر والبغى ، ونوازع الزعامة والشهرة ، وقبحها حين أطلق عليها الرياء ، وأطلق عليها العجب ، ونزعها من هذه القلوب ليحل محلها نازع وحيد ، هو العمل فى سبيل الله وحده وابتغاء مرضاته . أخذ هذه القلوب من تأليه الذات ، وتأليه الزعيم ، وتأليه الصنم . ليضع فيها علماً جديداً . مرتبطاً بالعبودية لله وحده ، والطاعة لله وحده ولرسوله ﷺ . والطاعة للأمير ؛ لينتقل بهم من نزعة الفردية والأنانية والهوى إلى البناء الجماعى . بناء الأمة وبناء الدولة واتباع الحق ، والقوامة عليه . وحقٌ لها بهذه التربية وبهذا العلم . أن تنال خلال أقل من سنتين أعظم وسامين فى الوجود . وسام : ﴿ **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ (١) ، ووسام : ﴿ **أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ (٢) .

وشهدنا عظمة القيادة والتربية ، وعبقرية القيادة والتربية فى كل جزئية من جزئيات

---

(١) آل عمران / ١١٠ .

(٢) البقرة / ١٤٣ .

هذه السيرة العطرة التى نقلت لنا حيَّة دافقة كأننا نعيشها الآن . وكان جزاء الشكر على هذه المنن ، وهذه العطايا ، وهذه المواهب .

و ـ ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون ﴾ [1] :

ولأول مرة منذ قرون ينتقل ذكر هؤلاء التائهين فى الصحراء والضائعين فى الوجود ، ينتقل هؤلاء بقائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليكونوا حديث الملأ الأعلى ، حديث رب العالمين إلى ملائكة سمائه . بعد أن صار الإيمان بالله والجهاد فى سبيله عالمهم ، وحظهم من الدنيا ، وكنزهم من الوجود :« ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » .

وأى تفضُّل يعظم هذا التفضل بعد أن كان الذكر والشهرة فى متاهات الصحراء الضائعة المنسية . وعند الناس فى عالم محدود مغلق ، لينتقل هذا الذكر مخترقاً السموات والأرض إلى الملأ الأعلى . الذين صاروا يختصمون فى الكفارات والدرجات لهذه الأمة الفتية .

ز ـ ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون ﴾ :

وحقٌّ لهذه النعم جميعاً أن تشكر . وكفر هذه النعم يعنى الارتداد عن الدين ، ويعنى العودة إلى تلبية نوازع الذات . ونوازع الشهرة ، والخلافات الشخصية . فهذا الكفر قد انتهى عملياً من هذا الجيل بعد التجربة المرة مع الشيخ اليهودى شاس بن قيس وذكريات يوم بعاث ، ليعود البناء صفاً جديداً وأمة جديدة ، وتربية جديدة ، استحقت الوسامين السابقين ، وكانوا هم جيل بدر قبل بدر . وكانوا هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين صلوا القبلتين قبل بدر بشهرين ، وكانوا محط رعاية الله وعناية الله وثناء الله تعالى لهم . أنهم خير أمة أخرجت للناس .

ومن سمات هذا التميز ، وفى إطار عملية البناء الداخلى ، وعلى أبواب بدر فى شهر شعبان فرض صيام شهر رمضان . وكان تكرمة لأهل بدر أن يشهدوا هذه الغزوة وقد فرض عليهم شهر رمضان ، ونالوا من بركاته وفضله . فقد « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمس لم يعطهن أحد من قبلها . . » ، كما فُرضت زكاة الفطر التى كانت على أعتاب رمضان . فى العيد السعيد الأول الذى تلا فتوح بدر . وفى بعض الروايات أن الزكاة كلها قد فرضت فى هذا العام،وهو العام الثانى للهجرة وفى شعبان منه . وكان هذا إيذاناً بعد معركة المواجهة الفكرية مع اليهود وانتهائها بالتميز والمفاصلة للمسلمين .

---

(١) البقرة / ١٥٢ .

أن يتجه المسلمون للبناء الداخلى فى إطار عملية التزكية الربانية النبوية التى أرادها الله تعالى لهم فى منهجه . وأن يتم عقب ذلك وفى أقل من شهر التميز والمفاصلة بين المسلمين والمشركين . وأن تكون بدر فرقاناً بين عهدين وبين أمتين ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير** ﴾ (١) .

(١) الأنفال / ٤١ .

نظر إلى أهل بدر يوم بدر

ويأتى هذا الفصل الختامى ، ليعرض سيرة بقية أهل بدر الذين فازوا بالامتحان يوم بدر . كما فى الحديث الصحيح :

« وما يدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر يوم بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » (١) .

فكانوا هم النخبة التى فازت بهذا الوسام الثالث ، بأشخاصها وأعيانها ، وقد تحدثنا عن المهاجرين منهم ، وتحدثنا عن العقبيين منهم، وتحدثنا عن القيادات التى برزت فيهم. وسنعرض فى هذا الفصل إلى البقية المتبقية منهم ، ونعرف حقيقة هذا الجيل القيادى الرفيع فى التاريخ (٢) .

هذا ، وإن كانت هذه النتيجة لم تعلن إلا بعد ست سنين من بدر ، والمسلمون يتأهبون لفتح مكة ولا ندرى متى أعلن أنهم خيرة المسلمين . كما ورد فى الحديث الصحيح :

إن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » . قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة (٣) .

كان عدد الذين شاركوا فى بدر كما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما ـ قال : حدثنى أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر : بضعة عشر وثلاثمائة . قال البراء : لا والله ماجاوز معه النهر إلا مؤمن .

وفى الحديث الصحيح الآخر عنه ـ رضى الله عنهما ـ قال: استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر وكان المهاجرون يوم بدر نيفاً على ستين ، والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين » (٤) .

يقول الحافظ ابن حجر :(قوله : (وكان المهاجرون يوم بدر نيفاً على ستين) كذا

---

(١) ورواية البخارى « لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » انظر : فتح البارى ج٧ ح٤٢٧٤ ص ٥١٩ .

(٢) البخارى ٥/١٠٣ ك المغازى ٦٤ .

(٣ ، ٤) البخارى فى الفتح ح٢٩٥٧ ، ٢٩٥٩ / ٧ / ٢٩٠ .

فى هذه الرواية ، وسيأتى فى آخر الكلام على هذه الغزوة أنهم كانوا ثمانين أو زيادة ويأتى وجه التوفيق بينهما هناك إن شاء الله تعالى) (١) .

فالمهاجرون - رضى الله عنهم - سبق أن استعرضناهم جميعاً .بما فيهم النيف والثمانون ، والأنصار سبق أن استعرضنا منهم العقبيون الذين آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين . وسنأتى هنا على التفصيل للأوسيين البدريين غير الذين ذكروا ، وللخزرجيين النجاريين ثانياً ثم للخزرجيين عامة بعد ذلك :

أولاً : الأوسيون البدريون الذين تم الحديث عنهم :

١ - سعد بن معاذ . ٢ - عباد بن بشر . ٣ - محمد بن مسلمة .

٤ - عاصم بن ثابت. ٥ - سهل بن حنيف. ٦ - سعد بن زيد .

٧ - مبشر بن عبدالمنـذر . ٨ - أبو الهيثم بن التيهان . ٩ - رفاعة بن عبدالمنذر .

١٠ - سعد بن خيثمة. ١١ - سلمة بن سلامة . ١٢ - أبو بردة بن نيار .

١٣ - عبدالله بن جبير .

وهذا هو القسم الأول .

القسم الثانى : ولم تذكر كتب التراجم عنه إلا أنه شهد بدراً أو شهد بدراً وأحداً . فقد حاز هذا الشرف فى التاريخ ومضى سعيداً إلى ربه يحفل به فى الملأ الأعلى . ولا يدرى عنه الناس إلا أنه بدرى وعددهم سبعة عشر . منهم البدريون فقط وهم ثلاثة :

١٤ - نصر بن الحارث . ١٥ - الحارث بن قيس .

١٦ - عبيد بن أوس .

والبدريون والأحديون وعددهم اثنا عشر وهم :

١٧ - تميم مولى بنى غنم . ١٨ - الحارث بن عرفجة .

١٩ - مالك بن قدامة . ٢٠ - المنذر بن قدامة .

٢١ - عاصم بن قيس . ٢٢ - النعمان بن أبى خذمة .

٢٣ - الحارث بن النعمان . ٢٤ - ربعى بن رافع .

٢٥ - زيد بن أسلم(وكان حليفاً للأوس ذكر أنه قتل مع على رضي الله عنه فى حروبه).

٢٦ - أبو مليل بن الأزعر . ٢٧ - معتِّب بن قشير . ٢٨ - ثعلبة بن حاطب .

واثنان منهم شهدا بدراً وأحداً والخندق وهما :

(١) فتح البارى ٧/ ٢٩١ .

٢٩ ـ عبيد بن أبي عبيد (حليف) . **٣٠ ـ رافع بن عنجدة** .

القسم الثالث : وهم الذين فازوا بالسعادتين حيث شهدوا بدراً ، واستشهدوا بعد ذلك فيها ، أو بأحد أو ببقية الغزوات ، لكن يجمع بينهم الشهادة ، فلم يتح لهم أن يمارسوا مسؤولياتهم فى حياة النبى ﷺ ، لأنهم استشهدوا مبكرين ، وكانوا مسرعين إلى الجنة وعددهم واحد وعشرون . اثنا عشر منهم استشهدوا ببدر أو أحد والرجيع وبئر معونة وذلك فى السنة الثالثة . أى أنهم لم يعيشوا فى الإسلام أكثر من ثلاث سنين وهم :

٣١ ـ عبدالله بن طارق : (وكان ممن خرج بسرية الرجيع فأخذه المشركون من بنى لحيان فشدوه رباطاً ليدخلوه مكة مع خبيب بن عدى . فلما كان بمر الظهران ، قال : والله لا أصاحبكم . إن لى بهؤلاء أسوة (يعنى أصحابه الذين قتلوا يومئذ) ونزع يده من رباطه ، ثم أخذ سيفه فانحازوا عنه فجعل يشد فيهم ويفرجون عنه ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره بمر الظهران) .

٣٢ ـ معتب بن عبيد : وهو بلوى حليف ، قتل يوم الرجيع شهيداً بمر الظهران .

٣٣ ـ أنيس بن قتادة : واستشهد فى أحد .

٣٤ ـ عبدالله بن سلمة : شهد بدراً وأحداً واستشهد فيها . ورُوى عن جدته أنيسة بنت عدى أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله ، إن ابنى عبدالله بن سلمة (وكان بدرياً) قتل فى أحد أحببت أن أنقله فآنس بقربه . فأذن لها رسول الله ﷺ فى نقله . فعدلته بالمجذّر بن زياد البلوى على ناضح له فى عباءة فمرَّت بهما فعجب الناس لهما، وكان عبد الله ثقيلاً جسيما، وكان المجذّر قليل اللحم فقال النبى ﷺ: «سوَّى ما بينهما عملهما » . وعبد الله بن سلمة هو الذى يقول :

أنا الذى يقال أصلى من بلى أطعن بالصعدة حتى أنثنى
ولا يُرى مجذّراً يـفـرى فـرى

٣٥ ـ مالك بن نميلة :(شهد بدراً وأحداً واستشهد فيها وهو مزنى حليف للأوس) .

٣٦ ـ المنذر بن محمد :استشهد ببئر معونة وحضر بدراً وأحداً .

٣٧ـ مالك بن عمرو : حضر بدراً وأحداً واستشهد فيها .

٣٨ ـ عبيد بن التيهان: بدرى أحدى واستشهد فيها .

٣٩ ـ رافع بن يزيد : بدرى أحدى واستشهد فيها .

٤٠ ـ **سلمة بن ثابت** : بدرى أحدى واستشهد فيها .

٤١ ـ **الحارث بن أنس** : بدرى أحدى واستشهد فيها .

٤٢ ـ **عمرو بن معاذ** : بدرى أحدى واستشهد فيها .

٤٣ ـ **الحارث بن أوس بن معاذ** : بدرى أحدى واستشهد فيها . أما مجموعة الشهداء الثانية، فقد استشهدت بعد أحد. وبعضها بُعَيْد وفاة النبى ﷺ وعددهم ثمانية:

٤٤ ـ **النعمان بن ثابت** : شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ واستشهد بخيبر .

٤٥ ـ **عبد الرحمن بن عبد الله** : شهد المشاهد كلها ، واستشهد باليمامة ، ولاستشهاده فيها بطولة تسطر فى هذا المقام :

فعن جعفر بن عبد الله بن أسلم الهمدانى قال : لما كان يوم اليمامة ، واصطف الناس للقتال . كان أول الناس جرح أبو عقيل الأنيفى (وهى كنيته) رمى بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب فى غير مقتل . فأخرج السهم ووهن له شقُّه الأيسر لما كان فيه ، وهذا أول النهار ، وجُرَّ إلى الرحل ، فلما حمى القتال ، وانهزم المسلمون وجازوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه ، سمع معن بن عدى يصيح بالأنصار : الله ، الله والكرة على عدوكم ، وأعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار : أخلصونا ، أخلصونا . فأخلصوا رجلاً رجلاً يميزون .

قال عبد الله بن عمر : فنهض أبو عقيل يريد قومه . فقلت : ماتريد يا أبا عقيل ؟ ما فيك قتال . قال : قد نوَّه المنادى باسمى ،قال ابن عمر : فقلت : إنما يقول ياللأنصار ! لا يعنى الجرحى . قال أبو عقيل : أنا رجل من الأنصار ، وأنا أجيبه ولو حبواً .

قال ابن عمر : فتحزم ابن عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى مجرداً ثم جعل ينادى : ياللأنصار ! كرة كيوم حنين . فاجتمعوا ـ رحمهم الله جميعاً ـ يقدمون المسلمين دربة دون عدوِّهم حتى أقحموا الحديقة فاختلطوا ، واختلفت السيوف بيننا وبينهم .

قال ابن عمر : فنظرت إلى أبى عقيل ، وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت الأرض ، وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل ، وقُتل عدو الله مسيلمة . قال ابن عمر: فوقعت على أبى عقيل وهو صريع بآخر رمق فقلت : أبا عقيل . فقال : لبيك ، بلسان ملتاث ، لمن الدبْرة ؟ قلت: أبشر (ورفعت صوتى) . قد قُتل عدو الله . فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله . ومات يرحمه الله . قال ابن عمر : فأخبرت عمر بعد أن قَدِمت خبره كله فقال : رحمه الله مازال يسأل الشهادة

ويطلبها ، وإن كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا ﷺ وقديم إسلام (١) .

٤٦ ـ **نعمان بن عصر** : شهد المشاهد كلها ، وقتل يوم اليمامة شهيداً ، وقيل : قتله طليحة بن أسد فى الرِّدة .

٤٧ ـ **ثابت بن أقرم** : وهو بلوى حليف للأوس ، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وهو الذى دفع الراية لخالد بن الوليد رضي الله عنه يوم مؤتة ليقود الجيش الإسلامى فيها . وكان له شأن آخر وأخير مع سيف الله خالد يوم بزاخة نشهد به استشهاده :

فعن عيسى بن عميلة الفزارى عن أبيه قال : خرج خالد بن الوليد يستعرض الناس فكلما سمع أذاناً للوقت كف ، وإذا لم يسمع أذاناً أغار . فلما دنا من القوم ببزاخة بعث عكاشة بن محصن ، وثابت بن أقرم طليعة أمامه يأتيانه بالخبر ، وكانا فارسين ، عكاشة على فرس يقال له الزرام ، وثابت على فرس يقال له المحبر ، فلقيا طليحة وأخاه سلمة بن خويلد طليعة لمن وراءهما من الناس ، فانفرد طليحة بعكاشة وسلمة بثابت بن أقرم ، فلم يلبث سلمة أن قتل ثابت بن أقرم ، وصرخ طليحة بسلمة : أعنى على الرجل فإنه قاتلى . فكرَّ سلمة على عكاشة فقتلاه جميعاً . وأقبل خالد بن الوليد معه المسلمون ، فلم يرعهم إلا ثابت بن أقرم تطؤه المطى فعظم ذلك على المسلمين ، ثم لم يسيروا إلا يسيراً حتى وطئوا عكاشة قتيلاً .

وعن أبى واقد الليثى قال : كنا نحن المقدمة مائتى فارس وعلينا زيد بن الخطاب ، وكان ثابت بن أقرم وعكاشة بن محصن أمامنا ، فلما مررنا بهم سىء بنا ، وخالد والمسلمون وراءنا بعده ، فوقفنا عليهما حتى طلع خالد بن الوليد بعد يسير ، فأمرنا فحفرنا لهما ، ودفنَّاهما بدمائهما وثيابهما ، ولقد وجدنا بعكاشة جراحات منكرة ، وكان ذلك ببزاخة ، سنة اثنى عشرة) (٢) .

٤٨ ـ **الحارث بن حاطب** : وقد ردَّه رسول الله ﷺ من الروحاء حين توجه إلى بدر إلى بنى عمرو بن عوف فى شىء أمره به ، وضرب له بسهمه وأجره فكان كمن شهدها ، وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . واستشهد بخيبر ، رماه رجل من فوق الحصن فقتله .

٤٩ ـ **سعد بن عبيد (أبو زيد)** : وهو أحد الأئمة الأعلام فى الأمة ، أحد حفظة القرآن والذى ترجم القرآن بدمه ، شهد بدراً وأحداً والخندق ، والمشاهد كلها . وكان

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ . وابنه عمير بن سعد والى عمر بن الخطاب على بعض الشام . (حضر معركة الجسر ، وانهزم يوم أصيب أبو عبيد . وكان يسمى القارئ ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يسمى القارئ غيره . فقال له عمر بن الخطاب : هل لك فى الشام ؟ فإن المسلمين قد نزفوا به ، وإن العدو قد ذئروا عليهم ولعلك تغسل عنك الهنيهة . قال : لا ، إلا إلى الأرض التى فررت منها ، والعدو الذين صنعوا بى ما صنعوا ، قال : فجاء إلى القادسية فقتل . وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن سعد بن عبيد أنه خطبهم فقال : إنا لاقو العدو غداً ، وإنا مستشهدون غداً ، فلا تغسلوا عنا دماً ، ولا نكفّن إلا فى ثوب كان علينا ، وقتل شهيداً فى القادسية سنة ست عشرة) (١) .

٥٠ ـ **عبد الله بن سهل** : شهد بدراً وأحداً والخندق ، واستشهد فيها ، وهو أخو رافع بن سهل . وهما اللذان خرجا إلى حمراء الأسد وهما جريحان يحمل أحدهما الآخر ، ولم يكن لهما ظهر . فقال أحدهما : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل . فخرجنا مع رسول الله ﷺ ـ وكنت أيسر جرحاً ـ فكان إذا غُلب حملته عقبة ، ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون (٢) .

٥١ ـ **سلمة بن أسلم** : شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وختم الله تعالى له بالشهادة يوم جسر أبى عبيد ، وأرسله النبى ﷺ مع عمرو بن أمية بعد وقعة بنى النضير ؛ ليقابل أبا سفيان . وذكر أبو حاتم الرازى أنه هو الذى أسر السائب بن عبيد والنعمان بن عمرو يوم بدر .

القسم الرابع : وقد شهدوا مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها :

٥٢ ـ **الحارث بن خزمة** : أوسى حليف لبنى الأشهل . شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها . وهو الذى جاء بناقة رسول الله ﷺ . حين أعلمه الله تعالى بمكانها يوم ضلت فى تبوك .

٥٣ ـ **مسعود بن عبد** : أوسى من بنى حارثة . شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . . . وذكر ابن الأثير أنه استشهد فى خيبر خلافاً لبقية المصادر .

٥٤ ـ **جبر بن عتيك** : أوسى من بنى معاوية بن مالك . شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها ، وكان معه راية بنى معاوية فى غزوة الفتح . وقال ابن سعد : هم ثلاثة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٤٥٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٤٨ .

إخوة : جبر وجابر وعبد الله ، وكان جبر أكبرهم . وروى وكيع وغيره عن عبد الله بن عبد الله بن جبر بن عتيك عن أبيه ، عن جده أن رسول الله ﷺ عاده فى مرضه . فقال قائل من أهله : إنا كنا لنرجو أن تكون وفاته شهادة فى سبيل الله . توفى فى خلافة يزيد بن معاوية عن عمر يناهز السبعين سنة .

٥٥ ـ **عمير بن معبد** : أوسى من بنى ضبيعة بن زيد . شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها . وهو أحد المائة الصابرة يوم حنين الذين تكفل الله أرزاقهم .

٥٦ ـ **عبد الرحمن بن جبر (أبو عبس)** : أوسى من بنى حارثة . كان يكتب بالعربية ، وكان هو وأبو بردة بن نيار يكسران أصنام بنى حارثة . آخى رسول الله ﷺ بينه وبين خنيس بن حذافة السهمى . شهد بدراً والمشاهد كلها . وكان فيمن قتل كعب ابن الأشرف . حتى أن عباد بن بشر رضي الله عنه يعيد قتل أبى عبس بن جبر لكعب ، وكان فيما قاله من شعر :

فشدَّ بسيفه صلتاً عليه   فقطَّعهُ أبو عبس بن جبر
وكان الله سادسنا فأبنا   بأنعم نعمة وأعز نصر

ولم يمارس أبو عبس بن جبر الفدائية فقط ، بل مارس المسؤولية الإدارية عند الخليفتين عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ (فكان عمر وعثمان يبعثانه بصدق الناس ، أومصدّقاً) أى يجمع الصدقات من الأمة .

وعن صالح مولى التوأمة ، عن أبى عبس الحارثى رجل من أهل بدر أن عثمان بن عفان جاء يعوده وهو فى غمية . فلما أفاق . قال عثمان :كيف تجدك ؟ قال : صالحاً . وجدنا شأننا كله صالحاً إلا عقولاً هلكت بيننا وبين العمال لم نكد نتخلص منها .

توفى سنة أربع وثلاثين فى خلافة عثمان وهو ابن سبعين سنة ، ودفن بالبقيع .

٥٧ ـ **قتادة بن النعمان** : أوسى من بنى ظفر . الأمير المجاهد أبو عمر الأنصارى الظفرى البدرى من نجباء الصحابة ، وهو أخو أبى سعيد الخدرى لأمه ، وهو الذى وقعت عينه على خده يوم أحد فأتى بها إلى النبى ﷺ فغمزها رسول الله ﷺ بيده الشريفة فردها ،فكانت أصح عينيه . له أحاديث . وكان على مقدمة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب لما سار إلى الشام . وكان من الرماة المعدودين . عاش خمساً وستين سنة ، توفى فى سنة ثلاث وعشرين بالمدينة ، ونزل عمر يومئذ فى قبره .

عبد الرحمن بن الغسيل ، حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أبيه ، عن جده ، أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجهه . فأراد القوم أن يقطعوها .

فقالوا نأتي نبى الله نستشيره . فجاء فأخبره الخبر . فأدناه رسول الله ﷺ منه ، فرفع حدقته حتى وضعها موضعها ثم غمزها براحته وقال : « اللهم اكسه جمالاً » . فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت (١) .

وعند ابن سعد (رميت عينه يوم أحد. وكانت معه راية بنى ظفر يوم الفتح)(٢) .

٥٨ ـ **أبو لبابة بن عبد المنذر** : أوسى من بنى أمية :ردَّه رسول الله ﷺ من الردحاء حين خرج إلى بدر،واستعمله على المدينة وضرب له بسهمه وأجره فكان كمن شهدها . وشهد أبو لبابة أحداً ، واستخلفه رسول الله ﷺ أيضاً على المدينة حين خرج إلى غزوة السويق ، وكانت معه راية بنى عمرو بن عوف فى غزوة الفتح ، وشهد مع رسول الله ﷺ سائر المشاهد ، وتوفى أبو لبابة بعد قتل عثمان بن عفان ، وقبل قتل على بن أبى طالب . وارتبط أبو لبابة إلى موضع الأسطوانة المخلقة فى مسجد النبى ﷺ حين أصاب الذنب يوم بنى قريظة حتى تاب الله عليه (٣) .

فهو أمير من أمراء رسول الله ﷺ ، وهو سيد فى قومه . حيث كانت معه راية بنى عمرو بن عوف يوم الفتح ، وهو الذى مضت توبته مثلاً سائراً فى السيرة . وتدرس فى مكانها المناسب .

٥٩ ـ **خوات بن جبير** : أوسى من بنى ثعلبة بن عوف . ونعرض هنا صورة كاملة عنه . لنرى كيف ارتقى بعد الإسلام من الحضيض إلى القمة من خلال التربية المستمرة . وغدا سيداً من سادات قومه . وتُجمع كتب التراجم على أنه صاحب ذات النحيين (٤). وهى امرأة من بنى تيم الله كانت تبيع السمن فى الجاهلية وتضرب العرب المثل بها فتقول: أشغل من ذات النحيين .

وقد ذكر القصة ابن أبى خيثمة من طريق ابن سيرين قال :

كانت امرأة تبيع سمناً فى الجاهلية ، فدخل رجل فوجدها خالية ، فراودها فأبت . فخرج فتنكر ورجع فقال : هل عندك من سمن طيب ؟ قالت : نعم . فحلَّت زِقًا فذاقه فقال . أريد أطيب من هذا . فأمسكته وحلَّت آخر . فقال:أمسكيه فقد انفلت بعيرى .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٣٣١ وما بعدها . وقال المحقق فى حديث رد عين قتادة : « كما أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ورجاله ثقات عدا عمر بن قتادة فإنه لم يوثقه سوى ابن حبان ،ولم يرو عنه سوى ابنه عاصم » .

(٢) الطبقات الكبرى ٣ / ٤٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ٣ / ٤٥٧ .

(٤) النحى : بالكسر الزق وما كان للسمن خاصة .

قالت : اصبر حتى أوثق الأول . قال : لا ، وإلا تركته من يدى يهراق فإنى أخاف أن لا أجد بعيرى . فأمسكته بيدها الأخرى . فانقض عليها فلما قضى حاجته قالت له : لا يهناك (١) .

هذا هو خوات ربيب الجاهلية عبد شهوته ، يستغل طاقاته وإمكانياته وعبقريته فى تحقيق صبوته ولذته . ولا يجد حرجاً فى ذلك .

ويخرج من الظلمات إلى النور بالإسلام . ولا تزال شهوته عارمة عنده . فتصيبه زلة وهو فى الإسلام يحدثنا عنها رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيقول :

نزلنا مع رسول الله ﷺ مرّ الظهران (٢) . قال : فخرجت من خبائى ، فإذا أنا بنسوة يتحدثن فأعجبننى ، فرجعت فاستخرجت حُلّة فلبستها ، وجئت فجلست معهن ، وخرج رسول الله ﷺ من قبة ، فلما رأيت رسول الله ﷺ هبتُه واختلطت ، وقلت : يارسول الله ، جمل لى شرد فأنا ابتغى له قيدا ، ومضى فاتبعته فألقى إلىَّ رداءه ، ودخل الأراك ، فقضى حاجته وتوضأ ، فأقبل والماء يسيل على صدره من لحيته فقال : « أبا عبد الله، ما فعل ذلك الجمل » ؟ وارتحلنا فجعل لايلحقنى فى المسير إلا قال: « السلام عليك أبا عبد الله ، ما فعل شراد ذلك الجمل » ؟ فلما رأيت ذلك ، نقيّت فى المدينة ، واجتنبت المسجد والمجالسة إلى النبى ﷺ . فلما طال ذلك على أتيت المسجد ، فقمت أصلى فخرج رسول الله ﷺ من بعض حجره ، فجاء فصلى ركعتين فطولت رجاء أن يذهب ويدعنى ، فقال : أبا عبد الله « طول ما شئت أن تطوّل . فلست بمنصرف حتى تنصرف » . فقلت فى نفسى : والله لأعتذرن إلى رسول الله ﷺ ولأبرئن صدره . فلما انصرفت قال : « السلام عليك يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد ذلك الجمل ؟ » . قلت: والذى بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت . فقال: « يرحمك الله » ثلاثاً ، ولم يعد لشىء مما كان) (٣) .

ونلحظ التربية النبوية له طيلة هذه الفترة وبعد هذه الزلة . فهو ما زال يذكره بشراد جمله. ولكنه تذكير الحبيب العاتب فلا يناديه: إلا أبا عبد الله،ليستحث من أعماقه أعظم ما فيه من خير ، ولا تتحول القضية إلى ثأر للذات، أو إهانة له . وحين يسأله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن شراد جمله يبقى الأمر سراً بين قائد وجنديه . ورسول الله ﷺ يقلق على جنديه ، فهو صاحب النحيين ولابد أن يقيد بقيد الإسلام فى كل شىء .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م١ ج٢ / ١٤٤ .

(٢) مر الظهران : على مرحلة من مكة .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ١٤٨ . وقد رواها الطبرانى والبغوى عن زيد بن أسلم كما فى الإصابة م١ ج٢/ ١٤٣ .

وتضيق الأرض بخوات رضي الله عنه حياءً من رسول الله ﷺ ومن سؤاله ، وينقطع عن المسجد استجابة لهذا الحياء . ولكن كيف يبتعد عن منبع النور وتفجر الحكمة ، وفى المسجد غذاؤه الروحى وبناؤه الداخلى ، وتكوينه التربوى ، ها هو يعود . ويطيل فى الصلاة حياءً ورهبة من قائده الحبيب . ويأتيه الجواب : « طوّل ما شئت أن تطوّل . فلست بمنصرف حتى تنصرف » . وينصرف خوات من صلاته وقائده الحبيب ينتظره . ليسأله ولاينسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يسلِّم على جنديه المخطئ المسىء :

« السلام عليك أبا عبد الله ، ما فعل شراد ذلك الجمل ؟ » .

وأدرك المرمى وراء تلك الأسئلة وإن تلك الزلة لابد أن تنقطع جذورها ، ولا تعاد جذعة من جديد .

قلت : والذى بعثك بالحق ماشرد ذلك الجمل منذ أسلمت .

لقد صان عرضه ، وحفظ فرجه عن الحرام منذ أسلم . لكنها كانت صبوة فى حديث مع تلك النسوة .وانتهى ذلك الأمر ، ووصل ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أعماق قلب جنديه فجاء ذلك الدعاء له وهو يتحدث مع أغوار نفسه « يرحمك الله » . لقد أخذ بلسم الجراح الشافى من كل صبوة فى تلك الدعوة النبوية الخالدة . هذا خوات بن جبير رضي الله عنه أين كان يمكن أن يمشى به شراد جمله . وانطلاق شهوته . ولأى قاع يمكن أن ينحدر ، وكيف بقى المصطفى ﷺ يرتفع به ويسمو به ليكون من الصفوة القيادية المختارة .

(كان أحد فرسان رسول الله ﷺ ، شهد بدراً هو وأخوه عبد الله بن جبير فى قول بعضهم . وقال موسى بن عقبة : خرج خوات بن جبير مع رسول الله ﷺ إلى بدر ،فلما بلغ الصفراء أصاب ساقه حجر فرجع فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه)[1] .

(وشهد خوات بن جبير أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ) [2].

ويحدثنا رضي الله عنه عن بلائه فى أحد . فنشهد من ذلك المستوى الذى ارتفع إليه . بعد أن استشهد أخوه عبد الله بن جبير أمير الرماة فى أحد فيقول :

(.. فلما جال المسلمون تلك الجولة مررت به على تلك الحال ..) .

ونقطع حديث خوات . لنشهد الحال التى كان عليها أخوه عبد الله رضي الله عنه وكيف واجه هذا الموقف بثبات ورباطة جأش .

---

(١) أسد الغابة ٢ / ١٤٨ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٧٧ .

(. . ورمى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبله ، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جفن سيفه فقاتلهم حتى قتل ، فلما وقع جردوه ومثّلوا به أقبح المثل . وكانت الرماح قد شرعت فى بطنه حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عانته . فكانت حشوته قد خرجت منها .

قال خوات بن جبير : فلما جال المسلمون تلك الجولة مررت به على تلك الحال فقد ضحكت فى موضع ما ضحك فيه أحد ، ونعست فى موضع ما نعس فيه أحد ، وبخلت فى موضع ما بخل فيه أحد فقيل : ما هى ؟ فقال : حملته فأخذت بضبعيه وأخذ أبو حنة برجليه (أى عبد الله) وقد سددت جرحه بعمامتى . فبينا نحن نحمله والمشركون ناحية إلى أن سقطت عمامتى من جرحه فخرجت حشوته ففزع صاحبى وجعل يتلفت وراءه يظن أنه العدو فضحكت ، ولقد شرع لى رجل برمح يستقبل به ثغرة نحرى ، فغلبنى النوم وزال الرمح ، ولقد رأيتنى حين انتهيت إلى الحفر له ومعى قوسى . وغلظ علينا الجبل ، فهبطنا به إلى الوادى ، فحفرت له بسيّة القوس وفيها الوتر فقلت : لا أفسد الوتر ، فحللته ثم حفرت بسيّتها حتى أنعمنا ، ثم غيبناه وانصرفنا ، والمشركون بعد ناحية ، وقد تحاجزنا فلم ينشبوا أن ولّوا) [1] .

إنه من الفئة الصابرة المؤمنة الصادقة التى قال الله تعالى فيها :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُم . . . ﴾ [2] .

ونشهد خواتاً رضي الله عنه ماضياً إلى الحج بعد رسول الله ﷺ برفقة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يحدثنا عنها فيقول :

(خرجنا حجاجاً مع عمر فسرنا فى ركب فيهم أبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف . فقال القوم : غننا من شعر ضرار . فقال عمر : دعوا أبا عبد الله فليغن من بنات فؤاده . فما زلت أغنيهم حتى كان السحر فقال عمر : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا) [3] .

(عاش خوات إلى سنة أربعين فمات فيها وهو ابن أربع وسبعين سنة بالمدينة . وكان ربعة من الرجال ، وقال المرزبانى : مات سنة اثنين وأربعين) [4] .

٦٠ ـ **عاصم بن عدى** : أوسى بالحلف مع بنى زيد وهو بلوى . (وعن عاصم أن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج إلى بدر خلّف عاصم بن عدى على قباء وأهل العالية

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٧٦ . (٢) آل عمران / ١٥٤ .

(٣ ، ٤) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م١ ج٢ / ١٤٤ .

لشيء بلغه عنهم ، وضرب له بسهمه وأجره فكان كمن شهدها ، وكذلك قال محمد بن إسحاق . وقال محمد بن عمر : وشهد عاصم بن عدى أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وبعثه رسول الله ﷺ من تبوك ومعه مالك بن الدخشم فأحرقا مسجد الضرار ببنى عمرو بن عوف بقباء بالنار . وكان عاصم إلى القصر ما هو، وكان يخضب بالحناء ومات سنة خمس وأربعين بالمدينة فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه وهو ابن خمس عشرة ومائة سنة) (١) .

(وكان سيد بنى العجلان ، وتزوج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ابنته سهلة بنت عاصم) (٢) .

٦١ ـ **سالم بن عمير** : أوسى من بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف : (وكان أبو عفك شيخاً كبيراً من بنى عمرو بن عوف ، وقد بلغ عشرين ومائة سنة حين قدم النبى ﷺ وكان يحرض على عداوة النبى فى شعره ، ولم يدخل فى الإسلام . فنذر سالم بن عمير قتله فطلب غرته فقتله . وذلك بأمر النبى ﷺ . وقد قتل فى شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة . قالوا : وشهد سالم بن عمير أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وهو أحد البكائين الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو يريد أن يخرج إلى تبوك فقالوا : احملنا (وكانوا فقراء) فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. وكانوا سبعة نفر منهم سالم ابن عمير . . وبقى سالم بن عمير إلى خلافة معاوية بن أبى سفيان وله عقب)(٣) .

ثانياً : الخزرجيون النجاريون :

وهم أهل رسول الله ﷺ . تحدثنا عن تسعة منهم شهدوا بيعة العقبة ، وثلاثة فى معرض حديث المؤاخاة . وكان أكبر تجمع فى بدر لبنى النجار حيث كانوا قرابة خمس وخمسين رجلاً . نتحدث عن هذا البقية العظيمة بعد الثلاثة عشر الذين سبقت ترجمتهم . مراعين التقسيم السابق للأوس .

القسم الأول : ذكرت كتب التراجم عنهم أنهم شهدوا بدراً ، أو بدراً وأحداً فقط. وسجلوا فى قائمة السعداء الذين نظر الله إليهم يوم بدر وهم .

١٤ ـ **بجير بن أبى بجير** : خزرجى بالحلف مع بنى دينار .

١٥ ـ **سعد بن سهيل** : من بنى دينار بن النجار . وقد شهد بدراً وأحداً .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٦٦ . (٢) أسد الغابة ٣ / ١١٤ .

(٣) الطبقات الكبرى ٣ / ٤٨٠ .

١٦ ـ **جابر بن خالد** و ١٧ - **الضحاك بن عبد عمرو**: وكلاهما دينارى ، شهد بدراً وأحداً .

١٨ ـ **عصيمة** : بدرى ، نجارى حليف من بنى أسد .

١٩ ـ **عمير بن عامر** : من بنى مازن بن النجار وهو بدرى وأحدى .

٢٠ ـ **كعب بن الحارث** : خزرجى من بنى عدى بن النجار وبدرى أحدى.

٢١ـ **ثابت بن الخنساء** : نجارى بدرى من بنى عدى .

٢٢ ـ **محرز بن عامر** : نجارى بدرى أحدى من بنى عدى .

٢٣ ـ **عمرو بن ثعلبة** : نجارى بدرى أحدى من بنى عدى .

٢٤ ـ **أبو الحمراء** : خزرجى بالولاء لبنى غنم بن النجار بدرى أحدى . وعدد صحابة هذا القسم أحد عشر .

القسم الثانى : وقد فاز بالسعادتين ، سعادة حضور بدر ، وسعادة الشهادة فى سبيل الله . وعددهم سبعة عشر : اثنان فازا بالسعادات الثلاث . حيث حضروا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . واستشهدا فى الجسر مع أبى عبيد وهما :

٢٥ـ **سليط بن قيس** : خزرجى من بنى عدى بن النجار . كان مع أبى صرمة يكسران أصنام بنى عدى بن النجار .

٢٦ـ **قيس بن السكن** : خزرجى من بنى عدى بن النجار . يذكر عنه أنه كان ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ . أما الخمسة عشر الآخرون فهم :

٢٧ـ **سليم بن الحارث** و ٢٨ ـ **كعب بن زيد** و ٢٩ ـ **النعمان بن عبد عمرو** . فثلاثتهم من بنى دينار بن النجار بدريون ، أحديون، استشهدوا بأحد.

٣٠ ـ **قيس بن مخلد** : من بنى مازن بن النجار ، بدرى أحدى واستشهد فيها .

٣١ـ **سليم بن ملحان** : خزرجى من بنى عدى بن النجار ، بدرى أحدى استشهد فى بئر معونة ، وهو خال أنس بن مالك .

٣٢ـ **حرام بن ملحان** : أخو سليم واشتهر عنه أنه كان أمير سرية بئر معونة.

فعن أنس قال : جاء ناس إلى النبى ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة . فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء فيهم خالى حرام ، كانوا يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون . وكانوا بالنهار يجيؤون بالماء فيضعونه بالمسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء . فبعثهم النبى

ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان . فقالوا : اللهم بلّغ نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا . قال : وأتى رجل حراماً خال أنس من خلفه فطعنه حتى أنفذه . فقال حرام : فزت ورب الكعبة) (١) .

٣٣ـ عامر بن أمية : النجارى العدوى البدرى الأحدى الشهيد .

٣٤ـ حارثة بن سراقة : أصيب ببدر ، وأمه الرُبيّع بنت النضر عمة أنس بن مالك. قتله حبان بن العرقة شهيداً . رماه بسهم وهو يشرب من الحوض فأصاب حنجرته فقتله . (وكان خرج نظاراً ولم يعقب . فجاءت أمه الربيّع إلى النبى ﷺ فقالت: يارسول الله ، قد علمت مكان حارثة منى . فإن يكن من أهل الجنة أصبر ، وإلا فسيرى الله ما أصنع . قال : « يا أم حارثة إنها ليست بجنة ، ولكنها جنات كثيرة، وهو فى الفردوس الأعلى » قالت : سأصبر) (٢) .

هذا حارثة . الشهيد . لكن حارثة الذى عاش مع الله وبالله فنشهده فيما (روى ثابت عن أنس قال : بينما رسول الله ﷺ يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار . . فقال له النبى ﷺ : « كيف أصبحت ياحارث ؟ » قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً . قال: « انظر ماذا تقول ؟ فإن لكل قول حقيقة » . قال : يارسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا . فأسهرت ليلى . وأظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى ـ عز وجل ـ بارزاً . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ،وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها . قال : « الزم . عبد نوّر الله الإيمان فى قلبه » . فقال : يارسول الله ، ادع الله لى بالشهادة . فدعا له رسول الله ﷺ . فنودى يوماً بالخيل . فكان أول فارس ركب. وأول فارس استشهد . فبلغ ذلك أمه فجاءت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله ، إن يكن فى الجنة لم أبك ولم أحزن . وإن يكن فى النار بكيت ما عشت فى دار الدنيا . قال : « يا أم حارثة إنها ليست بجنة واحدة ، ولكنها جنان ، وإن حارثة فى الفردوس الأعلى » . فرجعت أمه وهى تضحك وتقول : بخٍ بخٍ لك يا حارثة) (٣) .

وهو نموذج لهذا الجيل السعيد الذى عاش مع رسول الله ﷺ كأنما يعيش مع الله ، يطمئن لقيادة نبيه ، ويحلم بالشهادة . . ويبذل كل ما يملك .

هذا الجيل : الذى قال الله تعالى عنه عقب بدر : كما قال الرسول ﷺ لنموذجه حارثة :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣ / ٥١٤ .

(٢ ، ٣) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) . والفرق أن النموذج الحساس حارثة قد أعلنت نتيجته قبل بدر . وتكلم باسم الجيل كله . « قد أصبحت مؤمناً » . وأحب عليه الصلاة والسلام أن يظهر هذا النموذج المخبوء من هذا الفتى حين سأله عن حقيقة قوله . فحدثه عما فى نفسه التى عافت الشهوات ، واشتاقت إلى الجنات . ولم يكن له من هم وهو يظمى نهاره بالصوم وليله بالتهجد ؛ إلا أن يحقق الحلم الأكبر فى دنياه ألا وهو الشهادة . . .

وقد مرّ معنا وصف لهذا الجيل كذلك أثناء الحديث عن حرام بن ملحان رضي الله عنه والذى شكل مع رفاقه السبعين طبقة كاملة من الجنود الذين باعوا أنفسهم لله . واكتفوا من دنياهم بالتفرغ للعلم وللجهاد .

(فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم : القراء فيهم خالى حرام . كانوا يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون ، وكانوا بالنهار يجيؤون بالماء فيضعونه بالمسجد ، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء.

فكانت هذه الطبقة قد أخلصت نفسها لله من أوهاق الدنيا وإسارها. فرزقها الله جميعاً الشهادة فى بئر معونة .

لكن يجب ألا يغيب عن البال أن هذه النماذج من الجنود تختلف فى مسؤولياتها عن الطبقة القيادية العليا التى تمثلت فى الأنصار الذين أحبوا من هاجر إليهم . وشاركوهم المهنأ وكفوهم الثمرة ، ووضعوا ثروتهم تحت تصرف إخوانهم ، وحُمّلوا مسؤولية القيادة من خلال اختيارهم نقباء على قومهم ، وقادوا هذه المئات تحت راية الإسلام الخالدة . طاعة وانضباطاً وتربية .

٣٥ ـ **أبو شيخ** : أحد أفراد بئر معونة ـ الطبقة السابقة ـ الذى شهد بدراً وأحداً واستشهد ببئر معونة مع رفاقه السبعين . وهو أخو حسان بن ثابت الشاعر على قول بعضهم .

٣٦ ـ **ثابت بن خالد** : من بنى عوف بن غنم بن مالك بن النجار ،بدرى،أحدى ، استشهد ببئر معونة .

٣٧ ـ **معوّذ بن الحارث** : من بنى سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار حضر بدراً واستشهد فيها .

---

(١) الأنفال / ٧٤ .

٣٨ ـ ثابت بن عمرو و **٣٩ ـ قيس بن عمرو** و **٤٠ ـ عمرو بن قيس** و **٤١ ـ عامر ابن مخلد** ، وكان هؤلاء الأربعة من ولد مالك بن غنم بن مالك بن النجار ، وكل واحد منهم ، شهد بدراً وأحداً واستشهد فيها ـ رضى الله عنهم ـ جميعاً .

القسم الثالث : شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

٤٢ ـ عبد الله بن كعب : النجارى المازنى . شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وكان عامل النبى ﷺ على المغانم يوم بدر ، وأخوه أبو ليلى المازنى ، توفى سنة ثلاث وثلاثين ، وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

٤٣ ـ سواد بن غزية : حليف بنى عدى بن النجار . وهو بلوى ، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وعن الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ رأى سواد بن عمرو ـ هكذا قال إسماعيل ـ ملتحفاً فقال : خط خط ، ورس رس . ثم طعن بعود أو سواك فى بطنه . فأثر فى بطنه . فقال : القصاص يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : القصاص وكشف له عن بطنه ، فقالت الأنصار : ياسواد . رسول الله . فقال : ما لبشر أحد على بشر من فضل قال : فكشف عن بطنه ، فقبلهُ وقال : اتركها لتشفع لى بها يوم القيامة ، وأدرك الإيمان عند ذلك .

(وفى رواية : أنه عدّل الصفوف يوم بدر ، وفى يده قدح فمر بسواد بن غزية فطعن فى بطنه فقال : « استو ياسواد » فقال : يا رسول الله أوجعتنى فأقدنى . فكشف عن بطنه فقبلها فاعتنقه وقبل بطنه . وقال : « ما حملك على هذا ياسواد ؟ » فقال : يا رسول الله حضر ما ترى ، ولم آمن القتل ، فأحببت أن أكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير) (١) .

٤٤ ـ أبو سليط بن عمرو : عدوى نجارى شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

٤٥ ـ ثعلبة بن عمرو : من بنى مالك بن النجار شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . توفى فى خلافة عثمان على قول الواقدى . وقتل يوم الجسر شهيداً فى خلافة عمر رضي الله عنه على قول عبد الله بن محمد بن عمارة .

٤٦ ـ أنس بن معاذ : من بنى مالك بن النجار . شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وتوفى فى أيام عثمان على قول الواقدى . ويقول عبد الله بن محمد بن عمارة

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٢٦ .

الأنصارى . شهد أحداً مع أخيه أبى بن معاذ ، وشهدا بئر معونة ، وقتلا شهيدين . والله أعلم أى ذلك كان .

٤٧ ـ **عصيمة** : خزرجى بالولاء لبنى النجار . شهد المشاهد كلها ، وتوفى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان .

٤٨ ـ **عدى بن أبى الزغباء** : بعثه رسول الله ﷺ مع بسبس بن عمرو الجهنى طليعة يتحسسان العدو . فوردا بدراً فوجدا العير قد مرت ، وفاتتهما فرجعا ، فأخبرا النبى ﷺ . شهد المشاهد كلها ، وتوفى فى خلافة عمر رضي الله عنه .

٤٩ ـ **عبد الله بن قيس** : من بنى مالك بن النجار . شهد المشاهد كلها وتوفى فى خلافة عثمان رضي الله عنه .

٥٠ ـ **أبو خزيمة بن أنس** : من بنى مالك بن النجار .شهد المشاهد كلها وتوفى فى خلافة عمر رضي الله عنه .

٥١ ـ **مسعود بن أوس** : من بنى مالك بن النجار . شهد المشاهد كلها ، وتوفى فى خلافة عمر . أما ابن الكلبى فيقول : إنه شهد صفين مع على رضي الله عنه .

٥٢ ـ **سهيل بن رافع** : أحد أصحاب المربد الذى بنى فيه رسول الله ﷺ المسجد . شهد المشاهد كلها . توفى فى خلافة عمر رضي الله عنه .

٥٣ ـ **سليم بن قيس** : من بنى مالك بن النجار . شهد المشاهد كلها ، وهو أخو خولة بنت قيس زوج حمزة بن عبد المطلب .

٥٤ ـ **سراقة بن كعب** : من بنى مالك بن النجار . شهد المشاهد كلها ، وتوفى فى خلافة معاوية . وقال ابن الكلبى عنه : استشهد يوم اليمامة .

٥٥ ـ **حارثة بن النعمان** : من بنى مالك بن النجار . شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، أكرمه الله برؤية جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول :

رأيت جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرتين ، يوم الصورين حين خرج رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة ،حين مرَّ بنا فى صورة دحية بن خليفة الكلبى .فأمرنا بلبس السلاح، ويوم موضع الجنائز حين رجعنا من حنين . مررت وهو يكلمّ النبى ﷺ ، فلم أسلم . فقال جبريل : من هذا يا محمد ؟ قال : حارثة بن النعمان . قال : أما إنه من المائة الصابرة يوم حنين الذين تكفل الله بأرزاقهم فى الجنة ولـو سـلَّم لرددنا عليه (١) .

واشتهر كذلك ببره بأمه . فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن النبى ﷺ قال :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٨٨

« دخلت الجنة فسمعت قراءة . فقلت : من هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان » . فقال رسول الله ﷺ : « كذلكم البر ». وكان براً بأمه .

لقد عقدت صداقة بين الملائكة الذين شهدوا حنيناً وبين تلك المائة الصابرة التى تكفل الله بأرزاقها فى الجنة . خاصة وقد خاضوا معركة واحدة . وكفت هذه المائة الصابرة الملائكة أن يشاركوا فيها بقتال إنما حضروا لتكثير سواد المسلمين هناك ، وشهدوا هذه المائة العظيمة الصابرة الصامدة . وإذا كان حارثة بن النعمان يقاتل ويذود عن رسول الله ﷺ فها هو يعرض على صاحبه أمير المؤمنين عثمان . وقد تأخرت به السن أن يقاتل دونه قائلاً : إن شئت قاتلنا دونك (١) . كما روى ذلك البخارى فى التاريخ .

وإذا كان هو القرم الشجاع ، فهو الكريم الجواد كذلك .

قال محمد بن عمر: وكانت لحارثة بن النعمان منازل قرب منازل النبى ﷺ بالمدينة ، فكان كلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً تحوّل له حارثة بن النعمان عن منزل بعد منزل ، حتى قال النبى ﷺ : « لقد استحييت من حارثة بن النعمان مما يتحوَّل لنا عن منازله ».

وبقى حارثة حتى توفى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . وكان قد كُف بصره ، فجعل خيطاً من مصلاه إلى باب حجرته ، ووضع عنده مكتلاً فيه تمر وغير ذلك . فإذا مرّ المسكين أخذ من ذلك التمر ثم أخذ على الخيط حتى يأخذ إلى باب الحجرة فيناوله المسكين. فكان أهله يقولون : نحن نكفيك . فيقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن مناولة المسكين تقى مصارع السوء (٢) .

٥٦ ـ **النعيمان بن عمرو** : من بنى مالك بن النجار . ذكر ابن إسحاق أنه شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وأخرج البخارى فى تاريخه ، أن النبى ﷺ أتى بالنعيمان وكنت فيمن ضربه . وذكر الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن أبيه : كان بالمدينة رجل يقال له النعيمان يصيب من الشراب ، فذكر نحوه ، وبه أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ قال للنعيمان : لعنك الله . فقال له النبى ﷺ : لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله) (٣) .

قال الزبير : وكان لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ثم جاء بها إلى النبى ﷺ

---

(١) الإصابة لابن حجر م١ ج١ / ٣١٣ .

(٢) الطبقات الكبرى ٣ / ٤٨٨ ، وذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة ، أن الطبرانى قد رواه عن محمد بن عثمان عن أبيه .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٣ ج٥ / ٢٥١ .

فيقول : ها أهديته لك . فإذا جاء صاحبه يطلب نعيمان بثمنه أحضره إلى النبى ﷺ وقال : اعط هذا ثمن متاعه فيقول : « أولم تهده لى ؟ » فيقول: إنه والله لم يكن عندى ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكله . فيضحك ، ويأمر لصاحبه بثمنه) (١) .

وأخرج الزبير قصة البعير بسياق آخر عن طريق ربيعة بن عثمان قال : دخل أعرابى على النبى ﷺ وأناخ ناقته بفنائه . فقال بعض الصحابة للنعيمان الأنصارى : لو عقرتها فأكلناها فإنا قد قرمنا إلى اللحم ففعل ، فخرج الأعرابى وصاح : واعقراه يا محمد . فخرج النبى ﷺ فقال : من فعل هذا ؟ فقالوا : النعيمان . فاتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب. واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد . فأشار رجل إلى النبى ﷺ حيث هو ، فأخرجه . فقال له : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال : الذين دلوك على يا رسول الله ، هم الذين أمرونى بذلك . فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك (٢) .

وبقى النعيمان حتى توفى فى خلافة معاوية .

ومجتمع بدر إذن مجتمع متكافل ، فيه كل المستويات البشرية ، من أعلاها أبى بكر وعمر إلى أدناها النعيمان الذى حُدَّ فى الخمر أكثر من مرة . وكان صاحب مزاح النبى ﷺ ، ولم يحد فى الخمر من أهل بدر إلا اثنان : النعيمان هذا ، وقدامة بن مظعون الذى شربها متأولاً ثم تاب عنها . وقد رضى الله عنهم جميعاً ودخلوا فى دائرة المغفرة . وكانوا القادة السادة فى الأمة .

ولابد أن نشير هنا كذلك إلى أن النجاريين الذين حضروا بدراً قد قاربوا الأوس كلهم ولابدع فى ذلك . فهم أخوال رسول الله ﷺ ، وهو نقيبهم ، وهم الذين أحبوه حباً مهروه عملياً بمهجهم وأرواحهم . وكانوا بحق خير دور الأنصار . ولابد أن نشير كذلك إلى أن رسول الله ﷺ لم يقلد أحداً منهم مسؤولية على ضخامة عددهم . وذلك بعداً بهم عن موطن الشبهة أن يقال إنه قدمهم لأنهم أخواله . اللهم إلا ما كان من حرام بن ملحان الذى جعله رسول الله ﷺ أميراً على سرية بئر معونة . واحتفظوا بأكبر الأمجاد فى تاريخهم وتاريخ هذا الدين أن يكونوا على رأس جيل الفداء والتضحية بالروح والمال والدم. وحين نذكر الشهداء السبعين فى أحد سنلحظ أن معظمهم من بنى النجار . خير دور الأنصار بلا منازع ، فقد بلغ عددهم عشرين شهيداً .

ثالثاً : الخزرجيون من غير بنى النجار :

وقد تحدثنا عن ثلاثين منهم ممن حضر العقبة ، وخمسة عشر منهم ممن آخى رسول

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٣ ج٥ / ٢٥١ .

الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين ، وستتابع الحديث عن ثمانين آخرين منهم . فيما يلى :

ويمكن أن نتحدث عنهم على الطريقة السابقة ممن قدّر لهم حضور المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وممن انتهت حياته أو انتهت أخباره بعد بدر وأحد .

القسم الأول : شهدوا المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وهم :

٤٦ ـ **الحباب بن المنذر** : وهو من القادة الكبار السياسيين والعسكريين عند الأنصار، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وهو السُلمى بن المنذر بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة .

وقد لمع بدره فى بدر كما روى عكرمة ، عن ابن عباس وابن إسحاق ، عن رجال من بنى سلمة أن رسول الله ﷺ نزل منزلاً يوم بدر . فقال الحباب :

يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ .

قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » .

فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل . فانهض بالناس ، حتى نأتى أدنى ماء من القوم . فننزله ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب [1] . ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماءً . ثم نقاتل القوم . فنشرب ولا يشربون ؛ فقال رسول الله ﷺ : «لقد أشرت بالرأى » .

فنهض رسول الله ﷺ ، ومن معه من الناس ، فسار حتى أتى أدنى ماءٍ من القوم نزل عليه . ثم أمر بالقُلُب فغوِّرت [2] وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه . فملئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنية [3] .

وفى رواية الواقدى عن عكرمة عن ابن عباس : (قال : فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ على رسول الله ﷺ فقال : الرأى ما أشار به الحباب بن المنذر) [4] .

وتستوقفنا عظمة التربية التى تلقاها الحباب رضي الله عنه خلال هاتين السنتين . فهو متأدب مع قائده وحبيبه ـ عليه الصلاة والسلام . ومتأدب مع الوحى ، إذ يعلم أن لا رأى مع الوحى . ولهذا أحب أن يتأكد ابتداءً إن كان هذا المنزل وحياً : (.. منزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه) . وهو يعرف فى أعماقه أن هذا المنزل لو كان وحياً

---

(١) القُلُب : جمع قليب وهى الآبار .

(٢) غورّت : ردمت ودفنت .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣١٢ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٦٧ .

لكان هو الخير المحض .

لقد انتهت مرحلة عبودية الذات العربية لتحل محلها عبودية الذات الإلهية .

ويستوقفنا كذلك موقف القائد الحبيب المصطفى ﷺ . وهو يدرب جنده على فن القيادة ، وتحمل المسؤولية . فهو لا يريد لهم أن يكونوا إمعات أو أرقاماً فى صفه ، بل يريد رجالاً يحملون مسؤولية قيادة العالم بعده .

وترك لجنديه الحباب أن يوضح خطأ الموقف الذى نزل به المسلمون . وصواب رأيه فى منزل آخر . وقد شرح الحباب الموقف بكل أبعاده واستشرف الساحة كلها ، واستشرف الزمان والمكان وقدّم الخطة البديلة ، ولم يكتف بإبداء الرأى ، ولم يكتف بالنزول على الماء بل أضاف إلى الخطة ردم الآبار الأخرى حتى لا تصل قريش إلى الماء، واقترح بناء حوض على مياه قليب بدر . بحيث يكون الماء حصراً عند المسلمين . فينهزم العدو فى قطع الماء والتموين عنه قبل أن ينهزم من المواجهة العسكرية .

والحرب ليست طعناً وضرباً فقط ، بل هى تخطيط وإعداد ودراية ، وقد مثّل الحباب رضي الله عنه خبرة الأنصار الحربية الفائقة فى مجال المواجهة مع العدو . وكان الحباب ابن الثلاث والثلاثين سنة يوم بدر قد خاض حروباً عدة تشيب من هولها الرؤوس بين الأوس والخزرج ، فاكتسب هذه العبقرية العسكرية . وسواء نزل جبريل من السماء بالأخذ برأى الحباب ، أو أخذ به رسول الله ﷺ مباشرة . فهو تأكيد على طريقة التعامل مع الشورى ، وطريقة الاستفادة من الطاقات من سيد الخلق محمد ـ صلوات الله عليه .

ولعل هذا المنزل الأول كله من الرسول ﷺ هو تهيئة لجو الشورى ومناخ الشورى وشحذ للأفكار ؛ كى تتجلى فى التخطيط والمواجهة .

ولا أدلّ من نجاح الخطة المذكورة وعظمتها من أثر ذلك على قريش .

فقد كانت أول العمليات الحربية فى بدر أن خرج الأسود بن عبد الأسود المخزومى وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق فقال :

أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه .

فلما خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب . فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه . ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد ـ زعم ـ أن يبر بيمينه. وأتبعه حمزة فضربه حتى

قتله فى الحوض (١) .

وقبل أن نغادر بدرا يحسن أن نعرف أن لواء الخزرج فى بدر كان معه : (فعن سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن يحيى بن سعيد أن النبى ﷺ استشار الناس يوم بدر . فقام الحباب بن المنذر فقال : نحن أهل الحرب أرى أن نغوّر المياه إلا ماءً واحداً نلقاهم عليه . قال: واستشارهم يوم قريظة والنضير فقام الحباب بن المنذر فقال :

أرى أن ننزل بين القصور فنقطع خبر هؤلاء عن هؤلاء ، وخبر هؤلاء عن هؤلاء . فأخذ رسول الله ﷺ بقوله) (٢) .

وتشير هذه الرواية ابتداءً إلى أن رسول الله ﷺ هو الذى طلب الرأى من مستشاريه العسكريين ، وليسوا هم الذين عرضوا الرأى .

(وشهد الحباب أحداً ، وثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ وبايعه على الموت ، وشهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ) (٣) .

الظاهر أن الحباب رضي الله عنه لـم يكن مستشاراً فقط فى الأمور الحربية : (فقد روى ابن شاهين بإسناد ضعيف من طريق أبى الطفيل قال : أخبرنى الحباب بن المنذر قال : أشرت على رسول الله ﷺ برأيين فقبل منى . خرجت معه فى غزاة بدر فذكر نحو ما تقدم قال : وخيِّر عند موته فاستشار أصحابه فقالوا : تعيش معنا . فاستشارنى فقلت : اختر يا رسول الله حيث اختار ربك ، فقبل ذلك منى) (٤) .

وكانت مقومات الزعامة فى البيئة العربية سيفا صارماً ، ولساناً جزلاً شاعراً، ويداً معطاء . فهو يمثل هذه الأمة الجديدة التى اعتزت بالإسلام . ويصوغ هذا المعنى شعراً فيقول :

ألـم تعـلما لله درُّ أبيـكـما ... ومـا الـناس إلا أكـمه وبصير
بـأنَّا وأعـداء النـبى محـمد ... أسـود لـها فـى العالمـين زئير
نـصرنا وأويـنا النـبى ومـا له ... سـوانا مـن أهل الملتين نصير(٥)

ويدرك أن المعركة عالمية وليست محلية. ويغيب عنا ذكر الحباب رضي الله عنه لنشهده بعد وفاة المصطفى ﷺ وبعد أن أشار عليه أن يختار ما اختار له ربه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣١٨ بـم ورواه الطبرانى فى التاريخ ٢ / ٤٤٥ ، والبيهقى فى الدلائل ٣ / ٦٦، ٦٧ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٦٧ .

(٣) المصدر نفسه / ٥٦٨ .

(٤ ، ٥) الإصابة لابن حجر م١ ج١ / ٣١٧ .

نجده يبرز فى سقيفة بنى ساعدة وقد احتدم الحوار بين المهاجرين والأنصار يخرج برأى يراه وسطاً يحل به الخلاف الناشب . فيقول :

أنا جُذيلها المحكك (١) وعذيقها (٢) المرجب (٣) .

ولكن الصدِّيق رضي الله عنه كان حقاً هو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب إذ رأى بهذا الرأى افتراق الأمة . فكان جوابه رضي الله عنه :

هيهات لا يجتمع سيفان فى غمد واحد.

وتمت البيعة للصدّيق . فتقدم الحباب رضي الله عنه وكان من أول المبايعين بعد أن أدرك بعد نظر الصديق الأكبر . فى انقسام الأمة وراء هذا الرأى .

وتوفى الحباب رضي الله عنه فى خلافة عمر بن الخطاب وقد ناهز الخمسين من عمره .

ونشير هنا إلى أن بنى سلمه كانوا أكثر القوم وجوداً وقيادات بعد بنى النجار فى بدر .

٤٧ ـ سماك بن خرشة الساعدى الخزرجى (أبو دجانة) : البطل العلم المعلم بعصابته . آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عتبة بن غزوان . وشهد بدراً وكانت عليه يوم بدر عصابة حمراء . . وشهد أيضاً أبو دجانة أحداً وثبت مع رسول الله ﷺ وبايعه على الموت .

وقد مضى أبو دجانة فى التاريخ مثلاً متفرداً يوم أحد، مثلا متفرداً فى عصابته :(وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، إذا كانت . وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء ، فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل) (٤) .

وكان مثلاً متفرداً فى مشيته :(وجعل يتبختر بين الصفين . فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر : « إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا فى هذ الموطن) (٥) .

وكان مثلاً متفرداً فى سيفه الذى أعطاه إياه سيد القادة ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرواية مسلم ، عن ثابت ، عن أنس قال : (إن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال : « من يأخذ منى هذا » ؟ فبسطوا أيديهم ، كل إنسان يقول : أنا ، أنا . قال :

---

(١) جُذيلها المحكك : تصغير جذل . أراد العود الذى ينصب للإبل الجربى لتحتك به ، أى : أنا ممن يستشفى برأيه كما تستشفى الإبل بالاحتكاك .

(٢) عذيقها : تصغير عذق ، وهو النخلة .

(٣) المرجَّب : هو أن تدعم النخلة ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لطولها وكثرة حملها . انظر أسد الغابة لابن الأثير ١ / ٤٣٧ .

(٤ ، ٥) السيرة النبوية ٣ / ٩٧ .

« فمن يأخذه بحقه » ؟ قال : فأحجم القوم . فقال سماك بن خرشة ، أبو دجانة : أنا آخذه بحقه .

قال : فأخذه ، ففلق به هام المشركين) (١) .

ورواية الذهبى فى السير :(وكان سيف أبى دجانة غير دميم . وذلك أن النبى ﷺ عرض ذلك السيف حتى قال : « من يأخذ هذا السيف بحقه » فأحجم الناس عنه. فقال أبو دجانة : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « تقاتل به فى سبيل الله حتى يفتح الله عليك أو تقتل . فأخذه بذلك الشرط . فلما كان قبل الهزيمة يوم أحد خرج بسيفه مصلتا وهو يتبختر . ما عليه إلا قميص وعمامة حمراء قد عصب بها رأسه وإنه ليرتجز ويقول :

إنـــى امـرؤ عاهدنى خليلى إذ نـحن بالسـفح لدى النخيل
ألا أقيم الدهر فـى الكـبول أضـرب بسـيف الله والرسـول

قال: يقول رسول الله ﷺ : « إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا فى مثل هذه المواطن ») (٢) .

ورواية ابن إسحاق فى السيرة :(وقال رسول الله ﷺ : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام إليه رجال . فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بنى ساعدة . فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب به العدو حتى ينحنى » قال : أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه . وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت .

قال ابن إسحاق : فاقتتل الناس حتى حميت الحرب . وقاتل أبو دجانة حتى أمعن فى الناس .

قال ابن هشام : حدثنى غير واحد من أهل العلم : أن الزبير بن العوام قال : وَجدْتُ فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة. وقلت : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه قبله . فأعطاه إياه وتركنى . والله لأنظرن ما يصنع ، فاتبعته . فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت . وهكذا كانت تقول إذا تعصب بها . فخرج وهو يقول :

---

(١) مسلم ، ك فضائل الصحابة ٤ / ح ٢٤٧٠ ص ١٩١٧ . (٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٢٤٥ .

أنــا الــذى عــاهــدنى خــليلى ونــحن بالســفح لــدى النــخيل
ألا أقــوم الــدهر فــى الكــيول أضــرب بســيف الله والــرسول

قال ابن هشام : ويروى فى : (الكبول) .

قال ابن إسحاق : فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله . وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفف عليه . فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما . فالتقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه ، وضربه أبو دجانة . فقتله ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها . قال الزبير : فقلت الله ورسوله أعلم (١) .

قال ابن إسحاق : (وقال أبو دجانة سماك بن خرشة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً ، فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة . فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة) (٢) .

وحين طم البلاء ووقعت المحنة كان أبو دجانة بجوار قائده ـ عليه الصلاة والسلام :

فقد أسند ابن إسحاق من طريق يزيد بن السكن : أن رسول الله ﷺ لما التحم القتال ذبَّ عنه مصعب بن عمير ــ يعنى يوم أحد ـ حتى قتل . وأبو دجانة سماك بن خرشة حتى كثرت فيه الجراحة .

وشهد له رسول الله ﷺ : فعن ميمون بن مهران قال : (لما انصرفوا يوم أحد قال على لفاطمة : خذى السيف غير ذميم . فقال رسول الله ﷺ : إن كنت أحسنت القتال فقد أحسنه الحارث بن الصمة ، وأبو دجانة) (٣) . وفى رواية ابن إسحاق : (لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهل بن حنيف ، وأبو دجانة) (٤) . وادخره الله تعالى ليوم اليمامة . وشرَّفه بحضور المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

(وهو من فضلاء الصحابة وأكابرهم . استشهد يوم اليمامة بعدما أبلى بلاءً عظيماً. وكان لبنى حنيفة باليمامة حديقة يقاتلون من ورائها . فلم يقدر المسلمون على الدخول إليهم ، فأمرهم أبو دجانة أن يلقوه إليها ففعلوا فانكسرت رجله ، فقاتل على باب الحديقة ، وأزاح المشركين عنه ، ودخلها المسلمون ، وقتل يومئذ) (٥) .

لقد رضع من رحيق النبوة ، وتربى على يدى المصطفى ﷺ بحيث يكون العمل

(١ ، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ١٠٠ ، ١٠١ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٥٧ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ١٤٦ .
(٥) أسد الغابة لابن الأثير ٣ / ٤٥٢ .

منه يسبق قوله ، وفى الوقت الذى سارع المسلمون ليأخذوا السيف بحقه دون أن يعرفوا ذلك الحق ، كان من الأناة والصبر أن سأل عن حق السيف النبوى الخالد . وأقدم على أخذه على بصيرة . وشهد له رسوله المصطفى ﷺ بصدق دعواه .

وبقى هذا شأنه وهذه سمته . حتى احتاجته الكريهة يوم حديقة الموت . فاختال واعتصب وألقوه فى صف المشركين فكسرت رجله ، ومع ذلك قاتل حتى جندل الأبطال حول الباب وفتحه ، ومضى شهيداً إلى ربه بدمائه الزكية الطاهرة . وكان هذا عام اثنى عشر للهجرة فى خلافة الصدّيق .

ولابد من وقفة هنا فى أعماق نفس أبى دجانة فالذى يشهد اختياله بين صفوف العدو وتبختره بسيفه وإنشاده فرحاً بسيف حبيبه . يتقاطر إلى ذهنه أن لأبى دجانة خلق الكبر والخيلاء أو الإعجاب بالنفس . فلنشهده فى لحظة من لحظات ضعفه نتعرف على العبيق النبوى الذى غمر كيانه .

عن زيد بن أسلم قال : دُخل على أبى دجانة وهو مريض ، وكان وجهه يتهلل فقيل له : ما لوجهك يتهلل ؟ فقال : ما من عملى من شىء أوثق عندى من اثنتين . أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنينى ، وأما الأخرى . فكان قلبى للمسلمين سليماً) (١) .

فهو لا يرى ما يستحق به رضوان الله أكثر من سلامة قلبه ، وعدم تدخله فيما لا يعنيه .

إنه من طراز الرجال الذين تقام الأمم على أكتافهم وتبنى بسواعدهم . يصدق فيهم قول الشاعر :

إذا لم أقف فيكم خطيباً مفوَّهاً ۝ فإنى إذا جد الوغى لخطيب

٤٨ ـ **رفاعة بن رافع** : بن مالك بن العجلان . . بن زريق الأنصارى .

إنه ابن سيد قومه رافع بن مالك بن العجلان. نقيب بنى زريق فى العقبة الكبرى .

وهو الذى نقل لنا فضل أهل بدر . قال عروة وموسى بن عقبة وابن إسحاق: إنه ممن شهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . أما أخواه خلاد ومالك ابنا رافع فقد شهدا بدراً معه .

وإن كانت سيادة أبيه قد طغت عليه . فقد حفظ له التاريخ شهوده الجمل وصفين

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٥٧ .

مع على ـ رضوان الله عليه ـ كما روى الشعبى عنه قال :

لما خرج طلحة والزبير إلى البصرة ، كتبت أم الفضل بنت الحارث ـ يعنى زوجة العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنهم ـ إلى على بخروجهم . فقال على:

العجب ! وثب الناس على عثمان فقتلوه ، وبايعونى غير مكرهين ، وبايعنى طلحة والزبير وقد خرجا إلى العراق بالجيش ! قال رفاعة بن رافع الزرقى :

إن الله لما قبض رسول الله ﷺ ظننا أنا أحقُ الناس بهذا الأمر ؛ لنصرتنا الرسول ﷺ ، ومكاننا من الدين . فقلتم : نحن المهاجرن الأولون وأولياء رسول الله ﷺ الأقربون . وإنما نذكركم الله أن تنازعونا مقامه بين الناس. فخليناكم والأمر وأنتم أعلم . وما كان غير أننا لما رأينا الحق معمولاً به ، والكتاب متبعاً ، والسنة قائمة رضينا ولم يكن لنا إلا ذلك . وقد بايعناك ولم نأل . وقد خالفك من أنت خير منه وأرضى ، فمرنا بأمرك . وقدم الحجاج بن غزية الأنصارى فقال:

يا أمير المؤمنين :

دراكها دراكـها قـبل الـفوت　　لا وألـت نفسى إن خـفت الموت

يا معشر الأنصار ، انصروا أمير المؤمنين ثانية كما نصرتم رسول الله ﷺ أولاً . والله إن الآخرة لشبيهة بالأولى إلا أن الأولى أفضلهما .

وقد رسم بهذا القول الخط الذى اختطه الأنصار فى حياتهم مع إخوانهم المهاجرين .

٤٩ ـ البراء بن عازب بن الحارث بن عدى الحارثى الخزرجى : شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما عدا بدر حيث استصغر فيها فلم يحضرها كما يقول: (استصغرنا يوم بدر أنا وابن عمر فلم نشهدها) [(١)] .

وهو ابن الإسلام العظيم. فأبوه عازب رضي الله عنه قد دخل فى الإسلام ، وهو الذى استحث الصدّيق ليقص لنا قصة الهجرة .

وقد كان قلبه يخفق ليرى رسول الله ﷺ وهو فى سن العاشرة . فيحدثنا عن هذه الأشواق فيقول : كان أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار . فقلنا له : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قال : هو مكانه ، وأصحابه على أثرى ، ثم أتى بعده عمرو بن أم مكتوم أخو بنى فهر الأعمى . فقلنا له : ما فعل من ورائك رسول الله وأصحابه ؟ قال : هم أولى على أثرى .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٣٦٧ .

قال : ثم أتانا بعده عمار بن ياسر ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود وبلال ، ثم أتانا بعدهم عمر بن الخطاب فى عشرين راكباً ، ثم أتانا بعدهم رسول الله ﷺ وأبو بكر معه .

قال البراء : فلم يقدم علينا رسول الله ﷺ حتى قرأت سوراً من المفصل ، ثم خرجنا نتلقى العير فوجدناهم قد حذروا (١) .

فهو قد مضى لبدر ، وأعيد إلى المدينة لصغر سنه . وأصبح يحلم فى اليوم الذى ينضم فيه جندياً إلى الجيش الإسلامى . وأسعده الله تعالى بعدها أن لم تفته مع رسول الله ﷺ غزوة . يقول : غزوت مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة.

ويقول : صحبت رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفراً فلم أره ترك ركعتين قبل الظهر. يقول محمد بن عمر : أجاز رسول الله ﷺ البراء بن عازب فى الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة ولم يجز قبلها) (٢) . وفى رواية : أنه شهد أحداً (٣) .

وامتدت به السنون ليكون قائداً من قادة الفتح الإسلامى .

(وهو الذى افتتح الرى سنة أربع وعشرين ، صلحاً أو عنوة ، فى قول أبى عمرو الشيبانى . . . وشهد غزو تستر مع أبى موسى) (٤) .

وامتد به الزمن لينصر خليفة رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضي الله عنه ويقاتل معه كما نصر رسول الله ﷺ . (وشهد البراء مع على بن أبى طالب الجمل وصفين والنهروان) (٥) .

(وكان لصغر سنه ذا باع من العلم عظيم ، حيث روى أحاديث كثيرة لرسول الله ﷺ،وروى عن أبيه وعن أبى بكر وعمر وغيرهما من أكابر الصحابة ، وروى عنه جماعة من الصحابة ومن التابعين ، ونزل الكوفة وابتنى بها داراً . ومات فى إمارة مصعب ابن الزبير سنة اثنتين وسبعين) (٦) .

٥٠ ـ وأخوه عبيد بن عازب : (حضر حروب على ـ رضى الله عنهما ، واختص بميزة عند الفاروق رضي الله عنه فكان أحد العشرة من الأنصار الذين وجههم عمر بن الخطاب مع عمار بن ياسر إلى الكوفة) (٧) .

(١، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٣٦٧ ، ٣٦٨ . (٣ ـ ٥) المصدر نفسه / ٥٠٢ .
(٦) الإصابة للحافظ ابن حجر م١ ج١ / ١٤٧ . (٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٣٦٩ .

٥١ ـ **علبة بن زيد الحارثى الخزرجى** : وقد اشتهر بفقره فى العهد النبوى ، وهى شهرة عجيبة . فقد ذكر محمد بن عمر ، عن قطير الحارثى قال : كان علبة بن يزيد وذووه أقواماً لا مال لهم ولا ثمار ، فلما جاء الرطب قالوا : يا رسول الله ، إنه لا ثمر لنا ولا ذهب عندنا ولا ورق . وعندنا تمور مما ترسل به إلينا بقيت منك عام الأول ، فقال رسول الله ﷺ : « فاشتروا بها رطباً بخرصها ، ففعلوا والقوم يحبون أن يطعموا عمالهم التمر» . قال محمد بن عمر : هى رخصة من النبى ﷺ لهم ومكروه لغيرهم .

ودخل التاريخ الإسلامى بصدقته وبكائه .

أما صدقته :(فكان علبة من الفقراء فجعل الناس يتصدقون ، لم يكن عنده شيء فتصدق بعرضه وقال : قد جعلته حِلاً ، فقال رسول الله ﷺ :

قد قبل الله صدقتك) (١) .

وأما بكاؤه : (وكان علبة أحد البكائين الذين جاؤوا رسول الله ﷺ حين أراد أن يخرج إلى تبوك يسألونه حملاناً فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . فتولوا وهم يبكون غماً أن تفوتهم غزوة مع رسول الله ﷺ ، فأنزل الله فيهم :

﴿ **وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ (٢) . وكان علبة بن زيد منهم) (٣) .

٥٢ ـ **عرابة بن أوس الحارثى الخزرجى** : الذى كان من أطفال المسلمين يوم بدر . (واستصغر يوم أحد فردَّ وأجيز يوم الخندق . فكان سنه يوم أحد أربع عشرة سنة وخمسة أشهر ، فرده رسول الله ﷺ وأبى أن يجيزه) .

وكان أبوه أوس بن قيظى فى الخندق من المنافقين المشهورين ، وآلم عرابة بن أوس أن ينزل فى أبيه قرآناً يتلى : ﴿ **يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا** ﴾ (٤) .

ولكن عرابة نفض عار أبيه عن ثوبه ومضى صعداً فى جهاده مع النبى ﷺ. (فكان من سادات قومه كريماً جواداً . وكان يقاس فى الجود بعبد الله بن جعفر ، وبقيس بن سعد بن عبادة . وذكر ابن قتيبة والمبرِّد أن عرابة لقى الشماخ الشاعر وهو يريد المدينة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٣٧١ . (٢) التوبة / ٩٢ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٣٧١ . (٤) الأحزاب / ١٣ .

فسأله عما أقدمه المدينة فقال : أردت أن أمتار لأهلى ، وكان معه بعيران فأوقرهما له تمراً وبراً وكساه وأكرمه . فخرج عن المدينة التى يقول فيها :

رأيت عـرابة الأوسى يسـمو إلـى الخيرات منـقطع القرين
إذا مـا رايـة رفـعت لمجـد تلقاهـا عـرابة باليـميـن
إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الـوتين[1]

٥٣ ـ مالك بن ربيعة : الساعدى الخزرجى الذى اشتهر بكنيته (أبى أسيد) .

(شهد بدراً وأحداً وما بعدها ، وكانت معه راية بنى ساعدة يوم الفتح ، روى عن النبى ﷺ أحاديث ، وروى عنه أولاده . . ومن الصحابة أنس وسهل بن سعد ، ومن التابعين أيضاً . قال الواقدى : كان قصيراً أبيض الرأس واللحية كثير الشعر ، وكان قد ذهب بصره ومات سنة ستين وهو ابن ثمان ، وقيل خمس وسبعين وقيل ثمانين ، وهو آخر البدريين موتاً) [2] .

(وعن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعد أن أصيب بصره يقول :

لو كنت معكم اليوم ببدر لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى) [3] .

٥٤ ـ مالك بن الدخشم : الحارثى الخزرجى . شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وبعثه رسول الله من تبوك مع عاصم بن عدى فأحرقا مسجد الضرار فى بنى عمرو بن عوف بالنار) [4] . ومكّن الله تعالى مالكاً أن يأسر سيد عشيرته سهيل بن عمرو فى غزوة بدر . فبعث بهذه الرسالة الملتهبة إلى قريش :

أسـرت سـهيلاً فـلا أبتـغى أسيراً به من جميع الأمم
وخندف تعلم أن الفـتى فـتاهـا سـهيل إذا نطلم
ضربت بذى الشـفر[5] حتى انثنى وأكرهت نفسى على ذى العلم[6] .[7]

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ١٩ .
(٢) الإصابة م٣ ج٦ / ٢٣ .
(٣) أسد الغابة لابن الأثير ٥ / ٢٤ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٤٨ .
(٥) ذو الشفر : السيف .
(٦) ذو العلم : الأعلم المشقوق الشفة السفلى .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٥٥ .

٥٥ ـ **أوس بن الصامت** : من بنى غنم بن عوف القواقلة أخو عبادة بن الصامت .

آخى رسول الله ﷺ بينه وبين مرثد بن أبى مرثد الغنوى . شهد أوس بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . واقترن اسمه بموضوع الظهار وسورة المجادلة . لأنه هو الذى ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة .

(لاقى امرأته خولة بنت ثعلبة فى بعض صحواته فقال: أنت علىَّ كظهر [1] أمى . ثم ندم فقال : ما أراك إلا قد حرمت على ، قالت : ما ذكرت طلاقاً . فأتت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال ، وجادلت رسول الله ﷺ مراراً ، ثم قالت: اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى وما يشق علىّ من فراقه ، قالت عائشة : فلقد بكيتُ وبكى من كان فى البيت رحمة لها ورقة عليها . ونزل على رسول الله ﷺ الوحى فسرى عنه ، وهو يبتسم فقال :

« يا خولة ، قد أنزل الله فيك وفيه : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ . . . **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ » [2] قال : « مريه أن يعتق رقبة » . قالت : لا يجد . قال: « فمريه أن يصوم شهرين متتابعين » . قالت : لا يطيق ذلك . قال: « فمريه فليطعم ستين مسكيناً » . قالت : وأنى له . قال : « فمريه فليأت أم المنذر بنت قيس فيأخذ منها شطر وسق تمر فيتصدق به على ستين مسكيناً » .

فرجعت إلى أوس فقال : ما وراءك ؟ قالت : خير وأنت ذميم . ثم أخبرته ، فأتى أم المنذر فأخذ ذلك منها فجعل يطعم مدين من تمر كل مسكين) [3] .

٥٦ ـ **عبد الله بن عبد الله بن أبى** : خزرجى من بنى سالم بن غنم بن عوف . وهو ابن عبد الله بن أبى زعيم المنافقين كان اسمه الحباب ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . وقال: « إن الحباب شيطان » . وإذا كان عرابة بن أوس رضي الله عنه قد تجاوز أباه المغموص فى النفاق ، وساد قومه . فإن عبد الله بن عبد الله بقى مثلاً خالداً فى التاريخ حين عرض قتل أبيه على رسول الله ﷺ .

شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

---

(١) الظهار : أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى (أى محرمة) .

(٢) المجادلة / ١ ــ ٥ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٤٧ .

ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره . فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم. ثم قال :هذا الذى أوفى الله بأذنه .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر أبيه . فأتى رسول الله ﷺ . فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى إنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه . فإن كنت لابد فاعلاً فمرنى فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده منى . وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله . فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس.فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر . فأدخل النار .

فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما دام معنا » .

لقد مثل عبد الله رضي الله عنه قمة علياء من قمم التربية التى عاشها فى محضن النبوة العظيم . وأصبح رسول الله ﷺ أحب عنده من ولده ووالده ومن الناس أجمعين .

وبدلاً من أن يهدد بقتل من يمس والده بسوء ـ كما هى التربية الجاهلية ـ ها هو يبدى استعداده أن يأتى برأس أبيه إلى رسول الله ﷺ .

وهذا لا يعنى أبداً أنه فقد عاطفة حب الأب ، أو أنه أصبح ملكاً خالياً من العواطف نحو أبيه أبداً . إنه فى قمة الوفاء والبر بأبيه . يخشى أن يدفعه بره بأبيه أن يقتل قاتله ولو كان مؤمناً . ولو فعل ذلك دخل النار . إنه بكل عواطفه ، وبكل حبه وبكل بره يطالب بأن يكون هو المنفذ للقتل لا غيره لو صدر الأمر بالقتل . (ولقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده منى) . ونحن نريد هذه الصورة العظيمة الفائقة من التربية التى تملك من ضبط المشاعر حداً يدفعها إلى ذبح هذه المشاعر فداءً لهذا الدين . وتقابلنا عظمة النبوة التى لا يرقى إليها أحد . فمع أن القرآن جاء من فوق سبع سموات بتأكيد المقولة الخبيثة الشنيعة التى قالها ابن أبى : لئن عدنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وإكراماً لمشاعر هذا الشاب المؤمن الذى أبدى استعداده لقتل أبيه . جاء الجواب النبوى العظيم : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

ونقف ثالثاً مع مشاعر هذا الشاب المؤمن الذى خالط الإيمان حشاشة قلبه . هل تمر هذه الحادثة التى نال فيها أبوه من رسول الله ﷺ هكذا دون عقاب ، وإذن فأين حبه لرسول الله ـ صلوات الله عليه ؟ !

لقد مضى وسبق أباه إلى مدخل المدينة فقال لأبيه : والله لا تنقلب إلى المدينة حتى تقول إنك أنت الذليل ورسول الله العزيز . ففعل .

لقد كان هذا الموقف قتلاً معنوياً لابن أبى على يد ولده عبد الله ، حين فرض عليه ابنه هذا الموقف ، بينما كان يأمل أن يأتيه ابنه عبد الله برأس رسول الله ﷺ .

ولا عجب فى ذلك . فحتى تظهر صورة عبد الله بن عبد الله جلية واضحة ، نشهد صورة مقابلة تمت فى هذه الغزوة نفسها ، وقد ذكرت فى سيرة ابن هشام مباشرة بعد موقف عبد الله بن عبد الله المشرف .

قال ابن إسحاق : (وقدم مقيس بن صبابة من مكة مسلماً فيما يظهر . فقال : يا رسول الله ، جئتك مسلماً وجئت أطلب دية أخى قُتل خطأ . فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صبابة . فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتداً فقال فى شعر يقوله :

شفى النفس أن قد بات بالقاع مسنداً تضرَّج ثوبيه دماء الأخادع
وكانت هموم النفس من قبل قتله تلم فتحمينى وِطاء المضاجع
حللت به وِترى وأدركت ثُورتى وكنت إلى الأوثان أول راجع
ثأرت به فهراً وحملْتُ عقله سراة بنى النجار أرباب فارِع)(١)

هذه هى النفسية العربية عارية بدون هذا الدين . أخذ دية أخيه المقتول خطأ وعدا على قاتل أخيه فقتله . وفر إلى مكة مرتداً . وراح يشهر بالمسلمين .

ولذلك كان من أوامر رسول الله ﷺ المشددة قتل مقيس ولو كان معلقاً بأستار الكعبة عند دخول مكة . فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه .

ونعود لعبدالله بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . لنراه يختم حياته شهيداً فى حرب اليمامة . عام اثنى عشرة فى خلافة الصدِّيق .

٥٧ ـ **أوس بن خولى** : الخزرجى من بنى سالم بن عوف ، وهو صهر عبد الله بن أبى وزوج أخته جميلة (كان أوس بن خولى من الكملة . وكان الكامل عندهم فى الجاهلية وأول الإسلام : الذى يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمى ، وكان قد اجتمع ذلك فى أوس بن خولى . وآخى رسول الله ﷺ بين أوس بن خولى ، وشجاع بن وهب الأسدى من أهل بدر ، وشهد أوس بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ) (٢) . (وخلَّفه رسول الله ﷺ على السلاح حين دخل مكة لعمرة القضية مائتى رجل عليهم أوس بن خولى) (٣) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٣٩ .
(٢ ، ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٤٢ ، ٥٤٣ .

قالوا : ولما قُبض النبى ﷺ . وأرادوا غسله ، جاءت الأنصار فنادت على الباب الله ، الله . فإنا أخواله فليحضره بعضنا . فقيل لهم : أجمعوا على رجل منكم . فأجمعوا على أوس بن خولى فدخل فحضر غسل رسول الله ﷺ ودفنه) (١) . (وتوفى أوس فى المدينة فى خلافة عثمان رضي الله عنه) (٢) .

٥٨ ـ **عبادة بن قيس** : من بنى كعب بن الخزرج بن الحارث . شهد المشاهد كلها ، واستشهد بمؤتة .

٥٩ ، ٦٠ ـ **وذفة بن إياس ، وثابت بن هزال** : كلاهما من القواقلة من الخزرج ، شهدا المشاهد مع رسول الله ﷺ وقضيا شهيدين فى اليمامة ، ورفيقى درب أهلاً وحسن خاتمة .

٦١ ـ **عائذ بن ماعص** : من بنى زريق بن عامر ، شهد المشاهد كلها ، وقضى شهيداً باليمامة كرفيقيه السابقين .

٦٢ ـ **عبدالله بن عبس** : خزرجى بالحلف لبنى الحارث . شهد بدراً ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

القسم الثانى : شهدوا بدراً أو بدراً وأحداً فقط : وسنعرض لهم بما توافينا به عنهم كتب التراجم :

٦٣ ـ **بسبس بن عمرو** : جهنى وخزرجى بالولاء لبنى ساعدة . شهد بدراً وأحداً . وله يقول الراجز فى بدر . والراجز هو رفيقه عدى بن أبى الزغباء :

أقم لها صدورها يا بَسْبَسُ ليس بذى الطلح لها معرَّس
ولا بصحراء عُمَيْر محبس إن مطايا القوم لا تُخَيَّس
فحملها على الطريق أكيس قد نصر الله وفرَّ الأخنس)(٣)

وذلك بعد العودة من بدر .

أما بسبس فكان له مهمة استطلاعية قبيل بدر مع رفيقه الراجز عدى .

قال ابن إسحاق : وكان بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبى الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدراً . فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شناً (٤) لهما يستقيان فيه ، ومجدى

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٤٢ ، ٥٤٣ . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٤٦ .
(٤) الشنُّ : الزق البالى .

ابن عمرو الجهنى على الماء ، فسمع بَسْبَس وعدى جاريتين من جوارى الحاضر [1] وهما يتلازمان [2] على الماء . والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتى العير غداً أو بعد غدٍ فأعمل لهم ، ثم أقضيك الذى لك . فقال : مجدى : صدقتِ . ثم خلص بينهما . وسمع ذلك عدى وبسبس . فجلسا على بعيريهما . ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ . فأخبراه بما سمعا) [3] .

وأهمية الخبر هو فى تحديد موعد عودة القافلة التى يقودها أبو سفيان عائداً من الشام .

٦٤ ـ **خراش بن الصمة** : خـزرجى من بنى كعب بن سلمة . شهد بدراً وأحداً . وكان من الرماة المشهورين من أصحاب رسول الله ﷺ. وجرح فى أحد عشر جراحات . وكان يقال له : قائد الفرسين . وكان لخراش عقب. فانقرضوا فلم يبق منهم أحد [4] .

٦٥ ـ **خلاد بن رافع** : خزرجى من بنى زريق ، شهد بدراً وأحداً . وينقل لنا ابن الأثير البركة فى جمله وأخيه . روى رفاعة بن يحيى ، عن معاذ بن رفاعة ، عن أبيه قال : خرجت أنا وأخى خلاد . مع رسول الله ﷺ إلى بدر على بعير أعجف ، حتى إذا كنا بموضع البريد الذى خلف الروحاء [5] برك بنا بعيرنا فقلت : اللهم لك علينا لئن أتينا المدينة لننحرنه. فبينا نحن كذلك إذ مر بنا رسول الله ﷺ فقال : « ما لكما ؟ » فأخبرناه . فنزل رسول الله ﷺ فتوضأ . ثم بزق فى وضوئه . ثم أمرنا ففتحنا له فم البعير . فصب فى جوف البكر [6] من وضوئه، ثم صبّ على رأس البكر ، ثم على عنقه ، ثم على حاركه [7] ، ثم على سنامه ، ثم على عجزه ، ثم على ذنبه ،ثم قال : « اللهم احمل خلاداً ورافعاً » .

"فمضى رسول الله ﷺ . وقمنا نرتحل ، فارتحلنا . فأدركنا النبى ﷺ على رأس المَنصَف [8] ، وبكرنا أول الركب . فلما رآنا رسول الله ﷺ ضحك . فمضينا حتى أتينا بدراً . حتى إذا كنا قريباً من وادى بدر برك علينا . فقلنا : الحمد لله ، فنحرناه

(١) الحاضر هنا : النازلون على الماء .
(٢) يتلازمان : تطلب إحداهما الثانية ديناً .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٩ .
(٤) الطبقات الكبرى ٣/ ٥٦٤ .
(٥) الروحاء : موضع على نحو أربعين ميلاً من المدينة على طريق مكة .
(٦) البكر : الجمل .
(٧) الحارك : أعلى الكاحل .
(٨) المنصف : وادٍ باليمامة . ولعلها المصرف بعد ثمانين كيلا من المدينة على طريق مكة .

وتصدقنا بلحمه (1) .

توفى ، وكان له عقب فانقرضوا . وقال ابن الكلبى : قتل خلاد يوم بدر .

٦٦ ـ **زيد بن وديعة** : خزرجى من بنى سالم بن غنم بن عوف، شهد بدراً وأحداً ، وكان ابنه سعد قد قدم العراق فى خلافة عمر رضي الله عنه فنزل بعقر قوف فصار ولده بها . وقال ابن الكلبى : إن زيداً قُتِل بأحد .

٦٧ ، ٦٨ ـ **عقبة بن عثمان وأخوه سعد بن عثمان** : من بنى زريق بن عامر . شهدا بدرا وأحداً . وهما اللذان فرا يوم أحد ، وتاب الله عليهما فيمن تاب .

قال ابن إسحاق : وفر ـ يعنى يوم أحد ـ عقبة بن عثمان ، وسعد بن عثمان رجلان من الأنصار حتى بلغوا جبلاً مقابل الأعوص . فأقاما به ثلاثاً . ثم رجعا إلى رسول الله ﷺ . فذكروا أن رسول الله ﷺ قال لهم : « لقد ذهبتم بها عريضة » .

وفيهما وفى غيرهما نزل قول الله ـ عـز وجل ـ : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾**(2) .

٦٩ ـ **هلال بن المعلى** : من بنى حارثة ، شهد بدراً ، وقيل : شهد أحداً . وقال محمد بن عمر : قتل يوم بدر شهيداً ، وله عقب . وقال ابن عمارة الأنصارى: المقتول ببدر رافع بن المعلى. ولم يقتل هلال يومئذ. وقد شهد أحداً مع أخيه عبيد بن المعلى . ولم يشهد عبيد بدراً . ولهلال عقب بالمدينة وبغداد) (3) .

٧٠ : ٧٥ ـ ولم تذكر كتب الطبقات عنهم شيئاً سوى حضورهم بدراً ـ رضى الله عنهم ـ وهم : الفاكه بن نسر الزرقى ، ومسعود بن خلدة الزرقى ، وعمير بن حرام السُلَمِىّ ، وعبد الله بن عرفطة الحارثى بالحلف ، وعبد الله بن عمير الحارثى .

٧٦ ـ **النعمان بن مالك** : من القواقلة . وقد ذكر السدى أن النعمان بن مالك الأنصارى قال لرسول الله ﷺ فى حين خروجه إلى أحد ومشاورته عبد الله بن أبى بن سلول ـ ولم يشاوره قبلها ـ فقال النعمان بن مالك : والله يارسول الله ، لأدخلنّ الجنة. فقال له : « بم ؟ » قال : بأنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . ولا أفر يوم الزحف . قال : « صدقت » .

فقُتِل يومئذٍ .

---

(1) أسد الغابة لابن الأثير ٢/ ١٤١ .

(2) آل عمران / ١٥٥ .

(3) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٦٠١ .

وذكر الواقدى أن النعمان بن مالك وقف مع عمرو بن الجموح بأحد (١).

ولا نستطيع أن نمر دون أن نشير إلى هذه النفوس الخالدة الصادقة . التى تقسم أنها ستدخل الجنة وكأنها فى الدنيا أطيار من أطيار الجنة تحوم فيها . ويسأله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ذلك . فلا يقدم عربوناً لذلك إلا الشهادتين ، والثبات يوم اللقاء . ولمعرفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بصفاء نفسه وصدق سريرته . قال له : «صدقت».

وأقسم على الله ، وأبره الله ، ورزقه الشهادة فى أحد ، وكان من الأحياء الذين يرزقون فى الجنة .

٧٧ ـ **عنترة مولى سليم بن عمرو** : فهو خزرجى بالولاء لبنى سواد بن غنم بن كعب بن سلمة . شهد بدراً وأحداً . واستشهد فيها . وقد قتله فى أحد نوفل بن معاوية .

٧٨ ـ **سهل بن قيس** : من بنى سواد بن غنم بن كعب بن سلمة . شهد بدراً وأحداً واستشهد فيها ، وهو ابن عم كعب بن مالك الشاعر ، وهو صاحب القبر المعروف بأحد .

٧٩ ـ **خلاد بن عمرو** : خزرجى من بنى كعب بن سلمة ، وهو ابن عمرو بن الجموح ، والذى حملته أمه على بعيرها إلى المدينة بعد استشهاده ثم عادت به . شهد بدراً وأحداً . وقد شهد خلاد وأبوه وإخوته معاذ ومعوذ وأبو أيمن بدراً ، وقتل خلاد يوم أحد شهيداً .

٨٠ ـ **ضمرة بن عمرو** : شهد بدراً وأحداً واستشهد فيها ، وهو خزرجى بالولاء لبنى ساعدة .

٨١ ـ **نوفل بن عبد الله** : خزرجى من القواقلة . شهد بدراً وأحداً واستشهد فيها . وكان جده سيد الخزرج فى زمانه .

ويأتينا القسم الأخير من البدريين . والذين لم نعرف عنهم إلا أنهم كتبوا عند ربهم من السعداء ، وكتبوا فى الأرض فى سجل الخالدين ، وعى التاريخ أسماءهم وأسماء قبائلهم . وأنهم شهدوا الغزوتين العظيمتين بدراً وأحداً وهم :

٨٢ : ٨٦ ـ **خمسة من بنى الحارث** : الفرع الثالث من الخيرية الأنصارية وهم :

يزيد بن المزين ، وسماك بن سعد ، وسبيع بن قيس ، وحريث بن زيد ، وتميم بن يعار .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٣ ج٦ / ٢٤٦ .

٨٧ : ٨٩ ـ **ثلاثة من بنى سالم بن غنم بن عوف وحلفائهم** : وهم: معبد بن عبادة ، وعامر بن سلمة ، وعاصم بن البكير .

٩٠ : ٩٧ ـ **سبعة من القواقلة** : ثلاثة منهم بالنسب وهم : مليل بن وبرة، وعصمة ابن الحصين ، والربيع بن إياس ، وأربعة بالحلف وهم : بحاث بن ثعلبة، وعبد الله ابن ثعلبة ، وعتبة بن ربيعة ، وعمرو بن إياس .

٩٨ : ١٠٢ ـ **أربعة من بنى ساعدة** : الفرع الرابع من الخيرية فى الأنصار وهم :

اثنان بالنسب : مالك بن مسعود ، وعبد رب بن حق . واثنان بالحلف والولاء وهما : زياد بن كعب ، وكعب بن جماز .

١٠٣ : ١١٧ ـ **خمسة عشر من بنى سلمة** : وهم أكثر القبائل حضوراً بعد بنى النجار من فروع الخزرج . وقد مرَّ معنا الكثير من قياداتهم من قبل وهؤلاء أحد عشر منهم بالنسب لبنى كعب بن سلمة وهم :

معوذ بن عمرو ، وعبد الله بن الجد (وكان أبوه من رؤوس المنافقين) ، وعتبة ابن عبد الله ، وعبد الله بن عبد مناف ، وخليد بن قيس ، وعبد الله بن النعمان ، وسواد بن رزن ، وحمزة بن الحُميِّر ، ومعبد بن قيس ، وعبد الله بن قيس ، وعمرو ابن طلق . وأربعة بالولاء والحلف وهم :

النعمان بن سنان ، وعبد الله بن الحمير (وهو أشجعى) ، وتميم مولى خراش ، وحبيب بن الأسود .

١١٨ : ١٢٢ ـ **خمسة من بنى زريق بن عامر** : وهم : قيس بن محصن ، وجبير ابن إياس ، وأسعد بن يزيد ، ومسعود بن سعد ، وعبيد بن زيد .

١٢٣ ، ١٢٤ ـ **اثنان من بنى بياضة بن عامر** : وهما : خليفة بن عدى ، ورخيلة بن ثعلبة .

وبذلك يكون عدد الخزرج الذين شهدوا بدراً أربعاً وعشرين ومائة من دون بنى النجار . فإذا أضيف لهم الخزرجيون النجاريون وهم سبع وخمسون فيكون قد حضر بدراً من الخزرج واحد وثمانون ومائة . ومن الأوس واحد وستون ، ومن قريش والمهاجرين اثنان وثمانون فيكون العدد أربعاً وعشرين وثلاثمائة . ولكن العدد الحقيقى هو أربع عشرة وثلاثمائة . وهؤلاء العشرة على اختلاف من الرواة فى حضورهم . أو اعتبار البدريين من حضرها فعلاً ، أو من أسهم له رسول الله ﷺ كمن حضرها ، ففى صحيح البخارى : عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما ـ عن أصحاب رسول الله

ﷺ: « إن عدة أصحاب بدرعلى عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلاموٌمن . وهم بضعة عشر وثلاثمائة »(١) .

(١) البخارى م ٢ ج ٤ / ٩٤ باب عدة أصحاب بدر .

أحـداث ذات أهميـة

ثلاثة أحداث تمت خلال هذه الفترة . ساهمت فى تعميق جذور التربية الإيمانية فى النفوس وكانت ذات طابع عام وعالمى :

هذه الأحداث هى : دعوة عبد الله بن أبى وأثرها ، إسلام سلمان الفارسى ، رجم اليهوديين . وسنعرض لهذه الأحداث ونتحدث عن آثارها العميقة فى المجتمع الإسلامى بعد ذلك :

أولاً : دعوة عبد الله بن أبى :

عن أنس رضي الله عنه قال : قلت: يا نبى الله ، لو أتيت عبد الله بن أبى ؟ فانطلق إليه النبى ﷺ ، فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة . فلما أتاه رسول الله ﷺ قال :

إليك عنى فوالله لقد آذانى نتن حمارك .

فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك .

فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه . فكان بينهم ضرب بالجريد ـ وفى لفظ: بالحديد ـ والأيدى والنعال، فبلغنا أنه أنزل فيهم:

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) . رواه الشيخان (٢) .

قال ابن إسحاق : قال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل   تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه   وإن جذَّ يوماً ريشه فهو واقع (٣)

وزاد الآمدى فى تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة :

---

(١) الحجرات / ٩ .

(٢) البخارى عن مسدد ، ومسلم عن محمد بن الأعلى كلاهما عن المعتمر بن سليمان .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٠ .

ولـم أر مـثل الحق أنـكره امرؤ ولا الضـيم أعـطاه امرؤ وهـو طائع (١)

لقد مثل عبد الله بن أبى فى هذه المرحلة معسكر المشركين . وكان لا يزال فى أوج عزته وفخاره وقومه ملتفون حوله . لكن معظمهم أسلموا ، وحرصوا على إسلامه . فكان أن مضى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إليه يدعوه إلى الإسلام . ولكن حقد ابن أبى كان أكبر من عقله . فلم يتمالك وهو يرى رسول الله ﷺ قد أصبح سيد المدينة بلا منازع . لم يتمالك ابن أبى وهو يرى مجده وملكه ينهار أن يسىء الأدب مع رسول الله ﷺ بقوله :

إليك عنى ، فوالله لقد آذانى نتن حمارك .

وأمام هذه الوقاحة ، كان لابد أن يسمع كلاماً يعيده إلى صغاره ،ويضعه فى حدوده . فسمع هذا القول : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك .

واشتعلت الفتنة فى الصف الإسلامى بهذا الفتيل . وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال . وهذه أضخم فتنة عاناها الصف الداخلى فى المدينة فى توزع للولاء بين الولاء للدين والعقيدة أو الولاء للزعامة والقبيلة . وهى محنة مبكرة بعد .

لقد سبقها محاولة شاس بن قيس . لكن تلك تم تلافيها قبل وقوعها ، وسمع الصف المؤمن :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . . ﴾ (٢) إلى آخر الآيات .

أما اليوم فقد تجاوز الأمر الاستعداد إلى المواجهة والاشتباك بالأيدى والجريد والنعال ، وفضٍ الاشتباك على ضغن وأحقاد . قد يؤدى امتدادها إلى تكرار المواجهة لتصبح بالسلاح . فتنزل القرآن الكريم ؛ ليرفع هذه النفوس من وهدتها وولاءاتها السابقة إلى أفق الحق الصراح البعيد عن الهوى ، وليجعل البغى يواجه من المجتمع كله. صفاً واحداً. بحيث يفىء الجميع إلى الحق أفراداً وجماعات .

فلابد من الإصلاح أولاً ، وترطيب النفوس وصقلها بالتذكير بالنعمة الربانية بهذا الدين،ولابد من مواجهة الفئة الباغية التى تصر على البغى من الصف المؤمن كله: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) هامش السيرة الشامية (سبل الهدى والرشاد) ٦١١ .

(٢) آل عمران / ١٠٣ .

(٣) الحجرات / ٩ .

وتسارع هذا الجيل إلى تنفيذ أمر الله ، وتصالح الفريقان ، وفاؤوا إلى أمر الله . فأحس ابن أبى أنه ذبح بغير سكين ، ورأى جنده الذين كان يعوّل عليهم أن يكونوا أبطال الساح معه ضد هذا العدو الوافد ، رآهم جميعاً يتحولون إلى جنود فى صف محمد ﷺ فقال :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تذل ويصرعك الذين تصارع

إنه إعلان غير مباشر عن الهزيمة التى لحقت به جزاء حمقه فى النيل من رسول الله ، وخفت معسكرالشرك صامتاً لا يفعل شيئاً حتى جاءت بدر .

ثانيا : وجولة ثانية فى معسكر اليهود :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ : أن أحبار يهود اجتمعوا فى بيت المدراس حين قدم رسول الله ﷺ وقد زنى رجل بعد إحصان بامرأة من يهود . فلما اجتمعوا فى بيت المدراس قال : ابعثوا بهذا الرجل وبهذه المرأة إلى محمد . فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها ، واحتججنا بها عند الله وقلنا : فتيا نبى من أنبيائك .

وفى رواية : فقالوا : ولوه الحكم فيهما ، فإن عمل فيهما بعملكم من التجبية ـ وهى الجلد بحبل من ليف يطلى بقار، ثم تسود وجوههما ،ثم يحملان على حمارين ، وتجعل وجوههما من قبل أدبار الحمارين ـ فاتبعوه فإنما هو ملك سيد قوم ، وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبى فاحذروه على ما فى أيديكم أن يسلبكموه . فأتوا رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ، هذا رجل زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت فاحكم فيهما . فقد وليناك الحكم فيهما . فقال رسول الله ﷺ : « ما تجدون فى التوراة ؟ » قالوا : نفضحهما ويجلدان ـ وفى رواية قالوا : دعنا من التوراة ، وقل ما عندك . فأفتاهم بالرجم . فأنكروه فلم يكلمهم رسول الله ﷺ حتى أتى بيت مدراسهم فقام على الباب فقال :

« يا معشر يهود ، أخرجوا إلىّ علماءكم » . فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا ، وأبا ياسر بن أخطب ، ووهب بن يهوذا ، فقالوا : إن هؤلاء علماؤنا . فقال رسول الله ﷺ :

« أنشدكم الله الذى أنزل التوراة على موسى . ما تجدون فى التوراة على من زنى بعد إحصان ؟ » قالوا : يحمم (١) ويجبب (٢) . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم ،

(١) يحمم : من حُمم الرجل : أى سوِّد وجهه .

(٢) فى الصحاح : التجبية أن يقوم الإنسان قيام الراكع . ولها حالة أخرى أن ينكب على وجهه باركاً وهو السجود .

إن فيها آية الرجم . فأتوه بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال عبد الله بن سلام ارفع يدك . فرفعها فإذا آية الرجم تلوح .

قال : صدق محمد - وفى رواية : أن رسول الله لما أقسم عليهم بالله - عز وجل - سكت شاب منهم . فلما رآه رسول الله ﷺ سكت ألظ [1] به المسألة فقال: إذ نشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم. فقال النبى ﷺ: « فما أول ما عصيتم الله عز وجل ؟» قال :

زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا . فأُخِّر عنه الرجم . ثم زنى رجل فى أسرة من الناس . فأرادوا رجمه ، فحال قومه دونه وقالوا : والله لا يرجم صاحبنا حتى تجىء بصاحبك فترجمه . فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم - وفى رواية : أن الزنى كثر فى أشرافنا . فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً ، ونقيمه على الشريف والوضيع فأجمعنا على التحميم والجلد. أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك نبى مرسل لكنهم يحسدونك . فقال النبى ﷺ : « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قديماً بالشهوة » . فجاؤوا بأربعة شهود . بأنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة . فأمر رسول الله ﷺ بهما فرجما عند باب مسجده . قال ابن عمر : فرأيت الرجل يجنئ [2] على المرأة ليقيها الحجارة . وفى لفظ : فكنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها الحجارة بنفسه) [3] .

١ - لقد كان الهدف الرئيسى من المحاولة اليهودية البائسة هو زعزعة الصف المسلم ابتداءً . والدخول من ثغرة معينة إليه . وذلك فى التشكيك بنبوة النبى ﷺ . حين لا يأتى الحكم مناسباً لهواهم . وانزلاقة واحدة من هذا النبى تعنى النصر الحقيقى لهم .

٢ - ولأنهم المغضوب عليهم من الله - تعالى - يحسبون أنهم سيجرون محمداً ﷺ إلى قواعدهم . وهم يتعاملون مع الله - تعالى عما يفكرون علواً كبيراً - كأنه أحد خصومهم يلعبون عليه ، فإذا كانت الفتوى بغير الرجم احتجوا بها عند الله قائلين : فتيا نبى من أنبيائك . ومن هذه الفتيا يسبغون الشرعية على الانحراف الذى صاغوه فى كتبهم وقالوا للناس : هذا من عند الله . ويخلصون من الرجم الذى فرضه الله على الزناة المحصنين منهم .

---

(١) ألظ : إلظاظاً إذا لزمه وثابر عليه . (٢) يجنئ عليها : يكب ويميل عليها .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن البراء بن عازب ، والشيخان عن ابن عمر ، والطبرانى عن ابن عباس، وابن إسحاق وابن جرير والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة ، وابن ماجة عن جابر .

٣ ـ والقرار الخبيث الوغد عندهم . أن يتبعوه إن كان ملكاً فحكم بغير الرجم ، وأن يحاربوه إن كان نبياً إذا حكم بالرجم . وكما فعل إبليس ـ لعنه الله ـ بعد أن طلب النظرة من ربه أنه سيغوى البشر جميعاً إلا من يستعصى منهم عليه . فقد بلغ الأمر بهذا الجيل المغضوب عليه. أن يتبع الملك ويحارب النبى.

٤ ـ وفى المسجد أمام الجيل المهتدى فى الأرض يأتى وفد يهود ، يطلب من رسول الله ﷺ أن يحكم بهذين اليهوديين اللذين زنيا بعد إحصان . والمسلمون بالفطرة النقية الصادقة التى يحملونها يدركون أن وراء المجىء مؤامرة خبيثة ماكرة ، وإلا فمتى كان اليهود يقبلون حكم النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ؟ هم يحسون كذلك أن نصراً جديداً لهذا الدين قادم ، وخزياً لهذا العدو واقع . فهم يتلهفون لما وراء هذا الحدث . وما يترتب عليه من آثار فى المدينة تمكن للقلوب المؤمنة . وترفع ضعاف النفوس ، وتزيد الذين آمنوا إيمانا .

٥ ـ ورسول الله ﷺ أراده حدثاً منعطفاً لا حدثا عابراً مع هذا العدو المكابر ، فكان يمكن أن ينفذ الحكم أو يصدر الفتوى وانتهى الأمر ، وهو ما يريده اليهود . فحول الأمر رسول الله ﷺ إلى غزو فكرى لهم ، وقضية توظف لصالح هذا الدين ، وهذه الأمة . وأصبحوا هم المتهمون فيها . فقد سألهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ما تجدون فى التوراة ؟ قالوا : نفضحهما ويجلدان . وفى رواية : دعنا من التوراة وقل ما عندك؟ فأفتاهم بالرجم ، فأنكروه .

إلى هنا والأمر انتهى لما يريده اليهود . والمسلمون فى المسجد قد آذاهم هذا الإنكار للرجم . وهذه الدعوى العريضة : أن التوراة جاءت بالفضح والجلد .

٦ ـ وخطا الرسول ﷺ نحو غزوته الجديدة حين مضى بشخصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى بيت مدراسهم . ومكان عبادتهم ، وطلب لقاء علمائهم . فأُبلس القوم وأسقط فى أيديهم . وأخرجوا . فلم يكن لهم خيار أن يخرجوا كبار علمائهم المتواطئين على الضلالة والإصرار على المعصية والذين يدركون أنهم قد غيروا حكم الله بإرادتهم ، فيغطوا جريمتهم على الناس .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

ويقول لهم : « أنشدكم الله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنا بعد إحصانه » ؟

(١) البقرة / ٧٩ .

قالوا : يحمم ويجبَّب . لكن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جاء مع رسول الله ﷺ ليفضح هذا العدو ويخزيه فقال لهم : كذبتم ، إن فيها آية الرجم .

وكان التصرف فى هذه الصاعقة التى نزلت على رؤوسهم . محاولة يائسة أخيرة فى تغطية جريمتهم أمام محمد ﷺ وأصحابه . وتواطؤوا بسرعة عجيبة . أن يضعوا أيديهم على آية الرجم . فقرأوا ما قبلها وما بعدها ، وهم يعرفون أن عبد الله بن سلام هو أعلمهم جميعاً ، ومع ذلك يصرون على الضلالة خوف الفضيحة . فكانت الفضيحة الأكبر على الملأ من المسلمين أن قال عبد الله بن سلام :

ارفع يدك . فرفع يده . فإذا فيها آية الرجم . فقالوا :

صدق يا محمد . فيها آية الرجم .

هذه رواية البخارى وفى لفظ آخر له : فقال لليهود: « ما تصنعون بهما »؟ قالوا : نسخم وجوههما ونخزيهما ، قال: « ﴿ **فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ »(١) . فجاؤوا . فقالوا لرجل مما يرضون أعور : اقرأ فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها . فوضع يده عليه فقال : ارفع يدك فرفع . فإذا آية الرجم تلوح قال : يامحمد ، إن فيها آية الرجم ولكنا نتكاتمه بيننا . فأمر بهما فرجما .

ونص رواية مسلم : قالوا : نسوِّد وجوههما ونحممهما ، ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، ويطاف بهما . قال :« ﴿ **فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ » . قال : فجاؤوا بها فقرؤوها حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده . فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما .

٧ ـ وفضح اليهود على ملأ من المسلمين . فضح الجيل الذى نزعت منه الرسالة إلى الجيل المصطفى المختار من ربه لحملها . ثم كان الاعتراف بعد الفضيحة .

ففى رواية الزهرى : (. . . وسكت شاب منهم فلما رآه رسول الله ﷺ سكت ألظ به رسول الله ﷺ النشدة فقال : اللهم إن نشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم . فقال النبى ﷺ : « فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟ » قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ، ثم زنى رجل فى أثره من الناس فأراد رجمه. فحال قومه دونه وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه. فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم . فقال النبى ﷺ : « فإنى أحكم بما فى التوراة » . فأمر بهما فرجما . قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ**

(١) آل عمران / ٩٣ .

بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا . . . ﴾ (١) ، فكان النبى ﷺ منهم . رواه أحمد وأبو داود وهذا لفظه وابن جرير) (٢) .

٨ ـ لقد انتهت هذه الحادثة بالسقوط المريع المخزى للمعسكر اليهودى . ولم يدع الرسول ﷺ اليهوديين حتى جىء بأربعة شهود عليهما . وقال عليه الصلاة والسلام :

« اللهم إنى أول من أحيا أمرك بعد إذ أماتوه » . قال : فأمر بهما فرجما . قال : فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوه ﴾ أى يقولون ائتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا إلى قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُون ﴾ . قال فى اليهود ، إلى قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾ قال فى اليهود : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون ﴾ (٣) قال : فى الكفار كلها .

انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجة من غير وجه عن الأعمش به (٤) . فقد استلم الراية رسول الله ﷺ والأمة الوسط الشهود معه ، وها هى تنزع من اليهود الذين خانوا العهد ، وكذبوا على الله ، وافتروا عليه .

يقول ابن كثير رحمه الله : (فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة ، وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدى لا محالة،ولكن هذا بوحى خاص من الله ـ عز وجل ـ إليه بذلك ، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم من تواطؤ على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة . فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه بأن زيفهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم ، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة ؛ لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا ﴾ أى:الجلد والتحميم ﴿ فَخُذُوه ﴾ أى اقبلوه ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ أى : من قبوله واتباعه) (٥) .

٩ ـ وانقلب المسلمون المختارون ـ هذا الجيل السعيد ـ عقب هذه الحادثة أرسخ

---

(١) المائدة / ٤٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٧٤ .
(٣) المائدة / ٤١ ــ ٤٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٧٥ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٧٦ .

إيماناً ، وأتقى قلوباً ، وأعظم يقيناً مما كانوا عليه . لكن القرآن الكريم الذى نزل بهذا الحدث الجلل جعلهم يختصرون الزمن . فما يحتاجه عشرات السنين للتربية والتكوين فيه . تختصره الآيات القرآنية فى لحظات قلائل . فهم يشهدون الحدث مع مربيهم الأعظم ﷺ . ويتنزل القرآن بعدها به من فوق سبع سموات . فكأنما هم يعيشون مع ربهم ـ سبحانه ـ فى كل لحظة من لحظات حياتهم .

أ ـ نزل القرآن الكريم ليعرض ابتداء سجلاً مخزياً لهؤلاء الذين دلفوا إلى المسجد ليسألوا رسول الله ﷺ عن فتوى عقوبة الزانيين المحصنين . ومن وراءهم ممن يبيتون الدسائس والمؤامرات فكان التسجيل المرئى والمسموع لما فى نتن قلوبهم ، وعكر شهواتهم منذ البدء حتى القدوم :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

ب ـ ثم يأتى العرض الثانى الذى يصف خلقهم الذى تربوا عليه والذى اختلط بأجسادهم ونشأ وسرى فى دمائهم . ويدع الأمر لحبيبه المصطفى ﷺ فى الحكم أو الإعراض عنهم :

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) .

وقد اختار ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحكم ، وحكم بالقسط كما علمه ربه ، فكان أول من أحيا أمر الله بعد أن أماتوه بالشهوة .

جـ ـ وتكشف الآية الثالثة ، أنهم قد كفروا يوم تركوا حكم الله فى التوراة ، واخترعوا حكماً من عند أنفسهم ، فما أولئك بالمؤمنين :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ

---

(١) المائدة / ٤١ .　　(٢) المائدة / ٤٢ .

بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

د ـ ثم يحدث الله تعالى الجيل المؤمن عن التوراة ، الكتاب الأول المنزل على موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ رفيق درب النبوة ، وأخو محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وها هو قد حكم فيها رسول الله ﷺ من النبيين الذى أسلموا ـ والربانيون والأحبار من بعدهم . إلى أن جاء الجيل النكد الذى اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ، وترك حكم الله وأماته بالشهوة ، فكان هو الجيل الكافر لا المؤمن :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

هـ ـ وكان الرفيق الثانى على الدرب عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأحيا ما أمات الكافرون ـ اليهود ـ من حكم الله . ثم جاء الجيل النكد بعد ، الذى ترك التوراة والإنجيل ، واشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ، وضل عن الطريق ، فكانوا هم الظالمون والفاسقون :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

و ـ ثم استلم الراية سيد الأنبياء وخاتمهم وإمامهم بعد أن أمات المنحرفون حكم الله بالشهوة ، فكان أول من أحياه ، وكان أول من رجم بعد تغيير حكم الله من الرجم إلى التحميم والجلد . وحيث كان حكم الله تعالى على من بدّل وغير ولو حكماً واحداً فى كتاب الله أنهم الكافرون والفاسقون والظالمون . تأتى الآيات الكريمة لتخاطب سيد الخلق ، والأمة الوسط معه . والتى تتربى على يديه فى المسجد . تدعوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أن يحكم في هذه الأمة بهذا الكتاب المنزل من عند الله ، فهو صاحب

---

(١) المائدة / ٤٣ .
(٢) المائدة / ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) المائدة / ٤٦ ، ٤٧ .

الحكم الأخير ، والقرار الأخير على الكتب من قبله وهو أمين على كل كتاب قبله . فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل ، فهو الحاكم على ما قبله من الكتب ، وليس هناك إلا الحق والهوى . وحذّره من هذا العدو الذى جاء يحتكم إليه بالأمس ، والنصارى الذين لم يأتوه بعد . حذّره من اتباع هوى هذا العدو . فلكل شرعته ومنهاجه ، وليس الحذر عن تغيير الحكم كله ، بل الحذر أدق من ذلك ، ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (١) فهو الجاهلية :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء ، والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله . كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات بما يضعونها من آرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذى وضع لهم اليساق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية ، والنصرانية ، والملة الإسلامية وغيرها ؛ وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فيما بينهم شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير . قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أى : يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أى: ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به ، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها . فإنه تعالى هو العالم بكل

---

(١) المائدة / ٤٩ .

(٢) المائدة / ٤٨ ـ ٥٠ .

شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء) [1] .

١٠ ـ هذا وإن كانت الآيات الأخيرة يسوق لها المفسرون سبباً آخر ، يؤكد المعاني السابقة ذاتها ، فقد روى محمد بن إسحاق ، عن ابن عباس قال : (قال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن صوريا ، وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فأتوه فقالوا : يا محمد ، إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا . وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك ،فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدّقك . فأبى ذلك رسول الله ﷺ. فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ **وأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْك** ﴾ إلى قوله : ﴿ .. **لِقَوْمٍ يُوقِنُون** ﴾ [2] . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم) [3] .

فقد تربت هذه المئات من خلال هذه الآيات التي حفظتها ووعتها ، ورسخت في كيانها على أن الحق لا يترك لهوى ، وإلا فهو الكفر بعينه . وأي إغراء يفوق هذا العرض الذي يعرضه يهود ؟ أن يتابعوه جميعاً ويؤمنوا به ، مقابل حكم واحد يحكمه لهم على قومهم . فكان الرد القرآني الحاسم ﴿ **وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْك** ﴾ يقول سيد ـ رحمه الله ـ :

(والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون ، والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ماهم بمؤمنين . إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم ، وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه ، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء ! ومالم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية فلن يستقيم له ميزان ولن يتضح له منهج ، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح ... وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس ، فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا « المسلمين » وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم) [4] .

أما بالنسبة للجيل الأول جيل بدر . فقد حُسمت هذه القضية في نفسه . إذ شهد

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٩٠ .
(٢) المائدة / ٤٩ ، ٥٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٩٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٣ / ٩٠٥ .

التجربة وعاينها بذاته ،ورأى موقف قائده الحاسم فيها وشهد تنزل القرآن لأول مرة فى تحديدها وتوضيحها . وأصبح الجيل المؤتمن على تنفيذها ، وتبليغها للناس كافة واستعد لمواجهة الطواغيت من كل لون من أجلها ، وتعلّم أن قائده رفض إسلام اليهود جميعاً مقابل حكم واحد بغير ما أنزل الله. فبأى شىء يضحى بعدها أغلى من ذلك ؟

ثالثاً : جولة عالمية فى الآفاق .. مع سلمان :

عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن ابن عباس قال : حدثنى سلمان الفارسى قال :

(كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها : جى . وكان أبى دهقانها ، وكنت أحب خلق الله إليه . فلم يزل بى حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية . فاجتهدت فى المجوسية حتى كنت قاطن النار الذى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة ، وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، فشغل فى بنيان له يوماً . فقال لى : يا بنى إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب فاطّلعها ، وأمرنى ببعض ما يريد ، فخرجت ، ثم قال : لا تحتبس علىّ . فإنك إن احتبست علىّ كنت أهمَّ إلىّ من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى ، فخرجت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس بحبس أبى إياى فى بيته . فلما مررت بهم ، وسمعت أصواتهم دخلت إليهم أنظر ما يصنعون . فلما رأيتهم أعجبتنى صلواتهم ، ورغبت فى أمرهم . وقلت هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه . فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى ولم آتها . فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام . قال : ثم رجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أى بنى ! أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ماعهدت؟ قلت : يا أبة ! مررت بناس يصلون فى كنيسة لهم . فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس . قال : أى بنى ! ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه . قلت : كلا والله ! وإنه لخير من ديننا . قال : فخافنى فجعل فى رجلى قيداً ، ثم حبسنى فى بيته . قال: وبعثت إلى النصارى فقلت : إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبرونى بهم . فقدم عليهم ركب من الشام فأخبرونى بهم ، فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة ، فأخبرونى . ففعلوا . فألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام . فلما قدمتها . قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف فى الكنيسة . فجئته . فقلت : إنى رغبت فى هذا الدين ، وأحببت

أن أكون معك أخدمك فى كنيستك ، وأتعلم منك ، وأصلى معك . قال : ادخل . فدخلت معه . فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها . فإذا جمعوا إليه منها شيئاً اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع . ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه . فقلت لهم : إن هذا رجل سوء يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها . فإذا جئتم بها كنزها لنفسه ، ولم يُعط المساكين ، وأريتهم موضع كنزه سبع قلال مملوءة ، فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً ، فصلبوه ، ثم رموه بالحجارة .

ثم جاؤوا برجل جعلوه مكانه ، فما رأيت رجلاً - يعنى لا يصلى الخمس - أرى أنه أفضل منه ، أزهد في الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً ، ما أعلمنى أحببت شيئاً قط قبله حبه، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت : يافلان ! قد حضرك ماترى من أمر الله ، وإنى والله ما أحببت شيئاً قط حبّك . فماذا تأمرنى ، وإلى من توصينى ؟ قال : يابنى ! والله ما أعلمه إلا رجلاً بالموصل فائته ، فإنك ستجده على مثل حالى ، فلما مات وغيِّب لحقت بالموصل .

فأتيت صاحبها فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهد . فقلت له : إن فلاناً أوصانى إليك أن آتيك وأكون معك . قال : فأقم أى بنى . فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة فقلت له : إن فلاناً أوصى بى إليك ، وقد حضرك من أمر الله ماترى ، فإلى من توصى بى ؟ وما تأمرنى به ؟ قال : والله ما أعلم أى بنى إلا رجلاً بنصيبين .

فلما دفناه . لحقت بالآخر . فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت . فأوصى بى إلى رجل من أهل عمورية ، بالروم ، فأتيته فوجدته على مثل حالهم ، واكتسبت حتى كان لى غنيمة وبقيرات .

ثم احتضر فكلمته إلى من يوصى بى ؟ قال : أى بنى ! والله ما أعلمه بقى أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه . ولكن قد أظلك زمان نبى يبعث من الحرم ، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل ، وإنَّ فيه علامات لا تخفى ، بين كتفيه خاتم النبوة ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، فإن استطعت أن تخلص إلى هذه البلاد فافعل ، فإنه قد أظلَّك زمانه .

فلما واريناه أقمت حتى مر بى رجال من تجار العرب من كلب ، فقلت : تحملونى إلى أرض العرب ، وأعطيكم غنيمتى وبقراتى هذه ؟ قالوا : نعم . فأعطيتهم إياها وحملونى . حتى إذا جاؤوا وادى القرى ظلمونى فباعونى عبداً لرجل يهودى بوادى

القرى فوالله لقد رأيت النخل ، وطمعت أن يكون البلد الذى نعت لى صاحبى .

وما حقَّت عندى حتى قدم رجل من بنى قريظة وادى القرى ، فابتاعنى من صاحبى ، فخرج بى حتى قدمنا المدينة . فوالله ماهو إلا أن رأيتها فعرفت نعتها .

فأقمت فى رقى وبعث الله نبيه ﷺ بمكة لا يذكر لى شىء من أمره مع ما أنا فيه من الرق حتى قدم رسول الله ﷺ قُباء . وأنا أعمل لصاحبى فى نخلة له . فوالله إنى لفيها إذ جاءه ابن عم له فقال : يافلان ، قاتل الله بنى قيلة ، والله إنهم لفى قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة يزعم أنه نبى . فوالله ماهو إلا أن سمعتها فأخذتنى العرواء ـ يقول الرعدة ـ حتى ظننت لأسقطن على صاحبى،ونزلت أقول ما هذا الخبر ؟ فرفع مولاى يده فلكمنى لكمة شديدة . وقال : ما لك وهذا . أقبل على عملك . فقلت : لا شىء . إنما سمعت خبراً فأحببت أن أعلمه .

فلما أمسيت ، وكان عندى شىء من طعام . فحملته ، وذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فقلت له : بلغنى أنك رجل صالح ، وأن معك أصحاباً لك غرباء . وقد كان عندى شىء من الصدقة فرأيتكم أحق من بهذه البلاد . فهاك هذا . فكل منه . قال : فأمسك ، وقال لأصحابه : كلوا ، فقلت : فى نفسى : هذه خلة مما وصف لى صاحبى .

ثم رجعت ، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة . فجمعت شيئاً كان عندى ثم جئته به فقلت : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية . فأكل رسول الله ﷺ ، وأكل أصحابه فقلت : هذه خلتان .

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة . وعلىّ شملتان لى . وهو فى أصحابه فاستدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذى وصف . فلما رآنى استدبرته عرف أنى أستثبت فى شىء وصف لى فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته . فانكببت عليه أقبله وأبكى .

فقال لى : « تحوّل » . فتحوّلت . فقصصت عليه حديثى . كما حدثتك يابن عباس . فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه .

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأحدٌ .

ثم قال رسول الله ﷺ : « كاتب ياسلمان » ، فكاتبت صاحبى على ثلاث مائة نخلة أُحييها له بالتفقير (١) وبأربعين أوقية . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أعينوا

---

(١) التفقير : الحفر .

أخاكم » . فأعانونى بالنخل الرجل بثلاثين ودية [(١)] ، والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة حتى اجتمعت ثلاثمائة ودية فقال : « ياسلمان اذهب ففقّر لها ، فإذا فرغت فائتنى أكون أنا أضعها بيدى » . ففقرت لها وأعاننى أصحابى حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته . فخرج معى إليها نقرّب إليه الودىَّ ويضعه بيده ، فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة . فأديت النخل ، بقى علىّ المال . فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازى . فقال : « مافعل الفارسى المكاتب ؟ » فدُعيت له . فقال : « خذها فأدّ بها ما عليك » قلت : أين تقع هذه يارسول الله مما علىّ ؟ قال: « خذها فإن الله سيؤدى بها عنك » فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية ، وأوفيتهم حقها. فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حراً ثم لم يفتنى معه مشهد)[(٢)] .

* * *

١ ـ إننا أمام نموذج جديد من خارج الأرض العربية ، ونفسية وعقلية جديدة انضمت إلى الرعيل الأول ، ولم يهيأ لها أن تشارك فى بدر ولكنها من هذا الجيل السعيد ، الجيل الذى صلى القبلتين . من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وهو شخصية قيادية ولا شك . نختم الحديث بها عن هذه المرحلة .

٢ ـ إنه ابن نعمة وترف . كان يعامل فى بيته كما تعامل الجارية . فهو ابن دهقان قريته ، وهو ابن عقيدة جديدة ، عقيدة المجوس عبدة النار . ولد فى بيئة تختلف اختلافاً بيناً عن البيئة العربية وهى معرّقة فى الحضارة . إذا قيست بالمجتمع العربى الصحراوى . فالانتساب إلى الفرس آنذاك انتساب لدولة عالمية عريقة تحكم أكثر من نصف الأرض ، يخشى بأسها وتتقى سطوتها .

كما شهدنا فى جواب وفد شيبان لرسول الله ﷺ :

(أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب. وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً . ولعل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما تكرهه الملوك . فأما ما كان يلى بلاد العرب . فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وأما إن كان مما يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول. فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى العرب فعلنا. .)[(٣)].

٣ ـ لكننا نشهد نموذجاً حياً فى حرصه على الحق ، والسعى للوصول إليه. ما لم

---

(١) الودية : جمع ودى ، صغار النخل .

(٢) سير أعلام النبلاء : ١ / ٥٠٦ ـ ٥١١ ، وقال المحقق فيه : رجاله ثقات ، وإسناده صحيح . فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث ،وأخرجه أحمد ٥ / ٤٤١ ،وابن سعد ٤ / ١ / ٥٣ ـ ٥٧ والجزرى فى أسد الغابة ٢ / ٤١٧ ـ ٤١٩ ،وابن هشام ،والطبرانى فى الكبير برقم ٦٠٥٦ . وانظر مجمع الزوائد ٩ / ٣٣٦ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ١٥٧ ـ ١٥٩ .

نشهد مثيله عند أحد . ونشهد فيه كذلك صفاء فطرة ، وصدق طوية ، لا نكاد نشهد مثلها عند أحد . فهو لا يعرف الكذب . ومنذ أن التقى مع النصارى أخبر أباه وصارحه بأن دين النصارى خير من دينه ، ولقى فى سبيل الله منذ اللحظات الأولى فى حياته السجن فى الوقت الذى كان يلقى فيه المستضعفون فى مكة التعذيب والسجن . وهاجر هجرته الأولى إلى الشام سعياً وراء الحقيقة . وطلباً للدين الحق ، وتفرّغ لخدمة الأسقف الأكبر ، حرصاً على الوصول إلى النور .

٤ - وحرىٌّ به وقد رأى هذا النموذج السيئ من حملة هذا الدين أن يرتد ويعود أدراجه إلى بلده منذ الصدمة الأولى . لكنه كان فى عقله أكبر بكثير من عاطفته . لقد دخل هذا الدين عن بينة واستطاع أن يفرّق بين دعاته ومدعيه . ولم يُطق أن يسكت على هذا الزهد الكاذب . فأخبر قومه بعد موت الأسقف بقلال الذهب والفضة التى اكتنزها لنفسه ، حيث كانت تعطى له ليتصدق بها على الفقراء والمساكين . مما أدى إلى صلبه ورجمه بعد وفاته .

٥ - وحين التقى بالنموذج الحى الذى يصادق قوله فعله ، أعطاه قلبه وثمرة فؤاده، فلم يحب أحداً مثل حبه لهذا الخلف الجديد بعد سلفه الخبيث الدنس. ومحّضه حبه كله . ثم أحس بفراق أعز الناس عليه وقد حضره الموت فرجاه أن يوصى به إلى من يحب . فقال له : (يا بنى ، والله ما أعلمه إلا رجلاً بالموصل فائته . فإنك ستجده على مثل حالى) .

٦ - ومضى سلمان بنا يطوّف بالآفاق بحثا وراء الحق ، وطلباً للحقيقة ، وسعياً للسعادة والنجاة فى الآخرة يتنقل بين الشام والعراق وتركية . فى بلاد الروم وأرض العرب . حيث عرف من صاحب عمورية أن الأرض خلت من دعاة الحق . وأصبحت ظلمة كاملة. تنتظر النور الوضيء أن يخرج من جزيرة العرب. قال له صاحب عمورية :

(أى بنى ، والله ما أعلمه بقى أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه . لكن قد أظلك زمان نبى يبعث من الحرم . مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل ، وإن فيه علامات لا تخفى . . .) .

٧ - حين لم يجد حلاً ليصل إلى هذا النبى الأسعد إلا أن يضحى بثروته التى جمعها فعل ، فلم تَحُلْ بقراته وغنيماته دون تحركه وهجرته ، بل قدمها ثمناً للوصول إلى أرض العرب ، وجيران الحرم ، حيث ينبعث منها النبى المنتظر ، وأصبح هدفه الذى ملك عليه حياته هو الوصول إلى الأرض ذات الحرتين ، الأرض السبخة ذات النخل . وعقد صفقته مع التجار من كلب ليحملوه إلى أرض العرب مقابل أخذهم

بقراته وغنيماته .

٨ ـ ومقابل هذا الكفاح العظيم والسعى الحثيث للوصول إلى منبع النور ، ذاق مرارة الرق لأول مرة . وكم هو صعب على السيد الحر الأبى أن يسترق . ولهذا كانت هذه من أكبر الكبائر فى الإسلام .

وراحوا يتلهون به فيبيعونه فى أسواق الرقيق ، ليجد نفسه مساقاً إلى اليهود فى وادى القرى . ونسى كل آلام رقه ، يوم رأى النخل لأول مرة . فهفت نفسه أن صار بجوار مبعث النور ، والمجرمون العتاة بجوار رسول الله ﷺ ، أبو جهل وأبو لهب وأضرابهما يجتهدون فى إطفاء نور الله بأفواههم . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون ، ولو كره الكافرون .

٩ ـ ومن رق إلى رق ، ومن رب إلى رب ، ومن غل إلى غل حتى انتهى به المطاف فى يثرب . فإذا الأرض السبخة ذات الحرتين ، ذات النخل فباع نفسه لله ، وقرر الانتظار لوصول النور إلى يثرب ، وقدوم النبى المهاجر إليها . وما أحلى الرق وأغلاله إذا رافقه سبحات الروح فى آفاق الوجود بحثاً عن الهدى الربانى . فروح سلمان رضي الله عنه تجوب الوجود كله ، ولو كان جسمه يئن من متاعب الرقيق وأغلاله . إنه يسبح هائماً فى الكون يتطلع إلى لحظة انبثاق النور ، واتصال ذاته بهذا النور الإلهى المتلألئ الذى هجر من أجله الأهل والوطن والعشيرة والقوم والجنس .

١٠ ـ وكانت اللحظة السعيدة التى طرقت مسامعه . فكاد من شدة الصدمة أن يفقد صوابه فقد وصل النبى المهاجر :

(فوالله إنى لفيها إذ جاءه ابن عم له فقال : يا فلان ، قاتل الله بنى قيلة ، والله إنهم لفى قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة يزعم أنه نبى . فو الله ما هو أن سمعتها فأخذتنى العرواء ، حتى ظننت لأسقطن على صاحبى ، ونزلت أقول . ما هذا الخبر ؟) إنها انتفاضة الإيمان الأولى التى مست كيانه كله فسرى فيها تيار كهرباء الحقيقة التى جعلته يرتعد حتى كاد أن يسقط ، فقوة التيار صدمت كيانه كله . فماذا تفعل لكمة على وجهه تقول له :

ما لك وهذا ، أقبل على عملك . قلت : لا شىء سمعت خبراً ، فأحببت أن أعلمه .

١١ ـ والذى جاب الشرق كله من فارس والروم والعرب . فهل تحمله نفسه أن ينتظر قبل أن يرى النور ، وهو على بعد خطوات منه . وسرعان ما التمعت فى ذهنه

تلك المواصفات الثلاث . يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة . فأخذ طعاماً . وفى رواية ـ فسألت أهلى أن يهبوا لى يوماً . ففعلوا فخرجت فاحتطبت. فبعته بشىء يسير ، ثم جئت بطعام اشتريته ، فوضعته بين يدى رسول الله ﷺ . فقال : « ما هذا ؟ » فقلت : صدقة فأبى أن يأكل ، وأمر أصحابه فأكلوا . وكان العيش يومئذ عزيزاً ، فقلت : هذه واحدة.

١٢ ـ لكن أنى له أن يجرب الثانية . وأنى لسيده . أو سيدته فى بعض الروايات أن تسمح له بأن يعمل لنفسه يوماً آخر . وبقيت الحسرة محبوسة فى قلبه ، حتى استأذن إذنه الثانى ، وأخذ اليوم الجديد ليحتطب فيه ، ويأتيه وقد قدم المدينة ﷺ ونزل فى دار أبى أيوب الأنصارى يأتيه الغلام الفارسى. ويتفحصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيراه كنزاً من كنوز الأرض ، لابد أن يظهر عن قريب (فقلت لأهلى هبوا لى يوماً . فوهبوا لى يوماً . فخرجت فاحتطبت فبعته بأفضل مما كنت بعت به ـ يعنى الأول . فاشتريت طعاماً ، ثم جئت ، فوضعته بين يدى رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا ؟ » قلت : هدية . قال : « كلوا » وأكل فقلت : هذه أخرى) أو (هذه خلتان) .

١٣ ـ ورغم كل حماسه . وحرصه ولهفته التى كادت تقتله لا يزال مصراً على التثبت من الحقيقة التى انبلجت كلها أمامه . فهو يريد أن يرى الخلة الثالثة . (ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعلى شملتان لى وهو فى أصحابه .فاستدرت أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف . فلما رآنى استدبرته عرف أنى استثبت فى شىء وصف لى . فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته) .

ولا يبعد أن تكن الجنازة . جنازة أسعد بن زرارة رضي الله عنه الفاتح الأول للمدينة بالإسلام والذى وافاه أجله ـ كما تقول بعض الروايات ـ مع بناء المسجد ، فهى الأيام الأولى فى المدينة ، وما نعتقد أن أعصاب سلمان تحتمل تأخراً أكثر من ذلك . وقلبه ، ونفسه الطلعة . تحثانه على اليقين النهائى فى الوصول إلى الحقيقة .

١٤ ـ « فانكببت عليه أقبله وأبكى » . إنه منظر مؤثر . يشد الأنظار شداً . فما بال هذا الغلام الفارسى ينكب على رسول الله ﷺ يقبله ويبكى ؟ ! لقد تعلقت أنظار الصحب به وهم يرون عظمة جديدة . تنضم إلى هذه العظمات . ومعجزة تنضم إلى هذه المعجزات فهم كل ساعة فى حدث جديد ، ونصر جديد.

فقال لى : « تحول » فتحولت ، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يابن عباس . فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه .

إن عداساً يوم أكبّ على رسول الله ﷺ يقبله ويبكى . لم يره إلا الشقيقين عتبة

ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، اللذين حرما هذا النور وناله رجل من نينوى ، وشهد له بالرسالة . أما الآن فالأصحاب ينوفون عن المائة ، وقد يقاربوا المائتين ، وقد اجتمعوا جميعاً لوداع أخ حبيب فارقهم إلى مثواه الأخير ، هاهم يستمعون إلى الأرض كلها . تهتز طرباً بقدوم محمد ﷺ . وهاهم يسمعون مباشرة من رجل الآفاق العالمى الذى تنقل بين فارس والروم والعرب . وكلهم قادوه إلى هذا النور الذى يستضيئون منه هذه اللحظات ، هاهم يرون فى سلمان وهو يحدثهم عن جولته فى الآفاق . أن عصارة الرسالات السماوية انتهت كلها إلى هنا ، إلى منبع النور ، إلى هذا المسجد الذى بنوه بسواعدهم . من الموصل ، ونصيبين ، وعمورية ، والشام كلهم قادوا سلمان ودلوه على منبع النور .

كيف ينقلب هذا الجيل بهذه السعادة . وكيف يستطيع اليهود الحاقدون أن يندوا من هذه الحقيقة . بعد أن فضحهم سيدهم عبد الله بن سلام . وشهد لمحمد ﷺ بالرسالة. وشهد الإجابات التى لا يجيب عنها إلا نبى .

وها هى النصرانية فى الأرض ممثلة بشخص سلمان الفارسى تأتى كلها تجثو بين يدى نبيها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ تشهد له بالرسالة . وقد رأى الخلات الثلاث محققة فيه .

إنها بؤر النور تغزو هذه القلوب العامرة بالإسلام . فتأتى شهادات من أقصى الأرض أن هذا هو النبى المنتظر ، وأنهم هم صحبه وأنصار . وفى عالم التربية كم تختصر هذه الحادثة من الزمن . لتملأ هذه القلوب بالرضا واليقين والإيمان . وتجعل منهم الجند الفدائيين والقادة المستبصرين والمؤمنين المنضبطين الملتزمين .

١٥ ـ ويمر الزمن طويلاً بطيئاً على سلمان . قلبه يخفق مع المؤمنين ، وروحه تحلّق معهم ، وجسده مصهور بأغلال الرق والعبودية ، وتفوته بدر وأحد. ورسول الله ﷺ قائده يرنو إليه بقلبه وروحه . فيقول « كاتب يا سلمان » .

وكانت المكاتبة التى تحتاج إلى عمرٍ جديد لسلمان حتى يتمكن من الوفاء بها ، ثلاثمائة نخلة تزرع ، وأربعين أوقية من الذهب .

ولكن هذا العمر ، وهذا الزمن الذى يحتاج إلى سنوات طوال ، واختصره المربى العظيم، والقائد الحبيب إلى أيام بكلمة واحدة نطق بها فمه الشريف: « أعينوا أخاكم » .

فإذا المجتمع الإسلامى كله سلمان ، وإذا النخل الثلاثمائة من المجتمع الإسلامى يحضر فى أيام أو ساعات . لكن أين الجهد البشرى للحفر والزرع .

وتقاسماه معاً ، فعلى سلمان الحفر ، وعلى سيد الخلق الزرع ، فهو بيده الشريفة - عليه الصلاة والسلام - يزرع ثلاثمائة نخلة . وفى بعض الروايات عن سلمان :

(فكاتبت أهلى أن أغرس لهم خمسمائة فسيلة ، فإذا عَلقت فأنا حر . فقال النبى ﷺ إذا أردت أن تغرس فآذنى . فآذنته . فغرس بيده إلا واحدة غرستها ، فيعلق الجميع إلا الواحدة التى غرست) [١] . إنه - عليه الصلاة والسلام - لم يغرس فقط خمسمائة نخلة إنما غرس خمسمائة من أصحابه فإذا هم قادة الأرض و سادة الوجود .

﴿ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [٢] .

وهؤلاء هم بين يديه ، ومن غرسه عليه الصلاة والسلام .

ثم كانت البيضة من الذهب التى تقالَّها سلمان فقال : « ما فعل الفارسى المكاتب؟» فدعيت له ، فقال : « خذها فأد بها ما عليك ». قلت : وأين تقع هذه يارسول الله مما على قال : « خذها فإن الله سيؤدى بها عنك » . فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية وأوفيتهم حقهم وعتقت ، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حراً ، ثم لم يفتنى منه مشهد .

١٦ - إنها الولادة الجديدة لسلمان العبقرى العظيم ليمارس الآن دوره ومسؤولياته فى المجتمع الإسلامى . ومن حقه علينا أن نقدم صورة - ولو مختصرة - لترجمته ونحن نتحدث عن جيل القادة :

أ - لقد تفتقت عبقريته رضي الله عنه منذ اللحظات الأولى التى شارك فيها جندياً فى الجيش الإسلامى عن عملية حفر الخندق ، هذه الخطة الحربية التى أذهلت قريشاً فقالت :

إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها .

وصدقوا وهم كاذبون . فهذه طاقات فارسية جديدة انضمت إلى الطاقات العربية فقدمت هذه الخطة ، وأمر رسول الله ﷺ على التو بتنفيذها .

ب - وفى غزوة الأحزاب، نال أعظم قلادة فى حياته: « سلمان منا أهل البيت » :

(فعن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف ، عن أبيه ، عن جده أن النبى ﷺ خط الخندق عام الأحزاب فاحتج المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً . فقال المهاجرون : منا سلمان وقالت الأنصار : سلمان منا . فقال النبى ﷺ :

---

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٤٤٠ وابن سعد ٤ / ١ / ٥٧ .   (٢) الفتح / ٢٩ .

« سلمان منا أهل البيت » كثير متروك) (١) .

جـ ـ لئن أغضبتهم لقد أغضبت ربك : فعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان مر على سلمان وبلال وصهيب (٢) فى نفر فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها . فقال أبو بكر : تقولون هذا لشيخ قريش وسيدها ؟ ! ثم أتى النبى ﷺ فأخبره. فقال: « يا أبا بكر ؛ لعلك أغضبتهم ،لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك » . فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا يا أبا بكر ، يغفر الله لك) (٣) والصدّيق رضي الله عنه الرجل الأول فى الأمة . وشيخ المسلمين ، وخير من طلعت عليه الشمس بعد النبيين والمرسلين يهدده ـ عليه الصلاة السلام ـ أن لو أغضب هؤلاء المستضعفين فقد أغضب ربه ، فيذهب رضي الله عنه يسترضيهم .

د ـ أحباب الله الأربعة : فعن ابن بريدة مرفوعاً : « إن الله يحب من أصحابى أربعة ، وأمرنى أن أحبهم : على ، وأبو ذر ، وسلمان ، والمقداد) (٤) .

هـ ـ وتشتاق الجنة لثلاثة : (فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « الجنة تشتاق إلى ثلاثة : على ، وعمار ، وسلمان) (٥) .

و ـ وهو بحر لايدرك قعره فى العلم : (فعن أبى البخترى قال : قيل لعلى : أخبرنا عن أصحاب محمد ﷺ. قال: عن أيهم تسألون ؟ قيل : عن أبى عبد الله . . . . قالوا : سلمان : قال: أدرك العلم الأول والعلم الآخر . بحر لايدرك قعره . . . وهو منا أهل البيت . .) (٦) .

ز ـ وهو وريث هذ العلم : (فعن أبى هريرة أن النبى ﷺ تلا هذه الآية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُم ﴾ (٧) قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ قال : فضرب على فخذ سلمان الفارسى ثم قال : « هذا وقومه ، لو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٤٠ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه ابن سعد والحاكم عن طريق ابن أبى فديك عن كثير عن أبيه عن جده » . وقال الذهبى : سنده ضعيف .

(٢) سلمان سابق الفرس ، وبلال سابق الحبشة ، وصهيب سابق الروم .

(٣) أخرجه أحمد ٥ / ٦٤ ، ومسلم (٢٥٠٤) فى الفضائل .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٥٤٠ وقال المحقق فيه : أخرجه الترمذى فى المناقب (٣٧٢٠) وقال : «حديث حسن غريب » .

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ /٥٤١ ، وقال المحقق فيه : أخرجه الترمذى فى المناقب (٣٧٩٨) وقال : «حديث حسن غريب » .

(٦) المصدر نفسه ١ / ٥٤١ ، وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات » .

(٧) محمد / ٣٨ .

الفرس » . إسناده وسط) (١) .

ح - وهو ميزان أمير المؤمنين : فعن ثابت قال : كتب عمر إلى سلمان : أن زرنى، فخرج سلمان إليه ، فلما بلغ عمر قدومه قال : انطلقوا بنا نتلقاه . فلقيه عمر، فالتزمه وساءله ورجعا ، ثم قال عمر : يا أخى ، أبلغك عنى شىء تكرهه؟ قال : بلغنى أنك تجمع على مائدتك السمن واللحم ، وبلغنى أن لك حلة تلبسها فى أهلك ، وأخرى تخرج فيها . قال : هل غير هذا ؟ قال لا . قال : كفيت هذا (٢) .

ط - سلمان القائد : (فعن عبيدة السلمانى أن سلمان مر بحجر المدائن غازياً وهو أمير الجيش ، وهو ردف رجل من كندة على بغل موكوف . فقال أصحابه : أعطنا اللواء أيها الأمير . فيأبى حتى قضى غزاته ورجع وهو ردف الرجل) (٣) .

هذا الجيل الذى رباه رسول الله ﷺ يقود الدنيا ، ويفتح الفتوح ، واللواء بيده وهو يركب خلف جندى من جنوده طيلة الغزو . فأى طراز من الرجال هؤلاء الذين أذلوا الدنيا . فانقادت لهم ذليلة ؟ !

ى - سلمان الأمير : (عن حبيب أو هذيم قال : رأيت سلمان الفارسى على حمارٍ عرى ، عليه قميص سنبلانى ضيق الأسفل ، وكان طويل الساقين يتبعه الصبيان. فقلت لهم : تنحوا عن الأمير . فقال:دعهم فإن الخير والشر فيما بعد اليوم)(٤) .

ك - وسلمان الأمير الأجير : (جرير بن حازم : سمعت شيخاً من بنى عبس يذكر عن أبيه قال : أتيت السوق فاشتريت علفاً بدرهم . فرأيت سلمان لا أعرفه، فسخرته . فحملت عليه العلف. فمرّ بقوم. فقالوا :نحمل عنك يا أبا عبد الله، فقلت : من ذا ؟ قالوا هذا سلمان صاحب رسول الله ﷺ . فقلت له : لم أعرفك ، ضعه . فأبى حتى أتى المنزل) (٥) .

ل - لباسه وطعامه ومنامه : (عن الحسن قال : كان عطاء سلمان خمسة آلاف . وكان على ثلاثين ألفاً من الناس يخطب فى عباءة يفرش نصفها . ويلبس نصفها ، وكان إذا خرج عطاؤه أمضاه ويأكل من سفيف يده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (٦) .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٥٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٥٤١ ، وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات لكنه منقطع » .

(٣) المصدر نفسه / ٥٤٦ ، وقال المحقق : « رجاله ثقات » .

(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٤٦ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه ابن سعد » ٤ / ١ / ٦٣ .

(٥) المصدر نفسه ١ / ٥٤٦ .

(٦) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٤١ : وأخرجه ابن سعد ، وأبو نعيم ، وانظر : (الاستيعاب) و (الإصابة) و (أسد الغابة) .

م ـ ميزانيته : (عن النعمان بن حميد قال : دخلت مع خالى على سلمان بالمدائن وهو يعمل الخوص فسمعته يقول : اشترى خوصاً بدرهم . فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم. فأعيد درهماً فيه . وأنفق درهماً على عيالى ، وأتصدق بدرهم . ولو أن عمر نهانى عنه ما انتهيت) (١) .

ن ـ مسكنه : (عن مالك أن سلمان كان يستظل بالفيء حيثما دار ، ولم يكن له بيت فقيل له:ألا نبنى لك بيتاً تستكن به ؟ قال : نعم . فلما أدبر القائل سأله سلمان : كيف تبنيه ؟ قال : إن قمت فيه أصاب رأسك ، وإن نمت أصاب رجلك) (٢) .

س ـ بم يخفق قلبه ؟ (عن جرير بن عبد الله قال : نزلت بالصفاح فى يوم شديد الحر . فإذا رجل نائم فى حر الشمس يستظل بشجرة معه شيء من الطعام ، ومزودة تحت رأسه ، ملتف بعباءة ، فأمرته أن يظلّل عليه . ونزلناه فانتبه فإذا هو سلمان فقلنا له : ظللنا عليك وما عرفناك . قال : يا جرير ، تواضع فى الدنيا فإنه من تواضع لله يرفعه الله يوم القيامة ، ومن يتعظم فى الدنيا يضعه الله يوم القيامة ، لو حرصت على أن تجد عوداً يابساً فى الجنة لم تجده . قلت : وكيف؟ قال : أصول الشجر ذهب وفضة، وأعلاها الثمار ، يا جرير ! تدرى ما ظلمة النار ؟ قلت : لا . قال : ظلم الناس) (٣) .

ع ـ سلمان وأخوه أبو الدرداء : (عن حميد بن هلال قال : أوخِيَ بين سلمان وأبى الدرداء . فسكن أبو الدرداء الشام. وسكن سلمان الكوفة وكتب أبو الدرداء إليه : سلام عليك ، أما بعد . فإن الله رزقنى بعدك مالاً وولداً ، ونزلت الأرض المقدسة . فكتب إليه سلمان : اعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد . ولكن الخير أن يعظم حلمك وأن ينفعك علمك . وإن الأرض لا تعمل لأحد . اعمل كأنك تُرى . واعدد نفسك من الموتى) (٤) .

ف ـ سلمان وضيوفه : (عن أبى وائل قال : ذهبت أنا وصاحب لى إلى سلمان فقال : لولا أن رسول الله ﷺ نهانا عن التكلف لتكلفت لكم . فجاءنا بخبز وملح . فقال صاحبى . لو كان فى ملحنا صعتر . فبعث سلمان بمطهرته ، فرهنها فجاء بصعتر . فلما أكلناه قال صاحبى : الحمد الله الذى قنعنا بما رزقنا . فقال سلمان : لو قنعت لم تكن مطهرتى مرهونة) (٥) .

(١ ، ٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٤٧ .

(٣) المصدر نفسه / ٥٤٨ ، والصفاح موضع بين حنين وأنصاب الحرم .

(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٤٨ ، وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات لكنه منقطع » .

(٥) المصدر نفسه ١ / ٥٥١ .

ص - بلاغته وأدبه : (عن أبى عثمان النهدى أن سلمان كان لايفقه كلامه من شدة عجمته . قال وكان يسمى الخشب خشبان). تفرد به الثقة يعقوب الدورقى عنه . وأنكره أبو محمد بن قتيبة - أعنى عجمته - ولم يصنع شيئاً فقال: له كلام يضارع كلام فصحاء العرب .

قلت : وجود الفصاحة لاينافى وجود العجمة فى النطق . كما أن وجود فصاحة النطق عند كثير العلماء . غير محصل للإعراب) (١) .

ق - على فراش الموت : (عن ثابت البنانى قال : لما مرض سلمان خرج سعد من الكوفة يعوده ، فقدم فوافقه وهو فى الموت يبكى فسلم وجلس ، وقال : ما يبكيك يا أخى ؟ ألا تذكر صحبة رسول الله ﷺ ؟ ألا تذكر المشاهد الصالحة ؟ قال : والله ما يبكينى واحدة من اثنتين . ما أبكى حبا بالدنيا ولا كراهة للقاء الله . قال سعد : فما يبكيك بعد ثمانين ؟ قال : يبكينى أن خليلى عهد إلىّ عهداً قال : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الركب » وإنا خشينا أنا قد تعدينا . وأما أنت يا سعد ، فاتق الله فى حكمك إذا حكمت وفى قسمك إذا قسمت وعند همك إذا هممت . قال : ثابت : فبلغنى أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهماً نفيقة كانت عنده) (٢) .

ر - إلى المثوى الأخير : (عن بقيرة امرأة سلمان أنها قالت : لما حضره الموت دعانى وهو فى علية لها أربعة أبواب . فقال : افتحى هذه الأبواب فإن لى اليوم زواراً لا أدرى من أى هذه الأبواب يدخلون على . ثم دعا بمسك فقال : أديفيه فى تور ثم انضحيه حول فراشى. فاطلعت عليه فإذا هو قد أخذ روحه فكأنه نائم على فراشة) (٣) .

قال الواقدى : (مات سلمان فى خلافة عثمان بالمدائن . وقال أبو عبيد وشباب فى رواية عنه وغيرهما توفى سنة ست وثلاثين بالمدائن . قال شباب : سنة سبع . وهو وهم فما أدرك سلمان الجمل ولا صفين) (٤) .

نهايتان متشابهتان : أبو ذر وسلمان .

وكما شهدنا وفاة سلمان . نشهد وفاة أبى ذر رضي الله عنه إذ يقول الحلحال ابن ذرى : (فمال ابن مسعود إليه وهو يبكى فغسلناه وكفناه . وإذا خباء منضوح مسكاً . فقلنا

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٥٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، وقال المحقق فيه : « حديث صحيح » .

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٥٥٣ . وذكره الهيثمى فى المجمع ٩ / ٣٤٤ « وقال : رواه الطبرانى من طريق الجزل عن بقيرة ولم أعرفهما وباقى رجاله ثقات » .

(٤) المصدر نفسه ١ / ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

للمرأة ما هذا ؟ قالت : كانت مسكة فلما حضر قال :

إن الميت يحضره شهود يجدون الريح ولا يأكلون ، فدوِّفى [1] تلك المسكة بماء ثم رشى به الخباء فأقريهم [2] ريحها ، ثم اطبخى هذا اللحم ، فإنه سيشهدنى قوم صالحون يلون دفنى ، فأقريهم ، فلما دفناه وقمنا إلى الطعام فأكلنا ، وأردنا احتمالها . فقال ابن مسعود : أمير المؤمنين قريب نستأمره . فقدمنا مكة فأخبرناه بالخبر . فقال : يرحم الله أبا ذر ويغفر له نزوله الربذة . ولما صدر خرج فأخذ طريق الربذة فضم عياله إلى عياله وتوجه نحو المدينة ، وتوجهنا نحو العراق) [3] .

إنهما مدرسة واحدة فى الزهد . لكنهما افترقا بين الزُّهدِ الحاكم والأمير، وبين الزهد الداعية .

وأخيراً :

ونحن نودع جيل بدر لا يعنى أن التربية انتهت هناك . إنما يعنى أن هذه النماذج من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هى التى تلقت القدر الأعظم من التربية النبوية ، وسنمضى معها ومع غيرها فى المراحل اللاحقة . خاصة من بقى حياً ولم يستشهد . وكان له دور فيما بعد فى الفتوح والحكم ، ومثَّل الصورة الحية للإسلام ، والتى تربى فيها على يدى قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ لنجد فيما بعد جيلاً جديداً ينضم إلى هذا الجيل هو جيل الحديبية والذى لا نعرف إلا الأفراد القلائل منه إضافة إلى الطبقة الثالثة من المهاجرين والأنصار من سادة قريش وقادتها . من أسلم منهم قبل الفتح وبعده . نتابع كل العمليات التربوية العظيمة خلال هذه المرحلة . لعل المنهج تتضح معالمه أكثر فأكثر . والله المسؤول أن يهدينا سواء السبيل . وينفعنا بما علمنا ، ويجعله ذخراً لنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ويجعله ، نبراساً للأجيال الإسلامية تنسج على منواله وتبنى على خطته فى الجولة القادمة للإسلام ، إنه أكرم مسؤول .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مكة المكرمة غرة المحرم ١٤١٣ هـ

منير محمد الغضبان

---

(١) دوفى : دوِّبى .

(٢) أقريهم : ضيفيهم .

(٣) تاريخ الطبرى ٤ / ٢٠٧ .

الفهرس

رقم الإيداع : ١١٠١١ / ١٩٩٧ م
I.S.B.N:977-15-0213-1

هذا الكتاب

★ مما لا شك فيه أنه توجد أعداد وفيرة ضخمة تملأ كل فج، جاهزة للتضحية والبذل، تتوقد حماسا وحيوية أن ترى الإسلام يسود، لكنها تحتاج إلى القائد المبصر، والرائد الحكيم الذى يقود بها فى لجج البحار، فيكون الريان الماهر الذى يقودها إلى شاطىء السلامة، ويحقق بها موعود الله فى الأرض.

★ ولإيجاد هذا القائد لا بد من الوقوف بين يدى المصطفى ﷺ قائد ركب الإيمان فى الوجود والنظر إلى الجيل الذى صاغه حتى كان - أى جيل الصحابة - من كبار القادة الذى نقل روح النبوة وهديها إلى كل أرجاء الوجود، فحكموا بهذا الهدى، وأضاؤا الوجود بهذا النور.

★ وهذا الكتاب - بأجزائه الأربعة - يضع أيدينا على المنهج الذى ربى به النبى ﷺ أصحابه حتى أصبحوا جيلاً قيادياً فذاً عز نظيره فى التاريخ.

★ والذين يحملون عبء قيادات العمل الاسلامى فى الارض مدعوون إلى الوقوف على هذه التربية وهو ما يهدف إليه هذا الكتاب.

ودار الوفاء

يسرها أن تقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام، رجاء أن يعم به النفع، ويهدى به الله إلى أقوم سبيل،،

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة: شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠

المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠

E-Mail: DAR ELWAFA@HOTMAIL.COM